
COLUMBIA UNIVERSITY
THE
LIBRARIES
IN THE CITY OF NEW YORK

كتاب

الساق على الساق

في ما هو الفارياق

او

ايام وشهور واعوام في عجم العرب والاعجام

تأليف العبد الفقير الى ربه الرزاق فارس بن يوسف الشدياق

تأليف زيد وهند في زمانك ذا اشهى الى الناس من تأليف سفرين

ودرس نورين قد شدا الى قرن اقني واقع من تدريس حبرين

عني بنشره

يوسف توما البستاني

صاحب مكتبة العرب بمصر

LA VIE ET LES AVENTURES DE FARIAC

RELATION DE SES VOYAGES

AVEC SES OBSERVATIONS CRITIQUES

Sur les Arabes et sur les autres peuples

Par FARIS EL-CHIDIAC

Butlstax
PJ
7862
H48
S2
V.1

كلمة للناشر

هذا كتاب الساق على الساق في ما هو الفارياق [1] طبع اولاً في باريس منذ نحو اربعة وستين عاماً وحيث قد أصبح نادراً عزيزاً ندرة الكنوز وهو الكنز الثمين أبيت الا نشره خدمة لآل العلم والفضل واحياء لذكر مؤلفه الشيخ احمد فارس الشدياق اللغوي الشهير الذي طبقت شهرته الآفاق لما بذله في سبيل الدرس والتأليف والانشاء والتصنيف فسالت بكتبه البلدان وسارت بذكره الركبان وهو هو صاحب الجوائب ومطبعتها الشهيرة سابقاً بالاستانة

فلنا ثقة وثيقة بانه يصادف من ابناء العرب اقبالاً يقابل ما بنا من الرغبة في خدمة هذه اللغة الشريفة التي وقفنا انفسنا على اعلاء منارها واحياء آثارها

مصر في ٢٠ مايو سنة ١٩١٩ — يوسف توما البستاني

---

(١) الفارياق لقب منحوت من اسمه (فارس الشدياق) أخذ من فارس (فار) ومن الشدياق (ياق) . (قضى رحمه الله في الاستانة سنة ١٨٨٧ ونقلت رفاته الى مسقط رأسه قرية الحدث من أعمال جبل لبنان)

الحمد لله تعالى

فاتحة الكتاب

هـذا كتابي للظريف ظريفا　　طَلِقَ اللسان وللسخيف سخيفا

اودعتُـه كَلِماً والفـاظـاً حلت　　وحشونهُ نقطـاً زهت وحروفـا

وبداهةً وفكاهـة ونزاهـة　　وخلاعـة وقناعة وعُـزوفـا

كالجسم فيـه غيرُ عضوٍ تعشق المستور منـه وتحمد المكشوفا

فصّلتـه لـكن على عقلي فما　　مقيـاس عقلك كان لي معروفا

قعّـرته بمحافر الافكار كي　　يسع الكلام وسمته تجويفا

لفّـقته وخصفته بيدي فقل　　نِعمَ الكتابُ ملفقاً مخصوفا

افرغت فيـه كل حبرٍ راقَـه　　ولـه بريت من البراع الوفـا

وكأنمـا بيـديَّ قـد نمقتـه　　حتى انى مستحكمـاً مرصوفـا

الّـفتـه والليـل اسود حالك　　فلـذاك جاء مسخماً مسجوفـا

تبلتـه لك دون طاهي القوم بالزّ　　لاتِ فهي تزيل منك خُلوفـا

وتصح ما بك من طُلاطلة ومن　　ضرسٍ فتلقم بعد ذاك الوفا

يُغنيك عن مين الطبيب وسحله　　ما من جراه تخازم الحتروفا

قد انبتت غضراء ارض سطوره　　روضاً وجنّاتٍ تروق وريفـا

فتشمّ منها عرف كل رجلة　　دهساء يفتن حسنها الغطريفا

وترى الملعظـة الشناط بجنبها　　والفارض القرطاس والسرعوفـا

وورآءهـا وامامها مرمورة　　وغرانق ما ان تزال انوفـا

واذا بدت لك من خلال حروفه　　ردح وثائر فاخطبنّ رشوفا

فاذا عجزت عن المؤنة واستقلـ　　ـت وجدت في اعقابهن الهيفا

فاختر هداك الله ما تهوى ولا　　تتراخ عن ان تدرك الجرنوفا

غيري من الوصّاف في ذا صنفوا　　لـكنهم لم يحسنوا التصنيفا

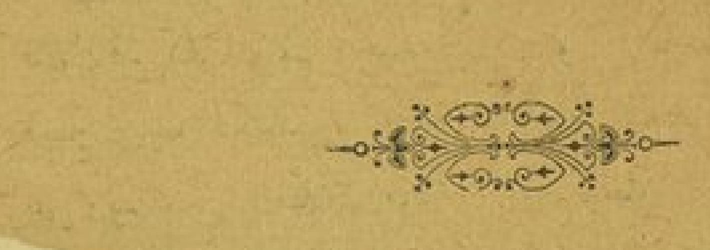
اذ كان ما قالوه مبتذلاً ولم　　ينقصّ منهم واصف موصوفا

لكن كتابي او انا بخلاف ذا نكفى الخفيَّ الحدّ والتعريفا
لا عيب فينا غير انك لا ترى صنواً لنا فى فننا وحريفا
فهو اليتيم المستحيل اخاوه وهو الفريد فكن عليه عطوفا
الفضل لي ولصاحب القاموس اذ من لجه قولي غدا مغروفا
حبلت به راسي خلافاً للنسا عاماً وكل العام كان خريفا
لكن تولد في ٣ اشهر وحبا على عجل وشب لطيفا
لم ادرِ هل رجلته او مخطته او بصقته او القته ثم كنيفا
عانيت فيه من الزحير اجارك الـ مولى عناء لا يُكال جزيفا
وقطعت سرته على اهل الحجى وعلى اسمهم لا يبرحن موقوفا
ما كان من ظئر له عندي سوى فكري ومع ذا خلته مسروفا
قدماً عليه توجمت نفسي ولم يُكُ شوقها عن نحوه مصروفا
ورشحتُ لذات قبيل نتاجه حتى اذا باشرت عدت نشوفا
اولدت لي ولدين لا لك ثم ذا لك ثالثاً لا لي فعله القوفا
عهدي الى ولديَّ ان يتحدّيا امدلوبه وبدفتيه يطيفا
ليؤمناه من الحريق اذا احتمى احد عليه لكونه خريفا
انى برىء منهما ان يعدلا عنه ويتخذا عليه حليفا
من كان يرغب فيه فهو موفق أو لا فقد ضلَّ السبيل وايفا
فى الليل يسمع منه غطغطة يطيـــب نعاسه بدوامها وحجيفا
ولرُبَّ نور ساطع يغدو اذا قابلتـه يوماً به مكسوفا
وكبيرِ بطن ضاق عنه وفاتك ذي شِرَّة عنه يخيم ضعيفا
كالزئبق الفرار ينظره ولا يسطيع يمسك من قفاه صوفا
يهوي هويَّ الريح فى الوادي اذا ما هيج ثم يسنم الشنعوفا
هو خير داحٍ للذي لم يرض من لعب الزمان ولهوه خذروفا
ان تُتله يطربك حسن بُغامه او تُلغه يسمعك منه عزيفا
فيه ترى في البرد مشتى ثم ان ثارت خجوجات السهام مصيفا

واذا ثقلت من الطعام وغيره تلقى به من ثقلة تخفيفا
واذا اتخذت حديقة فاغرس بها منه كلمات تزدك قطوفا
تغنيك عن نصب الخيال بها فلو اضحى شظاظاً لصها لاخيفا
اني ضمنت لك القدور فما ترى من بعده عزهاً ولا منجوفا
كلا ولا مستثقلاً نوماً ولا ارقاً ولا تشكو صدي وعجوفا
لا تقدمن على ركوب الصعب ان لم تتخذه صاحباً ورديفا
حتى اذا تعتعت اصبح عاصماً لك ان تزل فتخطى الحر — فا
اني لاعلم والسداد يدلني ان الجناب يرى الابيل مخيفا
فاخفه انت بكل حرف باتر قد خط فيه يكف عنك كفيفا
هو حصرم في طرف من يغتابه ما زال ان ذكر اسمه مطروفا
وهو الحديد القاطع الماضي الذي يبري العظام ويحسم الشرسوفا
ان شئت تلبسه على علاته فاهنأ به او لا فدعه نظيفا
ولقد اجزتك سفه أو لعقه او ان تخف قيئاً تخذه مدوفا
لكن حذار من الزيادة فيه او ان ترتأي استعماله محذوفا
اذ ليس فيه من محل قابل للحذف او لزيادة تثقيفا
لو كان يعشق جامد لجماله لغدا الورى طراً به مشغوفا
ولئن نزحت عن الانام فانه يمشي اليه حيث كان زحوفا
واذا تخاصم كاذبان فلحية الاشقى يغادر شعرها منتوفا
حتى كأن الشعر من لحييهما قطن الحشايا ناعماً مندوفا
وحياة رأسك ان راسي عارف اني به لن استفيد رغيفا
كلاً ولا اقطا ولا حشفا ولا خزاً على وتدي ولا كرسوفا
لكن بقرني حكة هاجت على انى اعالج مـــرة تـألـيـفـا
من كان يؤجر كي يولف خطبة فهو الخليق بان يعد عسيفا
ماراج من قولي تخذه ومانجد من زائف فاتركه لي ملفوفا
لابد ان تجد الصيارف مرة بين الدراهم درهما مزيوفا

ولربَّ دينار يجر اليك من نهوى بلحيته وليس مشوفا
لا يعلقن بزجاج عقلك ما ترى فيه من الصدأ القديم كثيفا
من كان في بلد لطيفاً طبعه يجد الغليظ من المحب لطيفا
لا ترفسن ما سرَّ منه لاجل ما قد ساء بل لا توله تأفيفا
ان المصنف لا يكون مصنفاً الا اذا جعل الكلام صنوفا
اوليس ان الضرب مثل الصنف في الم‍ مني وقرع عصا اليه اضيفا
حاشاك ان تقضي عليَّ تهافتاً من قبل ان تتحقق التوقيفا
فتقول قد كفر المؤلف فاحشدوا يا قوم صاحبكم اتى تجديفا
فتهيج ارباب الكنائس هيجة شؤمى فيخترطوا عليه سيوفا
بيني وبينك من صلات مودة ما يقطع التفسيق والتسقيفا
لا تزبئرَّ الى القتال ولا الى الشكوى ولا تك بيننا قذّيفا
ان كنتُ احساناً اتيت فدونك التحبيذ لي او لا فلا تقذيفا
لا يشتمن ابي ولا امي ولا عرضي ولا تك لي بذاك أليفا
أمي على انفي يناط مدلدلا ما ان يصيب من العباد انوفا
ولربَّ فسيق اللسان مباذئٍ يغدو وقد فسق العفيف عفيفا
ونزيه نفس ان يزر ذا زوجة ويكون ان ضحكت له عتريفا
كلب الكواعب ليس يعدي غيره ودواؤه كعب يليه منوفا
ماذا على مهدٍ الى اخوانه شيئاً الذَّ من المدام طريفا
سهر الليالي محكماً تفصيله وهم رقود يحكمون جخيفا
ارأيت ذا كرم يردّ هدية ويسوم مهديها له تعنيفا
او ليس ان الدهر أصبح مازحا يهذي ويأتي المضحكات جنوفا
فاشتق من خرف الجنى خرفا ومن حصف تهي الاظفار منه حصيفا
دع عنك تعيس الاسود وكن اخاً لابي الحصين مراوغاً يهفوفا
من اضحك السلطان صوت ردامه فهو الذي في الناس عدَّ عريفا
تمت بهذا البيت فاتحتي وقد صيرته لبنائها تسقيفا

لا تقرأن من بعده شيئاً ولو   كلفت حرفاً واحداً تكليفا
فتكون قد ازلقت ثم تجاوزت   بك رجلك اليسرى له تاريفا
أني ارى كالريح في اذنيك عر   ف نصيحتي راحت سدى وطليفا



الكتاب الاول

الفصل الاول

في اثارة رياح

مه صه اسكت اصمت انصت ايئس اعقم اسمع ائذن اصخ اصغ اعلم اني شرعت في تأليف كتيبي هذا المشتمل على اربعة كتب في ليالي راهصة ضاغطة احوجتني الى الجؤار قائماً وقاعداً حتى لم اجد لصنبور افكاري ما يسده عن ان يتبعّق على ميزاب القلم في وجوه هذه الصحائف . فلما رأيت القلم مطواعاً لا ناملي والدواة مطواعاً للقلم قلت في نفسي لا بأس ان اقفو القوم الذين بيّضوا وجوههم بتسويد الطروس فان كانوا قد احسنوا فانا أعدّ ايضا من المحسنين . وان كانوا قد اساءوا فلعل عدد كتبهم يحتاج الى تكملة فيكون كتابي على كل حال متصفاً بالكمال . لان ما كمل غيره كان جديراً بان يكمل نفسه . فمن ثم لم اتوقف فيما قصدته ولم اتحاش ان اودعه من الالفاظ الشائقة الرائقة والمعاني الفائقة الآفقة كل ما خفّ على السمع . ولذ للطبع . مع علمي انه لا يكاد مؤلف يعجب الناس جميعاً . وكاني بمتعنت يقول في نفسه او لغيره لو كان المؤلف اجهد قريحته في تأليف كتاب مفيد لاستحق ان يثني عليه . لكني اراه قد اضاع وقته عبثاً بذكر ما لا ينبغي ذكره حيناً . وحيناً بذكر ما لا يجدي نفعاً . والجواب عن الاول . ومحترس من مثله وهو حارسُ . وعاد الحيئس يحاس . وخذ من جذع ما اعطاك . وشحمتي في قلعي . واهتبل هبلك . وعين الرضى عن كل عيب كليلة . وعن الثاني . اربع على ظلعك . وارق على ظلعك . وارقاً على ظلعك . وقِ على ظلعك . وكاني بآخر يقول حديث خرافة يا ام عمرو . وجوابه وكم من عائب قولاً سليما . ثم كاني بجوقة عظيمة من الجلاذيّ والنهاميين والانهمة والوقفة والوفهة والوهفة والايلين والزرازرة والقمامسة وامامهم الجاثليق الاكبر وامام هذا العسطوس الاعظم وهم يضجون ويعجون ويجأرون وينعرون ويلجبون ويصخبون ويزأطون

ويلغطون ويتقترون ويتوغرون ويتوعدون ويتهددون ويتذمرون ويتنكرون ويتنمرون ويتشذرون ويتشزرون ويتغزمرون ويتحمون وينهمون ويلغمون . فاقول لهم مهلاً مهلاً انكم قضيتم عمركم كله في حرفة التأويل فما يضركم لو اوّلتم ما تنكرونه في كتابي من اول وهلة . وتمحلتم كما هو دأبكم لان تجعلوا منه حسناً ما يظهر قبيحاً ومستظرفاً ما يلوح من خلال عبارته فاحشاً . فان ابا نواس قد اوجب عليكم ذلك مذ مئين من السنين بقوله

لا تحظر العفو ان كنت امرءا ورعاً فان حظركه بالدين ازراء

و بقوله

كن كيفما شئت ان الله ذو كرم وما عليك اذا اذنبت من باسِ
الا اثنتين فلا تقربهما ابداً الشرك بالله والاضرار بالناس

فاما ان قلتم ان عبارته صريحة بحيث لا تقبل التأويل . فاقول لكم انكم بالامس كنتم تخطأون وتحضرمون وتهرأون وتلحنون وتلكنون وتغلطون وتوهمون وتعفكون وتلبكون وتلتكون وتلفتون وتعصدون وتخلطون وتخطاون وتهذون وتهذرون وتحصرون وتلخون وتلخلخون وتعجمون وتجمعون وتفدمون وتلفّون وتبلتعون وتلهيعون وتلغلغون وتلقلقون وتقلقلون وتترترون وتثرثرون وتحصرون وتفرفرون وتجمجمون وتمجمجون وتغمغمون وتمغمغون وتعتعتون وتغتغتون وتغذمون وتغنغنون وتبعبعون وتبغبغون وتوتغون وتضغضغون وتعيون وتفهون فمتى جا كم العلم حتى فهمتموها . وان قلتم ان بعضها وهو السيئ مفهوم وبعضها غير مفهوم . قلت لعلّ ما لم تفهموه هو من الحسنات التي تذهب السيئات فلا ينبغي لكم على ايّة حالة كانت ان تحرقوه . ولعمري لو لم يكن من شافع لقبوله واجرائه عند الادباء وعندكم انتم ايضاً مجرى كتب الادب سوى سَرْد الفاظ كثيرة من المترادف لكفى . بل فيه من ذكر الجمال واهله ادام الله عزهنّ ما يوجب اعظامه وتقريظ مؤلّفه حياً ثم تأبينه بعد مفارقته اياهن برغم انفه . على اني اعرف كثيراً من الوفهة الكرام المشهود لهم بالفضل بين الانام لا يتحرّجون من قولهم شي ممحمج وشي متدملك وشي مفرّم وشي ازَبّ وشي مهدف وشي قازح وبَكبك . ومن ذكر الكَثَب والكثعب والكثعم والجلهوم والعركرك والاكثم والاخثم والخشيم

والحزنبل والدعكنة والجدجد والتبزج والبوص والتامة والبلغص والقلذم والاكبس والضراطمي والعمارطي والحفر والهيدب والمحلوس والبوص والعضرط والعضارطي والجيش والجمشا والبدآ والفشوش واللطعا والمهلوسة والمرصوفة والمستودقة والجالقة والحارقة والخبوق والخقوق والفقوق والربوخ والخربقة والسلقلق والشقا والمتلاحمة والخجام والخجوم والانوم والشريم والهوجل والمتكا والحلقية والمرفوغة والمصوص والمنفاص والمبراص والعضوض والمنخار والشفيرة والزخاخة والبخاخة والجخنة والشفلح والعنبلة والجليع ومن العلوز والقنب والنوف والختب والايل والبيظ والثعرورين والحتار والاشعر والطبق والاسكتين والحسكتين والعتل والقحقح والمأنة والجعب والطرث والعكبز والمعجزم والعجارم والوبيل والفنجليس والفلطيس والخطاط والكوتعة والجوفان والمتك والحوقلة والكوشلة والقصعة والدامة ومن الاقماد والتوتيد والاستعناد والنفشيخ والشمذ والفهر والافهار والوجس والنشنشة والاستخلاط والتشبط والهكاع والفخة والسغم والاكسال والدعم والزجل والهقق والنيطل والعتر والطروح والعجيز والفنخر والاختصار والترفغ والاصفا والعصد والحق والتعفيل والتبارخ والعرد والاسواع والسباع والالهاط والعصد والرفغ والعفل والقرنة والكين والطوطؤة ومن ذكر الارزب والبزباز والفاعوسة والخرنوف والمشرح والغضارطي والمصوص والخاق باق والزردان والطنبريز والفلهم والقباب واللهموم والحجوم والمزخة والنغنغ والخشنفل والمعرنفط والقرنفط والفوق والقوق والركوة والقحفليز والعفلق وغير ذلك من ادوات النصب ومن البنودة والجعبي والحذافة والمحذفة والمجذقة والحوارة والخفاقة والعزافة والمحسة والمحشة والخبنفثة والرماعة والصماري والرثم والطبيخة والجما والعوآ والعزلا والجعا والسحما والفنقصة والفرقعة والصفارة والنبور والنباعة والنباغة والوباعة والجوانة والخوانة والصوانة والبرعث والبعثط وغير ذلك من ادوات الجزم ومن الآداف والبيزار والجبيخ والجعثوم والاذلعي والحوقل والمطول والزلنقطة والخدرنق والسحادل والضبيز والعالل والدوقل والقسطبينة والفنطيس والشاقول والقهبليس والعردل والقصطبير والجزاجز والقزميلة والمتمئر والدوسر والسمهدر وغير ذلك من ادوات الجر ومن ذحّ وذحا ودحّ ودحي ورصع ورطأ وشفتن وشكز وضهز وطعز وطنخ وعزط وعزلب وقرفط وقنظر وقسبر وقحطر وقطر ولطز والج ولذ ومشق ومتر

ومبج ومعج ونيرج وزخزخ ودعظ . وكنت احملق في وجوههم عند ذكرهم ذلك فلم اكن أرى عليها حمرة الخجل ولا صفرة الوجل بل كانت ناضرة مستبشرة مبتهجة مسفرة . فان أبى المنكر الا عناداً وتقاضاني جدول اسمائهم قلت له هاك اوله يبتدى بالالف وآخره بالياء . فاحسبوني اذاً وافها من هؤلاء . ثم ان شرطي على القارىء أن لا يسطر شيئاً من الالفاظ المترادفة في كتابي هذا على كثرتها . فقد يتفق ان يمر به في طريق واحدة سرب خمسين لفظة بمعنى واحد او بمعان متقاربة . والا فلا أجيز له مطالعته ولا أهنؤه به . على اني لا أذهب الى ان الالفاظ المترادفة هي بمعنى واحد والا لسموها المتساوية وانما هي مترادفة بمعنى ان بعضها قد يقوم مقام بعض . والدليل على ذلك ان الجمال مثلا والطول والبياض والنعومة والفصاحة تختلف أنواعها وأحوالها بحسب اختلاف المتصف بها فخصت العرب كل نوع منها باسم ولبعد عهدهم عنا تظنيناها بمعنى واحد . وقس على ذلك انواع الحلي والمأكول والمشروب والملبوس والمفروش والمركوب . لا بل عندي ولا أخشى من أن يقال أولئك عندٌ انه اذا كان اسمان مشتقين من مادة واحدة وكانا يدلان على معنى واحد كالنحجوج والنحجوجاة مثلا للريح الشديده المرّ فلا بد وان يكون الاسم الزائد في اللفظ زائداً في المعنى أيضاً . فان شئت أذعنت أو لا فعاند . هذا واني قد ألفته وما عندي من الكتب العربية شيء اراجعه وأعتمد عليه غير القاموس . فان كتبي كانت قد فركتني فاعتزلتها غير ان مؤلفه رحمه لم يغادر وصفاً في النساء الا وذكره . فكأنه كان ألهم ان سيأتي بعده من يغوص في قاموسه على جمع هذه اللآلىء في مؤلف واحد متسق لتكون أعلق بالذهن وأرسخ في الذكر . ولولا اني خشيت غيظ الحسان عليَّ لكنت ذكرت كثيراً من مكايدهن وحيلهنّ ومحالهن لكني انما قصدت بتأليفه التقرب اليهنّ وترضيهن به . واني آسف كل الاسف على انهن غير قادرات على فهمه لجهلهن القراءة لا لعوص العبارة . اذ لا شيء يصعب على فهمهن مما يؤول الى ذكر الوصال والحب والغرام . فهن يستوعبنه ويتلقفنه من دون تلعثم ولا قصور ولا ترج . وحسبي أن يبلغ مسامعهنّ قول القائل ان فلاناً قد الف في النساء كتاباً فضلهن به على سائر المخلوقات . فقال انهن زخرف الكون . ونعيم الدنيا وزهاها . وغبطة الحيوة ومناها .

وسرور النفس ومشتهاها [١] وعلق القلب . وقرة العين . وانتعاش الفؤاد . وروح الروح . وجلاء الخاطر . وتعلل الفكر . ولهو البال . وجنة الجنان . وأنس الطبع . وصفاء الدم . ولذة الحواس . ونزهة الالباب وزينة الزمان . . وبهجة المكان والباءة بل اقول غير متحرج عرف الالاعة اذ لا يكاد الانسان يبصر جميلة الا ويسبح الخالق. بذ كرهن يلهج اللسان . ولخدمتهن تسعى القدم . وتتحمل الاعباء . وتتجشم المشاق ويهون الصعب ويتجرع الصاب . ويقاسي الضر ولرضائهن يذل العزيز . ويبذل النفيس . ويذال المصون . وان خلاق الرجل من دونهن حرمان . وفوزه خيبة . وهناه تنغيص . وأنسه وحشة . وشبعه جوع . وارتواءه ظمأ . ورقاده ارق . وعافيته بلاء . وسعادته شقاوة . وطوبى له كالزقوم . والتسنيم كالغسلين . فاذا قدر الله بلوغ هذا الخبر المطرب سماع احدى سيداتي هؤلاء الجميلات وسرت به وفرحت . ورقصت ومرحت . رجوت منها وأنا باسط يد الضراعة ان تبلغه ايضاً مسامع جارتها . وأملت من هذه ايضاً أن تطالع به صاحبتها حتى لا يمضي أسبوع واحد الا ويكون خبر الكتاب قد ذاع في المدينة كلها . وكفاني ذلك جزاء على تعبي الذي تكلفته من اجلهن الا وليعلمن انى لو استطعت ان اكتب مديحهن بجميع اصابعي وانطق به بكل من جوارحي لما وفي ذلك بمحاسنهن . فكم لهن علي من الفضل حين بدون في افخر الحلل ومسن بأحسن الحلى . ونظرن الى شافنات . حتى أبت الى حفشي وانا اتعثر بأفكاري وخواطري . فما كادت يدي تصل الى القلم الا وقد تدفقت عليه المعانى وساحت على القرطاس . فأورثنني بين الناس ذكراً وفخراً . ورفعن قدري على قدر ذوي البطالة والفراغ. نعم ان من بينهن من نفست علي بطيفها في الكرى . ولكنها معذورة في كونها لم تكن تعلم اني اتكاف النوم . بعد ان رأت عيني من جمالها ما يبهر العقل ويبلبل البال . فاما اذا تعنت علي احد بكون عبارتى غير بليغة . أي غير متبلة بتوابل التجنيس والترصيع والاستعارات والكنايات . فأقول له انى لما تقيدت بخدمة جنابه في انشاء هذا المؤلف

---

(١) حاشية قد غلط الفيروزابادي في اشتقاقه السرية من السر للجماع بل اشتاقها من السر بمعنى السرور

لم يكن يخطر ببالي التفتازاني والسكاكي والامدي والواحدي والزمخشري والبستي وابن المعتز وابن النبيه وابن نباتة . وانما كانت خواطري كلها مشتغلة بوصف الجمال . ولساني مقيّداً بالاطراء على من انعم الله تعالى عليه بهذه النعمة الجزيلة . و بغبطة من خوّله عزّ وجلّ عزة الحسن و برثاء من حرمه منه . وفي ذلك شاغل عن غيره . على اني ارجو أن في مجرد وصف الجمال من الطلاوة والرونق والزخرفة ما يغني عن تلك المحسّنات استغناء الحسناء عن الحليّ ولذلك يقال لها غانية . وبعد فاني قد علمت بالتجربة ان هذه المحسنات البديعية التي يتهوّر فيها المؤلفون كثيراً ما تشغل القارىء بظاهر اللفظ عن النظر في باطن المعنى . ولعمري انه ليس في هذا الكتاب شيء يعاب سوى وجدانك الفارياق فيه تارة يحشر في سرب الغواني . وتارة يدمق عليهن وهن آمنات في حجالهن أو في حديقة او في زاوية أو على السرير . ولكن لم يكن لي بدّ من ذلك . اذ الكتاب موضوع على قص أخباره وعلم أحواله . فقد بلغني ان كثيراً من الناس أنكروا وجود هذا المسمى فقالوا انه من قبيل الغول والعنقاء . و بعضهم قال انه قد ظهر مرة في الزمان ثم اختفى عن العيان . وذهب غير واحد الى انه مسخ بعد ولادته بأيام . ولم يعلم بأي صورة تلبس والى أي شكل استحال . وزعم قوم انه صار من جنس النسناس . وآخرون من النسانس . وقال غيرهم انه صار من نوع الجن . واثبت بعض انه استحال امرأة . فانه لما رأى ان المرأة أسعد حالا من الرجل في هذه الدنيا المسماة دنيا النساء كان لا يبيت الا وهو جائر الى ربّه بالدعاء لان يصيره أنثى . فتقبّل الله ذلك منه وهو على كل شيء قدير . فرأيت والحالة هذه من بعض ما يجب علي ان اعرّف هؤلاء المختلفين فيه بحقيقة وجوده على ما فطر عليه . ما عدا التغيير الذي عرض له عن جهد المعيشة وسوء الحال ومقاساة الاسفار ومخالطة الاجانب والاحتكال . وعلى الخصوص من تلفيع الشيب . والمجاوزة من حد الشباب الى سن الكهولة . فاذ قد علم ذلك فأقول

كان مولد الفارياق في طالع نحس النحوس والعقرب شائلة بذنبها الى الجدي أو التيس والسرطان ماشٍ على قرن الثور . وكان والداه من ذوي الوجاهة والنباهة والصلاح (مرحى مرحى) الا ان دينهما كان اوسع من دنياهما وصيتهما اكبر من كيسهما (برحى برحى) وكان لطبل ذكرهما دويّ يسمع من بعيد . ولزوابع شأنهما عجاج ثناء يثور في

الجبال والبيد . ولتكرير العفاة عليهما واعتشاء الوفود لديهما . تعطلت سبل دخلهما . ونزحت بئر فضلهما فلم يبق فيها الآ نزازات يلقى فيها المخفق المحروم سدادا من عوز . فكانا يجودان به أيضاً من عوز السداد (وهٌ وه) فلذلك لم يعد في طاقتهما ان يبعثاه الى الكوفة أو البصرة ليتعلم العربية . وانما جعلاه عند معلم كتاب القرية التي سكنا فيها (ويح ويح) وكان المعلم المذكور مثل سائر معلمي الصبيان في تلك البلاد في كونه لم يطالع مدة حياته كلها سوى كتاب الزبور وهو الذي يتعلمه الاولاد هناك لا غير (افٌ اف) وليس قولي لهم يتعلمونه موذنا بانه يفهمونه . معاذ الله . فان هذا الكتاب مع تقادم السنين عليه لم يعد في طاقة بشر ان يفهمه (غُط غط) وقد زاده ابهاماً وغموضاً فساد ترجمته الى اللغة العربية وركاكة عبارته حتى كاد ان يكون ضرباً من الاحاجي والمعمى (رُط رط) وانما جرت عادة اهل تلك البلاد بان يدرّبوا فيه اولادهم على القراءة من غير ان يفهموا معناه . بل فهم معانيه عندهم محظور (تفٌ تف) وكما انهم لا يفهمون معنى حاَ وميم وقاف مثلاً . فكذلك لا يفهمون عبارة الكتاب المذكور اذا قراوها (طيخ طيخ) والظاهر ان سادتنا رؤساء الدين والدنيا لا يريدون لرعيتهم المساكين ان يتفقهوا أو يتفقحوا . بل يحاولون ما امكن ان يغادروهم متسكعين في مهامه الجهل والغباوة (أع أع) اذ لو شاؤا غير ذلك لاجتهدوا فى ان ينشئوا لهم هناك مطبعة تطبع فيها الكتب المفيدة سواء كانت عربية أو معرّبة (سرّ سر) فكيف ترضون يا سادتنا الاعزّة لعبيدكم الاذلة ان تربى اولادهم في الجهل والعمه . (عزوى عزوى) وان يكون معلموهم لا يعرفون العربية ولا الخط والحساب والتاريخ والجغرافية ولا شيئاً غير ذلك مما لا بدّ للمعلم من معرفته (تعزى تعزى) فكم لعمري من ملكات براعة وحذق منّ الله تعالى بها على كثير من هؤلاء الاولاد . غير انه لفقد أسباب العلم وعدم ذرائع التأديب والتخريج طفت جذوتها فيهم على صغره بحيث لم يمكن ان يثقبها بهم نتف التحصيل على كبر (أوه أوه) هذا وانكم بحمد الله من المتمولين المثرين . لا يعجزكم ان تنفقوا كذا وكذا كيساً على انشاء مدارس وطبع كتب مفيدة (ايه ايه) فان لبطرك طائفة المارونية دخلا له وقع عظيم . وقدر جسيم . بحيث يمكنه ان يحيي به قلوب طائفته هذه التارزة التى لا همّ لها في المنافسة والمباراة في شيء

بين من سبقوهم الى كل علم وفضل (هيس هيس) وانما همهم ان يتعلموا بعض قواعد في نحو اللغتين العربية والسريانية لمجرد العلم بها فقط من دون فائدة (آه آه) اذ لم يعلم الى الآن ان احداً منهم ترجم كتاباً أو كراسة مفيدة في هاتين اللغتين ولا ان البطرك امر بطبع كتاب لغة فيهما (تغ تغ) ولو انه انفق نصف دخله في كل سنة على تحصيل اسباب العلم بدل هذه الولائم والمآدب التي يهيئوها لزواره . أو لو كان كل من الامراء والمشايخ الكرام ينفل شيئاً معلوماً في كل سنة لاجل هذه المصلحة الخيرية أولو بعث من قبله الى البلاد الافرنجية وكلاء يجمعون من ذوي الخير والاحسان فيها مبلغاً يخصصه بما نحن بصدده . لاحمد كل من في الشرق والغرب فعله (جنح جنح) فبكن اذا تعنى احد سادتنا هؤلاء لان يبعث الى اخوانه الافرنج حنا أو متى أو لوقا لجمع المال فانما يبعثه لبناء كنيسة او صومعة (آح آح) مع ان الانسان مذ يولد الى ان يبلغ اثنتي عشره سنة لا يمكنه ان يدرك شيئاً على حقيقته من جهة الكنيسة والصومعة ويمكنه في خلال ان يتعلم ما يفيده في مدرسة أو كتاب (ثع ثع) فهل تعدونني ياسادة بانشاء مكاتب وطبع كتب حتى لا أطيل عليكم هذا الفصل . فان بقلبي منكم لحزازات حاكة وبصدري عليكم ملامات صاكة (أخ اخ) لان خليصي الفارياق في دولتكم السعيدة لم يمكنه ان يتعلم في قريته غير الزبور وهو كتاب حشوه اللحن والخطأ والركاكة (اخ أخ) لان معربه لم يكن يعرف العربية وقس عليه سائر الكتب التي طبعت في بلادكم وفي رومية العظمى (هع هع) ومعلوم ان الغلط اذا تأصل في عقل الصغير شبّ معه ونمى فلم يعد ممكناً بعد قلعه . فهل من سبب لهذا الشين والعيب سوى اهمالكم وسوء تصرفكم في السياسة المدنية والكنائسية (افوه افوه) أتحسبون ان الركاكة من شعائر الدين ومعالمه وفرائضه وعزائمه . وان البلاغة تفضي بكم الى الكفر والالحاد . والبدعة والفساد (مطغ مطغ) ام حسبتم ان تلك الآيات العاطلة قد افحمت ذلك المسلم العالم عن المجادلة والمناضلة (يع بع) أما بعروقكم دم يهيجكم الى حب الكلام الجزل الفخم . والى البلاغة والبلة . ونسق العبارة على موجب القواعد المقررة . والافصاح عما يخطر ببالكم دون الحشو المخلّ . والاعتراض المملّ . والتعقيد المعلّ . والاخلال المسلّ . وقولكم في جوز الجملة الخ . وجعلكم الفعل الثلاثي رباعياً .

وبالعكس . واستعمالكم ما يتعدي منه بالبا متعديا بفي وبالعكس . وجرائكم المتعدّى لازما وبالعكس . والمهموز معتّلا وبالعكس وعدم فرقكم بين اسمي الفاعل والمفعول . فتقولون هم محسودون مني اي حاسدون لي وما اشبه ذلك (قَهْ قه) وليس كتابي هذا درّة الثين في اوهام القسيسين حتى استوعب فيه ذكر اغلاطكم واوهامكم (أيحى ايحى) وانما المقصود من ذلك ان ابيّن لكم انّ ادمغتكم قد سقيت اللحن والركاكة من وقت ذهابكم الى الكتّاب وقراتكم فيه كتاب الزبور الى ان تصيروا كهلاً ثم شيوخا (دخْ دح) وانه مادمتم على هذه الحال فلن يرجى لكم من إبلال (وَيْب ويب) ثم ان الفارياق اقام عند معلمه ريثما ختم الكتاب المذكور . وبعد ذلك اوجس منه المعلم ان يربكه في مسائل تصعب عليه فينفضح بها . فاشار على والده بان يخرجه من الكتّاب ويشغله بنسخ الكتب في البيت (بَه به) فلبث على هذه الحالة مدة طويلة فاستفاد منها ما امكن لمثله ان يستفيد من تجويد الخط وحفظ بعض الالفاظ (بَذْ بذ) وكان اهل البلاد يفضلون حسن الخط على كل ماتصنعه اليد . فعندهم ان من يكتب خطّاً حسناً هو الذي ارق بين اقرانه في الفضل . ومع اشتهار ذلك لم يكن حاكم البلاد يستخدم من الكتّاب الاّ من بذأت العين خطّه وعاف الذوق السليم كلامه (غِيط غيط) اشعاراً بان الحظّ لايتوقف على الخطّ . وان ادارة الاحكام . لا تفتقر الى تهذيب الكلام . (تع تع) وان كثيراً قد نالوا المراتب السامية والمناصب السنية وهم لا يحسنون توقيع اسمهم الشريف (حِسّ حس) غير ان الفارياق لم يكن قرير العين بهذه الحرفة . اذ كان يعتقد ان الرزق الذي يأتي من شقّ كشِقّ القلم لا يكون الا ضيّقاً (وَىْ وي) نعم ان كثيراً من الناس قد نالوا العيش الواسع الهني . والخير المتتابع الوفي . من مردّ هو بالنسبة الى شق القلم رحب لكنه بالنسبة الى شرههم وسرفهم ضيّق (واه واه) غير ان الفارياق وقتئذ كان غرّا لاتجربة له ولا خبرة . فكان يحكم على البعيد بالقريب . ولا شيء أقرب الى عين الكاتب من لسان قلمه وعارض قرطاسه . او أدنى الى قلبه من الكلام الذي يكتبه واللبيب من قنع بالحرفة التي يتعاطاها ولم يشق عليه امت الشق ولم يشرئبّ الى ما ليس بحسنه (شَع شع)

الفصل الثاني

في انتكاسة حاقية وعمامة واقية

قد كان من طبع الفارياق كما هو دأب جميع الاحداث ايضاً ان يحاكي في الزي والاطوار والكلام من كان متميزاً في عصره بالفضل والدراية . وانه رأى ذات يوم قرزاماً معتماً بعمامة كبيرة مدورة وكان هذا القرزام يحسب وقتئذ من فحول الشعراء فاحب الفارياق ان يكون له مثل هذه العمامة على صغر رأسه . فكان اذا مشى يميل رأسه منها يمنة ويسرة كالقاضي الذي يخرج في الاسواق بعد صلوة الجمعة ويسلم على الناس . واتفق ان اباه سار مرة الى دار الحاكم واستصحبه معه واركبه مهرة له . وكان هو راكباً حصاناً . فمكثا هناك اياماً . فعنّ للفارياق يوماً من الايام ان يركض المهرة في الميدان وكان الحصان مربوطا في جانب . فاجرى المهرة نصف شوط حتى اذا قابلت مربط أليفها التفتت اليه كالمشيرة ان فارسها غير جدير بركوبها بين جياد الامير . فما كان من الفارياق الا ان سقط على ام رأسه . وأقبلت المهرة تجري الى الحصان وغادرته مجندلاً على الجدالة . ولو كان فارساً مجيداً لما تركته على تلك الحالة بل كانت تنتظر حتى يقوم . ثم انه قام بعد ذلك يحمد الله على كبر عمامته فانها هي التي وقت رأسه عن احدى الشجات العشر وهي القاشرة الحارصة الباضعة الدامية المتلاحمة السمحاق الموضحة الهاشمة المنقلة الآمة الدامغة ولكنه قام محقوّا ويومئذ عرف ان لكبر العمامة فضلاً ومزيّة . وظن ان اتخاذ العمائم الكبيرة عند اهل بلاده انما هي لوقاية رؤوسهم فقط لا لتحسين وجوههم . فان العمامة الضخمة تخفي محاسن الوجه وتشوه الوجه الصغير فضلاً عن كونها توجع الرأس وتمنع صعود الابخرة من مسامته كما نصّ عليه الساعور الاكبر . فان قيل اذا كان سبب اتخاذ العمائم الكبيرة انما هو لوقاية الرؤوس لا للزينة والتحسين فما بال الذين يرقدون ليلا يتعممون . فهل يخافون ان تتدحرج رؤوسهم عن مصادغهم فيسقطوا في مهواة في بيتهم . مع ان فرشهم تكون على الارض . قلت ان منشأ هذه العادة هو ان نساء تلك البلاد يتخذن في رؤوسهن هذه القرون التي يقال لها هناك طناطير . وهي تكون من فضة او ذهب في طول الذراع

وغلظ الرسغ . فاذا بات الرجل مع امرأته حاسر الرأس او كان على رأسه غطاء رقيق لم يأمن ان تنطحه بقرنها على قرنه فتمنيه باحدى الشجاج المذكورة . فان أبيت الاّ اللجاجة وقلت ما سبب هذه القرون الحسيّة . هل هي دليل على التذكير بالقرون المعنوية عند مخالفة الرجل لامرأته . او عند تقتيره عليها او اجفاره عنها . او هي من قبيل الزينة او من بطر النساء وشرههن بحيث اذا شممن رائحة الايسار من ازواجهن رأين ان كل مجسّ من أجسامهن قمين بالحلى والزينة . اذ كنّ يعتقدن ان المستور منها عن عيون الناس غير مستور عن عيونهن وعيون بعولتهن . وان كان في المسألة خلاف عظيم . وتحليل وتحريم . وان في التزين بحلى غير ظاهر للذة عظيمة . فان مجرّد العلم باحراز شيء ثمين يسر صاحبه . كما لو أحرز انسان كنزاً في حرز محجوب فانه يفرح به من غير ان ينظر اليه . قلت اما التذكير بالقرون المعنوية فغير مظنون في نساء تلك البلاد لكونهن من ذوات العِرض والتصاون . ولا سيما نساء الجبل . وفضلاً عن ذلك فانّ هراوة الزوج ومقامع أهله واهل امرأته وعيون الجيران ايضاً تمنعها عن الاتصاف بالصفة الزوجية التامة . أما في المدن فان هذه الصفة أقوى وأفشى . وانما كان اتخاذ هذه القرون في الاصل مناطا للبراقع . وكانت في مبداها صغيرة قصيرة ثم طالت وكبرت بطول الزمن وكبر الدينار . وكلما زاد ايسار الرجل وماله زاد قرن امرأته طولا وضخامة . وهنا فائدة لا بد من ذكرها . وهي ان لفظة القرن من الالفاظ التي اشترك فيها جميع اللغات كالصابون والقطّ والمزج وغيرها . وقد شهرت عند جميع المولفين بانها كناية عن كذا وكذا من طرف الزوجة في حق زوجها . الاّ عند المولفين من اليهود فان الصفة القرنيّة في كتبهم من الصفات الحميدة . ولذلك فكثيراً ما تسمع في كتاب الزبور ارتفع قرني وانت رافع قرني واني أنطح بقرني وما اشبه ذلك . وفي كلا الاستعمالين غموض وابهام . اما غموض استعمال القرن عند المولفين من غير اليهود كناية عن خيانة المرأة زوجها فلأن هيئة القرن لا تدل على عضو مخصوص من أعضاء الانسان . وحقيقته ايضاً لا تدل على حيوان مخصوص . فان الثور والوعل والتيس والكركدن في ذلك سواء . ولفظه كذلك غير مشتق من فعل يشير الى خيانة او ضمد . فما علة هذا الاستعمال . وقد استفتيت في هذه المسألة

المشكلة كثيراً من المتزوجين المجرذين . فكلهم كان يتخيَّف الوانا عند سؤالي له . ويجمجم فى كلامه ويقوم من عندي وقد خجل ووَجَم . فان فتح الله الآن على احد ممن يطالع كتابي هذا في فهم حقيقة ما يراد من هذا الحرف عرفا واصطلاحاً . وفي بيان سبب استعماله كناية عن الضمد فليتفضل بالجواب منةً واحساناً . فاما استعماله من مولفي اليهود كناية عن العزَّة والقوة والمنعة والغلبة فانه يرد عليه ما ورد على الاوَّل من ان كثيراً من الحيوانات قد اشترك فيه . ومنها ما هو غير ذي قوة ولا بأس . فانظر اختلاف الناس فى لفظة واحدة ومعنى واحد . اما العامة فان اشتقاقها فيما ارى من عمَّ بمعنى شَمِل لانها تعمّ الرأس وهي على اشكال مختلفة . فمنها الحلزوني والعكي والاطارى والمكوَّرى والمقوَّرى والقهقوريّ والقرطَلّى والقعبَلى . وكلها على اصنافها احسن من هذه الاجران التي تلبسها رؤساء المارونية فى الدين فلينظروا وجوههم فى مرآة جلية

الفصل الثالث

في نوادر مختلفة

كان للفارياق ارتياح غريزي من صغره لقراءة الكلام الفصيح وامعان النظر فيه ولالتقاط الالفاظ الغريبة التى كان يجدها فى الكتب : فان أباه قد أحرز كتباً عديدة في فنون مختلفة . وكان أي الفارياق يتهافت منذ حداثته على النظم من قبل أن يتعلم شيئاً مما يلزم لهذه الصنعة . فكان مرة يصيب ومرة يخطئ . مع اعتقاده أن الشعراء أفضل الناس وان الشعر أجلّ ما يتعاطاه الانسان . فقرأ يوماً في بعض الأخبار عن شاعر كان في حداثته ابله مغفلا ثم صار أمره الى أن نبغ في نظم القصائد المطوّلة وأجاد فمما حكي عنه أنه سكر يوماً فقعد في نحو ناموس (1) وجعل يخطب منه خطبة أبي العبر

(1) قد وهمَ المطران جرمانوس فرحات في قوله في كتاب باب الاعراب الناموس الوعا والنفس والقلب وصومعة الراهب وقانون الرهبنة وعبارة صلاة وصومعة الراهب

طرد طبك طلندي بك نك بك من البلوعة . وانه أراد يوماً أن يتسوَّر حائطاً ليتناول من بعض التمر فوقع في فخ كان قد نصبه صاحب البستان للحيوانات . وانه قال يوماً لأمه ان عند فلانة خادمة نظيفة غسلت اليوم باب دارها فجاء أسود يلمع . وانه رأى يوما صبيا قد قلع أحد أضراسه فسار واقترض درهماً وقال للحجام اقلع ضرسي أنا أيضاً فانه غير قاطع في الأكل . ولعلَّ ينبت لي في مكانه ضرس أحدّ منه . وقيل له يوماً قد دُوِّنت عنك حكايات من حمقك كثيرة فقال بودي لو أن احداً يقرأها عليَّ لأضحك . ومرض أخوه يوماً فقال أبوه لزوجته قد أضره الطعام الذي أكله أمس . فقال نعم قد أضره الأكل والخادمة معاً . فقال له أبوه ما مدخل الخادمة هاهنا . فقال لعلها أعطته ما لم يحبُ . ورأت أمه على ثيابه دماً فقالت له ماهذا الدم . قال قد وقعت فجرى دمي وهو أحسن . فقد يقال من وقع وجرى منه دم صحَّ وتقوَّى . وجرح يده بسكين فرمى بها وقال هذي السكين لا تساوي شيئاً . فقال له ابوه لو كانت كذلك لما جرحت يدك فقال كل انسان يجرح يده في الدنيا سوآء كان بسكين او غيرها . وقال مرة قد رأيت في السوق جبناً أبيض كالزفت . وقيل له لِمَ لا تغسل يدك قال اغسلها فتعود وسخة في الحال . ولست أقدر على تنظيفها لكون دمي وسخاً . ورأى ذات يوم رجالاً مصلوبين فقال لأمه يا أم اذا عاشت هؤلاء الرجال أيضاً أفيقدر الذين صلبوهم على صلبهم مرة أخرى . وكان قوم يسألون عن منزل شخص فقال أنا أعرف مقرَّه . قيل كيف عرفته . قال قد رأيت الرجل يمشي في السوق على رجليه . وقال يوماً من الثمانية الى التسعة يمضي الوقت أسرع من السنة الى السبعة . وقيل له أتحب اللحم أكثر أم السمك قال اظن اني أحب هذا أكثر . وقال له أبوه اذا كنت تغيب عنا أفتحسن أن تكتب لنا كتاباً . قال نعم أكتبه واجي به أوصله اليكم . وسمع أباه يثني على خز اشتراه وكان به فرحاً . فقال قد كانت ساعة سعيدة انكم لم تشتروه . ورأى اباه يكتب كتابا فقال له هل تستطيع يا أبت أن تقرأ ما تكتبه . فقال له كيف لا وأنا الذي كتبته . قال أما أنا

وناموسه فتوهم ان الناموس هنا بمعنى القانون او الشرع على ما اشتهر في عرف النصارى ومراد صاحب القاموس المعنى الاصلي وهو القترة والعامة تقول ناودس وما اشتهر عندهم فهو اما تجوز من صاحب السر او هو يوناني معرب

فلا أستطيع . ورأى أباه يتأسف على طير فقده . فقال له بارك الله في الساعة التي طار فيها. فقال له يا أحمق اذاً تتأسف على فقده قال ولم لم تبن له داراً. قال أو يبنى للطائر دار. قال انما أعني عودين يجعلان من هنا وهناك . ووصف مرة حيوانات رآها فقال ورأيت أيضاً خنزيراً أكبر مني وشكا وجعاً في رجله فقال ليت هذي الرجل تبلى . وكان أبوه يفسر له معنى انقذ بأن قال له اذا وقع أحد في النار مثلا وذهبت وأخرجته منها فذلك هو الانقاذ . قال ولكنه قد احترق فكيف أنقذه . وعلى فرض اني وضعت هذا السفود في النار ثم أخرجته منها أفيكون ذلك أيضا انقاذا . وفسر له يوماً آخر معنى يلوم فقال اذا أبطا عليك شخص في شيء وقلت له لم أبطأت لم تكاسلت فذلك يكون لوما . فقال وأقول له أيضاً لم كبرت لم صغرت لم قصرت . ولامته أمه على نخره عند الكلام فقال لها ألا لا تلوميني ولكن لومي روحي . وأراد ابوه أن يخرج في يوم ماطر ثم عدل خوفاً من المطر . فقال لأمه يا أماه من عم الله اذا لم نخرج اليوم فان الهواء كان طيباً. واشترت له امه ثوباً فلما فصلته قال لها اويزول لون هذا الثوب . قالت لا أدري . قال أرجو أن يزول فلعله يصير أحسن . وقالت له أوان الشتاء وهو لابس قميصاً فقط إلبس ثوبك فوق القميص . فقال لها لا لأني أبرد به أكثر . ولامه أبوه على قراءته بصوت صلق فقال له لمَ هذا الصلق في القراءة قال لا أقدر أن أصرخ أكثر . وخفي عليه يوماً معنى الزيارة فقالت له أمه اذا سرت اليوم الى السيدة فلانة لأنظرها فقد زرتها . قال قد فهمت انك تسيرين اليها كي تخدعيها . وقالت له امه ان فلانة التي كانت تحسن اليك قد ماتت فسكت ساعة ثم قال . قد حزنت عليها كما حزنت على موت اختي . الله يبعثها الى الجنة هي وزوجها حالا . وقال يوماً لوالده ان معلمنا اليوم قد اشترى قضيباً ليضرب به الأولاد ولكنهم يغضبونه عمداً حتى يضربهم به فينكسر فاستريح انا ايضاً . وقال لأمه وقد مرضت اذا جئناك بالطبيب ولم يشأ الله ان يشفيك فما الحاجة الى دواء . وقال لها مرة اخرى استعملي هذا الدواء فلعلك تمرضين . وأراد يوماً ان يوقد النار فقال أردت ان اطفئها فما انطفأت . وقالت له امه سر الى فلانة وقل لها لاي شيء تخافين من امي انما هي بشر من بني آدم مثلك . فقال أقول لها تقول لك امي لاي شيء تنفرين منها انما هي من بني الحيوانات مثلك . وقال مرة في شيء اعجبه تبارك الله من كل عين . وقيل

له يوماً ان فلاناً يريد ان يأخذك الى مدرسته ليعلمك . فقال بعثه الله الى الجنة . قال له ابوه أتريد ان تميته . قال فكيف اقول اذاً . قال قل أطال الله عمره . قال طوّله الله . وقال لامه أتعطينني الليلة من تلك الحلواء . فقالت له ان عشنا الى الليلة . قال نحن نعيش الى غد فكيف لا نعيش الى الليل — انتهى — فطالع بذلك احد الالبّا في بلاده وقال له قد ظهر لي ان هذا كلام أبله مامره . او مدلّه توه . او مسمّه مسبوه . او عمِه مشدوه . او نمِه معتوه . فكيف صار بعد ذلك شاعراً . فقال له يحتمل ان كلامه هذا كان قد تعمده ليضحك به ابويه . او انه كان بليد البادرة ولكنه حديد الفاكرة . فان من الناس من يدهش للسؤال فلا يكاد يجيب الا خطا . فاذا أعمل فكره في خلوة احسن كل الاحسان . او انه قصد بذلك ان يكون نبيها مشهوراً بين الناس ولو بحماقة ورقاعة . فان اكثر الناس يحاول الشهرة باي وجه كان . فمنهم من يتعاطى الترجمة للكتب والتعليم وهو لا يدري شيا . ولكنه يفرح بان يضع اسمه في اول الكتاب . وبان يحشّيه بعبارات ركيكة وأقوال سخيفة من عنده . او بان يروى عنه فيقال قال فلان كذا وكذا ويكون قوله خطا وهذراً . ومنهم من يتربع في صدر المجلس بين اخوانه وأقرانه ويطفق يحكي لهم حكايات عن بلاد بعيدة ويخلط كلامه ببعض ألفاظ تعلمها من لغة العجم . فيقول لهم مثلا صان فاصون . وپاردون موسيو . ودنكوي . وفاري ول . اشارةً الى انه أطال السياحة في بلاد فرنسا وايطاليا وانكلتره وتعلم لغاتهم وهو يجهل لغته التي نشأ عليها • ومنهم من يتخذ له عمامة كبيرة يضاهي بها بعض العلماء • فان كبر العمامة يدل على كبر الرأس • وكبر الراس يدل على جودة العقل وصواب الرأي • ومنهم من يتكلف محاكاة لهجة مّا ممن عرفوا بالفصاحة فتراه يتشدق ويجعَم ويستعمل الفاظا في غير محلها • وبعدُ فلا ينبغي ان يكون الشاعر عاقلاً او فيلسوفا . فان كثيراً من المجانين كانوا شعراء • او كثيراً من الشعراء كانوا مجانين • وذلك كابي العِبَر وبهلول وعليان وطويس ومزبّد • وقد قالت الفلاسفة ان اول الهوس الشعر وأحسن الشعر ما كان عن هوس وغرام • فان شعر العلماء المتوقرين لا يكون الا مقرزَماً • فلما سمع الفارياق ذلك زهد في الشعر ورغب عنه الى حفظ الالفاظ الغريبة . لكنه لم يلبث ان رجع الى خلقه الاول •

وذلك ان أباه اخذه معه الى بعض القرى البعيدة ليجبي المال المضروب على سكانها الى خزنة الحاكم . فانزله اهلها منزلاً كريماً . وكان بالقرب من منزله جارية بديعة الجمال . فجعل الفارياق على صغره ينظر اليها نظر المحب الرانى جريا على عادة الاغرار من العشاق . من انهم يتصدون العشق في جاراتهم استخفافاً للطلب واستشفاعاً بالجارية . كما ان عادة الجارات تمهيد جيرانهن وتغميرهم اشارة الى انه لا ينبغي البحث عن الطبيب البعيد اذا أمكن التداوي عند القريب . غير ان المحنكين في الحب يبعدون في الطلب ويرودون انزح منتجع . لانهم لما جعلوا دأبهم وديدنهم اشباع النفس من هواها كان عندهم السعي في ذلك فرضاً واجباً . ووجدوا في الابعاد والنصب لذة عظيمة . اذ من فتح فاه رجاء ان تتساقط الاثمار فيه لم يعد الا مع العاجزين . والحاصل ان الفارياق هوى جارته لانه كان غِراً ، وانها هي استهوته وأطمعته لكونها جارة ، ولان منزلته من حيث كونه مع أبيه كانت تميل الناس اليه . غير ان مدة اقامته هناك لم تطل ، واضطر الى الرجوع مع أبيه وقد بقي كلفا بالجارية . فلما حان الفراق بكى وتحسر وتنفس الصُعَداء . ونخزه الوجد لان ينظم قصيدة يعبر بها عن غرامه . فقال من جملة أبيات

افارقها على رغمٍ واني أغادر عندها والله روحي

وهي أشبه بنفس شعراء عصره الذين يقسمون ايماناً مغلظة بانهم قد عافوا الطعام والشراب شوقاً وغراما . وسهروا الليالي الطويلة وجداً وهياماً . وانهم ناسمون وقد ماتوا وكفنوا وحنطوا ودفنوا . وهم عند ذلك يتلهون باي لهوة كانت ثم انه لما اطلع ابوه على تلك الابيات الفراقية لامه عليها ونهاه عن النظم . فكأنما كان قد اغراه به . فان من طبع الاولاد فى الغالب الخلاف لما يريده منهم اباؤهم ثم انه فصل من تلك القرية حزيناً كئيباً متيماً مفتوناً

الفصل الرابع

في شرور وطنبور

قد كان أبو الفاريق آخذاً في أمور ضيقة المصادر . غير مأمونة العواقب والمصاير. لما فيها من القاء البغضة بين الروس .وشغب أهل البلادما بين رئيس ومرؤوس . فقد كان ذا ضلع مع حزب من مشايخ الدروز مشهور بالنجدة والبسالة والكرم .غير انهم كانوا صفر الايدي والاكياس والصندوق والصوان والهميان والبيوت . ولا يخفى أن الدنيا لما كان شكلها كروياً كانت لاتميل الى أحد إلا اذا استمالها بالمدور مثلها وهو الدينار . فلا يكاد يتم فيها أمر بدونه . فالسيف والقلم قائمان في خدمته .والعلم والحسن حاشدان الى طاعته . ومن كان ذا بسطة في الجسم وفضل في المناقب فلا يفيده طوله وطوله بغير الدينار شيئاً . وهو على صغر حجمه يغلب ما كان كبيراً ثقيلاً من الاوطار ولبانات النفس .فالوجوه المدورة المدنرة خاضعة له أيان برز .والقدود الطويلة منقادة اليه كيفما دار والجباه العريضة الصلتة مكبة عليه والصدور الواسعة تضيق لفقده . فاما ما يقال من أن الدروز هم من ذوي الكسل والتواني وانهم لاذمة لهم ولا ذمام فالحق خلاف ذلك . أما وسمهم بالكسل فأحرى أن يكون ذلك مدحاً لهم .فانه ناشئ عن القناعة والنزاهة والزهد . غير أن الصفات الحميدة التي يتنافس فيها الناس متى جاوزت الحد قليلاً التبست بنقيضها. فالافراط في الحلم مثلا يلتبس بالضعف .وفي الكرم يلتبس بالتبذير . وفي الشجاعة بالتهور والمغامرة ، لا بل الافراط في العبادة والتدين يلتبس بالهوس والخبال . هذا ولما كانت الدروز مفرطين في القناعة اذ لا ترى من بينهم أحداً يقتحم القفار ويخوض البحار في طلب الازاء[1] وفي التأنق في الملبوس والمطعوم ولا من يسف للأمور الخسيسة ويدنق فيها . أو من يباشر الصنائع الشاقة ظن فيهم الكسل والتواني ومعلوم أنه كلما كثر شره الانسان ونهمه . كثر نصبه وكده وهمه . فالتجار من الافرنج على ثروتهم وغناهم أشق من فلاحي بلادنا . فترى التاجر منهم يقوم على قدميه

---

(١) الازاء هو سبب العيش او ما سبب من رغده

من الصباح الى الساعة العاشرة ليلاً . واما ان الدروز لاعهد لهم ولا ذمة فانما هو محض افتراء وبهتان . اذلم يُعرف عنهم انهم عاهدوا بشيء ثم نكثوا به من دون أن يحتوا من المعاهد اليه غدراً . أو أن أميرا منهم أو شيخاً رأى امرأة جاره النصراني تغتسل يوماً فأعجبته بضاضتها وبَقيلتها وبوصها . فبعث اليها من تملَّق لها أو غصبها . وانت خبير بان كثيراً من النصارى عائشون في ظلهم . ومستأمنون في حماهم . وانهم لوخيّروا أن يتركوا مستأمنهم هذا ليكونوا تحت أمن مشايخ النصارى لأبواه وعندي ان من كان يرعى حرمة الجار في حرمته كان خليقاً بكل خير . ولم يكن ليخونه في غيرها . فأمّا ماجرى من التحزّب والتألب بين طوائف الدروز وغيرهم فانما هي أمور سياسية لاتعلق لها بالدّين . فبعض الناس يريد هذا الامير حاكما عليهم وبعضهم يريد غيره . وكان ابو الفارياق ممن يحاول خلع الامير الذي كان وقتئذ والياً سياسة الجبل . فانحاز الى اعدائه وهم من ذوي قرابته فجرت بينهم مهاوش ومناوش غير مرة . وآل الامر بعدها الى فشل اعداء الامير . ففرّوا الى دمشق يلتمسون النجدة من وزيرها فوعدهم ومنّاهم . وفي تلك الليلة التي فرّوا فيها هجمت جنود الامير على وطن الفارياق . ففرّ مع امه الى دار حصينة بالقرب منها وهي لبعض الامراء . فنهب الناهبون ما وجدوا في بيته من فضة وآنية ومن جملة ذلك طنبور كان يعزف به أوقات الفراغ . فلما ان سكنت تلك الزعازع رجع الفارياق مع امه الى البيت فوجداه قاعاً صفصفاً . ثم رُدّ الطنبور عليه بعد أيام . فان من نهبه لم يجد في حمله منفعة ولم يقدر أن يبيعه اذ العارفون بآلات الطرب في تلك البلاد قليلون جداً . فاعطاه لقسيس تلك القرية كفّارة عما نهب . فرده القسيس على الفارياق وكأني بمعترض هنا يقول ما فائدة هذا الخبر البارد . قلت ان وجود الطنابير في الجبل عزيز جداً كما ذكرنا . فان صنعة الالحان والعزف بالملاهي يَسِمُ صاحبها بالشَّين . لما في ذلك من التطريب والتصبّي والتشويق . والقوم هناك يَغلُون في الدّين . ويحذرون من كل ما يلذ الحواسّ . ولذلك لا يشاؤن ان يتعلموا الغناء والعزف باحدى آلات الطرب . او يستعملوها في معابدهم وصلواتهم كما تفعل مشايخهم الافرنج . خشية ان يُفضي بهم ذلك الى الالحاد . فعندهم ان كل فن من الفنون اللطيفة كالشعر والايقاع مثلاً والتصوير مكروه . ولكن لو انهم سمعوا

ما يتغنى به في كنائس مشايخهم المذكورين من الموشحات . او ما يُعزَف به على الأرغن من اللحون التي وَلِعَ الناس بها في الملاعب والمراقص ومحالّ القهوة استجلاباً للرجال والنساء . لما رأوا في الطنبور رائماً . فان الطنبور بالنسبة الى الارغن كالغصن من الشجرة او كالفخذ من الجسم . اذ لا يسمَع منه الا طنطنة وفي الارغن طنطنة ودندنة وخنخنة ودمدمة وصلصلة ودربلة وجلجلة وقلقلة وزقزقة ووقوقة وبقبقة ونقنقة وطقطقة ودقدقة وقعقعة وفرقعة وشخشخة وخشخشة وجرجرة وغرغرة وخرخرة وقرقرة وبربرة وطبطبة ودبدبة وكهكهة وقهقهة وبعبع وبعبعة وزمزمة وهمهمة وحمحمة وغطمطمة وتأتاة ودأداة وضاضاء ويايآء وقاقآء وصهصلق وجلنبلق وغطيط وجخيف وفحيح وحفيف ونشيش ورنين ونقيق وطنين وعجيج وأزير ودوي وخرير وأزيز وهرير وصريف وصرير وشخب وصبي وموا وغاق غاق وغق غق وطاق طاق وشيب شيب ومي مي وطيخ طيخ وقبق قبق وخازباز وخاق باق . فاين هذا كله هداك الله من طن طن . فان قيل ان الرغبة عن العزف به انما هو لكونه يشبه الآلية . قيل فما بال النساء يدخلن الكنائس وعلى رؤسهن هذه القرون الفضة وهي تشبه فنطيسة الخنزير اجلّك الله عن ذكره . وفنطيسة الخنزير أجلك الله عن ذكره تشبه كذا وكذا . فقد تبين لك ان اعتراضك غير وارد . وان ذكر الطنبور كان في محلّه . فان أبيت الاّ العناد وتصدّيت لان تخطّئني وتتعقبني بزلة قلم وبغير زلة . ورمت ان تبدي للناس براعتك في الانتقاد عليّ فاني أمسك عن اتمام هذا الكتاب . ولعمري لو انك علمت سبب شروعي فيه وهو التنفيس عن كربك وتسلية خاطرك لما فتحت فاك عليّ بالملامة في شيء فقابل الاحسان أصلحك الله بالاحسان واصبر عليّ حتى أفرغ من غزل قصتي . وبعد ذلك فان عنّ لخاطرك ان تلقي بكتابي في النار او الماء فافعل . ولنعُد الآن الى الفارياق فنقول انه أقام مع والدته في البيت يتعاطى النساخة . وانه لم يلبث ان ورد عليه نعي والده في دمشق . فتفطر قلبه لهذا الفجع وودّ لو بقي الطنبور عند ناهبه . وكانت امه تنفرد في كل صباح وتندب زوجها وتتحسر عليه وتذرف المدامع لفقده . فانها كانت من الصالحات المتحببات لازواجهن عن خلوص وداد وصدق وفاء . وكانت تظنّ ان ابنها لا يراها في انفرادها حتى لا يزيد حزنها برؤيتها اياه يبكي لبكائها . لكن

الفارياق كان ينظرها في خلوتها ويبكي لوحشتها ووحدتها أشد البكاء . فاذا رجعت كفكف عبراته وتشاغل بالكتابة او بغيرها . ومذ ذلك الوقت عرف انه لا ملجأ له بعد الله غير كدّه نعكف على النساخة . غير ان هذه الحرفة مذ خلق الله القلم لا تكفي المحترف بها ولا سيما في بلاد لوقع قرشها طنين ورنين . ولرؤية دينارها تكبير وتعويذ الا ان ذلك جوّد من خطّه ورقّق من فهمه

الفصل الخامس

في قسيس وكيس وتحليس ولحيس

من قرأ آخر الفصل المتقدم ثم أتاه خادمه يدعوه للعشا فترك الكتاب وقام يستقبل الكاس والطاس والقدح والكوب مما اختلفت أشكاله وتفاوتت مقاديره . ثم أقبلت عليه اخوانه يسامرونه فمنهم من قال له في ضربت اليوم جاريتي ونزلت بها الى السوق على عزم أن أبيعها ولو بنصف ثمنها . وذلك لأنها أجابت سيدتها جواباً سخيفاً . ومنهم من قال له وأنا أيضاً ضربت ابني أشد الضرب لأني رأيته يلعبُ مع أولاد الجيران ثم حبسته في الكنيف وهو باقٍ الى الآن فيه . وبعضهم قال وأنا أيضاً حرّجت اليوم على زوجتي بأن تطلعني على جميع ما يخطر ببالها ويختلج صدرها من الأفكار والهواجس . وبما تحلمه أيضاً في الليل من الأحلام التي تنشأ عن امتلاء الدماغ من بخار الطعام . أو من دخان الغرام قبل النيام . وقلت لها ان لم تخبريني باليقين أضريت بك أبانا القسيس فيكشرك ويحظر عليك ثم يستخرج منك كل ما تكتمين وتضمرين ويطلع على كل ما تسترين وتخفين وتصونين وعلى ما تحذرين منه . وتحرصين عليه . وترتاحين له وتميلين اليه وتتكلفين به . وقد خرجت من داري غضبان متنمراً وجزمت بأن لا أصالحها الا اذا كانت تقصُّ عليّ أحلامها . وبعضهم قال ان مصيبتي في بنتي أعظم . وذلك انها بعد أن تمشّطت اليوم وتعصّبت وتعطّرت وتطيّبت وتطاوست وتبرقشت وتزيّنت وتبرّجت وتزيّغت وتضرّجت وتزخفت وتزبرجت وتشوّفت وتسرجت

وتنقشت وترقشت وتزهنمت وبرقت وتحفلت وتزوقت وتقينت وتزلقت وتزبرقت وتالقت جلست بالشباك لتنظر الواردين والصادرين . فنهيتها عن ذلك فانصرفت ثم خالفتني فرجعت الى موضعها . وأوهمتني أنها تخيط هناك بعض ملبوس لها . فكانت كلما غرزت بالابرة غرزة تنظر نظرتين . فنهضت اليها مستشيطاً غيظاً وجبذتها بشعرها الذي مشطته وضفرته وعقصته فطلع بيدي منه خصلة وها هي معي . وهيهات أن تنتهي عن غيها ولو نتفت شعرها كله . فانها كالمهرة الجامحة بغير عنان . لا يردها الكم بالاكف ولا ضرب بعيدان . نعم ان من ملأ أعصاله بألوان الطعام . وأذنيه بمثل هذا الكلام فلا بد وأن يكون قد نسي ماجرى على الفارياق من الوقوع الحسي والمعنوي ومن فجعه بنعي أبيه . ومن اقباله على نسخ الكتب واكتسابه من ذلك جودة الخط فمن ثم اضطررت الى الاعادة . وأزيد هنا أن أقول . انه لما شاعت براعته في النسخ أرسل اليه من اسمه على وزان بعير يبعر يستدعيه لنسخ دفاتر كان يودعها كل ما كان يحدث في زمانه وليس الغرض من ذلك افادة أحد من العالمين . وانما كان اسـ كا للحوادث من أن تتفلت من مدار الأيام . أو تنفك من سلسلة الأحوال . فإن كثيراً من الناس يرون أن احضار الماضي وجعله حالا منظراً من الأمور العظيمـة . ولذلك كانت الافرنج حراصاً على تقييد كل ما تقع عندهم . فخروج عجوز من بيتها صباحاً وعودها اليه في الساعة العاشرة وهي تقود كلباً لها . والريح عاصفة والمطر واكف لا يفوت أقلامهم ولا يعدو خواطرهم . ففي مقدمة ديوان لامرتين أعظم شعراء الفرنساوية الموجودين في عصرنا هذا وهو الديوان الذي سماه التأمل الشعري ما ترجمته . وكانت العرب يدخنون التبغ في قصبات لهم طويلة وهم سا كتون وينظرون الى الدخان متصاعداً كأعمدة زرقاء لطيفة الى أن يضمحل في الهواء اضمحلالا يشوق الرأي . والهواء اذ ذاك شفاف لطيف الى أن قال . ثم ان صحبي من العرب جعلوا الشعير في مخال من شعر المعزى ووضعوها في أعناق الخيل وهي حول خيمتي . وأرجلها مربوطة في حلق من حديد وهي غير متحركة . ورؤسها مخفوضة الى الأرض مظللة بنواصيها الشعثة . وشعرها أشهب براق يخرج منه دخان تحت أشعة الشمس الحامية وكانت الرجال قد اجتمعت تحت ظل زيتونة من أعظم ما يكون . وفرشوا تحتهم على الارض حصيراً

شاميًا وأخذوا في الحديث والحكايات عن البادية وهم يدخنون التبغ. و ينشدون اشعار عنتر وهو من شعراء العرب الذين اشتهروا بالحماسة والرعاية (اي رعاية البهائم) والبلاغة وقد بلغت اشعاره منهم مبلغ التنباك في الاركيلة . وحين كان يرد عليهم من الابيات ما يؤثر في حسهم اكثر كانوا يرفعون ايديهم الى آذانهم ويطرقون برؤسهم ويصرخون تارة بعد تارة الله الله الله . الى ان قال في وصف امرأة رآها تبكي عند قبر زوجها وكان شعرها مسدلا من عند رأسها ملتفًا عليها ومماسًّا للارض . وكان صدرها مكشوفًا كله على ماجرت به العادة عند نساء تلك البلاد من بلاد العرب . وحين كانت تتطأطأ لتلثم صورة العمامة على رجال القبر او تصغي اذنها اليه كان ثدياها البارزان يمسان الارض ويرسمان في التراب شكلهما كالقالب . اه صفحة ٢٤ وسائر هذه المقدّمة على هذا النمط مع أنه سمّاها مقدور الشعر أي ماقدّره الله تعالى على الشعر والشعراء. وفي رحلة شاطو بريان الى أميركا وهو أيضًا من أعظم شعراء عصره ماصورته . وكان منزل رئيس الدّول المتحدة عبارة عن دار صغيرة مبنيّة على أسلوب الانكليز في البناء من دون خفرة عندها من العسكر ولاحشم داخلها . فلما قرعت الباب فتحت لي جارية صغيرة فسألتها هل الجنرال في البيت فأجابت نعم. فقلت ان عندي رسالة أريد أن أبلّغه اياها . فسألتني عن اسمي وصعب عليها حفظه فقالت لي بصوت منخفض ادخل ياسيدي (وأورد هذه العبارة باللغة الانكليزية Walk in sir تنبيها على معرفتها) ثم مشت أمامي في ممشى طويل كالدهليز . ثم دخلت بي الى مقصورة وأشارت اليّ أن أجلس فيها منتظرًا الخ صفحة ٢٥ . وفي موضع آخر انه رأى بقرة عجفاء لامرأة من هند أميركا فقال لها وهو راث لحالها . مابال هذه البقرة عجفاء . فقالت له انها تأكل قليلًا واورد هذه العبارة ايضًا باللغة الانكليزية وهي (She eats very little.) وفي موضع آخر ذكر انه كان يرى كسف السحاب بعضها في شكل حيوان و بعضها في شكل جبل او شجرة وما اشبه ذلك . فاذ قد عرفت هذا فاعلم ان اعتراضك عليّ في ايراد ماهو غير مفيد لك لكنه مفيد لي لا يكون الا تعنتًا . فان هذين الشاعرين كتبا ما كتباه ولم يخشيا لومة لائم ولم يعترض عليهما احد من جنسهما . وقد اشتهر فضلهما وصيتهما حتى ان مولانا السلطان ادام الله دولته اقطع لامرتين في ارض ازمير اقطاعات

عظيمة . ولم يسمع عن ملك من ملوك الافرنج انه اقطع شاعراً عربيّاً اوفارسياً اوتركياً مقدار جريب واحد في ارض عامرة .ولا غامرة فأما كون وزان بعير بيعر قد حاكى الافرنج فى تاريخه وهو عربي وابواه ايضاً عربيان وعمّه وعمّته كذلك عربيّان . فمما لم اتيقنه الى الآن . ولعلي اعلمُه بعد انجاز هذا الكتاب فاخبر به القاريء ان شاءالله. وانما ارجوانه اي القاريء لا يقطع قراءته لجهله سبب هذه المحاكاةوان يكن العلم به مهمّاودونك مثالاً مما كان يكتبه الفارياق فى اساطير بعير بيعر . فى هـذا اليوم وهو الحادي عشر من شهر اذار سنة ٨١٨ قُصّ فلان ابن فلانه بنت فلانة ذنب حصانه الاشهب بعد ان كان طويلاً يكنس الارض . وفي ذلك اليوم بعينه ركبه فكَبا به . فان قلت ماسبب النُسبة الى الامّ دون الابِ قلتُ ان بعير بيعر كان من المتديّنين . المتورّعين المتقين . فنسبة الولد الى امّه اصح واصدق من نسبته الى ابيه . فان الامّ لا تكون الا واحدة بخلاف الاب .ولكون الجنين لايمكنه الخروج الامن مخرج واحد ومن ذلك اليوم نظرت سفينة فى البحرماخرةفظُنّ انها بارجة قدمت من احد مراسي فرنسا لتحرير اهل البلادلـكنه عندالتحقيق ظهر انهاانما كانت زورقاًمشحوناً ببراميل فارغة وكان سبب قدومه للاستقاء من عين كذا . فان قيل ان هذاخلاف المعهود. فان من شأن الـكبير ان يبدو للعين عن بُعدصغيرا لاعكسه . قيل ان الانسان اذا أعطى نفسه هواها رأي الشيء بخلاف ما هو عليه . فمن أحبَّ مثلا امرأة قصيرة لم يرَ بها قِصَراً . ومن خلا بمحبوبته في فترة رآها أوسع من صرح بلقيس . وبعدُ فانا نرى النور الصغير عن بُعدٍ كبيراً . فلا غرو ان يبدو الزورق بارجة او شونة . فان القوم هناك ما زالوا يحلمون بان روسهم قد تبرطلت ببراطل الفرنساوية وحموا عِرْضهم بعرضهم حتى يروا نساءهم كما قال الشاعر

تصيد ظباؤنا الأُسْدَ الضواري بلحظ او بلفظ في المسالك
وغزلان الفرنج تصيد أيضاً بذين معا وبالايدي كذلك

وكان بعير بيعرستَّهما جَمْظَراً أُحزقَّة . لـكنه كان حليما يحب السلم والدَّعة . وكان من التغفّل على جانب عظيم . فكان مفوِّضاً اموره المعاشية الى رجل لئيم شرس الاخلاق عَيذَهٍ به كِبر وعُنْجُهيَّة وعجرفة وتفجّس وغطرسة . وكان تمضي

عليه الساعة والساعتان وهو لا يبدي ولا يعيد . فيظن الغرّ انه معمل فكره في تدبير الدُوَل . او تلخيص النِحَل . فقد جرت العادة بان الرجل اذا كان ذا منزلة رفيعة فان كان عيّيا مفحما عُدّ رزيناً وقوراً . وان يك مهذاراً عدّ فصيحاً . فاما اموره المعاديَّة فانها كانت تعلو وتسفل وتضوي وتجزل وتُفتَق وترتق بتدبير قسيس ذي دعابة وفكاهة و بشاشة وهشاشة . قصير ثمين . أبيض بدين . وكان هذا القسيس الصالح قد تمكن من حريمه تمكناً لا يباريه فيه النسيم . وألقى عصاه عند احدى بناته وكانت ذات وجه وسيم . ومنطق رخيم . وكانت تزوجت برجل قد جُنّ وتخبّل فخلّته وجنونه واعتصمت بعقوة أبيها فكان القسيس آمراً عليها مطاعاً . ناهياً وزاعاً . فكانت كلما دخل فيها شيء او خرج منها شيء تطالعه به لانها كانت ممن قمَط قُطرَى الدّين والدنيا معاً . وكانت تعترف له بجرائرها في الخلوة . وهو يسألها عن كل زلة وهنوة . فيقول لها هل تتذبذب أليتاك ويترجرج ثدياك عند صعودك الدرج او عند المشي . وهل يحدث فيك هذا الارتجاج من لذة . فقد ورد في بعض الاخبار ان بعض الجلاعظة كان يرتاح الى اي ارتجاج كان . حتى كان كثيراً ما يتمنى ان تتزلزل الارض من تحته . وتمور الجبال من فوقه . وهل يمثل لك في الحلم ضجيع يكافحك . وخليع يصافحك اذ لا فرق عند الله بين اليقظة والمنام . وان أعظم الحقائق انما بُني على الاحلام . وهل وسوس اليك الوسواس الخناس فاشتهيت ان تكوني خُنثى . اي ذكراً وانثى لا لا ذكر ولا انثى كما تقول العامة . فان هذا القول لم يرتضه المحققون من الرّبانيين الرّاتين وغير ذلك من المسائل التي يضيق عن تفصيلها هذا الفصل . وكان ابوها لا يسيء به الظن لما تقرّر عنده من ان كل من لبس السواد فهو من القاطعين اهواءهم عن اللّذات . الخاصين انفسهم عن الشَّهوات حتى انه نظر يوماً في بعض الكتب هذا البيت وهو

وذمّوا لنا الدّنيا وهم يرضعونها   افاويق حتى ماتدرّ لنا ثعل

فظن انه تعريض بهم وتلميح اليهم. فأمر باحراقه فأحرق وذرّى رماده . ورآى يوماً آخر بيتين في كتاب آخر وهما

مابال عيني لاترى من بين من   لبس السواد من العباد نحيفاً

ما كان من لحم وشيٍ غيره فيهم فاصلب ما يكون وقوفاً

فأمر أيضاً باحراق الكتاب . وبعث جواسيس في البلد يتجسّسون عن مؤلفه ونودي في الروابي والوهاد . ألا من دلّ على مؤلف كتاب كذا فانه يجزى أحسن الجزاء . ويرقى الى رتبة سنيّة . فلما سمع المؤلف بذلك اضطرّ الى الاختفاء مدّة حتى نُسي اسمه . فان قلت ان هذا الفعل خلاف ما وصفته به من الحلم قلت ان عادة أهل تلك البلاد أن الحلم يكون محموداً في كل شيءٍ الاّ في أمرين حُرمة العِرض وحرمة الدين فان الاخ ليُنسِل اخاه الى الهلكة من اجلهما . ثم ان الفارياق أقام عند هذا الحليم مدّة لم يحصل فيها على طائل . وكانت نفسُه عزيزة عليه فلم يرد أن يسأله . فمن ثمّ جمع ذات ليلة حطباً وتبناً كثيراً وأطلق فيهما النار فانبعث اللهيب نحو مقصورة بعير بيعر . فظن ان النار قد سرت في قصره . فاستوشى القيام والقعود فاقبلوا يتسابقون الى موضع النار . فرأوا عندها الفارياق يزيدها من الحطب الجزل . فسألوه عن ذلك فقال ان هذه النار من بعض النيران التي تنوب عن اللسان . وان لم يكن لها صورة لسان . ومن فوائدها انها تنبّه الغافلين . وتنذر الداخلين . انّ ورآءها لقولاً شديداً ولساناً حديداً . فقالوا ويحك انما هي من بدعك او يكلم احد بالنار . لقد سمعنا ان الانسان يكلم غيره ببوق او بقرع عصا او باشارة أصبع او بغمز عين او برمز حاجب او برفع يد من عند الابط . فاما بالنار فبدعة وضلال . وكادوا ان يبدّعوه ويكفروه وينسبوه الى التمجّس ويطرحوه النار . لولا أنْ قال قائل منهم . ردوا الجواب على مرسلكم . ولا تفعلوا شيئاً عن تهوّك . فلما أخبروه بما رأوا وسمعوا . استرآه واستنطقه عن ذاك الاجيج . فقال أصلح الله المولى . وزاده فضلاً وطولاً . قد كان لي كيس لا ينفعني ولا أنفعه . وللا كياس وما جاء على وزنها وروِيّها عادة مخالفة لسائر العادات وهي أنها اذا خفَّت ثقُلت . واذا ثقلت خفّت . فلما خفّ كيسي في جوارك السعيد اي ثَقُل أحرقته بهذه النار . وانما جعلتها عظيمة هكذا لاني كنت أتوهمه كرضوى في جيبي . حتى انه كثيراً ما منعني عن النهوض والخروج لحاجة مهمّة . فلما سمع قوله ضحك من خرافته ورضخ له من كفّه الجامدة شيئاً يقابل ما كتبه له الفارياق في اسفاره في الخساسة . فاقبل يخبش الى بيته وآلى ان لا يكتب شيئاً بعد ذلك الا

ما طاب موقعه . وجل نفعه . رجاء ان تكون الاجرة على قدر العمل . وهيهات فان اكثر الناس نفعاً وشغلا . أقلهم أجراً وجعلا . ومن لم يحسن الا التوقيع . احل المحل الرفيع . ولُقِمت يده وقدمه كما يلقم الثديَ الرضيع

الفصل السادس

في طعام والتهام ٠

بينما كان الفارياق رأسه ورجلاه في البيت كان فكره يصعِّد في الجبال . ويرتقي التلال . ويتسوّر الجدران . ويتسنم القصور ويهبط الاودية والغيران . ويرتطم في الاوحال . ويخوض البحار . ويجوب القفار . اذ كان أقصى مراده أن يرى منزلا غير منزله . وناساً غير أهله . وهو أول عناء الانسان في حياته . فعنّ له أن يزور أخاً له كان كاتباً عند بعض أعيان الدروز . فسار وحقائبه الاماني . فلما اجتمع به ورأى ما كان عليه القوم من الخشونة والتقشف ومن الاحوال المغايرة لطباعه . أنكر بعضها ووطَّن نفسه على تحمل البعض الآخر . ولم يشأ وشك الرجوع من دون تقضّي معرفتهم . ولو كان رشيداً لَصرَف نفسه عن هواها من أول يوم . اذ ليس من المحتمل ان أهل مدينة او قرية يغيّرون أخلاقهم وما ربوا عليه لاجل غريب دخل فيهم . ولا سيما اذا كانوا شياظمة ذوي بسطة وبأس . وكان هو قميًّا . ولكن الانسان كلما قلّ شغله كثر فضوله . فلا يكتفي بمجرد ما يسمع باذنه حتى يرى بعينه . وكان الفارياق كلما زاد بهؤلاء القوم خبرة ونقداً . زاد اعراضاً عنهم وزهداً . لانهم كانوا غلاظ الطباع . بهم جفاء وافظاع . وسِخي الوساد والملبوس . ملازمي الضَفَف والبؤس . وأقذرهم كان طباخ الامير . فان قميصه كان أنتن من المِمحاة . وقدميه أقلتا من الوسخ مالا تكاد تكشطه عنه المِسحاة . وكانوا اذا قعدوا للطعام سمعت لهم زمزمة وهمهمة . وقعقعة وطمطمة . فخلتهم وحوشاً على جيفة . يثرملون ويرهطون وينهسون ويتعرقون ويتمششون ويتلمَّظون ويتمطّقون ويلوسون ويلطعون ويتنطعون وكل ذلك في فرشطة

خفيفة . فكنت ترى في جبهة كل منهم مضمرن ماء قبل من لَفلَف . لم يتقصّف . اذا قاموا رأيت الرُزّ مزروعاً في الحاهم . والوضر متقاطراً من كساهم . فكان الفارياق اذا آكلهم قام جوعاناً . ومدت عليه امعاؤه في الليل . فبات سهراناً . فكان يقول لاخيه عجباً لمن يعاشر هؤلاء الناس . من الاكياس . ما الفرق بينهم وبين البهائم . سوى باللحى والعمائم . لا جرم انهم عائشون في الدنيا لسدّ بصائرهم وافكارهم . ولفتح أفواههم وأدبارهم . لا يكاد أحد منهم يظن ان الله تعالى خلق بشراً الا وكان دونه وما يدرون ان الانسان ليس له بمجرد النطق فضل على العجماوات . ومزية على الجمادات فان الكلام انما هو مادة لصورة المعاني . ولا تنفع المادة وحدها اذا لم تحلّ فيها الصورة التي هي الوجود الثاني . وقد يقال ان الرقين . تغطي أفن الافين . وهؤلاء قد حُرموا من العقل والنعمة . ورضوا من الكون كله بالنسمة . كيف تطيق ان تعاشر هؤلاء الهمج وفضلك بين الناس قد بلج . فقال له أخوه ان كثيراً ليحسدونني على مكانتي عند الامير . واني لكيد حسادي أصبر على العسير كما قيل

وكم أشياً يحسبها الناس لفاعلها نعيما وهي بؤسُ
ولولا أن يكيد بها حسوداً لانكر ذكرها وبه عبوسُ

وفضلاً عن ذلك فان القوم ذوو نخوة ومروءة . وشهامة وفتوّة . وانهم وان يكونوا سيئي الادب على الطعام . فهم متأدبون في الفعال والكلام . لا ينطقون بالخنى . ولا يُعرَف بينهم لواط ولا زنا . غير ان الفارياق كان يري الادب كله في المأدبة فكأنه كان قد تخرَّج على بعض الافرنج او كان له فيهم نسبة . فمن ثم استدعى بقريحته على هجوهم فلبّتــه . ونادى القوافي لوصفهم فاجابته . فنظم فيهم قصيدة بيّن فيها سوء حالهم . وخشونة بالهم . من جملتها

في ثغر كلّ منهم سكينة وصلاحه الماضي فأين المُطعِمُ

ثم عرضها على أخيه وكان مشهوداً له بالادب . وعلم لغة العرب . فاستحسنها منه على صغر سنّه . وأعجب ببراعة فنّه . ثم لم يلبث أن اشتهر أمرها . وشاع ذكرها . وذلك لان أخاه من شدة اعجابه بها تلاها على كثير من معارفه فبلّغها بعض الحساد الى أمير البلاد . وكان هذا المبلّغ نصرانياً فان الحسد لا يكون الا عند النصارى . مع

ان كثيراً ممن تليت عليهم من الدروز كانوا داخلين في عداد المهجوّين . فلما سمع الامير بذلك استاء جداً وقال لاخيه . تالله لقد جاء اخوك امراً فرياً . كيف يهجونا وهو ضيفنا وقد أنزلناه منزلاً كريما . وسقنا اليه رزقاً عميماً . لعمر الله لئن لم يتدارك هجوه بقصيدة مدح لأغيظنّه . وكان هذا الامير متصفاً بصفات العرب في الفروسة والنجدة . وفي شراء الحمد جهده . غير انه كان يُكل الامور الى المقدور . ولا يهمه ترتيب حاله . والنظر في ماله . ثم خشي من ان يكون هذا الوعيد ادعى الى زيادة الهجو اذا فصل عنه الفارياق وهو مغيظ . فرأى ان الاغضاء . أجلب للارضاء . وان التملُّق . أوفق للتلفق . فمن ثم سارّ صديقاً له من علماء ملته . وفُضَلا نحلته . ان يصنع مأدبة ويدعوه اليها والفارياق واخاه . فلما جمعهم النادي . وجيء بالحلواء على اطباق كالهوادي . أقسم الامير قائلاً والله لا أذوقن من هذا شيئاً او ينظم أبو دلامة يعني الفارياق بيتيَ مدح ارتجالاً . فابتدر وقال بديها

قد كاد طبع أبي دلامة انه يهجو لان الهجو وفق جنانهِ
لكنما هذا الخبيص نهاه اذ مُزِجَتْ حلاوته بمرّ لسانهِ

فجُنَّ الحاضرون استحساناً لهما . حتى ان الامير لم يتمالك ان صافح الفارياق وقبَّله بين عينيه فانعقدت بذلك الموادعة ورجع كل راضيا . وقفل صاحبنا الى بيته . وآلى ان لا يعقد فيما بعدُ ناصيته بذنب أحد من كبراء الناس . وان يسد أذنيه عن صوت صيتهم وان غلب على الاجراس

الفصل السابع

في حمار نهّاق وسفر واخفاق

ثم لبث الفارياق يتعاطى حرفته الاولى وملّ منها ملل العليل من الفراش . وكان له صديق صدوق يراقب أحواله . فاجتمع به مرة وخاضا في حديث أفضى الى ذكر المعاش . والتظاهر بين الناس بأحسن الريش . فقرّ رأي كل منهما على ان الانسان في

عصرها لا يُعدّ انساناً بفضله ومزيّته . بل ببزّته وزينته . وان الناس المولودين من الخزّ والحرير والقطن والكتان الملقين في أوتاد حوانيت التجار أعظم قدرا من الناس الماشين العارين عنها . وان المرء اذا كان ضيّق الصدر والرأس . بحيث يكون واسع السراويلات والالباس . كان هو النبيه الآفق المشار اليه بالبنان . المحمود بكل لسان . فاجمع رأيهما على أن يستبضعا بضاعة ويقصدا ترويجها في بعض البلاد استطلاعاً لحال أهلها وتفرّجاً من كرب الهما . فاكتريا حماراً لحمل البضاعة وهو لا يستطيع حمل جثته من الهُزال والضَّوَى فضلاً عن عِلاوته . ولم يكن قد بقي فيه شي شديد سوى نُهاقه وزُقاعه . فالاول للاستعلاف . والثاني لمن ينخسه او يلقي عليه الاكاف . ثم سارا وهما يفصّلان ثوب النجاح على قامة الآمال . ويقدّران بساط الفوز على نُدحة الاجال . فما بلغا طيّتهما الا والحمار على شفا جُرف هارٍ من رَمَقه . والفارياق أيضاً زاهق الروح من تعبه وقلقه . نادم على ترك القلم الضئيل . مما كان ينفث به من الرزق القليل . ويومئذ عرف عاقبة الجشع وتبعة الرثع . وظهر له سَفاه رايه في الشراهة الى مايوجب نَصَب الابدان . وبَلبال الجنان . غير ان اللبيب من استخرج من كل مضرة منفعة . ومن كل مفسدة مصلحة . حتى ان في فقد الصحة لنفعاً لمن رشد وخيراً لمن قصد . اذ العليل وهو ممدود على وساده . تقصر نفسه عن التمادي في فساده . وفي شهواته المنكرة وأهوائه الموبقة . فتقوى بصيرته والمرض ناهكه . ويملك سداده والالم مالكه . ويُرضي الله والناس بما هو سالكه . وهكذا كانت حال الفارياق . بعد مقاساته تلك المشاق . فانه لما أحسّ بضنك السفر . ولقي منه ما لقي من الضرر . تبين له ان شق القلم أوسع من حقائب البياعة . وان سواد المداد أبهى من ألوان البضاعة . وان في ترويج السّلعة لمَعرّةً دونها معرّة الغُدّة والسَّلعة . فجزم بانه عند الاياب الى وطنه . يرضى بلين العيش وخشنه . ولا يبالي ان لم يكن ذا شارة رائعة . اوطَلالة رافعة . اومعيشة واسعة . بحيث لا يجوب أمصاراً . ولا يتلو حماراً . أما وصف الحمار على أسلوبنا معاشرَ العرب فانه كان زبوناً بليداً . حروناً عنيداً . نارزاً نديداً . لا يكاد يخطو الا بالهراوة . واذا رأى نقطة ماء في الارض ظنّها بحراً ذا طُفاوة فأجفل منها اجفال النعام . ووَجِل كما يُوجِل من الحِمام . وأما على الطريقة الافرنجية فانه كان حماراً ولد حمار وأمّه أتان من

جبل كلهم بجمير . وكان لونه يضرب الى السواد . ومس شعره كمس القتاد مصلّم الاذنين ولا نشاط . اعسم الرجلين بادى الامعاط . ادرم أفوه . أذلم أقره . يفرنكح في بسّه . ويرفس عند نخسه . ويكرف ويتمرغ . وبشغ ويبدع لا تحيك فيه العصا . ولا يعمل فيه الزجر اذا عصي . ولا يتحرك الا اذا أحس بالعلف وان يكن زؤانا . ولا تظهر فيه الحيوانية الا اذا رأى اتانا . فيريك ح سموها واستنانا . ونشاطاً وصميانا . حتى كثيراً ما كان يقلب حمله . ويفسد عدله . وفيه خلّة اخرى وهي انه كان دائم الاحداث على قلة إعمال ضرسه ! مواصل الغنق في النجوة والخفض زيادة على نحسه . فان منشأه كان في بلاد يكثر فيها الكرنب والفجل والسلجم . واللفت والقنبيط كبعض بلاد العجم . فلهذا اعتاد على اخراج هذه الرائحة من صغره . وزادت فيه بازدياد عمره . فكان لا بدّ الماشي خلفه من سد أنفه والاكثار من أفه . وفي كلا الوصفين فان رفقة هذا البهيم . لم تكن أقل أذى من السفر الاليم . وانه بعد جولان عدة قُرى . ليس فيها من مأوى ولا قِرى . وبعد مجادلات مع الشارين طويلة . ومحاولات ومصاولات وبيلة . قنع الفارياق وشريكه من الغنيمة بالاياب . ورضيا باللفآ والعود الى المآب . وعلما ان البئر الفارغة لا تمتلئ من الندى . وان التعب فى تجارتهما يذهب سُدى . فتسببا في بيع البضاعة بقيمتها كيلا يشمت بهما من ينظرهما راجعين بأهبتها . وباتا تلك الليلة خاليِ البال . من القيل والقال . فان من الناس من لا يعجبه شراء شئ الا بعد تقليبه . وبعد تحميق بائعه وتكذيبه . فلا بدّ للبائع من ان يكون عن مثل هولا متصاماً متغافلاً . متعامياً متساهلاً . وتلك خلّة لم تكن في الفارياق ولا فى صاحبه . فان كلاً منهما كان يحاول استمالة السكون الى جانبه . ثم انهما رجعا بثمن البضاعة وبالحمار وسلّما المال لصاحبه . فعرض عليهما سلعة اخرى فأبيا . وتواعدا أن يجتمعا مرة اخرى للشركة في مصلحة أهمّ . وآثرا ان تكون في البيع والشراء . وقد جرت العادة بين الناس بانه اذا تعاطى أحد عملاً ولم ينجح به أول مرّة لجّ به الشره الى معاطاته مرة اخرى . اذ ليس أحد يرضى لنفسه نحس الطالع وشؤم الجدّ . وانما ينسب حُرفه فيما احترف به الى بعض عوارض وطوارئ حدثت له . فيقول فى نفسه لعلّ هذه العوارض لا تقع هذه المرّة .

وعلّة ذلك كله اعتماد الانسان على رشد نفسه . وثقته بسعيه والركون الى حدسه . وقد تهوّر في ذلك كثير من الخلق . واكثرهم جنى على نفسه في التهافت على الرزق

الفصل الثامن

في خان واخوان وخِوان

ثم انه بعد مذاكرة طويلة بين الفارياق وصاحبه قرّ رأيهما على ان يستأجرا خاناً على طريق مدينة الكعيكات . حيث ترد القافلة منها الى مدينة الركاكات . فاستبضعا ما يلزم لهما من الميرة والادوات ولبثا فيه يبيعان ويشتريان بما تيسر لهما من رأس المال وذنبه . فلم تمض عليهما برهة وجيزة حتى انتشر صيتهما عند الواردين والصادرين . وعرف رشدهما جميع المسافرين . فكان الناس يقصدونهما لاقتصادهما . وكثيراً ما انتاب خانهما أهل الفضل والبراعة . والوجاهة والاستطاعة . حتى كأنه كان حديقة يتفرّج فيها المكروب . وعادة أهل ذلك الصقع انهم لا يكادون يجتمعون في محل الاّ ويتنازعون كاس البحث والمناظرة . ويخوضون في امور الدنيا والآخرة . فان أثبت أحد شيئاً نفاه الآخر . وان استحسنه استهجنه وزعم انه من المُنكَر . فيتحزب القوم احزاباً قِدَداً . ويمتليء المكان صخبا ولِدَدا . وربما انتهى البحث الى التفاخر بالنسب . والتكاثر بالحسب . فيقول احدهم مثلاً لقرينه . أتردّ عليّ وأبي نديم الامير سميره واكيله وشريبه وجليسه وأنيسه وخصيصه ونجيّه . لا يقضى ليلة من الليالي الاّ ويستدعى به لمسامرته . ولا يحكم بشيء الاّ بعد مشاورته . وقد عرف أهلي من قديم الزمان بانهم سُفراء البلاد . ونواميس الامجاد . وما أحد من الناس ماجدهم ولا شارفهم ولا كاثرهم ولا فاخرهم ولا فاضلهم الا وعاد ممجوداً ومشروفاً ومكثوراً ومفخوراً ومفضولاً وربما اعملت بعد ذلك الهراوات . وقامت مقام البينات . فيتنمر منهم من لم يكن يتنمر ويعربد من سكر . ومن لم يسكر . فينتهي الامر الى أمير الصُقع . فيبعث عليهم مصادرين ذوي صقع . وويل لمن يكون قد ذكر اسم الامير وقت الجدال . فان

عفوه حينئذ من المحال . فأما في الحوادث العظيمة فان المتعدّى اذا فرَّ من القصاص أُخذ بذنبه أحد اهله أوجيرانه أو ماشيته أو ماعونه وُقطع شجره وأُحرق منزله . غير أن زمرتنا هذه لم تكن تتعدّى حدّ الجدال الى القتال . فان الفارياق وصاحبه كانا يقومان فيهم مقام فَيصل . فمن هذه الحيثية كثر الوفود عليهما . وكثيرا ما بات عندهما اصحاب العيال والراح عليهم دائرة . والاغاني متواترة . والوجوه ناضرة والعمائم متطايرة . فكان ذلك داعياً الى خصام النساء مع بعولتهن . ومن طبع النساء عموماً انهنّ اذا علمن أن أحداً يعوق أزواجهنّ عنهنّ أضمرْن أن يتقرّبن الى ذلك العائق ببعض حيلهن . فان كان ممن يُعشقن صفقن له حالاً على المقايضة والمبادلة أخذاً بثارهن . فجعلن من كل عضو منه بعلا . ومن كل شعرة خِلاّ . وان كان ممّن تبذأه العين رَمينه بداهية وتحيّلن في خلاص بعولتهن منه وردّ بضاعتهنّ اليهنّ . غير ان نساء تلك البلاد لا يخاصمن بعولتهن وهن مضمراتٌ خيانتهم أو مستحلاتٌ استبدالهم . فانهنّ رَبين على محبة آبائهن وعلى طاعة بعولتهن . وما خصامهن لهم الاعتاب . وكم في العتاب من لذّة ولم يسمع عن واحدة منهن الى الآن انها خاصمت زوجها لدى حاكم شرعي أو أمير أو مطران . مع ان كثيراً من هؤلاء الاصناف الثلاثة يتمنون ذلك في بعض الاحوال اما للافتخار باجراء العدل والانصاف في رعيتهم او لعلّة اخرى . ومن طبع هؤلاء المخلوقات المباركات سلامة النيّة وصفاء العقيدة والتقرب الى الرجال لا عن فجور فترى المرأة منهن متزوّجة كانت او ثيّبة تجلس الى جانب الرجل وتأخذه بيد وتلقي يدها على كتفه وتسند رأسها على صدره وتبسم له وتؤانسه في الحديث . وتتحفه ببعض ما تصل اليه يدها . كل ذلك عن صفاء نيّة وخلوص مودة . وأحسن ما يرى فيهن البلاهة والغرِيّة فانهما في النساء خير من النكْر والدّهاء . هذا اذا كان في غير ما يشين العرض وينتهك الحرمة . فاما في وقت الجِد فلا تصح البلاهة . هذا ولما كان من دأبهن أن يكشفن عن صدورهن ولا يرفعن أثدآهن من صغرهن بشيء كان اكثرهن هُضُلاً اي ذوات أثداء طويلة . وأكثرهن يعتقد ان فى طول رضاع الولد زيادة صحّة له . فمنهن من ترضع ولدها عامين تامّين . ومنهن من تزيد على ذلك فامّا محبتهن لاولادهن ورفقهن بهم وشوقهن اليهم فيجلّ عن الوصف . وأعرف

كثيراً من البنات كنَّ يبكين يوم زواجهن على فراق آبائهن وأمهاتهن واخوتهن كما يبكي غيرهن في المآتم او أشد . فاما ما يقال من ان البعولة يأكلون وحدهم دون نسائهم فكلام لا أصل له . وانما يكون ذلك اذا كان عند الرجل ضيف غريب حتى لو أراد حينئذ ان تقعد امرأته مع الضيف لتأكل معه لأبت ورأت ان ذلك يكون استخفافاً بها وانتهاكاً لحرمتها . وفي الجملة فانهن لا يُعِبن بشيءٍ الا بالجهل وهنَّ في ذلك معذورات . فاما الجاهلات من الافرنج فانهن يُضفن الى الجهل مكراً وخبثاً . وناهيك بذلك من سُبَّة . واني ليحزنني جداً أن أسمع أنَّ هؤلاء المحبوبات قد مللن من هذه الفضائل وتخلقن باخلاق اخرى . فيجب عليَّ والحالة هذه ان اغيِّر ما وصفتهن به من المحامد او ان أذن للقارئ في ان يكتب على الحاشية كذب كذب كذب او هذين البيتين

ان النسآء حيثما كنَّ سوى ... يملن من حيث أتاهنَّ الهوى
لا يغرُرنَّ الغِرَّ منهنَّ تقى ... ولا هُدًى ولا نهًى ولا حيا

او هذين

سر مَضرِبَ الارض في طول وفي عرضٍ ... ترى النساء يبعن العِرْضَ كالعرض
بالرِجل يصفقن عند البيع لا بيدٍ ... وكلُّ قاضٍ على تسجيله يمضي

أو هذين

واذا رأيت من الخرائد غادةً ... تبدو وتخفى فارجونَّ وصالها
واذا دعتك لحاجة عنَّت لها ... تكون قاضيها فرج مبا ......

او ما قاله دعبل

لا يُؤيِسنَّكَ من مخدَّرة ... قول تغلِّظه وإنْ جرحا
عسر النساء الى مُياسرةٍ ... والصَّعْبُ يمكن بعد ما جمحا

واعلم ان البلاد التي يُتجر فيها بعرض النساء بغير مانع الا بمكس عليه قليل يدفع لبيت المال لبناء معابد وغيرها دون اعتبار لقول من قال أمطعمة الايتام الخ يقلُّ فيها التغزل بهن . فان الرجل هناك اتان خطر بباله ان رؤية الوجه الصبيح تنفي همَّه وتزيل بلباله . وتخفف أثقاله . وتنفس عنه كربه وتجلو صدي قلبه وتصفي دمه . خرج

فوجد ضالّته تنتظره وراء الباب. فلا يحتاج عند ذلك الى شكوى وعتاب وتواجُد. والى قوله أرق على ارق ومثلي يرق. وكفى بجسمي نحولا انني رجل. وذبت وجداً وغراماً ونحو ذلك. فاما البلاد التي يحظر فيها هذا الاتجار فتجد الكلام في النساء متجاوزاً به وراء الحد. ولذلك كان في شعر الافرنج الاقدمين من المجون ما نجده في كتب العرب. وما ذاك الاّ لانّ هذه البياعة كانت وقتئذ ممنوعة. فلما كثرت قل عندهم المجون. أما في الجبل فانك لا تجد لهم بياعة ولا مجونا. وحكى عن الفاريق انه هوى واحدة من اولئك اللاي كن يترددن عليه ولم يكن يحظى منها الا بلثم اخمصها فكان اذا أصبح يقول لصاحبه

ان المقبِّل رجلها لَيجلّ عن تقبيل راحة قسّه وأميره
هن الفواتن للخلي فشعرة منهن خير من كنوز غروره

الفصل التاسع

في محاورات خانية. ومناقشات حانية

لا بأس في أن نذكر هنا مثالاً لما كان يقع بين تلك الزمرة من المحاورات فنقول اجتمعت زمرتنا هذه مرة والكأس تدار عليهم. والسرور يرقص بين يديهم. فقال أفصحهم مقالاً وألدهم جدالاً اي الناس فيما علمتم أنعم بالا وأحسن حالا مقابل من بيده الكاس هو من كان على مثل هذه الحالة. وفي راحته ذي الآلة. فقال له ليس ذلك على الاطلاق. ولم يقع عليه اتفاق. فان هذه الحالة لا يمكن كونها دائمة. فتكون غبطتها غير تامّة. وانما هي بعض من كل وجزء من جل. وبقي النظر في الباقي ولا خفاء أنّ مداومة المدام تورث السقام وتُلهي عن الطعام. ولذلك سميت القهوة ولا يعتادها انسان الاّ حلّت به الشقوة. فقال آخر ان أنعم الناس بالا أمير يجلس على أريكته وتحفّه جماعة من حشمته وحفدته. يأتيه رزقه رغداً. ويكفيه رازقه في المعيشة جهداً فاذا أوى الى حريمه خلا بأزهر امراة على أوطأ فراش فصدق فيه قولهم. أعجب

الاشياء وثر عا وثر . هذا وان أكله المرازمة . وثيابه الناعمه . وأمره مطاع . وحكمه مقابل بالاتباع . فقال بعضهم ليس الامر كذلك . وما الحق فيما هنالك . فان الامير لايخلو بامرأته الا وهو مشغول الخاطر . مكدر السرائر اذ لا يزال يفكر في كونه مخوناً بماله . مغشوشاً من عماله . يأكل رعاة رزقه ويذمونه . ويأمنهم فيخونونه . ويعطيهم فيخذلونه وهو مع ذلك مرصود منهم فيما يفعله . منتقد عليه بما يتعمله . وانه لا يود السفر ولا يتاح له ويتمنى رؤية غير بلاده ولا يدرك أمله . فهو يحسد من يمشي في الارض مستهلاً . ويغبط من يعتسف في الطريق ضللاً . فقام بعض النقاد . وقال سمعاً يا أهل الرشاد . ان اسعد خلق الله راهب لزم كتابه في صومعته وتفرغ عن الشغل بعقاره وضيعته . فهو يأكل من أرزاق الناس . ويعوضهم عنه دعاء يطفح من اصبار الكأس . ويغنيهم في الدياجي عن النبراس . ويركب ما للبهم من النجائب . فهو كما قيل اكل شارب راكب . ثم ما عليه بعد ذلك ان خرب الكون او عمر . وان مات الخلق او نشر . فقال بعض ذوي الرشاد . ما هذا القول من السداد . فان الراهب وأمثاله اذا رأى الناس مقبلين على أعمالهم . مشتغلين باشغالهم . لم يرض الدناءة لنفسه ان يعيش من كدهم . ويستريح على تعبهم وجهدهم . ويتحين أوان رفدهم . بل يود لو كان شريكاً لهم في اتعابهم . أحرى من أن يكون شريكاً في مصوناتهم . هذا اذا كان نزيه النفس . كريم القنس . صادق السعي . ضابط الوعي ثم ان له عند رؤية الرجال مع نسائهم وأولادهم لغصات . وحسرات وأي حسرات . ولا سيما اذا خلا في الصومعة . ورأى ان سمته ذاهب سدى من غير منفعة . وان غيره ممن أضواهم الكد والنصب . وأجاعهم الجهد والتعب . أقدر منه على بلوغ الارب . مما اصطلح عليه سائر خلق الله من عجم وعرب . فقال من استصوب مقاله . وارتاح لما قاله . هذا لعمري هو الحق المبين . فان الراهب ومن أشبهه حري بان يعد مع الشقيين . وانما يظهر لي ان أسعد الناس عيشاً هو التاجر يقعد في حانوته بعض ساعات من يومه . فيكسب بايمانه المغلظة في ساعة واحدة ما ينفقه في شهره . يجعل الكاسد من سلعته بتكرير كلامه نافقاً . والمكروه شائقاً . والدون فائقاً . ثم هو ان آوى الى منزله ليلاً . أصاب في خدمته دعد وليلى . فهو في نهاره كساب المال . وفي ليلته

منفقه على ربّات الحجال . فقال من انتقد كلامه . وتبين ذامه . ان التاجر لا تمكن له هذه العيشة الراضيه . ولا تهنوءه هذه النعمة الوافية . الا اذا كان تاجرا ذا معاملات في البلاد القاصية . وركوب للاخطار . واقتحام للاوطار . ومتى كان كذلك نقص من رغده وافر تجشمه وكده . ونغص من لذاته تمدد بغيّاته . وملا خاطره أشجانا . ما حاوله ليرضى به زبونا وأخوانا . فكلما هبت ريح خشي على سلعته في البحر . وكلما جشر صبح أوجس من ورود قادم يخبره بشر . أو مألكة تنبئ عن تلف وخسر . وكساد وحظر . فهو لا يزال في اعمال نظر . وتجرع اسف وكدر . فقال بعض السامعين انك لمن الصادقين . أما أنا فلا أود ان اكون ذا اتجار . ولو ربحت في كل يوم مئة دينار . لما يعقب هذه الحرفة من القيل والقال . والتكذيب والمحال . والمحاولة والمكر . والمداهاة والنكر . فضلا عن اقتصاري فى الحانوت ربع عمري . ولا علم لي بما يجري فى وكري . فلعل رقيباً يخالفني الى داري . وأنا اذ ذاك اكذب على الشاري واماري وأجامل واداري . فى عنقي حبل الاثم بما افعل فى محترفي . وبكوني صرت وسيلة لارتكاب الحرام فى مألفي . وانما أظن ان أحق الناس بأن يغبط على عيشته . ويبارك له في حرفته ومهنته . انما هو الحارث الذي يسعى لنفع نفسه ولغيره فيما يحرثه . فيكسب به صحة بدنه ومؤنة عياله وذلك خير ما يرثه . وان زوجه تراوحه على عمله . وترفق به فى عسره وعطله . ان مرض مرضته بنفسها وقامت بأمر ربعه . وان غاب رعت له ذمة وباتت تنتظر وشك مرجعه . هذا والتعب يستطيب طعامه . ويستحلى نيامه . الا ترى ان أولاد ذوي السعي والكد . أصح ابدانا واذكى فهما من اولاد ذوي الترفه والدعة . وما ذلك الا لانهم يرقدون عن نعاس ويأكلون عن جوع ويشربون عن ظما . فأجابه اقرب من وليه . ان فيما قلت لنظرا . فانك لم ترَ الصورة الا من جهة واحدة وفاتتك الجهة الاخرى . فلعمرى ان الحارث مع كد بدنه . اسير همه وشجنه . وضجيع قلقه وحزنه . اذ هو عبد العناصر . ورقيق الحوادث والاكابر . ان عصفت ريح خشي على ثمره ان يتساقط فيسقط قلبه معه . وان كثر المطر أو قل وجل من ان يتلف ما زرعه . وان مات كبير فى بلده . اشفق من كساد ما تحت يده . وان يكن ذا بصيرة وحجى . ساءه ما يرى أهله فيه من العرى والوجى . والذل والاستكانة .

الابتئاس والمهانة . وتحسرهم على الطيب من المأكول والناعم من الملبوس. وعلى كونه لايحسن تربية ولده كما يشاء . ولا يمكنه رؤية بلد غير الذي فيها نشا . فهو مهده وقبره وسجنه وحجره . ومع ذلك فهو غرض لأغراض أمامه في الدين . وعصا يتوكأ عليها من هو فوقه من المثرين . والسائدين والمسيطرين. فما يكاد يتخلص من ورطة أحدهما الا ويقع في شرك الاخر . ولا يفوته شر الا واستقبله شر أكبر . وهو مع اصره وجهله . لايجد مخلصاً له ولا لاهله . ولو أنه رام أن ينهج لاهله منهجاً ارتضاه لنفسه واستصوبه . ولم يك على وفق مرام امامه وأميره أو آخر ذي مرتبة . لم يأمن غرامة منهما أو حسم عرتبة. أو قصم رقبة . ولم يلبث أن يرى أصحابه له أعداء وأخدانه ألداء. فهو على هذا رهين الخضوع . وأسير القنوع. فقال قرين له . وقد صدق على مافصله . نعم ان هذا لهو الحق الواضح . وما بعد الشرق ذل فاضح . واني أرى بعد امعان النظر والتروي . والتحقق والتحري . أن أسعد الناس حالاً . رجل رزقه الله مالاً . وأصلح له بالاً . فجعل دأبه السفر في البلاد الغريبة . والمشاهدة للكائنات العجيبة . فهو كل يوم في شأن . وله في كل مكان . أوطان واخوان . فقال قائل قد استوعب فحوى مقاله . واعتقد ماذهب اليه أنه من فنده وضلاله : لقد زغت قصداً . ولم تقل رشداً. أوليس المتعرض للسفر . بلو عناء وخطر . اذ كثيراً ما يمنيه بأمراض شديدة . تغيير الهواء عليه والاحوال غير المعهودة . واضطراره أن يطعم ما يعافه . ويشرب مابه أدنافه. فيكون آكلاً لما يأكل بدنه . ويذهب وسنه . هذه الافرنج تأتي الى بلادنا فينغصهم عدم وجود الخنزير فيها . وخلوها عن السلاحف والارانب وما يضاهيها . اذ يزعمون أنهم يخلطون شحم الخنزير ودمه في كل صبة وحسو وحلواء . ويتخذون من لحم السلاحف مرقاً به شفاء من كل داء . ويعيبون علينا أن لبننا غير ضيح ولاممذوق . وخبزنا مملوح وطعامنا غير مزعوق . وان ماءنا غير ممزوج بالجير . وخمرنا غير مصبوغة بالعقاقير . وانا نذبح الحيوانات ذبحاً ونأكل لحمها غريضاً . وهم يخنقونها خنقاً ويأكلونه دائداً أنيضاً . وان جونا غير ذي دجن . ومطرنا غير دائم الهتن . وان سماءنا غير محلسة. وأرضنا غير مطلي وجهها بالرجيع والروث وسائر الاشياء المنجسة. فبقولنا غير مسيخة . وأثمارنا غير مليخة . وان شتانا لا يدوم ثلثي العام . وصيفنا لا يسمع فيه رعد ذو ارزام. فاذا جاء

أحدهم الى بلادنا ليتعلم لغتنا ومكث بين أظهارنا عشر سنين. ثم رجع وهو فيها من أجهل الجاهلين. أحال الذنب على الهواء. فقال انه مني منه بالحمى والجوى. او بالاسهال المفرط. والسعال المقنط. هذا وان من جهل لسان قوم وهو فيهم. لم يمكنه أن يعرف عاداتهم وأخلاقهم. واستوى عنده ظاهرهم وخافيهم. فيرى عندهم مايرى دون علم. ويسمع مايسمع من غير فهم. فلم يكن لذي السياحة بد من اتخاذ ترجمان. واعتماده عليه في كل خطب وشأن. ولا يلبث أن يسيء به الظن. ويرى أن له عليه المن. ولو أنه حاول أن يستغني عنه لفاته معرفة الاحوال. وبات بين القوم ذا وحشة وبلبال. وربما حن الى رؤية أهله. والاجتماع بشمله. فأدنفه الحنين. أضناه بين الخدين. وانما يطيب السفر اذا اتفق انسان مع ند له نوي. وصديق نجي. وكانا عارفين بلغات كثيرة. وقلوبهما خالية من علاقة الحب بالقلب والبصيرة. وهيهات أن يتفق اثنان على رأي واحد. وأن تتم لذة من دون مانع جاهد. وهم عاصد. فقال أقل الحاضرين رشداً وأضلا. وأكثرهم هزلاً. ياقوم. اني قائل قولاً ولا لوم. ان أسعد الناس وأحظاهم. وأترفهم وأرضاهم. البغي الجميلة التي تفتح بابها لقاصدها. وتبيح نفسها لمراودها. فانها تغتنم أنس زائرها وماله. وتتبلد حبها حتى يرى ذله فيها عزاً له. ومتى تمكنت من نفر يبذلون لها العين. ويكفونها مؤونة الاطيبين. فلا تحتاج بعدها الى البحث عن مراود في المسالك. والتعرض للمكاره والمهالك. فاذا هي شاخت وجدت مما ادخرته في صباها ماتنفق منه عن سعة. وما تكفر به عن سيئاتها السالفة فتعيش في دعة. ويثني عليها الناس بالتوبة الناصعة. والمعيشة الواسعة. والانسان مطبوع على النسيان. لايبالي إلا بما هو كائن لا بما كان. ولا سيما اذا كان الحاضر يجدي نفعاً جزيلا. ويسراً مأمولا. وكفى بأئمة الدين اذا نالوا منها العطايا الوافرة. والصلات المتواترة. أن ينشروا عليها أحسن الثناء. ويبرئوها من كل فحش وخنى. فلها منهم على كل صلة صلوات. وعلى كل دعوة دعوات. فمن ماراني في ذلك فليسأل قرينته. ويكظم ضغينته. ريثما أقيم له على ذلك البراهين. ممن غبر وبقي من العالمين. فلما سمعت الجماعة هراءه. ولحنت مغزاه. ضحكوا من هذيانه. ورأوا أن الجواب على بهتانه. على طريقة الجدال إنما هو من وضع الشيء في غير صوانه. فأضربوا عنه صفحاً. وقالوا له قبحاً لرأيك وشقحاً. فلو كان أهل

صقع على رأيك لفسدت الارض . وبار العِرض . ولم يبق من الصلاح أثر ولا غرض . وانما اللوم على الكأس التي ذهبت بلُبّك. وكشفت عن فساد مذهبك. وقبح اربك. ولعلك تهتدي الى الرشاد اذا أفقت من خُمارك. وتبيّن لك فظاعة هترك واستهتارك . فرأي أن السكوت له أسلم عاقبة من المحاورة والمجاوبة . والمناقرة والمغاضبة وان الجمهور يغلب الفرد . وان كانوا على ضلال. وكان هو على هدًى وقصد. فاستخف تفنيدهم . وخشي وعيدهم . وتفرقوا ولم يجمعوا رأيهم على أيّ الناس أسعد . وأيّ عيش أرغد . اذ رأوا دون كل حرفة نَغَصاً. ومع كل حالة غَنَصاً . وفي كل آكلة مَغَصاً . وقد فاتهم من أحوال الناس كثير مما ضاق وقتهم عن ذكره. كما ضاق هذا الفصل عن احصاء كل ما أوردوه وعن حصره. فقف على هذا القدر الذي ذكرته . وسر معي الى استئناف قصة من غادرته وعليكم السلام

الفصل العاشر

في اغضاب شوافن . وانشاب براثن

السجع للمؤلف كالرجل من خشب للماشي . فينبغي لي أن لا أتوكأ عليه . في جميع طرق التعبير لئلا تضيق بي مذاهبه . أو يرميني في ورطة لا مناص لي منها. ولقد رأيت أن كلفة السجع أشق من كلفة النظم . فانه لا يشترط في أبيات القصيدة من الارتباط والمناسبة ما يشترط في الفقر المسجعة. وكثيراً ما ترى الساجع قد دارت به القافية عن طريقه التي سلك فيها حتى تبلغه الى ما لم يكن يرتضيه لو كان غير متقيد بها. والغرض هنا أن نغزل قصتنا على وجه سائغ لأيّ قارئ كان . ومن أحبّ أن يسمع الكلام كله مسجعاً مقفى ومرشحاً بالاستعارات ومحسناً بالكنايات فعليه بمقامات الحريري أو بالنوابغ للزمخشري . فنقول ان صاحبنا الفارياق بعد اقامته مدة على الحالة التي ذكرناها . جرى بينه و بين جده من النزاع والمناقشات ما أوجب عليه ترك ما كان فيه واقتفاء طريق آخر من طرق المعاش . فتاح له أن يكون معلماً لاحدى بنات الامراء وكانت ذات طلعة بهية .

وشمائل مرضيه . تامّة الظرف . ناعسة الطرف ولكن ليس المراد بذلك انهـا كانت لاتبصر من يحبها كما يكون من به نعاس . وانما المعنى انها ذابلته . حتى ولا هذه العبارة مفصحة بما أريد أن أقوله . فانها توهم أنها كانت ذابلة مع انها كانت غضّة بضـة . بل المقصود أن نقول انها كانت كأنها تنظر عن تخشيف . ولكن مادة حشف لاتعجبني فان فيها معاني اليبوسة والخساسة والرداءة وشيء آخر نجل الملاح عن ذكره . بل المراد انها كانت تكسر جفنيها عند النظر . ولا الكسر أيضاً لائق لها . فلا أدرى كيف الحن للقارئ ما أردت ولعل الاوفق أن يقال انها كانت ترمي بسهام عن عينيها . ولم يكن صغر سنهامانعاً من تتبيل من ينظرها . فان القلب يعلّق بهوى الصغيرة الجداء كما يعلّق بهوى الكبيرة الوطباء . اذليس كل عشق مؤدياً الى الدعارة . فقد عشق الناس الرسوم والاطلال والآثار . والاشكال والديار . ومنهم من عشق لرؤيته كفاً مخضباً أو عقيصة شعر أو ثوباً أو سراويلات أو تكة أو نحو ذلك . وأعرف من أحب هرّة امرأة فكان يلاعبها . ويخيّل له الغرام انه ملاعب صاحبتها . وكثيراً ما كانت تنشب فيه أظفارهـا وتدميه . وهو يستعذب ذلك ويستحليه . اما لاستعذاب العذاب في هوى المحبوب . أو لاعتقاده أن مداعبة النساء أيضاً لا تخلو من خدش وادماء . فكون الجرح منهن اصالة أو وكالة انما هو شيء واحد . وقد سئل أحد العشاق عن مبلغ الوجد منه فقال كنت أرتاح للريح اذا مرّت على نتن مقبلة من صوب المحبوب . هذا وان عشق أهل تلك البلاد أكثره على هذا النمط . أى ان العاشق منهم يكلف بأثر من محبوبه كمنديل أو زهرة أو رسالة وخصوصاً بنصة شعر فيشمه ويضمه ويقبّله ويقلّبه ويعانقه كما قيل

الشَّعر مثل الشِّعر داعية الهوى   والشِّعر مثل الشَّعر ذخر يذخر
من غاب عنك فلست تنظره سوى   بالشِّعر أو بالشَّعر وهو الأكثر

فان قيل انهم انما عشقوا ذلك طمعاً في وصال الحبيب الذى تفضل بهذه النعم لا كلفاً بها من حيث هي هي . قلت ما المانع من ان تعشق الصغيرة طمعاً في ان تصير كبيرة . ما أضيق العيش لولا فسحة الامل . ورُبَّ أمل أحلى من فوز . وقد علم أهل الدراية أنّ من حرمه الله من الجمال لغاية لا يعلمها الا هو عوّضه عنه زيادة قصاص له بحدّة الفكر والبصيرة وشدة التصور والتخيل ودقة الحدس

فيكون أسرع الى العشق وأكثر حرصاً على أهل الجمال . اذ الانسان كلما بعد عن الشيء المقصود كان توقانه اليه اكثر وتولّعه به اشدّ . والمراد من ذلك كله ان نقول ان الفارياق كان يعلم من صغره انه بمعزل عن الجمال . وانه من صبائه كان يعظّم أهله ويميزهنّ على غيرهنّ وان القبيح معذور على عشق المليح كما قال الشاعر

وقالوا ياقبيح الوجه تهوى   مليحاً دونه السُمر الرقاقُ
فقلت وهل أنا الا أديب   فكيف يفوتني هذا الطباق

قالوا . أو أقول أنا عنهم . وقد يكون عشق الصغير كبيراً كما يكون عشق الكبير صغيراً . فان الصغير لما كان غير ذي رشد يردّه عن الاسترسال والتمادي في هواه كان هذا الاسترسال معقباً للجموح دون حدّ . الا ترى أن الصغير اذا ولع بشيء من اللعب واللهو فانه يتهتك فيه وينهمك غايةما يكون. فكيف به اذا جنح الى شيء هو أقوى من كل ما يستميل الطبع ويشوق النفس . نعم ان الكبير يقدر منافع ما يقصده من معشوقه أكثر من الصغير ولذلك يكون حرصه عليه أبلغ وطلبه له أكثر .غير أن عزّة نفسه وسَوْرة طباعه ونُهيته قد تمنعه من أن يسلّم عنان مشيئته للهوى .فيكون في طريق ميله وتوقانه تارة مقدماً رجلاً وتارة مؤخراً أخرى .والصغير متى ما استرسل استسهل. وبعد فقد نذرت على نفسي أن اكتب كتاباً . وان اودعه كل ما راق لخاطري من القول سديداً كان او غير سديد فاني اعتقدت ان غير السديد عندي قد يكون عند غيري سديداً كما تحقق لديّ عكسه . فان شئت فاذعن او لا فليس هذا الوقت وقت العناد والخلاف . والحاصل ان الفارياق لبث يعلّم سيّدته الصغيرة وجعل من دأبه أن يتودّد اليها باغضاء النظر على اصلاح غلطها . بل لم يكن يرى ان صاحبة هذا الجمال يجوز ردّها . فتأخرت هي في العلم وتقدم هو في الهوس فما قال فيها .

بروحي مَن أعلّمه وقلبي   اسير هواه لن يسطيع صبراً
أغار عليه وجداً من حروف   يفوه بهـا فتلثم منه ثغراً

والحمد لله على كون اللغة العربية خالية عن اليا الفارسية والفاء الافرنكية والا لزادت غَيرة صاحبنا وربما كان ذلك سبباً في جنونه .فان الغيرة والجنون يخرجان من مخرج واحد كما افاده المشايخ الراسخون في الزواج. وهنا دقيقة وهي ان بعض العناول جمع عِثْول

وهو من لا خبر عنده للنساء يستثقل المؤنث في الغزل والنسيب فيجعله مُذكَّراً وبعضهم يضمره . وعليه قول الفارياق اعلمه . والظاهر ان المقدر في ذلك لفظة شخص . فياليت هذا الحرف كان في لغتنا مؤنثاً كما هو في الفرنساوية والطليانية حتى لا يجد الناسب محيداً عن التأنيث . فأما تعليم نساء بلادنا القراءة والكتابة فعندي انه محمدة بشرط استعماله على شروطه . وهو مطالعة الكتب التي تهذب الاخلاق وتحسن الاملاء . فانَّ المرأة اذا اشتغلت بالعلم كان لها به شاغل عن استنباط المكايد واختراع الحيل كما سيأتي ذكر ذلك . ولا بأس بالمتزوجات بقراءة كتابي هذا وامثاله . لانه كما انَّ من الوان الطعام مايباح للمتزوّجين دون غيرهم . فكذلك هي ألوان الكلام . والظاهر أن اللغة العربية شرك للهوى اذ يوجد فيها من العبارات الشائقة المتصبية ما لا يوجد في غيرها . فمن قرأت مثلاً في شرح المشارق لابن مالك إن مراتب العشق ثمانية أدناها الاستحسان وينشأ عن النظر والسماع ثم يقوى بالتفكر فيصير مودة وهي الميل للمحبوب . (أي المحبوبة) . ثم يقوى فيصير محبة وهي ائتلاف الارواح . ثم يقوى فيصير خلة وهي تمكن المحبة في القلب حتى تسقط بينهما السرائر . ثم يقوى فيصير هوى بحيث لا يخالطه تلوّن ولا يداخله تغيّر . ثم يقوى فيصير عشقاً وهو الافراط في المحبة حتى لا يخلو فكر العاشق عن المعشوق (أي المعشوقة) . وانَّه يقوى فيصير تتيماً . وفي هذه الحالة لا ترضى نفسُه سوى صورة معشوقه . (أي معشوقته) . ثم يقوى فيصير ولهاً وهو الخروج عن الحدّ حتى لا يدري ما يقول ولا أين يذهب وحينئذ تعجز الاطباء عن مدواته . قلت وانّ من أنواعه أيضاً الصبابه وهي رقة الهوى والشوق . والغرام وهو الحب المستأسر . والهُيام وهو الجنون من العشق . والجوى وهو الهوى الباطن . والشوق وهو نزاع النفس . والتوقان وهو بمعناه . والوجد وهو مايجده المحب من هوى المحبوب (أي المحبوبة) . والكلف وهو الولوع . والشغف وهو اصابة الحبّ الشغاف أي غلاف القلب أو حجابه أو حبَّته او سُويداءه . والشعف وهو أن يغشى الحبّ شعفة القلب وهو رأسه عند معلّق النياط منه . والشعف وهو بمعناه . والتدليه وهو ذهاب الفؤاد عشقاً . لم تمالك أن تحس بهذه المراتب السنية كلّها حالاً بعد حال . بخلاف لغات العجم فانها لا يوجد فيها إلاّ لفظة واحدة بمعنى المحبة يطلقونها على الخالق والمخلوق . وقد يظهر لي أن كثيراً من

من الصفات المحمودة في الرجال تكون مذمومة في النسآء . كالكرم مثلاً . فان كرم الرجل يغطي جميع عيوبه وهو مذموم في المرأة . وقس على ذلك الشكر ولذهآء والاطرا والفروسة والشجاعة والحماسة والصلابة والخشونة والهمّة الى المراتب السامية والامور الشاقة والاسفار البعيدة والنيات النائية والمطامع المتعذرة وغير ذلك. والعلّة في ذلك كون المرأة تميل بالطبع الى الشطط ومجاوزه الحد . ودليله في من تميل الى العبادة والنسك فانها لا تقف في ذلك على أمد بل تتمادى فيه حتى تتهوس وتتخبل فتدعي المعجزات والكرامات وتعمد الى الرؤى والاحلام ويخيّل لها أن ملكاً يناجيها . وهاتفاً يناغيها . وانها تقيم بدعائها الاموات . وتحيي الرفات. وربما قتلت أولادها على صغر ابتغاء دخولهم الجنة بغير حساب . أو ولدت توأمين فادعت انهما من غير أب . وفي من مالت الى الهوى فانها تترك أباها وأمها اللذين ولداها وربّياها وتقبل تجري في أثر رجل لا تعرف من صفاته شيئاً سوى كونه ذكراً . فكل ما كلفت به المرأة كانت فيه أكثر تمادياً من الرجل. فكلفهن بالقراءة لا أدري أين يكون مصيره . والحامل لها على هذا الغلو والشطط انما هو معرفتها من نفسها انها أقوى على اللذّات من الرجل . فزيادة اطاقتها لذلك زادت في تماديها فيه . ومنه سرى في غيره من الاطوار والشؤون والاحوال الطارئة وفي بعض الغريزية ايضاً . وذلك كالكلام والضحك والسبح والحركة . وما قلّ منه فيها في بعض الاحوال فانك تراه زائداً في البعض الآخر زيادة فوق القياس . ولعلّ كلامي هذا يسوء النسآء اذا سمعن به وهن بين الرجال . لكنّي أعلم عين اليقين انهن يضحكن له في أكمامهن استحساناً . وتعجباً . حتى كأني بهنّ يحسبن اني عشت برهة من الدهر امرأة حتى أمكن لي معرفة سرائرهن . ثم مسخني الله تبارك وتعالى رجلاً . أواني علمت ذلك من هند وسعاد وزينب وميّة حين كنت اشبّب بهن وانا فتى وأكذب عليهن بقولي لهن اني حُرمت الكرى . وأجريت على نواهن عبراً . واني قد فتن لبي . وفاقني نابي . لاجرم انه لم يفارقني قط . ولو فارقني مرة لما رجع اليّ ابداً . لاني طالما أدخلت عليه هموماً وأحزاناً لم تكن لتهمّ أحداً من الناس في بلادي . اذ كنت أحزن لتعصي معنى من المعاني علي واحاول اختراع شيء من البديع لم يكن أحد سبقني اليه . ظاناً انه يقوم للناس مقام هذه المخترعات التي يزهى بها الكون عصرنا هذا فلم يتهيأ لي فكنت

أبيت الليل في يأس وكرب . معاذ الله لم تكلمني وما كلمت هند وانما عرفت ما عرفت من الاحلام الصادقة اذ كنت أبيت وأنا مخلص لله الانابة والقنوت فان لم يصدقني فليبتن ليلة أو ليلتين تائبات قانتات مثلي وانا ضامن لهن انه يهبط عليهن من الاحلام الصادقة مايوقفهن على امور الرجال .

الفصل الحادي عشر

في الطويل والعريض

فلنرجع الآن الى الفارياق فانه هو ايضاً رجع الى حرفته وهي النساخة وان كان ذلك على غير مراده . واتفق اذ ذاك ان فتَيَيْن من امراء ذلك الصقع ارادا ان يقرآا النحو على بعض النحاة وكان الفارياق يحضر الدرس وهو مكِبّ على النسخ . وكان احد التلميذين بطيئاً عن الفهم سريعاً الى الجواب . يتثآب ويتمطى . ويتغرض ويخطا . ويتناعس ويتقاعس . ويتفاسأ ويتعاطس . واذا خُيِّل له انه فَهِم مسألة حكّ تحت إبطه وشم رائحتها وكرف ثم تمطق كما يتمطق من اقطه . ثم عربد من افتنانه . وسلق من وَليَه بلسانه . وقال ألاَ قبحاً لذوى الخواطر البليدة . والفطن البعيدة . كيف لا يتعلّم الناس كلهم فنّ النحو . وهو أسهل من حكّ ما تحت الحَقْو . أما والله لو كانت العلوم كلها مثله . لما غادرت منها كبيراً ولا صغيراً إلا واستوعبته كله . لكنني سمعت ان النحو انما هو مفتاح للعلوم ولا يعد منها فلا بدّ وان يكون غيره أصعب منه . فقال له معلمه لا تقل هكذا بل النحو أساس العلوم وكل العلوم مفتقرة اليه افتقار البناء الى الاساس . الا ترى انّ أهل بلادنا لا يتعلمون سواه ولا يعرّجون على غيره . وعندهم أن من تمكن منه فقد تمكن من معرفة خصائص الموجودات كلها . ولذلك لا يؤلّفون الا فيه . وانما يحصل الخلاف بينهم في تقديم بعض الابواب على بعض . وفى توضيح ما كان مبهماً منه بأدلّة وشواهد . واختلفوا أيضاً فى الشواهد فمن قائل انها مفتعلة ومن قائل انها ضرورة أو شاذة بيد أن المآل واحد . وهو ان العالم لا يسمّى عالماً الا اذا كان متمكناً من النحو مستقصياً لجميع دقائقه . ولا يكاد يستتب أمر الا به . ولو قلت مثلاً ضرب زيد

عمر من غير رفع زيد ونصب عمرو فما يكون ضربه حقاً ولا يصح الاعتماد على هذا الاخبار . فان حقيقة فعل الضرب متوقفة على علم كون زيد مرفوعاً. وجميع اللغات التي ليس فيها علامات الرفع فهي خالية عن الافاده التامة . وانما يفهم بعض الناس بعضاً من دون هذه العلامات عن دربة أو اتفاق. فلا معوّل على كتبهم وان كثرت ولا على علومهم وان جلّت .واني وان كنت قد لقيت منه عرق القربة وكثيراً ما بت وبالي مشغول بمعقلة من عقله وبداهية من عراقيله فكنت أرق ليلي كله ولا أهتدي الى وجه الصواب فيما عوص عليّ من ذلك الا اني استفدت منه فائده عظيمة جعلتني ممنوناً لبنت أبي الاسود الدؤلي أبد الدهر فانها هي التي كانت سبباً في استنباطه . (قلت وكذا سائر البدائع كان أصل استنباطها مسبباً عن النساء) . فقال له التلميذ ما هذه الفائده يا أستاذي . قال قد طالما كان يخامرني الريب في قضية خلود النفس . فكنت أميل إلى ما قاله الفلاسفة من انه كل ماكان له ابتداء فهو متناه . فلما رأيت النحو له ابتداء وليس له انتهاء قست النفس عليه فزال عني والحمد لله ذلك الابهام .ومثله أو أكثر منه في الصعوبة فن المعاني والبيان . فقال له التلميذ لم أسمع بذكر ذلك قط . قال أما أنا فقد سمعت به واعرف كل ما يشتمل عليه . وهو المجاز والكناية والاستعاره والتورية والترصيع وغير ذلك مما ينيف على مئة نوع. وبيان ذاك مفصّلاً . يستفرغ اجلاً .وربما قضى الانسان عمره كله فى علم الاستعارات وحدها .ثم يموت وهو جاهلها. او يكون قد نسي في آخر الكتاب اوالكتب ماعرفه في اوله . وذلك ان من اخترع هذا العلم الجليل لم يكن سلطاناً حتى يمكنه إجبار الناس جميعاً على متابعته ومشايعته . بل كان فقيراً فأولع بهذا الشيء وشرح الله صدره لتقرير قواعد له فكان لايقع بصره على شيء إلا وخطر بباله طريقة من طرقه . فاذا نظر الشمس مثلاً طالعةً قال كيف ينبغي ان يفهم هنا طلوع الشمس هل هو حقيقي او مجازيّ وهل المجاز هنا عرفي او لغويّ . وكذا لو رأى البقل نابتاً فى زمن الربيع قال كيف تأويل قول القائل انبت الربيع البقل . فهل يصح اسناد ذلك الى الربيع وهو انما نشأ عن دوران الارض حول الشمس فهو ولا شك مسبَّب عنها . ولا ريب ان مدير الارض انما هو الله عزَّ وجلّ . فيكون قوله انبت الربيع البقل مجازاً بدرجتين . لانّ الربيع مسبب عن دوران الارض ودوران

الارض مسبب عن تقدير الباري تعالى . وكذا قولهم جرت السفينة او الحجر . ومن المجاز ما له ايضا ثلث درجات ومنه ماله اربع . ومنه ما تفوق درجاته درج المأذنة . ومن هذا الدرج ما شكله قرقيٌّ ومنه حلزونيٌّ ومنه لوليٌّ . ومنه غير ذلك ثم ما زال المستنبط يفكر في هذه البدائع حتى ادركه الاجل فمات وبقي عليه أشياء كثيرة لم يحكمها . فقام من بعده من اولع مثله بهذا الفن فاستدرك على سلفه مواضع كثيرة . وظل يباحثه ويعارضه الى ان قضى نحبه وقد ترك مجالاً لغيره . فجاء من بعده من أصلح بينهما في عدة مواطن وعاب على كل منهما ايضاً اموراً . ثم مات ولم ينه ما قصده . فخلفه من صنع به ما صنعه هو بغيره . وهكذا بقيت أبواب النقد مفتوحة الى عصرنا هذا . فمن قائل ان هذه العبارة من الاستعارة التبعية . ومن قائل انها من الترشيحية . قال بعض العلماء الاستعارة تنقسم الى مصرح بها ومكنى عنها . والمصرح بها تنقسم الى قطعية واحتمالية . والقطعية تنقسم الى تخييلية وتحقيقية . وتنقسم ثانياً الى أصلية وتبعية . وثالثاً الى مجردة ومرشحة . وقال بعضهم وهذه تنقسم أيضاً الى عِقيَونيَّة ومُكائيَّة ونَبيَنصيَّة وطَغطَعيَّة وغَميَسيَّة ولَغلَعيَّة ويَلمعيَّة وعسناسية . والعقيونيَّة تنقسم أيضاً الى فرقعية وقرقعية ومقامقية . والفرقعية الى جحخلنجعية وشنذغية وعُطروسيَّة ودنحالية وشينقورية وكربرية . والقرقعية الى خمخمية وغُهغخية وعهخغية وكشغشجية وكشمَظجية . والمكائية الى ممويه وعنترية وصنبرية وعصلية وبلكيتة وصقّاريَة وضغينائيَّة وطرطيبَّة وانقاضية . الى غير ذلك من التقسم . ويشترط في خطبة الكتاب أن تكون جامعة لجميع هذه الانواع . وأن يراعى فيها وفي الكتاب كله نوع الطباق . مثال ذلك اذا قال القائل في فقرة طلع . فلا بدّ وأن يقول فيها أو في الثانية نزل . واذا قال أكل يقول بعده من غير تراخ هي تقيأ أو — وفي الجملة فينبغي أن تكون الخطبة عريضة ما أمكن . وأية خطبة لم تكن كذلك كانت عنواناً على ركاكة الكتاب كله فلم يكن جديراً بالمطالعة . فقال له التلميذ وقد امتقع لونه وهل النحاة أيضاً ماتوا ولم ينهوا قواعد هذا العلم . وهل قراءتي له عليك تغني عن اعادته عند غيرك هنا . وهل يجب على الطالب في كل بلد سافر اليه أن يتعلم نحو أهله ام هو علم مرة واحدة . فقال له الشيخ أما عن المسألة الاولى فأجيب انه ما جرى على البيانيين فقد جرى

أيضاً على النحاة . فقد قال القرآء أموت وفي قلبي شيء من حتى . وقد مات سيبويه وبقي في قلبه من فتح همزة ان وكسرها اشياء . ومات الكسائي وفي صدره من الفاء العاطفة والسببية والفصيحة والتفريعية والتعقيبية والرابطة حزازات . ومات اليزيدي وفي رأسه من الواو العاطفة والاستئنافية والقسمية والزائدة والانكارية صداع وأي صداع . ومات الزمخشري وفي كبده من لام الاستحقاق والاختصاص والتمليك وشبه التمليك والتعليل وتوكيد النفي وغير ذلك قروح وأي قروح . ومات الاصمعي وفي عنقه من رسم كتابة الهمزة غدة . وفي الجملة فان معرفة حرف واحد من هذه الحروف اذا تعمد الطالب استقصاها وجب عليه ان يترك جميع أشغاله ومصالحه ويعكف على ما قيل فيه وأجيب عنه . وما قيل من الامثال . اعط العلم كلك يعطك جزأه الا لاجل ذلك . وأما قولك هل يلزم ان تقرأ النحو أيضاً على غير هنا أي في بلادنا فذلك غير لازم . فان أهل بلادنا كلهم لا يطالعون غير هذا الكتاب الذي تطالعه انت . بل قلّ من يطالعه ويفهمه او يعمل بمقتضى قواعده . وأما عن سؤالك الثالث فأقول انه لا ينبغي اعادة هذا العلم في كل بلد ولكنك حيثما سرت وأيان توجهت وجدت أناساً ينتقدون عليك كلامك . فان عبرت بالواو مثلاً قالوا الافصح هنا الفاء . او با وقالوا الاولى ام . وفي بعض البلاد اذا علم انك تنقط يآء قائل و بائع سقط اعتبارك من عيون الناس . فقد قرأت في بعض كتب الادب ان بعض العلماء عاد صديقاً له في حال مرضه فرأى عنده كراسة قد كتب فيها لفظة قائل بنقطتين تحت الياء فرجع في الحال على عقبه وقال لمن صار معه لقد أضعنا خطواتنا فى زيارته . وهذا هو سبب قلة التأليف فى عصرنا . فان المؤلف والحالة هذه يعرّض نفسه للطعن والقدح والبلآء . ولا يراعي الناس ما فى كتابه من الفوائد والحِكم . الا اذا كان مشتملاً على جميع المحسنات البديعة والدقائق اللغوية ومَثَلُ ذلك مثل رجل فاضل يدخل على قوم بهيئة رثة ورعابيل شماطيط . فالناس لا تنظر الى أدبه الباطني بل الى بزته وزيه . والحمد لله على قلة المؤلفين اليوم في بلادنا اذ لو كثروا وكثر تقدمهم وتخطئتهم لكثرت أسباب البغض والمشاحنة بينهم ، وقد استغنى الناس عن ذلك بتلفيق بعض فِقَر مسجعة في رسائل ونحوها كقولك السلام والاكرام . والسنيّة

والبهية . فاخفه ما كان ساكناً . فاما الشعر في عصرنا هذا فانه عبارة عن وصف ممدوح بالكرم والشجاعة أو وصف امرأة بكون خصرها نحيلاً . وردفها ثقيلاً . وطرفها كحيلاً ومن تعمد قصيدة جعل جلّ أبياتها غزلاً ونسيباً وعتاباً وشكوى وترك الباقي للمدح . ثم ان التلميذ النجيب استمر يقرأ على شيخه الاديب في النحو حتى وصل الى باب الفاعل والمفعول فاعترض على ان الفاعل يكون مرفوعاً والمفعول منصوباً . وقال هذا الاصطلاح فاسد لان الفاعل اذا كان مرفوعاً كان الذي عمل فيه الرفع آخر . والحال انه هو العامل . وبيانه انا نرى الفاعل في البناء يرفع الحجر وغيره على كتفه فالحجر هو المرفوع والفاعل رافع وكذلك فاعل ال...... .. فانه هو الذي يرفع الساق . فقال له المعلم مه مه لقد افحشت فكان ينبغي لك التأدب في مجلس العلم فانه غير مجلس الامارة . ثم ختم التلميذان قراءة الكتاب ولم يستفيدا شيئاً وكأن الشرح كله كان موجّهاً الى الفارياق . ومذ ذلك الوقت اخذ في تجويد عبارته بمقتضى القواعدالنحوية فصار يهوّل بها على رعاع الناس كما يظهر في الفصل الآتي

الفصل الثاني عشر

في أكلة وأُكال

لا بدّ لي من ان أطيل الكلام في هذا الفصل امتحاناً لصبر القارئ . فان أتى على آخره دفعة واحدة من غير ان تحترق أسنانه غيظاً . أو تصطك رجلاه غيرة وحمية . او ينزوي ما بين عينيه أنفةً وحشمة . أو تنتفخ اوداجه وَغراً وهوجاً . أفردت له فصلاً على حدته مدحاً فيه وعددته من القراء الصابرين . ولكون الفارياق في هذا الوقت قد طال لسانه وان يكن فكره قد بقي قصيراً ورأسه صغيراً ناقصاً من عند قَمَحْدُوَته . وقد نذرت على نفسي ان أمشي وراءه خطوة خطوة واحاكيه في سيرته . فان رأيت منه حمقة جئت بمثلها . او غواية غويت مثله . او رشداً قابلته بنظيره . والا فاني اكون خصمه لا كاتب سيرته او ناقل كلامه . وينبغي ان يعلق

هذا الحكم في أعناق جميع المؤلفين . ولكن هيهات فاني أرى أكثرهم قد زاغ عن هذه المحجة . اذ المؤلف منهم بينا هو يذكر مصيبة أحد من العباد في عقله أو امرأته أو ماله اذا به تكلف لايراد الفقر المسجعة والعبارات المرصعة وحشى قصته بجميع ضروب الاستعارات والكنايات . وتشاغل عن هم صاحبه بما أنه غير مكترث به . فترى المصاب ينتحب ويولول ويشكو ويتظلم . والمؤلف يسجع ويجنس ويرصع ويوري ويستطرد ويلتفت ويتناول المعاني البعيدة . فيمد يده تارة الى الشمس وتارة الى النجوم . ويحاول انزالها من أوج سمائها الى سافل قوله . ومرة يقتحم البحار . وأخرى يقتطف الازهار . ويطفر في الحدائق والغياض . من أصل الى فرع ومن غوطة الى ربوة . ماذلك دأبي فاني اذا أوردت كلاماً عن أحمق انتقيت فيه له جميع الالفاظ السخيفة . واذا نقلت عن أمير تأدبت معه في النقل ما أمكن . فكأني جالس بمجلسه . أو عن قسيس مثلاً أو مطران أتحفته بجميع اللفظ الركيك والكلام المختل . لئلا يصعب عليه المعنى فيفوت الغرض من تأليف هذا الكتاب . فاعلم اذاً أن الفارياق بعد أن فار دماغه بحرارة النحو زيادة على ما كان له من الرغبة في النظم سار ذات يوم لقضاء مصلحة له . فمر في طريقه على دير للرهبان وكان الوقت مساء . فرأى أن يبيت ليلته تلك في الدير فعرج عليه وطرق الباب فبرز له رويهب . فقال له الفارياق هل من مبيت عندكم لضيف . فقال له الرويهب . أهلاً به ان لم يكن ذا سيف . ففرح الفارياق بهذا الجواب وعجب من أنه يوجد في الدير من يحسن المساجلة . وانما قال له الرويهب ما قال لأن الدير كان ينتابه كثير من أتباع الامير ليبيتوا فيه من كل سرطم قهقم لهجم نهم وحم وخم هقم يسمع له هنيم . فكان أحدهم اذا بات ثم ليلة يكلف الرهبان من المطاعم الفاخرة ما لم يعهدوه . لان هؤلاء الخلق يعيشون عيشة المتقشفين المقترين المتبلغين بأدنى القوت . إذ هم ينظرون الى الدنيا والى لذاتها نظر العدو . فهي عندهم ضرة الآخرة . كلما تباعد عنها الانسان المخلوق فيها تقرب الى الجنة . حتى ان الخبز الذي كثيراً ما يأكلونه بغير ادام ليس كخبز الناس . فانهم بعد أن يخبزوه رقيقاً يشمسونه أياماً متوالية حتى يجف وييبس . بحيث يمكن للانسان اذا أخذ بكلتا يديه رغيفين وضرب أحدهما بالآخر أن يخيف بقرقعتها جميع جرذان الدير . أو أن يتخذهما متخذ الناقوس الذي يضرب

به لأوقات الصلاة . ولا يقدرون على أكله إلاّ منقوعاً بالماء حتى يعود عجيناً . فأمّا تقلّد تابع الامير بالسيف فانما هو تهويل وانذار بنكال المتهاون به . كتهويل الفارياق على الرويهب بسؤاله . ومن لم يكن له سيف استعار سيف صاحبه . أو اتخذ له خشبة رقيقة في غمد سيف .وليس في استعارة الماعون وغيره عند أهل الجبل من عار بل كثيراً ما يستعيرون حلياً ومِعرضاً للعروس يزفّونها به وللرجل ثياباً وعمامة يزينونه بها . ثم انه لما حان وقت العشاء جاء ذلك الرويهب بصحفة من العدس المطبوخ بالزيت وبثلثة أصنُج من ذلك الخبز وجعلها بين يدي الفارياق . فجلس للعشاء وتناول رغيفاً ودقّه بالآخر حتى انكسر. فلما التقم أول لقمة نشبت شظيّة من الخبز في سنّه وكادت أن تذهب بها . فجعل يسنده ويسدّ موضع الخلل منها بالعدس . ولم يكد يتم العشاء حتى اشتدّت حرارة العدس في بدنه فجعل يحك باظفاره و ببعض قَصد الرغيف حتى تهشّم جلده . فساءه ذلك جداً . وقال لقد خَلْخلت هذه الكسرة سنيّ فلا قلعنّ سنّاً من أسنان هذا الدير . ثم إنه أعمل فكره في نظم بيتين في العدس تشفّياً مما ناله منه جرياً على عادة الشعراء من أنهم يتشفّون بعتابهم الدهر مما هم فيه من النّحس والقهر .والشقاوة والضُر . فالتبست عليه لفظة فقام في طلب القاموس . فطرق باب جاره وكان من المتحمّسين في الدين . فقال له هل عندك يسيّدي القاموس . قال ماعندنا بالدير جاموس بل ثيران . فما حاجتك به الآن فطرق باب آخر وكان أشد منه خشونة . فقال له هل لك في أن تعيرني القاموس ساعة قال اصبر عليَّ الى نصف الليل فانّ الكابوس لا يأتيني الاّ في هذا الوقت . فمضى الى غيره وأعاد عليه السؤال .فقال له أي شيءٍ هو هذا القاموص ياماغوص . فرجع الى صومعته وقال . لابدّ من نظم البيتين . وسأترك محلاً فارغاً للفظة فقال .

أكلتُ العدس في دير مساءً — فبتُّ وبي أُكالٌ لا يطاق
فلولا أنني أعملتُ ظفري — لقال الناس — الفارياق

فلما كان نصف الليل والفارياق نائم اذا بأحد الرهبان يقرع عليه الباب . فظنّ انه أتاه بالكتاب المطلوب . ففتح له وهو مستبشر بوجدان ضالّته. فقال له الراهب قم الى الصلوة واقفل الباب واتبعني. فذكر عند ذلك ما قاله له جاره من أنّ الكابوس

لا يأتيه الا في نصف الليل. فقال في نفسه قد صدق الرجل فان هذا الداعي أشد على النائم من الكابوس . قبحاً لها من ليلة شؤمي لقد كاد الخبز يقلع سنّي والعدس مثاني بالحكّة . وما كدت الآن أغفى حتى أتاني هذا القارع الاقرع النحس يدعوني الى الصلوة أ كان أبي راهباً وأمّي راهبة أم وجب عليّ الشكر والصلوة من أجل أكلة عدس . ولكن سأصبر الى الصباح. فلما كان الغدُ جآءه ذلك الرويهب ليد أله عن حاله اذ كان قد دخل الدير مذ عهد غير بعيد فكان فيه بقيّة رقّة ولطف. فقال له الفارياق سألتك بالله أن تجلس عندي قليلاً . فلما جلس قال له قل لي فديتك أفي كل يوم أنتم تفعلون هذا .فوجم الرويهب وظنّ به سوءاً ثم قال أيّ فعل تعني .قال أكلكم العدس مسآء وقيامكم في نصف الليل للصلوة. قال نعم ذلك دأبنا في كل يوم . قال ماالذي أوجبه عليكم . قال التعبّد لله والتقرّب اليه . قال ان الله تبارك وتعالى لا يهمه ان كان الانسان يأكل عدساً او لحماً. ولم يأمر بذلك في كتبه . اذ ليس فيه مصلحة لنفس الآكل او للمأكول . قال هذا دأب النّساك العُبّاد اذ التقشّف في المعيشة ونهك الجسم بالرّدى من الطعام و بقلّة النوم ينفي الشهوات . قال لا بل هو مناف لما شآءه الله . اذ لو شآء ان ينهك بدنك و يخليه من الشهوات لخلقك ضاوياً دنِفاً . ما قولك في من خلقه الله جميلاً . أيجوز له أن يشوّه وجهه بأن يبخق عينه أو يخزم أنفه أو يشرم شفته او يقلع اسنانه كما اردتم قلع اسناني البارحة بخبزكم هذا اليابس . او ان يسخّم سحنته . قال في ظني انه لا يجوز . قال أليس البدن كله على قياس الوجه . لعمري ما خلق الله الساعد الفعم الا وهو يريد بقآءه فعماً. ولا الساق المجدولة الا وشآء لها ان تكون كذلك دائماً . ولا حلل الطيبات من المآكل للناس الا وهو يريد أن يأكلوها هنيئاً مريئاً . نعم قد حرّم هذه الطيبات بعض الاديان المشطّة . غير ان دين النصارى يحللها . وانما جاء التحريم من بعض شهارب طعنوا في السنّ فلم يكن بهم قَرَم الى اللّحم ولا الى غيره . ما المانع من تناوله كل يوم. قال لا ادري وانما سمعت علماءنا يقولون ذلك فقلدتهم. واني اقول لك الحق اني مللت من هذه العيشة . فاني ارى جسمي كل يوم في ذبول ونفسي في انقباض . ولو كنت عرفت من قبل ما أصير اليه لما سلكت هذه الطريقة غير ان أبي وامي فقيران وخشيا ان اكون من ذوي البطالة والتعطل . اذ لا صنائع

نافعة في بلادنا يمكن للانسان ان يتعلمها ويعيش منها فزينا لي الرهبانية . وقالا لي ا
واظبث على الطريقة في الدير بضع سنين فربما ترتقي الى رتبة عالية فتنفع نفسك وا
وما زالا بي حتى أجبتهما ولو لم اجبهما طوعاً لأكرهاني على ذلك . فقال له الفاريا
نعم ان الرهبانية هي ملجأ من البطالة فكل من كان عطلاً عن علم او صنعة يقصد
الا انك ما زلت مثلي حدثا فيمكن لك أن تقصد أحداً من أهل الخير والشفقة فيدلك
على ما ينفعك . والله تعالى خلق الاشداق . وتكفّل لها بالارزاق . وقد جعل
الحركة بركة هذا وانت تعلم ان الرهبانية مشتقة من الرهبة وهي خوف الله تعالى . فل
تعاطيت حرفة وعشت بها بين الناس وتزوجت ورزقت ولداً وخشيت الله فانت
راهب . ليست الرهبانية بأكل العدس والخبز اليابس . أليس ان رهبان ديرك بينه
من الخصام والطعن والحقد مالا يوجد عند غيرهم . فان رئيسهم لا يزال يحاول اذلال
واخضاعهم له . وهم لا يزالون مدمدمين عليه شاكين منه . وبينه وبين رؤساء الاد
الاخرى من الحسد والمنافسة ما بين وزراء الدول . وأكثرهم ينال الرئاسة بالتملق للا
الحاكم او للبطرك . فاذا أحس بوشك انقضاء مدته وخشي العزل رايته يجود بالهد
والتحف لذوي الامر والنهي بما لا يجود به أكرم أهل بلادنا . وذلك حتى يقروه عل
رئاسته . وهؤلاء الرهبان المُكرَهون على التبلّغ بالعدس وعلى التنحس اذا دعاهم أحد
لمادبة سمعت لاستراطهم دويا . فيلفلفون ويلمظون ويتلمظون ويتكظكظون
ويشتفّون حتى تجحظ عيونهم . وأضر ما يكون عليَّ منهم انك لا تكاد تسلّم على أحد
منهم الا ويمدّ لك يده لتبوسها . ربما كانت نجسة قذرة . فكيف الثم يد من هو أجهل
مني ولا غناء عنده في شيء . انظركم عندنا في بلادنا من دير وعلى كم تشتمل هذه
الاديار من الرهبان . ولم أرَ أحداً منهم نبغ في علم ولا من أثرت عنه مكرمة . بل
لا تسمع عنهم الا ما يشين الانسان في عقله وعرضه . قد كنت في خدمة بعير بير
مدة فرأيت أحد هؤلاء الكارزين قد تمكّن من ابنته تمكن الزوج من امرأته . فكان
يقول لها فيما يسألها عنه هل تتجمج أليتاك ويترجرج ثدياك . فما للراهب
ولترعد ألايا النسوان ورجرجة اثدائهن . وآخر كان رئيساً في دير فعلق بنتاً في قرية
بالقرب من الدير فلم تلبث ان علقت منه . غير انه لما كان أخوه وجيهاً عند الحاكم

خاف أبو البنت من ان يخاصمه ويفضحه . بل قد تقرر في عقول الجهلاء من أهل بلادنا ان افشاء أمر مثل هذا مما يفتضح به عرض أحد هؤلاء النساك حرام . ايم الله ان الستر عليه حرام فان فضيحته تردع غيره . وأعرف آخر جاء الى قريتنا متماوتاً وقد طوّل كميه وأسبل قلنسوته حتى لم يكد يظهر من تحتها الا فمه ولحيته تظاهراً بالصلاح والتقوى . ثم أنزل نفسه منزلة خطيب في القوم . فجعل يخطب ويعظ وينذر بصوت جهير . وكان يبكي عند ذلك أشد البكاء ويذرف المدامع اذ كان جعل في منديله الذي يمسح به وجهه شيئاً ذا حرقة لا أدري ما هو . ثم آل أمره الى انه كان يقضي أياماً وليالي مع أرملة حسناء شابة من نساء الامراء في خلوة استذراعاً بانها تعترف له اعترافاً عاماً . أي من يوم انتفخ ثديها ونبت شعرها الى ذلك اليوم . وأعرف آخر كان قد ذهب الى رومية وكان مغفلاً فكان ينام في فراشه بثيابه الرهبانية على طريقته في الدير ويوسخ الملآة . فكان صاحب المنزل ينهاه عن ذلك . ثم لما رأى ان جميع قسيسي رومية وأعيان أئمتها من البابا الى الكردينال الى الراهب ينامون عريانين لا شيء يستر سوآتهم غير ملآء الكتان الرفيع كفر بهم وصار يستحل الحلال والحرام معاً . فانظر الى هؤلاء العباد من العباد فانك لا ترى فيهم الا خبيثاً منافقاً أو جاهلا مائقاً . ونادر وجود الصالح بينهم . أما العلم فهو محرّم عليهم كلهم . لا بأس في الرهبانية تطوّعاً لا بأس انما هي طريقة محمودة . ولكن بشرط مجاوزة الخمسين سنة . وان يكون الداخلون فيها من أهل الفضائل والمعارف . يشتغلون بالعلم وبتهذيب ملآء اخوانهم ومعارفهم . ويحضون على مكارم الاخلاق والاتصاف بالمزايا الحميدة . ويؤلفون الكتب المفيدة وينهجون لقومهم المناهج المؤدّية الى الخير والفلاح والفوز والنجاح . لا مثل هؤلاء الذين لا يعرفون شيئاً من الدنيا سوى التقشف والرثاثة . وناهيك دليلا على جهلهم اني سألت أشدهم تحمساً ان يعيرني القاموس فظنّه الجاموس . وآخر ظنه الكابوس . وآخر القاموص . فبادر يا صاحِ وتخلّص منهم هداك الله والا فتكون لا من أهل الدنيا ولا من أهل الآخرة . فان دين الجاهل عند الله ليس بشيء . واذا بلغت الستين سنة فها هي الرهبانية بين يديك . فقال له كيف التخلص . قال ألك في الدير متاع فأساعدك على حمله . قال مالي سوى ما تراه عليّ . قال فاحضر بنا اذاً فان

نافعة في بلادنا يمكن للانسان ان يتعلمها ويعيش منها فزينا لي الرهبانية . وقالا لي اذا واظبت على الطريقة في الدير بضع سنين فربما ترتقي الى رتبة عالية فتنفع نفسك وإيانا وما زالا بي حتى أجبتهما ولو لم اجبهما طوعاً لأكرهاني على ذلك . فقال له الفارياق نعم ان الرهبانية هي ملجأ من البطالة فكل من كان عطلاً عن علم او صنعة يقصدها الا انك ما زلت مثلي حدثا فيمكن لك أن تقصد أحداً من أهل الخير والشفقة فيدلك على ما ينفعك . والله تعالى خلق الاشداق . وتكفّل لها بالارزاق . وقد جعل في الحركة بركة هذا وانت تعلم ان الرهبانية مشتقة من الرهبة وهي خوف الله تعالى . فاذا تعاطيت حرفة وعشت بها بين الناس وتزوجت ورزقت ولداً وخشيت الله فانت ح راهب . ليست الرهبانية بأكل العدس والخبز اليابس . أليس ان رهبان ديرك بينهم من الخصام والطعن والحقد مالا يوجد عند غيرهم . فان رئيسهم لا يزال يحاول اذلالهم واخضاعهم له . وهم لا يزالون مدمدمين عليه شاكين منه . وبينه وبين رؤساء الاديار الاخرى من الحسد والمنافسة ما بين وزراء الدول . وأكثرهم ينال الرئاسة بالتملق للامير الحاكم او للبطرك . فاذا أحس بوشك انقضاء مدته وخشي العزل رايته يجود بالهدايا والتحف لذوي الامر والنهي بما لا يجود به أكرم أهل بلادنا . وذلك حتى يقرّوه على رئاسته . وهؤلاء الرهبان المُكرَهون على التبلّغ بالعدس وعلى التنحس اذا دعاهم أحد لمأدبة سمعت لاستراطهم دويا . فيلغلفون ويلمظون ويتلمظون ويتكظكظون ويشتفّون حتى تجحظ عيونهم . وأضر ما يكون عليّ منهم انك لا تكاد تسلم على أحد منهم الا ويمد لك يده لتبوسها . ربما كانت نجسة قذرة . فكيف اثم يد من هو أجهل مني ولا غناء عنده في شيء . انظركم عندنا في بلادنا من دير وعلى كم تشتمل هذه الاديار من الرهبان . ولم أرَ أحداً منهم نبغ في علم ولا من أثرت عنه مكرمة . بل لا تسمع عنهم الا ما يشين الانسان في عقله وعرضه . قد كنت في خدمة بعير بيعر مدة فرأيت أحد هؤلاء الكارزين قد تمكن من ابنته تمكن الزوج من امرأته . فكان يقول لها فيما يسألها عنه هل تتجمجم أليتاك وبترجرج ثدياك . فما للراهب ولترعد ألايا النسوان ورجرجة اثدائهن . وآخر كان رئيساً في دير فعلق بنتاً في قرية بالقرب من الدير فلم تلبث ان علقت منه . غير انه لما كان أخوه وجيهاً عند الحاكم

خاف أبو البنت من أن يخاصمه ويفضحه . بل قد تقرر في عقول الجهلاء من أهل بلادنا ان افشاء أمر مثل هذا مما يفتضح به عرض أحد هؤلاء النساك حرام . ايم الله ان الستر عليه حرام فان فضيحته تردع غيره . وأعرف آخر جاء الى قريتنا متماوتاً وقد طوّل كمّيه وأسبل قلنسوته حتى لم يكد يظهر من تحتها الا فمه ولحيته تظاهراً بالصلاح والتقوى . ثم أنزل نفسه منزلة خطيب في القوم . فجعل يخطب ويعظ وينذر بصوت جهير . وكان يبكي عند ذلك أشد البكاء ويذرف المدامع اذ كان جعل في منديله الذي يمسح به وجهه شيئاً ذا حرقة لا أدري ما هو . ثم آل أمره الى انه كان يقضي أياماً وليالي مع أرملة حسناء شابة من نساء الامراء في خلوة استدراجاً بانها تعترف له اعترافاً عاماً . أي من يوم انتفخ ثديها ونبت شعرها الى ذلك اليوم . وأعرف آخر كان قد ذهب الى رومية وكان مغفلاً فكان ينام في فراشه بثيابه الرهبانية على طريقته في الدير ويوسخ الملاءة . فكان صاحب المنزل ينهاه عن ذلك . ثم لما رأى ان جميع قسّيسي رومية وأعيان أئمتها من البابا الى الكردينال الى الراهب ينامون عريانين لا شيء يستر سوأتهم غير ملاءة الكتّان الرفيع كفر بهم وصار يستحل الحلال والحرام معاً . فانظر الى هؤلاء العبّاد من العباد فانك لا ترى فيهم الا خبيثاً منافقاً أو جاهلا مائقاً . ونادر وجود الصالح بينهم . أما العلم فهو محرّم عليهم كلهم . لا بأس في الرهبانية تطوّعاً لا بأس انما هي طريقة محمودة . ولكن بشرط مجاوزة الخمسين سنة . وان يكون الداخلون فيها من أهل الفضائل والمعارف . يشتغلون بالعلم وبتهذيب املاء اخوانهم ومعارفهم . ويحضون على مكارم الاخلاق والاتصاف بالمزايا الحميدة . ويؤلفون الكتب المفيدة وينهجون لقومهم المناهج المؤدّية الى الخير والفلاح والفوز والنجاح . لا مثل هؤلاء الذين لا يعرفون شيئاً من الدنيا سوى التقشف والرثاثة . وناهيك دليلا على جهلهم اني سألت أشدهم تحمّساً ان يعيرني القاموس فظنّه الجاموس . وآخر ظنه الكابوس . وآخر القاموص . فبادر يا صاح وتخلص منهم هداك الله والا فتكون لا من أهل الدنيا ولا من أهل الآخرة . فان دين الجاهل عند الله ليس بشيء . واذا بلغت الستين سنة فها هي الرهبانية بين يديك . فقال له كيف التخلص . قال ألك في الدير متاع فأساعدك على حمله . قال مالي سوى ما تراه عليّ . قال فاحضر بنا اذاً فان

الرهبان الآن عاكفون على الصلوة . فخرجا من باب الدير ولم يعلم بهما أحــد . فلما بعدا قليلاً هنأ الفارياق صاحبه بخروجه من ربقة الجهل وقال له . لعمري لو كنت كلما أكلت أكلة عدس خلّصت راهباً او رُوَيهبا او بالحري راهبة او رُوَيهبة لوددت ان لا آكل الدهر غيره وان أكل بدني . فجزى الله الدير خيراً

الفصل الثالث عشر

في مقامة

أو مقامة في الفصل الثالث عشر

قد مضت عليّ برهة من الدهر من غير ان اتكلف السجع والتجنيس وأحسبني نسيت ذلك . فلا بدّ من أن أختبر قريحتي في هذا الفصل فانه أولى به من غيره . اذ هو أكثر من الثاني عشر وأقل من الرابع عشر . وهكذا أفعل في كل فصل يُوسَم بهذا العدد حتى أفرغ من كتبي الاربعة . فتكون جملة المقامات فيها أظن أربعا . فأقول

حدّث الهارس بن هثام قال أرقت في ليلة خافية الكوكب . بادية الهَيْدَب . طويلة الذنب ملأى من الكُرَب . الى الكرَب . فجعلت أنام على ظهري مرة وعلى جنبي أخرى . وأتصوّر شخصاً ناعساً امامي يتثآب وآخر ينخر نخراً . وآخر يهوّم سكراً . فان التصوّر فيما قالوا يبعث على فعل ما ترغب النفس فيه . وينشط الى ما تصبو اليه وتشتهيه . ومع ذلك فما اكتحلت غمضاً . ولا فتح فمي في تثاؤب طولاً ولا عرضاً وكان يخيّل لي ان أهل الارض كلهم رقود وأنا وحدي من بينهم أرِق . وان جميع جيراني في سكون وأنا دونهم قلِق . فقمت الى الشراب فحسوت منه حسوة . فلم تك الا غفوة . كانما كانت هفوة . فأفقت في أسوأ حال . وشرّ بلبال . والهموم قد انثالت عليّ من كل جانب . والافكار متطايرة على كل مقارب ومجانب . فكان يخطر ببالي كل ممكن ومحال . ويعاودني ما كنت فكّرت فيه من الاحوال . مرة منذ احوال . فلما علمت ان النوم قد ندّ عني وان تناومت . وانه لا بد من ترقب الفجران أذعنت وان

قاومت . مددت يدي الى كتاب أطالع فيه . وقلت ان لم يُنمني فينبهني ببعض معانيه. فتناولت أقرب ما وصلت اليه يدي . وأنا غير موثر أحد الكتب على غيره . في خلدي واذا به كتاب موازنة الحالتين . وموازنة الآلتين . للشيخ الامام العالم العامل . الفاضل الكامل . أبي رُشْد نُهْيَة بن حزم . المشهور بالبلاغة في النثر والنظم . وهو كتاب لم يسبقه اليه احد من المؤلفين . ولم يجاره فيه كاتب من المجلّين . فقد وازن فيه بين حالتي بؤس المرء ونعيمه . ورَوحه وهمومه . ومنافعه ومضارّه . وأحزانه ومسارّه . منذ كونه طفلاً . الى ان يصير كهلاً . ثم شيخاً قحلاً . وقد جعل ذلك في جدولين متقابلين . واسلوبين متفاضلين . الا انه لما كان الشيخ قدس الله سرّه . ورفع في أعلى عليين مقامه وقدره . على ما يظهر لي ذا عيشة راضية . وسعادة وافية . وهمة ماضية . رجّح طرف اللذات على غيرها . واستقلّ شر الحيوة بالنسبة الى خيرها . حتى انه زعم ان اللذة تكون عن الفعل والتصور معاً . بخلاف الألم فان الفكر لا يقع منه موقعاً وانه كان اذا امتثل خَوْداً يداعبها وتداعبه . هزّته نشوة طرب مال بها سريره ومركبه وكلكله ومنكبه . بيد اني ارتبت في كلامه في هذا المحل . وقلت سبحان الله لا بد لكل مؤلف من هفوة وان جلّ . وذلك اني لما تصورت الشخص المتهوم . والناعس والمتثائب وأنا متناوم . لم يغنني التصور عن الفعل نقيراً . ولا وجدت فيه لذة لا قليلاً ولا كثيراً . على اني أذهب الى ماذهب اليه بعض المجانين . من ان لذة اليوم لا تكون قبله ولا معه ولا بعده للنائمين . وهي عقدة للطبائعيين لا يمكنهم حلّها بلسانهم وأفكارهم . ولا بسنانهم وأظفارهم . غير ان عبارة المصنف كانت من العلم والحكمة بحيث تخلب عقل الناقد الخبير . وتريك في تحرّي أحد القولين كل تحرير فلما اطلقت النظر فيهما وعاد اليّ كليلاً . وأعملت حدّ النقد ورجع مفلولاً . عزمت على أن أستجلي هذا الاشكال . من بعض ذوي الدراية والجدال . فقلت في نفسي كما ان يدي نالت أدنى الاسفار . كذلك يكون مراوحي عليه ادنى الجار . وكان يسكن بالقرب مني مطران يطريء قومه على حليته . ويُعظمون فضله وأدبه على طول لحيته . فقصدته ضحوة النهار . باديَ الاستبشار . فرأيته ذا بِكْلة تروق . وبِزّة تشوق . فعرضت عليه الجدولين وقلت افتني في هذه القضية . ولك الأجر من رب

البرية . فنظر فيهما ثم حرك رأسه . وجعل يرمش ثم يشكو نُعاسه . وقال لي ما ترجمته
ذلم يكن ممن تسمو الى السجع همته ما لحنت مغزاهما . ولا دريت فحواهما . ولو كانا
بعبارة ركيكة . كان ذلك عليَّ أسهل من الجلوس على هذه الاريكة . فقلت قد أخره
في العلم والتثقف . تقدمه في الصف . ونقص من عقله وفهمه ما زاد في لحيته وكمه .
فلاستعملنَّ بعده أكثر الناس حمقاً وهوجاً . وما ذلك الا معلم الصبيان الهجا وكان في
البلد مَن اتَّصف بهذه الصفة . وهو مع ذلك ذو كبر وعجرفة . فقصدت محله .
والقيت عليه المسئلة ، فاذا به قام يصفق بيديه . ويرائ بعينيه . ويقول لقد سقطت
على الخبير . واهتديت برأي بصير . ان شئت ان تعرف اي القولين ارجح . واصدق
واصح . فزن الجدولين دون جلد الكتاب في ميزان . فما رجح منهما فهو الراجح
ما اختلف في ذا اثنان . فقمت من عنده غضبان نادماً . ولعنت الارق الذى كان
السبب في ان اكون لمعلمى الصبيان مكالماً . بعد ان قرأت فى غير كتاب . وسمعت
من ذوي الالباب . انهم اسخف خلق الله عقلاً . واكثرهم جهلاً . وأبعدهم عن الفهم
واسفههم الى الوهم . فسرت فى ذلك اليوم . الى فقيه من جلة القوم . قد كبر عمامته
وكوّرها . ووسع جبته وزوّرها . فقلت افتني ايها الفاضل الاحذق . اي القولين
عندك احق واصدق . فقال اما اذا جئتنى مستفتياً . ورمت ان تكون برأيي
مستهدياً . وبطريقتي مقتدياً . فاني اقول لك بعد التروى . فى هذا المذهب المتحوَّى
انا معاشر الفقهاء من اهل الكلام . القائمين بأحكام الاحكام . وتبيين المتشابه بين
الانام . وانَّ من دأبنا اظهاراً للحق ان نسهب فى التعليل . ونكثر من قال وقيل .
اذ لا بد من انتشاء عرف الصواب . من الاسهاب . ومن الاهتداء الى بعض
المذاهب . بفرض المستحيل وجعل المعدوم كالموجود الواجب . فعندى انه لا بدَّ
من عد الفاظ القولين . واحصاء حروف الجدولين . فما كان منهما اكثر حروفاً . فهو
ارجح واحسن تأليفاً . والله اعلم . ففصلت من عند الفقيه . كما فصلت من عند صاحبه
السفيه . وقلت انما اللوم على مستفتيه . ثم قصدت شاعراً كنت اعهده يتلهوق
ويتشدق . ويتفصَّح ويتمدَّح . ويتبجح ويتزنح . وقلت له هاك ما تحرز عليه اجراً .
ويكسبك بين الناس فخراً . فأبن لي اي الاهلوبين ابدع . وبالحق فاصدع . قال

اما انا فما لي من خلاق في الدنيا ولا نصيب . غير المدح والنسيب . ففي الاول غُصتي وفي الثاني لذّتي . فاصبر علي ريثما اطالع ديواني كله . واتصفحه جُملة . فان وجدت المديح فيه اكثر من الغزل . كان الخير في الدنيا اقل . فأتممته بصاحبيه الفقيه والمعلّم وقلت كم من متكلّم مُكلَّم . ثم سرت الى كاتب الامير . وكان مشهوداً له بالتحري والتحرير . فأثنيت عليه قبل السؤال مطرئاً . وقلت لم يكن غيرك في ذا مجزئاً . فقال ان سعادتي في الكون هي ان أرضى عن اميري ويرضى عني . وشقاوتي هي ان أغضب منه ويغضب مني . وقد نسيت كل ما جرى عليّ من الغضب والرضى . لكثرة المشادة والمقتضى . فان صبرت عليَّ في المستأنف شهراً . لاقيّد في دفتري ما ألقاه منه حلواً ومراً . ونفعاً وضراً . أفدتك الجواب فأبل عذراً . فصيرته رابع الثلثة . وقلت لاستشيرن ذا حداثه . فان اهل المراتب والمناصب قد ذهبت صداراتهم بالبابهم . فلم يبقَ فيهم خير لقارع بابهم . فجئت الفارياق وهو مكبّ على النسخ . وفي طلعته مبادئ المسخ . فقد رأيت عينيه غائرتين . ويديه ذاويتين . وعظم خديه ناتئاً . وجلده كالظل زائناً . حتى رثيت لحالته . وكدت امسك عن الكلام اشفاقاً من بطالته . لكنه لما رآني قام اليَّ . ثم أقبل عليّ . وقال هل من خدمة اقتضت سعيي . او نجوى اوجت وعيي . فقلت قد اقدمني كذا وكذا . فاكفني ذل السؤال كُفيت الاذى . فاخذ رقعة من تحت اسمال . وكتب فيها في الحال

أتيتني مستفتياً في امرِ ... يعلمه كل امرئ ذي حِجرِ
الخيرَ ان قابلته بالشرّ ... في العمر كان قطرةً من بحرِ
لا ترى الاجرب كيف تسري ... عَدْواه في جميع اهل المصر
وليس من ذي صحّة ويسر ... عدوى لمن داناه طول العمر
والطفل اذ يُثغركم من ضُرّ ... يَلقَى ويُلقَى عنده في قبر
وعند إشعارٍ ونبت ظفر ... ليس له من لذةٍ وسُرّ
وكل عضو لقبول الكسر ... أقرب منه لقبول الجبر
وما فساده سريعاً يزري ... كالعين لن تصلحه في دهر
ونبي طفل لابيه يفرى ... فؤاده وكل عظم يبري

وليس في مولده من بشر ندٌّ لحزن موته الاضرّ
وما تكون لذة عن فكر اذا تحققت ولا عن ذكر
وانما ذا هوس قد يجرى في خاطر المغفل المغتر
فهل تصوُّر الشفاء يبري ذا مرض أمرض منذ شهر
وهل لمن يبرد وقت القرّ دِفءٌ بتذكارَ اوان الحرّ
فليس دنيانا لاهل الخبر سوى بلاء دائم وخسر
يُذِلُّ فيها العبدَ غير حرٍّ وهكذا يموت رغماً فادرِ

قال فلما اخذت الرقعة وتأملت فيها. وتحققت معانيها. علمت ان قوله هو الاسدّ. وان قول غيره هذيان وفند. فقلت له بورك في زمن جاد بمثلك. وهدى المستفيدين الى رشدك وفضلك. وقبحاً لاهل الثرا اذ لم يحلّوك ارفع الذرى. ثم انصرفت من عنده داعياً. ولما قاله واعياً

الفصل الرابع عشر

في سرّ

هجع هجع الحمد لله. الحمد لله. قد تخلصت من انشاء هذه المقامة ومن رقمها ايضاً فانها كانت باهظة. ولم يبقَ لي همّ منها سوى حث القارئ على مطالعتها. وهي وان تكن خشنة غير مهلهلة كسجع الحريري الا انها تُلبَس على علاتها. وتحمد لافادتها. وفي ظني ان الثانية تكون احسن منها. والثالثة احسن من الثانية. والرابعة احسن من الثالثة. والخمسين احسن من التاسعة والاربعين. لا تخف من هذا التهويل والتوهيل لا تخف. انما هي اربع لا غير كما وعدتك. والآن ينبغي ان أعصر يافوخي لاستقطر منه افكاراً ومعاني حسنة والفاظاً رائقة مع تجنب الثرثرة. فان العلماء يسمون ذلك فيما أظن اخلاقاً. ولكن قف هنا حتى أسألهم. ماذا تسمون الكلام الذى يتدفق بالمعاني ويبلّ قارئه حتى آتيكم به. فان لم تسموه لي حالاً فلا تلوموني

على نقيضه . فاني أنا من الموجود ودأبي ان أبحث عنه لا عن المعدوم . ولما كان اسم الاخلا موجوداً ونقيضه معدوماً ناسب ان اعدل اليه عن غيره . الى ان تواطئوا على اسم ولكن لا بالخناق والتنارش . والنقار والتهاوش . و بالجلاد والجدال . و بالتماسك بالجيوب والاذيل . بل بالرزانة و لوقار . والأون . والاستبصار . فان الرزين اذا وضع اسماً لشيء جاء ذلك الاسم رزيناً مثله . فلا يمكن بعد انتقاله الى آخر . بل ربما وَقرَ بالاسم المسمّى وان يكن مما اتصف بالخفة والطيش . ألا ترى ان كلام الشاعر الرقيق يأتي رقيقاً . وكلام الضخم يأتي ضخماً . كما قيل كلام الملوك ملوك الكلام . وشعر المرأة يأتي خالباً للعقول لاعباً بالالباب مثلها . ويستثنى من هذه القاعدة وضع الولد من قبل ابيه اي مادة توزيغ لولد . لا ان الاب يحبل ويلد . وذلك ان الوالد قد يكون قبيحاً ويأتي ولده صبيحاً . وسببه ان الايلاد لما كان من الافعال التي لا تتم الا بمشاركة اثنين أعني رجلاً وامرأة اذ التغليب هنا لا يخلو ايضا من الابهام . لم يكن للوالد مطلق التصرف في تهيئته ولده كما شاء . فقد يكون هو عند ذلك مقدراً له شكلاً ارتضاه وتكون امه حرسها الله مقدرة له شكلاً آخر بحسبما استحسنته وخالج صدرها اذ ذاك . فيأتي الولد خنفشارياً . لا يقال ان الرجل لا يستحضر عند ذلك صورة معلومة لذهوله بشاغل المادة . فان ذلك لا يصدق على من ألِف شيئاً واحداً بخصوصه . فان طول الفة الانسان لشيء تعدّل هواه فيه . فيباشره برشد وروية . فمثله كمثل الطبّاخ الشبعان يطبخ خصض الطعام باتقان واحكام بخلاف الجائع فانه يلهوج عمله ويلهوقه . فاعلم اذاً بعد هذا الاستطراد البديع . والعظال المجبع . ان الفارياق ذهب ذات يوم الى بعض القسيسين ليعترف له بما فعل وفكر . وقال من المنكر . فقال له القسيس فيما سأله به . قد سمعت عنك انك كلِف بالنظم و بالالحان وهما من أعظم أسباب الفساد والغرام . فهل سوّل اليك الخناس ان تتغزل في الشعر بامرأة قاعدة النهد . موردّة الخد . بيّنة الكحل . مرتجة الكفل . نحيلة الخصر . مفلّجة الثغر . عبْلة الساقين . مجدولة الساعدين . سوداء الشعر والحلمتين . نجلاء العينين . مخضّبة الكفين . رقيقة الشفتين . مزججة الحاجبين . مدورة السرّة . ذات عُكن مفترة . حلوة الابتسام . مهفهفة القوام . لها رُضاب عذب . ونكهة

نسكر الصب ٠ قال قد فعلت ذلك لكني ان أراك الا حربني في هذه الصنعة . فقد رأيتك نحسن وصف الحسان اىَّ احسان ٠ قال ليست احرفتي تلفيق الكلام ٠ وانما هو شيءٌ عرفته بالقياس والالهام ٠ فان كل من تعاطى النظم يملأ دماغه بهذا الوصف المحرَّم ٠ وكيف كان فلا بد من ان تحرق غزَلَك كله ٠ بالتفصيل والجملة ٠ فانه يبعث الاغرار على المعاصي ٠ فتجزى به يوم يؤخذ بالنواصي ٠ وتهز التفاصي ٠ قال كيف احرق في ساعة واحدة ما سهرت فيه ليالي متعددة حرمت فيها من الكرى ٠ وكابدت بها جهداً ولا جهد الشرى ٠ او السُرى ٠ فكنت اذا نظمت البيت من القصيدة يخيَّل اليَّ اني قطعت مرحلة الى محل المتغزل بها ٠ وعند تمام القصيدة أتصوَّر انى وصلت اليها ولم يبق بيني وبينها سوى فتح الباب ٠ فكان الختام عندي افتتاحا خلافا لجميع الشعراء ٠ ولذلك لم أكن أقصد القصائد الطويلة خشية ان تطول عليَّ المسافة بطولها ٠ فهل من الرأي السديد ان يحبط عملي كله من اجل الاغرار ٠ وبعدُ فانى لا اريد انهم يقرأون كلامي ٠ لانهم ان لم يفهموه سألوا عنه اهل العلم فيذمه هؤلاء ويخطئونني ويفندونني ٠ اذ لا يرون في كلام الصغير الوضيع حسنا ٠ وان استحسنوه لم يكن جزاي منهم الا قولهم أخزاه الله وقاتله الله وثكلته امه ولا اب له ولا ام له . قال ان أبيت الا الاصرار على العناد . والزيغ عن جادة الرشاد . أمسكت عنك مغفرة ذنوبك . ونددت في الكنيسة بعيوبك . قال لا تعجل فان العجلة من الشيطان . أرأيتك لو مدحتك بقصيدة طويلة تجعلها كفارة عن الذنب . وان شئت أن أمدح فيها ايضا جميع الرهبان والراهبات والعابدين والعابدات والزاهدين والزاهدات والناسكين والناسكات والقانتين والقانتات والمفرّدين والمفردات والمغبّرين والمغبرات والمذكّرين والمذكرات والذاكرين والذاكرات والمتقين والمتقيات والمتبتلين والمتبتلات والمتهجدين والمتهجدات والساجدين والساجدات والمخبتين والمخبتات والمسبّحين والمسبّحات فعلتَ . ففكّر ساعة وكأنّه رأى ان ليس في التغزل كبير اثم فان وصف المرأة مثلاً بضِخَم الكفل وفعومة الذراع وتدملك الثدي اذا كانت في الواقع كذلك انما هو من قبيل قول القائل البدر طالع عند طلوعه او انسحاب منقشع عند انقشاعه . وانما يكون افتراءً وانما ما اذا وُصفت بذلك وكانت مسحاء لمرداً .

وكانت تتخذ الحشايا لتحسب عجزاء فصدقها ناظرها في ذلك وقال فيها ماقال مجازفة . فلما تدبر الامر ووزنه بعقله قال . لا ينبغي ان تتخذ مدحي كفارة فاني أخشى ان تمسك بى ولا تعود تطلقني . اذ أرى من قوافيك في الفاعلين والفاعلات انك مُسِكَة مُطلقة نشبة لزِمة . وانما تمدح أولياء الله والربانيين الصالحين الذين زهدوا فى الدنيا رغبة فى الآخرة لوجه الله ولبسوا المسوح ولزموا السهر فى طاعة الله وداوموا على التقشف حباً بالله . فمنهم من لم يأكل مدة حياته كلها الا العدس والخبز جافاً صلبا . فقال الفارياق وأعقبه ايضا كسر سن وحكة . قف قف . قد نسيت ان اذكر لك شيئا أخطره الآن ببالي العدس . وذلك اني تسببت مرة فى اخراج رويهب من ديره وتركه الطريقة ، وانما الذي أغراني بذلك ما قاسيته فيه ففعلت ما فعلت تشفيا . فقال ذنبك فى التشفي وهو ضرب من الانتقام اكبر من ذنبك فى اخراج الرويهب . فان اكثر الرهبان لا فائدة من اقامتهم فى الدير لا لهم ولا لغيرهم . وما عدا ذلك فقد يحتمل ان هذا الرويهب يتزوج ويجعل من ولده رهبانا كثيرين . ولكن اذا مدحت الراهبات فاحذر من ان تذكر لهن اثداء واعجازاً اذ لا شيء لهن من ذلك . فان طول الاعتكاف والاحتجاب قد صيرهن مخالفات لسائر النساء . ونحن معاشر العباد أعلم بهن . فقال له الفارياق سألتك بالله معبود اهل السماوات والارض هل جميع القسيسين مثلك فى الظرافة والدعابة . قال لا أدري وانما أدري اني أنا وحدي شقيت بما عرفت . واني لو بقيت جاهلاً مثلهم لكان خيراً لي . ان من الجهل لراحة . فقال له وكيف ذاك . قال اعندك لسر مكان حريز . قال ان سري من دمي فلا أبوح به . (قلت بل باح به الآن) قال أتريد ان اقص عليك قصتي . قال اكرم بها قال اصخ سمعا



الفصل الخامس عشر

في قصة القسيس

ثم طفق يقول . اعلم اني كنت في مبدأ أمري حائكاً . ولما شاء الله تعالى من الازل أن يخلقني قبيحاً وقصيراً . حتى ان أمي عند نظرها اليّ كانت تحمد الله على لم يخلقني بنتاً لم أكن أصلح للحياكة . لانّ تصري الفاحش منعاني غير مرة في حفر النول بالبُهر والخُناق . اذ كان جسمي كله يغيب فيها فينقطع نَفَسي . مع ان منخري بحمد الله يسعان من الهواء ما يكفي خمسين رئة وخمسين كرشا . وكثيراً ما كان يُغشى عليّ فيها وأوخذ منها على آخر رمق . فلما قاسيت من هذه الحرفة كل جهد وعناء رأيت ان التسبّب ببعض ما يرغب فيه النساء أصلح . فاكتريت لي حانوتاً صغيراً وقعدت فيه فكانت النساء يمررن عليّ وينظرن اليّ ثم يتضاحكن . وسمعت مرة منهنّ من تقول لو كان الظاهر عنواناً صادقاً على الباطل لكان خرطوم هذا التاجر يشفع له في جنسه ويروّج سلعته . فاعتمدت على كلامها وقلت لعلّ من القبح سعادة . فقد قيل في الامثال انّ من الحسن لشقوة . ومكثت مدة على هذه الحال من غير طائل . فان أنفي وقف بيني وبين رزقي . وبلغ كبره من الفحش بحيث انه لم يدع لغير الآباء والاعراض عني موضعاً . فقعدت يوماً أفكر في خلق الله تعالى هذا الكون . وأقول يا لحكمة الله كيف تخلق في الدنيا انساناً ثم تخلق فيه شيئاً يمنع عنه رزقه وقوام معيشته . ما الفائدة من هذا الانف الضخم الذي لا يصلح لشيء الا لان تضمّن فيه اعجاز قفا نبك . ولمَ لم يقوّر منه شيء ويكوّر في جثتي . ومالي أرى بعض الناس جميلاً كالملاك وبعضهم قبيحاً كالشيطان . ألسنا جميعاً خلق الله . أليس سبحانه يعمّهم كلهم بعنايته على حد سوى . أليس الصانع الارضيّ اذا أراد أن يصنع شيئاً فانه يتأنق فيه ويتقنه عند استطاعته ويأتي به من أحسن ما يكون . هل يصوّر المصوّر صورة قبيحة لا لكي يضحك الناس من المصوّر عنه . العلّ في ضخم الانف حُسناً أو خيراً أو نفعاً ونحن معاشر المخلوقين لا نعلمه . ثم أقوم الى المرآة وأتأمل وجهي فيها فأنكره ولا أجد فيه موضعاً للاستحسان فأعود الى مذهبي الاول وأقول . ان كنت أنا لم أستحسن وجهي فهل يستحسنه آخر

غيري . على ان الانسان يرى ذأم غيره فيه حسناً ورذيلته فضيلة أرى في النـاس مَن يروق لعينه القبح . فقد يقال ان السود لا يرون في الابيض مناحسناً . غير ان لون السواد عندهم عامّ فلذلك يستحسنونه . وما أرى غيري مَن أقلّ أنفاً كانفي حتى أطمع في أنه يكَن مستحسناً . أما اللون فاني لست من البيض ولا من السود فانابين اللاعنَين ألا ليت أهل بلدتي كانوا كلهم مثلي قُنافيين فاتسلى وأتأسّى بهم . من أين ورثت هذا الجلمود وأنف أبي كان كانوف الناس . ليت شعري أين كان عقل أبي حين تقر في رأسه فكر انشاي في هذا الكون وفي أيّ طود أو طربال أو منارة كانت أمّي تفكر ليلة راوحتْه على هذا العمل . ألا ليما غُشّي عليهما تلك الليلة فما أفاقا . أو قَدَرا فما أطاقا . أو سُحرا فما تاقا . أو سَكرا فما فقا . وجعلت أجيـل هـذه الافكار في رأسي وأصوغها في قوالب مختلفة وأفانين متنوعة . واذا بامرأة متنقّبة أقبلت عليَّ وقد نتأ من تحت نقابها شيء شبيه بالقُلّة . فظننت انها جعلت حنجور عطر عند أنفها لتشمّه عند مرورها على الجيف في أسواق المدينة . فسألتني عن شيء تريد شراءه فسعّرته لهـا فكأنها استغلته فقالت لي اقصـد فان تسعيرك هذا تسعير فقلت لهـا وان شراءك لَشَرى . فضحكت وقالت لقد أحسنت في الجواب ولكنك أسأت في الطلب فراع حقوق الشركة والجنسية فاني شريكتك ورفيقتك . فكان ينبغي لك ان تحابيني قلت اي شركة بيننا أصلحك الله وهذه أول خطوة شرفتني فيهـا بالزيارة . فرفعت النقاب واذا بأنفها الناتئ يضيق عنه وجهها . وكانه واجه أنفي ليحيّيه . فخطر ببالي ح ما قيل عن ذلك الغراب الذي كان يجمع والِفَ غراباً مهيض الجناح . وان أحـد الشعراء لما أبصرهما قال ما كنت أدري ما اراده بعضهم بقوله ان الطيور على آلافها تقع حتى رأيت هذين الغرابين . ثم اني بعتها أخيراً ما أرادت أن تشتريه . وحاولت أن أقبلها قبلة واحدة تعويضاً عما خسرته معها فما أمكن لي . لان أنفينا حالا ما بيننا ثم ذهبت ومكثت أنا على تلك الحال مدة . فلمّا تحققت اني لا أصلح للتجارة لان النساء لا يشترين الا ممّن كان فرهداً بيدسانيا تبركا بجمال طلعته في انهن يتمنن بمـا اشترين من عنده . وتذكراً لذلك النهار السعيد الذي عرفنه فيـه . واني مذ فتحت الدكان لم أبع الا لتلك الكرنيفية وكان ذلك بخسارة . عزمت على الرّهبانية فذهبت

الى دير ما وقلت للرئيس . قد أقدمني الزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة . فان الدنيا لا تغني عن الآخرة شيئاً . وان اللبيب من اتخذ دنياه هـذه مجازاً الى تلك . اذ لو كانت هذه وطننا الذي شاءه لنا خالقنا لكنّا نعمّر فيها طويلا . على انا نرى ان من الناس مَن يولد فيها ويعيش يوماً واحداً فهذا دليل على انا لم نخلق لها . واشباه ذلك من الـكلام الذي جرى على ألسنة العبّاد . فقبلني الرئيس رأ اعتقد في الفضل . واتفق في اليوم القابل انه حاول التسوّر على حائط لينفذ منه الى بعض بيوت الشركاء فدخلت في احدى عينيه قصدة من غصن شجرة فذهبت بها . فرجع غضبان وقد تشاءم بقدومي الى الدير . اذ كان قد ألِف التسوّر قبل مجيء بمدة طويلة ولم يعرض له شيء قط . فمن ثم طردني من الدير ندخلت دير آخر وأعدت الـكلام الاول . فقبلني رئيسه فأقمت ثم أياماً أقاسي فيها من تقشف المعيشة والوسخ ما لا يرضى الله ولا أحداً من العالمين . هذا ما عدا ما كنت أرى من عناد الرهبان وتفرق آرائهم . وطعن بعضهم في بعض وشكواهم الدائمة للرئيس من أمور باطلة . وتكبّر هذا عليهم وأثرته باشياء استخصها لنفسه من دونهم . وتنافسهم فيما يهدى اليهم النساء من نحو منـديل وكيس وتكّة . وزد على ذلك كله جهل الجميع اذ لم يكن في الدير كله مَن يحسن كَتْب رسالة في معنى من المعاني . حتى ان الرئيس نفسه أدام الله عزه لم يكن يعرف ان يكتب سطراً واحداً بالعربية . وانما كان يخط هذه الحروف السريانيـة المعروفة عندهم باسم كرشوني . وكان هذا الجاهل يتبجّح بمعرفته لها ويحمل كل من دخـل صومعته على اعظامها . حتى انه كان يدعو اياً ما كان لزيارته . فكانت الاغرار من الرهبان تعتقد ان ذلك من حسن اخلاقه وكرم طباعه . وكان قد كتب بها على بابه سطراً وعلى الحائط سطراً آخر . فكنت حين انظر ذلك اضحك . وهـو من غفلته يظن انى اضحك اعجاباً بها . ومن كان خباً مختالاً من الرهبان على جهله (فان كثيراً من الناس قد جمعوا بين الختل والجهل) كان يتقرب اليه استجلاباً لرضاه بان يقول له وهو حاسر الرأس تواضعاً وخشوعاً اكرم عليّ يا سيدى بنسخة من خطك اصلح عليها خطي . فـكان ذلك من احسن ما يُدلّ به عليه . فلما اشتدّ عليّ الخطب من عشرتهم وخصوصاً من رداءة الطعام طفقت ادمدم واتضجر . فسمعني يوماً طباخ

الدير اشكو من قلة السمن في الارز الذى كان يطبخه في بعض الاعياد العظيمة . وكان عُتُلاً زنيما . فاستشاط مني غيظاً وحملني على كتفه كما يحمل الرجل ولده ولكن بلا شفقة . ثم ذهب بي الى ممار الدير وغطّسني في خابية السمن وهو يقول . هذا السمن الذي أطبخ به الارز الذي لم يعجبك يا صاحب الخرطوم . يا سليل البوم . يا نصيب المحروم . يا ابن اللوم . يا أبا الكبائر والجروم . يا رائحة الثوم . يا ريح السَّموم يا عُلجوم . يا منهوم . يا لهوم . يا وخوم . وصب عليّ قوافي كثيرة غير هذه . فبالغ مني تغطيسه عرضي في السب أكثر من تغطيسه رأسي في السمن . فتملّصت منه بعد جهد ودخلت صومعتي حتى أغتسل واذا به يطرق الباب ويعجّ ويقول . لا بد من أن أعصر أنفك فقد دخل فيه من السمن ما يكفي الرهبان أياماً . ثم أهوى بيديه على منخري كأنهما كلبتا حدّاد وجعل يعصرهما أشد العصر . حتى ظننت ان قد زهقت نفسي منهما . فان الانف وحده دون سائر ثقوب الجسد محل دخول النفس وخروجها خلافاً لقوم . ولذلك يقال تنفّس الانسان . فلما شقّ عليّ ما قاسيته ولم أجد في الدير من أشكو اليه . اذ الرهبان كلهم يتملّقون ويتودّدون اليه حتى يشبعهم ولو من الرُّزم . (وهو ما فضل من الطعام أو الإدام في الآناء) خرجت من الدير مبتئساً حزيناً قانطاً وقد ضاقت الدنيا عليّ برحبها . وقلت أين أذهب بأنفي هذا الذي سد عليّ مذاهب الرزق أم أين يذهب بي هو . فخطر ببالي أن أقصد ديراً بعيداً كنت أسمع عن رهبانه انهم صُلاح . وان بعضهم يحسن الخط العربيّ ويحب الغريب ويكرم الضيف . فتوجّهت اليه فلما سلّمت على رئيسه وطالعته بما عزمت عليه احمدرأبي وهشّ بي . لكنه لم يتمالك ان نظر اليّ نظر المتعجب مني المستعيذ من شؤم تبعة تلحقه من أنفي فمكثت في ديره ما شاء الله ان أمكث

الفصل السادس عشر

في تمام قصة القسيس

وجعلت من همي مدة مكثي هناك بادئ بدئ مداراة الطباخ ومساحته والثنا عليه . فكان لا يحوجني الى شيء مما يمكن نيله في الدير . حتى اني جعلت جل مقامي في المطبخ . وكنت أحسن ايضاً طبخ الوان من الطعام لا يعرفها هو فعلمته اياها فكلف بي . فكان رئيس الدير اذا استضافه احد عزيز عليه او اشتهى لوناً من الطعام بخصوصه كلفني به . فكنت اتأنق له في عمله ما أمكن حتى حظيت عنده . أعني اني كنت اسامره وأجلس بين يديه . ثم اني تلبست بالصلاح والتقوى بين الرهبان . فكنت اسدل قلنسوتي حتى تبلغ قصبة انفي . وبالبث العادة جرت بان يستر الانف بها كله . وكنت اذا مشيت اخفض رأسي الى الارض ولا انظر يميناً ولا شمالا الا لمحا . واذا اكلت او شربت او رقدت او مشيت او غسلت وجهي اخبر عن ذلك كله حامداً لله ومثنياً عليه . فاقول مثلاً . قد خرجت اليوم من صومعتي ولله الحمد او ولله المجد وهي احب الى الرهبان . او تناولت في هذا الصباح مسهلاً ان كان الله تقبل وما اشبه ذلك مما عرف عند المتظاهرين بالتقوى . حتى اعتقد الرهبان في جميعاً الصلاح والفضيلة . وكنت ايضاً قد كتبت بعض صلوات ركيكة للرئيس فاعجب بخطي ومدحني على ذلك . ووعدني بان يرقيني الى درجة تليق بي اذ رآني متميزاً عن الرهبان بالعلم وجودة الرأي . وأخص ذلك بكوني غيدار (الغيدار هو السيء الظن يظن فيصيب) ثم قدّر الله رب الموت والحيوة أن مات في بعض البلدان البعيدة بعض القسيسين الذين يباشرون خدمة الرعية . أي الذين يأكلون ويشربون في بيوت الناس لا في الدير . والذين يختلطون برعيتهم خلافاً لعادة الرهبان . فان هؤلا لا يخالطون الناس الا عند الضرورة . فتسبب رئيس الدير في ان بعثني الى ذلك البلد في مكان القسيس المتوفى اي بدلاً منه لا اني دفنت معه فلما وصلت تلقاني أهل كنيستي بالاكرام والترحيب . فأبديت فيهم الورع والعفة

فشاء نضلي بينهم . حتى ان بعض التجار ممن كان حرمه الله من لذة البنين دعاني الى منزله لأقيم عنده رجاء ان يفتح الله رحم امرأته بسببي كما تقول التوراة فتلد له البنين. وكانت جميلة رشيقة القد . قاعدة النهد . تحب الخلاعة واللهو . والقصف والزهو . (سبحان الله ما أحد يذكر النساء الا ويهيج خاطره للسجع) فاقمت عنده مدة . في أنعم عيش وجدة . ثم عنّ لي أن اغازل زوجته واناغيها . واعاشرها وأراضيها . فاجابت الى مُراودتي . ولم تبال بارنبتي . فان من طبع النساء الميل الى الوليّ . والاستغناء عنه بالقصي . وما أدراك ما اعتذرت به احدى النساء بقولها قرب الوِساد . وطول السِواد . فبرزت الدنيا لعيني ح في أحسن صورة . ونسيت ما لاقيت في الدير من المشاق الكثيرة . وقلت لاعوضنّ عليَّ ما دامت فرصة الحظ لي ممكنة . وشوارده مذعنة . كل ما فاتني منه أيام كنت حائكاً . وطباخاً وناسكاً . ثم فرضت على نفسي ان نُقسّم لذاتي معها الى كل يوم غير مرة . كدأب المتزوج بحرّة . وعلى الحاضر . وهو الآن ايضاً في حيز الغابر . بحسب البواعث والبوادر . فبدأت بالعدد . حتى بلغت الامد . وكان الرجل ذا نية سليمة . وشيمة مستقيمة . فلم يكن يسيء بي الظن . ولا يعوقه عن شغله امر عنّ . فترك لنا قطوف اللذات دانية . وكؤس المسرّات صافية. ومن العجب . الذي ينبغي ان يدون في الكتب . انها كانت تخاصم الخادمة في حضرته وغيابه . وتشتمها بين يديه أفحش الشتم منعاً لارتيابه . ولم تخش منها تبعة . ولا كانت من طردها جزعة . وقد طردت كثيراً من الخوادم لسبب ولغير سبب . بعد سبّهن كل السبّ . وحملهن على الحقد والغضب . وذلك من معجزات النساء وبدائعهن الغريب الذي يعمي الرجال عن كُنه سره العجيب . والحاصل اني كنت أعجب بحسنها . كما كنت أعجب من فنها . واني أقمت معها على هذه الحالة في غاية السُرّ . مُفْتَقِماً راتعاً ولا حظر [1] ومتزوجاً ولا مهر . ثم استأنفت عدداً آخر . اطول من ذاك واكثر . فلما أبطرتني النعمة . وأمنت من الدهر كل نقمة . نقر في رأسي ان أجمع بين الكافين . فان بكثرة العين قرة العين . وقلّما رأيت من انهمك في

---

(١) افتق الرجل تنعم بعد البؤس

الاول . الا وتعاطى الثاني وما أشبهه من العُقَل . وذلك كالقمار والجَبْخ والفَشْخ والحَبَذْج والمجر والإبجار والدَّدَب والخطار والرَّشق والقَرْع والنَجْش والصَبْن والضَغْو والغذمرة والمحارضة والمناجبة والمراهنــة والمجازفة والمحاقلة والمزابنة والاجباء والمداحلة والمعارضة والمنابذة والمبادّة والمباخسة والمغابنة والموالسة والتدليس والتطويش والمقاطرة والمعاومة والمراوضة والمواصفة . فطهبل وطهفــل . ومحل وتطهمل . ودجّل وزعفل . وأبطل وتخبّل . وعرقل وتبهلص . وتبلهص وبهصَل [1] فاجتمعت برجل كنت أسمع عنه انه يتعاطى هذه الصنعة . وقد تفرّغ لها بجد و بذل فيها وُسعه . وأوسع فيها بذله . وعقل بها عقله . وفي الجملة والتفصيل . من دون قافية وسجع طويل . تعاطيتها معه (انتهى سجع القسيس) قال فجعلت أنفق فيها ما أجمعه من العجائز والاغرار برسم النفوس والارواح . وأنا مع ذلك مواظب على الصنعة الاولى . بل كان ذلك داعياً لزيادة هيام كلّ مني ومن بزيعتي . فانها طمحت ح في الهدايا والصلات كما هو دأب النساء في كل امر يحدث لازواجهن وعشاقهن . فبلغ خبر صنعتي هذه الحديثة للجاثليق . فارسل يطلب مني المال الذي جمعتــه . فتعللت له بعلل أباها ولم يرضها . فتسبّب في احضاري اليه وضبط ما كان عندي من متاع وغيره . ولم يشق عليّ فقد ذلك كله قدر ما شقّ عليّ انقطاع العدد الذي كنت شرعت فيه في بيت التاجر الصالح ثم اني تفلّتّ من عِكال الجاثليق بعد مدة كادت ان تنسيني لذّات الايام الغابرة . وخرجت في طلب آخر نكاية لذلك فصرت الى جاثليق من اشدّ الناس عداوة لجاثليقي القديم . اذ العداوة توجد بين الجثالقة . كما توجد بين الزنادقة . فأقمت عنده مدة ثم خشي عليّ ان يرهقني من ذاك سوء فسفّرني الى بلاد بعيدة في سفينة حرب . فما سرنا بعض ساعات حتى تعطّل بعض ادوات السفينة وخشي ربانها ان تغرق بهم . فرجع وقد تشاءم بي وقال لبعض الركاب انه انما جرى عليه ما جرى من شَمَختَرِيتي فتعجبت اذ بلغني كلامه جــداً . لان اولئك القوم لا يرتسمون ولا يتشاءمون . ولا يتطيرون ولا يتفاءلون . ولا يتحتمون ولا يتيمّنون . ولا يتسعدون ولا يتمسّحون .

(١) تبهلص الرجل وتبلهص خرج من ثيابه وبهصل خلع ثيابه فقام بها

ولا يُقلِّدون بعود الشبارق ولا يستعملون نَبْتَ العَطَف . وما عندهم هَقْعة ولا لجام ولا عاطوس ولا عاطس . ولا كابح ولا كادس . ولا قعيد ولا داكس . ولا بارح ولا سانح . ولا زَجْر ولا تحزّي . ولا عَيْشَرة ولا عِيافة . ولا طَرق ولا عرافة ولا هجيج ولا كهانة . ولا ابناعيان ولا تنجّي . ولا لَمَّة ولا حفوف . ولا لَعْطة ولا انتجاء . ولا نشوة ولا تعيُّد . ولا طلاسم ولا تشهّق . ولا عزائم . ولا رُقي ولا تمائم . ولا اليَنْجاب ولا تُوَلة . ولا حَوط ولا غَزّ . ولا تدسيم النونة ولا شدّ الحِقاب . ولا رَسْع ولا صَخْبة . ولا قَلِيب ولا كَبْدة ولا وجيه ولا سُلوانة . ولا سلوان ولا نُفْرة . ولا يَحُول ولا مَهْرة . ولا اخذة ولا عوذة . ولا هبرة ولا رأمة . ولا كَحلة ولا هِنْمة . ولا جُلْبة ولا صرّة . ولا قَبلة ولا نشرة . ولا قبله ولا نفرة . ولا صَدحة ولا هَمْرة . ولا زَرْقة ولا عَطْفة . ولا فَطْسة ولا صَرفة . ولا غضار ولا كرار . ولا بَريم ولا حِرز . ولا خَصمة ولا رَتيمة . ولا أسحَم ولا صِيهيم . ولا تذعُّب ولا صوت اللوف . ولا هامة ولا صفر . ولا أخذة النار ولا تحييس ولا لحج ولا إنكيس . ولا أُسّ ولا شَحِيثا . ولا طبّ ولا تول . ولا سحر ولا ماقِط . ولا عاضه ولا مستنشئة . ولا نفّاثات في العقد ولا صدي . ولا شعبذة ولا نِيرَنج . ولا شعوذة ولا حابل ولا حاوٍ ، ويومئذ ايقنت ان القنافيّ مكروه عند جميع الامم . وان اوقية لحم زائدة في وجه الرجل تشقيه وتحرمه . ورطلين في بَدِيلة المرأة يسعدانها ويفيزانها . فزاد تعجبي من هـذه الدنيا المبنية على رطلين واوقيـة من اللحم ومع ذلك فلم يكن لي الذهد فيها . ثم اني سافرت بعـد ذلك الى تلك البـلاد وأمنت فيهـا من مكر اعدآي . واستأجرت بيتاً واتخـذت لي امرأة تخـدمني . وقد جرت العادة في تلك البلاد وفي بلاد الافرنج ايضاً بان يتخذ القسيسون نساء للخدمة . فتأتي المرأة احدهم صباحاً وهو في فراشه الوثير وتقضي له ما يروم منها . فلما ذقت طيب العيش وسوس الي الوسواس ان أتزوج بنتاً فقيرة لكنها كانت جميلة . غير اني لم اكن على يقين من نهود ثدييها ومع ذلك فقد كلمت بها . فطلبت من الجاثليق ان يزيد وظيفتي فأبى . فألححت عليه وهو مصرّ على المنع وأنا مصرّ على الاستزادة . ثم ناتشه وراغمته فرأى ان يردني من حيث جئت . فسرت الى جاثليق محب للجاثليق

الاول فسرَّ برؤيتي وأنزلني عنده . فرجعتُ الى ما كنت عليه سابقاً . وها أنا مترقب
فرصة اخرى تمكنني من المقايضة على هذا النحس الآخر ايضاً فانه جاهل جداً
وعندي ان مبادلة الجثالقة في هذا الزمان العسوف . انفع من حجر الفيلسوف
انتهت قصة القسيس وهذا تفسير ما اشار اليه آنفاً من الالفاظ الغريبة

ابناعيان طائران او خطان يخطها العائف في الارض ثم يقول ابناعيان أسرعا البيان الخ

أخذة النار بعيد صلاة المغرب يزعمون انها شر ساعة يقتدح فيها

الاخذة رُقية كالسحر او خرزة يؤخذ بها

الارتسام التكبير والتعوذ والتختم التفاؤل

الاسحم الدم تغمس فيه ايدي المتحالفين

اس كلمة تقال للحية فتخضع

الانكيس في اشكال الرمل كالمنكوس

البارح من الصيد ما مرّ من ميامنك الى مياسرك

البريم خيطان مختلفان احمر وابيض تشده المرأة على وسطها وعضدها والعوذة

التحزي حزا حزواً وتحزى زجر وتكهن وحزي الطير ساقها و زجرها

تدسيم النونة تدسيم نونة الصبيّ تسويدها كيلا تصيبها العين

التذعب تذعّبته الجنّ أفزعته

التشهق شهقت عين الناظر عليه أصابته بعين

التشوه يقال لا تشوه عليّ أي لا تصبني بعين

التعيد تعيّدَ العائنُ على المعيون تشهق عليه وتشدد ليبالغ في أصابته ذكره الفير وزابادي في ع و د

التنجيس اسم شيء من القذر أو عظام الموتى أو خرقة الحائض كان يعلق على من يخاف عليه من ولوع الجن به

تنجى تنجي لفلان تشوه له ليصيبه بالعين كنجا له ونجاه بالهمز اصابه

التَّول	تال يتول عالج السحر
التُّوَلَة	السحر او شبه وخرز تحبَّب معها المرأة الى زوجها كالتُّوَلَة
الجُلْبَة	العوذة تخرز عليها جلدة
الحابِل	الساحر
الحِرز	العُوذة
الحُفوف	شدة الاصابة بالعين
الحَوط	خرزات وهلال من فضة تشده المرأة في وسطها لئلا تصيبها العين
الخَصْمة	من حروز الرجال تلبس عند المنازعة أو الدخول على السلطان
الرأمة	خرزة المحبة
الرَّتيمة	كان من أراد سفراً يعمد الى شجرة فيعقد غصنين منها فان رجع وكانا على حالها قال ان أهله لم تخنه والا فقد خانته وذلك الرتم والرتيمة
الرسع	رسع الصبيّ شد في يده او رجله خرزا لدفع العين
الزجر	العيافة والتكهن
الزَرقة	خرزة للتأخيذ
السانح	ضد البارح
السلوان	ما يُشرب ليسلي أو هو ان يوخذ تراب قبر ميت فيجعل في ماء فيسقى العاشق فيموت حبه الخ
السلوانة	خرزة للتأخيذ وخرزة تدفن في الرمل فتسود فيبحث عنها ويسقاها الانسان فتسليه
شد الحِقاب	الحقاب خيط يشد في حِقو الصبى لدفع العين
الشَعْبَذة	الشعوذة
الشَعْوذة	أخذ كالسحر يُرى الشيء بغير ما عليه أصله في رأي العين
شحيثا	كلمة سريانية تنفتح بها الاغاليق بلا مفاتيح
الصَخْبة	خرزة تستعمل في الحب والبغض

الصَدحة و بالضم والتحريك خرزة للتأخيذ

الصَرَّة خرزة للتأخيذ

الصَرفة خرزة للتأخيذ

الصِهْمِيَم حُلوان الكاهن

صوت اللوف نبات له بصلة تسمّى الصرّاخة لان له في يوم المهرجان صوتاً يزعمون ان من سمعه يموت في يومه

الصَفَر حيَّة فى البطن تلزق بالضلوع فتعضها او الخ

الطب مثلثة الرفق والسحر

الطَرق أن يخلط الكاهن القطن بالصوف اذا تكهن

العاضة الساحر والعِضَة الكذب والبهتان والسحر

العاطوس مايُعطس منه ودابة يتشآم بهـا والعاطس ما استقبلك من امامك من الظبآ

العِرافة العرّاف الكاهن والطبيب وصنعته العرافة وقد عرف ككتب

العَطَف نبت يوخذ بعض عروقه ويلوى ويطرح على الفارك فتحب زوجها

العَطْفة خرزة للتأخيذ

العقَرة خرزة تحملها المرأة لئلا تلد

عودالشَبارق الشبارق شجر عال ويقلّد الخيل وغيره بعوده تامين

العيافة عفتُ الطير أعيفها عِيافة زجرتها وهو ان تعتبر باسمآئها ومساقطهـا وأنوآئها فتسعد أو تتشآم

العَيْثَرة عيثر الطيرَ رآها جارية فزجرها

الغز غزّ الابلُ والصبيُّ علّقا عليهما العهون من العين

غضاروكرار الغضار خزَف يحمل لدفع العين وكرار خرزة للتأخيذ تقول الساحرة يا كرار كرّيه ويا همرة اهمريه ان أقبل فسرّيه وان أدبر فضرّيه

الفَطْسة خرزة لهم للتأخيذ يقلن أخذته بالفَطْسة بالثوبا والعَطْسة

القَبلة ضرب من الخرز يوخذ بها

القُبْلة ما تتخذه الساحرة لتقبل به وجه الانسان على صاحبه

القُلَيب خرزة للتأخيذ

الكابح ما استقبلك مما يتطيّر منه

الكادِس ما يتطيّر به من الفال والعطاس وغيرهما والقعيد من الظباء وهو الذي يجي من خلفك ويتشآم به ونحوه الداكس

الكَبْدة خرزة للحب

الكَحْلة خرزة للتأخيذ أو للعين

اللجام ما يتطيّر منه

اللحج لحجه بعينه أصابه بها

اللعطة اسم من لعطه بسهم أو بعين أصابه

اللمّة يقال اصابته من الجن لمّة اي مس أو قليل والعين اللآمة المصيبة بالسوء

الماقط الحازي المتكهن الطارق بالحصى

المِجْول العُوذة

المُسْتنشئة الكاهنة

المُهرة خرزة كان النساء يتحبّبن بها

النُشْرة رقية يعالج بها المجنون أو المريض

النفّاثات في العقد السواحر

النُفْرة شيء يعلّق على الصبي لخوف النظرة

النِيرنج أخذ كالسحر وليس به

الهامة الصَدَى وهو طائر يخرج من رأس المقتول بزعم الجاهلية

الهَبره خرزة يؤخّذ بها الرجال

الهجيج الخطّ يُخط في الارض للكهانة

الهَقعة دائرة في الفرس يتشآم بها

الهَمرة خرزة للتأخيذ

الهِنَّمة خرزة للتأخيذ

وتنفّست الصعداء . مع انها تكون قد وقفت لتبصق او انها تنفّست الصعداء بُهراً . بل الاولى ان ينوي القارئ عند افتتاحه هذا الكتاب ان يتصفحه كله من أوله الى آخره حتى حواشيه وعدد صفحاته . ويعتقد ان لكل مؤلف اسلوباً . وانه لا يمكن لاحد أن يعجب الناس كلهم . اذ الاهوا. متفاوتة والاراء مختلفة . ومن الاسرار التي بقيت مكتومة عني انك تجد بعض المؤلفين فاتر الحركة غير ذي نشاط ولا مرح . قليل الارتياح الى ما يبعث على التهاوش والتناوش . متقاعس الهمة عن التبجح والحركة . ناظر الى الحوادث كلها نظر المتوقع لها . وهو مع ذلك اذا أخذ القلم انبض كل عرق في القارئ وحرك كل ساكن . ومنهم من تراه نزِقاً حركاً ذا تترّع وتسرع وحفد وصَمَيان واقبال وادبار وسعي وتهافت . ومعاجلة ومبادرة ومزاحمة ومسابقة ومحاشرة . ثم هو ان قل شيئاً سقط من رأسه على ذهن القارئ سقوط الثلج حتى يكاد ان يخمد منه ذكاه . فلما تأملت في ذلك وتحققته ارتبت في كون سقوط الثلج ناشئاً عن فرط برودة متكونة في الهواء وقلت بل لعل سببه فرط حرارة حزت في صدر الجو على سكان هذه الارض . ووافر وغر تكوّن في حشاه فلفظه عليهم ثلجاً انتقاماً منهم عما يأتونه في الليالي الباردة من المنكرات وذلك ان بعضهم يحاول عكس الطبيعة فيسخّن فراشه باداة فيها نار . وبعضهم باداة فيها ماء حميم . وبعضهم باداة فيها شراب . وآخرون باخرى فيها لحم . وربما كان من ذلك اللحم لحم خنزير اجلّك الله . فمن أجل ذلك أسقط الجوّ عليهم الثلج المتراكم منعاً لهم من الخروج من ديارهم لاستعمال هذه الادوات لكي يستريح من فسادهم ولو يومين . الا انه قد فاته ان كثيراً من هؤلاء الناس يتخذون اداة للاداة او اداة لاداة الادوات . مثال الاول ما اذا تربّع الغني في دسته وتدثّر بفرونه وقال لغلامه سر يا غلام الى محل كذا وائتني منه باداة لتسخين فراشي هذه الليلة . فيذهب الغلام يطأ الوحول والثلوج ورجل سيده نظيفة . ومثال الثاني ما اذا كان السيد جواداً سخياً فيبعث غلامه في موكب له او في آخر مما يستأجر من الطرق . او اذا كان ذا سيادة وامارة ويريد ان يكتم سره عن غلامه . لان لذة الخادم انما هي القلب في عرض مخدومه وجعل نفسه أولى بالمخدومية منه فيستعمل ذلك السيد آخر او آخرين او أخر في مكان غلامه . ويكون قد

بعث اليهم من قبل بهدية على يد خادمه اظهاراً لمكارمه . او انه أعطاهم اياها من بعد . فيكون سقوط الثلج على اي حال كان سبباً في التسخين والحرارة . لانه اذا اعتبر في حق المخدوم كان سبباً في اتخاذه الاداة . وان اعتبر في حق الخادم وغيره ممن سدَّ مسدَّه كان موجباً للحسد . وهو من أعظم المؤثرات تسخيناً واحماء . ومع كونه اي الثلج يرى ساقطا على كل موضع في المدينة دون ان تمييز دار عن دار فان لفظه في الحقيقة لا يصيب الا رؤوس بعض الناس . وكان الاولى ان يطرد حكمه فيهمّ لا مثل احكام اللفظ الارضي فانها تجري على قوم دون قوم . والفرق بين اللفظين هو ان الثلج لما كان سقوطه او لفظه من علو الى سفل كان المظنون به انه يتصوب على جميع الرؤوس بشدة . فيشمل الكبير منها والصغير والمسقَّط منها والمسمرَط . فاما الاحكام والقوانين الارضية فمن حيث كان لفظها من سفل الى علو اي من رؤوس ناس مسودين الى رؤوس ناس سائدين . لم يكن من المحتمل ان يكون تبعتها قوياً حتى يبلغ ذوي الرفعة والعلاء الذين يزرُّ السحاب من تحت قذلهم . ثم ان الثلج مما يتبعه في الواقع من الضنك والمشقة لمن الفه فقد يروق لعين من لم يكن رآه . فقد بلغنا ان بعض الصعاليك كان مرة ضيفاً عند اناس لم يكرموه ولم يحتفلوا به اذ كان دونهم في المعارف والنباهة . وكان بلدهم لا يسقط فيه الثلج البتة . فلما فصل من عندهم الى بلاد اخرى رأى فيها الرزق وعاين بها الثلج كبّر لرؤيته وهلّل وأعجب به غاية الاعجاب . حتى زعم انه منة من الله خصَّه بها ذلك الصقع تمزية له على غيره . كما انه تعالى حرم منها بلد مضيفه الاول . وكذلك كلامي ههنا . فانه مع ما فيه من الاستطراد والحشو والالفاظ المضغوطة بين المعاني ومن المغازي المعقودة بالتلميح والتلويح . والتحويل والتمليح . قد يروق لخاطر من لم يكن قد ألف هذا التخليط بل ربما يحمله الاعجاب به على تحديه ومحاكاته . ولكن هيهات فان الباب قد أغلق في وجوه المتحدّين . على اني لست أزعم اني أول كاتب في الدنيا نهج هذه الطريقة وأسمطها المتناعسين . الا اني رأيت جميع المؤلفين في سَهْوة كتبي قد قيدوا أنفسهم بسلسلة نَفَس من التأليف واحده . لكنني لا أعلم الآن هل غيروا أسلوبهم أو لا . اذ قد مضى عليَّ بعد فراقهم اكثر من خمس سنين . فكأنَّ العارف بحلقة واحده من تلك السلسلة قد عرف ما

الحَلَق حتى ان كل واحد منهم يصدق عليه ان يسمّى حلقيًا . بناء على انه مشى وراء القوم وحذا حذوهم . فاذ قد تقرر ذلك فاعلم اني قد خرجت من السلسلة فما انا بحاقٍ ولا بُستَنْبِهٍ ولا اكون امام القوم فان الثانية انحس من الاولى . وانما انا مستقبل لما استحسنت . آخذ بناصية ما استظرفت . رافض مكلف العاده

الفصل الثامن عشر

في النحس

لقد أرحت سن القلم من كدم اسم الفارياق قليلاً بعد ان تركته مع القسيس الربيط والمهيت بالكلام على الثلج لما داخلني من فرط الحده عليهما معاً . أما عن القسيس فلكونه خان صديقه الذي أواه الى منزله في حرمته . وكان ينبغي له ان يذهب الى مواجرة او يفعل كسائر القسيسين من أهل حرفته . اذ لو كان الله تعالى رزق ذلك التاجر ولداً على نيته أي فتح له رحم امرأته كما تقول التوراه لكان أربع أرباع هذا الولد من القسيس والباقي وهو اسمه من التاجر . فيكون قد أقام نفسه مقام من يربي الغول . مع ان أول ذكر فاتح رحم كما تقول التوراه مبارك ومعظم عند جميع الامم . ولهذا كان حق الوراثة عند الانكليز للبكر أي لفاتح الرحم . فكيف يجاوز القسيس هنا جمع اللعنة والبركة على رأس مخلوق واحد . إن ذلك الا محال . وأما على الفارياق فلانه هو الذى كان السبب في افشاء هذا السر بما أبداه من الفضول والتصلُّف في حفظ أبياته التي لا أشك فى انه ارتكب فيها المين والغلو والمبالغة المردودة لغير نفع . وهو مع ذلك يحسب انه يحسن صنعاً . فاما مشابهة الولد أباه في الخلق فهل هي دلالة قطعية على كونه ابنه فذير متفق عليها . فذهب بعض الى انها ليست علامة كافية . لان الام قد يحتمل في حاله كونها مسافحة ان تكون مفكره فى زوجها ومتصورة له فيأتي توزيغ الجنين بحسب هذا التصوُّر . وذهب بعض الاولاد الى ان الام وحدها لا فاعلية لها فى التوزيغ فقد يأتي بعض الأولاد مشابهاً لعمه أو خاله لو لأخ

من لم تكن امه قد رأته قط . والآن ينبغي لي أن استمر في القصة . وان أعرضها على مسامع القارئ من دون اجراض احدنا بغصة . فاقول قد تقدم في اول هذا الكتاب ان الفارياق وُلد والطالع نحس النحوس والعقرب شائلة بذنبها الى التيس . والسرطان وقف علي قرن الثور . فاعلم هنا ان النحس على قسمين نحس ملازم ونحس مفارق . فالنحس الملازم مالزم الانسان فى يقظته ومنامه وأكله وشربه وغدوه ورواحه وفى كل ما يأتيه . والنحس المفارق ما خالف ذلك أعني مالزم الانسان فى حال دون حال . وأعرف ما يكون لزومه فى الاحوال الخطيرة الشأن كالزواج والسفر وتأليف كتاب ونحو ذلك . ثم ان ماهيات النحس الملازم مختلفة ايضاً . فمنه ما يكون كالعقده المحكاه . ومنه كالربقة ومنه كالمسمار . ومنه كالوتد ومنه كالمشبك . ومنه كالقفل بلا مفتاح ومنه كالغِرآ ومنه كالغِمجار . ومنه كالجِاذ ومنه كالشِراس . ومنه كالدبق والطِبق . او كالرومة او الترْط واللزاق . ومنه كالجلد ومنه كالدم السارى فى جميع أوصال الجسد ومفاصله . وجناجنه وسلائله . وسناسنه وشلاشله . وترائبه وتراقيه . وشراسيفه وبوانيه . وغضاريفه وحوانيه . وربَلاته ومذاخره . وعَضَلاته ونواشره . وعصبه وبوادره . واعصاله ومرادغه . وسافينه وناعوره . ووريده ووتينه . واسهريه واخدعَيه . ومريئه وفليقه . وحلقومه وبخاعه . ونائطه ونخاعه . وأوداجه وذفراه . وثُنَنته وشظاه . ورواهشه وشرايينه . ونسيسَيه واشلائه . وغموده واشوائه . فنحس الفارياق كان من هذا النوع ، غير انه لا ينبغي ان يفهم هنا انه كان دموياً اي كثير الدم او محباً لسفكه او ولاّجاً فيه . فانه كان منزهاً عن هذه الصفات كلها . وانما كان نحسه كالدم من جهة انه كان ملازماً له فى جميع احواله . فقد حكي وان يكن كاذباً فعليه كذبه انه بات ليلة وقد رأي فى المنام انه شرب مثلوجاً ثم شرب عقبه سخيناً فأصبح يشكو من وجع فى أضراسه شديد ومن بحح فى حلقه . وكان يحلم انه يتهوّر من قنة جبل او يسقط عن ظهر جمل فيغدو وظهره متقوّس . وكان اذا حلم انه أكل الكامخ مغسه فى ليلته . او شرب اجاجاً او زعاقاً قآ . او اشتمّ روائح كريهة غثت نفسه . وكان اذا حدثه أحد بانه رأى فى حديقته رِبَحْلة رأي هو فى المنام ليلته تلك انه في

وَيْل	واد في جهنم او بئر او باب لها
او في المَوبِق	واد فيها
او في الفَلَق	جهنم او جبّ فيها
او في بُولَس	سجن فيها
او في سِجّين	واد فيها
او في أثام	واد فيها
او في الحُطَمة	باب لها
أو في غَيّ	وادٍ فيها أو نهر
أو في الصَعُود	جبل فيها . وحوله
لُبَيْني	اسم بنت ابليس
او زَلَنبُور	احد اولاد ابليس الخمسة
اومِسوَط	ولد لابليس يغرى على الغضب
اوالسُرحوب	شيطان أعمى يسكن البحر
او خَنْزب	شيطان
او السَرفح	اسم شيطان
او الجِمّ	الشيطان او الشياطين
او نَهْم	شيطان
او هَياه	من أسماء الشياطين
او الحَباب	اسم شيطان
او الأَزَبّ	اسم شيطان
او أزَبّ العقبة	اسم شيطان
او الهِرآء	اسم شيطان موكّل بقبيح الاحلام
او الولَهان	شيطان يغري بكثرة صب الماء في الوضوء
او الخُبث والخبائث	ذكور الشياطين وأناثها
او السَفِيف	ابليس ويسمّى أيضاً المبطل وكنيته ابو مُرّة وابو قترة

او عمرو اسم شيطان الفرزدق

او الفلوط من أولاد الجن والشياطين

او الشَيْصبان والبلأز والقاز والخابل والخنّاس والوَسواس والفتّان والاجدع

وكان اذا بصر من كوّة بيته بمكامة مكاكة خيّل له في المنام انه في

خافية بها جنّ

او في البِراص منازل الجن

او في البلّوقة موضع بناحية البحرين فوق كاظمة يزعمون انه من مساكن الجن

او في البَقّار موضع برمل عالج كثير الجن

او العازف ع سمّى لانه تعزف به الجن

او في الحوش بلاد الجن

او في وبار وبار كقطام وقد يصرف أرض بين اليمن ورمال يبرين

سميت بوبار بن إرَم لما أهلك الله تعالى عادا ورّث

محلتهم الجن فلا ينزلها أحد منا

او في عبقر ع كثير الجن

او في جَيْهم ع كثير الجن . ولديه

الشَيْصبان قبيلة من الجن

أو بنو هنّام قبيلة من الجن

او بنو غَزْوان حيّ من الجن

او دهرَش اسم أبي قبيلة من الجن

او أحقَب اسم جني من الذين استمعوا القرآن

او زِمزِمة قطعة من الجن

او الشِقّ جنس من الجن

او شِنِقناق رئيس للجن

او العِسل قبيلة من الجن

او العِسر قبيلة من الجن وهو أيضاً اسم ارض للجن

او السِعْلاة والعَيسَجور والشّهام ساحرة الجن
او السَّعْسَلِق ام السَّعالي
او العَضرَفوط من دواب الجن
او النَظْرة الطائف من الجن
او الزَوْبعة رئيس للجن
او الخافي والخافية والخافيا الجن وكذا الخَبَل
او التابع والتابعة الجني والجنيّة يكونان مع الانسان يتبعانه حيث ذهب
او العَكَنْكَع والكعنكع الغول الذكر
او الخَيْدع الغول الخدّاعة
او السِلْتم والصَيدانة والخَيْعَل والخوام والخيتعور والسَمَرمرة والسُمَّع والعَوْلَق والعَلُوق والهَيْرَعة والمَلَذ والعَفَرْناة (كلها من أسماء الغول)
او العِتْرِيس الغول الذكر
او التِمسَح المارد الخبيث
او الدرقم اسم الدجال وهو أيضاً المِسيّح كسكّين
او الطغْمُوس المارد من الشيطان والخبيث من الغيلان
او الزّبانية جمع زِبنيّة وهو متمرد الانس والجن ومثله العِكَبّ
او الخَيزَبون وكأنَّ صاحبنا وَهِم في هذه فاني لم أجدها في القاموس فكيف يمكن رؤيتها في المنام . واسمها غير موجود في قاموس الكلام . مع ان المص رحمه وزن عليها الخيزبور والخيتعور والقيدحور والعيجلوف والعيطبول والهيجبوس والجيهبوق والزيرفون والجيثلوط والعيضفوط . ثم انه كان اذا سمع خَنِبة تكلم رجلاً بمنطق رخيم سمع في الليل عزيفاً وهساهس وتهويداً وزيزما وهدهدا وزهزجا وزي زِي . (كلها من أصوات الجن) واذا رأى جارية تَردى نصف النهار[1] جاءه في نصف الليل الكابوس والجاثوم والدوفان والنيدل والباروك والدِثنان والديثاني . ورأى ليلة ما ان قد زفت اليه عروس فأتاه تيس وجعل ينطحه بقرنيه فاستيقظ فاذا بقرن

---

(١) رَدَت الجارية رفعت رجلا ومشت على اخرى تلعب

رأسه مرضوض . ورأى ليلة اخرى ان قد وجد على شاطئ نهر دنانير ودراهم فمد يده وأخذ منها خمسة عشر درهماً لا غير . فلما عبر الشط الثاني رأى شيخاً بيده كرة يديرها . فكان كلما أدارها أخذ الفارياق في ظهره وجع شديد كوجع الداء المعروف في بلاد الشام بالوثاب . فلما رمى بالدراهم من يده من شدة ما أصابه سكن عنه الوجع . ورأى ليلة اخرى ان رجلاً مغربياً أتحفه بشيء فتلقفه في الحال مشرقي وذهب به . قال والى الآن لم يرجع به مع انتظاري له كل ليلة . وقس على ذلك سائر أحلامه . ومما قاله في الحلم نظماً

كأنَّ همومي وهي تحت مخدّتي   اذا بتُّ تغرى بي الهراء تُذَرّته

تقول عليّ اليوم كان بُواله   وانّ عليكَ الليل ذا ان تخرّته

وقال

أسرّ اذا انقضى يومي لاني   ارجّى فيه احلاماً تسرّ

فأحلم انني أسعى وأشقى   فليلي مثل يومي أو أشرّ

وقال أيضاً

ويارب حتى فى المنام تروعني   بأضغاث أحلام تسوء وتزعج

فياليتني أشقى نهاري وفى الكرى   أسَرّ برؤيا من أحبّ وأبهجُ

وعنّ له يوماً أن يمدح بعض ذوي السيادة والسعادة . فلما حظي بلثم اعتابه الشريفة وأنشده القصيدة رجع القهقرى على عادة أهل بلاده من أن الصغير لا يرى الكبير قفاه . اشارة الى انه لا قذال الا قذال الكبير . ثم جاءه الحاجب يقول ان الامير آدام الله دولته . وخلد صولته . وجعل الشمس والقمر نعلاً لفرسه . وجعل يومه خيراً من أمسه . وجعل ظله ممدوداً على الارض ظليلا . وجعل طارف الكون بتراب نعله مكحولاً . وجعل الثريا مقراً لرجليه والعيوق شراكاً لنعليه . وجعل الوجود باسمه مبتهجاً وبابه لكل لائذ رنجاً مرتجى . وجعل — فلم يتمالك الفارياق أن بادره وقال دعني من جَعْل يا جُعل . ماذا يقول الامير . قال يقول الامير المعظم . الخطير المكرم . ذو الآلاء الغامرة . والنعم الوافرة . من اذا قال فعل واذا سئل أعطى فأجزل واذا تنحنح ألقى الرعب في قلوب اعاديه . واذا سعل خفقت فرقاً أفئدة شانئيه . واذا مخط

ارتج المكان لهيبته . واذا حبق تزلزل الجاس لحبقته . فقال الفارياق أف لهذه الرائحة الخبيثة يا خبيث قل ما يقوله الامير . وأرحني من هذا التقمير . لقد برزت على الشعراء بهذا الغلو والاطراء . قال انه يقول لك انك قد احسنت في أبيات القصيدة وأبدعت ما شئت . لانك شبّهته بالقمر والبحر والاسد والسيف الماضي والطود الراسخ والسيل المنهمر مما هو خليق بالاتصاف به . الاّ فى بيت واحد جعلته فيه قواداً . قال كيف ذلك جلّ الامير عن القيادة . قال نعم انك قلت انه يجود بالمال والنفائس ويولي الابكار . وقلت فى بيت آخر انه محمّد الذكر محمود المناقب وهو غير محمد ولا محمود . و بسبب هذا الخطأ الفاحش حرمك من رؤيته . قال هذه عادة الشعراء انهم لا يزالون يتلمّظون بذكر الخرائد والمحامد . وليس المقصود بذلك نسبة القيادة الى الممدوح . قال هذا غاية ما عندي فلا تطمع بعد فى المثول بحضرة أميرنا المبجل . فمن ثم رجع الفارياق محروماً من هذا المغنم الهنيء . وبلغ منه الغيظ ان أضله عن الطريق المستقيم . فسار فى طريق آخر وما وصل الى منزله الاّ بعد اللتيا والتي . وأخذ يفكر فى نحس طالعه وشؤم قلمه . فظهر لهوسه ان القلم أنحس شيء يتخذه الانسان سبباً لمصالحه . وان أشفى الاسكاف أنفع منه . وان تقديم النون عليه فى قوله تعالى ن والقلم وما يسطرون ان هو الا اشارة الى النحس . وان ما قاله المنجم فى طالعه صحيح . فانه أوّل المرأة التي زفّت اليه فى المنام بالعقرب . والجدي بالتيس الذي كان ينطحه . والسرطان بنفسه اذ رجع القهقرى من عند الامير فكاد ان يعثر بحصير مجلسه السامي لولا ان تمسك ببعض أوتاده الشريفة . وأوّل الثور بالامير الممدوح . الا ان العبارة الاولى وهي قول المنجم نحس النحوس غير محصورة فى حادث واحد . اذ هي تستغرق جميع الاحوال والحوادث كما سيرد بيانه . وذلك ان الفارياق لما سمع من نجيّه الذي قايضه على الاعتراف ان المساومة فى قبل وقال هي من البياعات الرابحة ، والاسباب الناجحة خلج في صدره أن يجرب تنفيق ما عنده من البضاعة المزجاة . الا انه لم يعرضها من أوّل وهلة على أحد المشترين من الجثالقة كما فعل صاحبه . بل أخذ فى تقليبها وتفليتها وتمشيطها وتنسيلها من جهة واستشفافها من أخرى . فظهر له انها قديمة قد ركّت بحيث لا يكاد أحد أن يرغب فيها . واتفق وقتئذ ان قدم عنقاش يهدد على شراء السلع القديمة وعلى

اصلاحها أو على مقايضتها أو على صبغها . وادعى انه يقدر أن يعيدها الى لونها الاول وانه لا يعجزه شيءٌ من أحوالها بحيث ان صاحب السلعة نفسه اذا رآها بعد صبغها وتصليحها يتعجب منها غاية العجب ولا يعود يعرفها . وانه أي المنقاش لما بلغه في بلاده فساد تلك السلع أقبل حفداً الى تلك البلاد وهو يحمل خرجاً كبيراً فيه من الاصباغ والادوات ما يرفأ كل خرق ويعيد كل لون ناض . فسار اليه الفارياق عجلاً الى المقايضة وواطأه على ابدال ما عنده من السلعة القديمة باخرى جديدة راقت لعينه . فقد يقال لكل جديد بهجة . ثم قفل الى منزله مسروراً بصفقته . فلما علم أهله وجيرانه بذلك استشاطوا عليه غيظاً وقالوا . لعمر ربّ الجنود ما جرت العادة في بلادنا بتغيير البياعات ولا بمقايضتها ولا باصلاحها ولا بصبغها . ثم لم يلبث الخبر ان بلغ مطران الصقع وكان من الضواطرة الكبار . فكأنما كان سكّيناً سقط على حلقومه . أو خردلاً دخل في خرطومه . فهاج وأزبد . وأبرق وأرعد . وماج واضطرب . وضج وصخب . والّب وحزّب . وبربر وثرثر . وأقبل وأدبر . وزجر ونهر . ووثب وطفر . وفتل لحيته من الغيظ حتى صارت كالقرعة . وأغرى كل جتوف مثله بان يهيج معه . ونادى يا خيل الله على الكفار . انهم صالوا النار . كيف تجرأ هذا الشقي المنحوس . المعتوه الملهوس . على ان يذهب مذهباً غير ما نهجه له حاثليقه . وسلكه فيه بطريقه . وكيف أقدم بوقاحته . وصفاقة وجهه وقباحته . على معاملة ذلك المنقاش الاثيم . ومبايعته ما ورثه من آبائه من الزمن القديم . أليس في بلادنا صُلُب . وادهاق ويلب . هلموا به مُهاناً . اجلدوه عرياناً . اطرحوه نيراناً . القموه حيتاناً . اطعموه دماناً . اقطعوا منه لسانا . اسقوه الزناني . عليّ به الآن الان . فابتدر بعض الحاضرين وقال انا آتيك بهذا الجُعشُرش بأسرع من رد طرفك اليك . ثم ولّى حفداً الى الفارياق فوجده مكبا على قراءة الدفتر الذى فيه أثمان السلعة . فتناوله بالسيف فاصاب فروته . ثم سيق الفارياق الى الجزّار المشار اليه . فلما بصر به انتفخت أوداجه واتسع منخراه وتعقدت أسرة جبينه واصفرت شفتاه . ورقص شارباه واحمرت حدقتاه . واحترقت أسنانه ودارت بينهما هذه المحاورة

قال الضوطار ويلك يا مغبون . ما دعاك الى المساومة في سلعتك

الدراسة له . الى أن وجد عبارة مضمونها ان المالك كان أحبَّ مرة رجلاً فوهبه هبات شتى من جملتها كأس وطست وعصا في رأسها صورة ثعبان وجبّة وتبّانٌ ونعلان و باب له مزلاجان . وقل له قد وهبتك هذه كلها فاستعملها وأهنأ بها

الفارياق لعمري ليس في هذه الهبة ما يدل على سرّه هذا وقد مات كلٌّ من الواهب والموهوب له وفقد الموهوب كله . فكيف لم يبق الا المزلاجان فقط وقد ضاع الباب وهما لا ينفعان من دونه شيئاً

الضوطار فندت . لم يبقَ لنا في غير المزلاجين من حاجة

الفارياق بحق هذين المزلاجين عليك يا سيدي الاّ ما أريتني الكأس مرة في العمر وحسبُ . ولك عليّ بعد ذلك الأمرة التامة . فلما ان ضغط الضوطار بين هذا السلب والايجاب استشاط وَغراً وهمَّ أن يلحق الفارياق بالباب والكأس لولا ان دعاه داعٍ الى اللوس . فقام ناشطا ووكل به بعض الاوغاد وكان وقتئذ يتضوّر جوعاً فرأى ان رؤية قعر القدر في المطبخ أشهى اليه من النظر الى وجه الفارياق . فتغافل عنهُ فتملص الفارياق من هذه الورطة وأقبل يهرول الى الخرجي وقال له . لقد خسرت تجارتي معك فان البضاعة كادت تمنيني بمضض . فابتغي منك الاقالة . أولا فان يكن عندك في الخرج رأس يلائم جثتي حين تعدم هذا فارني إياه ليسكن روعي . اذ لا يمكن لي أن أعيش بلا رأس . فاما ان لم يكن فى الخرج غير اللسان فما لي به حاجة هذا متاعك نضمّه اليك .فقال له الخرجي ما هكذا حق التعامل ينبغي ان تصبر على ما يلحقك من تبعة الصفقة كما هو دأب جميع المتبايعين عندنا . وتلك من بعض خواص هذه التجارة . ولكن لا تخف فان من خواصها أيضاً ان تقي الواقي لها وتحفظ المحافظ عليها . فيكون له بها غنى عن الرأس اذا ثقف . وعن العينين اذا سَملتا وعن اللسان اذا استلَّ . وعن الساقين اذا غمزتا بالدَهَق . وعن اليدين اذا غلتا بالكبل . وعن العنق اذا وُقصت . والكبد اذا فرصت . قال ما ارى ما ترى فان الاسف لا يحيي مائتاً . والندم لا يرد فائتاً . فان يكن عندك مخزن آمن فيه من العدو على السلعة فآوني اليه . والاّ فهذا فراق بيني وبينك . فاطرق الخرجي ساعة ثم دخل

حجرة صغيرة وأغلق الباب . وأخذ يمتحن الفارياق كما سيرد بيانه في الفصل الآتي

الفصل التاسع عشر

في الحس والحركة

قد جرت عادة الناس جميعاً بان يقولوا اذا احبوا شيئاً أواشتاقوا الى شيء ان قلبي يحب هذا الشيء . أو يحس بمحبة هذا الشيء . او يشتهي ذلك الشيء . ولست أدري علة هذا الاستعمال . فان القلب انما هو عضو في الجسم من جملة الاعضاء فلا يمكن ان تكون حاستيتها كلها مجموعة فيه . وبيانه ان من أحب مثلاً لوناً من الطعام بخصوصه فلينظر في أدوات الاكل الباعثة على اشتهائه . ومن أحب امرأة فلينظر في الاداة الباعثة على اشتهائها . وما يميل اليه الطبع وهو غير محتاج الى أعمال اداة ظاهرة وذلك كحب الرئاسة والسعادة والدين ينبغي ان يحمل على الرأس ، اذ هي أمور معنوية لا علاقة لها بتلك البضعة أي القلب . وكما ان الطحال الذى هو وزير الميمنة لا تعلق له بهذه الامور . فكذلك كان وزير الميسرة أي القلب . الا انه لما كانت حركة القلب أسرع من غيره لكونه أقرب الى الرئة التي هي حرز التنفس . ظن الناس ان القلب أصل في جميع اهواء الانسان وأشواقه . ومن عاداتهم اجتناباً للبحث عن كثرة الاسباب والعلل والتيقن للحقائق ان يقتصروا على سبب واحد من الاسباب المتعددة . وينسبوا اليه كل ما تسبب عن غيره . كما تنسب الشعراء مثلاً دواعي النحس الى الدهر ودواعي البين والفراق الى الغراب . وبناء على هذا الاعتقاد أي نسبة الاهواء كلها الى القلب أراد الخرجى ان يمتحن قلب الفارياق ليعلم هل نبض فيه حب السلعة الجديدة نبضاً قوياً أولا . فجعل يقول له هل تحس في قلبك بان السلعة الجديدة خير من الاولى . وهل يضطرب فرحاً وسروراً عند ما تسمع بذكرها . وهل ينبسط ويتسع وينشرح عند خطور هذه ببالك . وينقبض ويضيق ويتضام عند ذكر تلك . وهل عند قراءتك دفتر الاثمان يخيل لك أن قد طبع فيه أي في قلبك كل

قرأت في فهرست التوراة المطبوعة في رومية في حرف الهاء ما نصه . ينبغي لنا (اي لاهل كنيسة رومية ان نهلك الهراطقة . اي المبتدعين او المشاحنين . واستشهدوا على ذلك بما كان يجري بين اليهود واعدائهم من القتال والفتك والاغتيال على ما سبق ذكره فان يكن دين النصارى يحلل قتل الرجال والنساء والاطفال والفجور بالابكار من النساء ويبيح التوثب على عقار الغير من دون دعوة الى الدين بل بمجرد عتو وظلم كما كان يحلله دين اليهود فلأي سبب نَسَخَه اذاً وأبطل احكامه . لكن دين النصارى مبني على مكارم الاخلاق . وغايته من اوله الى آخره ابقاء السلم بين الناس وحثهم على الصلاح والخير . والاّ فلنرجع يهوداً . فلما سمع الخرجي ذلك رأى ان وراء هذا الكلام لباقعة . فحرص على انقاذ الفارياق من ايدي العتاة . وارتأى ان يبعثه الى جزيرة تسمى جزيرة المالط استئماناً فيها . فركب الفارياق في سفينة صغيرة سائرة الى الاسكندرية . فلما ان سارت به غير بعيد هاج البحر واضطرب بالسفينة فلزم صاحبنا فراشه من الدوار . وطفق يشكو من ألم البحر وينوح قائلاً

نوح الفارياق وشكواه

وبلي من السفر ومما اشتق منه ما كان اغناني عن مقاساة هذا الضر الاليم . ما كان اغناني عن هذه المساومة التي سامتني هذا الكرب العظيم . ماذا وسوس اليّ حتى دخلت بين الضواطرة ولا عائدة لي من هذا الفضول الذميم لقد ولدت في الدنيا وعشت زماناً ولم يخطر ببالي ما اختلف فيه عبام وعيم . فلأي شيء دخلت في هذه المضايق وتورطت في هذا الشرّ العقيم . هل كان يعنيني ما تهاتر عليه أهل المشرقين من فساد رأيهم وخلقهم اللئيم . لهفي على القلم وان يكن في شِقه شقّ وحدلُ مجاجه الوَذِيم . لهفي على الحمار الذي كان يرتع ويرفس من لي بذلك البهيم . لعله الآن أحسن حالاً مني ولعله في نعيم مقيم وأنا اليوم بما فرطت مُليم . مَن لي بالخان والاخوان فيهم كل بزيع نديم زمانَ لا شغل الا معاقرة المدام والتطريب والترنيم . ليتني قلت ما قال الناس وعبدت معهم البعيم . (استغفر الله قد كفر صاحبنا) ليس كل وقت وقت جدال ومناقشة خصيم . لقد نصحني المطران بقوله ان الخواص قد تغش في

الضئيل والجسيم . والغبي والحكيم . والجاهل والعليم . انه يعرف الحق ويقول غيره خوف كل عتلّ زنيم . اذ الجاهلون لا يعجبهم الا التضليل والتهيم . ألم يقل لي انك لا تقدر على تجديد القديم . وعلى تقويم ما لا يستقيم . نعم ان الحواس تغش وسيّان في ذلك السفيه والحليم . والكريم واللئيم . ثم وقف قليلا حتى يورد أمثلة على هذا واذا به يقول . ان القبيحة الشوهآء اذا نظرت وجهها في مرآة تقول ان كنت شوهآء عند بعض فاني حسناء عند آخرين . ولذلك قال صاحب القاموس الشوهآء العابسة والجميلة ضدّ . وان القُناف اذا نظر جلمود انفه قال يحتمل ان بعض الحسان يرغبن فيه وما يرين به أمتا ولا عوجا . وان سادتنا القباح من الملوك والملكات وذوي السعادة والجَدّ لا يصورهم المصوّرون الاّ حساناً . وهم لا ينظرون أنفسهم في العناس الا كما صوّرهم المصورون . واننا لنرى الشمس طالعة ولمّا تكن قد طلعت كما يقول الرياضيون . ونرى العصا في المآء معوّجة وهي غير ذات عوج . وان السراب يرى الشخص اثنين . وان بعض الالوان يبدو بلونين . وان السحرة يخيلون للناظرين انهم يمشون على المآء ويدخلون في النار ولا يحترقون . ومَن يكُ في سفينة ماخرة قبالة ديار وعقار فانه يرى ما يقابله في الارض متحركاً ماشياً وهو ساكن ثابت . ومن يقعد في شباك مناوح اشباك آخر مساوٍ له في الارتفاع فانه ينظره أعلى من شباكه . ولعل صاحبي الخرجي كان بكاؤه بداعٍ غير داعي السلعة . فانه يبلغني عن اللاعبين واللاعبات في الملاهي انهم يبكون ويضحكون اين شاؤوا فلعل البكاء عندهم من الصنائع التي يتعلمونها على صغر . ماذا يبذني الخرج الان . أأدعوه ويتركني . أأحبه ويبغضني . أأحمله وينبذني . فلما ابتدأ هذه السفاهة التي تعدّ عند الخرجيين كفرا . وعند السوقيين تسبيحاً . وعند المتوسطين بينهم سفاهة ناشئة عن الجزع . اذ الناس لم يتفقوا الى الآن الا على الخلاف مادت به السفينة ميدة شديدة يحسبها الخرجيون انتقاماً من الرب . والسوقيون عارضاً من العوارض . فجعل يصرخ ويقول ألا يا شيخ السوق عفواً بحق لحيتك التي عند الحلاتين الا ما أجرتني . يا خرج . يا سلعة . يا دفتر . يا ضواطرة . يا صفافقة . يا نسّاجي السلعة . يا صبّاغيها . يا مسدّيها يا مُلحميها يا منيريها يا مطرزيها يا موشيها يارقّاميها يا رفّائيها يا شصّاريها يا خياطيها يا كفافيها يا شرّاجيها يا نشاريها

يا طوآئيها يا قسّاميها (١) يا لفافيها يا ملفقيها . تداركوني بحقكم قد هلكت . فما
يتم هذا الدعآء الآ ومالت به السفينة ميلة تدحرج بها رأسه الصغير كالبطيخة . فج
يصرخ ويستغيث ويقول لقد عدّيت عن التفديد . هذا أوّه ظهر من أول الطري
فكيف يكون في آخره . ثم غشي عليه وصار يهذي ويقول الخُرّ الخر . فسمعه أح
الركاب يكرر ذلك فظن انه يشكو من أحد الاخبثين في فراشه . فلما لم يجد شيئاً
هو يهذي من الالم وتركه . ثم قدّر الله ان سكن البحر وصفا الجو وظهرت بعد ساعا
أرض الاسكندرية . فجاء ذلك الرجل و بشّر الفارياق برؤية الارض . فقام متحل
وغسل وجهه و بدل ثيابه . فلما خرجوا من السفينة سبقهم الفارياق وما كاد يطأ الارض
حتى تناول منها حصاة والتقمها وقال هذه أمي . واليها أمي . فيها ولدت وفيها أموت
ثم انه توجه الى خرجي كان في المدينة وأدى اليه كتاب توصية من الخرجي الا
واث عنده ينتظر سفينة تسافر الى تلك الجزيرة . فلنهنّئه بوصوله سالماً آمناً . ولنقد
عرض حال للسدّة الاميرية . والحضرة الملكية . حضرة بطريرك الطائفة المارونية
كائناً ماكان . ثم نعرج قليلاً على السوقيين والخرجيين ونذكر الفرق بينهم

عرض لكاتب الحروف

قد تفلّت الفارياق من ناديكم . وانملص من بين اياديكم . وعنجر في وجوهكم
جميعاً وأصبح لا يخاف لكم وعيداً وبقي الآن أن أذكركم ما اشططتم به من الف
والطغيان والجور والعدوان على أخي المرحوم اسعد . اذ اودعتموه السجن في دار
الوزيرية بقنوبين نحو ست سنين . و بعد ان أذقتموه جميع ضروب الذلّ والهوا
والبوس والضنك في صومعة صغيرة لزمها فلم يكن يخرج منها الى موضع يبصر فيه النو
أو يستنشق الهوا . اللذين يمنّ بهما الخالق على الابرار والفجّار من عباده قضى نحبه
كان سجنكم له الا لمخالفته لكم في أشياء لا تقتضي عذاباً ولا عتاباً . وما كان لكم علي
من سلطان ديني ولا مدَني . أما الدين فان المسيح ورسله لم يأمروا بسجن من كان
يخالف كلامهم وانما كانوا يعتزلونهم فقط . ولو كان دين النصارى نشأ على هذه القساو

---

(١) القسامي من يطوي الثياب اول طيها حتى تتكسر على طيه

الوحشية التي أتصفتم بها الآن انتم رعاة التائهين وهداة الضالين لما آمن به أحد ، اذ لا أحد من الناس يَصْبَوْ الا اذا كان يرى الدين الذي خرج اليه خيراً من الذي خرج منه . وكل انسان في الدنيا يعلم ان السجن والتجويع والاذلال والتوعّد والتأويق والتشنيع ليس من الخير في شي‌ء . وناهيك ان المسيح ورسله أقرّوا ذوي السيادة على سيادتهم وامرتهم . ولم يكن دأبهم الا الحضّ على مكارم الاخلاق والامر بالبرّ والدعة والسلم والاناة والحلم . فانها هي المراد من كل دين عُرِف بين الناس . واما المدني فلان أخي اسعد لم يأتِ منكراً ولا ارتكب خيانة في حق جاره او اميره او في حق الدولة . ولو فعل ذلك لوجب محاكمته لدى حاكم شرعي . فاساءة البطرك اليه انما هي اساءة الى ذات مولانا السلطان . لاننا جميعاً عبيد له مستأمنون في امانه وحكمه . وكلنا في الحقوق سواء اذ البطرك ليس له حق في ان يخطف من بيتي درهماً واحداً او شاه فأنى له ان يخطف الارواح وهب ان أخي جادل في الدين وناظر وقال انكم على ضلال فليس لكم ان تميتوه بسبب هذا . وانما كان يجب عليكم ان تنقضوا أدلته وتدحضوا حجته بالكلام او الكتابة اذا انزلتموه منزلة عالم تخشون تبعته . والا فكان الاولى لكم ان تنفوه من البلاد كما كان هو يطلب ذلك . بل اصررتم على عتوكم في تنكيله وزعمتم ان فراره من داركم مرة لنجاة نفسه كان زيادة في جنايته وجريرته فزدتم تجبراً عليه وظلماً . وكأني بكم معاشر السفهاء تقولون ان اهلاك نفس واحدة لسلامة نفوس كثيرة محمدة يندب اليها . ولكن لو كان لكم بصيرة ورشد لعلمتم ان الاضطهاد والاجبار على شي‌ء لا يزيد المضطهد وشيعته الا كلفاً بما اضطهد عليه . ولا سيما اذا علم من نفسه انه على الحق وان خصمه القاهر له على ضلال . أو انه متحلّ بالعلم والفضائل وقرينه عُطل عنها . فقد فاتكم على هذا العلم الديني والسياسيّ . وعرضتم عرضكم للقذف والتسويد . وذكركم للمقت والتفنيد . ما دامت السماء سماء والارض أرضاً . وان أخي رحمه الله وان يكن قد مات فذكره لن يموت . وكلما ذكره ذاكر من أهل الرشد والبصيرة ذكر معه ايضاً سوء فعلكم وافحاشكم وغلوكم وجهلكم وشناعتكم . وقد لعمري اخرج عنكم بموته من شيعتكم هذه المتوحّمة على سفك الدم أكثر مما لو بقي حياً . وحسبك بالخواجا ميخائيل ميشاقه الاكرم و بغيره من ذوي

يا طوآئيها يا قسّاميها (١) يا لفافيها يا ملفقيها . تداركوني بحقكم قد هلكت . فما كاد يتم هذا الدعآء الاّ ومالت به السفينة ميلة تدحرج بها رأسه الصغير كالبطيخة . فجعل يصرخ ويستغيث ويقول لقد عدَّيت عن التفديد . هذا أثره ظهر من أول الطريق فكيف يكون في آخره . ثم غشى عليه وصار يهذي ويقول الخرُ الخر . فسمعه أحد الركاب يكرر ذلك فظن انه يشكو من أحد الاخبثين في فراشه . فلما لم يجد شيئاً قال هو يهذي من الالم وتركه . ثم قدّر الله ان سكن البحر وصفا الجو وظهرت بعد ساعات أرض الاسكندرية . فجاء ذلك الرجل و بشر الفارياق برؤية الارض . فقام متجلداً وغسل وجهه و بدل ثيابه . فلما خرجوا من السفينة سبقهم الفارياق وما كاد يطأ الارض حتى تناول منها حصاة والتقمها وقال هذه أمي . واليها أمي . فيها ولدت وفيها أموت . ثم انه توجه الى خرجي كان في المدينة وأدى اليه كتاب توصية من الخرجي الآخر وابث عنده ينتظر سفينة تسافر الى تلك الجزيرة . فلنهنّئه بوصوله سالماً آمناً . ولنقدم عرض حال للسدّة الاميرية . والحضرة الملكية . حضرة بطريرك الطائفة المارونية كائناً ماكان . ثم نعرج قليلاً على السوقيين والخرجيين ونذكر الفرق بينهم

عرض كاتب الحروف

قد تفلّت الفارياق من ناديكم . وانملص من بين ايديكم . وعنجر في وجوهكم جميعاً وأصبح لا يخاف لكم وعيداً . وبقي الآن أن أذكركم ما اشططتم به من الظلم والطغيان والجور والعدوان على أخي المرحوم اسعد . اذ اودعتموه السجن في داركم الوزيرية بقنو بين نحو ست سنين . وبعد ان أذقتموه جميع ضروب الذلّ والهوان والبوس والضنك في صومعة صغيرة لزمها فلم يكن يخرج منها الى موضع يبصر فيه النور أو يستنشق الهواء اللذين يمنّ بهما الخالق على الابرار والفجّار من عباده قضى نحبه وما كان سجنكم له الا لمخالفته لكم في أشياء لا تقتضي عذاباً ولا عتاباً . وما كان لكم عليه من سلطان ديني ولا مدنيّ . أما الدين فان المسيح ورسله لم يأمروا بسجن من كان يخالف كلامهم وانما كانوا يعتزلونهم فقط . ولو كان دين النصارى نشأ على هذه القساوة

---

(١) القسامي من يطوي الثياب اول طيها حتى تتكسر على طيه

الوحشية التي أتصفتم بها الآن انتم رعاة التائهين وهداة الضالين لما آمن به أحـد . اذ لا أحد من الناس يَصبُؤ الا اذا كان يرى الدين الذي خرج اليه خيراً من الذي خرج منه . وكل انسان في الدنيا يعلم ان السجن والتجويع والاذلال والتوعد والتأويق والتشنيع ليس من الخير في شيء . وناهيك ان المسيح ورسله أقرّوا ذوي السيادة على سيادتهم وامرتهم . ولم يكن دأبهم الا الحضّ على مكارم الاخلاق والامر بالبرّ والدعة والسلم والاناة والحلم . فانها هي المراد من كل دين عُرِف بين النـاس . واما المدني فلان أخي اسعد لم يأتِ منكراً ولا ارتكب خيانة في حق جاره او اميره او في حق الدولة . ولو فعل ذلك لوجب محاكمته لدى حاكم شرعي . فاسآءة البطرك اليه انما هي اساءة الى ذات مولانا السلطان . لاننا جميعاً عبيد له مستأمنون في امانه وحكمه . وكلنا في الحقوق سواء اذ البطرك ليس له حق في ان يخطف من بيتي درهماً واحداً لو شاءه فأنى له ان يخطف الارواح وهب ان أخي جادل في الدين وناظر وقال انكم على ضلال فليس لـكم ان تميتوه بسبب هذا . وانما كان يجب عليـكم ان تنقـضوا أدلته وتدحضوا حجته بالكلام او الكتابة اذا انزلتموه منزلة عالم تخشون تبعتـه . والا فكانَ الاولى لـكم ان تنفوه من البلاد كما كان هو يطلب ذلك . بل اصررتم على عتوكم في تنكيله وزعمتم ان تراه من داركم مرة لنجاة نفسه كان زيادة في جنايتـه وجريرته فزدتم تجبراً عليه وظلماً . وكأني بكم معاشر السفهآء تقولون ان اهلاك نفس واحـدة لسلامة نفوس كثيرة محمدة يُندب اليها . ولكن لو كان لـكم بصيرة ورشد لعلمتم ان الاضطهاد والاجبار على شيء لا يزيد المضطهد وشيعته الاّ كلفاً بما اضطهد عليـه . ولا سيما اذا علم من نفسه انه على الحق وان خصمه القاهر له على ضلال . أو انه متحلّ بالعلم والفضائل وقرينه عُطل عنهـا . فقد فاتكم على هـذا العلم الديني والسياسيّ . وعرضتم عرضكم للقذف والتسويد . وذكركم للمقت والتفنيـد . ما دامت السماء سماء والارض أرضاً . وان أخي رحمه الله وان يكن قد مات فذكره لن يموت . وكلما ذكره ذاكر من أهل الرشد والبصيرة ذكر معه ايضاً سوء فعلكم وافحاشكم وغلوكم وجهلـكم وشناعتكم . وقد لعمري اخرج عنكم بموته من شيعتكم هـذه المتوحمة على سفك الدم أكثر مما لو بقي حياً . وحسبك بالخواجا ميخائيل ميشاقه الاكرم وبغـيره من ذوي

الفضل والبراءة مثالاً ، ألم تأخذكم يا غلاظ الاعناق رأفة في شبابه وجماله . ألم تتأثر قلوبكم النارزة لصفرة وجهه حين حجبتموه عن النور والهواء . وحين ذوت غضاضة جسمه وبضاضته . وحين لم يبق من نرارته غير الجلد والعضم وبخلتم عليه ايضاً أن تطلقوه بهما . ألم تشفقوا عليه اذ رأيتم أنامله قد ضنيت لعوز ما كان يتمتع به حمر ديركم ولقد طالما والله أخذت القلم فخطت ما يعجب به الملوك . ولقد طالما والله صعد المنبر فخطب فيكم ارتجالاً والعرق يتصبب من جبينه ذاك الصليت . ولا شدّ ما أبكى سامعيه تذكيراً وتزهيداً . وطالما ألف وعرب لكم كتباً ركيكة وعلم حمقى رهبانكم وأخرجهم من ظلمات الجهل . ألم يغز وجوهكم الصفيقة ما كان يترقرق في وجهه من ماء الحياة فكان أشدّ خفراً من مخدَّرة . وأنه كان عزيزاً في أهله مكرما عند الامراء محبياً الى الخاصة والعامة . نزيه النفس . كريم الخلق فصيح اللهجة . أنيس المحضة . أمثله يحبس ست سنين ويذل وينكل ويموت والله يعلم بأي شيء مات . ما بال الكنائس الفرنسوية والنمساوية والانكليزية والمسكوبية والرومية الاورثوذكسية والرومية الملكية والقبطية واليعقوبية والنصطورية والدرزية والمتوالية والانصارية واليهودية لا تفعل هذه الفظاعة والشناعة التي تفعلها الكنيسة المارونية . أم هي وحدها على الحق والناس أجمعون على الباطل . ألستم تزعمون ان ملك فرنسا هو مجير الدين وناصره . والناس من أهل مملكته الكاثوليكيين ما زالوا يطبعون كتباً يندّدون فيها بعيوب رؤساء كنيستهم وقبائحهم وسفاهتهم وفحشهم وشراهتهم والحادهم . بل ان كثيراً منهم قد ألفوا تواريخ خاصة بما كان عليه الباباوات من الفسق والفجور وسوء التصرف . وبكفرهم بخلود النفس والوحي وبالهية المسيح . فمنهم من قال ان البابا ارمديوس الثامن ويعرف بدوق صفوى رقى الى درجة بابا وهو عامي . ومنهم من قال ان مجمع باسيل انما كان انعقاده لخلع البابا يوجين وانهم حكموا عليه بالعصيان والارتشاء والشقاق والبدع ونكث اليمين . ومنهم من قال ان البابا نيقولاوس الاول كان قد حرم كنثيار مطران كولون لمخالفته له في المجمع الذي عقد في متز سنة ٨٦٤ . فكتب المطران المذكور رسائل الى جميع كنائسه يقول فيها . ان المولى نيقولاوس الذي اتخذ له لقب بابا ويحسب نفسه انه بابا وسلطان معاً وان يكن قد حرمنا فقد هلونا على سفاهته . ومنهم من قال

ان أمبروسيوس حاكم ميلان حصل على درجة مطران مع انه كان غير صحيح الاعتقاد بدين النصارى . ومنهم من قال ان البابا يوحنا الثامن ارسل نواباً من طرفه الى القسطنطينية . فعقدوا ثمَّ مجمعاً اجتمع فيه أربعمائة أسقف وكلهم حكموا ببراءة فوتيوس وانه جدير برتبة مطران . ومنهم من قال ان البابا اسطفانوس السادس أمر بان تنبش جثة فرموسيوس أسقف بورطو من القبر لانه قد أثار شغبا على سلفه البابا يوحنا الثامن ثم حكم عليه حالة كونه ميتاً بقطع رأسه وثلث من أصابعه والقيت جثته في طيبر[1] . وان البابا سرجيوس كان قد استوزر ثاودورة أم ماروزيا التي تزوّجت بمركيز طوسكاني . وانه أي البابا أولد ماروزيا هذه ولداً ربّاه عنده داخل قصره من دون محاشاة أحد من أهل رومية . ثم تزوجت ماروزيا بعد ذلك بهوك ملك ارلس وعملت على قتل البابا يوحنا العاشر لانه كان يهوى أختها . فخنقته بين فراشين واستبدّت بالامر . ثم احتالت ان ولّت لبو هذه الرتبة ثم قتلته في السجن بعد أشهر . ثم ولّت من بعده رجلاً خامل الذكر فولي بعض سنين ثم عزلته ونصبت يوحنا الحادي عشر وهو ابنها من سرجيوس الثالث وكان قد أتى عليه أربع وعشرون سنة لا غير . وشرطت عليه ان لا يباشر من الاحكام الا ما كان مختصاً برتبة البابوية . وانها سمّت زوجها ثم تزوجت بسلفها ملك لومباردي وفوضت اليه الحكم . فقام أحد ولدها من زوجها الاول وشغب عليها أهل رومية وحبسها وابنها البابا في صانت انجلو . وانه ولي بعده اسطفانوس الثامن . غير انه لما كان بغيضاً عند الرومانيين لكونه من جرمانية شوّهوا وجهه فلم يقدر بعدها على الظهور بين الناس . ثم انتخب ابن ولد ماروزيا المسمَّى اكطافيانوس وله من العمر ثماني عشرة سنة وسمي من بعد ذلك يوحنا الثاني عشر . وكان خليعاً ماجنا فحاشا مستهتراً منهمكاً في اللذات وهوى النفس مولعاً بركوب الخيل والفروسية . وانما لم يخل ذلك بامور الكنيسة لان اكثر الدول والكنائس كان على هذه الحال . وان أوتو الامبراطور لما علم ان هذا البابا قد أضمر العصيان وكان أهل ايطاليا قد استدعوا حضوره لاصلاح ما اختلَّ من أحوالهم توجّه من بافيا الى رومية . وبعد أن استتب

---

(١) طيبر اسم نهر يخترق مدينة رومية

له الامر في المدينة عقد مجمعاً حضر فيه البابا بنفسه وكثير من امراء جرمانية ورومية وأربعون اسقفا وسبعة عشر كردينالاً وذلك في كنيسة مار بطرس . وشكى البابا بحضرتهم أجمعين انه فسق بعدة نساء وخصوصاً ابنته التي ماتت وهي نفساء . وانه قلّد مطرانية طودى لغلام كان سنه عشر سنين لا غير . وانه كان يبيع الرتب والدرجات الكنائسية بيعا وسمل عيني أشبينه في المعمودية سملاً . وجبّ أي خصى احد الكرادلة او الكردينالات جبّا . ثم قتله . وانه لم يكن يؤمن بالمسيح وغير ذلك مما أوجب على الامبراطور خلعه ونصب ليو الثامن في مكانه . الا انه لم يكد الامبراطور يخرج من رومية حتى هاج البابا عليه أهل المدينة . وعقد مجمعا خلع فيه ليو الثامن وأمر بقطع يد الكردينال الذي كتب الشكوى عليه . وقطع أيضا لسان الكاتب الذي كان يقيّد الحوادث وأنفه واثنتين من أصابعه . ثم قتل البابا يوحنا الثاني عشر وهو معانق لامرأة وكان القاتل له على ماقيل زوجها . ثم ان القنصل كريستيوس ابن البابا يوحنا العاشر من ماروزيا جيّش أهل رومية على اوثو الثاني وسجن بندكتوس وكان من حزب الامبراطور فمات في السجن . فلما بلغ ذلك مسامع أوثو ولّى يوحنا الرابع عشر . فقام عليه بونيفاس السابع الذي كان ولي الرئاسة من قبَل القنصل وقتله . وبقى القنصل مستقلاً بتدبير الامور ومباشرة الاحكام الى ان قام غريغوريوس ابن اخت الامبراطور وخلع اوثو الثالث . ثم احتال عليه الامبراطور وضرب عنقه وأمر بان تعلق جثته من القدمين . وسملت عينا البابا يوحنا الخامس عشر الذي كان انتخبه الرومانيون وقطع أنفه ثم رُمي به من ذروة قلعة صانت انجلو . ثم عرضت الرئاسة الباباوية على البيع فاشتراها كل من بندكتوس الثامن ويوحنا التاسع عشر واحداً بعد واحد . وكانا أخوى مركيز طوسكاني . ثم اشتريت لولد سنه عشر سنين وهو بندكتوس التاسع . ثم انتخب باباوان آخران وكان أحدهما يكفر الآخر ويحرمه . ثم اصطلحا على ان يتقاسما دخل الكنيسة فيما بينهما وان يعيش كل منهما مع سريّته . ومنهم من قال ان كنيسة رومية أصدرت مرة منشوراً حكمت فيه على بعض ملوك فرنسا بان يطلّق امرأته ويباشر دواعي التوبة سبع سنين . وانه لما شهر المنشور في المملكة سقطت حرمة الملك من

عيون الناس فتجنبته الخاصة والعامة حتى لم يبق عنده غير خادمَين . ومنهم من قال ان البابا غريغوريوس السابع عقد مجمعاً في رومية على آنري الرابع سلطان جرمانية وقال فيه . قد خلعت آنري عن ولاية النمسا وايطاليا وأعفيت جميع النصارى من الطاعة له ونقضت عهدهم له . ولست آذن لاحد في ان يخدمه باعتبار انه ملك ذو سلطان . وان آنري لما ضاق بذلك ذرعاً اضطر الى الذهاب الى رومية . فلما قدم على البابا وجده خالياً بالكُنْتس ماتيلدة في كانوزا (١) فوقف السلطان يستأذن في الدخول لدى الباب ولم يكن معه أحد يخفره . فلما دخل المقام الاول اعترضه بعض حشم البابا ونزعوا عنه حلته الملكية وألبسوه ثوباً من الشعر . ووقف ايضاً ينتظر الاذن في صحن القصر حافياً وكان ذلك في قلب الشتاء . ثم ألزم ان يصوم ثلثة أيام قبل تقبيل قدم البابا . فلما انقضت الايام الثلثة دخل به الى مجلس البابا فوعده بالعفو بشرط ان ينتظر ما يحكم به عليه في مجلس اغوسبرغ . الى ان قال ثم مات البابا المذكور وخلفه رئيس دير سُمّى اوربانوس الثاني . وكان مثل سلفه في العتوّ والتجبر . فمن ثم حمل يحرّض ابنى آنري على قتال أبيهما . وهذه ثاني مرة هيّج البابا فيها الابناء على آبائهم . فقاما عليه وأودعاه السجن ثم فرَّ منه ومات في لياج مسكيناً ذليلاً . ومنهم من قال ان آنري السادس ولد فردريك الثاني سار الى رومية ليتوّجه البابا سيلستانوس . ولما كان الامبراطور متطأطئاً لتقبيل قدمه وعلى رأسه تاج الملك رفع البابا رجله ورفس بها التاج عن رأسه فوقع على الارض وكان سنّ البابا وقتئذ ستاً وثمانين سنة . ومنهم من قال ان بعض البابوات وأظنه اينوصنت الثالث حرم الملك لويس وأباه . غير ان مطارين فرنسا نسخوا حكمه وأمروا بالغائه . وان البابا اينوصنت الرابع عقد المجمع الثالث عشر على الامبراطور فريدريك الثاني وذلك في سنة ١٣٣٥ وحكم عليه فيه بكفره وبانه كان يتسرّي بجواري مسلمات . فناضل عن الامبراطور خطباؤه وحزبه وردّوا على البابا انه افتضّ بنتاً وارتشى غير مرة . ومنهم من قال ان البابا المذكور أغرى طبيب الامبراطور المشار اليه بان يدسّ له السمّ في طعامه . وان البابا لوقيوس

---

(١) الكونتس مونث الكونت من ألقاب الشرف عند الافرنج

الثاني وَلِيَ مرة حصار رومية بنفسه ومات من رمية حجر على رأسه . وان البابا اكليمنضوس الخامس عشر كان يجول في فينى وليون لجمع المال ومعه عشيقته . وان راهباً من الدومينيقيين سمّ الامبراطور آنرى عن أمر البابا وذلك في القربان . وانه في سنة ١٢٠٠ تزاحم باباوان على الرئاسة وجمع كل منهما حزبه للقتال وعلى راية كلّ صورة المفاتيح . وان أحدهما تصرف في آنية كنيسة مار بطرس وأنفقها في أهبة الحرب . وان البابا اوربانوس كان يعذب كل من خالفه من الكرادلة او الكردينالات وفي ذلك الوقت أنكرت دولة فرنسا رئاسة البابا واستبدّت أساقفتها بامور رعيتهم . ومنهم من قال ان البابا يوحنا الثالث والعشرين شكي بانه سمّ سلفه وباع الوظائف الكنائسية وقتل عدة ابرئا . وانه كان كافراً ولوطياً معاً . فمن ثم خلع بحضرة الامبراطور . الى غير ذلك مما يضيق عنه هذا الكتاب فاني لم أضعه فى الدين وانما أوردت ما مرّ بك على سبيل الاستطراد . فان كان ما قاله هؤلاء المؤلفون من الفرنساويين حقاً كان أبرّ من هؤلاء الائمة واتقى . اذ لم يُشكَ قط بانه لاط او زنى او سمّ أحداً او هاج الابناء على آبائهم ليقتلوهم . او انه اختلس انية الكنائس او طمعا وتجبر على سلطانه او ارتشى . وانما هي مماحكات جرت بينه وبين بطركه على أشياء غير مقيسة ولا معدودة ولا موزونة ولا مكيلة . فأنت تقول مثلاً ان دركات قنوبين المؤدية الى سجّين ثلث . وهو قال ثلثمائة . وأنا أقول ثلثة آلاف . فما مدخل السجن هنا والعذاب . وان كان ما قالوه كذباً وافتراء كان ذلك أدعى الى تنكيلهم والاقتصاص منهم . لافترائهم على أحبار الله وخلفائه فواحش لن يستطيع عبّاد التفتيش أن يأتوا بأفظع منها . مع انّا لم نرَ أحداً منهم عُذّب او نفي او استفزّ من داره او أنف من محضره . بل قد طبعت كتبهم المرة بعد المرة . وسعرها فى الاسواق كسعر كتب العلم . ولعل قائلاً يقول ان عرضك هذا موجه الى البطرك المتولّى الآن وهو من أهل الفضل والمكارم وليس هو الذي سجن أخاك وقتله وانما كان سلفه . قلت عندي علم ذلك . غير انه ما دام هو يعتقد بان ما فعله سلفه كان صواباً فهو شريك له ولا يلبث ان يعامل من يقتدي بأخي معاملة سلفه . وكذلك يعم اللوم جميع المطارنة والاساقفة والقسيسين والرهبان ان كانوا يصوّبون ما فعله البطرك المتوفى . وكنت أودّ

لو أختم هذا العرض بعتاب أوجهه الى حضرة المطران بولس مسعد ابن خالي وخال أخي وكاتب أسرار البطرك. ولكني خشيت الآن من الاطالة. وفيما قلت ما يغني اللبيب

الفصل العشرون

في الفرق بين السوقيين والخرجيين

اعلم ان للسوقيين شهرة عظيمة في جميع الاقطار. وذلك انهم احتكروا السلعة منذ القديم في مخازن لهم. وقالوا كل من لم يشترِ من مخازننا أنزلنا به القصاص. ثم انهم أخفوا دفتر أسعار البياعات عن المشترين وغالوا بثمن الاصناف واشطّوا. فكانوا يتقاضون من المشتري أضعاف القيمة. ثم اتخذوا لهم معامل ومخازن في جميع الامصار وجعلوها مظلمة خالية عن الكوى ومنافذ النور. فكانوا يبيعون منها من غير ان يبدوا حقيقة لون السلعة ورقعتها. وكانوا يجعلون ما يبيعونه من أصنافها ملفوفا مظروفا فيأخذه الشاري وينطلق به ولا يرى منه شيئا. وكان عندهم من النسّاجين والخياطين والرفائين والصباغين ما يفوق العدد. فكان هؤلاء يصنعون لهم كل ما يأمرونهم به. واتفق في بعض السنين ان وقع موات ذريع في الماشية وامحلت البلاد فقلّ الصوف والحرير عندهم وكادت الانوال والمعامل تتعطل. فارتأى رجل منهم من أهل الحصافة والحذق أن يستعمل الشعر وبعض أصناف الحشيش بدل ما أعوزهم من الحرير وغيره. وجاء عمله هذا متقناً محكماً حتى اشتبه على اكثر الناس. ثم ان نفراً من المعسرين الذين حملهم الضنك في المعيشة على توسيع دائرة الفكر والنظر في الامور والتمييز لها. (فان جلّ العلماء والمستنبطين من الصعاليك) ذهبوا يوماً الى بعض المخازن لشراء ما لزم لهم وجاءوا بما اشتروه الى منازلهم ملفوفاً مصوناً على العادة. وكان أحدهم يهوى امرأة يريد أن يتزوج بها وقد اشترى لها منديلا. فلما أهداها اياه بحضرتهم وكانت ذات استشراف واستطلاع واستكشاف للمستور كما هو شأن سائر النساء. أخذت المنديل

وقبل أن نشكره على معروفه ادنته من نور السراج اذ كانت زيارتها له في الليل . فرأت فيه خللاً كبيراً مع ان النور كان طفيفاً يوشك أن ينطفي . واذا بها صرخت تقول بئس من باعك هذا انه قد غبنك . ان فيه خللاً مثل الذي قد فتنك . فلما سمعوا ذلك تنبهوا فأخذ بعضهم يتسلّى حاجته . وصار الآخر يقيس ثوبه على قامته وهلمّ جرّا . فظهر لهم ان البضاعة ليست على وفق مرادهم . لان من ذهب ليشتري حاجة بلون أحمر وجدها سوداء . ومن أراد ثوباً طويلاً وجده قصيراً . ومن أراد حريراً وجده كرباسا فرجعوا بها في الغد الى الباعة وقالوا لهم قد بعتمونا ما لم نرده . وأوردوا لهم عللاً واسباباً للاقالة . فقال صاحب المنديل لقد كدتم تسودون وجهي عند محبوبتي البيضاء . وكادت تغاضبني لما أتحفتها من سقط المتاع لولا انها طمعت فيما يكون خيراً منه . فقالت لهم الباعة انما بعناكم ما طلبتم ولكن على أبصاركم غشاوة فلستم تبصرون اللون ولا الرقعة ولا تعرفون المقادير ولا المقاييس . فقال من اشترى الثوب كيف يمكن أن يجهل الانسان قامته ويعرفها آخر غيره . وقال صاحب اللون الاسود انما أردت اللون الاحمر وها ان ثوبك اسود ورفيقاي هذان يشهدان لي وها هو واضح لكل ذي عينين . فقال له البائع انت أعمى لا تميز الالوان ثم ذهب ليأتيه بلماك ليكحله به فأبى ذلك وقال لا بل انت عَمِه أعمى . وقال من اشترى الكرباس بدل الحرير هب ان البصر يُغَشّ أفيخفى اللمس على الاعمى . فلجّ بينهم الجدال والمنادوملأوا المكان صخباً وضجيجاً . وفيما هم على ذلك اذا برجل أقبل يسعى وهو يلهث بُهراً وقد اندلع لسانه ووضع يديه على كشحيه . فما كاد يدخل الحانوت حتى سقط لا يستطيع حراكا وغدا يئن ويقول آه امرأتي آه امرأتي . ثم غشي عليه ساعة . فلما أفاق أدار نظره يمنة ويسرة فرأى غريمه . فلم يتمالك ان وثب من مجسمه وقال . يا أهل الفساد . ومروّجي الكساد . ومسبّبي الفتن بين المرء وزوجته ومفرقي الاب عن ابنه وابنته . وغابني الاغرار من الشارين ومبرقعي وجوه المبصرين . كيف حلّ لكم من الله أن تغشوني وتبيعوني ما لا حاجة لي به . اني أتيتكم بالامس أطلب منكم أن تبيعوني لحماً لاتخذ منه مرقاً لزوجتي لانها عليلة مذ أيام . فبعتموني كسر خبز وقلتم لي انه لحم غريض فلما اوقدت النار لاطبخه اذا به خبز . فباتت امرأتي من غير ان تذوق شيئا وقد اصبحت

لاحراكبها الا بلسانها . فهي لا تزال تلعن تلك الساعة التي رأتني فيها قبل الزواج . وتسب القسيس الذي كان السبب فيه . وقد حلفت انها اذا برئت من مرضها لتأمرن النساء جميعا بأن يكنَّ مع أزواجهن ضجعاً مفسّلات مناشيص [١] وكأنه لما قال ذلك فار دمُه في دماغه فوثب من مكانه وكاد أن يبطش بالبائع . لولا ان تداركه بعض الصنّاع في الحانوت . فلما تملّص البائع من يديه صعدا منبراً وقال . اسمعوا أيها الخصماء . ولا تعجلوا الى اللوم فانه من دأب اللؤما . ان عيونكم قد غشى عليها فهي تبصر الاحمر اسود . وذوقكم قد فسد فعندكم ان اللحم خبز مُفتأد . وعقلكم تدركَ وحرض فانتم تحسبون الحرير قطناً . والجوهر عهنا . فما ينصفنا الاّ فيم السوق فهلّموا اليه والاّ فأنتم من أهل الكفر والفسوق . فلما سمعوا مقالته وعلموا ان محاكمته لهم عند شيخ السوق شطط لكونه أضعف منهم بصراً وبصيرة لهرمه . التهبوا غيظاً فجعلوا يركسون الامتعة ويشوشونها ويبعثرونها ويمزقون كل ما قدروا عليه ويطأون ما أمكن لهم وطؤه ويكسرون كل ما أصابوا من معد وصندوق وكؤس وأكواب وخرجوا وهم سامدون . ثم تواطأوا على أن يعقدوا مجلساً تلك الليلة ليتدبروا في أمورهم . فلما كان المساء اجتمعوا وقالوا قد اتضح لنا ان هؤلاء الباعة ظالمون غابنون . وان حواسنا لم ترَ الشيء الا على ما هو عليه . فشكراً لله ولصاحبة المنديل التي هدتنا الى هذا . فتعالوا نستقلّ بامورنا ونعمل لنا مخازن ومعامل كما عملواهم . ثم اتخذوا لهم شيعة واخدانا وأصحاباً وأعواناً . وأسقطوا عنهم من السعر ما أمال اليهم كثيرا من الناس . وقالوا لهم ان عهدنا اليكم ان نبيعكم البضاعة برأي اعينكم ولمس ايديكم وذوق السنتكم . ومن لم يرضَ شيئاً اشتراه فانّا نبدّله له بما هو خير منه . ثم بحثوا عن الدفتر ونشروه في جميع البلاد واستعملوا لذلك وسائل مختلفة . وقالوا للناس هاؤم الدفتر الانور . والدستور الاكبر . فلا تشتروا منا حاجة الا على مقتضى تسعيرة . ولا تذهبوا الى

---

(١) الضجع جمع ضجوع وهي المرأة المخالفة لزوجها . قلت وهو غريب فان اشتقاقه من ضجع فكان يقتضي ان يكون معناه الطاعة . والمفسّلة المرأة التي اذا اريد غشيانها قالت انا حائض لترده والمناشيص جمع مِنشاص التي تمنع زوجها في فراشها

شيخ السوق فانه هالك في غروره . فرضي الناس بما اشترطه هؤلاء على انفسهم . وانفصلوا عن الشيخ المذكور وعن حزبه . وغدا كلٌّ من الحزبين يكذّب حريفه ويسوئ عليه ويخطّئه ويسفّهه ويحمّره ويفنّده ويحرّفه ويلعنه ويكفّره ويؤثّمه ويفسّقه . وسبحان من يداول الايام . بين الانام

الخطأ والصواب

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٤	١٤	الغرفا	القرفا
١٦	٩	فيكن	ولكن
١٦	١٢	في خلال	في خلال ذلك
٣٨	١٨	متعاماً	متعامياً
٥٠	١٧	بيدد	بيده
٥٤	٢٠	هي تقيأ	تقياء
٥٥	١	القرآ.	القرّاء
٨٢	٧	ريدها	وريدها
٨٥	٢٥	سا	سائر

﴿ انتهى الكتاب الأول ﴾



في دحرجة جلمود

قد القيت عني والحمد لله الكتاب الاول وارحت يافوخي من حمله • وما كدت اصدق ان اصل الى الثاني فاني لقيت منه الدُوار • ولا سيما حين خضت البحر مشيعاً للفارياق تفضلا وتكرما • اذ لم يكن مفروضا عليَّ ان ارافقه في كل مكان • وقد مضى عليَّ حين بعد وصوله الى الاسكندرية والتقامه الحصاة من الارض ولسان قلمي يتمطق • وثغر دواتي مطبق • حتى عاد اليَّ نشاطي فاستانفتُ الانشآ ورأيت ان ابتدي هذا الكتاب الثاني بشي• ثقيل ليكون عند الناس اكثر اعتباراً • واطول اذكاراً • وكما اني ابتدأت الكتاب الاول بما يدل على المامي بشي• من العلويات ان كنت لمّا تنس مامرَّ بك • استحسنت الآن ان آخذ في شي• من السفليات لاجل المطابقة • هذا

ولما كان الحجر من الجواهر المنيعة المفيدة راق لي ان ادحرج منه هنا جلموداً من أعلى قنة افكاري الى اسفل حضيض المسامع • فان وقفت تنظر الى تصوّبه من دون ان تتعرض • وتحاول توقيفه مرّبك كما تمرّ السعادة عليّ • أي من غير ان يصيبك منه شيء • والا اي ان استسهلت حبسه عن منحدره كرّ عليك ودفعك تحته • والعياذ بالله مما وراء هذا الدفع • فانظراليه هاهو متحرك للسقوط • هاهو متصوب • فاحذر الحذر قف بعيدا واسمع من دويّه مايقول • ان من نظر بعين المعقول الى هذه الدنيا والى ما اختلف فيها وائتلف من الاحوال والاطوار • والجواهر والاعراض • والاوطان والاغراض • والعادات والمذاهب • والمراتب والمناصب • وجد ان كل شيء يمر عليه منها يفوق كنهه ادراكه ويفوت تأمله • وان حواسّنا وان تكن قد ألفت اشياء لم تغادر الالفة عليها محلا للتعجب منها • الا ان تلكم الاشياء لاتنفك في نفس الامر عن كونها معجبة محيرة ومن تبصر في ادنى مايكون منها حق التبصر رأى نفسه كمن قد أهمل اداء فرض تعين عليه • انظر مثلا الى اختلاف ضروب النبات في الارض فكم فيه من الازهار البديعة الصنعة العجيبة الكينة • من دون ان نعلم لها منفعة خصوصية • والى اختلاف انواع الحيوان من دبابات وهوام وحشرات وغيرها • فان منها ماهو حسن الشكل ولا فائدة منه ومنها ماهو قبيحه والحاجة اليه ماسة • وانظر في السماء الى هذه النجوم دراريها كوكب درّي • ويضمّ متوقد متلالي •

وخُنَّسها	الخنس الكواكب كلها او السيارة او النجوم الخمسة الخ •
وَيمانيّاتها	الكواكب اليمانيات التي لاتنزل الشمس بها ولا القمر •
وتوائمها	توائم النجوم واللولو ماتشابك منها •
وبروجها	معروف •
وتِنّينها	التنين بياض خفي في السماء يكون جسده في ستة بروج وذنبه في البرج السابع الخ •
ومجرّتها	باب السماء او شرَجها •
ورُجُمها	النجوم التي يرمى بها •
وأغلاطها	أغلاط الكواكب الدراري التي لااسماء لها •

إناثها	الاناث صغار النجوم .

خُسّانها	النجوم لا تغرب كالجدي والقطب وبنات نعش والفرقدين .

أنوائها	النوء النجم مال للغروب او سقوط النجم في المغرب مع الفجر وطلوع آخر يقابله من ساعته في المشرق .

التي يرجع البصر عنها وهو كليل . والى اختلاف سحَن الناس ورؤوسهم . فانك لا تكاد ترى سحنة بشر تشبه سحنة آخر غيره . ولا تجد بين رؤوسهم اي عقولهم راسا تشبه غيره فمن عباد الله هؤلاء من اختار المخالطة والمقارفة . والمحاشرة والمزاحمة والمضاغطة والمصادمة . والمباراة والمعاجة . والملاهسة والمداحمة . والمجاحسة والمداغمة . والمزاعمة والمداهمة . والمساومة والمزاهمة . على اختلاف فيها . ذلك كالتجار والنساء . ومنهم من قابلهم بضد ذلك فاختار العزلة والانفراد كالنساك والزهاد . ومنهم من جعل دابه التهافت على المين والافتراء . والغلو والاطراء . كالشعراء والمستأجرين لمدح الملوك فيما يطبعونه من هذه الوقائع الاخبارية . ومنهم من قابلهم بضده فآثر الصدق والتحرّي والتحقيق والتروي . والقول الفصل والمطابقة بين الماضي والحاضر والآتي . وذلك كاهل الفلسفة والحكمة والرياضة . ومنهم من يعمل النهار كله ويكدّ بكلتا يديه وكلتا رجليه وربما لم ينطق بكلمة واحدة . وذلك كاصحاب الصنائع الشاقة . ومنهم من لا يحرك يده ولا رجله ولا كتفه ولا راسه وانما ينطق في بعض ايام الاسبوع بكلمات ثم يقضي سائر الايام مستريحا متنعما . مترفها مترفا . وذلك كالخطباء والوعاظ والمرشدين الى الدين . ومنهم من يفتك ويبطش ويجرح ويقتل كالجند . ومنهم من يعالج ويداوي ويشفي ويحيي كالأساة واولياء الله تعالى اهل الكرامات والمعجزات . ومنهم من يُستأجر للتطليق . ومنهم للتحليل . ومنهم للايلاد . ومنهم للالحاد . ومنهم للتفريق . ومنهم للتأليف بين الآحاد . ومنهم من يتكوّى في بيته فلا يكاد يخرج منه الا لضرورة . ومنهم من يصعد الجبال والادقال . والمنابر والاشجار . ومنهم من يهبط الاودية والبواليع والمراحيض . ومنهم من يسهر الليالي في تأليف كتاب . ومنهم من لا يذوق النوم حتى يحرقه . ومنهم من يسود ومن يُساد . ومنهم من يقود ومن يقاد . ومع هذا التنافي والتباين فمآل مساعيهم وحركاتها كلها الى شيء واحد . وهو

ادخال الانسان خنابتيه غداة كل يوم في رائحة كريهة قبل ان يستنشق روائح الازهار . ويتمتع بتنوع النهار . واعجب من جميع ما مرّ بك من هذه الاحوال حالتا اصحابنا السوقيين والخرجيين . فان حرفتهم لما كانت لاتتوقف لا على استعمال اداتين فقط . اي المحيّلة والقسم دون افتقار الى آلة اخرى . وكان موردا قوالهم . ومصدر جدالهم . ومبنى انتحالهم . وجلّ راس مالهم . قولهم يحتمل ان يكون هذا الشيء من باب المجاز الاسنادي او اللغوي . او من مجاز المجاز او الكناية . او من حمل النظير على النظير . او النقيض على النقيض . او من باب ذكر اللازم وارادة الملزوم او بالعكس . او من قبيل ذكر البعض وارادة الكل او بالعكس او من نوع اسلوب الحكيم . او من باب التهكم . او من طاقة التلميح . او من كوّة الالتفات . او من خرق الحشو . او من خرت الادماج . او من خصاص الاكتفاء . او من شقّ الاحتباك . اومن سَمّ عكس التشبيه . او من خلل سوق المعلوم مساق غيره . او من فتحات التجريد . اومن فرجة الاستطراد . او من ثقوب التورية . لم يكن من اللائق بهم ان يخلطوا هذه الأدوات وتلك اللوّات بشيء

من العرّادات	العرّادة شيء اصغر من المنجنيق .
والدبّابات	الدبّابة آلة تتخذ للحروب فتدفع في اصل الحصن فينقبون وهم في جوفها.
والدرّاجات	الدرّابة تعمل لحرب الحصار تدخل تحتها الرجال.
والمنجنيقات	المنجنيق آلة ترمى بها الحجارة كالمنجنوق معربة والمنجليق المنجنيق.
والنفّاطات	النفّاطة اداة من نحاس يرمي فيها بالنفط.
والخطّار	المنجنيق والذي يطعن بالرمح.
والسبطانات	السبطانة قناة جوفاء يرمى بها الطير .
والضبر	جلد يغشى خشبا فيها رجال تقرّب الى الحصون للقتال .
والقنفع	جُنّة من خشب يدخل تحته الرجال يمشون به في الحرب الى الحصون .
والجُلاهق	الذي يرمى به ونحوه البراقيل والبنادق .
والحسك	اداة للحرب من حديد او قصب فيلقى حول المعسكر تعمل على

مثال الحسك المعروف .

والقُرْدُمانيّ قباء محشو يتخذ للحرب وسلاح كانت الا كاسرة تدّخرها في خزائنهم والدروع الغليظة .

والتِجفاف آلة للحرب يلبسه الفرس والانسان .

واليَلب الترسة او الدروع من الجلود .

والسَرْد اسم جامع للدروع .

والدَرَق الترس من جلود بلا خشب ولا عقب ونحوه الحَجَف .

والحَرْشف الرجّالة وما يزيّن به السلاح .

والعَتَلات العَتَلة العصا الضخمة من حديد لها راس مفلطح يهدم بها الحائط .

والمِنسفات المِنسفة آلة يقلع بها البناء

والفَلَق مقطرة السجّان وهي خشبة فيها خروق على قدر سعة الساق .

والخَنازر الخَنزرة فاس عظيمة يكسّر بها الحجارة .

والعذراء شيء من حديد يعذّب به الانسان لاقرار بامر ونحوه .

والمقاطر المقطرة خشبة فيها خروق على قدر سعة ارجل المحبوسين .

والمراديس المِرداس آلة يدكّ بها الحائط والارض .

والدَهق خشبتان يغمز بهما الساق.

والصاقور الفاس العظيمة.

والمَلاطِس المِلْطس المِعول الغليظ .

والمَقاريص المقراص السكين المعقرب الراس .

والملاوظ المِلوظ عصا يضرب بها .

والمقامع المِقمعة خشبة يضرب بها الانسان على رأسه .

والمقافع المقفعة خشبة يضرب بها الاصابع .

والحَدأة الفاس ذات الراسين .

والمِنقار حديدة كالفاس .

والمهامز المِهمزة المقرعة او العصا .

والعَرافيص العِرْفاص السوط يعاقب به السلطان .

والمخافق المخفقة الدِرّة او سوط من خشب .

ولا بالرماح الطاعنات والسيوف البترات والنبال الصادرات والنصال المدميات والمقادع المولمات والمقارع المضنيات والصُلُب المهلكات والخوازيق النافذات والاغلال المصاصلات والنيران المتاججات والغارات والغزوات والنكايات والكبسات والاستلابات والافتضاضات والاثكالات والعداوات والمشاحنات وآخر الجميع بالركاكات . فكم لعمري من دم سفكوا . وجند اهلكوا . وعرض هتكوا . وحرمة انتهكوا . وذي اهل ربكوا . وعزب همكوا . ونساء ايّموا واولاد يتّموا . وبيوت خرّبوا . واموال نهبوا . ومصون اذالوا . وحرز نالوا . ومستور فضحوا . وحرام اباحوا . فهل فعل ذلك من قبلهم سَدَنة .

الأنْصاب الانصاب حجارة كانت حول الكعبة تنصب فيهلّ عليها ويذبح لغير الله تعالى .

والكَعَبَات الكعبات او ذو الكعبات بيت كان لربيعة كانوا يطوفون فيه .

والربة كعْبَة لمَذْحِج .

وبُس بيت لغطفان بناها ظالم بن اسعد لما رأى قريشا يطوفون بالكعبة ويسعون بين الصفا والمروة فذرع البيت وأخذ حجرا من الصفا وحجرا من المروة فرجع الى قومه فبنى بيتا على قدر البيت ووضع الحجرين فقال هذان الصفا والمروة واجتزأ به عن الحج فاغار زهير بن جناب الكلبي فقتل ظالما وهدم بناءه

وعَبَدة مَرْحَب صنم كان بحضرموت .

والعَبْعَب صنم .

والغبغب صنم

ويَغُوث صنم كان لمذحج .

والبُجة والسجة صنمان .

وسَعْد صنم كان لبني مِلْكان .

وَوَدّ	صنم ويضم .
وآزَر	صنم .
وباجر	صنم عبدته الأزد ويكسر .
وجِهار	صنم كان لهوازِن
والدَوّار	صنم ويضم .
والدارِ	صنم سمىّ به عبد الدار ابو بطن .
وسُعَير	صنم .
والأُقَيصِر	صنم .
وكُثرَى	صنم لجديس وطسم كسره نهشل بن الرئيس ولحق بالنبي صلعم فاسلم .
والضمار	صنم عبده العباس بن مرداس ورهطه .
ونَسْر	صنم كان لذي الكلاع بارض حمير .
والشمس	صنم قديم .
وعُمْيانِس	صنم لخَولان كان يقسمون له من انعامهم وحروثهم .
والفِلْس	صنم لطيّء
وجُرَيش	صنم كان في الجاهلية .
والخَلَصة	صنم كان في بيت يدعى الكعبة اليمانية لخثم .
وعوض	صنم لبكر بن وائل
وإساف	صنم وضعه عمر بن لحَيّ على الصفا .
ونائلة	صنم آخر وضعه على المروة وكان يذبح عليها (في قول) .
والمحُرَق	صنم لبكر بن وائل .
والشارِق	صنم في الجاهلية .
والبعل	صنم كان لقوم الياس عم .
وسواع	صنم عبد في زمن نوح عم فدفنه الطوفان فاستثاره إبليس فعبد وصار لهذيل وحُجّ اليه .

والكُسْعة صنم .

والعَوف صنم .

وذي الكفّين صنم كان لدوس .

ومناف صنم .

ويَعوق صنم لقوم نوح أو كان رجلاً من صالحي زمانه فلما مات جزعوا عليه فأتاهم الشيطان في صورة انسان فقال أمثّله لكم في محرابكم حتى تروه كلما صلّيتم ففعلوا ذلك به و بسبعة من بعده من صالحيهم ثم تمادى بهم الأمر الى أن اتخذوا تلك الأمثلة أصناماً يعبدونها .

والأشهل صنم ومنه بنو عبد الأشهل لحيّ من العرب .

وهُبَل صنم كان في الكعبة .

وياليل صنم .

والبَعيم صنم والتمثال من الخشب والدمية من الصبغ

والأسحم صنم .

ونُهْم صنم لمزينة وبه سموا عبد نهم.

وعائم صنم .

والضَيزن صنم .

والمدان صنم .

والجبهة صنم .

واللات صنم لثقيف سمي بالذي كان يلتّ عنده السويق بالسمن ثم خفف وهو في حديث عروة الرَّبة .

وذي الشرى صنم لدَوْس .

والعزّى صنم او سَمُرة عبدتها غطفان اول من اتخذها ظالم بن اسعد فوق ذات عِرق الى البستان بتسعة اميال بنى عليها بيتاً وسماه بُساً وكانوا يسمعون فيها الصوت فبعث اليها رسول الله صلعم خالد بن الوليد فهدم البيت واحرق السمرة .

وَمَناة	صنم .
والالاهة	الحية والاصنام والهلال والشمس ويثلث كالالهة .
والطاغوت	اللات والعزى والكاهن والشيطان وكل راس ضلال والاصنام وكل ماعُبد من دون الله .
والزَون	الصنم وما يتخذ ويعبد ـ والموضع تجمع فيه الاصنام وتنصب وتزين .
والجِبْت	الصنم والكاهن والساحر والسحر والذي لاخير فيه وكل ماعُبد من دون الله تعالى .

او عَبدة الشمس والقمر وزحل والمشترى والمريخ والزهرة وعطارد وفُرْدود والفرقد والفِنيخ والكَتَد والعوائذ والحَضار والاحور والزُبرة والأظفار والعُذر والمَعرة والاعيار والنَثْرة والجوزاء والبرجيس والتِياسَين والمِيسان والسُنَّيق والشَرطين والفارطين والأثافي والعيّوق والعوهقين والصرفة والطَرفة والايض والضِباع الهَقعة والهنعة والرِدف والمُعلَف والناقة والفَسقين والسماكين وسُهَيل والشَولة والمركبين والمرزَبين والسلم والبُطين والقدر والحَيّة والتحاني والخَراتين والخِباء وسُهَي والشاة والعَوّاء وكوكَى .

فكان يجب عليهم ان يجمعوا رأيهم على أمر واحد ويقولوا من حيث ان حرفتنا لانحتاج بحمد الله الى قياس وعدد كحرفة الطبيعيين والمهندسين والرياضيين . فانهم ايّان طلب المناقش منهم دليلا بادروا حالا الى البرهان بالمقادير والمساحة والحساب . فانصبوا انفسهم وانفس سائليهم . كان حقا علينا ان نهج منهاجا مريحا يقربنا ومعاملينا الى الغرض المقصود . وهو ان نيسر اسباب تعلّم هذه الحرفة لكل مضطر اليها منهم . فمن شاء بعد ذلك ان يلبس قباء او جبّة مع سراويلات من تحتها او تُبّان فليصنعها هو باى لون اعجبه وباي شكل راق له . اذ ليس من الرشد ان يعترض الانسان انسانا آخر مثله في كيفية لبسه او في ذوقه ومنامه . لان ابن آدم من يوم يستهل بالبكاء الى ان يبلغ اربع عشرة سنة يعيش مستغنيا عنا غير مفتقر الى مارسمنا به عليه . اذ الغريزة تهديه الى مايلائمه ويصلح له . الا ترى ان الطفل اذا خُلّي وطبعه لم يلبس الكتان الرفيع في الشتاء وان كان مطرّزا . ولا الفرو في القيظ وان كان مزركشا . وانه متى

جاع طلب الاكل . ومتى نعس نام . وان طرّبته بجميع الات الطرب والانغام . ومتى ظمي شرب . ومتى تعب استراح فهو في غنىً عنا من اصل الفطرة. حتى انه يمكنه بحول الله تعالى ان يعيش مائة وعشرين عاما وشهرا من دون رؤية وجه احد منا او مشاهدة تاجه وحلّته الفاخرة وخاتمه النفيس وعصاه المفضّضة . فلندع الناس اذاً في دعهم وسلامتهم وشغلهم . ولا نتطفّل عليهم ولا نكلّفهم مالا طاقة لهم به . اذ لو شاء الله ان يحوج الطفل الينا لاوحى اليه ان يسأل ابويه من وقت ترعرعه عن أسمائنا ومقامنا. وعما نحن عليه من المماحكة والجدال . والقيل والقال . والتشاحن والتشاجر . والتناقر والتنافر . والتلاعن والتهاتر . والتدابر والتهاجر . وأحسن من تركه على هذه الحالة ما اذا عنينا بتأديبه وتربيته وتهذيبه وتعليمه صنعة تنفعه في تحصيل معيشته ومعيشة والديه . كالقراءة والخط والحساب والادب والطب والتصوير . وما اذا نصحنا له ان يسعى في خير نفسه وخير أبويه ومعارفه وجنسه وكل من صدق عليه انه انسان بقطع النظر عن هيئات اللباس وتفاوت الالوان والبلاد . لان اللبيب الرشيد لا ينظر الى الانسان الا لكونه متصفا بالانسانية مثله . ومن اعتبر الامور الطارئة عليه كالالوان والطعام والزيّ فانه يتباعد عن مركز البشرية كثيرا . وانما يتم على حسن صنيعنا هذا كله ما اذا صنعناه حسبةً لوجه الله تعالى . غير طالبي الجزاء والهدايا . ولا النذور والعطايا. لان كثيرا من الاطباء يداوون المعسرين مجانا . فترى أحدهم يغادر طعامه وفراشه ويذهب الى مريض محموم او به جدري او طاعون احتسابا عند الله . اذ الناس كلهم عيال على الله . واحبهم الى الله انفعهم لعياله . هذا ما كان ينبغي ان يقولوه . وهذا ما اقوله انا . تامل في خرجي اقبل يطوف البحار والامصار. ويجول في الجبال والقفار. ويعرّض نفسه ونفس من يخاز اليه للسب والقذف والمعاداة والمشاحنة وما ذلك الا ليقول للناس انه اعرف منهم باحوالهم . واذا سئل عن دواء لعين رمدت أو ساق قرحت . أو أدرة انتفخت أو اصبع دميت . أو اذا قيل له ما ترى في من كثرت عياله . وقلّ ماله . وعضّه زمانه . وجار عليه سلطانه . فمني بالجوع . وحرم المجوع . واصبح يمشي والناس ينظرون جهوته . ويتجنبون خلطته . ولا يستعملونه ولا يستخدمونه . لما تقرر في عقولهم من ان الفقير لا يحسن عملا . وقد اصبحت اولاده

يبكون و يتضورن . وامرأته تشكو وتسترحم ولا راحم لها لكون شبابها قد ذهب في تربية اولادها . أو قيل له هل عندك من ماوى لضيف عزيز . ماله من نصير . قال ماجئتكم لهذا وانما قدمت اليكم لانظر في انوالكم التى تنسجون عليها بضاعتكم وفي الوانها التى لاتشاكل ماعندى في الخرج من اللون الناصع . وما ان يهمنى النظر فيما فيه راحتكم واني الراحة فيما فيه تعبكم . ولو تعطلت جميع معاملكم لاقتصاركم على لوني الذى ابرزه لكم راموزا وعنوانا واستوجبتم بذلك لوم التجار والحراث والحكام لم يكن عليّ في ذلك من شي . وهذا سوقي يضع احدى عينيه على فم جاره والاخرى على عينيه . ثم يغلّ يديه ورجليه . ويقول له اليوم يجب عليك ان تتنحس .(١) لان شيخ السوق اصبح متخما يشكو وجعا في معدته وامعائه واضراسه وهو نحس . فينبغي ان نجانسه ونمسك معه . لايحل لك لليوم ان تنظر . لان الشيخ المشار اليه اضر به طول السهر البارحة مع ندمائه ونديماته فغدا و باحدى عينيه الكريمتين رمد أو عمش . لايحل لك اليوم ان تعمل بيديك . ولا ان تحرك رجليك . ولا ان تسمع باذنيك . أو تستنشق بمنخريك لان السوق اليوم لم تقم والبياعات لم تنفق . ثم هو اذا قيل له افلا تصلح بين زيد وزوجته فقد خاصمته بالامس بعد ان جاءت من حانوتك العالى وتماسكا بالشعور . وحلفت المرأة لتمنينّه بحيزبون أو لتشكونه الى احد اصحابك الضواطره الكبار . أو ان عمرا التاجر قد حُبس مذ يومين لكونه دان بعض الامراء ولم يمكن له ان يحاكمه ويستوفى منه حقه . ففاسه القاضي واركبه حمارا في الاسواق ووجهه الى دبر الحمار . أو ان فلانا قد مرض ولزم فراشه لانه ناقش بعض خدّام الامير فنكل به الامير ضربا بالعصي على رجليه وصفعا بالنعال على القذال . فغدا لاحراك به وقد ورمت رجلاه وانتفخ قفاه . لم يكن منه الا قوله ما دام السوق وشيخه سالمين فالدنيا كلها ساله . والمصالح مستتبه والسوق مرفوعه وقائمه . والبطون ملأى والافواه لاقمه . والاضراس خاضمه . والمعد هاضمه والايدى غانمه . والافراح دائمه . والخيرات متراكمه . والرؤساء حازمه . والعنايه عاصمه . والقادمات بالنذور متزاحمه . والوقوف شاملة عامه . وثغور الاماني باسمه . والسلامة خاتمه . الى السوق . الى السوق . فهو حرز العلوق . وذخر

---

(١) التنحس ترك أكل اللحم

الحقوق . في الصندوق . في الصندوق . فهو اولى من الصبوح والغبوق . وقد طالما والله امتلأ هذا الصندوق ذهبا وجواهر ثم افرغ على تهاتر وترهات ومباحث فارغة وامور سخيفه . فقد بلغنا ان بعض ضواطرة السوق انفق في مدة ست سنين قضاها بالبحث والجدال على شكل قبّعة كذا وكذا بدرة من المال. وتفصيل ذلك انه نظر نفسه ذات يوم فى المرآة وكان قد تعلم مبادئ الهندسة والهيئة . فراى راسه مدوَّرا كالبطيخة . فراق له ان يتخذ قبّعة مدورة على هيئة راسه . لان المدور يلائم المدور كما تقرر في الاصول . فرآه بعض مزامليه في سوق آخر وكان اعظم منه قدرا ووجاهة واوفر علما . فسخر منه وقال له من وسوس اليك يا ابن قبّعة . حتى لبست هذه القبّعة (١) . مع ان شكل راسك مخروط . فقال له قد ضللت بل هو اكثر استدارة من راسك كما يشهد لى بذلك شيخ السوق . قال كذبت بل هو مخروط وان كنت كثير العَنَس اليه واني اهدى من شيخك واقوم طريقا . قال كفرت وعميت عن معرفة نفسك فانى لك ان تعرف غيرك . قال تبدّعت بل انت عمه كمِه وقد حمقت وسفهت في عدم قبولك النصح . فاليوم ترى الناس المدور من المخروط . والسارط من المسروط . ثم لجّ بينهما العناد وتقابضا بالازياق والجوب والاقلاع . ثم باللجم ثم بالاعراض . فمزق كل منهما عرض صاحبه أي عدوه . ثم صاحا واستغاثا وتشاكيا لدى الحاكم وتباهلا وتهاترا . فلما ثبت للحاكم ان فعلهما فعل الشبازقه (٢) راى ان مداومتهما بغرامة رابية . أولى من حصرهما في الزاوية. فانصرف كل منهما وقد غرم كذا وكذا بدرة . ثم ان الضوطار الاول اتخذ له بعد ذلك قبّعة بين بين. أي نصفها مدور ونصفها مخروط بحيث لا يقدر على تمييزها الا الجهبذ النحرير . والناقد الخبير وآب الى حانوته كمن قفل من غزوة أو امير الدحية . (رئيس الجند) أو كذلك الديك الغالب . واول ما اطل على السوق امر جميع القبّعيين ان يخرجوا لملاقاته بالتقليس لا بالتلقيس (٣) .

---

(١) ابن قبعة وقابعا وصف بالحمق

(٢) الشبزق من يتخبطه الشيطان من المس

(٣) التقليس استقبال الولاة عند قدومهم باصناف اللهو وان يضع الرجل يديه على صدره ويخضع . والتلقيس مبالغة لقسه أي عابه ولقّبه

فخرجوا على تلك الحالة وهم يضجون ويقولون · اليوم عيد القبعة . اليوم يوم الفرقعة . با امّـعه با امّـعه . فبصر بهم اعوان الحاكم في ذلك الصقع فظنوا انهم خلعوا ربقة الطاعة . وشقّوا عصا الجماعه . فبادروهم بالات الازّ والبحز والبخز والبزّ والبغز والبهز والجرز والجلز والحزّ والحفز والخز والدغز والرز والرفز والزز والشخز والشرز والشفز والشكز والضخز والضفز والطعز والعرز والقحز والقلز واللبز واللقز واللزّ واللكز واللمز واللهز والمحز والمرز والمهز والنحز والنخز والنفز والنكز والنهز والوخز والوكز والوقز والوهز والهبز والهرز والهمز والرهز . حتى جعلوهم عبرة للمعتبر . وفرّ الضوطار بقبعته وقد اوقع قومه في الخزى والعار مما اصاب الرجال من الرزء ولحق النساء من الزيادة . ومع ذلك كله فلم يجده شيخ السوق المستعزّ به شيا . بل ظل مكبّا على تعاطي الافيون لطول ارقه وتبييته . وقد سد اذنيه ببعض اوراق دفاتر السوق لئلا يسمع صراخ المستجيرين به أو يوقظه احد من سباته . فهو راقد الى هذا اليوم أي يوم تدوين هذه الواقعة . فان افاق فللقاري ان يقيد ذلك في اخر هذا الفصل فقد تركت له محلا .

انتهت دحرجة الجلمود والحمد لواجب الوجود ·



الفصل الثانى

في سلام وكلام

عمت صباحا يافارياق . كيف انت . وكيف رايت الاسكندرية . هل تبيّنت نسآءها من رجالها فان النسآء في بلدكم لايتبرقعن . وكيف وجدت مآكلها ومشاربها وملابسها وهواها ومآءها ومنازلها واكرام اهلها للغربآء . الم يزل برأسك الدوار . وعلى لسانك هجو الاسفار . قال اما موقع المدينة فانيق لكونه على البحر . وقد زادت بهجة بكثرة الغربآء فيها فترى روس ناس مغطاة بطراطير واخرى بطرابيش . واخرى بكمام وغيرها بعقاعط . واخرى ببرانس وغيرها بعمائم . واخرى بأصناع وغيرها بعصائب .

واخرى بعمارات وغيرها بعداميج . واخرى بنِصاف وغيرها بقُمّات . واخرى بقلانس وغيرها ببراطل . واخرى بسُبوب وغيرها بارصيص (١) . واخرى باراسيس وغيرها بخنابع . واخرى بقنابع وغيرها بدنيات واخرى بصواقع . وغيرها بصمُد واخرى بصوامع . وغيرها بمشامذ واخرى بمشاوذ . وغيرها ببرانيط على شكل الشقيط والشبابيط والضفاريط والضماريط والقلاليط والعضاريط والمذافيط والعماريط والقماعيط . ومنهم من له سراويلات طويلة مفرسخة تكنس ماخلفه وما قدامه ومنهم من لاسراويلات له فمُشطه باد والناس يتمسحون بعمامه . ومنهم من له تبان . ومنهم من له اتب ومنهم بوتر ومنهم بهميان . ومنهم برجل (السراويل الطاق) ومنهم بأندَرْوَرْد ومنهم بدِقرارة أو دَقْرور . ومنهم من يركب الحمير والبغال . وغيرهم على الخيل والجمال والابل في ازدحام . والناس في التطام . فينبغي للسائر بينهم ان لايفتر من الدعاء بقوله اللهم اجِرِ . اللهم احفظ . اللهم الطف . توكلت على الله . استعنت بالله . اعوذ بالله . فاما براقع النساء فهي وان كانت تخفي جمال بعضهن الا انها تريح العين ايضا من قبح سائرهن . غير ان تستر القبيحات اكثر . لان المليحة لايهون عليها اذا خرجت من قفصها ان تطير في الاسواق من دون ان تمكّن الناظرين من رؤية ملامحها . لينظروا حسنها وجمالها ويكبروا لافترارها . فيقولوا ماشاء الله . تبارك الله . جل الله . الله الله . حتى اذا رجعت الى منزلها اعتقدت ان جميع اهل البلد قد شُغفوا بها حبا . فباتت تنظر منهم الهدايا والصلات . والاشعار والمواليات . فكلما غني مغنٍّ انصتت الى غنائه وسمعت اسمها يتشبّب به . فاذا بكرت في اليوم القابل الى الاسواق ورات الناس مكبين على اشغالهم تعجبت من بقائهم اصحاء قادرين على السعي والحركة . فزادت لهم في كشف مسافرها . وقسامتها ومحاجرها . وفتنتهم باشاراتها وايمائها . ورأراتها وايبائها . وبزهها وازهها . وهجلها وغمزها . وغنجها ودلالها . وتيهها وعجبها . وزهوها وشكلها . وتدعبّها وتصعيرها . ودعلجتها اودغنجتها . وتبغنجها ودهمجتها . وشزرها وخزرها . وشنفها وحدقلتها . وشفونها وازلاقها . واستكفافها واستشفافها . واستيضاحها واستشرافها . وخلاعتها وخُيلائها . وتمايلها وتهاديها . وتفدّنها وتعاطفها . وتثنّيها

(١) الارصوصة قلنسوة كالبطيخه

وتأوّدها . وتدكلها وتخوّدها . وتذيلها وتعيّلها . وتفتّلها وتتفتّلها . وتذبلبا وترفلها . وتخترها وتخطلها. وتفخمها وتدهكرها . وتبهكنها وتهذخرها .وتخلمها وتفككها . وميحها وحككها . وتدأدبها وتغطرفها . وتوذفها وتغضفها . ودألها ووهازها . والهاوهوادنها وخيزلاها وخيزراها . وزأباها وأوزّاها . ومُطيطائها وكردحائها . وهبيّخاها وعجيّساها . وهرنباذها وحيداها . وهبصاها وجيضاها . وقنجلاها وهيلاّها . وخبقاها وفقاها . وعرقلاه وهمقاها . وعميثائها وقمطراها . وسبطراها . وتبدحها وتربحها . وخندفها وخزرفها . وخظرفها وبادلها . وبحدلها وبهدلها . وذحذحها وحرقلها . وحركلها وهركلها . ورابلها ورهلها . وقبلها وكسمها . وقندلها وحنكلها . وعردلها وهيقلها . وخذعلها ودربلها . وزيخلها وكوكبها . وكوكوتها ووذوذتها . وذوذوتها وزوزكها . ورهوكتها وفرتكها . ومكمكتها ورهدنها . وكنكتتها وبرقطها . وقرمطها وحرقصها . وزهرمتها وحذلمها . ودعرمتها وزهلقها . وترهيئها وتعمّجها . وتبهرسها ونهرسها . وتغطرسها ونهطرسها . وتكدسها وترهوكها . وبهالكها وهكيلها . وتفركها وتوزّها . وهيّمها وأنُفها . ورسمها وزوفها . وزيفها وهوجلها . وحتكانها وعبكانها . وزيكانها وزوكانها . ورفلانها وملدانها . وزيفانها وزالانها . وريسانها وكنفانها . وبسانها وتزايها . وهمدانيها وتبرطلها . وتعذقلها وتخزلجها . وحققطها واطها . وبهزها وقفزها ونقزها مقبلة مدبرة . وزاد طمعها ايضا في الهدايا قال وقد نظمت في البرقع بيتين ما اظن احدا سبقني اليهما وهما.

لا يحسب الغير البراقع للنسا ... منعا لهن عن التمادي في الهوى
ان السفينة انما تجري اذا ... وُضع الشراع لها على حكم الهوا

فاما رجالها فان للترك سطوة على العرب وتجبرا . حتى ان العربي لا يحلّ له ان ينظر الى وجه تركي كما لا يحل له ان ينظر الى حرم غيره . واذا اتفق في نوادر الدهر ان تركيا وعربيا تماشيا اخذ العربي بالسنّة المفروضة . وهي ان يمشي عن يسار التركي مختشعا خاشعا ناكسا متحاقرا متصاغرا متضئلا قافا متقبضا متقبصا متقفصا متشمصا متحمصا متحرفصا مكبئرا متكاولا متزحا متقرفعا متقرعفا مقرعفا متقفما متكنبشا

مقعنصرا متقوصرا مستزمرا معرنفطا مترنفطا متجعما متجعثنا مرزئما مرمئزا مقمئنا مكبئنا متحنبلا متقاعسا مراعزا مكردحا متضامنا متصعصعا مئزئا مقرنبعا مدنقسا مطرسا مطرمسا متكرفسا متقفشا معقنفشا متحويا معرنزحا متخشلا آزملازبا كانعا كانعا متشاجبا مصعنبا مجربزا مجرمزا متدخدحا . فاذا عطس التركي قال له العربي رحمك الله . واذا تنحنح قال حرسك الله . مخط قال وقك الله . واذا عثر عثر الآخر معه اجلالا له وقال نعشك الله لا نعشنا : وقد سمعت ان الترك هنا عقدوا مجلس شورى استقر رأيهم فيه لدى المذاكرة على ان يتخذوا لهم مركبا وطيئا من ظهور العرب فانهم جربوا سروج الخيل وبراذع الجمال واكفها واقتاب الابل وبواصرها وحصرها وسائر انواع المحامل من

كِفل	مركب للرجال .
وشِجار	مركب يتخذ للشيخ الكبير ومن منعته العلّة من الحركة.
وحِدج	مركب للنساء كالمحفة .
وأجلح	هودج ماله راس مرتفع .
وحوف	شيء كالهودج وليس به .
وقَرّ	مركب للرجال والهودج .
ومحفة	مركب للنساء .
وفرفار	مركب من مراكب النساء .
وحِمل	هودج
وحِلال	مركب النساء .
وكدن	مركب لهن .
وقعش	مركب كالهودج .
ومحارة	شبه الهودج .
وقعدة	مركب لهن .
وكتر	الهودج الصغير.
ومشمرة	ج موائر مراكب تخذ من الحر والديباج

ورجازة	مركب اصغر من الهودج .
وعَرِيش	كالهودج .
وعَبِيط	مركب .
وحِزق	مركب شبيه بالباصر .
وبُلبُلة	هودج للحرائر .
وحِقل	هودج .
وتَوأمة	من مراكب النساء ج تَوْأمات .
وفَودج	الهودج ومركب العروس .

ومن رَحل وعجلة وعرش وشَرجع ومِزفة ومنصّة وسرير ونعش فوجدوها كلها لاتصلح لهم . ورأيت مرة تركيا يقود جوقة من العرب بخيط من الكاغد وهم كلهم يقودون له. استغفر الله مرادي ان أقول ينقادون له ولم ادرِ ماسبب تكبّر هؤلاء الترك هنا على العرب. مع ان النبي صلعم كان عربيا. والقرآن انزل باللسان العربي والائمة والخلفاء الراشدين والعلماء كانوا كلهم عربا. غير اني اظن ان اكثر الترك يجهل ذلك فيحسبون ان النبي صلعم كان يقول شويله بويله او بقالم قبالم او

غطالق قاب خي دلها   طفاقق باق يخ بلها
صفالق باه خشت وكرد   فصالق هاب دركلها
دخا زاوشت قلدي نك   خدا شاوزت قردلها
اشكارهم كبي والله   قلاقلها بلابلها

لا والله . ماهذا كان لسان النبي ولا لسان الصحابة والتابعين والائمة الراشدين رضى الله عنهم اجمعين الى يوم الدين امين وبعده امين . فاما ماوها فما احسن راسه وانجعه. الا انه قذر الذنب تنجسه حيوانات الارض باجمعها . وطيور السماء بجملتها . حتى ان سمك البحر اذا اصابته هيضة طفر الى راس هذا الذنب فالقى فيه ما اثقله. فاما اكلها فالفول والعدس والحمص والزِنّ والدُوسر والقُرَينا والخُرفى والجُلبان والباقلىّ والخُنبُل والدجر والخُلَّر والبُاس والبيقة والترمس والخُرّم والشُبرم واللوبيآ وكل ما يحبنطى به البطن. وذلك ان اهلها لايرون في الخمائص حسنا. حتى ان النسآ

فيما بلغني يتخذن معجونا من الجُمل ويأكلنه في كل غداة لكي يسمنَّ ويكون لهن عُكَن مطويات. واضرَّ ما لا فيت فيها قَنبِعَر قيمار . قدم اليها من بعض البلاد الحميرية وتعرف بجماعة من النصارى فيها . فصار يدخل ديارهم ويسامرهم . فلما لم يجد عند احدهم كتابا اقام نفسه بينهم مقام العالم فقال انه يعرف علم الفاعل والمفعول وحساب الجُمَّل . واتخذ له كتبا بعضها من غير ابتداء وبعضها بغير ختام وبعضها مخروم او ممحو . فكان اذا خاطبه احد في شي عمد الى بعض هذه الكتب ففتحه ونظر فيه ثم يقول . نعم ان هذا الشي هو من الاشياء التي اختلف فيها العلمآ . فان بعض مشايخنا في الديار الحميرية يتهجاه كذا . وبعضهم في الديار الشامية كذا . ولمّا يستقرّ رايهم عليه فاذا استقرّ فلا بد من ان يخبروني به . قال الفارياق وقد سمعت مرة من استفزه باعث من يساله عن الوقت . فقال له ساعة وخمس دقائق اما الساعة فقد اشتق منها الساعي وعيسى . اما الساعي فلكون السعي كله يتوقف على الساعات . اذ لا يمكن لاحد ان يعمل عملا خلوًا من الوقت . فان جميع الافعال والحركات محصوره في الزمان كانحصار — ثم ادار نظره ليشبّهه بشي فراى كوزا لبعض الصبيان . فقال كانحصار الماء في هذا الكوز . ثم راى زنبيلا لصبيّ آخر فقال أو كانحصار غدآ هذا الولد في هذا الزنبيل . واما عيسى فلكونه اشتمل على جميع المعارف والعلوم اشتمال الساعة على الدقائق . ثم ان قولي خمس حقيقة معناه اربعة بعدها واحد أو ثلثة قبلها ثنان ولك ان تعكس . وانما قالوا خمس دقائق ولم يقولوا خمسة طلبا للتخفيف والعجلة في الكلام . فان بطول الالفاظ يضيع الوقت . وقولي دقائق هو جمع دقيقة وهو مشتق من الدقيق للطحين . اذ بينهما شبه ومناسبة بجامع النعومة . ثم ان هنالك الفاظا كثيرة تدل على الوقت وهي المساء والليل والصبح والضحى والظهر والعصر والدهر والابد والحين والاوان والزمن . اما الستّ الاولى ففيها فرق واما الاخيرة فلا . فاعترضه رجل من اولئك الكبرآ وقال قد رابني يا استاذنا ما قلت . فان كلاً من جاريتي وستّها لها فرق . فضحك الشيخ من حماقته وقال له ان كلامي هنا فيما حواه الزمان لا فيما حواه المكان . فساله آخر قائلا اين جامع النعومة هذا الذي ذكرت ان فيه الدقيق . فضحك ايضا وقال اعلم ان لفظة جامع تسمّي عندنا معاشر العلمآ اسم فاعل أي الذي يتولى فعل

شيء ايّا كان . لكني طالما عزمت على ان اناقشهم في هذه التسمية . لان من يموت او ينام مثلاً لا يصح ان يقال فيه انه فاعل الموت او النوم . فقولى جامع على القاعدة المعلومة عندنا هو اسم لمن جمع شيئاً . حتى ان الكنيسة يصح ان يطلق عليها لفظ الجامع لانها تجمع الناس . فلما قال ذلك اكفهرت وجوه السامعين. قال فسمعت بعضهم يجمجم قائلا. ماالظن الشيخ صحيح الاعتقاد بدين النصارى. فقد اصابت اساقفتنا في حظرهم الناس ان يتبحّروا في العلوم ولا سيما علم المنطق هذا الذي يذكره شيخنا . فقد قيل من تمنطق تزندق. ثم انصرف عنه الجميع مدمدمين. وسأله مرة قسيس عن اشتقاق الصلوة. فقال هي مشتقة من الاصلاء. لان المصلي يحرق الشيطان بدعائه. فقال له القسيس اذا كان مأوى الشيطان سقر مذ الوف سنين ولم يحترق فكيف تحرقه صلوة المصلّي. فتناول بعض الكتب ليقتبس منه جواب ذلك واذا به يقول. قال أحد علماء الرهبان . الاحتراق على نوعين. احتراق حسّي كمن يحترق بالنار. ومعنوي كمن يحترق بحب العذرآ ثم وقف وتاوه قائلا. قد أخطأ سيدنا الراهب. لان العذرآ يحب مدّها فقال . القسيس وقد حنق عليه كيف يجب مدّها اذا لم تشأ . قال ويلي عليك انت الاخر لاتعرف المدّ والقصر في الكلام واطفال الحارة في بلادنا يعرفون ذلك. قال بلى ان اقتصار الكلام مع من يخطّئ الرهبان رزية . ثم تولى من عنده مدمدما . قال الفارياق وقال لى مرة قد يظهر لي ان حق استعمال دعا اذا اريد به معنى الصلوة ان يتعدّى بعلى . فيقال دعوت عليه كما يقال صليت عليه . قال فقلت له لا يلزم من كون فعل يوافق فعلا آخر في معناه ان يوافقه في التعدية . فغصّ بذلك ولم يفهمه . وشكا اليه مرة رجل من معارفه اسهالا آلمه فقال له يغالطه او يسلّيه . احمد الله على ذلك ليتني مثلك . قال كيف هو ان طال قتل واسال الجسم كله . فقال له انه منّة من الله . الم تسمع كل ملهوف يقول يارب سهل . فقال التاجر انا ماعنيت التسهيل بل الاسهال. فقال هما بمعنى واحد لان افعل وفعّل كلاهما ياتيان للتعدية . كما تقول انزلته ونزّلته . ولان كلاً من التسهيل والاسهال فيه معنى السهولة . وكتب مرة الى بعض المطارين العظام . المعروض ياسيدنا بعد تقبيل اردافكم الشريفة . وحمل نعالكم المنيفة اللطيفة . الطريفة النظيفة الرهيفة العفيفة الموصوفة المعروفة المحصوفة. قال فقلت له ماأردت بالارداف هنا . فقال

هي في عرف المطران بمعنى الراحة . ثم لم يلبث ان بعث اليه ذلك المطران ببركة وكتاب اطرافيه على علمه وفضائله جدا فمما كتب اليه . قد قدم عليّ مكتوبكم الابنيّ وانا خارج عن الكنيسة فما قرأته حتى دخلت الصومعة واولجت فيها . فلما اتيت على اخراه علمت انك صاحب الفضول . مولف الفصول . جامع بين الفروع والاصول طويل اللسان . قصير اليدان (عن المحرمات) واسع الجبين . عميق الدين . عريض الصدر . مجوف الفكر . وكتب في آخره . أطال الله بقاك . وقباك . وهنّاك ومنّاك . والسلام ختامٌ . والختام سلام . والبركة الرسولية تشملكم اولا وثانيا الى عاشرا . فجعل يبدي هذا الكتاب لجميع معارفه وخصوصا لمن كانوا خرجوا من عنده مغضبين لتقريره على لفظة الجامع . فلما وجدوها في كلام المطران زال عنهم الاشكال والريب في صحة استعمالها . وزاد الرجل عندهم وجاهة وجلالاً . فاما سؤالك عن كرم اهل هذه البلدة فانهم كانوا في ظهور آبائهم على غاية من السماحة والجود . الا انهم لما برزوا الى عالم التجارة وخالطوا اصحاب هذى البرانيط اخذوا عنهم الحرص والبخل واللئامة والرثع . بل برّزوا على مشايخهم . وانهم اذا ضمهم مجلس لم يكن منهم الا الحديث عن البيع والشرآء . فيقول احدهم قد جآني اليوم جنديّ من الترك في الصباح ليشتري شيئاً فتطيرت من صباحه واستفتاحه . اذ لا يخفى عنكم ان الجندي يستدين ولا يقضي دينه. واذا تكرم بنقد الثمن فما يعطي التاجر الا نصفه. فقلت له ما عندي مطلوبك يا افندي . وانما اردت تفخيمه بهذا اللقب ليتأدب معي . فما كان منه الا ان دخل الحانوت وبعثر البضاعة كلها واخذ ما اراد منها ومالم يرد. ثم ولّى وهو يسبني . فيقول آخر وانا ما جرى لي مع سيدة من نسآء الترك واقعة . وذلك انها بكرت عليّ اليوم وهي تنوء بحليّها . واقبلت باسمة اليّ وقالت هل عندك ياسيدى حرير مزركش . قلت وقد استبشرت عندى . فقالت ارنى المتاع فاريتها اياه . فتداركتني بالخف وقالت امثلي يرى هذا . ارني غير ذلك : فاريتها ما اعجبها فاخذته وقالت ابعث معي من يقبض الثمن. فبعثت غلامي فتبعها حتى دخلت دارا كبيرة وامرت حاجبها بضرب الغلام وايلامه. الا ان الحاجب لما كان من الترك ورأى الغلام امرد لم يطاوعه قلبه على ضربه لكن انفذ فيه امر سيدته بما اوصل من الاذى والالم وهكذا ينقضى نهارهم بالمكر وليلهم بذكره . واظن ان

التاجر يطرب بمجرد ذكر البيع والشرآء وان لم يكن فيه ربح فاما ما جرى لى بعد وصولى فانى نزلت عند خرجي من اصحاب صاحبي الاول . فتبوأت حجرة بالقرب من حجرته . فكنت اسمعه كل ليلة يضرب امرأته بآلة فتبدى الانين والحنين . والرنين والخنين . فكان يهيجني فعله الى البطش به . وكثيرا مافكرت في ان اقوم من فراشي لكني خشيت ان يصيبني ما اصاب ذاك الاعجمي المتطبب الذي جاور قوما من القبط • وانه سمع ذات ليلة صراخ مرأة من جاراته فظن ان لدغتها عقرب وذلك لكثرة وجود العقارب في بيوت مصر . فقام الى قنينة دوآء تأبطها واقبل يجرى . فلما فتح الباب وجد رجلا على امرأة يعالجها باصبعه كما هي عادة القوم فلما راى الطبيب ذلك دهش فوقعت القنينة من يده وانكسرت • وكان هذا الخرجي ابيض اللون ازرق العينين مع صغر واستدارة فيهما • دقيق ارنبة الالف مع عوج في قصبته غليظ الشفتين • وانما تكلفت لوصفه لك ليبقى نموذجا عندك تقيس عليه جميع من تراه من الخرجيين وغيرهم • وكان قد اتخذ فوق سطح منزله هرما صغيراً مرصوفا من قنانى الخمر الفارغة . فكان سطحه اعلى سطوح الجيران . قال ثم عنّ له يوما ان يكلفنى انشآء خطبة في مدح الخرج لكي اتلوها في مخطب صغير كان قد استاجره . فلما فرغت منها عرضتها عليه فذهب بها الى قيعر قيمار • فقال له ماذا مرادك ان تصنع بهذه الاحجية الخرجية • قال يتلوها منشئها على الناس فما رايك فيها . قال هي حسنة الا ان عيبها هو ان لا يفهمها احد إلا انا وهو • ونحن قد قرأناها فلا موجب لاعادتها • فعدل عن ذلك . قال واتفق لى وانا مقيم عنده انى خرجت في عشية من عشايا الصيف البهيجة امشى وحدي وبيدي نسخة الدفتر • ولما كان راسي قد حفل بالافكار فيما انا عليه من فرقة الاهل والاحباب وذكر الوطن • والتغرّب عنه لغير سبب من اسباب المعاش سوى لخصام سوقي وخرجي على، قال وقيل • اوغلت في المشى فانتهيت الى ظاهر المدينة وكان يتبعني رجل قد راى نسخة الدفتر فعرفها فاضمر لمينيتني بداهية • فاقبل الىّ يكلمني ثم عطف بى يمنة ويسرة وهو يعللنى بالكلام حتى انتهينا الى مكان خال • فتركني هناك وقال لى ان على ان اقضى هنا مصلحة • فحاولت الرجوع الى مقرّي واذا بسرب عظيم من الكلاب جرت وهي تنبحني ودنت مني • فهوّلت عليها بالكتاب فهجمت عليّ هجمة السوقى

على الخرجي . ثم تحاصوا جسمي وثيابي والكتاب فبعضهم عضّ . وبعضهم أدمى وبعضهم جرّ . وبعضهم تهدّد في المرة الثانية . فما كدت أتملّص من بين ايديهم الا وثوبي وجلدي ممزق على ممزق . وقد مزّق الدفتر ايضا اوراقه وجلده . فلما رجعت الى منزلي ورأني الخرجي على هذه الحالة لم يكترث بشاني أو انه لم يرني من فرط اشتغاله بالخرج . وانما علم اني رجعت خلوا من الدفتر فاعتقد اني اعطيته لاحد . ففرح بذلك جدا ورغب في ان يجعلني عنده في مصلحة خرجية . لكن راى من الواجب ان يشاور صاحبه فمن ثم كتب اليه في شاني . فابى ذلك وقال لابد من تسفيري الى الجزيرة . لان النية استقرت على هذا من قبل . وما حسن تغيير النيات . فعزم مضيفي على اجرآء ذلك وها انا منتظر السفينة .



الفصل الثالث

في انقلاع الفارياق من الاسكندرية

من نحس صاحبنا انه عند سفره الى تلك الجزيرة لم تكن خاصّية البُخار قد عُرفت عند الافرنج . فكان سفر البحر موكولا الى الريح ان شاءت هبّت وان شاءت لم تهب . كما قال الصاحب ابن عباد

فانما هي ريح لست تضبطها   اذ لست انت سليمن بن داود

فمن ثم ركب الفارياق في سفينة ريحية من هذا النوع وكان في مدة السفر يتعلم بعض الفاظ من لغة اصحاب السفينة مما يختص بالتحية والسلام . من جملة ذلك دعآ يقولونه عند شرب الخمر على المائدة وهو قولهم طابت صحتك . الا ان لفظ الصحة عندهم يقرب من لفظ جهنم فكان يقول طابت جهنمك . فكانوا يضحكون منه وكان هو يسبّهم بقلبه ويقول . قاتل الله هؤلآء العلوج انهم يقيمون في بلادنا سنين ولا يحسنون النطق بلغتنا . فيلفظون السين اذا سبقها حركة زايا وحروف الحلق وغيرها محالة ونحن لا نضحك

منهم . وقد سمعت ان بعض قسيسيهم الذين لبثوا في بلادنا سنين رام مرة ان يخطب في القوم فلما صعد المنبر ارتج عليه ساعة الى ان قال . « يها الكوم كد فات الوكت الان ولكني اهتب فيكم نهار الاهد الكابل ان شاء الله » . ثم سار الى بعض معارفه من اهل الدراية والعلم والتمس منه ان يكتب له خطبة يحفظها عن ظهر قلبه أو يتلوها تلاوة . وحشد الناس اليه فلما غصت بهم الكنيسة صعد المنبر فقال « بسم الله الرهمن » ثم كانه انتبه من غفلته وعرف ان ذلك لا يرضي النصارى وان الكاتب انما كتب ذلك على طريقته . فاستدرك كلامه وقال . لا لا ما بدبش اكول مسلما يكول

« الاسلام بسم الله الرهمن الرهيم بل كما تكول النسارى بسم الاب والابن

« والروه الكدس. يا اولادي المباركين الهادرين هنا لسماه هتبتي. وكبول نسيهتي

« وموهزتي. ان كنتم هدرتم وكلبكم مشكول بلزات الآلم . اهبروني هتي اكسر

« من هتابكم فلا يتدجرا هد من تُوله ولا يتالم . والا فهزي فرسة سنهت لي اليوم.

« از كر فيها النساء والرجال بز كبرمن لا يكشي اللوم. وانزرهم يوم الهشر والهساب.

« يوم لا ينفع مال ولا اسهاب . ولا سهال ولا جواب. ايلموا رهمكم الله ان الدنيا

« زايله. ومتامهها باتله . وهالاتها هايله . وبهاليها سافله فكونوا منها على هزر. ولا

« يدلكم ما آجب منها وماسر . اسرفوا انها نزدكم ولا تالكوا بها ونركم .

« افهسوا فيها كابكم كبل ان تسندوا روسكم الى المهدة . وازبوا الى السلوات في

« الديك والشدة . كدموا للكنايس نزوركم ولو كليله واتهينو بالكديسين هال

« الفتيله. لتنكزوا من المهن والمسايب. وتتفسوا من الكرب والنوايب (١) اهترموا

« كسيسيكم واساكفتكم وكرموا كتدوا بهم . واركبوهم ولاهز وهم ترشدوا

« بسايهم وركسهم ودابهم يا ايها النسارى ان ديننا هو الهك . وواده هو الاسدك .

« وكبره هو الاكدك وسوكه هو الانفك. لا تنكالتوا هولاء الكرجيين. الزين اندسوا

« فيكم مزهين. يتزبون في ادلالكم عن الزرات المستكيم . بما يزهرون لكم من الورا

« والكلك الهايم . الا انهم هم الزياب الكانفة المتردية بلباس الهملان. الجايلون في كل

« كشر وسك ينسبون الينا الزيك والبهتان. وهم ازيك من سلك تريكا. واكرب

---

(١) الكرنب مصحفة عن الكرب

« من كشّ سديكا . وكان رفيكا . الى ان قال أيها الكاركون في بهار الهتايا . نجنبوا اما
« يهدي بكم اليهافان آكبتها اليكم بلايا ورزايا . ألا فاسرموا أزبابها سرماً . وكاوموا أركابها
« أزما . واستاسلوا جزرها رهزا . واكلاوا مكويّاتها تنالوا ركزاً . الازباب الازباب
« فاكتاوا الازباب حتى تهلسوا في يوم الهساب . من الكساس والازاب (أي اقطعوا
الاسباب حتى تخلصوا في يوم الحساب من القصاص والعذاب) ومع ذلك فلم يصفعه أحد من
السامعين بل استمر الى آخر الخطبة على هذا النمط . الا ان امرأة لبيبة كانت قد تزوجت
مذ عهد قريب لما سمعت الفقرة الاخيرة غضبت وقالت : ألا لا بارك الله في يوم رأيت
فيه وجوه هولآء العجم فقد احتكروا خيراتنا وأرزاقنا . وأفسدوا بلادنا وسابقوا ناسنا
الى تحصيل ازبّهم من أرضنا . وعلّموا من عرفهم منا البخل والحرص والطيش والسفاهة
وما لعمري حصلوا على هذا الغنى الجزيل الاّ لجشعهم وشحهم . فقد سمعنا ان الرجل
منهم اذا جلس على المائدة مع أولاده يأكل اللحم ويرمي بالعظام اليهم ليتمششوها
ولكونهم حراميّين غبّانين في البيع غشاشين . وقد بلغني ان اخوانهم في بلادهم أنجس
منهم وأفسق . وهذا النحس الآن يغري بعولتنا بارتكاب الفاحشة لتخلو له الساحة
فيفعل مايشاء . فاني أعلم علم اليقين ان هولآء المنابريّين انما يقولون بافواههم ما ليس
في قلوبهم . وانهم ليعلّمون الناس الزهد في الدنيا والجبّ وهم احرص الثقلين عليها
واقرم الخلق الى البعال . فما جزآؤه الان إلا قطع لسانه حتى يعرف الم القطع . لعمري
ان الانسان لا يهون عليه احيانا ان يقلّم اظفاره لكونها منه . ولذلك كانت اخواتنا نساء
الافرنج يربّين اظفارهن ويفتخرن بها مع انها لا تلبث ان تنبت . فكيف يجوز قطع
ما يعمّر به الكون (طيّب الله انفاسك يا حديثة عهد بالزواج وعتيقة نقد للاعلاج
ليت النسآء كلهن مثلك وليتني الثم شفتيك) ثم لما خرج القسيس من الكنيسة لاذ
بالناس جميعا اهرعوا لتقبيل يده وذيله وشكروه على ما افادهم من المعاني البديعة قطع
النظر عن غيرها . لما تقرر في عقولهم من ان من خواص دين النصاري ان تكون كتبه
ركيكة فاسدة ما امكن . لان قوة الدين تقتضيه لتحصل المطابقة كما افاده المطران
اثناسيوس التتونجي الحلبي البُشكاني الشلاقي الشوتقي الاتقافي النشافي المقشفي
المطّاعي النطّعي المصنوي الحتفلي الارشمي الشرتمي القدبحي التخمي

الاصمعي في بعض مؤلفاته المسمّى بالحكاكه في الركاكه . قال الفارياق واذ قد ابتلاني الله بعشرة هولاء اللئام فلا بد لي من مجاملتهم ومخالقتهم الى ان يمنّ عليَّ بالنجاة منهم . قلت وحيث قد مرّ ما قاله الفارياق في سفرته الاولى فلا موجب الان لاعادة ذكر شكواه هنا من الم البحر . وانما نقول انه في خلال معاناته ومقاساته حلف لا يركبنّ بعدها في شيء من مراكب البحر . من

الجُفاَ	السفينة الخالية ذكره صاحب القاموس في المهموز .
والمِرْزاب	السفينة العظيمة أو الطويلة .
والزَّبْزَب	ضرب من السفن .
والبارجة	السفينة الكبيرة للقتال .
والخليج	سفينة صغيرة دون العَدَوْليّ .
والطرّاد	السفينة الصغيرة السريعة .
والمُعبَّدة	السفينة المقيَّرة .
والغامد	السفينة المشحونة كالآمد .
والدَّسْراء	السفينة تدسر الماء بصدرها ج دُسُر .
والزُّرْزُور	المركب الضيّق .
والزَّنبَريّ	الضخم من السفن .
والقُرْقور	السفينة الطويلة او العظيمة .
والكار	سفن منحدرة فيها طعام .
والهُرْهور	ضرب من السفن .
والقادس	السفينة العظيمة .
والبُوصيّ	ضرب من السفن .
والصالفة	السفينة الكبيرة .
والسُّنبُوغ	السفينة الطويلة السريعة الجرى البحرية ويقال لها الدونيج معرّب .
وذات الرَّفيف	سفن كان يعبر عليها وهي أن تنضّد سفينتان أو ثلث للملك .
والشُّقدُف	مركب م بالحجاز .

والحَرّاقة	ج حَرّاقات سفن فيها مرامي نيران .
والزَوْرَق	السفينة الصغيرة .
والبُراكيَّة	ضرب من السفن .
والعَدَوْليَّة	سفن منسوبة الى عدَوْلى‌ة بالبحرين أو — .
والجَرْم	زورق يمني .
والجِنّ	السفينة الفارغة .
والشَوْنة	المركب المعدّ للجهاد في البحر .
والتَلَوّى	ضرب من السفن صغير ذكره في ت ل و .
والجُفاية	السفينة الخالية ذكره في ج ف ى .
والخَليَّة	السفينة العظيمة او التي تسير من غير ان يسيّرها ملاّح او التي يتبعها زورق صغير .
والشَذا	ضرب من السفن .
والرِكْوة	الزورق الصغير .
والقارب	السفينة الصغيرة
والرَمَث	خشب يضم بعضه الى بعض ويركب في البحر .
والطَوْف	قِرَب ينفخ فيها ويشد بعضها الى بعض كهيئة السطح يركب عليها في الماء ويحمل عليها .
والعامَة	عيدان مشدودة تركب في البحر ويعبر عليها في النهر ويقال لها ايضا العامّة .

وانه بعد وصوله الى مرسى الجزيرة اعدّ له فيه مكان حسن لتطهير انفاسه بمدة اربعين يوما . اذ قد جرت العادة عندهم بان من قدم اليهم من البلاد المشرقية وقد استنشق هواها فلا بد وان يُنشره في المرسى قبل دخوله البلد . فاقام فيها يأكل ويشرب مع اثنين من اعيان الانكليز ممن ركبوا في السفينة . وطاب له العيش معهما لانهما كانا قد ساحا في بلدان كثيرة من المشرق واخذا عن اهلها الكرم . ثم بعد انقضاء المدة جاء الخرجي واخذه الى منزله بالمدينة . وكان المذكور قد فقد زوجته من يوم نُوى تسفير الفارياق اليه . فلزم الحداد والتقشف . ولزمته الكآبة والتاسف . وان لا يأكل غير

لحم الخنزير اعلى الله شأنك عن ذكره. وانما امر طباخه بأن يتفنن فيه. فيوما كان يطبخ له رأسه. ويوما رجليه. ويوما كبده. ويوما طحاله. حتى يأتي على جميع آرابه ثم يستأنف من الرأس. وانت خبير بان نصارى الشام يحاكون المسلمين في كل شيء ماخلا الامور الدينية. فمن ثم كان لحم الخنزير عندهم منكرا. فلما جلس الفارياق على المائدة وجاء الطباخ بارب من هذا الحيوان الكريه ظن ان الخرجي يمازحه باراءته اياه شيئا لم يعرفه. فامتنع ان يأكل منه طمعا في ان ينال من غيره. واذا بالخرجي قضى فرض الغداء وشرع حالاً في الصلوة والشكر للباري تعالى على مارزقه. فقال الفارياق في نفسه قد أخطأ والله صاحبي. فانه وضع الشكر في غير موضعه اذ الثناء على الخالق سبحانه لاجل فاحشة أو اكل سحت لايجوز. وفي اليوم الثاني جاء الطباخ بعضو آخر. فالتقمه وشكر عليه ايضا. فقال الفارياق للطباخ لمَ يشكر الله صاحبنا على اكل الخنزير. قال ولمَ لا وقد اوجب على نفسه ان يشكر له على كل حال وعلى كل شيء كما ورد في بعض كتب الدين. حتى انه كان يقضي هذا الفرض بعد ان يبيت مع زوجته. قال وهل شكر له على موتها. قال نعم فانه يعتقد أنها الان في حضن ابراهيم. قال اما انا فلو كان لي امراة لما اردت ان تكون في حضن احد. ثم ان دولة الخنزير اعتزت وعظمت. ومصارين الفارياق ضويت وذوت. فكان يقضي النهار كله على الخبز والجبن. ثم بلغه ان خبز المدينة يعجن بالارجل ولكن بارجل الرجال لا النساء فجعل يقلل منه ما امكن. حتى اضرّ به الهزال. وصدئت اضراسه من قلة الاستعمال. فوقع منها اثنان من كل جانب واحدٌ. وهذا اول انصاف فعله الجوع على وجه الارض. اذ لو كانا وقعا من جانب واحد لثقل احد الجانبين وخفّ الاخر فلم تحصل الموازنة في حركات الجسم. اما المدينة فان القادم اليها من بلاد الشرق يستحسنها ويستعظمها. والقادم اليها من بلاد الافرنج يحتقرها ويستصغرها. واعظم ماحمل الفارياق فيها على العجب صنفان صنف القسيسين وصنف النساء. اما القسيسون فلكثرتهم فانك ترى الاسواق والمنازه غاصة بهم. ولهم على روسهم قبعات مثلثة الزوايا لاتشبه قبعات السوقيين في الشام. وسراويلهم اشبه بالتبابين فانها الى ركبهم فقط. وسيقانهم مغطاة بجوارب سود. والظاهر انها عظيمة لان جميع القسيسين في هذه الجزيرة معلفون سمان. وقد جرت العادة عندهم ايضا بان القسيسين واهل

الفضل والكمال من غيرهم يحلقون شواربهم ولحاهم . وانما يجب على القسيسين خاصة ان يلبسوا سراويلات قصيرة مزنقة حتى يمكن للناظر ان يتبين ما وراها . فاما النساء فلاختلاف زيهن عن سائر نساء البلاد المشرقية والافرنجية . ولان كثيرا منهن لهن شوارب ولحى صغيرة ولا يحلقنها ولا ينتفنها . وقد سمعت ان كثيرا من الافرنج يحبون النساء المتذكرات . فلعل هذا الخبر الغريب بلغ ايضا مسامعهن . كيف لا واهواء الرجال لاتخفى عن النساء . والحسن فيهن قليل جدا . وانقيادهن الى القسيسين غريب . فان المراة منهن تؤثر قسيسها على زوجها واولادها واهلها جميعا . ولا يمكن ان تتخذ طعاما فاخرا من دون ان تهديه باكورته حتى اذا اكل منه اكلت هي . وقد بلغني ان امراة سوقية متزوجة أي من حزب شيخ السوق رأت رجلا جميلا من الخرجيين فاستخسرته فيهم . وقالت لو دخل هذا الرجل كنائسنا لزادت به بهجة ورونقا . فارسلت اليه عجوزا تدعوه اليها فلبى الفتى دعوتها . لان عداوة السوقيين والخرجيين انما هي مقصورة على الضواضره والنجشيين والمحترفيين لا مبلغ لها عند الرجال والنساء . ففاضت معه في الحديث الى ان قالت له ان كنت تتبع طريقتنا فاني امكنك من نفسي ولا امنع عنك شياء . فقال لها الشاب اما الذهاب الى الكنيسة فاهون مايكون علي لكونها قريبة من منزلي . واما الاعتقاد فكليني الى نيتي . فاني آنف من هذا الاعتراف الذي يكلفكم به القسيسون من اهل كنيستكم . وليس من طبعي الكذب والتدليس حتى اعترف للقسيس بالصغائر واكتم عنه الكبائر . كما يفعله كثير من السوقيين . او اذكر له ما لم افعله واخفي عنه مافعلته . فتاوهت المراة عند ذلك واطرقت وهي تفكر وتحرك راسها . ثم قالت لا بأس انا ليكفينا منك الظاهر كما افادنيه قسيسي . ثم تعاقا وتعاشقا وجعل يتردد عليها وعلى الكنيسة معا . حتى ان الزواني في هذه الجزيرة متهوسات في الدين . فانك تجد في بيت كل واحدة منهن عدة تماثيل وصور لمن يعبدونه من القديسين والقديسات . فاذا دخل الى احداهن فاسق ليفجر بها قلبت تلك التماثيل فادارت وجوهها الى الحائط لكيلا تنظر ماتفعله فتشهد عليها بالفجور في يوم النشور . قال ومن خصائص اهل هذه الجزيرة انهم يبغضون الغريب ويحبون ماله وهو غريب . فان مال الانسان عبارة عن حياته ودمه وذاته . حتى ان الانكليز

اذا سالوا عن كمية ما يملكه الانسان من المال قالوا كم قيمة هذا الرجل . فيقال قيمته مثلاً الف ذهب . فكيف يتأتّى لاحد ان يبغض آخر ويحب حياته . وانهم يتجاذبون كل غريب قدم اليهم . فياخذه واحد منهم بيده اليمنى ليريه النساء . ويمسكه الآخر بالاخرى ليريه الكنائس والدولة لمن غلب . ومن خصائصهم ايضا انهم يتكلمون بلغة قذرة طفسة منتنة بحيث ان المتكلم يُشَم منه رائحة البخر اول مايفوه . والرجال والنساء في ذلك سوآ . واذا استنكهت امراة جميلة وهي ساكتة نشيت منها عرفاذكيا. فاذا استنطقتها استحالت الى بخر . ومنها انه اذا اصيبت احدى النساء بدآء في احد اعضائها ذهبت الى الصائغ وامرته بان يصوغ لها مثال ذلك العضو من فضة او ذهب لتهديه للكنيسة . ومن كانت معسرة صاغته من الشمع ونحوه . ومن ذلك ان حلق اللحى والشوارب مندوب وحلق ماسواهما محرّم . حتى ان القسيسين يلحّون على النساء في السوال كثيرا حين يعترفن لهم عن قضيتي النتف والحلق ويحرزونهن من ارتكاب ذلك . ومنها ان لاهل الكنائس عادة ان يخرجوا في ايام معلومة بما في كنائسهم من الدمى والتماثيل على ثقلها وضخمها . يحملونها على اكتاف المتحمّسين في الدين فيجرونها في الشوارع وهم ضاجّون . واغرب من ذلك انهم يوقدون امامها الشموع حين يودّ كل انسان ان يأوي الى كهف في بطن الارض من شدة توهج الشمس . وغير ذلك كثير مما حمل الفارياق على العجب . لان اهل بلاده مع كونهم سوقيين ولهم حرص زائد على عداوة الخرجيين لايفعلون ذلك . ورجح ثبت عنده ان الخرجيين هم على الهدى الّا في اكل الخنزير . وان السوقيين على ضلال ماعدا استحسان نسائهم لغيساني الخرجيّين. الا انه ليس من طريقة في الدنيا الا وفيها مايحمد وما يذم . وان الانسان تراه في بعض الامور عاقلا رشيدا وفي غيرها جاهلا غويّا . فسبحان المتصف وحده بالكمال. وانما ينبغي للناقد المنصف ان ينظر الى الجانب الانفع ويقابله بغيره . فان رأى نفعه اكثر من ضره حكم له بالفضل . لا ان يمنّي نفسه بأن يجد شيئا من الاشياء كاملا قال الشاعر

ومن ذا الذي ترضى سجاياه كلها　　كفى المرء نُبلاً ان تعد معايبه

هذا وكما ان الجوع اسقط من فم صاحبنا الضرس المستجيع ضرسين . كذلك اسقطت

مشاهدة تلك الامور من راسه اعتبار السوقيين و بني عمّهم من كلا جانبي الدين والرشاد . فظهر له ان افعالهم احرى ان تكون افعال المجانين . فلهذا ضاق صدره في بلادهم وعيل صبره . مع احتياجه الى الطعام الطيّب الذي كان الفه في الشام والى لباس يليق به . فان الخرجيّ افاده ان المقدّدين على السلع الخرجية لا ينبغي لهم التحفّل بالملبوس. اذ المقصود من الخرج انما هو حمله فقط . مع ان السوقيين يحسبون ان الخرجيّين يستجلبون اليهم المقددين بالمال والهدايا . فلهذا كان الفارياق دائم الحزن والاسف . فلم يمكنه وقتئذ ان يتعلم لسان الخرجيين وانما تعلم منهم بعض الفاظ تخصّ ترويج السلعة فقط . هذا وقد كان عند الخرجي المذكور خُرَيْجيّ لئيم . شكس الاخلاق اصفر الوجه . ازرق العينين دقيق ارنبة الانف كبير الاسنان . راى الفارياق يوما ينظر من طاقة له الى سطوح الجيران فنزغه الشيطان ان يسمّر الطاقة . فلما رآها الفارياق مسمرة تفأل بانها خاتمة النحس . وهكذا كان . فانه مرض بعدها بايام قليلة فاشار الطبيب على الخرجي بان يسفره الى مصر . فسافر من ثم ومعه كتاب توصية الى خرجي آخر .



الفصل الرابع

في منصّة دونها غصّة

ما زال البحر بحرا . ما برحت الريح ريحا . ما انفك طالع الفارياق هابطا . ما فتيء لسانه فارطا . فلما بلغ الى الاسكندرية وجد في محل الخرجي القديم خرجيا آخر قد دخل في مضايق ذميمة لم يرض الشيخ خليل بن ايبك الصفدي ان يدخل فيها . فتخلّف عن تقدمه وخبثت ريحه بين اقرانه . والحامل له على ذلك انه راى هوآ البلاد شديد الحرارة عليه . فارتأى ان يتخذ له هرمين يتسلقهما حين يحتر كما ان سلفه اتخذ هرما من الدنان . فافرغ عليهما من اللجين ما يسيل به واد . فشاع اسرافه هناك وملّه اصحابه ثم سافر الفارياق من الاسكندرية الى مصر وادى كتاب التوصية للخرجي . فانزله في

دار رفيق له وكانت محاذية لدار رجل من الشاميّين كان يجتمع عنده كل ليلة جماعة من المغنّين والعازفين بالات الطرب . فكان الفارياق يسمع الغنآ من حجرته . فهاج به الوجد والغرام . وتذكر اوقاته بالشام . وحنّ وصبا الى مجالس الأُنس . وخيل له انه انتقل من عالم الجن الى عالم الانس . ولسفرت له الدنيا عن لذات مبتكرة . وشهوات مدّخرة . وافراح صافية . واماني وافيه . فنسي ما كابده في البحر من الدُوار والفواق وفي الجزيرة من الجوع وتسمير الطاق . وما اصابه من بحُح التغديد . وترح التقليد . ورأى لدولة مصر بهجة ورونقا . وفي عيشها رغدا مغدقا . فكأن الناس كلهم معرسون . اومفاخرون ومنافسون . ولنسائها كياسة وظرفا وجمالا . واطفا ولينا ودلالا . وتيها واختيالا . يخطرن في الطرق بالحبر كالمنشئات . فيجعلن مجموع الهمّ على القلب في شتات . وما انا بأول واصف لهنّ انهن خلاّبات للعقول . غلاّبات للفحول . فقد وصفهن بذلك كل ناظم وناثر . وذكر محالهن كل من حاولهن من الاكابر والاصاغر . وفي المثل السائر . تراب مصر من ذهب . وغيدها نعم اللعب . وانها لمن غلب . واعجب مايرى من احوالهن . حين يخرجن من حجالهن . ويتفلّتن من عكالهن . ماذا ركبن الحمير الفارهة العاليـة . واستوينا فوقها على منصّة مضمخّة بالغالية . فترى عَرفهن قد ملأ الخياشيم . وحوَر اعينهن يذكّر الناس بحور جنات النعيم . فكل من ينظر حورية منهن يكبّر عند رؤيتها . ويستصغر الدنيا بجمال طلعتها . ومنهم من يهلّل لالتفاتتها . ويسبّح عند حركتها . ومنهم من يتمنى ان يكون ممسكا بركابها . او ماسا لجلبابها . او حاملا لنعالها . اورافعا لاذيالها او بطانة لحبرتها . او بوابا لحجرتها . او رسولا بينها وبين عاشقتها . او تبعا لتبعها ومرافقها . او مشّاطا يسوّى فرقها . اوخياطا يرقع خرقها . او صائغا يصوغ لها سوارا . او حدّادا يصنع لها مسمارا . او بلأنيا يدلك بدنها . او هنأ آخر يداني هَنـها . وهي من فوق تلك المنصّة تتعزّز وتتمنع . وتشفن وتتطلّع . فترمي هذا بنظرة فتدميه . وذاك بغمزة فتُصبيه وتسبيه . فتعطل على التجار اشغالهم . وتبلبل من ذوي البطالة بالهم . حتى كأن الحمار من تحتها يعرف قدر من حمل . ويدري ماغرض من كبّر لرويتها وهلّل . فهو لاينهق ولا يسمع له شخير . ولايكرف كسائر الحمير . بل يسمد على الخيل كبرا . ويمشي الخيلاء زهوا . وفخـرا . اما قائد الحمـار فانه يرى ان قائد الجيش دونه

في المنزلة . وان الناس لفي افتقار اليه فهو الذي لا بدّ له من عائدوصلة . كيف لا وهو الموصوف بالسياسة . والقيادة والفراسة . وهنا قضية نسيت ان اذ كرها . فلا بد من ان اقيدها . في هذا الموضع واحررها . وهي ان القلوب برؤية المتبرقعات . اولع منها برؤية المسفرات وذلك ان العين اذا رأت وجها جميلا وان يكن رائعا شائقا غايته ما يمكن فان المخيلة تستقر عليه وتسكن . فاما عند تبصر الوجه المحجوب . مع اعتقاد القلب بان صاحبه من الجنس المحبوب . ولا سيما اذا قام الدليل عليه بحلاوة العينين . وبالهَدب وبزجج الحاجبين . فان المخيلة تطير بالافكار عليه ولا تجد لها من أمَد تنتهي اليه . فيقول الخاطر (انتهي السجع لانه ملأ الصفحة) لعل هذا الوجه

أُثْعُباني	الاثعبان والاثعباني الوجه الفخم في حسن و بياض
او ذوانسبات	يقال في وجهه انسبات اي طول وامتداد .
او هومُصفح	المصفح من الوجوه السهل الحسن .
اومُشمعدّ	المشمعد من الوجوه الظاهر البَشَرة الحسن السَحْنة .
او مدنّر	يقال دنّر وجهه تدنيرا تلالا .
او ملوّز	الملوّز من الوجوه الحسن المليح .
او مخروط	المخروط من الوجوه مافيه طول
اوساجِع	الساجع الوجه المعتدل الحسن الخلقة
اوعَنْدَمي	الوجه الحسن الاحمر
او فَدْغم	الفدغم الوجه الممتلي الحسن
او ذوكلثمة	الكلثمة اجتماع لحم الوجه بلا جهومة
او مَسنون	يقال رجل مسنون الوجه مما سه حسنه سهله

ولعله جامع لجميع سمات الوسامة فاشتمل على خدين اسيلين اسجحين او مكذلين وفي كل خدّ اذا ضحكت غمزة او هزمة او شَجْرة او عَكْوة اوغُرْمة اوفحصة اوفيهما

علطة	العلطة واللعطة سواد تخطه المرأة في وجهها زينة

أو في كل منهما خال عمّ حسنه . وعزّ فتنه

او فيهما او في احدهما خداد (ميسم في الخد) او ترخ الشرط اللين) .

او وَحْص او عُد اوظَبْظاب. الوحص بثرة تخرج في وجه الجارية المليحة والظبظاب
بثر في وجوه الملاح ومثله العُدّ .
واشتمل ايضا على ثغر منصَّب . ذي شَنَب ورَتَل وحَبَب . ثغر منصب مستوى
النِبتة والشنب مآ ورقة وبرد وعذوبة في الانسان او نقط بياض فيها
او حدّة الانياب كالغَرْب تراها كالمنشار والرَتَل بياض الاسنان وكثرة
مائها والحَبَب تنضد الاسنان وما جرى عليها من الماء كقطع القوارير .
او على تفليج في ثنايا من الدرّ . ذات أُشُر ووَشْر أُشُر الاسنان واُشَرها التحزيز
الذي يكون فيها خلقة اومستعملا يقال اشرت المرأة اسنانها واشّرتها والوشر
تحديد المرأة اسنانها وترقيقها .
او ان لها عِتْرة . تتهالك في حبّها عِتْرة . العِترة أُشَر الاسنان ودقة في غروبه
ونقاء وماء يجري عليه— والريقة العذبة وهي ايضا نسل الرجل ورهطه وعشيرته
الادنون ممن مضى وغبر .
او ان بذقنها نونة تعوذ بسورة ن . او ان شفتها ريّا او حوّاء او نكِعة. او ان فيها
لَعَسا او ذَبيا . او يتصبّب منها العسل تصبّبا .
او ان فيها تُرْملة. تشفي من الوله . الترملة النقرة في ظاهر الشفة العليا والنكعة من
الشفاه الشديدة الحمرة .
اوان في طُرْمتها طِرْما. الطُرمة النبرة وسط الشفة العليا والطرم الشهدوالزبدوالعسل.
او انّ لها تُرْفة . اشهى واعزّ من الترفه. الترفة هنة ناتئة وسط الشفة العليا خلقة وهي
ايضا النعمة والطعام الطيب والشيء الطريف تخص به صاحبك .
او ان لها عُرْعُرة . على مثلها تهون الغرغرة . العرعرة مابين المنخرين او خَوْرَمة .
تطيب بها النفس عن الخُرَّمة . الخورمة مقدم الانف اومابين المنخرين والخُرَّمة
واحدة الخُرَّم وهو نبت كاللوبيا بنفسجي اللون شمه والنظر اليه مفرح جدا
ومن امسكه معه احبّه كل ناظر اليه ويتخذ من زهره دهن ينفع لما ذكر.
او نَثْرة . عليها تنثر البدرة . النثرة الخيشوم وما والاه او الفرجة بين الشاربين
حيال وتَرة الانف .

اوان لمواعفها غَفَرا . يكسر شوكة الاجرا .   المراعف الانف وحواليه والغفر زئبر الثوب .

اوان لها خُنَعُبة . تشدّ العظام الوَرِبة . الخنعبة النونة او الهنة المتدلية وسط الشفة العليا او الشق مابين الشاربين حيال الوترة ويقال فيها ايضا الخُنْبعة .

اوعَرَتْبة . تصح بها القلوب الوصبة .   العرتبة الانف او ما لان منه او الدائرة تحته وسط الشفة او طرف وترة الانف .

او عَرْتَمة . هي للحسن سمة . العرتمة مقدم الانف او ما بين وترته والشفة أو الدائرة عند الانف وسط الشفة العليا ومثلها الهرثمة .

اوان على ملامظها وملاغمها لَغما . ينفي سَدَما . ويشفي سقما . الملامظ ماحول الشفة والملاغم ماحول الفم كالملامج واللغم الطيب القليل .

او لعل لها نَبْرة هي تمام النضرة . النبرة وسط النقرة في ظاهر الشفة والنضرة الحسن.

او تُفْرة . يطيل الصب عليها زفرة .   التفرة مثلثة الاول النقرة في وسط الشفة العليا .

او حِثْرمة . تذر القلوب بها مغرمة . الحثرمة الدائرة تحت الانف وسط الشفة العليا او الارنبة او طرفها .

او وَتيرة . تفدى بالف وثيرة .   الوتيرة حجاب مابين المنخرين .

او ان لها خيشومة يبرئ كمها . ويطرى وَمْها .   الخيشوم من الانف مافوق نخرته من القصبة وما تحتها من خشارم الراس والومه شدة الحرّ .

او قسامه . يعفي بها العاشق اقسامه   القسامة الحسن والوجه — او الانف وناحيتاه او وسط الانف الخ .

او ان لها ذَلَفا يصحّ دنفا الذلف صغر الانف واستواء الارنبة او صغره في دقة او غلظ واستواء في طرفه ليس بحدّ غليظ .

او خَنَسا تغيب له الخنّس.   الخنس تأخر الانف عن الوجه مع ارتفاع قليل ف الارنبة وهي خنساء والخنّس الكواكب كلها او السيّارة .

او كان انفها مُصفحا .   المصفح من الانوف المعتدل القصبة .

او اشمّ . الشمم ارتفاع قصبة الانف وحسنها واستواء اعلاها وانتصاب الارنبة.

او ان به قَنًى . قنى الانف ارتفاع اعلاه واحد يداب وسطه وسبوغ طرفه او نتوء وسط القصبة وضيق المنخرين هو اقنى وهي قنياء .

او ان به غُرْضَين . يلهيان عن التغريض والسُّجَين . غرضا الانف ما انحدر من القصبة من جانبيه جميعا والتغريض اكل اللحم الغريض والتفكه .

او ان لها ناظرين . نفديهما بالناظرين . الناظران عرقان على حرفي الانف . او ناحرتين . نذيل لهما النحور والمقلتين . الناحرتان عرقان في اللَّحى وضلعان من اضلاع الصدر او هما الواهنتان والترقوتان .

او حافزا . يشرح قلبا حازا . ويتلحز له الشاعر تلحزا . الحافز حيث يثني من من الشدق وقلب حاز ضيّق والتحلّز تحلّب فيك من اكل رمانة حامضة ونحوها شهوة لذلك كالتلزّح .

او ان خنّابتيها . تحوم القلوب عليها . الخنابتان طرفا الانف .

او ان لها صامغين . هما قرة العين . وريّ الغين . الصامغان والصماغان والصمغان جانبا الفم وهما ملتقى الشفتين مما يلي الشدقين وهما ايضا السامغان لغة في الصاد والغين العطش . ويا ليت شعري هل يتكوّن فيهما صمغ شهد حتى سميا بهذا وهل هما منطبقان او منفتحان وهل يتلحّزلهما الشاعر المسكين كما تلحّز من الحافزين الله اعلم .

ثم يقول او ان لها حَثرة . يديم الصبّ اليهما حَثره الحثرة مجتمع الشدقين والحثر تحديد النظر . فهل من تلزّح معه .

او ان لها ماضغين . يعوّذان من العين . الماضغان اصول اللحيين عند منبت الاضراس او غُنْبة . تهنّد الحليّ سَنْبه . الغنبة على ما في القاموس واحدة الغُنَب وهي دارات اوساط اشداق الغلمان الملاح . لكني رايت ربّة البرقع اولى بها فلا عِكاس ولا مِكاس . على هذا الاختلاس . والتهنيد التصبي والتشويق والسنبة الدهر .

ولعل عارضها . يتيّم معارضها . العارض صفحة الخد وجانب الوجه . او ان لها عِلاطا . يشغف من ناظره نياطا . العلاط صفحة العنق والنياط الفواد .

او بُـلدة. تفتن اهل البلدة.   البلدة نقاوة ما بين الحاجبين وثغرة النحر وماحولها او وسطها .
او ان لها مَحاجر . تباع لها المحاجر .   المِحجَـر من العين ما دار بها والمحاجر الثـانية ما حول القرية .
او اسارير . يعنو لها من جلس على السرير .   الاسارير محاسن الوجه والخدّان والوجنتان .
او ان طُلَـيتها تبرى الطَـلَـيآ . الطلية العنق او اصلها والطليآ قرحة كالقُـوبآء . ولَديـدَيـها المَـدُود .   اللديدان صفحتا العنق دون الاذنين واللدود وجع ياخذ في الفم والحلق .
ولزيزها الـمَـزّ .   اللزيز مجتمع اللحم فوق الزور واللز الطعن . ومفاهرها اعزّ الى ذي مسغبة من الفهيرة .   المفاهر لحم الصـدر والفهيرة محض يلقي فيه الرضف فاذا غلا ذرّ عليه الدقيق وسيط .
وانّ سالفتيها تغنيان عن السلاف .   السالفة ناحية مقدم العنق من لدن معلق القرط الى قَـلْـت الترقوه .
ونحرها عن نحر النهار .   نحر النهار والشهر اوله .
وترائبها عن الاتراب . الترائب عظام الصدر او ماولي الترقوتين منه والاتراب واحدها تِـرب وهو اللِـدة . ويصح ان تكون ايضا بكسر الهمزة مصدراترب الرجل اي كثر ماله فليسال القائل عن ايهما اراد .
الى غير ذلك من الاحتمالات التي لابدّ منها لحصيف العقل المستحكم الراى .
وانما اطلت الكلام هنا لكوني ناقلا له عمن تبصّر الوجه المحجوب . ودهش عن الاصابة فسال فمه سعابيب .
وغاية ما اقوله انا ان من شاعر امراة ليلا ولم يرها كما جرى لسيدنا يعقوب عمّ وقع له ما وقع لصاحبنا هذا المكثر من الملاّت والاِنـات والاَوّات . ولقائل ان يقول ان هذه القضية معكوسة في شان المراة اللابسة . فان النظر اذا وقع عليها وهي متسترة وقفت معه المخيلة عند حدّ ما . بخلاف العريانة فان المخيلة والقلب عند النظر اليها يطيران عليها ولا يقفان على حدّ فالمخيلة تتصور اشيآ والقلب يشتهي اشـيآ اخرى . وللمجيب ان يقول ان ذلك انما نشا عن الفرق الحـاصل بين الوجه والجسم . فان الجسم من حيث كونه اكبر من الوجه اقتضى طيران المخيلة اليه . وحومان القلب عليه . وردّ هذا القول

جماعة منهم الصباباتي والمباعليّ والالغزيّ وابوارّ . بان كبر الجسم هنا ليس سببا للطيران والحومان . اذ لو لم يبدُ منه الا موضع واحد لكفى . فبقي الاشكال غير مدفوع . واجيب بان العلة في ذلك انما هي لكون الجسم جسما والوجه وجها . وسُفِّه هذا القول فانه تحصيل للحاصل . وقيل انما هو لكون الوجه محلاً لا كثر الحواس . ففيه مخزن الشم والذوق والبصر وقريب منه مخزن السمع . وارتضاه جماعة منهم العزهي والتيناّى والدوذحي . وردّ بان هذه الحواس لامدخل لها هنا . فان المراد من كونية المراة لا يتوقف عليها اصالة فهي مستغنى عنها . وقيل انما هو لكون الجسم يحوي اشكالا كثيرة ففيه الشكل القمقمي والرماني والقرموطي والاطاري والخاتمي والقبي والعمودي والهندفي والصادى والميمي والمدرج والمخروط والهلالىّ ومنفرج الزاوية . وردّ بانه كقول من قال انه اكبر من الوجه وجوابه كجوابه . وقيل انما هو لكون العادة الاغلبية هى ان يكون الوجه حاسرا والجسم مستورا . فاذا راى الانسان ما خالف العادة هاجت خواطره وطارت افكاره . وقيل غير ذلك والله اعلم . ويحتمل ان هذه القاعدة التي استدركت ذكرها غير صحيحة فياليتني نسيتها فان ذكرها اوجب المناقشة بين العلماء

والحاصل ان الغرام البرقعي لما باض وفرخ في راس الفارياق غرّدت اطياره عليه لان تتخذ له آلة لهو . فما عتم ان تابّط له طنبورا صغيرا من السوق وجعل يعزف به في شباك له مطلّ على دار رجل من القبط وكان عند الخرجي خادم مسلم قد عشق ابنة القبطي فغار عليها من الطنبور فسعى بالفارياق الى سيده قائلا اذا سمع المارّون في الطريق صوت الطنبور من دارك ظنوا انها دسكرة او حانة او ثُكنة (مركز الاجناد ومجتمعهم على لواء صاحبهم الخ) لادار للخرجيّين . لان هذه الآلة لا يستعلمها غير الترك . فشكره الخرجي على ذلك واستصوب ماقاله واوعز الى الفارياق بالغاء الآلة فالغاها وجعل يفكر في التملص من ايدى هذه الزمرة التي لم يبرح اذاها واصلا اليه من كل شباك سوآء في الجزيرة والارض ثم بعد ايام قليلة هرب الخادم بالبنت وتزوج بها بعد ان اسلمت والحمد لله رب العالمين



الفصل الخامس

في وصف مصر

قد وصف مصر كثير من المورخين المتقدمين ومدحها جمٌّ غفير من الشعراء الغابرين وها انا اليوم واصفها ومادحها بما لم يسبقني اليه احد من العالمين فاقول انها مصر. من الامصار . او مدينة من المدن او مَدَرة من المَدَر . او كورة من السكُوَر او قصبة من القَصَب . او بَحرة من البُحَر . او ماهة من الماهات او قرية من القرى او قارية من القوارى او عاصمة من العواصم او صقع من الاصقاع او دار من الديار او بلدة من البلاد او بلد من الابلاد. او قطر من الاقطار او شي من الاشيآ . غير ان اهلها يقولون انها مصر الامصار ومدينة المدن وعاصمة العواصم وشي الاشيآ الى آخره. وما ادري فرق ذلك وكيف كان فانها مدينة غاصة باللذات السائغة متدفقة بالشهوات السابغة توافق المحرورين من الرجال خلافا لما قاله عبد اللطيف البغدادي . يجد بها الغريب ملهى وسكنا وينسى عندها اهلا ووطنا ومن خواصها ان مايذهب من اجسام رجالها يدخل في اجسام نسائها فترى فيها النسا سمانا كالاقط بالسمن على الجوع والرجال كالحشف. بالشيرج على الشبع ومنها ان اسواقها لاتشبه رجالها البتة . فان لاهلها لطافة وظرافة وادبا وكياسة وشمائل مرضية واخلاقا زكية واسواقها عارية عن ذلك راسا . ومنها ان ماءها لايشبه عيشها اي خبزها. فان الاول عذب والثاني تافه . ومنها ان العالم فيها عالم والاديب اديب والفقيه فقيه والشاعر شاعر والفاسق فاسق والفاجر فاجر. ومنها ان نساءها يمشين تارة على الارض كسائر النسا، وتارة على السقف وعلى الحيطان . ومنها تذكّر المونث وتانث المذكر مع ان اهلها متقنون للعلم واي اتقان . ومنها ان حماماتها لاتزال تقرا فيها سورة اوسورتان من القرآن فيها ذكر الاكواب والطائفين بها . فالخارج منها يخرج طاهرا وجنبا . واعجب من ذلك ان كثيرا من رجالها ليس لهم قلوب . وقد عوّض الواحد منهم عن قلبه بكتفين وظهرين وباربعة

ايدي واربعة ارجل • ومن ذلك ان كثيرا من البنات اللاي يغسلن اقمصتهن في بعض مجاري النيل يتعممن بقمصانهن بعد غسلهن ويمشين عريانات . ومنها ان قوما منهم بلغهم ان نسآ الصين يتخذن او بالحرى يُتخذ لهن قوالب من حديد لتصغير ارجلهن عن المقدار المعهود . فجعلوا يشذّبون اصابعهم واعتقدوا ان اليد اذا كان بها اربع اصابع فقط كانت اخف للعمل وانفع لصاحبها . مع ان الاصابع والكفوف عندهم ليست مما يكتَنى حتى تقضى عليهم بزيادة النفقة . كما هو شان الافرنج الذين لا يغادرون عضوا من اعضائهم الاّ ويكسونه احتفالاً به وتفخيماً له او حذرا عليه من العدوى . ومن ذلك اي من الخواص لا من الاعضاء ان البنات اللاي يُستخدمن في المبري لحمل الآجر والجبس والتراب والطين والحجر والخشب وغير ذلك . يحملنه على رؤسهن وهن فرحات جامحات رامحات سابحات صادحات مادحات مازحات . غير آحّات ولا ترحات ولا دالحات ولا رازحات ولا كالحات ولا نائحات . ومن كان نصيبها من الآجرّ نظمت عليه موالا اجرّيا . او من الجبس غنّت له اغنية جبسية . كانما هن سائرات في زّفاف عروس . ومن ذلك ان فيها ديوانين عظيمين يقال لكل منهما الديوان المحدّمى . فالديوان الاول قيّمه رجل يجهز الرجال ما يلزمهم لتبريد فرشهم من هو . والديوان الثاني وهو دونه في القدر والشان قيمته امراة تجهز لهم ما يلزمهم لتسخينهم من هى . واصل منشى الديوان الاول عجمىّ . وقد صار لان من الشهرة والنباهة عند العرب بحيث انك لا تزال تسمع بذكره والثنا عليه في كل مقام ولا يكاد يخلو منه مجلس انس وغناء او ادب . ومن ذلك ان البرنيطة فيها تنمى وتعظم . وتغلظ وتضخم وتتسع وتطول وتعرض وتعمق . فاذا رايتها على راس لابسها حسبتها شونة . قال الفارياق وكثيرا ما كنت اتعجب من ذلك واقول . كيف صح في الامكان وبدا للعيان ان مثل هذه الروس الدميمة . الضئيلة الذميمة . الخسيسة اللئيمة . المَهينة المُليمة . المستنكرة المشؤمة . المستقذرة المهوّعة . المستقبحة المستفظعة . المستسمجة المستشنعة . المسترذلة المتبشعة . تقل هذه البرانيط المكرمة . وكيف انماها هوآء مصر وكبّرها الى هذا المقدار • وقد طالما كانت في بلادها لا تساوي قارورة الفرش . ولا توازن نافورة الفَراش . وكيف كانت هناك كالترب . فاصبحت هنا كالتبر . ياهواء مصر ياناراها ياماءها ياترابها صيّرى

طر بوشي هذا برنيطة وان يكن احسن منها عند الله والناس وافضل. واجلّ وامثل. وللعين ابهى واكمل. وعلى الراس اطبق. وبالجسم اليق. وغير ذي قرون تتملق لتتملّق. ويُزرق عليها لترزق. قال فلم يغن عني النداء شيئاً وبقي راسي مطربشا. وطرف دهري مطرفشا. ومن ذلك ان قوما من الهُكَكا. الما كيك فيها عراون ويبرقعون لحاهم ويزاحمون ذوات البراقع على مورد الاناثية. فتراهم يتخفّفون ويهجلون ويتبازون ويوكوكون ويوزوزون ويباغمون وهم اقبح خلق الله. ومن ذلك ان لضابط البلد شفقة زائدة على اهلها تقرب من حد الظلم. وذلك انه يأمر جميع السالكين في طرقها ليلاً ان يتخذوا لهم فوانيس وان كانت الليلة مقمرة. خيفة ان يعثروا بشي في اسواق المدينة فيسقطوا في هوة او جبّ فتنكسر ارجلهم او تندقّ اعناقهم. ومن وُجد ليلاً يطوف من غير ذوي البرانيط وليس بيده فانوس غُلّت رجله الى يده. ويده الى عنقه. وعنقه الى حبل. والحبل الى وتد. والوتد الى حائط. والحائط الى ناكر ونكير. وتصلية سعير. ومن ذلك ان لبني جنسنا فيها اسلوبا في الكتابة لا يعرفه احد الاهم. ولهم حروف كحروفنا هذه الا انها لا تقرا الا اذا ادخلها الانسان في عينه كذلك رايتهم يفعلون. ومنها انه اذا مات منهم احد فلا يزال اهل الميت يندبونه وينوحون عليه حتى يؤوب اليهم ووطبه ملآن من الطربيخ. ومن خصائصها ايضا ان البغاث بها يستنسر والذباب يستصقر. والناقة تستبعر. والجحش يستمهر. والهرّ يستنمر. بشرط ان تكون هذه الحيوانات مجلوبة اليها من بلاد بعيدة. ومن ذلك ان كثيرا من اهلها يرون ان كثرة الافكار في الراس. يكثر عنها الهموم والاكدار او بالعكس. وان العقل الطويل يتناول البعيد من الامور. كما ان الرجل الطويل يتناول البعيد من الثمر وغيره. وان تلك الكثرة سبب في الاقلال. وهذا الطول موجب لقصر الاجال. واوردوا على ذلك براهين سديدة. قالوا ان العقل في الرأس كالنور في الفتيلة. فما دام النور موقدا فلا بد وان تنفد الفتيلة ولا يمكن ابقاؤها الا باطفاء النور. او كالماء في الوادي. فاذا دام الماء جاريا فلا بد وان ينضب او ينصب في البحر فهي حصن بقي. او كالفلوس في الكيس فما دام المفلس اي صاحب الفلوس يمدّ يده الى كيسه وينفق منه في ماعنده. الا ان تربط يدهُ عن الكيس او يربط الكيس عن يده. او كالتيس النازي. فانه اذا دام نـ

نزفت مادة حياته فهلك فلا بد من نجفه . فمن ثم اصطلحوا على طريقة لتوقيف جريان العقل في ميدان الدماغ حينا من الاحيان ليتوفر لهم في غيره . وذلك بشرب شي من الحشيش او بمضغة او بالنظر اليه او بذكر اسمه . فحين يتعاطونه تغيب عنهم الهموم وبحضر السرور . وتولى الاحزان . ويرقص المكان . فمن يرهم على هذه الحالة ودّ لو يُكتب في زمرتهم ويدخل في دائرتهم وان يكن قاضي القضاة . ومن ذلك ان طرقها لاتزال غاصة بالابل المحمّلة فينبغي للسائر فيها اذا راها مقبلة ان يخلي لها الطريق . اَوْ لا فلا يامن ان يفقد احدى عينيه . وقد ينشا عن هذا الزحام فوائد كما في حكاية المراة التي سارت مع امها لتحضر عرس اختها فطالعها من محلها



الفصل السادس

في لاشي

قد كنت اظن انى اذا تركت الفارياق واخذت في وصف مصر استريح فاذا هو هي اواياها . فينبغي لى الآن ان امكث في ظل هذا الفصل الوجيز قليلا لانفض عنى غبار التعب ثم اقوم ان شاء الله تعالى .

الفصل السابع

في وصف مصر

قد قمت حامدا لله شاكرا فابن القلم والدواة حتى اصف هذه المدينة السعيدة الجديرة بالمدح من كل من رآها . لانها بلد الخير ومعدن الفضل والكرم. اهلها ذو و لطف وادب واحسان الى الغريب . وفي كلامهم من الرقة ما يغني الحزين عن التطريب. اذا حيّوك

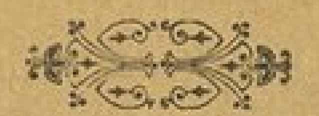
الاحوال . فمن ثم عزم على القلقلة . فخرج في الصباح من معزفه واخذ يطوف في الاسواق . ويحرك كتفيه عند كل خطوه ويقول . لاقلبنّه لاطرحنّه . لاركننّه لابدحنّه . انه انقض ظهري اى قرح اى عقر . هل انا اليوم حمار الحمار بالنكر . فراه بعض الظرفاء وهو يحرك منكبيه فقال لابد لهذا من شان فاقبل اليه ولطّف له المقال حتى استخرج سرّه من سرّته . وعلم حاله وسبب سفرته . فقال له لاعليك فان مصر حرسها الله معدن الخير والبركة . ولكن لابدّ للفوز بذلك من حركة . قال واى حركة أعظم مما ترى . قال بل الامر دون ذلك . ألك اذن واعيه . وفكرة مدركة وقدم ساعية . قال اجل . قال فاسمع اذا ما اقول لك . ان بهذا المصر شاعرا مفلقا من النصارى له وجاهة ونباهة عند جميع الاعيان . قال ما هذه صفة شاعر وما ارى كلامك الاّ متناقض الطرفين . فكيف فك هذا المعمى وتاويل هذه الاحجيّة . قال لاتناقض فانه شاعر بالطبع لابالصنعة . والفرق بين ذلك ان الشاعر بالصنعة هو من يتكسّب بشعره فيمدح هذا و يكذب على هذا حتى ينال منهما شيا . فاما الشاعر بالطبع فانما هو الذي يقول الشعر لباعث من البواعث دون تكلّف وانتظار للجائزة . قال ليس هذا الفرق مما ذكره الآمدى . قال ابعث الامدى الى أمد واسمع مني . قال قد امدّته فما الرشد . قال نصحي لك ان تكتب كتابا الى هذا العلامة وتلتمس منه فيما تطرى به مواجهته فاذا تكرم بذلك فاذكر له . رح ما انت تعانيه واستنجد به . فلا بدمن ان يجيبك . فانه رجل متصف بمكارم الاخلاق ويحب دغدغة الافتخار . ولاسيما انه يرغب في مجالسة ذوي الادب وتيسير اسباب معيشتهم . فتلطف اليه في المقال . وانا ضامن لك أن تفوز منه بالامال . فشكره الفارياق على نصيحته ورجع الى محله راضيا مستبشرا . فلما جنّ الليل اخذ القلم والقرطاس وكتب ما نصه .

اهدي سلاما لو تحمله النسيم لعطر الافاق . ولو جعل للبدر هالة لما اعتراه المحاق . ولو مزجت به الصهباء لما اعقب شربها صداعا . ولو استفّه مريض او لعقه لما لقى برحاء واوجاعا . ولو عُلّق على شجرة لزهت في الحال اوراقها ولو في الخريف . ولو سقيه الروض لانبت من كل زهر بهيج طريف . ولو جعل على اوتار عود لاطربت دون عازف . ولو تُغُنّيّ به في مجلس لاغنى عن المشموم والمعازف ولو علّق في الآذان

لكان شنوفا . ولو صقل به سيف كليل لجاء رهيفا . ولو مُثّل لكان حدائق ورياضا . وسلسبيلا ومحاضا . ولو نيط بالعمائم . لاغنى عن التمائم . ولو تختم به ولهان لأجزأه مُجزأ السلوان . ولو كتب على رَجام لأَلهى الثاكل عن النواح او على خصر هيفاء لقام لها مقام الوشاح . او على انف مزكوم لما احوجه الى السعوط او على ساق اعرج لكان له من قفزه سبق وفروط . او على لسان ابكم لانحلت عقدته . او على كف بخيل لهان عليه في البذل ذهبه وفضته . او على اجاج لعاد فراتا . او على رمل لانبتت الريحان نباتا . وتحيات فاخرة . ذكية عاطرة . ارق من النسيم . واحلى من التسنيم . واشهى من العافية على بدن السقيم . واجلى للعين من الاثمد . واغلى للناقد من العسجد . واصفى من الماء الزلال . واعلق بالقلب من امل الوصال . واشغل للبال . من هوى ذي دلال . وازهر من نور الصباح . وازهى من نور الاقاح . واعبق من شذا الراح . واثمن من الجوهر النفيس واعز عند البستي من التجنيس . وعند ابي العتاهية من الزهديات . وعند ابي نواس من الخمريات . وعند الفرزدق من الفخريات . وعند جرير من الغزليات . وعند ابي تمام من الحكم . وعند المتنبي من جزل الكلم . تهدي الى الجناب المكرم . المقام المحترم . ملاذ الملهوفين . مستغاث المضيمين . ثمال المظلومين . ملجا المهضومين . منهل القاصدين . مورد الطالبين . ادام الله سعده . وخلد مجده . وبعد ياسيدي فاني قدمت هذه الديار وانا حامل لحرج قد انقض ظهري وعيل به صبري . ولم اجد من يزحزحه عني ولو قليلا . ولست اجد بنفسي الى التخلص منه سبيلا . وقد هُديت الى نور معروفك في جنح هذا الغماس . وأُنبئت انك انت وحدك معتقي من هذا الارتباس . دون سائر الناس . فهل تسمح لي بان ازور ناديك الكريم . وابث اليك مشافهة مابي من البث المقيم . والضرّ الاليم . فانك اهل لان تاخذ بيد من لاناصر له وان تصطنعه لك بالتفاتة تحقق امله . وتنيله ما امّله . وان تتخذه لك ماعاش رهين شكرك ممنون برّك . فهو يرجو ذلك منك رجاء من لاذ بعقوة فخرك . فان رايت ان تفعل فذلك من احسانك وطول امتنانك . والسلام . وكتب عنوانه يتشرف بانامل سيدي الاكرم الاحسب الافخم الاوحد الافضل الاسعد الامثل الارشد الاكمل الامجد الأجلّ الخواجا فلان ادام الله بقاه بالعز والنعم

فلما بلغت هذه الرسالة الى الخواجا المذكور وطالع ما في شرح السلام من التشابيه المتكلفة لم يتمالك ان ضحك منها وقهقه وقال لبعض جلسائه ممن الم بالادب. سبحان الله قد رأيت اكثر الكتاب يتهوسون في اهداء السلام والتحيات للمخاطب كأنهم مهدون له عرش بلقيس او خاتم سيدنا سليمن. فتراهم يشبهونه بما ليس يشبهه. ويغرقونه في الاغراق ويغلونه في الغلو حتى يأتي مبلولا محروقا. وربما جاءوا بفقرتين متماثلتين في المعنى كقول صاحب هذه الرسالة الان ثمال المظلومين ملجا المهضومين. ثم اذا انتقلوا من السلام الى الغرض اجادوا الكلام الى الغاية. وما أدري ما الذي حسن لارباب فن الانشاء ان يضيعوا وقتهم بهذه الاستعارات والتشبيهات المبتذلة وبنظم الفقر المماثلة في المعنى مع ان العالم يتاتى له ان يبدي علمه بعبارة واحدة اذا كانت رشيقة اللفظ بليغة المعنى. وهذه الف ومائتا سنة قد مضت وما زلنا نرى زيدا يلوك ما لفظه عمرو. وعمرا يمضغ ماقاله زيد. فقد سرى هذا الداء في جميع الكتاب اما تفخيم المخاطب في العنوان بالاجل والامجد والاسعد والاوحد وما اشبه ذلك فله وجه. وذلك انه لم تجر العادة في بلادنا بان يكون تبليغ الكتب على يد البريد. وانما تبعث مع اشخاص ليست لهم خبرة بالطرق ولا بالديار فانها كما لايخفى عاطلة عن التسمية خطا. فاذا حملها رجل لايعرف القراءة طفق يسأل كل من لقيه في الطريق عن اسم المخاطب فان لم يكن العنوان دالا عليه التبس على القاري فان كثيرا من الناس مشتركون في الاسماء وان كانوا مختلفين في المكارم والاخلاق. وفضلا عن ذلك فقد يتفق ان مبلغ الكتاب بعد ان يكون قد سال غير واحد عن اسم المخاطب ووجدهم كلهم اميين. وبعد ان يكون قد اضاع نصف نهاره في البحث عن الطريق فلا يكاد يهتدي اليه الا ويجد عونا يترصده حتى اذا لمحه تلقفه وبعثه الى احدى الجهات التي اراد. فيبقى الكتاب عنده ثم ينتقل منه الى غيره. وربما لقي غيره مالقيه هو فينتقل الكتاب الى آخر وهلم جرا فكان لابد من الاستقصاء في العنوان عن صفات المخاطب فقال له جليسه اذن يجب ياسيدي ان يذكر في العنوان جميع الصفات فيقال للمخاطب مثلا اذا كان جميلا كيسا غنيا رشيق القد كبير العمامة عريض الحزام. الجميل الكيس الغني الى آخره. فقال اما وصف انسان بالجمال والغنى فهو من الموبقات له. واما بغير ذلك ككبر العمامة وعرض الحزام

فليس من الصفات المخصصة اذ الناس في ذلك سواء. وما خلق ذلك فما لاه بالاستعمال وستراه عن قريب مستعملا ان شاء الله . وهو وان يكن احيانا من المضحكات وذلك كان تصف رجلا مثلا بالزَيبيّة والكثية والخنطاوية والشرنبثيّة والكَنيفية والزَلهبية والزُخزبية والسَنطبيّة والعَرزَيّة والعَشجية والعظيبيّة والجُحوظية والأزَطيّة والسناطية والفُسحمية والجهضمية والبَرطايّة والحَنثرمية الا انه احسن من ايقاع اللبس في صفات المخاطب فقد بلغني ان كثيرا من الكتب التي تضمنت مقاصد مهمة لما لم يدل عنوانها بالنص والتوقيف على ذلك المرسل اليه فُتحت ليعلم صاحبها . فكانت سببا في ضرر المرسل والمرسل اليه انتهت محاورتها . واعلم هنا ان الخواجا المذكور لما بلغه الوكة الفارياق كان مريضا فلهذا لم يجبه على الفور فبقي الفارياق ينتظر جوابه اياما حتى اعتقد ان سجعه كله ذهب باطلا . اذ لم يكن يعلم السبب وكان في خلال ذلك دائم الفكر والقلق . فانا الان ادعه في هذه الحالة منتظر الجواب . وادع صاحبه يتداوى حتى يطيب . واعرّج قليلا على منازل الالقاب والقاب المنزلة المتعارفة وقتئذ بشرط ان تسمحوا لي بان انتقل الى فصل آخر وهو



الفصل التاسع

فيما اشرت اليه

حد اللقب عند المشرقيين انه هنة ناتئة او زنمة او علاوة زائدة متدلدلة تناط بكونية الانسان . وعليه قول صاحب القاموس العَلاقى الالقاب لأنها تعلّق على الناس . وعند المغربيين اي الافرنج انه جُلَيدة تكوّر في الجسم . وشرح ذلك ان الهنة حسن قطعها

واستئصالها مع السهولة وكذا لزمة وكذا العلاوة يمكن ركبها وقلبها . فاما الجليدة فلا يمكن فصلها عن الجسم الا بايصال الضرر الى صاحبه . وحاشية ذلك اذ الشرح لا بد له من حاشية ولولاها لم يفهم له معنى . ان لزمة عند اهل الشرق غير موروثة الا ماندر . فان لكل قاعدة شذوذا . والجليدة عند الافرنج متوارثة كابرا عن صاغر مثال ذلك لقب الباشا والبيك والافندي والاغا بل الملك انما هو محصور في ذات الملقب به فلا ينطق منه الى ولده . فقد يمكن ان يكون ابن الوزير او الملك كاتبا اونوتيا . فاما عند الافرنج فلا يصح ان يقال لابن المركيز مركيزا او مركيزيّ . وقد يجتمع مطلق الزمة والجليدة في جهة بقطع النظر عن كون الاولى متناهية والثانية غير متناهية . وذلك ان اصل كلّ منهما في الغالب أُكال يحدث في ابدان ذوى الامر والنهى لهيجان الدم عليهم . فلا يمكن تسكين هذا الهيجان وحك هذا الأُكال الا باحداث الهنة او الجليدة وبيانه ان الملك اذا غضب مثلا على زيد من الزيدين لذنب اقترفه . ثم بعث اليه ذلك الزيد بشفيع عريان ليترضاه سكّن هذا الاستشفاع ثورة ذلك الغضب . واختلطت الكيفية الهيجانية بالماهيّة العريّة فانتجتا جليدة لمن كان يخاف سلخ جلده . فتحلى بها بين اقرانه حلية مؤبدة لم يخف من تداول القرون عليه . والغالب في الجليدة ان تحتاج الى جسمين . جسم مغضوب عليه وجسم شافع فيه . والغالب في الهنة ان تحتاج الى جسم واحد فقط ومن الهنات هنات كنائسية وهي على نوعين ترابيّة وهوائية فالترابية ما كان لها مستقر او اصل في التراب فتنمى فيه وتثمر وذلك كان يكون جاثليق من الجثالقة مستقرًّا في دار او دير وله امرة على اناس يؤدون اليه عشورا ونحوه فهو يامر فيهم وينهى ويحكم ويقضي بحسب الاقتضاء او بحسب مايعنّ له ولا بدّ وان يكون عنده كاتب يعي اسراره وطباخ يشد فقاره وخازن يخزن ديناره وسجن يحبس فيه من خالفه في رأيه او انكر عليه اطواره . وما اشبه ذلك والهوائية عكس ماتقدم وذلك كهنة المطران اثناسيوس التتونجي صاحب كتاب الحكاكه في الركاكه فان سيّده قلّده هذه الهنة ليحكم بها في مدينة طرابلوس الشام غير انه ليس في هذه المدينة احد من اهل مذهبه حتى يؤدى اليه عشورا أو يطبخ له طعاما او يكتب له رسالة فهو متقلد بها لمجرد الزينة فقط جريا على عادة بعض المتقدمين الذين كانوا يطلقون

هنة الامير على راعي الحمير . ووزعة الملك . على شيخ قرية عفك . والغرض من ذلك كله انفراد شخص عن غيره بصفة ما . واذ قد عرفت ذلك فاعلم ان الخواجا والمعلم والشيخ ليست القابا محدودة في الهنات ولا في الجليدات اذ ليس في تحصيلها مايحتاج الى شفيع او اختلاط اكالي بماهية عربية . وانما هي خرقة تستر عورة الاسم الذي اطلق على المسمى وهي غير مخيطة فيه ولا مكفوفة ولا مشرجة ولا ملفوفة . بل هي كالبطاقة شدت الى لابسها ليعرف بها سعره . الا انه كثيرا مايقع الغلط في الصاقها بمن ليس بينه و بينها من علاقة . فاهل مصر مثلا يطلقون لفظة معلم على نصارى القبط . وكلهم غير معلم ولا معلم اذا قلنا انه مشتق من العلم . فاما اذا كان اشتقاقها من العلامة فلا مشاحة . ولفظة خواجا على غيرهم واصل معناها كالمعلم فبقى الاعتراض في محله . فاما لفظ الشيخ فانه في الاصل صفة من اسن . ثم اطلق على من تقدم في العلم وغيره مجازا عمن تقدم في السن . فان الطاعن في السن يستحصف عقله و يستحكم رأيه وان انكره النساء . فنقلت مزيته الى من باشر العلم . والذي يظهر لي بعد التأمل ان في الهنات والجليدات لضررا عظيما على من تحلى بها وخلى عنها . الدليل الاول ان المتصف بها يعتقد بمجامع قلبه انه افضل من غيره خلقا وخلقا . فينظر اليه نظر ذى القرن الى الأجم . و يستكفي بهذه السمة الظاهرة عن ادراك المناقب المحمودة والمزايا الباطنة ويخلد بها الى البلادة واللذات الموبقة . الثاني انه لو نشبت فيه ربقة زحل يوما من الايام ودارت به دوائره فان لم يجد ذات جليدة مثله لم يمكنه الجلد مع غيرها . وربما كان يهوى جارية عنده جميلة في المطبخ او في الاسطبل فيحرمه منها ابوه او منصبه او اهله او اميره فيقع تعطيل على اهل الجمال. وهو امر مكروه بل قد جزم بتحريمه جميع العلماء . الثالث انه قد يتفق ان يتزوج بذات جليدة معسرة مثله غير موسرة . فاذا ولدت له اولادا لم يمكنه ان يحضر لهم شيخا يعلمهم في داره . ويستحيى ان يبعثهم الى المكتب ليتعلموا مع جملة اولاد الناس . فتغدو اولاده من العجماوات ويتسلسل ذلك في ذريتهم الى ماشاء الله . الرابع ان الهنة والجليدة تقضيان على المتصف بهما بنفقات لاقة . وتكاليف شاقة . تفضى به الى التفريط والاسراف . والتهالك والاشراف . وربما اوصلته أخيرا الى انشوطة حبل من مسد . الخامس ان الانسان من اصل الفطرة

ليس له هنة ولا جليدة فاحداثهما فيه بعد ذلك امر مغاير للطبيعة . او في الاقل من الفضول او من البطر : وهناك ادلة اخرى اضربنا عن ايرادها خوف الاطالة.

فقد تبين لك ان الخواجا المشار اليه كان غير ذي هنة ولا جليدة.

ولعله كان يحصل على احداهما لولا ميله بالطبع الى الأدب .ولكن لكل شيء آفة

الفصل العاشر

في طبيب

مصح الله ما بك من السقم ياخواجا ينصرا ومسح او مزح . على حدّ من قرا الصراط والسراط والزراط . ومن قال اجعلي فديتك بصاقا او بساقا او بزاقا . انك غادرت الفارياق في وسواس و بلبال . فهو ينتظر الجواب منك في الغدوّ والاصال . قال اني ليحزنني كثيرا ان قد بلغني كتاب صاحبك وانا محموم موجع الراس فلم يمكن لى ان اعجل اليه بالجواب . وكان بودي لو افعل ذلك معما كنت اعانيه غيران الطبيب رسول عزرائيل منعني من الحركة . ولكن لابدّ من ان تسمع قصتي مع هذا القرنان .وهي انى اتخمت يوما من اكلة برغل اخذتها بحذافيرها فاصبحت وبي غثيان . واتفق ان زارني في صباح ذلك اليوم بعض الامراء الذين ينبغي ان يقال لما اثبتوه نعم في موضع لا ولما نفوه لا في موضع نعم . فرآني على تلك الحالة فقال مابك . فاخبرته الخبر . فقال عليك بطبيبي الساعة فهو امهر الاطباء لانه قدم من باريس منذ ايام . ولولا ذلك لما اتخذته طبيبا لى ولاهلي . قلت من عادتي ان اصبر على المرض الخفيف اياما واستعين على معالجته بالاحماء والتوقي فقد يكون في ذلك ما يغني عن العلاج .فانى ارى هؤلاء الاطباء يعالجون الامراض بالخرص والتخمين. فما يهتدون الى العلة والمعلول الا بعد ان تبلغ الروح الحلقوم . فيجربون مرة دواء ومرة اخرى غيره . قال لولا ان المرض قد بلغ

منك ما قلت هذا الكلام فلا بد من احضاره الان . ومازال بي حتى بعثت اليه خادمي حياً وخجلا. ثم خطر يالي ان الآدب عندنا من فرط كرمه قد يجبر المادوب على الاكل. وربما القمه بيده ما تعافه نفسه . ولكن لم اسمع ان احداً تكرم بان يجبر غيره على علاج. فلم اتمالك ان ضحكت . قال ما اضحكك. قلت لاشي . قال ما احد يضحك من لاشي فلا بد وان يكون هناك شي . قلت فكّرت في ذلك الطبيب الذي عاد مريضا فقال لاهله آجركم الله في مريضكم . فقالوا انه لم يمت بعد. قال يموت ان شاء الله . فضحكت. قال لاعليك فان هذا الطبيب ليس مثال ذاك . و بعد فانك عزب ليس لك اهل حتى يقول لهم ذلك . ثم ماعتّم الخادم ان جآء به وهو اشد مني مرضا ونحولا . فالظاهر انه لم يكن له شغل حتى يخرجه من داره . فلما ان دخل جس نبضي ونظر الى لساني ثم زوى ما بين حاجبيه واطرق الى الارض وهو يهس اي يحدث نفسه . ثم رفع راسه وقال لخادمي هات الطست . قلت ماتريد ان تفعل وانا صاحب جثتي افلا تشاورني . قال انه الفصد او الرمس . قلت هداك الله ياشيخ انها كلة برغل مع اللحم مما تسميه الناس كبية . قال انا اعرف ذلك انا اعرف . انكم يا اهل الشام كلكم تموتون بهذه الكبة . فقد شيعت بها حين كنت في بلادكم اكثر من مئة جنازة . نعم هي الكبة . قلت فى عجانك ان شاء الله . قال لاتدخل الكبة في عجيني مطلقا . فالتفت الى الامير وضحكت فظهر لى انه هو ايضا لم يفهم . وفي الاختصار فانه ما زال هو والامير يخططان رايى حتى استسلمت للهلكة ومددت يدي . فاعمل فيها مبضعه اعمال السكين في بطيخة . فخرج الدم متبعقا حتى دخل في عينيه فاطلق يدي وذهب ليغسل وجهه . ثم جاء بعد هنيهة وقد غشي عليّ . فتداركني خادمي بماء الزهر وغيره والامير ناظر الى دخان تبغه والطبيب يسارّه . فلما افقت ربط يدي وخرج مع الامير وقالا احترز لنفسك فانا نعودك عن قريب . فقلت في نفسي لا اعادكما الله . فلما كان الغد جآء الطبيب متابطا اعشابا . فقلت ماهذه الاعشاب . قال حقنة قلت تكفيني واحدة . قال ان الامير يقول لك ينبغي ان تحتقن ان لم يكن لنفعك فلاكرامه . فقلت في نفسي لاباس باكرامه في الحقنة. الا انه قد خالف العادة مرة اخرى فان عادة المزور ان يحلف الزائر باسم الله واسماء ملئكته ورسله وكتبه واليوم الآخر وبالبعث ان يأكل او يشرب شيا على اسمه . وهذا

زائر يلح عليّ بالاحتقان . ثم استعملت الحقنة . ثم وافاني اليوم القابل ومعه حقة . فقلت وما بيدك . قال مسهل مما اصنعه للامير . فاستففته . ثم جاني في الغدوليس بيده شي . فاستبشرت وقلت له قد وَهنت منّي القُوَى بقوة المسهل . قال ينبغي ان تتخذ اليوم حمّاما في غاية السخونة لكي تعرق وقد جرّبته في ذوي الامير فوجدته بعد المسهل انفع مايكون . ثم تولّى هو بنفسه تسخين المآ وانزلني في مغطس كنت اتخذته لنفسي . فلما دخلته لفحني حرّه حتى غشي عليّ بعد ان سمط جلدي . فأُخرجت منه على رَمَق من الحياة . فتداركني خادمي بالمشمومات حتى افقت . ثم جاني في الغد وليس بيده شي ففرحت ايضا وقلت لعله قد نفد مافي وطاب علاجه وكان الحمّام آخر ماعنده . فسالني عن حالي . فقلت هو كما ترى . قال عليل . قلت وايّ عليل . قال ينبغي ان تفصد . فسقط عليّ كلامه كجلمود صخر حطّه السيل من عل . وقلت كانك تهمّ باعادة ماصنعته اوّلاً فمتى ينتهي هذا الدور . قال لابدّ ان احد هذه العُلُوج (جمع علاج) يزيل مابك . قلت اجل اما الاول فهو انت واما الثاني فهو دمي او روحي . ثم تجلّدت وعنمت وقلت له قل للامير اني والحمد لله عزب فلاي سبب تحاول تسفيري سريعا فلم يفهم . وقال اني اريد ان افصدك لا ان انقل عنك . قلت فانا لا اريد فارحني اراحك الله . فاولاني كتفه وولّى ثم لم يلبث ان بعث اليّ برقعة الحساب وتقاضاني فيه خمسمائة قرش . فانه زعم ان عنده ناسا في الريف من الفلاحين يجمعون له تلك الاعشاب مع انها مما ينبت على حيطان ديار القاهرة وما كفاه ذلك حتى توعدني باني اذا تاخرت عن قضائه كما تاخرت عن الفصد الثاني يرفع القضية الى ديوان قنصله . فنقدته المبلغ المذكور بتمامه وقلت لابارك الله في الساعة التي ارتنا وجوه العجم وادبارهم وها انا اليوم والحمد لله احسن حالا ومرادي ان اجتمع بصاحبك . ولكن لابد من اكرامه قبل الزيارة ثم انه امر غلامه بان ينتقي تختا من الثياب الفاخر وان يتوجه بها الى الفارياق فانه كان وقتئذ مبرنطا . ثم كتب له رسالة وجيزة مع ابيات قليلة تتضمن استدعاءه الى مجلسه في اليوم القابل . وتفصيل ذلك يأتي في الفصل التالي

الفصل الحادي عشر

في انجاز ماوعدنا به

كان للفارياق صاحب من الديار الشامية يتردد عليه . فلما وفد الخادم بالرسالة وتخت الثياب كان هو حاضرا • فقال للفارياق انا اذهب معك الى الخواجا بنصر فقد سمعت بذكره غير مرة واحبّ ان اراه • فقال له الفارياق ولكن لعل في الازوا اساءة ادب في حق المَزُور • (١) فان المدعوّ لايليق به ان يستصحب احدا معه • قال لاباس فان هذه عادة الافرنج فاما في مصر فيمكن للمدعوان يستصحب ايّاشاء • وللمستصحب ايضا اذا لقى واحدا في الطريق من معارفه ان يستصحبه ولهذا أيضاً ان يستصحب آخر وللآخر آخر حتى يصيروا سلسلة اصحاب بحيث لا يكون في السلسلة حلقة انثوية • وكلهم يكلمون المزور من دون محاشاه و ينالون منه الاكرام و يترحّب بهم . ولا يمكن ان يسال احدا منهم فيقول له وانت ماحاجتك وايّ كتاب وصاة عندك اليّ • وما اسم زوجتك او اختك وما سنّهن • وفي اى حارة يسكن كما تفعل اصحابك الافرنج • فلا تخش من الرجل جَبْها • و بعد فان لنا عليه دالّة الادب . فهى تغنينا عن دالّة النسب • فاجابه الى ذلك وسارا اليه معا • والفارياق يرفل بثيابه وقد اتخذ له عمامة كبيرة • فتذكر يومئذ عمامته بالشام وسقطته تلك المشؤمة • فلما استقر بمجلس المشار اليه بعد الترحيب والتلقّي بالبشر والبشاشة • و بعد معاقبة وحشتنا لآنستنا • ومداركة آنستنا لاوحشتنا • ومواترة سلامات طيّبين • وموالاة طيبين سلامات • كما جرت العادة عند الخاصة والعامة • قال الخواجا للفارياق • قد سرّنى قدومك الى هذه الديار والله سبحانه وتعالى قد اسبغ عليّ نعمته لاشركاك فيها • فقد قال الشاعر

قالوا البعال الذّ شى يشتهى ... فاجبتهم هذا ضلال بيّن

اسدآ معروف الى ذي حاجة ... اشهى وابقى وهو امر هيّن

على انى لا اقول ان بك حاجة اليّ لكنى لحنت من شكواك انك محتاج الى ذي مرؤة

(١) أزوى الرجل جاء ومعه آخر

يواسيك او يسليك أو يتوجع . وقد وجب عليّ القيام بما يسليك ما أنت معانيه . سواء كان ذلك بالمواساة او بالنصيحة . ولا سيما انه قد ظهر لي انك منشّم في طلب العلم . وقد عانيت القريض . ولكن في كلامك ما انتقدته عليك . وليس هذا وقت نقد وتقييد . وانما اسالك أي كتاب من الادب قرات . فابتدر صاحبه وقال قرا كتاب بحث المطالب فقال له لقد عجلت في الجواب . فان هذا الكتاب في النحو لا في الادب . ألا انكم يا تلاميذ الجبل تحسبون ان من قرا هذا الكتاب فكانما قد استوعب العربية كلها دون افتقار معه الى شي من كتب اللغة والادب والشروح . وان الطالب منكم اذا أراد ان ينمق كتاباً أو خطبة فانما يستعمل بعض اسجاع مبتذله ساكنة الرويّ . خيفة ان يلتبس عليه المرفوع بالمنصوب . ويتطالل الى بعض استعارات باردة . وتشبيهات جامدة . حشوها الالفاظ الركيكة والمعاني المتقلقلة من دون معرفة ما يستعمل من الفعل ثلاثيا أو رباعيا . وما يتعدى به من حروف الجرّ . فعند قوله هذا تذكّر الفارياق قول المطران لقيمر قيمار واولجت فيها . فذكرها للخواجا المذكور فغلب عليه الضحك حتى فحص الارض برجله . ثم قال نعم وان في كتب الكنيسة كلها اغلاطا فاضحة من هذا النوع . فقد قرات في كتاب منها عن بعض الرهبان انه كان من التواضع على جانب عظيم حتى انه كان كلما مرّ عليه رئيسه يقوم وينتصب عليه . أي له . وعن آخر انه بلغه عن راهبة ما انها كانت ذات كرامات ومشاهدات . فكان يستمنى دائما ان يراها . اي يتمنى . وعن آخر انه كان خرج من ديره وغاب عنه مدة طويلة ثم رجع فوجد رئيسه الاول قد مات وولى رئاسته أحد أصحابه . وانه بعد ان تفاوضا وتباشرا قلده الرئيس خدمة تهبيب الرهبان ليلاً . أي ايقاظهم من هبّ اذا قام . وعن بعض المطارنة انه كان اذا وعظ في الكنيسة يتنعظ له كل من يسمعه . اي يتّعظ . وغير ذلك مما لا يحصى بل قد ورد في الانجيل وكلام الرسل كلام فاسد المعنى ومنشاه فيما أظن جهل المعرّبين . فمن ذلك ما ورد في انجيل متى خطابا عن المسيح عم . احذروا لا يضلكم أحد فانه سيأتي باسمي كثيرون قائلين انا هو المسيح فلا تصدقوهم . والمراد ان يقال ان كثيرا ينتحلون اسمي فيدّعي كل منهم بانه هو المسيح . وشتان ما بين الكلامين . وفي رسالة مار بولس الى طيموتاوس . ولتكن الشمامسة ازواج زوجة واحدة . ومقتضاه اشتراك الشمامسة في

بضع واحد . معاذ الله ان يكون كلامي هذا ازدراء بالدين وانما أوردت ذلك شاهدا على جهل من عرّب وألّف من أهل ملتنا . نعم ان بعض المطارنة قد الفوا تآليف مفيدة جوّدوا عبارتها وحرروا معانيها . الا ان الجمهور من أهل الكنيسة جهال اغبياء لا يعجبهم الا الكلام الفاسد الركيك . ولقد افضى بنا هذا الاستطراد الى غير الغرض . فلنعد الى ما كنا بصدده وهو اسعافك أيها الخدين بما يريحك من حمل الحرج . هل لك في ان تكون كاتباً عند رجل من السَّراة الاغنيا يريد ان ينشي ممدحا يكتب فيه بلغات مختلفة مساعيه ومعاليه . فيكون شغلك فيه في كل يوم نظم بيتين أو اكثر بحسب الاقتضاء . قال فقلت اني ياسيدي مابلغت من العلم ما يوهّلني الى هذه الرتبة . ونحن هنا في بلد العلم والادب فاخشى ان يتصدّى لي قوم يزيفون كلامي ويخطّئونني . فاخجل والله بعدها من ان أنظر الى وجه مخلوق من البشر . فاني رجل احب الخمول وان بضاعتي في ذلك لمزجاة . قال لا تخش من ذلك فان أهل مصر وان كانوا قد تقصّوا حدّ العلم وبرعوا في الفضل والادب على غيرهم . الاّ انهم لا يتعنتون على الناظم أو الناثر بلفظة يخل فيها عفواً . أو بمعنى يخطي فيه سهواً . فانهم اهل سماح ومياسرة . على ان من نبغ في الشعر ان لم يلق من ينتقد قوله مرة ومن يخطّئه اخرى فلا يمكنه ان يصل الى مرتبة الشعراء المجيدين . ولو بقي ينظم ابياتا ويودعها سمعه فقط لما عرف الخطا من الصواب قط . فلا يكاد احد يصيب الأ عن خطا . وقد جرت العادة بين الشعراء بان ما يستهجنه بعضهم من المعاني والالفاظ يستحسنه البعض الآخر . فلا يزال الشاعر والمؤلف بين اثنين عاذل وعاذر . ومخطّي ومصوّب . ومفسّق ومبرّي . ومعترض ومناضل . وراتق وفاتق . وممزق ورافي . وخارق وراقع . وحاظر ومسوغ . ومضيق وموسّع وقائل لمَ وقائل لانّ . حتي ترجح حسناته سيئاته . وتتداول الناس ابياته . وقد طالما حاول الشهرة اناس بالقول المردود . والكلام المقصود . فمنهم من نظم ابياتا مهملة اي عارية عن النقط فاهملت . ومنهم من التزم فيها الحبك بان يجعل في اول كل بيت منها حرفا من حروف اسم الممدوح فتركت والغيت . ومنهم من جعل دابه التجنيس والتوريات البعيدة فردّت وزيفت . واكتفوا من ذلك بمجرد الشهرة بين قومهم ولم يبالوا بالتعرض للّوم والتفنيد . واني اعيذك من ان تعدّ في جملة هؤلاء .

فاني رايت في انشائك نزوات افكار لطيفة تدل على قريحة جيدة . وسليقة متوقدة . و بعد فمن ذا الذي ماساء قط . قال فقلت والله ان لك على منتين عظيمتين . الاولى عنايتك بمعاشي . والثانية تنشيطك اياي الى النظم . فقد كنت جزمت بان لا اقول الشعر الا مكتوما عن الناس وها انا لك ياسيدي من الشاكرين .
و بكرمك من الزائرين . ثم انصرف من عنده داعيا
له وقد اضمر مفارقة الخرجي في اليوم القابل

الفصل الثاني عشر

في ابيات سرية

لم يكن لصاحبنا الفارياق عند الخرجي من الاثقال الا جثته فقط . فلذا تابط طنبوره ووضع دواته في حزامه وقال له . قد اعانني الله واراني طريقا غير التي طرقتها لي انت وحزبك الخرجيون . فانا اليوم مفارقك لامحالة . قال كيف تفارقني وما اسأت اليك في شي . قال هذا الطنبور يشهد عليك بانك سؤتني . قال ان العازف به لاتقبل له شهادة فكيف تصح شهادته هو مع كونه سببا في جرح شهادة صاحبه . قال بل تصح كما صحت شهادة حجر ابائك . وانه لينطق بمساويك كما نطقت اتان جدك . ويدك حصون عنقا شيئتك كما دك المدن بوق ربيبك . قال ما هذا الكلام . قال وحي والهام . قال لاباس في ان تعزف به فقد علمت ان الخادم عن حسد شكاك . قال بل اني عازف به عند من يقولون لي زد ويعاد واحسنت والله . لاعند عجم لا يذكرون اسم الله الا في الابتهال . قال قد خلطت واشططت . قال قد فرطت وقسطت . قال انك كنود . قال انك من اليهود ثم ولى عنه وهو سامد الراس جاحظ العينين من الغيظ . وسار واكترى محلا آوى فيه الطنبور وتوجه الى الممدح . فما استقر به المجلس الا وورد بشير اليه و بيده رقعة فيها بيتان يراد ترجمتهما . فلما عرضا على مترجمي

اللغات العجمية وادّيت ترجمتهما الى جهبذ الممدح انتهت النوبة اخيرا الى الفارياق. فاخذ القلم وكتب

ركب السريّ اليوم خير جواده   يا ليته منا امتطى اكتافا
اذ ليس فينا رامح أو رافس   بل كلنا يغدو به رفّافا

فلما قابل الجهبذ هذين البيتين بالاصل وجدهما يشتملان على المعنى اشتمال البطن على الجنين او الامعآ على العفج . مع عدم الحشو بالالفاظ التي يستعملها الشعرآ غالبا لسد مافي ابياتهم من الخلل . فاعجب بهما جدا وقال . هما حريّان بان يفضلا على الترجمة العجمية . فاني لا ارى فيها الا معاظلة الفاظ ولكن لعل هذه عادة القوم فدعهم وعادتهم . غير انه لما كان اشتهر البيتان عند اهل النقض اعترض بعض ان قوله رامح او رافس من الالفاظ المترادفة فتكون الاولى او الثانية لغوا . فالاولى ان يقال جامح او رامح وفيه مع ذلك سجع . واجيب بان للفظة رامح معاني كثيرة منها الثور له قرنان واسم فاعل من رمح اذا طعن بالرمح او صار ذا رمح . و رمح البرق لمع . ورُدّ بان الثور ليس له مدخل هنا بقرنيه . فان الناس لا تركب الثيران وان اشار اليه المتنبي في الغبب. واسم الفاعل بمعنى طاعن لا يناسب المقام . لان المركوب لا يكون طاعنا . ثم ورد في اليوم القابل بشير ثان معه رقعة فيها بيتان اخران فقال الفارياق

قام السري مبكّرا لصبوحه   فارتجت الارضون من تبكيره
اَوَماترى ذى الشمس من شباكه   مدّت اليه شعاعها لسروره

فاعترض على البيت الثاني انه غير لفق للاول . واجيب انه متفرّع عليه ومرتبط به . لان الارضين لما ارتجت وخشي العالمون سطوته ترضّته الشمس بشعاعها . وردّ بان ترضي الشمس كان متراخيا عن ارتجاج الارضين فلا يفيد . واجيب بان الترضّي حاصل على اي حال كان . فان الشمس لا يمكنها ان تطلع قبل وقت الطلوع . وضحك قوم من هذا التعليل . ثم ورد في اليوم الثالث بشير آخر فقال الفارياق

نام السريّ مهنّأ بالامس لم   يخطر بخاطره الشريف هموم
ان نام نامت امّة الثقلين او   ان قام قامت والكرى جريم

فاعترض على لفظة الثقلين انها ثقيلة . وان امّة حقها ان تكون امتا . ورد بان

اللفظة خفيفة ولا عبرة في كونها مشتقة من الثقل . ثم ورد في اليوم الرابع بشير آخر فقال

شرب السريّ تحلّ شرب المُسْكِر　　فاستغن عن فتوى الفقيه المنكِرِ
واذا اصرّ على الخلاف محرّمٍ　　فاعمد الى حدّ الحسام الابتر

فاعترض عليه انه مبالغة قبيحة تفضي الى الكفر وتعطيل الشرع . واجيب عنه بانه طبق الاصل . ثم ورد فى اليوم الخامس بشير آخر فقال

خرج السريّ مع السريّة ماشيا　　غلسا الى الحمّام كي يتنعما
من كان يدعك مرّة جسميهما　　خُلقت يداه على المدى ان تلثما

فاعترض عليه ان الاولى ان يقال ماشيين . ورد بانه لا محظور منه فان السرى هو الاصل بدليل تغليب ماشيين . ثم اعترض ان الافصح ان يقال جسمهما او اجسامهما . واجيب بان الافصح لاينفي الفصيح ثم قيل انه ارتكب ضرورة بحذفه حرف الجر في المصراع الاخير اذ حق الكلام ان يكون خلقت يداه بان . على ان تثنية اليد هنا لامعنى لها فان الداعك لايدعك بكلتا يديه . واجيب بانه لامانع من حذف الجر مع أنْ . وان التثنية للايذان بان كل الجوارح مخلوقة لخدمة الممدوح . ثم ورد في اليوم السادس بشير آخر فقال

خلع السريّ اليوم نعليه على　　مَنْ عليه مبالغ في مدحه
فاستبشروا ياعصبة الشعراء من　　هذا السخاء بيمنه وبسنحه

فاعترض عليه بان اليمن والسنح بمعنى واحد . واجيب بانه كقول الشاعر والفى قولها كذبًا ومينا . ثم ورد في اليوم السابع بشير آخر فقال

حكّ السريّ اليوم اسفل جسمه　　باظافر ظفرت بكل مؤمّل
فالناس بين مصفّر ومرتّل　　ومدفّف ومزمّر ومطبّل

فاعترض عليه صرف اظافر . واجيب بان ذلك غير محظور لاسيما وقد وليها قوله ظفرت . ثم ورد في اليوم الثامن بشير آخر فقال

طوبى لمن في الناس اصبح حالقا　　راس السريّ الاحلس الملحوسا
لازال محفوفا بلطف الله ما　　حلقت له شعراً شريفا موسى

فاعترض عليه بان الملحوس غير وارد في صفة الراس . واجيب بانه لا بأس بهٰهنا

للجناس . ثم قيل ان مخفوفا مع ذكر الراس ثقيلة . واجيب بانها خفيفة بالنسبة الى راس السرى . قلت وكان الاولى ان يعاب عليه قوله طوبى لمن . فانه مطلق لا يفيد ان السرى حلق راسه في يوم معيّن . غير ان الجناس في المصراع الثاني شفع في البيت كله ثم ورد في اليوم التاسع بشير آخر فقال

بَسَم الزمان عن المنى وتنوّرا   لما استحمّ سريّنا وتنورا

ان المعالي من اسافله زهت   والشعر بالشعراء اكسب مفخرا

فاستحسن هذان البيتان جداً لما فيهما من المطابقة والجناس التامّ وغيره الا قوله مفخرا . ثم ورد في اليوم العاشر بشير آخر فقال

قحب السرىّ واي شهم ماجد   بين البرية مثله لا يقحب

ذى منّة فُرضت على كل الورى   ان المخالف منهم ليُصلَّب

فعيب عليه لفظة قحب واجيب بانها فصيحة بمعنى سعل . ثم ورد في اليوم الحادي عشر بشير آخر فقال

عطس السرىّ فكلنا يبكي دما   وارتاعت الارضون والافلاك

حرس الاله دماغه عن عطسة   اخرى تموت برعبها الاملاك

ثم ورد في اليوم الثاني عشر بشير آخر فقال

فسى الامير فاىّ عرف عاطر   في الكون فاح واىّ مسك ديفا

ياليت اعضا العباد جميعهم   تغدو لنشوة ذا العبير انوفا

فعيب عليه قوله فسى . اذ التكثير هنا لا معنى له . واجيب بان القليل المنسوب الى السرىّ كثير . وعليه بظلاّم للعبيد . فان ادنى مايكون من الظلم في حق الباري تعالى كثير . ثم ورد في اليوم الثالث عشر مبشّران فقال

حبق السرىّ اليوم فى وقت الضحى   والجوّ اذ كن ليس يسفر عن شرَقِ

فتعطّرت ارجاؤنا باريجه   فكان من حبَق له عَرْف الحبَق

فاستحسنا لما فيهما من التجنيس . ثم ورد في اليوم الرابع عشر مبشران آخران فقال

قد أسهل اليوم السرىّ فكلنا   فرح ففي اسهاله التسهيل

فاستبضعوا خرءه اليه مطرّزا   وتسابقوا ان البطيء قتيل

فاستحسن البيت الاول للجناس . وعيب عليه قوله مطرزا . اذ التطريز هنا لاموجب له بل فيه ايلام . واجيب بانه طبق الاصل . وان حق الترجمة ان لاتزيد على الاصل المترجم منه في المعنى ولا تنقص عنه ولا سيما في الامور المهمة الخطيرة . وقد كان يجب ان يعاب عليه قوله فكلنا فرح وان علله بقوله ففي اسهاله التسهيل . اذ المتبادر ان التسهيل مسبّب عن حتف الممدوح وكانّ الجناس شفع فيه .

ثم ان الفارياق بعد انقضاء هذه المدة الذكية راى من الواجب ان يزور صاحبه ويخبره بما جرى له . فلما تشرف بمجلسه ساله الخواجا عن حاله . فقال له قد كنت اود ياسيدي ان ازورك قبل الان لكن خشيت ان يعلق بناديك اثر من الرائحة التي شملتني . فقال له لاضير في ذلك ولا سيما اذا تعودت عليها . وان ناديّ لايبرح كل يوم يعبق به امثالها من زيارة امثال السريّ وهذا شان امّ دِفار . ولكن كيف حالك من جهة المعيشة . قال قد اكتريت لى دارا صغيرة واشتريت حمارا . واتخذت خادمة لتصلح لى الدار . وخادما ليصلح الحمار . وأنا الان بجاهك وفضلك في احسن حال ثم انصرف من عنده داعيا له .

(سرّ بيني وبين القارى)

قد كان طبيب الجزيرة نصح للفارياق ان يجانب النساء اى يبتعد عنهن لانه يلصق بجنبهن فان في قربهن حَيْنا له فالفى قوله كذبا ومينا .



الفصل الثالث عشر

في مقامة مقعدة

لايمكن لى ان ابيت الليلة مستريحا حتى انظم اليوم مقامة . فقد عودت قلمي في هذا الموضع موالاة السجع . وترصيع الفقر الرائعة للعقل الرائقة للسمع. الشائقة للطبع • فأقول .

حدّس الهارس بن هثام قال • بينما انا امشي في اسواق مصر واسرح ناظري في

محاسنها ، وانهافت على النظر الى جمال شوافنها ، فتداركني جمال مدائنها ، فالطأبقرار حائط واضبأ بآخر ، واجعل يدي تارة على عيني وتارة على ماهو اصغر منها او اكبر ، اذ اومأ اليّ فتى من حانوت له ، عليه لوائح هيبة ومنزله . وحبوة في التراثب متخلله ، غير متحلله ، فقال ان شئت ان تصعد الى هنا الى ان ينفض زحام الابل ، وتنساغ غصّة هذا الأزل الآزِل . فانك لدينا لمن المقرّبين ، واني باكرامك لقمين ، فوجدت دعوته كدعوة الداعي بحيّ على الفلاح ، وقلت ما يابى السماح ، الا من فاته الصلاح ، وعَمِه عن النجاح ، كيف لا وقد اوشكت جوارحي ان تعود مجروحة ، وضاقت باحمال الملكم الارض وهي فسيحة . فابتسم ابتسامة اسفرت عن الحسن للقول سر يع ، وطبع الى ايلاء المعروف ذريع ، ثم صعدت اليه فوجدت عنده نفرا عليهم عمائم مختلفه ، ولهم وجوه مؤتلفة ، فلما سلمت متودّدا ، وتبوأت ما بينهم مقعدا . قال رب الحانوت هل لك في ان تنتظم معنا في سلك جدال قد شغلنا من الضحى ، وجعلنا له الآذان كثفال الرحى . فهو دائر على كل منّا بالمناوبة . ومستدرك ختامه باوّله بالمعاقبة . دون دَرَك ومعاقبة ، اذ ليس فيه افضا الى البحث في الاديان . وانما هو امر مباح لكل انسان . فقلت ان كان مرجعه الى العقل فقد كلّفتموني إدّا . وشططتم في انتظامي معكم جدّا . اذ لست بصاحب اسفار . بل حليف تطواف واسفار . وان كان الى الطبع فان بي لطبعا سليما . وخُلقا قويما . قال هذا الثاني هو مركز دائرته ، وفيصل محاورته ، قلت فاملأ اذني اذا من جدالك ، وألقِ عليّ اعذال عِدالك . قال اعلم ، فرج الله عنك كل غم ، انى انا والحمد لله من المسلمين المؤمنين بالله و برسوله ، و بوحيه وتنزيله . وان صاحبي هذا الودود . واشار الى احد القعود ، هو من النصارى والآخر من اليهود . والآخر امّعة ما له اعتقاد ولا جحود . وانّا قد تنازعنا كاس البحث في الزواج ، وافضنا فيه كما تفيض من عرفات الحجّاج ، اما النصراني فانه يزعم ان طلاق المرأة مفسدة من اعظم المفاسد ، ومندمة يمني المطلّق بالنغص والمكايد ، ووجه فسادها على مقتضى زعمه ، وقدر فهمه ، ان الزوجة اذا علمت أنها تكون عند زوجها كالمتاع المنتقل ، وكثوب المبتذل ، موقوفة على بادرة تفرط منها ، او هفوة تنقل عنها ، لم تخلص له سريرتها ولن تمحض له مودتها . بل

تعيش معه ماعاشت في انقباض وابجاس ووحشة وابتئاس ونكد وياس وتدليس والباس واذا انزلته منزل مبتاعها واعتقدت ان متاعه غير متاعها وانه لايلبث ان يلاعنها او يبارئها او يخالعها او يكسوها ثياب التجمة ويقول لها الحقي باهلك او استفلحي بامرك. او انت عليَّ كظهر امي او حبلك على غاربك. وعودي الى كناسك. عند اهلك وناسك. فما انت لى باهل. وما انا لك ببعل. لم تحرص له على حاجة ولا على سر. ولم يهمها ما ينزل به من الشرّ. وربما خانته في عرضه وماله. وكادت له مكيدة فضحته بها بين اقرانه وامثاله وهناك محذور آخر ادهى وانكر وانكى واضر. وامضّ وامرّ. وهو ان المرأة اذا فركت زوجها بان رأت منه ما تخاف غائلته. لم يهمها ان تربّي عيّله او تستكفي عائلته. فان المرأة لاتحبّ ولدها الا اذا احبت بعلها. ولا تحب بعلها الا اذا دام وصلها وآتاها سؤلها ومن كان له زوجة لم يُولها فواده ولم ينخل لها وداده فاتخذته عدوا خصيما. لا اليفا حميما. فهو جدير بان يرثي له شامته. ويرجع عنه سامته. فان صدره والحالة هذه مورد الشجون. وراسه منبت القرون. ومنزله منزل الاكدار وحالته في الجملة حالة اهل النار. الا اني اعترض على مذهب من حظر الطلاق. وتقيد بزوجته دون اطلاق. بان الزوجة اذا علمت ان جسم زوجها قد أُدغم فيها. واصبح سره في فيها. فصارا فردا لا زوجا. سواء هبطا وهدة او صعدا اوجا. وانه لايُفك هذا الالتحام الاّ بمقراض الحِمام. ولا تحل عقدة هذه السكينة. الا بانحلال جميع اجزاء الطينة. وانها اذا مرضت مرض هو معها. واذا رأت رأيا فلابدّ له من ان يواطئها عليه ويجامعها. نشزت عليه وتنمرت. وطغت وتجبرت. فتارة تسومه شراء لباس وحلىّ وتارة تتعنّت عليه بامر تذيقه فيه الصُلىّ. فويل له اذا حبا ثم ويلان اذا أبى. وان غاب عنها ليلة قامت قيامة كيدها عليه. وان تشاغل عنها بامر له فيه نفع جرت جميع المضار اليه. فدابه التوددّ اليها والتملّق والمداراة والترفق ومجاملته لها اذا جفت ومخالقته اياها اذا انفت وتانّثه معها اذا تذكّرت وتصعصعه منها اذا تشزّرت وهل يطيب عيش لمن علم انه طوع لهوى غيره. وان لامناص له من ضيره. فاما شان الاولاد. وهو الداعي الى تحمّل هذا الكُباد. فان الزوجين اذا كانا على حالة النفور والعناد. والخلاف والالحاد. لم تكن تربيتهما لولدهما الا اغرآء بالاقتداء بهما. وتدريبا على الفساد

بسببهما . فيكون اهمالهم من غير تربية عند طلاق امّهم أوْلى . وان الوفاق هو المصلحة الاولى . على انا نعلم من التجربة منذ سنّ الله تعالى الزواج وحبيه ان المرأة اذا علمت ان لزوجها استطاعة على طلاقها . وتملصًا من وثاقها . حرصت على ان تحبّب اليه وتلاينه . وتياسره وتخادنه . وتخالقه وتداريه . وتتلافاه وتراضيه . وتجامله وتسانيه . خيفة ان يتنغص عيشها بفراقه . او تحرم من خلاقه . فان لم يحصل بينهما الوفاق . فالطلاق الطلاق . ورأى صاحبنا هذا اليهودي قريب مما رايت . فلا يخالف الا في اسباب الطلاق وهي كيت وكيت . فاما صاحبنا الامّعة . فانه متردد في هذه القضية المنكمة . فتارة يقول ان الطلاق ادعى الى الراحة . وتارة انه موجب لنكد العيش وصفق الراحة . وطورا يزعم ان المتْعة او الزواج الى اجل مسمّى اوفق . حتى اذا انقضى يجدد العهد بينهما ويوثق . الى ان يتفارقا عن تراض . ويقضيا لهما وعليهما ولا قاض . فهو اخف على الشبج . وانفى للحرج . وان يكن يفعله بعض الهمج . وحينا يقول بل التسرّي اسرّ . واهنأ واقر . ان لم يكن من القرينة مفرّ . وآونة يختار الاقتصار على خويدمة رعبوبة . وآونة على وحدة العزوبة . والتناول مما تفيزه به الفرص المرقوبة . واخرى على جب الآلة . ان كان الجبّ ينجي من الحبالة . قال وذلك انى صعّدت في درجات هذه الخطة ونزلت في دركاتها . وعانيت ضروبا من اخطارها وهلكاتها . فوجدت عند كل درجة منها مهواة تغيب فيها الاحلام . وتضيع الافهام . وتهن القوى ويستطاب التوى . ويصغر كل عظيم من البلا : حتى كأنّ هذه الحاجة ليست من الحوج في شيء . وما لها به من صلة لحيّ فهي داء لا آسي له . وثوب قشيب مسموم يسر ناظره وحامله . لكن يقرّح اوصاله ومفاصله . وكل امر في الدنيا فانما يصح قيامه على عقول الكيّسى من الناس . ويعالج بالصبر او اليأس . الا هذه الحوبة فان المرجع فيها الى الطباع . ولا يفيد معه رشد ولا زماع . ثم أنّ انين الثكلى . وقال واني ازيد على ماقاله الامعة قولا . ولا اخشى من احدكم عذلا . فاقول ولكم تصدعت قلوب من ذلك الصدع . واشتقت من ذلك الوشاح مشاقّ لا يطيقها طبع . وكم من رؤوس لاجله دُعكت ورضّت . وعقول أفنت وحرضت . واعناق دقّت . وعيون لقّت . واسنان هشمت . وانوف

شُرِمت . وشعور ندفت . ولحى نتفت . وايد قطعت. وانساب ضيعت. وكتائب كتبت . وكتب كُتبت . (حاشية من جملتها هذا الكتاب) وخيل رُكضت . وسيوف ومضت . . ورماح شُرِّعت . واحزاب تفرّعت . وجبال دكّت ونسفت وبيوت اقوت وعفت . واملاك حربت. وملوك استحربت. وبلدان خربت. بل امم تهالكت وفنيت. وقرون اندرجت ونسيت. ثم تاوّه وقال وسلعة نفدت ودنانير نُقدت. قال الهارس فعلمت انه قد صدعه الصدع بماله وعظته بلهاته عند تغلغله فيه وايغاله. ولذلك كان يفيض في حديثه ويخوض فيه . ليعلم هل من مصاب مثله وعنده علم مايشفيه . ثم التفت اليّ مستعبرا . وقال وانت فما ترى . قلت والله انها لاحدى الكُبر . ومعضلة تفيض لها العبر . قد طالما ارتبك فيها العالم النحرير وضل عن علمها اللبيب الخبير لاجرم ان معرفة الافلاك وكواكبها وايشاء معادن الارض وعجائبها واسرارها وغرائبها. لأهون عليّ من ان اقول في هذه المسألة نعم أولا فما ارى الا سكوتي عنها أولى ثم بينا هم يوجبون ويسلبون ويوجزون ويسهبون اذا بالفارياق مرّ علينا راكباً على حمار فاره. سامد سامه .فلما بصرت به قلت له نزال نزال. وحيّ على هذا العدال. فما نرى غيرك جديرا بايضاحه. وبشفائنا من صُماحه. قال في أي امر مريج كنتم تخوضون. وعن أي نكر مشيج انتم تجيضون. قلنا له في الزواج فهلم العلاج. فابتدر وقال على ارتجال

مسألة الزواج كانت ثم لا　　تزال طول الدهر امرا معضلا
ان يكن الطلاق يوما حللا　　للزوج ايان ابتغاه فعلا
فليس عندي رشدا ان تحظلا　　زوجته عنه ولا ان تُعضلا
ان لم يصيبا للوفاق سبلا　　فدعهما فليفعلا ما اعتدلا
ايان شا آطلقا وانفصلا

قال فضحكنا من افتحاره ما لم يذكر في الكتب . وقلنا له الى حمارك عن كثب. فما نرى رايك الآ بِذعا .ولقد اسات جابة بعد ان اصبت سمعا. ثم تفرقنا كما اجتمعنا وعجبنا. مما سمعنا



الفصل الرابع عشر

في تفسير ما غمض من الفاظ هذه المقامة ومعانيها

ليس في لغتنا هذه الشريفة ولا في لغة امة اخرى من الامم لفظة تدل على فاعل ومفعول او فاعلين اشتركا في فعل واحد للذتهما ونفعهما . واحتاجا الى من يدخل عليهما ليتعرف منهما أي رفع ونصب يجري بينهما . وبيانه ان لفظة الزواج عندنا معناها ضمّ واحد الى آخر حتى يصير كل واحد منهما زوجا لصاحبه . ولكن من دون قيد مكان ولا زمان . فلو تزوج زيد بهند في سهل أو على قنة جبل او في كهف في يوم الاحد او الاثنين او السبت بشرط التراضي بان يكتب الرجل للمراة صكا موذنا بزواجه بها او يشهد على ذلك رجلين لصحّ . هكذا كانت سنّة السلف المتقدمين من الانبياء وغيرهم كما هو مسطور في تواريخهم . بل لم يكونوا يقيدون انفسهم لا بالصك ولا بالشهود . اما لفظ النكاح فمعناه احراز امراة على اي وجه كان . وذلك لان عرب الجاهلية لم يكن عندهم آداب للنكاح والطعام وغيرهما حتى جا الشرع فعرّفه وميز الحلال من الحرام منه . قال ابو البقا في الكليات — ولكن لم اجده في فصل النون فان رايته في غيره انجزت ما وعدت به . وكنت اريد استشهد بكلامه على ان اسم النكاح لم يزل الى الان مستعملا وانه في كتب الفقه اكثر من ان يحصى . وهو حجة على من انكره من النصارى وعلى من استعاذ من ذكره . وانما استعملته العلمآ من دون محاشاة لاسباب. الاول انه استعمل قديما من الجاهلية فاثبتته العاقلية . الثاني لوروده في القرآن . الثالث لاشتماله على اربعة احرف وفاقا للطبائع والعناصر والجهات . الرابع لورودها في اسرار سور القرآن . فالنون في ن والقلم وما يسطرون والكاف في كهيعص والالف في الم والحا في حم . الخامس انك اذا قلبت هذه اللفظة بدا لك منها معنيان شريفان. الاول اسم فاعل من حي والثاني فعل امر من كان . وبه برزت الموجودات الى العيان .

وتجلت الحقائق لذوي العرفان . السادس لخفة اللفظ وحلاوته . السابع لكون اوله يدل على آخره وآخره على اوله . وقد سمى هذا النوع بعضهم دلالة الاول على الآخر وبالعكس . قال وفائدته انه لو استشهد القاضي احدا على فاعله فنطق بالنون والكاف ثم غشي عليه او على القاضي تلحـزا لذلك . عـرف من بقي غير مغشي عليه بالمجلس القاضوي ما اراده القائل . وكذلك لو طرأ عليه عند اداء الشهادة ما قطعه عن الكلام شوقا وهيبة فلم يسمع منه الا الالف والحاء لدل هذا الجزء الاخير مع قلة حروفه على جميع ما يراد من المدلول . قلت وهو تعليل بديع غير ان هذه التسمية لاتوجد في كتب البيانيين والبديعيين . ولست احب الالفاظ الطويلة فالاولى ان ينحت له لفظ من تلك الجملة بحيث يسلم الطرف . فان قلت بل قد استعملت الفاظا طويلة جدا في وصف البرنيطة بقولك المستمبحة المستفطمه مع انه كان يمكنك ان تصفها بالفاظ قصيرة . قلت كان ذلك من باب مراعاة النظير . فان طول البرنيطة يقتضيه . فاما مدلول اللفظ الذي نحن بصدده فانه قصير . ثم اني كنت ابتدات كلاما في اول هذا الفصل ولم انهه فان القلم زاق بي الى معنى آخر على عادته . واظن ان الجناب الرفيع او الحضرة السنية لم يفهماه فمن ثم اقول الان . انه اذا كان المراد من الزواج ان كلاً من الزوجين يزاوج صاحبه لنفسه لا لاهل البلد وللمعارف والاصحاب كما كان عليان يأكل فخذ الدجاجة لامّ عليّ . لم يكن من المعقول ان يدمق عليهما ذو قبـّعة فيقول للمرأة لاتتزوجي هذا لكونه لم يسمّ بطرس ثم يقول للرجل لاتتزوج هذه لانها لم تسمّ مريم . او ان يقول هذا يوم الاحد لايصح فيه الزواج . وهذه حجره لايحلّ فيها البعال . والا لصح ان يقول لهما أرياني الميل في المكحلة . ومثل هذا الكلام لعمري لايليق لاحد ان يقوله او يكتبه . ثم ان المرأة هي من الاشياء التي لكثرة تكرر النظر اليها كالشمس والقمر لم يوفّ العقل حق اعتبارها . وبيانه ان الله عز وجل خلق المرأة من الرجل لتكون بمنزلة معين له على مصالحه المعاشية ومؤنس له في وحشته وهمومه . الا انّا نرى ان هذه العلة الاصلية كثيرا ماتستحيل عن صيغتها الاولوية . حتى ان بلاء الرجل وهمه ووحشته ونحسه وشقاوته وحرمانه بل هلاكه يكون من هذه المرأة . فتنقلب تلك الاعانة احانة . وتلخيصه ان الانسان وُلد في هذه الدنيا محتاجا الى اشياء كثيرة لازمة لحفظ حياته

وذلك كالأكل والشرب والنوم والدفء . والى اشياء أخرى غير لازمة للحيوة وانما هي لتقويم طبعه حتى لايختل . وذلك كالضحك والكلام واللهو وسماع الغناء واتخاذ المرأة . الا ان هذا الاخير مع كونه جعل في الاصل لتقويم الطبيعة . اذ يمكن للرجل ان يعيش حيناما من دونه . فقد غلب على سائر اللوازم المعاشية التي لابد منها . الاترى ان من يحلم بأمرأة يجد منها في الحلم مايجده منها في اليقظة . وليس كذلك من يحلم بانه اكل عسلا او شرب سلافا . بل وقوع هذا نادر جدا حتى للجائع والمعطشان. وقد طالما رضيت اصحابنا الشعراء بطيف الخيال من المحبوب . وما احد منهم رضي على جوعه بان يبعث اليه ممدوحه بكاس مدام في الحلم او ثريدة. واذا تناول الانسان طعاما طيبا لونا كان او لونين بقى عدة ساعات مكتفيا بما ناله غير مفكر في القِدْر ولا فيما يقتدر فيها . حتى يعاوده الجوع فيطفق ح يفكر في تناول طعام آخر . ولكن لم يسمع عن احد من الناس في حالتي الجوع والشبع انه كان كلما راى طائرا في الجو اشتهى ان يقع على سفوده في البيت حتى يسترطه . او انه كان لايزال يبصبص في دكاكين الطباخين والبدالين والزياتين ويلاوص من ثقوب اقفالهم ومن خصاص ابوابهم وشقوق حيطانهم على ماعندهم من اصناف المأكول . نعم ان الجائع في بلادنا يحسب كل مستدير رغيفا كما يقال . وفي بعض بلاد الافرنج ربما حسب ايضا المستدير والمطاول وذا شق كظلف الشاة وذلك لتفننهم في اشكاله . غير ان الجائع الى النساء ليس له شكل ينتهي اليه . وكذلك قضية الشرب فان الظمآن بعد ان يروي غليله بالماء فاذا جيء اليه بكاس من التسنيم عافه . وكذلك البردان المحتاج الى الدفء فانه متى لبس مايدفئه من الثياب ويجمله بين الناس لم يتطال بعد ذلك الى كل ثوب ينظره في دكاكين التجار معرضا للبيع . ولو رأى مثلا قوس قزح او روضة مدبجة بالازهار البهيجة لم يتمن ان تكون الوانها في سراويله او قميصه . وانما يراها ويستحسنها مجرد استحسان من دون ان يشغل بها خاطره ولبه . ولا يحلم ليلته تلك انه راى روضة انيقة او يتصور وهو متوسد على فراشه انها لو كانت خيال مخدته لزاد ذلك في تنعيمه او عمره . وقس على ذلك النائم اذا نام كفايته على فراش غير وطيء فان منظر الفراش الوثير بعده لايهمه . والحاصل ان للانسان عقلا في يافوخه يدله على ماينفعه ويضره ويسوءه ويسره . وان في كل

من معدته وحلقومه ميزانا قويما يزن به ماهو محتاج اليه من الطعام والشراب . وبه يدري مضمون قولهم ربّ اكلة حرمت اكلات . فاما في امر المرأة فالقانع العزوف يغدو شرها رغيبا . والرشيد غويا . والحليم سفيها . والمهتدي ضالا . والحكيم عميها . والعالم جاهلا . والفصيح عييّا وبالعكس . والصَّبُور جزوعا ولا عكس . والفتى شيخا ولا عكس . والغني فقيرا وبالعكس . والفظّ لطيفا ولا عكس . والسمين نحيفا وبالعكس . والمعافى مبتلي ولا عكس . والمتبذّت متقشرا وبالعكس . والبخيل كريما ولا عكس . والساكن متحركا وبالعكس . والطرد عكسا وبالعكس . وهلم جرا . واذا راى امرأة تبغضه فربما احبها . او تجفوه كلف بها . او تعرض عنه تعرّض لها . اوتتملق اليه وتعلّه فُتتن بها . او ترميه بحقيبتها على ثقلها جنّ بها . الا ولو حضر مجلسا كان فيه

امرأة وضيئة	حسنة نظيفة .
وهيّئة	حسنة الهيئة .
ومُخبأة	الجارية المخدرة لم تتزوج بعد .
وذَنْأة	الجارية المهزولة المليحة الخفيفة الروح .
وجَرْباء	الجارية المليحة .
وخدَبَّة	ضخمة .
وخُرعُوب	الشابة الحسنة الخلق الرخصة او البيضاء اللينة الجسيمة . اللحيمة الرقيقة العظم .
وخَنِبَة	الجارية الغنجه الرخيمة .
ورَطْبة	معروف .
وسَرْهَبة	المرأة الجسيمة الطويلة .
وشَطْبة	الطويلة الحسنة الخلق .
وشطْبة	الجارية الحسنة الغضة الطويلة .
وشَنْبا	ذات شنب وقد ذكر تحت البرقع .
وصقْبة	الطويلة التارّة .
وصَهْباء	الصهب حمرة او شقرة في الشعر كالصُهبة والصهوبة .

وعَجبَاً المرأة يتعجب من حسنها .
وقَبّاً الدقيقة الخصر الضامرة البطن .
وكَبْكابة المرأة السمينة .
ومكدوبة النقية البياض .
وكاعِب التي نهد ثديها .
ولَعُوب الحسنة الدَلّ .
ووَطْباء العظيمة الثدى والوطب الثدى العظيم
وهَدْباء الكثيرة شعر الهدب .
وذات صُلُوته الصَلْت الجبين الواضح وقد صلت ككرم .
وصموت الخلخالين غليظة الساقين لا يسمع لهما حسّ .
وخَنوثاء الحَدَثة الناعمة .
وبَلْجاء البُلْجة نقاوة ما بين الحاجبين . هو ابلج وهي بلجاء .
ومِبْهاج حسنة .
وجائعة الوشاح ضامرة البطن ومثله غرثى الوشاح.
وخَدَلْجة المرأة الممتلئة الذراعين والساقين .
ودعْجاء الدَعج سواد العين مع سعتها .
ورَجْراجة يترجرج عليها لحمها .
وزجّا الزجج محركة دقة الحاجبين في طول والنعت ازج وزجا .
ومُمْذلجة المرأة الممتلئة الناعمة الحسنة الخلق .
ومفلّجة الاسنان الفلج تباعد ما بين الاسنان .
وبَيدح بادن ونحوه بلدح
ودَحُوح عظيمة .
وذات سجاحة سَجِح الخدّ سهل ولان وطال في اعتدال .
ودُمْلُحة الضخمة التارّة .
وصَلَدحة عريضة وكذا سلطحة وصلطحة .

وفُقّاح المراة الحسنة الخَلْق .
ووَضَّاحة البيضآ اللون الحسنه .
وبَيْدَخة نارّة .
وبُلاخيّة عظيمة او شريفة .
وصَمَخة المراة الغضّة .
وطُباخيّة الشابّة المكتنزة .
وفتخآ الأخْلاف ناقة فتخآ الاخلاف ارتفعت اخلافها قِبَل بطنها . ذمّ وفي المراة والضّرع مدح .
وفِرْضاخة ضخمة عريضة او طويلة عظيمة الثديين .
وقُفاخ المراة الحادرة الحسنة الخلق .
ولُباخيّة لحيمة .
وهَبَيَّخة الناعمة النارّة .
وبَخَنْداة المراة التامة القصب كالبَخَنْدى .
وبُرَخْداة الجارية الناعمة النارّة .
ومُبَرْنَدة الكثيرة اللحم .
وثادة المكتنزة الكثيرة اللحم .
وثَوْهَدة السمينة التامة الخلق وكذا الثّهْوِدة والفَوْهدة .
وثَهْمد السمينة العظيمة .
وَجدّآ الصغيرة الثديين .
وجَيْدآ الطويلة الجيد الدقيقته .
وبَضّة المُجرّد بضّة عند التجرّد .
وخَبَنْداة جارية خَبَنْداة تامة القصب او تارّة ممتلئة او ثقيلة الوركين وساق خَبَنْداة مستديرة ممتلئة .
وخَرِيد الخريد البكر لم تمسس او الخفرة الطويلة السكوت الخافضة الصوت المتستّرة كالخريدة والخرود .

(تنبيه المرأة الجَشُوب الدِرْدِحة الضَمْزر الَلهْبَرة العُكْبُرة القَعْسُوس الجُبَاعة الدَدْمة اكثر دلاً وغنجا من جميع هولآ)

ورِخْوَدَّة	الليّنة العظام السمينة .
ورِعْدِيد	رخصة .
ورَهِيدة	الشابة الرخصة الناعمة .
وعُبْرُد	الجارية البيضا الناعمة ترتجّ من نعمتها .
وعَضاد	المراة الغليظة العضد .
وعُمُدّة	الشابة الممتلئة شبابا كالعُمُدانية.
وغادة	المراة الناعمة اللّينةاليّنة الغَيد .
وغَيدآ	المتثنية لينا .
ومَقصدة	المراة التامة العظيمة تعجب كل احد والتي الى القصر .
ومادة	الجارية الناعمة.
ومَمسودة	مجدولة الخلق .
وأملُود	المرأة الناعمه الينة .
وناهِد	كاعب .
وبَهَيرة	السيدة الشريفةوالصغيرة الخلق الضعيفة وكذا البهيلة .
وبشيرة	جميلة .
ومبشورة	الحسنة الخلق واللون .
وتارّة	ممتلئة الجسم .
وتُرّة	الحسناء الرعناء .
وجُحاشرة	الضخمة الحادرة الجسيمة العبلة المفاصل العظيمة الخلق .
وجَهراء	مونث الاجهر وهوالحسن المنظر والجسم التامّه والاحول المليح الحولة.
وحادرة	السمينة او الحسنة الجميلة .
وأحورِيّة	البيضا الناعمة .
وحوارِيّة	الحواريّات نسآ الامصار.

وحوراء الحَوَران يشتد بياض العين وسواد سوادها وتستدير حدقتها وترق جفونها ويبيض ما حواليها اوالخ .

وذات تدهكر ترجرج .

ومُدَهْمَرة المرأة المكتنزة المجتمعة .

ومزنرة طويلة جسيمة .

وزهراء المرأة المشرقة الوجه .

ومَسبورة الحسنة الهيئة .

ومسمورة الجارية المعصوبة الجسد غير رخوة اللحم .

وشغفر المرأة الحسنآ .

وصَيرة الحسنة الصورة .

وعبقرة تارة جميلة .

وعبهرة الرقيقة البشرة الناصعة البياض والسمينة الممتلئة الجسم كالعبهر والجامعة للحسن في الجسم والخلق .

وعجنجرة المكتنزة الخفيفة الروح .

ومُعصر التي بلغت شبابها وادركت او دخلت في الحيض او راهقت العشرين .

وغرّاء بيضآ وكذا فرآ

وذات افترار افتر ضحك ضحكاً حسنا .

وفزرآ الممتلئة لحما وشحما او التي قاربت الادراك .

وقفاخرية النبيلة العظيمة من النساء .

ومرمورة المرمورة والمرمارة الجارية الناعمة الرجراجة .

ومشرة الاعضآ ريّا

ومطرة لازمة للسواك أو للتنظف والاغتسال .

وذات مكرة الممكرة الساق الغليظة الحسناء .

وممكورة المطوية الخلق من النساء والمستديرة الساقين او المدمجة الخلق الشديدة البضعة .

ومارِيـة بيضاء برّاقة (من مار).

وذات نَضرة حسن وبهجة.

ووَثِرة الوثيرة الكثيرة اللحم او الموافقة للمضاجعة.

(تنبيه المرأة الربسة الدِعفصة الدِنقصة القُنْبُصة الصَعلة الطَهمل الضَلفع الضَوكة الرصعاء القَشوانة الكرواء اكثر دلاً وغنجا من جميع هؤلاء).

وهَدَكِر المرأة التي اذا مشت حرّكت لحمها وعظامها.

وهَيدَكُور الكثيرة اللحم والشابة الضخمة الحسنة الدلّ كالهُدكورة.

وبِلز المرأة الضخمة او الخفيفة.

وعُكموزة الحادرة التارّة.

وغمّارة الجارية الحسنة الغمز للاعضاء.

وكُناز كثيرة اللحم صُلبة.

وآنِسة الجارية الطيبة النفس.

ويَيْهس الحسنة المشى.

وخَروس البكر في اول حملها.

وخَنساء تقدم ذكرها تحت البرقم.

ومُركِس الجارية طلع نهدها فاذا اجتمع وضخم فقد نهد.

وعَيطموس المرأة الجميلة او الحسنة الطويلة التارة كالعطموس.

وعَلطميس الجارية التارة الحسنة القوام.

وعانِس التي طال مكثها في اهلها بعد ادراكها حتى خرجت من عداد الابكار.

وقُدموسة ضخمة عظيمه.

وقرطاس الجاريه البيضاء المديدة القامه.

وكَنيسة المرأة الحسناء.

ولعساء من في لونها ادنى سواد.

ولَبيس اللينه الملمس.

وعشّة المرأة الطويلة القليلة اللحم او الدقيقه عظام اليد والرجل.

وخربصة المرأة الشابة التارّة .
ودَخُوص الجارية الممتلئة شحما .
ورخصه معروف .
وَبضاضه بَضّة الرخصه الجسد الرقيقه الجلد الممتلئه .
وخَربِضه الجاريه الحديثه السن الحسنه البيضاء التارة .
ورَضراضه في معنى رجراجه
وغضّه غضيضة الطرف الغضّة الناضرة والغضيض من الطرف الفاتر .
وفارض ضخمة .
وفضفاضة الجارية اللحيمة الجسيمة الطويلة .
ومُفاضة الضخمة البطن .
وخُوطانة جارية خوطانة وخوطانية كالغصن طولا ونعمة .
وسبطة الجسم حسنة القدّ .
وَشطّة حسنة القوام طويلة .
وشناط المرأة الحسنة اللون والقوام .
وذات عَنَطوعيط طويلة العنق حسنته .
وذات شناظ مكتنزة اللحم كثيرته .
ومُلعَظة الجارية السمينة الطويلة الجسيمة .
وبتعاء الشديدة المفاصل والمواصل من الجسد
وبَريعة فائقة الجمال والعقل .
وبزيعة ظريفة مليحة كيّسة .
ومُتلع الحسناء لانها تتلع رأسها تتعرض للناظرين اليها .
وسَنيعة الجميلة اللينة المفاصل اللطيفة العظام .
وشَبْعى الخلخال والسوار ضخمة تملاهما سمنا .
وشَمُوع مَزّاحة لَعوب .
وصَمعاء الصغيرة الاذن والاذن الصغيرة اللطيفة المنضمّة الى الراس .

وضرعاً عظيمة الضرع .
وفزعاً تامّة الشعر .
ولعّة عفيفة مليحة .
ولاعة التى تغازلك ولا تمكنك (قلت لانها تلوع مغازلها بذلك) .
وأنوف طيبة رائحة الانف .
وخنضرف المرأة الضخمة اللحيمة الكبيرة الثديين .
وذلفاً تقدم ذكر الذلف تحت البرقع .
وذات سجف السجف دقة الخصر وخماصة البطن .
وسرعوف المرأة الطويلة الناعمة .
وسيفانة الطويلة الممشوقة الضامرة .
وظريفة الظرف انما هو في اللسان او حسن الوجه والهيئة او يكون في الوجه واللسان او البراعة وذكا القلب او الحذق او لا يوصف به الا الفتيان الازوال والفتيات الزولات لا الشيوخ ولا السادة .
وقرضافة القرضافة من النساء التي تتدحرج كانها كرة .
وقصاف المرأة الضخمة .
ولفاء واحدة اللفّ للجواري السمان الطوال .
وحسنة المعارف والموقفين المعارف الوجه وما يظهر من المرأة والموقفان الوجه والقدم او العينان واليدان وما لا بدّ لها من اظهاره .
ومهفهفة ضامرة البطن دقيقه الخصر.
وهيفاً الهيف ضمر البطن ورقه الخاصره .
وبرّاقة الحسنا لها بهجة وبريق كالابريق .
وبهلق المرأة الحمراء جدا.
وحاروق نعت محمود للمرأة عند الجماع .
وخرباق الطويلة العظيمة او السريعة المشى.
ورشيقة حسنة القدّ لطيفته .

ورَقـراقه التي كأنَّ الماء يجري في وجهها .
ورُوْقه حسناً تعجب .
وسَوْقاً الطويلة الساقين او الحسنتهما .
وعَبِقه المرأة التي اذا تطيَّبت بادنى طيب لم يذهب عنها اياما .
وعاتق الجاريه اول ما ادركت .
وعَشَنَّقه طويلة ليست بضخمه ولا مُثْقلة .
وغبْرُقه العينين واسعتهما شديدة سواد سوادهما .
وغُرانق امرأة غرانق وغرانقه شابه ممتلئة .
وذات غَرْنقه غزل بالعينين .
وذات لِمَّة غرانقة ناعمة تفيِّئها الريح .
وفُنُق جارية فنق ومفناق منعمة .
ولَبِقة الحسنة الدلّ واللبسة .
ومُلصقة الضيقة المتلاحمة .
ولَهِقه شديدة البياض .

(تنبيه المرأة الطرطبة المتجخبة الزَّغادبة العكباء ذات الحردبة والسنطبة البلعثة السَّخرثا الخُنظوب العكبرة المُشدَّنة الخطلا اكثر دلاً وغنجا من جميع هؤلاء).

وممشوقة خفيفة اللحم .
ورَودكة حسناء في عنفوان شبابها .
وضِبرك المرأة العظيمة الفخذين .
وضكضاكة قصيرة مكتنزة .
وضُنأكة الصلبة المغصوبة اللحم .
ومُعرَوْركة متداخلة .
وعَكَوَّكة القصيرة الملززة او السمينه .
وعَضنَّك اللفاء التي ضاق ملتقى فخذيها مع ترارتها
وعاتكة المرأة المحمرة من الطيب .

ومُفلّك التي استدار ثديها .
ومكاكه المكاكه والكمكامه القصيرة المجتمعه الخلق .
وهبركه الجاريه الناعمه .
واسيلة الخدّين الاسيل من الخدود الطويل المسترسل .
ومبتّلة الجميلة كأنها بتل حسنها على اعضائها اى قطع والتي لم يركب بعض لحمها بعضا وفي اعضائها استرسال .
وبهكلة المرأة الغضه الناعمه .
وجمول جملاء الجمول السمينه والجملاء الجميله والحسنه الخلق من كل حيوان .
وخدلة المرأة الغليظه الساق المستديرتها او الممتلئه الاعضا لحما في دقة عظام كالخدلاء .
وخَـلّه المرأة الخفيفه .
ودحمله الضخمه التارة .
ودمحله السمينه او الحسنه الخلق .
ومكسال نعت للجاريه المنعمه لاتكاد تبرح من مجلسها مدح .
ورخيمة رخمت الجاريه صارت سهله المنطق فهي رخيمه ورخيم .
ورقيمة المرأة العاقله البرزة وفي ب رز امرأة برزة بارزة المحاسن او متجاهرة كهله جليله الخ .
وميسانه الضحى مدح ونحوه نووم الضحى .
وحسنه الخفيين اي صوتها واثر وطئها يقال اذا حسن من المرأة خفياها حسن سائرها
وغانيه المرأة التي تُطلب ولا تطلب او التي غنيت بحسنها عن الزينه .

(تنبيه المرأة القرزح القيلع الخنجل الخزمل الحمكه الخثل الجبله الجهبله الخنكاه القيعله اكثر غنجا وتدعبا من جميع هؤلاء)

وسيأتي تتمه وصف الحسان في الفصل السادس عشر من الكتاب الرابع اذ لم يبق لى من حراك وقوة لذلك واحسب القاري نظيري . وانما اقول . نعم لو كان في ذلك المجلس السعيد جميع هؤلاء الحسان على اختلاف الوانهن لودّ ان ينظمهن كلهن في سلك

واحد ويجعله فى عنقه كسبحه اولياء الله المفردين. ومن ماراني في ذلك رجعته الى قصة سيدنا سليمن عم • فانه معما اوتي من الحكمة • وما ادراك ما الحكمه • فقد كان سلكه يشتمل على الف امرأة .منهن ثلثمائه سُرّيات والباقي سَرّيات • فكان له في كل يوم امرأتان ونصف وكسور ألا ولو انه اى الرجل رأى الشمس طالعه والبدر بازغا والكواكب مضيئه لكان اول مايخطر بباله ان يقول • لقد تزينت هذه السماء بهذه النيرات البهيه . فمتى تزين حجرتي بواحدة من اخواتهن او باثنتين او بثلاث او بعشر او بالسبحه كلها . ولو رأى غوطه او ربوة او جبلين متناوحين او نوفا اوحُشّه او هدفا او شَقبا او قوزا او دِعصا او كوثلا او خوطا يتأوّد او بحرا يتموّج او عوطبا او طاووسا او تفاحا او رمانا او عقد درّ منظوم او شيا آخر يروق العين لسبق وهمه الى امرأة • بل ربما تصور واحدة لم يكن قد رآها قط ولا وجود لها في الاعيان ولو رأى سفينه ماخرة في اليم وعليها شراعها لشبهها بامرأة ترفل بثيابها في الطرق كما كان داب احد الخرجيين المتورّعين • ولو رأى حمامتين تتزاقان وتتلاسنان قال ليت لي الان من أن ازقّها وتزقني والاسنها وتلاسنني وانقرها وتنقرني • ولو رأى ابو بُرائل بين ضفادره يلعمهن مما لديه ويصفق لهن بجناحيه ويجثّل اليهن ويحفل ثم يخلج بينهن لود ان يكون نظيره • وحسبك بذلك من دناءة وأهانه لهذه الصورة البشريه التي يقال فيها انها خلقت على مثال الخالق تعالى عن الشبيه والنظير • الا ولو انك القيته في جب سيدنا يوسف • وفي فلك سيدنا نوح • وفي بطن حوت سيدنا يونس • وعلى ناقه سيدنا صالح . ومع اصحاب الكهف • لصرخ قائلا المرأة المرأة • ومن لي بالمرأة ولو أنزلته في

بُنانة	الروضه المعشبة .
ورَقْمة	الروضه وجانب الوادي اومجتمع مائه.
ودَقِيرة	الروضه الحسنا العميمه النبات .
ووَدِيفه	الروضه الخضراء .
وغَلْبآ	الحديقه المتكاثفه .
وعُلجوم	البستان الكثير النخل .

وَمَخْرفه البستان .

وحديقه الروضه ذات الشجر .

وفي حُجْرة وعِلِّيه وغرفه ومقصورة وخِدر وحَجَلة ومِنَصة .

وسِدار شبه الخِدر والموصَّد الخدر .

وحُشّه القبه العظيمه .

وجُنْبُذة كالقبه .

وعرش الخيمة والبيت الذي يستظل به كالعرش .

وكِرح بيت الراهب ومثله الركح .

وكُوخ البيت المسنم من قصب .

وصومعه بيت للنصارى .

ورِيغ الصومعه .

وفنزر بيت يتخذ على خشبة طولها نحو ستين ذراعا للربيئه .

وبَهو البيت المقدم امام البيوت .

وحِلة جماعة بيوت الناس او مئة بيت والمجلس والمجتمع .

وفُسطاط السرادق من الابنيه ومثله المضرب .

وكِبس بيت من طين .

وحِفش البيت الصغير جدا .

وجَنز البيت الصغير من الطين .

وخُص البيت من القصب أو — .

ورَدهه البيت الذي لاعظم منه .

ومَجلوه البيت الذي لاباب فيه ولا ستر .

ووأم البيت الدفيء .

وأُقنه بيت من حجر .

وطِراف البيت من أدم

ووَسُوط بيت من بيوت الشعر اوهو اصغرها .

وطُنف	السقيفه تشرع فوق باب الدار
ونُزُل	ما هيّئ للضيف ان ينزل عليه
ومَغنى	المنزل الذي غني به اهله ثم ظعنوا او عامّ .
ومعهد	المنزل المعهود به الشي .
ومَعان	المباءة والمنزل .
ونَدِيّ	مجلس القوم نهارا او — .
ومُرتَبَع	الموضع يرتبعون فيه في الربيع .
ومصيف ومشتى	معروف .
ودَسكرة	بنآ كالقصر حوله بيوت او — .
ومَشرقة	موضع القعود في الشمس بالشتآء .
ومضحاة	ارض مضحاة لاتكاد تغيب عنها الشمس .
وظُلّة	شي كالصفّة يستتر به من الحر والبرد .
ومشربه	الغرفة والعلية والصفة .
وسُعنه	الزَفن او مطلق المظلّة .
ومظلّه	الكبير من الاخبيه .
وساباط	سقيفة بين دارين تحتها طريق .
وعرزال	بيت صغير يتخذ للملك اذا قاتل الخ .
وكِنّ	البيت .
وقطون	المخدع .
وسَرَب	الحفير تحت الارض .
وديماس	الكنّ والسَرَب والحمّام .
وبُرج	معروف .
وصَهوه	البرج في اعلى الرابيه .
وصَرح	القصر وكل بنآ عال .
وعَقر	البنآ المرتفع .

وطِربال	كل بنآ عال .
وأزَج	ضرب من الابنيه .
وإيوان	الصفه العظيمه كالازج .
ورواق	بيت كالفسطاط أوسقف في مقدّم البيت .
وأُجم	كل بيت مربع مسطح وبضمتين الحصن .
وكَعبه	الغرفه وكل بيت مربّع .
وأُطُم	القصر وكل حصن مبني بحجارة وكل بيت مربع مسطح .
ووشِيع	عريش يبنى للرئيس في المعسكر .
وسُنّبق	بيت مجصّص .
وجَوسق	القصر .
ودوشق	البيت ليس بكبير ولا صغير او البيت الضخم .
وقُهقور	بنآ من حجارة طويل .
وبُغبور	الحجر الذي يذبح عليه القربان للصنم .
وزُور	مجلس الغناء .
وبُدّ	بيت الصنم .
وزُون	الموضع تجمع فيه الاصنام وتنصب وتزيّن .
ومسجد	معروف .
وكنيسه	معروف .
وفُهر	مدارس اليهود تجتمع اليه في عيدهم . او— .
ومدراس	الموضع يقرأ فيه القرآن ومنه مدارس اليهود .
وفي كوكبان	حصن باليمن رصع داخله بالياقوت فكان يلمع كالكوكب
والجَوسق	دار بنيت للمقتدر في دار الخلافة في وسطها بركة من الرصاص ثلثون ذراعا في عشرين

وقصر النعمان الذي بناه السنمار هو رجل اسكاف بنى قصرا للنعمان ابن امرء القيس فلما فرغ القاه من اعلاه لئلاّ يبني لغيره مثله او هو غلام

وبُرقع اسم للسماء السابعة او الرابعة او الاولى .

والحاقورة اسم للسما الرابعة .

والصاقورة اسم للسماء الثالثة .

والغُرفة السما السابعة وكذا عَرُوبا وفيها سدرة المنتهى .

وعِقيُون بحر من الريح تحت العرش فيه ملئكة من الريح معهم رماح من الريح ناظرين الى العرش تسبيحهم سبحان ربنا الاعلى .

والاَعراف سور بين الجنة والنار . لاخذ بزعق بعجامع حلقومه ويقول المراة المراة . فاني مادمت بشراً لابدّ لي من المراة . ولو اريته من الغرائب

السَكِينة شي كان له راس كراس الهرّ من زبرجد وياقوت وجناحان .

والـكَلواذ تابوت التوراة .

وقُرطي ماريَة هي مارية بنت ارقم او ظالم كان في قرطها مائتا دينار او جوهر قوّم باربعين الف دينار او درّتان كبيضى حمامة لم ير مثلهما قط فاهدتهما الى الكعبة .

وقنطرة خُرّزاذا امّ ازدشير بسمرقند بين ايدج والرباط من عجائب الدنيا طولها الف ذراع وعلوها مائة وخمسون اكثرها مبني بالرصاص والحديد .

وتابوت تاحة هي تاحة بنت ذي الشُفر قال ابن هشام حفر السيل عن قبر باليمن فيه امرأة في عنقها سبع مخانق من در وفي يديها ورجليها من الاسورة والخلاخيل والدماليج سبعة سبعة وفي كل اصبع خاتم فيه جوهرة مثمنة وعند راسها تابوت مملو مالاً ولوح فيه مكتوب باسمك اللهم اله حمير انا تاحة بنت ذى شفر بعثت مائرنا الى يوسف فابطا علينا فبعثت لاذتي بمُدّ من وَرَق لتاتيني بمُد من طحن فلم تجده فبعثت بمدّ من ذهب فلم تجدة فبعثت بمدمن بحريّ فلم تجده فامرت به فطُحن فلم انتفع به فاقتفلت فمن سمع بي فليرحمني وايّة امراة لبست حليا من حلبى فلا ماتت الاّ ميتتي .

وذا الفَقار سيف العاص بن منبّه قتل يوم بدر وكان كافراً فصار الى النبي صلعم

ثم صار الى عليّ .

والكَشُوح من السيوف السبعة التي اهدتها بلقيس الى سليمن عم .

والخِنّ حيّ من الجنّ منهم الكلاب السود البهم او سفلة الجن وضعفاؤهم وكلابهم او خلق بين الانس والجن .

وأوْرَام الجوز قرية بحلب فيها اعجوبة وهي ان المجاورين لها من القرى يرون فيها بالليل ضو نار في هيكل فيها فاذا جاوه لا يرون شياً .

والرّئيّ جنّي يُرَى فيُحب .

وفرس قابن الذي قال له هِجْدَم يقال اول من ركبه ابن ادم القاتل حمل على اخيه فزجر الفرس فقال هج الدم فخفف .

والعصافير شجر يسمّى من راى مثلي له صورة كالعصافير كثيرة بفارس .

والنَّسْناس جنس من الخلق يثب احدهم على رِجْل واحدة وفي الحديث ان حيّا من عاد عصوا رسولهم فمسخهم الله نسناسا لكل انسان منهم يد ورجل من شق واحد ينقزون كما ينقز الطائر ويرعون كما ترعى البهائم وقيل اولئك انقرضوا والموجود على تلك الخلقة خلق على حدة او هم ثلثة اجناس ناس ونسناس ونسانس او النسانس الاناث منهم او هم ارفع قدرا من النسناس او هم ياجوج وماجوج او هم قوم من بنى آدم او خلق على صورة الناس وخالفوهم في اشيا وليسوا منهم .

ودُعموصا رجل زنـا مسخه الله دعموص الدويبة او دودة سوداء تكون في الغدران اذا نشت .

وعَبُودا عبد اسود اول الناس دخولا الجنة .

وعامر بن جَدَرة اول من كتب بخطنا .

ومُرامرا اول من وضع الخط العربي .

وابا عُرْوة رجل كان يصيح بالاسد فيموت فيشقّ بطنه فيوجد قلبه قد زال من موضعه .

وطَخْمُورث ملك من عظما الفرس ملك سبعمائة سنة .

والوَضّاح	رجل ملك الارض وكانت امه جنّية فلحق بالجنّ .
والرابضة	ملئكة هبطوا مع ادم وبقية حملة الحجة لاتخلو الارض منهم .
واليَبروح	اصل اللفّاح شبيه بصورة انسان .
وسُكَينة	اسم البقّة الداخلة انف نمرود .
وطاخية	نملة كلمت سليمن عم .
وعَيْجَلوف	اسم النملة المذكورة في القرآن .
والدُخَس	دابة بحرية تنجي الغريق تمكنه من ظهرها ليستعين على السباحة وتسمى الدلفين
والجسّاسة	دابة تكون في الجزائر تجسّ الاخبار فتاتي بها الدجال .
والرُخّ	طائر كبير يحمل الكَركَدّن .
والكركدن	دابة تحمل الفيل على قرنها .
والزَبْعرَى	دابة تحمل الفيل بقرنها.
والعَقام	سمك وحيّة تسكن البحر ويأتي الاسود من البر فيصفر على الشط فتخرج اليه العقام فيتلاويان ثم يفترقان فيذهب كل منهما الى منزله.
وبنت طَبَق	سلحفاة تبيض تسعا وتسعين بيضة كلها سلاحف وتبيض بيضة تنقف عن حية.
والفلتان	طائر يصيد القردة .
والبُلَت	طائر محترق الريش ان وقعت ريشة منه في الطير احرقته.
والسُمندل	طائر بالهند لا يحترق بالنار .
والتهبط	طائر اغبر يتعلق برجليه ويصوت بصوت كأنه يقول انا اموت انا اموت.
والأُنن	طائر كالحمام صوته انين أوه اوه .
والزماح	طائر يأخذ الصبي من مهده .
والهديل	فرخ على عهد نوح عم مات عطشا او صاده جارح من الطير فما من حمامة الا وهي تبكي عليه .
والقَرقفنّة	طائر يمسح جناحيه على عيني القندع الديوث فيزداد لينا.
والقَقنس	طائر عظيم بمنقاره أربعون ثقبا يصوت بكل الانغام والالحان العجيبة

المطربة يأتي الى راس جبل فيجمع من الحطب ماشاء ويقعد ينوح على نفسه اربعين يوما ويجتمع اليه العالم يستمعون اليه ويتلذذون ثم يصعد الى الحطب ويصفق بجناحيه فيقدح منه نار ويحترق الحطب والطائر ويبقى رماداً فيتكوّن منه طائر مثله ذكره ابن سينا في الشفاء. لمدّ عنقه وجعل اصابعه في اذنيه واذّن صارخا .هاي هاي المرأة المرأة. أروني المرأة . . مايجزئني شيء عن المرأة . ولو انك لاعبته .

بالجنابي	لعبة للصبيان .
وحَدَبْدَبى	لعبة للنبيط .
والطبطابة	خشبة عريضة يلعب بها بالكرة .
والقرطبى	ضرب من اللعب ونوع من الصراع .
والكبكب	لعبة .
والكوبة	النرد او الشطرنج .
والهبهاب	لعبة للصبيان .
وكتكتى	لعبة .
والبُحَيْثى	لعبة بالبُحاثة اي التراب .
والكُشكُشى	لعبة بالتراب .
والطَثّ	لعبة للصبيان يرمون بخشبة مستديرة تسمى المطثّة .
واللُوثة	خرقة تجمع ويلعب بها .
والأنبوثة	لعبة يدفنون شيأ في حفيرفمن استخرجه غلب .
والشطْرنج	معروف .
والخَرِج	لعبة يقال لها خراجِ خراجِ .
والفنزج	رقص للعجم .
والقَجقَجة	لعبة يقال لها عظم وضاح.
والكُجّة	لعبة يأخذ الصبي خرقة فيدوّرها كانها كرة .
والكجكجة	لعبة تسمى است الكلبة .

والجُمّاح ثمرة تجعل على راس خشبة يلعب بها الصبيان .
والجَمْح رمي الصبي الكعب بالكعب حتى يزيله عن مكانه .
ودِحندِح لعبة للصبية يجتمعون لها فيقولونها فمن اخطاها قام على رجل وحجل سبع مرات .
والدّاح نقش يلوح للصبيان يعلّلون به ومنه الدنيا داحة .
والرُجّاحه حبل يعلق ويركبه الصبيان .
والدُبّاخ لعبة .
والدُمّاخ لعبة للاعراب .
والمطخة خشبة يلعب بها الصبيان .
والطَرِيدة لعبة تسميها العامة المسّة والضَبْطة فاذا وقعت يد اللاعب من آخر على بدنه راسه او كتفه فهي المسّة واذا وقعت على الرجل فهي الاَسن .
والنَرْد معروف
والمواغدة لعبة وان تفعل كفعل صاحبك .
والباقر لعبة .
والبُقَّيرى لعبة .
والجُعرّى لعبة للصبيان وهو ان يحمل الصبي بين اثنين على ايديهما .
والحَاجُورة لعبة تخط الصبيان خطًا مدورا ويقف فيه صبي ويحيطون به ليأخذوه .
والدكر لعبة للزنج والحبش .
والسحّارة شي يلعب به الصبيان .
والسُدّر لعبة للصبيان .
والعَرْعرة لعبة للصبيان .
والشعارير لعبة .
والمنجار لعبة للصبيان او الصواب الميجار .
والتُوَز خشبة يلعب بها بالكجة .
العَرْز عرز لفلان قبض على شيء في كفه ضاما عليه اصابعه يريه منه شياء لينظر

اليه ولا يريه كله

والقُفَيْزى لعبة للصبيان ينصبون خشبة و يتقافزون عليها

والنُقّاز لعبة لهم يتنافزون فيها اي يتواثبون .

والبُكْسة الكجة .

والحوالس لعبة للصبيان.

والدُسَّة لعبة .

والدَعْكَسة لعبة للمجوس كالرقص .

والفِسْفِسَى لعبة لهم .

والفاعوس لعبة لهم .

والبَوْصاء لعبة لهم يأخذون عودا في رأسه نار فيديرونه على رؤسهم .

والرَقاصة لعبة .

والحُوْطة لعبة تسمى الدارة .

والحُطّة لعبة للاعراب .

والضَبْطة لعبة لهم .

والتَضَرْفُط وهو ان تركب احدا وتخرج رجليك من تحت ابطيه وتجعلها على عنقه.

والضُرَيفِطيّة لعبة لهم.

والمَقْط مقط الكرة ضرب بها الارض ثم اخذها .

والمِرْصاع دُوّامة الصبيان وكل خشبة يدحى بها.

واليَرْمَع الخذروف.

وقَلَوْبع لعبة لهم.

والبَحْخَفة اللعب بالكرة.

والخذروف شي يدوره الصبي بخيط في يديه فيسمع له دوىّ ويسمّى ايضا الخُذرة والقرصافة والخذروف ايضا طين يعجن يعمل شبيهها بالسكر يلعب به الصبيان .

والزحلوفة تزلج الصبيان من فوق التل الى اسفله .

والعياف	العياف والطريدة لعبتان لهم .
وقاصّة قرصافة	لعبة لهم.
والحُزُقّة	ضرب من اللعب .
والدَبّوق	لعبة .
والزُحلوقة	الارجوحة .
والشَفَلّقة	لعبة وهو ان يكسع انسانا من خلفه فيصرعه .
والعَفْقة	لعبة .
والعُقّة	التي يلعب بها الصبيان.
والقِرْق	لعب السدّر .
والمُكرّك	لعبة لهم .
ودبَّى حجَل	لعبة .
والدَخْيلياء	لعبه لهم .
والدِرَقْلة	لعبة للصبيان .
والدِرِكلة	لعبة للعجم او ضرب من الرقص او هي حبشية.
والفِئال	لعبة للصبيان يخبّون الشيء في التراب ثم يقسمونه و يقولون في ايهاهو.
والفِيال	لعبة لفتيان العرب .
والدمّة	لعبة .
والدوّامة	التي يلعب بها الصبيان فتدار وتسمى ايضا المِرْصاع .
والمَرغمة	لعبة لهم .
والشَحْمة	لعبة لهم .
وعظم وضاح	لعبة لهم .
والمِهْزام	عود يجعل في رأسه نار يلعبون به .
والبَرْطنة	ضرب من اللهو كالبرطمة .
والثُون	خرقة يلعب عليها بالكجة .
والطُبَن	لعبة لهم .

والقِنَّتِين	لعبة للروم يتقامرون بها .
والكِبْنة	لعبة .
والدَّمَّه	لعبة للصبيان.
والمجذاء	خشبة مدورة تلعب بها الاعراب .
والخاساة	خاساه لاعبه بالجوز فردا او زوجا .
والقزة	لعبة .
والقلة	عودان يلعب بهما الصبيان .
	لشحر فاه وشحاه وعجاه وزاد صراخا وضجيجا وهو يقـول المرأة المرأة . الا فلاعبوني بالمرأة .ولو انك طربته
بالرَّباب	معروف.
والعرطبـة	العود اوالطنبور اوالطبل اوطبل الحبشة
والـكُوبة	البربط والطبل الصغير المخصّر .
والدريج	شيء كالطنبور يضرب به .
والصنج	شيء يتخذ من صفر يضرب احدهما على الآخر وآلة باوتار يضرب بها معرّب والصيار صوت الصنج .
والوَنّج	ضرب من الاوتار او العود او المعزف.
والعود	معروف .
والمزمار	مايزمّر به ويقـال له ايضـا الزمخـر والزنبق والصلبوب والنفيب والقصابة والهنوقة .
والمزهر	العود يضرب به.
والشبُّور	البوق ويقال له ايضا القُبع والقشُع والقُنع والصُور .
والطنبور	معروف .
والـكنَّارات	العيدان اوالدفوف اوالطبول اوالطنبور.
والـكوس	الطبل.
والبربط	العود .

والشِّياع مزمار الراعي.

والهَيرعة اليراعة يزمر بها الراعي.

والدف معروف.

والمسُتقة آلة يضرب بها الصنج ونحوه.

والعَركل الدف والطبل .

والصَغانة من الملاهي معرّبة.

والطبن الطنبور او العود.

والقنّين الطنبور.

والكران العود او الصنج .

والونّ الصنج .

لطفل فاغرافاه وهو يزعق ويقول المرأة المرأة . الافطرّ بوني بالمرأة •ولو اطعمته

الجُوذاب طعام يتخذ من سكر ورز ولحم .

والقبيب الاقط خلط رطبه بيابسه •

والكَباب معروف .

والسَنّوت الزبد والجبن والعسل وضرب من التمر .

والمِغفيتة العصيدة المغلّظة اومرقة تشبه الحيس .

والنَفيتة طعام اغلظ من السخينة.

والعُلاثة سمن واقط يخلط .

والغَبيثة لتّ الاقط بالسمن كالعيثة.

والسِكباج معروف•

والطبَاهجة اللحم المشرّح•

والنابجة طعام جاهليّ•

والاَخيخة دقيق يعالج بالسمن او الزيت

والقفيخة طعام يعالج بالتمر والاهالة .

والكامخ ادام •

والثريد	معروف .
والرشيدية	طعام معروف فارسيته رشته .
والرَّهيدة	البُرّ يدق ويصب عليه لبن .
والشَّهيدة	البرَق المشوي .
والقَديد	اللحم المشرَّر المقدّد .
والحَنيذ	حنذ الشاة شواها وجعل فوقها حجارة محماة لينضجها فهي حنيذ .
والزُماوَرْد	طعام من البيض واللحم ويسمى ايضا الميسر .
والبَرابِر	طعام يتخذ من فريك السنبل والحليب .
والبُورانية	طعام ينسب الى بوران بنت الحسن بن سهل زوج المامون .
والجاشِريّة	طعام .
والجَعاجر	ما يتخذ من العجين كالتماثيل فيجعلونها في الربّ اذا طبخوه .
والحَريرة	دقيق يطبخ بلبن او دسم .
والحَكَر	السمن بالعسل يلعقها الصبي .
والمَخْبور	الطعام المدسّم والخُبْرة والثريدة الضخمة — والطعام واللحم وما قدّم من شيء وطعام يحمله المسافر في سفرته وقصعة فيها خبز ولحم بين اربعة او خمسة .
والخَزيرة	شبه عصيدة بلحم .
والصَحيرة	اللبن الحليب يغلي ثم يصب عليه السمن .
والغَذيرة	دقيق يحلب عليه لبن ثم يحمى بالرضف .
والغُرْفور	سويق من ثمر اليَنْبوت .
والمُرّيّ	ادام الكامخ .
والمَضيرة	مريقة تطبخ باللبن المضير .
والنَجيرة	لبن يخلط بطحين او سمن .
والوَغير	لبن يغلي ويطبخ .
والخامِز	مرق السكباج .

والخَنِيز	الثريد من الخبز الفطير .
والمُرَزَّز	الطعام المعالج بالرز .
والبَسِيسة	لت الاقط المطحون بالسمن .
والحَمِيسة	القلية .
والحَيْس	تمر يخلط بسمن واقط فتعجن شديدا .
والكَسِيس	لحم يجفف على الحجارة فاذا يبس دق فيصير كالسويق .
والهَرِيسة	معروف .
والبَوْش	طعام يعصر من حنطة وعدس يجمع و يغسل في زنبيل ويجعل في جرة ويطين ويجعل في تنوّر .
والجَشِيش	السويق وحنطة تطحن جليلا فتجعل في قدر و يلقى فيه لحم او تمر فيطبخ .
والرَشْرَش	السمين من الشوآ .
والقَمِيشة	طعام من اللبن وحب الحنظل ونحوه .
والمكَرْشة	طعام يعمل من اللحم والشحم في قطعة مكورة من كرش البعير .
والكَوْشان	طعام من الرز والسمك .
والآمِص	الآمص والاميص طعام يتخذ من لحم عجل بجلده او مرق السكباج المبرّد المصفّى من الدهن .
والخَبِيص	طعام من التمر والسمن ويسمى ايضا البَرُوك .
والعَمُص	ضرب من الطعام .
والكَرِيص	طبيخ الحماض باللبن فيجفف فيوكل في القيظ .
والمَصُوص	طعام من لحم يطبخ و ينقع في الخل او يكون من لحم الطير خاصة .
والأقِط	شي يتخذ من المخيض الغنمي .
والمُبَرْقَط	طعام يفرق فيه الزيت كثيرا .
والبَهَطّ	الارز يطبخ باللبن معرب .
والخَلِيط	الجدي اذا سلخ فشوى .
والسَمِيط	الجدي اذا نزع شعره فشوى .

والسُّرَيْطاء حسًا كالحريرة .

والسُّوَيْطاء مرقة كثر ماؤها وثمرها اى بصلها وحمصها وسائر الحبوب .

والتَّشْييط لحم يشوي للقوم .

والخَدِيعة طعام لهم .

والخَذِيعة طعام بالشام من اللحم مشتق من خذع اى حزّز وقطع والمخذّع الشواء .

والخَلْع لحم يطبخ بالتوابل في وعاء من جلد او القديد المشوي في وعاء باهالته .

والرَّصِيعة البُر يدق بالفهر ويبلّ ويطبخ بالسمن.

والوَضيعة حنطة تدق فيصب عليها السمن فيوكل

والثميغة مارقّ من الطعام واختلط بالوَدَك .

والخَطِيفة دقيق يذر عليه اللبن ثم يطبخ .

والصفصفة السكباجة .

والطِحْرِف حسا رقيق دون العصيدة .

والمُوخف طعام من اقط مطحون يذر على ماء ثم يصب عليه السمن .

والألوقة طعام طيب او زُبد برُطَب.

والحَرُوقة طعام اغلظ من الحسا .

والمدقّقة من الطعام مولدة .

والرَّوْذَق الحمل السميط وما طبخ من لحم وخلط باخلاطه .

والزُّرَيقاء الثريدة بلبن وزيت

والسَّلِيقة الذرة تدق وتصلح او الاِقط خلط به طرائيث وماسلق من البقول ونحوها .

والسويق معروف .

والشُّبارق ماقتطع من اللحم صغارا وطبخ .

والوشيق لحم يقدد حتى ييبس او يُغلى اغلاة ثم يقدد ويحمل في الاسفار .

والوليقة طعام يتخذ من دقيق ولبن وسمن .

والدَّليك طعام من الزبد واللبن او زبد وتمر ونبات وثمر الورد الاحمر يخلفه.

وبحلوا كأنه رَطب الخ .

والربيكة اقط بتمر وسمن.

والسَّهيكة طعام .

والفريك طعام يفرك ويلت بسمن وغيره .

والهَبيكة اقط ودقيق او تمر وسمن يخلط .

والوديكة دقيق يشاط بشحم .

والبَكيلة دقيق بالرب او بالسمن والتمر .

والجَذَل حب شجر ويخبز .

والطَّفَيْشَل نوع من المرق .

والعَوْكل ضرب من الادام .

والزَّوْم طعام لاهل اليمن من اللبن لذيذ .

وابا عاصم السويق والسكباج .

والهُلام طعام من لحم عجل بجلده او مرق السكباج المبرد المصفى من الدهن .

والسَخينة طعام رقيق يتخذ من دقيق .

والكُبان طعام من الذرة لليمنيين .

والتَلْبينة حساء يتخذ من نخالة ولبن وعسل.

والجَليهة تمر يعالج باللبن .

والارَة القديد ولحم يغلى بالخل اغلاة فيحمل في السفر .

والآصية طعام كالحسى بالتمر .

والاطرية طعام كالخيوط من الدقيق .

والكُدَى لبن تنقع فيه التمر تسمَّن به النبات . ولو اطعمته من انواع الكماة الذُبح والفرزحانة والقرنحان والغرذ وبنات أوبر والجاميس والفقع والبرنيق والذُعلوق والقعبل والعرجون والعرهون ومن انواع السمك القُباب والهازبي والكنعت والكنعد والحُبتاط وهي اولاده والبينيث والمدج والانبدج والقُد والغوبر والزمير والزنجور والاشبور والطنز والانقليس والجوفي والسخم

والاُخْم وابامَرِينا .

والصِلِنباح	سمك طويل دقيق .
والحافِرة	سمكة سوداء .
والجِرّى	سمك طويل املس لاياكله اليهود وليس عليه فصوص .
والصَرْصران	سمك املس .
والغارّة	سمكة طويلة .
والقيصانة	سمكة صفراء مستديرة .
والشبّوط	سمك دقيق الذنب عريض الوسط لين المسّ صغيرالراس كانه بَرْبط
والجنيس	سمكة بين البياض والصفرة.
والضلعة	سمكة صغيرة خضراء قصيرة العظم.
والحفة	سمكة بيضاء شاكة .
والعُفّة	سمكة جرداء بيضاء طعم مطبوخها كالارز
والخذّاق	سمكة لها ذوائب كالخيوط .
والحاقول	سمك اخضر طويل .
والقتن	سمكة عريضة قدر راحة.
والغلاء	سمك قصير .
والهفّ	السمك الصغار الهاربة .
والبَلَم	صغار السمك .
والصحناة	ادام يتخذ من السمك الصغار.
والصير	الصحناة او شبهها والسميكات المملوحة يعمل منها الصحناة .
والحريد	السمك المقدد .
والقَريب	السمك المملوح مادام في طراءته .
والطَريخ	سمك صغار تعالج بالملح .
والحساس	سمك صغار تجفف .
والنشوط	سمك يمقر في ماء وملح .

والأُرِبيان	سمك كالدود .
والصُعقر	بيض السمك .
والسكْل	سمكة سوداء ضخمة .
والزَجْر	سمك عظام .
والبال	الحوت العظيم .
والأُطُوم	سمكة بحرية غليظة .
والجَيذرة	سمكة كالزنجي الاسود الضخم .
والبنبك	دابة كالدلفين .
والجمل	سمكة طولها ثلثون ذراعا .
والالياء	سمكة تخذمنها الترسة الجيدة وهو ايضا شيء كالحمص شديد البياض توصف به المرأة .
والنُخس	تقدم ذكرها في الغرائب . ومن المحار
السُلج	اصداف بحرية فيها شيء يوكل .
والدُلاّع	ضرب من محار البحر .
والقَرْنَع	دويبة بحرية لها صدفة .
والجُمَّحل	لحم يكون في جوف الصدف . ومن انواع الخبز
الطُرْموث	خبز الملّة ومثله المفتأد والمُضْباة والطُرموس والاِصْطَكْمة والأُصْطُكُمة . ومن الغرائب هنا ان صاحب القاموس اورد التي بالكسر بعد أ ش م والتي بالضم بعد ص طم .
والزَحْلَحة	الرقيقة من الخبز وكذا الصريقة .
والسُحُوح	خبز شبه القطائف .
والانْبخانيّ	خبزة انبخانية ضخمة .
والخُبْرة	الثريدة الضخمة .
والمشطور	الخبز المطلىّ بالكامخ .
والسِأنجن	الكعك .

والخِنيز الثريد من الخبز الفطير •

والرشرش اليابس الرخو من الخبز كالرشراش •

والهشاش الخبز الرخو اللين •

والمرَبَّقة الخبزة المشحمة ونحوها المروّلة •

والرُقاق الخبز الرقيق •

والضَفيفة خبز الارز المرقق •

والمُلّى الخبزة المنضجة. ومن اجناس اللبن

السَمعج اللبن الدسم الحلو ومثله السملج والسمهج والسهمجيج •

والقطيبَة لبن المعز والضأن يخلطان او لبن الناقة والشاه •

والشميط مالا يدرى احامض هو ام حقين من طيبه

والجُلَعْطيط اللبن الرائب الثخين ومثله لبن عُجَلط وعثلط وعذلط وعكلط وعلبط. تقدم نحوى بغيض كان يتكلم بالاعراب الى لبّان فقال يالبان اعندك لبن عثلط علبط عجلط. فقال له اللبان تنصرف او تُصفع.

والكَفخة الزبدة المجتمعة البيضاء •

والمياخة الزبد الذائب مع اللبن •

والقِشدة الزبدة الرقيقة.

والقلدة القشدة والتمر والسويق يخلص به السمن.

والنهيد الزبد الرقيق.

والعكيس اللبن الحليب تصب عليه الاهالة •

والثميرة اللبن الذي ظهر زبده •

والنخيسة لبن العنز والنعجة يخلط بينهما.

والامخاض الحليب مادام في الممخضة •

والحالوم ضرب من الاقط او لبن يغلظ فيصير شبيها بالجبن الطري •

ومن الحلواء

الوطيئة تمر يخرج نواه ويعجن بلبن والاقط بالسكر والكعك •

والعَبيثة	طعام وشراب من العُرُفط حلو .
والعرت	السكر.
والضيح	العسل والمقل.
والمَلَخ	عسل في جُلنار المَظّ .
واليَعقيد	طعام يعقد بالعسل.
والفارد	ابيض السكر واجوده .
والقَنْد	عسل قصب السكر .
والفانيذ	ضرب من الحلواء .
والصَقْر	عسل الرُطب والدبس .
والاكبر	شيء كأنه خبيص يابس ليس بشديد الحلاوة يجي به النحل.
والفالوذ	م ويسمى ايضا الرعديد والمزعزع والزليل والكمص والمُزعفر .
والماذِيّ	العسل الابيض او الجديد او خالصه وجيده .
والمُسبّر	حلواء.
واللوزِينج	معروف معرب .
والوَخيز	ثريد العسل.
واللوّاص	الفالوذ والعسل .
والسرِطراط	الفالوذ او الخبيص .
والمجيع	تمر يعجن بلبن .
والقطائف	معروف .
والكُرسُفيّ	نوع من العسل .
والطرم	الشهد والزبد والعسل .
والمَنّ	كل طلّ ينزل من السماء على شجر او حجر يحلو و ينعقد عسلا ويجف جفاف الصمغ الخ
والزلابية	حلواء معروف . ومن التمر
الصرَبة	شي كراس السنور فيه شي كالدبس يمص و يؤكل.

والعُترب شجر كالرمان يؤكل .
والبُوت شجر نباته كالزعرور .
والرعثاء عنب له حب طوال .
والجُوح البطّيخ الشامي.
والصَدح ثمرة اشدّ حمرة من العُنّاب.
والمُلاحي عنب ابيض طويل ونوع من التين .
والعنجد الزبيب او ضرب منه .
والفرصاد التوت او حمله او احمره .
والقَشَد نبت يشبه القثاء او الخيار .
والكَشد حب يؤكل
والمرِيد التمر ينقع في اللبن .
والمغد ثمر يشبه الخيار .
والخناذ المشمش .
والصُفريّة ثمر يماني يجفف بُسراً فيقع موقع السكر في السويق .
والضَمير العنب الذابل .
والزِنبار التين الحلواني .
والسُكّر من احسن العنب.
والزَعرآ ضرب من الخوخ.
والشَعرآ ضرب منه ايضا.
والمِغثر شي ينضجه الثمام والعُشر والرِمث كالعسل وكذا المِغفر .
والغَوفر البطيخ الخريفي او نوع منه .
والقُبّر عنب ابيض طويل .
والمَرمار الرمان الكثير المآء لاشحم له .
والنهر العنب الابيض والكُلافيّ عنب ابيض فيه خضرة .
والجَوزة ضرب من العنب .

والمِشْلَوز المشمش الحلو .
والبَاس ثمر كالتين .
والضَّغابيس صغار القثآ اونبات كالهليون .
والمَيس نوع من الزبيب .
والكِشْمِش عنب صغار لاعجم له الين من العنب .
والضُّرُوع عنب ابيض كبار الحب .
والاَقماعيّ عنب ابيض يصفرّ اخيرا حبه كالورس .
والمَيعة شجرة كالتفاح لها ثمرة بيضآء اكبر من الجوز تؤكل ولبّ نواها دسم يعصر منه الميعة السائلة (في قول) .
والغاف شجر له ثمر حلو جدا .
والباسِق ثمرة طيبة صفرآء .
والرازقيّ العنب المُلاّحى .
لزاد شحر فم وزعيقا ولغطا وزياطا وضجيجا وهو يقول المراة المراة . الافلحسوني المراة .
ولو انك سقيته من الشراب
الرحيق ممزوجا بالبند الرحيق الخمر او أطيبها او الخالص أو الصافي . والبند الذي يسكر من المآء .
والسَلسل ممزوجة بالسلسل السلسل المآ العذب ومن الخمر اللينة .
والمِسطار مزاجها العضرس المِسطار الخمر الصارعة لشاربها والعضرس المآ البارد العذب والثلج .
والاسِفنط مزاجها النقز الاسفنط المطيب من عصير العنب او ضرب من الاشربة او اعلى الخمر . والنقز المآ الصافى العذب .
والخرطوم ممزوجة بالمآ الزلال الخرطوم الخمر السريعة ومآ زلال كغراب سريع المرّ فى الحلق بارد عذب صاف سهل سلس .
والمعتّقة مزاجها الفُرات المعتقة الخمر القديمة والفرات المآ العذب جدا .
والمثلّث شراب طبخ حتى ذهب ثلثاه .

والفَضيخ عصير العنب وشراب يتخذ من بُسر مفضوخ .
والفَقد شراب من زبيب او عسل الفُقد .
والمَقديّ شراب من عسل .
والداذِيّ شراب الفساق .
والجُمهوريّ شراب مسكر او نبيذ العنب اتت عليه ثلث سنين .
والخُسروانى شراب .
والسَكَر الخمر ونبيذ يتخذ من التمر .
والغُبَيراء السكركة وهي شراب من الذره .
والمِزر نبيذ الذرة والشعير .
والكَسيس نبيذ التمر .
والبِتع نبيذ العسل المشتدّ او سلالة العنب .
والسُقُرقَع شراب يتخذ من الذرة او من الشعير والحبوب .
والجِعة نبيذ الشعير .
والفُقّاع هذا الذي يشرب لما يرتفع في راسه من الزبد .
والباذِق ماطبخ من عصير العنب ادنى طبخة فصار شديدا .
والخَليطَين ماينبذ من البسر والتمر معاً او من العنب والزبيب او منه ومن التمر ونحو ذلك .
والصَريّ الماء من البسر الاحمر والاصفر يصبونه على النبق فيتخذون منه نبيذا .
والعَكِيّ سويق المقل .
والاطواق لبن النارجيل وهو مسكر جدا سكرا معتدلا مالم يبرز شاربه للريح فان برز افرط سكره الخ .
والضَعف شراب من العسل او يشدخ العنب فيطرح ثم يغلي .
والنبق دقيق يخرج من لبّ جذع النخلة حلو يقوي بالدبس ثم يجعل نبيذا .
والسَليل الشراب الخالص .
والمَعمول المعمول من الشراب مافيه اللبن والعسل .

والطِلاَ   الخمر وخاثر المنصف وهو الشراب طبخ حتى ذهب نصفه .
لعربد وزاد صراخا وصياحا وهو يقول المراة المراة . الا فاسقوني المراة . بل لو سقيته من الفحفاح والكوثر . ومن رحيق مختوم . مزاجه من تسنيم . وجعلته في جملة من يطوف عليهم ولدان مخلدون . باكواب واباريق وكاس من معين . وفاكهة مما يتخيرون. ولحم طير مما يشتهون . في سدر مخضود . وطلح منضود . وظل ممدود . وماء مسكوب. وفاكهة كثيرة . لا مقطوعة ولا ممنوعة . وفرش مرفوعة . وعنده جنتان . ذواتا افنان . فيهما عينان تجريان . فيهما من كل فاكهة زوجان . من دونهما جنتان . مدهامتان . فيهما عينان نضاختان . فيهما فاكهة ونخل ورمان . فيهن خيرات حسان . فيها فاكهة والنخل ذات الاكمام . والحب ذو العصف والريحان . بين متكئين على رفرف خضر وعبقري حسان . بين متكئين على فرش بطائنها من استبرق . وعلى فرش موضونة . يسقون فيها كاسا كان مزاجها زنجبيلا . عينا فيها تسمى سلسبيلا ويطوف عليهم ولدان مخلدون اذا رايتهم حسبتهم لولوا منثورا . عاليهم ثياب سندس خضر واستبرق وحُلّوا اساور من فضة . لما رايته والحالة هذه راضيا من دون المراة . فاعوذ بالله من هذا الانسان . ومع ذلك اي مع كون وجود الطعام والشراب للرجل الزم من وجود المراة اذ الاول مخلوق لحفظ الحياة والثاني لتقويم الطبيعة على ماسبق ذكره . فان وجود المراة اصعب منهما واكثر تعذرا واغلى سعرا . اذ الطعام والشراب يوجدان في كل مكان وزمان . حتى ان اهل سقر لهم طعام من الزقوم والمُهل والضريع . وشراب من غسلين . وظل من يحموم ولكن ليس لهم نساء من مارج من النار أو من الشياطين ولا وجود للمراة ايضا في السفينة ولا في دير الرهبان الا نادرا . ولا لراكب فرس او حمار او جمل او بغل . ولا لساع على القدم . ولا لمباشر الحرب ولا للمسجون. ولا لقبيح الخلقة الا اذا كان جميل الدينار والجلاَ . ولا لشاعر مملق وان تملقهن وسهر الليالي في وصف محاسنهن والتشبب بها . ولا لمن به تشويلية وتربلية وزلقية وزُمالقيّة وزِهلقيّة وتيتائيّة واذليلائيّة ونَعنعيّة وهَلوكيّة وشَكّازيّة وثيتليّة وعِنّينية وحَريكيّة وطَمسليّة ومَنجوفيّة وحصوريّة وسَمرسيّة وعجبريّة وذُوذَخيّة وحَوقلية وهَوذلية وخَواخية وعِذيَوطيّة وعضيوطية وعِظيوطية وثَتيّة وتَمُوتيّة وصَفيطية

ومجيّائية وعِتّولية . فان قيل ان الادرم لاخبز له ايضا . قلت يمكن ان يدق له الخبز ناعما فيمضغه ويجترى به . ولكن كيف السبيل الى مضع المراة مع التيتائيّة واخواتها. ثم انه كما وقعت البلبلة عن ذات المراة وحارت العقول في السرّ الذى اودعه الله فيها. من جهة انها اول الاسباب في عمران الكون وخرابه . اذ لا يكاد يحدث في العالم خطب جليل الا وتراها من خلله واقفة وراه او بالحرى مضطجعة . كذلك حصل التشويش والتخليط في اسمها . فالمرأة في لغتنا الشريفة مشتقة من مرؤ الطعام اذا صار مريئا هنيئا حميد المغبة. الا انها كثيرا ما تكون طعاما ذا غصه وشجا وتخمة وتخثير وتخثير. ثم ان همزها للوصل ووصلها للهمز . وجمعها من غير لفظ المفرد وهو متعدد . وفي بعض اللغاتِ هي ويل الرجل . وفي بعضها سَوْأة . فاما الزوجة وهي المفهوم منها انها امرأة وزيادة او نصف امرأة ونصف رجل فقد خصت ترضّيا لها باسماء كثيرة . من ذلك القرينة واشتقاقها معلوم . والعازبة واشتقاقها من عزب اي بعد لانها تعزب عن ابويها الى زوجها او بالعكس او عنه الى غيره . والحُرْمة . واللحاف لانها تدفي الرجل بحر جسدها كما سيأتي. والحَداة والنِضْر العِرس والحَليلة واللباس والجِثْل والحال والحُضُلة والشاعة والحَنّة والرُبُض والنَعْل ولست ارضى بهذه فالاَوْلى محوها . ومن الغريب انها سميت لباسا ولحافا ولم تسمّ سروالا . قال بعض العلماء اذا اراد الله ان يقضي خيرا على الارض قيّض له امراة فكانت الوسيلة الى اجرائه . واذا اراد الشيطان ان يقضي شرا توسلا اليه ايضا بامراة . وقد اختلفوا في تاويل هذا القول . فالخرجيون على ان دخول المراة في قضية ملك الانكليز كان للخير المحض . والسوقيون على انه كان للشر الجهنمى . وكذلك قضية ملكتي الانكليز وقضية ايرين زوجة ليو الرابع وثيودورة زوجة ثاوفيليوس . وغير ذلك مما لايحصى . واعلم هنا انه لم تجر العادة بان يتخذ من النسآ بابا او مطران او رئيس جيش او رئيس سفينة او قاض . وذلك لاتقاء باسهن وسطوتهن . فان الرجال مستعبدون للنسآ بالطبع خلوّا من هذه المراتب العلية فكيف بهن اذا وليتها . فان قيل ان الافرنج يتخذون منهن ملكات ويفلحون . قلت قد تقرر عندهم انه اذا كان رئيس الدولة انثى كانت ادارة الاحكام والعمل كله لذكر : ولعل ذلك من مشاكل الامور الانثوية فان هذا التعليل يصدق ايضا على كون البابا وغيره

يتخذ من النسآ . ولعلى قد اطلت الكلام هنا على النسآ مع انه ربما يوجد فيهن قصار غير جديرات بالطويل منه . فينبغي لي الان تطليقهن والعود الى ما كنت بصدده . وساعود اليهن في موضع آخر ان شاء الله .

الفصل الخامس عشر

. . . .

. . . .

. . . . في ذلك الموضع



الفصل السادس عشر

في ذلك الموضع بعينه

لم يطاوعني القلم على الانتقال من هذا الموضع الشهي الى الكلام في الفارياق وامثاله . بل لعله هو نفسه يروم ذلك ايثارا له على ذاته . فلا بد اذا من الرجوع الى وصف النسآء من دون اعتذار اليه فاقول . قال بعض الفحول من العلمآء ان المرأة اشرف من الرجل وافخم وانبل واحلم وافضل واكرم . اما وجه كونها اشرف فلان شاهدي ثانيتها واقفان في محل مرفوع . بحيث يمكن لها ان تراهما او تريهما ايان شاءت من دون تطاطي راس وانحنآ . وفي ذلك من العز والشرف ما لا يخفي . الا ترى ان بعض الادبآ قال ان من عزّ لا ان يقولها الانسان وهو رافع راسه . ومن ذلّ نعم ان يقولها

وهو خافضه . اما شاهدا الرجل فهما منكوسان في محل منخفض بحيث لايقدران يراهما الا اذا تطاطا وانحني . واما وجه كونها افخم فلأن ساقيها اللتين هما عمودان لهيكل الجسم . و بطنها الذي هو منبت لتكوّن النسمة . وعجزها الذي هو مورد للاعجاز . تكون افخم من ساقي الرجل و بطنه وعجزه . واما وجه كونها انبل فلانها تنبل بما يلقي اليها مدة تسعةاشهر . واما وجه كونها احلم فلانّ سِمة الحلم ترى في شاهدي ثانيها . واما وجه كونها افضل فلانها خلقت من الرجل وعقبه . وهو خلق من تراب . لـكنها اذا ماتت (معاذ الله من ذلك) تستحيل الى تراب كالرجل لا الى اصلها الذي اخذت منه اي لاتصير رجلا ولا ضلعا واما وجه كونها اكرم فلانها ارق فؤادا وارحم قلبا والين طبعا . فاذا رات احدا محتاجا شي من عندها لم تضن به عليه .وناهيك ماجآ عن مادح السيدة زبيدة اذ قال

ازبيدة ابنة جعفر   طوبى لزائرك المثاب
تعطين من رجليك ما   تعطي الاكف من الرغاب

فلما انكر الوصفآ عليه ذلك وهمّوا بضر به انتهرتهم واحسنت اليه لعلمها انه لم يخطيء الوصف . وقال لخل اخر ان المراة تعمّر في الغالب اكثر من الرجل . وسبب ذلك انها لما كانت مفطورة على اللين والطفولة والنعومة كان لها ان تتلقى مايستقبلها من الحوادث بالصبر والتأنّي . فتكون به مَيـلـما اي تارة تميل الى هذا الشق وتارة الى ذلك . فمَثَلها كمثل الغصن الرطيب يميل مع الريح فلا ينقصف . فاما الرجل فانه لما كان مفطورا على القسوحة واليبوسة فمتى دهمه امر تصلب له واقتسح فلا يلبث ان يعطب به . فمثله كمثل الشجرة اليابسة اذا قويت عليها الريح . قال ومن خواصها ايضا ان الخمرة لاتبلغ منها قدر ماتبلغ من الرجل . واختلفوا في تعليل ذلك . فذهب قوم الى ان في دم المراة قوة جاذبية تغلب على الخمر فتجذبه سفلا فلا يصعد الى دماغها . وزعم بعض ان في المراة نوعا من الخمر يسمى رضابا وهو فيها قوي جدا . بحيث اذا خالطه الشراب اي شراب كان ذهب بقوته . والقطرة من هذا النوع تباع احيانا ببدرة واحيانا براس انسان او بعنقه . ومن خواصها ان شعرها يكون اطول من شعر الرجل .وشِعرها ابلغ من شعره . وشعورها ادق . ومشاعرها

انفع . اما الاول فلم يختلف فيه اثنان • واما الثاني فلانها اذا قالت شعرا فانما تقوله في رجل فهو يعجب الرجال ويبلغ منهم بالطبع . ويعجب النساء بالطبع والصنعة ايضا. ولعل ذلك مشكل آخر من المشاكل الانثوية . فاني ارى هذا التعليل يصدق على الرجل فانه انما يقول الشعر في امرأة • ويمكن ان يجاب بان الشاعر المجيد اكثر شعره يكون في غير الغزل • وذلك كاختلاق مدح يفتريه على امير . او وصف مجلس انس اوحرب ونحوه . واما الثالث فلانها اذا مرت مثلا بحانوت بزّاز ورأت بزّا شفافا اترنجي اللون. فاول ماتلمحه تقول لك هذا يصلح للّيل . وربما كان فكرك وقتئذ في كتاب تطالعه او في شراء حمار تركبه . واذا رأت ديباجا اخضر قالت بديها هذا يصلح للشتاء • او كتانا ابيض فاخرا خصصته بالصيف . ثم اذا مرّت بدكان جوهري او اذا تهوّست انت واخذتها اليه قالت لك على الفور هذا الحجر الماس يصلح لان يجعل فصا في خاتم للبنصر • وهذه الياقوته في خاتم للخنصر • وهذه الزمردة في خاتم للمتوسطة . وهذا الفيروزج في خاتم للسبابة . وهذه الفريدة في خاتم للابهام • وهذه اللآلى الكبيرة لقلاده في العنق . وهذه الصغيرة لسوار . وهذه السلاسل الذهب المرصعة توضع في العنق مع القلادة وتدلّى الى الخصر يعلق بها ساعة من ذهب . وهذه الشنوف الثقيلة للشتاء وتلك الخفيفة للصيف . وهذه المتوسطة للربيع والخريف . وفكرك لم يزل مشغولا بالحمار فان قيل ان الكاف في فكرك خطاب مطلق لكل قاري وربما تشرف كتابك هذا بمطالعة امير او غيره من السادة العظماء فلا يصح توجيه الخطاب اليه . لان الامير لايفكر في الحمير . قلت قد ورد في سفر التكوين في الفصل السادس والثلثين ان عانة من ولد سعير الحوري كان يرعى حمير ابيه زيبون وكان اميرا . بل قد علّق عليه في بعض النسخ جلاء دوك وهو اعظم من الامير . ثم انها اي المرأة لم تلبث حالة كونها ناظرة الى تلك الجواهر ان تقسم اهل المصر جميعا الى خمسة اقسام •

القسم الأول في تهيئة الجواهر •

من التِجاب ماأذيب مرة من حجر الفضة •

والمَشْخَلَبة خرز بيض تشاكل اللؤلؤ او الحلي تتخذ من الليف والخرز وقد تسمّى

الجاريه مشخلبة بما عليها من الخرز وليس على بنائها شيء. قلت وفي محفوظي ان ابن الاثير حكاها بتقديم الخاء على الشين دون هاء .

والضِشب حبّ اللولو .

والقَصَب ما كان مستطيلا من الجوهر ...... والدرّ الرطب والزبرجد الرطب المرصع بالياقوت.

واليَشَب حجر معروف .

والبَهت حجر معروف .

والكِبريت الياقوت الاحمر والذهب او جوهر معدنه خلف التُبَّت بوادي النمل وفي تبت تبّت كسكّر بلاد بالمشرق ينسب اليها المسك الاذفر.

والياقوت معروف .

والدَهنَج جوهر كالزمرذ

والزِبرج جوهر او الزينة من وشي .

والزبردج الزبرجد .

والصلِيجة سبيكة الفضة المصفّاة .

والمَرجان م وتعريفه في القاموس انه صغار اللولوا.

والخَرايد الخريدة اللولوة لم تثقب .

والفرِيد الشذر يفصل بين اللولو والذهب ج فرائد والجوهرة النفيسة والدر .

والجُذاز حجارة الذهب .

والبلور جوهر معروف .

والتبر الذهب والفضة او فتاتهما قبل ان يصاغا فاذا صيغا فهما ذهب وفضة او مااستخرج من المعدن قبل ان يصاغ ومكسر الزجاج وكل جوهر يستعمل من النحاس والصفر.

والسِيَراء الذهب الخالص .

والشَذر قطع من الذهب تلقط من معدنه بلا اذابة او خرز يفصل بها النظم او هو اللولو الصغار

والشَّمُّور	الماس.
والعَمْرة	الشذرة من خرز يفصل بها النظم.
والنُّضار	الجوهر الخالص من التبر.
والخَرَز	الجوهر وما ينظم.
والفِلِزّ	نحاس ابيض — او جواهر الارض كلها او ماينفيه الكير من كل مايذاب منها.
والهِبْرِزِيّ	الذهب الخالص.
والرَّامس	الجُمان.
والحُصّ	اللولوة ونحوها الحُوضة.
والخِلاص	ماالخلصته من الذهب والفضة.
والدَّليص	ماء الذهب.
والخَضض	خرز بيض صغار يلبسها الصغار.
والقَمْع	اللولو والصدف.
والجَزَع	الخرز اليماني الصيني.
والزَّيلع	ضرب من الودع.
واليَنَع	ضرب من العقيق.
والزُّخرف	الذهب وكمال حسن الشي.
والصَّرِيف	الفضة الخالصة.
والسفائق	السفيقة الضريبة الدقيقة الطويلة من الذهب والفضة ونحوهما.
والعقيق	معروف.
والخَضْل	اللولو والدر الصافي وخرز معروف.
والحُومة	البلوّر.
والجُمان	اللولو او هنوات اشكال اللولو من فضة او خرز يبيض بماء الفضة.
والمِينا	جوهر الزجاج.
والمهو	اللولو وحصى ابيض والمهاة البلورة.

والنهاء الزجاج ويقصر او القوارير وحجر ابيض ارخى من الرخام — وضرب من الخرز .

القسم الثاني في عمل الحلي

من البؤبؤ راس المكحلة .
والأُزْبة القلادة .
والارنب حلي .
والمِعْقب القُرط ومثله الرَّعثة ج رعاث .
والحِجَّة خرزة او لولوة تعلق في الاذن .
والدُملج معروف .
واليارَج القُلْب او السوار .
والجانِح الجانح من الدر نظم يعرَّض او كل ماجعلته في نظام .
والداح سوار ذو قوى .
والسَنِيح الدر او خيطه قبل ان ينظم فيه والحلي .
والوِشاح كِرْسان من لولو وجوهر منظومان يخالف بينهما معطوف احدهما على الآخر واديم عريض يرصع بالجوهر تشده المراة بين عاتقيها وكشحيها .
والوَضَح حلي من الفضة .
والفتخة خاتم كبير في اليد او الرجل او حلقة من فضة كالخاتم .
والخَلَدة السِوار والقُرْط .
والزِراد المِخْنقة .
والعِضاد الدملج كالمعضاد .
والعِقد معروف .
والقِلادة ماجعل في العنق .
والمِنْجد حلى مكلل بالفصوص وهو من لولو وذهب او قرنفل .... ياخذ من العنق الى اسفل الثديين يقع على موضع النجاد .

والمَسْجور　　من اللولو المنظوم المسترسل .
والسَّفِيرة　　قلادة بعرى من ذهب وفضة .
والشعيرة　　هَنَـة تصاغ من فضة او حديد على شكل الشعيرة الخ .
والعِتْرة　　قلادة تعجن بالمسك والافاويه .
والعَمْر　　الشنف .
والتِقْصار　　القلادة ج تقاصير .
والكُسْبر　　المَسْك من العاج كالسوار .
والقُفّاز　　— او ضرب من الحلى لليدين والرجلين .
والحِبْس　　سوار من فضة يجعل في وسط القرام.
والسَلْس　　— او القُرط من الحلى .
والشَمْس　　ضرب من القلائد .
والقُداس　　شي يعمل كالجمان من الفضة .
والكَبيس　　حلى مجوف محشوّ طيبا .
والقلادة المكرّسة　　وهي ان ينظم اللولو والخرز في خيط ثم يضمّا بفصول بخرز كبار .
والنِقْرِس　　شى يتخذ على صنعة الورد تغرزه المراة فى راسها .
والخَرْز بَصيص القرط والحبة من الحلى.
والخُرْص　　حلقة الذهب والفضة او حلقة القرط او الحلقة الصغيرة من الحلى .
والحَوْط　　خيط مفتول من لونين اسود واحمر فيه خرزات وهلال من فضة تشده
المراة في وسطها لئلاّ تصيبها العين .
والسِمْط　　قلادة اطول من المخنقة .
والعُلْطة　　القلادة .
والقُرْط　　الشنف او المعلّق في شحمة الاذن .
واللطّ　　القلادة من حب الحنظل المصبّغ .
والأنواط　　المعاليق.
والرَصيعة　　حلية السيف المستديرة او كل حلقة مستديرة في سيف او سرج اوغيرهما.

والشَّنْق	القرط الاعلى او معلاق في قوف الاذن او ماعلق في اعلاها.
والنُّطفة	القرط واللؤلؤة
والوَقْف	سوار من عاج .
والجزاق	السوار الغليظ .
والحِلْق	خاتم من فضة بلا فص وهو ايضا خاتم المُلك.
والمِخنقة	القلادة وكذا المزنقة والمعنقة .
والخَوق	حلقة القُرط والشنق .
والدَيْسق	كل حلى من فضة بيضاء خالصة .
والزُّنق	كل رباط تحت الحنك .
والسَوْذق	السوار والقُلْب .
والطارقيّة	قلادة .
والطَوق	معروف .
والتَلَقيّ	ضرب من القلائد .
والمَسَك	الاسورة والخلاخيل .
والجديل	الوشاح .
والحُبْلة	ضرب من الحلى.
والحِجْل	الخلخال .
والمُرْسَلة	قلادة طويلة تقع على الصدر او القلادة فيها الخرز.
والسِدْل	السمط من الدر يطول الى الصدر .
والاَشْكال	حلى من لولو او فضة يشبه بعضه بعضا يُقرَّط به النساء الواحد شكل.
والطِمْل	القلادة كالطميل لانها تطمل اى تلطخ بالطيب .
والقَبَل	شي من عاج مستدير يتلالو يعلّق في صدر المراة .
والقِرْمل	ماتشدّه المراه في رأسها .
والاِكليل	شبه عصابة تزيّن بالجوهر.
والمَحال	ضرب من الحلى.

والنَخْل ضرب من الحلى .
والتهاويل الالوان المختلفة وزينة التصاوير والنقوش الخ .
والبَرِيم حبل للمرأة فيه لونان مزين بجوهر .
والتَوائم توائم اللولو ماتشابك منها .
والتُومة اللولوة والقرط فيه حبة كبيرة .
والخاتَم معروف .
والعِصْمة القلادة .
والكَرْم القلادة ونوع من الصياغة في المخانق او بنات كرم حلى كان يتخذ في الجاهلية
والأنظام كل خيط نظم خرزا .
والثُكْنة القلادة .
والجُمان سفيفة من أدم ينسج وفيها خرز من كل لون تتوشحه المرأة .
والبُرة الخلخال .
والرِيّ القلادة او التي توضع في عنق الغلام .
والوَنِيّة العقد من الدر او اللولوة .
الى الحَشَل روس الاسورة والخلاخيل .

القسم الثالث في حمل الطيب واتخاذ المشموم

من الأناب المسك او عطر يضاهيه .
والجُلاّب مآء الورد .
والزَرْنب طيب او شجر طيّب الرائحة .
والكُركُب نبات طيب الرائحة .
والمَلاب عطر او الزعفران .
والشَثّ نبت طيب الريح يُدبَغ به .
واليَلَنجُوج عود البخور .

والرَّباحيّ جنس من الكافور .
والمَرَنْج اجود عود البخور .
والرَّيحان نبت طيب الرائحة او كل نبت كذلك .
والشِّيح نبت طيب الرائحة .
والصَّيّاح عطر او غِسل .
والنَّضُوح طيب .
والسَّليخة عطر كأنه قشر منسلخ ودهن ثمر البان قبل ان يربّب .
واللَّبيخة نافجة المسك .
والخَلْخَة طيب م .
والسُّعْد طيب م .
والرَّند شجر طيب الرائحة والعود والآس .
والزَّباد م ويسمى الزُّهَم .
والعَبْد نبات طيب الرائحة .
والقِنْديد العنبر والكافور والمسك وطيب يعمل بالزعفران .
والنَّدّ طيب م .
والحَنيذ دهن والغسل المطيب .
والكاذي شجر له ورد يطيب به الدهن .
والبَهار نبت طيب الريح .
والخَطّار دهن يتخذ من الزيت بأفاويه الطيب .
والخُمْرة الوَرْس واشياء من الطيب .
والذَّريرة عطر .
والزَّبْعر نبت طيب الرائحة .
والاذخِر حشيش طيب الريح .
والسَّاهرية عطر .
والضَّيْمُران الريحان الفارسي .

والمُطيَّر	العود او المُطرَّى منه.
والظِفار	شي من العطر كانه ظفر مقتلف من اصله .
والعبير	الزعفران او اخلاط من الطيب .
والعَبْهر	النرجس والياسمين ونبت آخر .
والعِطْر	الطيب .
والعَمار	الريحان يزين به مجلس الشراب .
والعنبر	روث دابة بحرية او نبع عين فيه .
والعَرَّآ	نبت طيب او هو العُرَيرآ .
والفاغِرة	طيب او الكبابة .
والقُطْر	العود الذي يتبخَّر به .
والكافور	نبت طيب نوره كنور الاقحوان والطلع او وعآوه وطيب م يكون من شجر بجبال بحر الهند والصين الخ .
والنِسْرين	ورد م .
والعَجْرُز	ضرب من الطيب .
والبَلَسان	شجر صغار كشجر الحنآ لا ينبت الا بعين شمس ظاهر القاهرة يتنافس في دهنها .
والقَلَسان	نبات طيب الرائحة .
والقَنَس	نبات طيب الرائحة و يسمى ايضا الراسن .
والهَبَس	الخِيرْى و يقال له المنثور والنمام .
والمَرْدَقوش	طيب تجعله المراة في مشطها .
والحُصّ	الوَرْس والزعفران .
والسَعيط	البان ودهن الخردل .
والقُسْط	عود هندي وعربي .
والضَياع	ضرب من الطيب .
والمَيْعة	عطر كالمائعة .

والنَقُوع صبغ فيه من افواه الطيب .
والعَوْف نبات طيب الرائحة .
والخِلاق ضرب من الطيب .
والرَّجِيق ضرب من الطيب .
والبُنْك طيب م .
والسُكّ طيب يتخذ من الرامك .
والمسك المشموع اي المخلوط بالعنبر .
والتَنبل ضرب من الطيب .
والرُعلة اكليل من ريحان وآس .
والسُنْبل نبات طيب الرائحة .
والقُنْدُول شجر بالشام لزهره دهن شريف .
والمَنْدل العود او اجوده كالمندليّ .
والبَشام شجر عطر الرائحة .
والبَهرمان العصفر والحناء .
والثِومة شجرة اطيب رائحة من الآس .
والجَيْهمان الزعفران وكذا الرَيْهُقان .
والخُزامى خيريّ البرّ .
والضُرْم شجر طيب الريح .
والمَكْتُومة دهن يجعل فيه الزعفران او الكتَم .
واللَطيمة المسك .
والمُنْشَم عطر شاقّ الدقّ او قرون السنبل .
والثمام نبت طيب .
والمَهضُومة طيب يخلط بالمسك والبان .
والاَشنة عطر ابيض مما يلتف على شجر البلوط والصنوبر .
والبان شجر لحب ثمره دهن طيب .

والجَفن شجر طيب الرائحة .
والحَنُّون الفاغية او نَور كل شجر .
والرَقُون الحِنا والزعفران .
والكُشْنة شي يتخذ من آس واغصان خلاف تبسط وينضد عليها الرياحين اصله كُشنا او هي نَوردجة من القصب والاغصان الرطبة او ريقة تحزم ويجعل جوفها النور قلت ونحوها الكُشنة .
والمَيْسُوسَن شى تجعله النساء في الغسلة لرؤسهن .
والغالية طيب م .
والفاعِيَة النمامة وزهر الحنا والافعاء الروائح الطيبة .
والفاغية نور الحنا او يغرس غصن الحنا مقلوبا فيثمر زهرا اطيب من الحنا فذلك الفاغية .
والكِبا عود البخور او ضرب منه .
والكاذى دهن ونبت طيب الرائحة .
والأُلُوّة العود يتبخر به .
والنَّدا شى يتطيَّب به كالبخور

القسم الرابع في عمل الآنية والادوات والمتاع والفرش

من الغَرَب جام من الفضة .
والشُفارِج الطبق فيه الفيخات والسكرجات .
والصُراحِية آنية للخمر .
والمطافح المغارف .
والبُهار آناء كالابريق .
والطِرجِهارة شبه كاس يشرب فيه ونحوه الطِرجهالة والفنجانة ويقال للفنجانة الصغيرة سوملة .
والشَوارِف وعاء الخمر من خابية ونحوها .

والاكواب والاباريق والقوارير والكؤوس والاقداح والطاس والصحون والعُتُد والحروس والصيعان والدنان والصحاف والقِصاع والزُّلُح والقوارى والجفان والعلاب والبواطي والمآكل والقِعاب والنواجيذ والعساس والعُسُس والفِدام والعُسوف.

والجَهمة	القدر الضخمة.
والهَيطلة	القدر من صفر .
والمِرْجل	القدر من الحجارة والنحاس .
والكَفت	القدر الصغيرة .
والملجاب	القدر العظيمة وكذا البساط .
والتأمورة	الابريق والحقة والتميمة المشدودة الراس.
والقَعن	الجفنة يعجن فيها .
والجام	م ونحوه الصاع .
والمُكّوك	طاس يشرب به .
والعَبزار	ضرب من اقداح الزجاج .
والسُعُوف	الاقداح الكبار وامتعة البيت وكل شيء جاد وبالغ من مملوك او اوعلق دار فهو سعَف وبالتسكين السلعة .
والورسيّ	من اجود اقداح النضار .
والزوراء	اناء من فضة .
والفاثور	الطست او الخوان من رخام او فضة والناجود والباطية .
والقُذْمور	الخوان من فضة .
والدَيسق	خوان من فضة .
والقَرقار	اناء .
والمَثبنة	كيس تضع فيه المرأة مرآتها وادانها.
والعِكم	نمط تجعل فيه المرأة ذخيرتها .
والقَشوة	قفة من خوص لعطر المرأة .
والجُؤنة	سفط مغشى بجلد ظرف للطيب .

والعَتيدة الطبلة او الحقة يكون فيها طيب الرجل والعروس وكذا الشريط .

والدُّرْج حفش النساء الواحدة بهاء .

والصوان ما يصان فيه الثوب .

والتَخت وعاء تصان فيه الثياب ونحوه العيبة والمبناة .

والاَسطان آنية الصفر .

والابْزَن حوض يغتسل فيه وقد يتخذ من نحاس .

والشِجاب خشبات منصوبة توضع عليها الثياب .

والغُدُن الغدان القضيب تعلق عليه الثياب .

والقَفدانة غلاف المكحلة وخريطة من أدم للعطر وغيره .

والخناجيد الخنجود قارورة طويلة للذريرة ووعاء كالسفط الصغيرة ونحوه الخُنجور

والبَزّ الثياب او متاع البيت من الثياب ونحوها .

والعَقار متاع البيت ونضده الذي لا يبتذل الاّ في الاعياد .

والثَقَل كل شي نفيس مصون .

والبَتات الجهاز ومتاع البيت ونحوه المحاش والاثاثة والشذب والزازل والاهرة والرهاط والسفاطة ويقال لقماش البيت خاش ماش وقاش ماش وقرشوش .

والنَجد ما ينجد به البيت من بُسط وفرش.

والنَضد السرير ينضد عليه .

والنَضيدة الوسادة وما حشي من المتاع .

والبُورِيّة الحصير المنسوج.

والمِسوَر متكا من أدم .

والعبقريّ ضرب من البسط.

والرَفرَف ثياب خضر تتخذ منه المحابس وتبسط — والفراش والوسادة والبسط.

والزِرِليّة البساط .

والنَمَط ضرب من البسط.

والمِسْخَنِيَّة   نوع من البسط .
والأرِض   بساط ضخم من صوف او وبر.
والنُسُج   السجادات .
والزَّرابيّ   النمارق والبسط او كل ما اتّكي عليه الواحد زِرْبيّ .
والرِّحال   الطنافس الحيرية.
والنمارق   الوسادة والميثرة والطنفسة .
والدُرْنوك   ضرب من البسط .
والوِراك   ثوب يزيَّن به المَوْرِك وهو الموضع الذي يجعل عليه الراكب رِجله.
والبَراطِل   البُرْطلة المظلة الضيقة .
والظُلَل   الظُلّة الغاشية وشيء يستتر به من الحر والبرد .
والماطر   المِمْطر ثوب صوف يتوقى به من المطر كالممطرة .
والأزْفان   الزِفْن ظلة يتخذونها فوق سطوحهم تقيهم من حر البحر ونداه .
والسُرادقات   السرادق الذي يمد فوق صحن البيت والبيت من الكرسف ولابد كذلك من اتخاذ النسيفة للحمّام وهي حجارة سود ذات تخاريب يحك بها الرجل . ثم تَزين تلك الدار السعيدة .
بالفُسَيْفَسَاء والدَّرابِج . الفسيفساء الوان من الخرز تركب فى حيطان البيوت من داخل والسرنج شي من الصنعة كالفسيفساء وبدُرُدمة اي مزينة .
بالجواهر ونحوها وبحَجَلات ومَنَصّات وبارائك وعروش وكراسي وطوارق من العاج عظم الفيل .
والساج   شجر.
والشِيْزَى   خشب اسود للقصاع او هو الآبنوس او الساسم او خشب الجوز.
والسَمُر   شجر معروف .
والنُضار   خشب للاواني.
والعَيْزار   شجر.
والضُبار   شجر البلوط.

والساسم شجر اسود او الابنوس.

والثُوع شجر جبلي يسمو.

والشوحط شجر تتخذ منه القسي او ضرب من النبع

والضبر شجر جوز البر

والصومر شجر الباذروج.

والصنار الدلب.

والسلام شجر. قيل لاعرابي السلام عليك قال الجثجاث عليك قيل ما هذا جواب قال هما شجران مران وانت جعلت علي واحدا فجعلت عليك الآخر.

والكنهبل شجر عظام.

والبقس شجر كالاس ورقا وحبا او هو الشمشاذ.

والنشم شجر للقسي.

والضال السدر البري وشجر آخر.

والبقش شجر يقال له بالفارسية خوش ساى.

والنبش شجر كالصنوبر ارزن من الابنوس.

والشخس شجر صلب.

والميس شجر عظام.

والوعس شجر يعمل منه البرابط والاعواد.

والقطف شجر جبلي خشبه متين.

ثم تزين بقوارير من البلور.

والقطر ضرب من النحاس.

والقلز النحاس الذي لا يعمل فيه الحديد.

والفلز نحاس ابيض تجعل منه القدور المفرغة او

والبلنط كجعفر شي كالرخام الا انه دونه في اللين.

والبلق حجارة باليمن تضئ ماوراءها كالزجاج

والحَكَك حجر ابيض كالرخام .
والنهاء حجر ابيض ارخى من الرخام .
والمُنهل اسم يجمع معدنيات الجواهر كالفضة والحديد ونحوهما .
والهَيصَم ضرب من الحجارة املس .
ثم تمام زينة هذا المكان الشريف وثاب محشو بالعُشَر والحُر يَمَلة . الوثاب السرير والفراش . والعُشَر شجر يحشى في المخاد ويخرج من زهره وشعبه سكر . والحر يملة شجرة تنشق جراوها عن الين قطن ويُحشى به مخاد الملوك غير اني ارتكبت هنا غلطا فاحشا في تأخيري ذكر الفراش وهو اول مايخطر ببال المرأة عند دخولها بلدا وهنا تمّ اثاث الدار . وفكرك لم يزل مشغولا بالحمار .

القسم الخامس في عمل الثياب

القُرقبيّة وهي ثياب بيض من كتان مصر .
والجلباب القميص وثوب واسع للمرأة .
والسكب ضرب من الثياب .
والسلاب الثياب السود .
والقَصَب ثياب ناعمة من كتان .
واللبيبة ثوب كالبقيرة .
والنُقبة ثوب كالازرا .
والبِظماج ماكان احد طرفيه مخملا او وسطه مخمل وطرفاه منيّران .
والمعرّجة المخططة في التواء .
والموثوجة ثياب رخوة الغزل والنسج .
والهَبرَج الموشى من الثياب .
والمَرّحة المَرح من الثياب ماصبغ صبغا مشبعا .
والوَجيح الصفيق من الثياب .
والخوخة ضرب من الثياب اخضر .

والوَليخ	ثوب من كتان .
والثفافيد	ضرب من الثياب .
والجماد	ضرب من الثياب .
والمَعضَّدة	المعضد ثوب له علم في موضع العضد .
والفِرِنْد	ثوب م .
والمُقرمَدة	ثوب مقرمد مطلى بشبه الزعفران .
والمجسَّدة	المصبوغة بالزعفران .
والمَقدِيّة	ثياب م .
والهُرْديّة	المصبوغة بعروق الهُرد .
واللاذة	ثوب حرير صيني .
والبُقْطرية	الثياب البيض الواسعة .
والحَصِير	ثوب مزخرف موشي اذا نشر اخذت القلوب مآخذه لحسنه .

والخُسْروانية نوع من الثياب.

والدِثار	مافوق الشعار من الثياب .
والسّابريّة	الثياب الرقيقة الجيدة .
والمُسيَّرة	المسير ثوب فيه خطوط.
والصُدْرة	ثوب م .
والصِدار	ثوب راسه كالمقنعة واسفله يغشى الصدر .
والعَبْقرية	عبقر بلدة ثيابها في غاية الحسن .
والمِعجر	ثوب تعتجر به المراة وثوب يماني .
والعُشاريّة	ثوب عشاريّ طوله عشرة اذرع .
والعُقار	ضرب من الثياب احمر .
والقُبْطرية	ثياب كتان بيض .
والمَرْمَر	ضرب من تقطيع ثياب النساء .
والمنيَّرة	المنسوجة على نيرين .

والباغِزيّة ثياب من الخز او كالحرير .
والتوَّزية منسوبة .
والمُمرعَزة المرعزّى الزغب الذي تحت شعر العنز .
والمطرَّزة المعلمة .
والمفروزة ثوب مفروز له تطاريف .
والقرمزية المصبوغة بالقرمز .
والقهز ثياب من صوف احمر كالمرعزى وربما يخالطها الحرير .
والتِنّيسيّة تنّيس د تنسب اليه الثياب الفاخرة .
والمُدَمقسة الدِمَقس الابريسم او القزّ او الديباج او الكتان .
والقَسّية منسوبة الى قسّ من ارض مصر .
والكِرْباس ثوب من القطن الابيض .
والمُكَسلسة الموشّاة المخطّطة .
والنَرْسيّة نرس ة بالعراق .
والمورَّسة المصبوغة بالورس .
والاَكياش الثوب الذي اعيد غزله مثل الخز والصوف .
والماجُشون الثياب المصبّغة .
والمقفّصة المخططة كهيئة القفص .
والمحرَّضة المصبوغة بالاحْرِيض للعصفر .
والعَرْضيّ جنس من الثياب .
والمِعرَض ثوب تجلى فيه الجارية .
والرَيطة كل مُلاَءة غير ذات لفقين كلها نسج واحد وقطعة واحدة او كل ثوب ليّن رقيق .
والسِجِلاّط ثياب كتان موشية وكانّ وشيه خاتم .
والسُمْط ثوب من صوف وبالكسر الثوب ليست له بطانة طيلسان .
والمقطّعات القصار من الثياب — او برود عليها وشي .

والمردَّعة التي فيها أثر طيب .

والصَدِيع ثوب يلبس تحت الدرع .

والمضلَّعة المسيرة المخططة وما جعل وشيها على هيئة الاضلاع .

والنِصْع ثوب ابيض .

والموشَّمة المعلَمة.

والشُرافيّ ثياب بيض .

والشَفّ ويكسر الثوب الرقيق .

والبُنْدقية ثياب كتان رفيعة .

والمحقَّقة المحكمة النسج .

والخُزْرانق الثياب البيض .

والدَّبيقية دبيق د بمصر .

والرِتاق ثوبان يرتقان بحواشيهما .

والرازقية ثياب كتان بيض .

والمزبرقة المصبوغة بحمرة او صفرة .

والعلْقة ثوب بلا كمّين — أوالثوب النفيس.

والإِفّاق ثوبان يلفق احدهما بالآخر .

والمحبَّكة الموثقة المخططة .

والمِجْوَل ثوب للنسآ .

والحَمْلة الثوب المخمل كالكسآء ونحوه كالخميل .

والخال الثوب الناعم وبرد يمني .

والدِرَقْل ثياب كالارمنية .

المُمَرْجَل ثياب فيها صور المراجل .

مُمَرْجَل ضرب من ثياب الوشي (او رد صاحب القاموس التي بكسر الجيم في ر ج ل والتي بفتحها في مادة على حدتها .

لة المرقرقة .

والسَحل ثوب ابيض من قطن ونحوه المسحل ·
والمُسَلسَلة ثوب مسلسل فيه وشى مخطط ·
والعَقْل الثوب الاحمر ·
والمفلفلة الموشاة كالفلفل ·
والقَسْطلانية ثياب منسوبة الى عامل ·
والوَصِيلة ثوب مخطط يماني ·
والمهلهلة الرقيقة ·
والآمِيَّة منسوبة ·
والمُبرَم جنس من الثياب والثوب المفتول الغزل طاقين ·
والجَهرمية ثياب منسوبة من بحو البسطا وهي من الكتان ·
والمرسمة المخططة ·
والمرقمة المخططة والرقم ضرب من الوشى او الخز او البرود ·
والعَقم المرط الاحمر او كل ثوب احمر ·
والقَدم ثوب احمر ·
والقِرام ثوب ملون من صوف فيه رقم ونقوش او ستر رقيق كالمقرم ·
وابي قَلَمون ثوب رومي يتلون الوانا .
والملحَم جنس من الثياب .
والنيم كل اثين من عيش او ثوب .
والاَخنيّ الثوب المخطط .
والدَفَنيّ ثوب مخطط .
والارْجوان ثياب حمر ·
والسَّبَنيّة ثياب من حرير فيها امثال الاترج.
والشُنُون اللينة من الثوب .
والشاذكونة ثياب غلاظ مضربة تعمل باليمن ·
والمُعرجَنة المصوّر فيها اشكال العرجون ·

والمعيَّنة ما كان في وشيها تراييع صغار كعيون الوحش .

والمفنَّنة ثوب مفنن فيه طرائق ليست من جنسه

والمفوَّهة المصبوغة بالفوَّه (عبارة القاموس في ف وه والفوَّه كسكر عروق رقاق طوال حمر يصبغ بها الخ وفي ف وي الفوَّة كالقوَّة عروق يصبغ بها).

والقُوهِيّ ثياب بيض

والنِّهنه الثوب الرقيق النسج

والمُلاهلبة الملهله من الثياب كالمهلهل

والموجَّهة ما كان لها وجهان .

والمِحشأ كساء غليظ او ابيض صغير يتزر به او ازار يشتمل به

والسَّبيجة كساء اسود

والخَسِيج كساء من صوف

والاضريج كساء اصفر والخز الاحمر

والمسبَّح الكساء القوي الشديد ونحوه المشبج

والسَّيح الكساء المخطط كالمسيَّح .

والبجاد كساء مخطط .

والبُرجُد كساء غليظ .

والجُودِياء الكساء .

والأغثر ما كثر صوفه من الاكسية .

والخميصة كساء اسود مربع له علمان .

والمرط كساء من صوف او خز ج مروط .

والشملة كساء دون القطيفة .

والطمل الكساء الاسود والثوب المشبع صبغا .

والماريّ كساء صغير له خطوط مرسلة .

والشرعبيّ ضرب من البرود .

والعصب ضرب من البرود .

المكعَّب   الموشى من البرود والأثواب والثوب المطوي الشديد الادراج .
والخِلاج   ضرب من البرود المخططة .
والشِيح   برد يمنى .
والقُرْدح   ضرب من البرود .
والسَّعِيدية   ضرب من برود اليمن .
والسَنَد   ضرب من البرود .
والبَقِير   برد يشق فيلبس بلا كمَّين كالبَقِيرة
والحِبَرَ   ضرب من برود اليمن مفردة حِبرة كعنبة .
والحَبير   البرد الموشى والثوب الجديد .
والسِيَرآ   نوع من البرود فيه خطوط صفر او يخالطه حرير .
والمطيَّر   ضرب من البرود .
والقِطر   ضرب منها .
والمشيَّز   المخطط بحمرة .
والمريَّش   البرد الموشى .
والفُوف   ضرب من برود اليمن وبرد مفوّف رقيق او فيه خطوط بيض .
والنَصِيف   الخمار ومن البرد ماله لونان .
والبِركة   برد يمني .
والمَرْجَل   برد يمنى .
والمرحَّل   ما فيه تصاوير رحل .
والتَحمة   البرود المخططة بالصفرة .
والاَتحمي   برد معروف .
والمسهَّم   البرد المخطط .
والقَطيفة   ردآ مخمل .
والمُطرَف   ردآء من خز مربع له اعلام .
والجَنبِيَّة   ردآء من خز .

والجيم الديباج .
والسُندس ضرب من البزيون او ضرب من رقيق الديباج .
والاستبرق الديباج الغليظ او ديباج يعمل بالذهب او ثياب حرير صفاق .
والمشجّر المشجّر من الديباج ما كان فيه نقش كهيئة الشجر .
والسِبّ شقة رقيقة كالسبيبة .
والطَريدة شقة مستطيلة من الحرير .
والسَرَق شقق الحرير الابيض او عامة .
والبتّ الطيلسان من خز ونحوه .
والسُدُوس الطيلسان الاخضر .
والطلْس الطيلسان الاسود .
والطاق الطيلسان او الاخضر .
والساج الطيلسان الاخضر والاسود .
والصُتيّة الملحفة او ثوب يمني .
والشَوْذر الملحفة والاتب .
والدُواج اللحاف الذي يلبس .
والمِشمال ملحفة.
واللِفاع الملحفة او الكساء او النطع او الرداء وكل ماتتلفع به المرأة .
والمُرجّل ازار خز فيه علم .
والمُدارة الازار الموشى .
والحَقْو الازار ومثله الحصار .
والصداد ما اصطدّت به المراة وهو الستر .
والفُوَط ثياب تجلب من السند ومآزر مخططة .
والدِثار مافوق الشعار من الثياب .
والحُلل واحدتها حُلّة وهي ازار ورداء وبرد او غيره ولا تكون حلة الا من ثوبين او ثوب له بطانة .

والسِربال القميص او الدرع او كل مالبس .
والقُرطَق لبس م .
واليَلمَق القبآ معرب يلمه .
والقَرقَر لباس المراة .
والقُرزح لباس كان لنسآئهم .
والمِفضل المفضل والمفضلة والفُضل الثوب الذي تتفضل فيه المراة اي تتوشح .
والحِقاب شي تعلق به المراة الحَلْي وتشده في وسطها كالحَقب .
والنِطاق شقة تلبسها المراة وتشد وسطها فترسل الاعلى على الاسفل الى الارض والاسفل يجرعلى الارض الخ .
والمِجَن الوشاح وقد تقدم في باب الحلى .
والاتب برد يشق فتلبسه المراة من غيرجيب ولا كمين والبقيرة ودرع المراة
والجَوب درع المراة اي قميصها .
والأُصدة قميص يلبس تحت الثوب .
والخَيعَل القميص بلا كمّ .
والرادعة قميص قدلُمع بالزعفران او بالطيب .
والقُمُص السنبلانية اي السابغة الطول او منسوبة الى بلد بالروم .
والشِعار ماتحت الدثار من اللباس وهو يلي شعر الجسد ويفتح .
والبِقذعة المجول وهي الدُرّاعة الصغيرة .
والجيند المدرعة الصغيرة .
والغِلالة شعار تحت الثوب كالغلة .
والمِشفاف الهفاف من القميص الرقيق الشفاف كالهفهاف .
والشَليل الغلالة تلبس تحت الدرع .
والقَرقل قميص للنسآ او ثوب لا كمَّي له .
والغِطاية ماتغطت به المراة من حشو الثياب كغلالة ونحوها .
والفَروة معروف .

والسَّبَنْجُونة فروة من الثعالب .

والشَّعْرآ الفروة .

والمُسْتُقة فروة طويلة الكم .

والخَيْعل الفرو او ثوب غير مخيط الفرجين او درع يخاط الخ .

والمِعْقب الخمار للمراة .

والنِقاب ماتنتقب به المراة .

والخِمار النصيف وهو العمامة وكل ماغطّي الراس .

والوَصاوِص البراقع الصغار .

والمِقْنعة ماتقنع به المراة راسها والقناع اوسع منها .

والعِصابة ماعُصب به والعمامة .

والسِيْدارة الوقاية تحت المقنعة والعصابة .

والعَمارة كل شي على الراس .

والعَمَر منديل تغطى به الحُرّة راسها .

والخُنْبُعة مقنعة صغيرة للمراة .

والبُخْنق خرقة تتقنع بها الجارية فتشد طرفيها تحت حنكها لتتقي الخمار من الدهن والدهن من الغبار والبرقع والبرنس الصغيران .

والصِقاع البرقع — وخرقة تقي الخمار من الدهن كالصوقعة ونحوها الغفارة .

والقُنْبع خرقة تخاط شبيهة بالبرنس والخنبعة او شبهها .

والقُنْزعة التي تتخذها المراة على راسها كالقنذعة .

والهُنْبُع شبه مقنعة للجواري وقد خيط مقدّمها .

والقُرْزل الشي تتخذه المراة فوق راسها كالقنزعة .

والجُنّة خرقة تلبسها المراة تغطّي راسها ماقَبَل ودبر غير وسطه وتغطى الوجه وجنبي الصدر وفيه عينان مجوبتان كالبرقع .

والتَساخين الخِفاف وشي كالطيالس .

والجَراميق الجرموق الذي يلبس فوق الخف .

والكَوْث	القَفش الذي يلبس في الرجل اي الخف القصير.
والران	كالخف الا انه لا قدم له وهو اطول من الخف .
والجَوْرب	لفافة الرجل وجوربته البسته اياه
والقُفاز	شي يعمل لليدين يحشي بقطن تلبسها المراة للبرد او ضرب من الحليّ الخ.

وتمام هذا كله ثلثمائة وخمسة وستون جنسا ومثلها مقارم . الحبس سوار من فضة يجعل في وسط القرام. والمقرمة محبس الفراش ومثلها سراويل من

الارنباني	الخزّ الادكن .
والدَّنا	ضرب من الحرير .
والاردن	ضرب من الخز.
والطارونى	ضرب منه والطُرن الخز .
والقتين	الخز المطبوخ الابيض .
والبِرس	القطن او شبيه به اوقطن البرديّ.
والشَّربيع	الكتان الجيد .
والقز	الابريسم وهو الدِمَقس ويقال ايضا الدقس والمدقس .

وقد زل بي القلم هنا أيضاً زلة ثانية فان السراويل يجب تقديمها على جميع ماسواها ليطابق الذكرُ الفكر . ثم انك اذا أخذتها الى ساحات المدينة وأسواقها حيث تزدحم الناس فاول ما تلمح فرهدا غسانيا غيسانيا تقول هذا يصلح لان يكون زير نساء ولان يركب الجياد ويتقلد السيف ويعتقل الرمح ويطعن به . أو غلاماً مترعرعاً قالت هذا يصلح لان يربي في المدرسة الزيرية حتى ينبغ . أو كهلاً قالت وهذا جدير بان يقعد في بيته ويتعاطى الغزل والنسيب ليجز ما يلزم لتلاميذ المدرسة منه . أو شيخاً همّاً هرما قالت وهذا قمين بان يكون مشيرا في الامور التي تعسر على الاغرار من الخرّجين فيكفيهم النصب في ايشائها . فان لم يلفَ عنده الرأي السديد فليدرج في كفن ويرمس هذا وفكرك لم يزل مشغولا بالحمار أو بالاكاف . فاما وجه كون مشاعرها أنفع فلانه

قد جرت عادة من شاخ من ذوي الامر والنهي انه اذا جفّ دمهم وضوى لحمهم حتى لم يَعُد التدثر بالثياب يدفئهم . شاعروا واحدة من هولا النواعم فاستغنوا بحرها عن حرارة الدثار والنار والاباز ير . والاحسن في ذلك ان تكون جارية عذراً . وقد اختلفوا في علة الحرارة ومأتاها . فبعضهم على ان نفسها من فيها هو الذي يدفي المقرور . واعترض بان هذا النفس لا بدّ وان يختلط بالشنب فيبرد . وغيرهم على ان منفذ الحرارة انما هو من المسامّ التي ينبت فيها الشعر . فان المرأة لما كانت مفتوحة المسامّ كان صعود الحرارة منها أبلغ . بخلاف الرجل فان مسامه مسدودة بما له من الشعر . ورد بان الامرد مثل المرأة في كونه مفتوحها ولم يقل أحد بان مشاعرته تدفي . وذهب بعض الى ان الحرارة انما هي من النفس من أنفها . وقال قوم من المتهافتين على الجاس انها من موضع آخر . قال في القاموس تكوّى الرجل بامرأته تدفأ واصطلى بحر جسدها . قلت ومع حرص المؤلف على جمع الالفاظ الغريبة النادرة لم يذكر فعلا يدل على اصطلا المرأة بحرارة جسد الرجل . ولهذا اي لاجل ان في جسم المرأة من الحرارة مالا يوجد في جسم الرجل كان أخف ما يكون من الدثار يدفئها ولو في الصرّ . والرجل اذ ذاك يُكهى و يقفقف ويقرعبّ و يتقرقف . ومثله غرابةً ان أكلها يكون أقلّ من أكل الرجل ولحمها أكثر من لحمه . قال المتكلمون ووافقهم على ذلك الاطبآ النطاسيّون . ان مما فضل الله سبحانه المرأة به ان جعل فيها قوة على حج الخصم وهداية الضالّ الى الدين القويم . وأوردوا على ذلك شاهدا ما جرى لذلك المعتزلي مع امرأته . وذلك ان بعض المشاهير من علما المعتزلة الذين يزعمون ان افعال العبد ليست مخلوقة لله كان يجادل اهل السنّة و يورد لهم من الادلة والبراهين على تايد مذهبه ما يبكهم به . فانبرت له امرأة لبيبة سُنّية وقالت لقومها زوجوني به فاخصمه في ليلة واحدة ان شآ الله فبات معها تلك الليلة على الجادة . حتى اذا قضى لها الفرض ثم تنفّل بعده وتطوّع وظن انه قد استحق الثواب وتَخلّق بالاغماض . قالت له واين الرابع والخامس والعاشر باشرواض . فتجلّد لآخر ثم قال قد نفد ما في الوطاب . فلا ملام ولا عتاب . قالت امثلك من يبدي هذا الاعتذار . وانت تقول ان الافعال غير مخلوقة للواحد القهار . قال قد نبهت من كان غافلا . وهديت من كان ضالا . اني عدلت عن مذهبي القديم . وقد هداني الله الى الصراط المستقيم .

قلت ويعلم من كتب التاريخ ان المراة لها اعظم مدخل في دخول النصرانية في بلاد الافرنج . قال بعض الظرفاء من الادباء ان المراة اذا رامت ان تشتري حاجة او تستقضي احدا شيئا لم يلزمها ان تنقد البائع اوالقاضي مالاً . وانما تنقده العين من العين. قال ولذلك جاء هذا الحرف بالمعنيين. بخلاف الرجل فانه اذا اراد قضاء شي ايا كان ولا سيما النشنشة فلا بد وان يحل عقدته بنفاثات الدرهم او الدينار . وانها ايضا اذا توحمت على شيء تحبه وهي حبلى ظهر ذلك الشيء المتوحم عليه في الولد . فينبغي للاب ان يتفقد ولده ليعلم اي شكل من الاشكال بدا في اجسامهم . وما انكره منها فليكتمه قال وان القدرة الخالقية قد اوجدت لها من النبات وغيره اشكالا كثيرة تقر بها عينها وينشرح صدرها اذا نظرتها او لمستها وليس للرجل شي من هذه الخصائص . وان امرأة واحدة اذا كانت في مجلس قد اجتمع فيه عشرون رجلا امكن لها ان تهتدم كلهم اجمعين. فتصبي هذا بلفظة. وذلك بلحظة. وذا بغمزة. وذاك بهجلة. وآخر بخرزه وغيره بخشيفة واخر باسجادة . وغيره بزفرة . وآخر بالتفاتة. وغيره بلية جيد. وآخر بشمة . وغيره بنزنزة . وآخر بعضة . على لسانها . وغيره باخراجه ونضنضته . وآخر بضم شفتيها وانفاصهما . وغيره بعرض عارضها . وآخر بتفيي شعرها . وغيره بابتسامة . وآخر بضحكة . وغيره بقهقهة . فيقوم الجميع عنها راضين. وابرع ماتكون المراة ما اذا جلست بين زمرة من الفتيان يغازلونها ويداعبونها ويتملقونها . قال ومن خصائصها ايضا انها تعرف مافي قلوب الرجال . فلذلك تفتنهم بوكوكتها وحركتها وتعمدهم وتصبيهم . وتتبلهم وتشجيهم . وتحسرهم وتبلبلهم . وتطربهم وتشغلهم . وتعبدهم وتهدهم وتتيمهم وتهيمهم. وتشوقهم وتروعهم . وتعوقهم وتلوعهم . وتورقهم وتسبيهم. وتشرقهم وتشبيهم وتخلبهم وتسحرهم . وتحربهم وتبهرهم . وتبيمهم وتشغرهم . وتجيعهم وتصديهم وتقلبهم وتفأدهم . وترآهم وتصدرهم . وتكبدهم وتطحلهم . وتعمدهم وتفخذهم . وتبطنهم وتسهم . فاما ماقيل في خصائص فرنستها من انها تحسن اعمال البيت كالخياطة والتطريز وغيره فمذكور في كثير من الكتب فعليك بمراجعتها . انتهى الكلام الان على المراة بغير مرآء على ان عندي منه ماعند الفراء من. حي.

قال بعض معانيه العلماء المرأة كلها شرّ . وشر ما فيها انه لابد منها . قلت وهو كحلم جحى نصفه صدق ونصفه كذب . فالصادق منه قوله انه لابد منها

الفصل السابع عشر

في رثاء حمار

اهلاً بك يافارياق اين انت وفيمَ كنت هذه المدة الطويلة — في نظم الابيات السرية — ولكن هذا معلوم عندي ولم اسألك الآ عن امر حديث — قد فجعت بالامس بحمار لي وسالت عنه الجيران فلم يقل احد منه انه سرقه . فاكتريت مناديا بدرهم فجعل ينادي في الاسواق ألا قد فرّ اليوم حمار الفارياق وخلى قيده في الوتد فهل منكم من راه . فلم يجبه احد الاّ بقوله ما اكثر الحمير الآبقة اليوم من بيوت مواليها . فلما عاد اليّ بهذه البشرى بلغ مني الغيظ كل مبلغ . وآليت ان لاانظر بعدها في وجه حمار سواء كان حقيقيا او مجازيا . فقد قال بعض ائمة اللغة ان من خصائص لغتنا هذه الشريفة دون غيرها ان يقال للرجل الجاهل حمار . ثم اخذت ارثيه بهذه الابيات وهي

راح الحمار وخلى القيد في الوتد ... وما رأى اثره في الناس من احد

فهل انا راكب من بعده وتداً ... ام مجزئي قيده لو كان من مسد

ام كيف ادخل داراً كان لي سكناً ... وانزل عندي منزل الولد

سرهدته بيدي كالطفل من شفق ... كالطفل من شفق سرهدته بيدي

وجئته بشعير لا يخالطه ... ماس ولا عسجد خوفاً من الدرد

وكان يوقظني منه النهاق اذا ... استثقلت نوما بصوت مطرب غرد

كم حاد بي عن مضيق حين ابصر من … حول الجمال تبلّ الارض بالزبد
وسار بي في طريق بلّ جانبها … اهل الجمال بماء الورد وهوندى
وكم جرى فارها اذ لاح عن بعد … زفاف خود اليها بالغ الامد
واذ تبين نعشا للجنازة لم … يمرر به مع الم النخس في الكتد
ماضل يوما عن استقرآء معلفه … اكان في روضة غنّآء ام جرد
قد رابني حذقه حتى ظننت به … مسخية مثل بعض الخلق عن احد
وما شكا قط من وخز ولا ضعفت رجـ … ـلاه عن جوب وعث طال او جدد
شُلت يدا من به ولّى وغادرني … امشي وانشب في اوحال ذا البلد
اعالمٌ انني من بعده جزع … وان فرقته نار على كبدي
وان صوت المنادي اليوم يزعق ان … البس إكافك في جنح الدجى وعُد
لا يغررنّك رغدانت واجده … عند الحرامي خصمي فيك من حسد
فانما ذا لحين انت تعلمه … مادام شهرا على طرف ولا عتد
يهديك كل حمار ندّ من بطر … اوضجّ من لغب اوخار من جهد
او حارمن شبق قلّاب جحفلة … كرّاف بول قديم جفّ كالقدد
مصنبع الراس ممشوق القوائم لم … يحرن اذا سمته خسفا ولم يحد
أليّة انه بالطرق أعرف من … مولاه ان لم يعقه القيد ذو العقد
ياليت لي خصلة من ذيله ابداً … ارنو اليها كما يُرنى الى الخُرُد

قال فقلت له لقد ضاع شعرك في الحمار العادي . كما ضاع الدرهم في المنادي . قال اما الدرهم فقد ضاع حقا واما الحمار فلا . قلت كيف ذلك والدار منه بلقع . قال من عادتي اني اذا فقدت شيا وذكرته في الشعر خيّل لي اني عُوّضت عنه . فان لم اذكره بقيت متحسرا على فقده . قلت او يقوم النثر مقام النظم قال ربما يقوم عند بعض الناس . فقد بلغني ان كثيرا من المؤلفين كانوا يحاولون ادراك اوطار حرمهم منها قلّة ذات اليد فالفوا فيها كتبا واستغنوا بها عنها . قلت من قال ذلك . قال هم قائلوه . قلت هذا محض كذب فاني الّفت في النسآء كذا وكذا رسالة وما خطر ببالي قط اني عُوّضت عن واحدة ممن وصفت . قال ولمَ الّفتها اذا . قلت لم يكن لي من شغل ولا حركة .

و وجدت الزمان عليّ طويلا ولا سيما الليالي من دون مباشرة شي ما فلقت ما كان يخطر ببالي . قال وهلاّ تفرح الان بتاليفك اذا قراته او اذا سمعت ان الناس يقراونه . قلت بل اضحك من سخف عقلي وقتئذ . فاني قد عرّضت عرضي لالسن القادحين فضلا عن كوني اضعت اوقاتي عبثا فيما لم يجدني نفعا . وقد بلغني ان كثيرا من المتزوجين ساءهم ماقلته في النسآ وذكر مكايدهن فاستظهروا عليّ بجماعة من العلمآ عابوا عليّ تبويب كتبي وخطّاوني في عبارتها . وكنت ايضا حكيت كلاما عن بعض النسآ بلفظه فقالوا لاينبغي ان يحكى الكلام بلفظه في الكتب وغير ذلك مما نددّ مني كثيرا . قال قد سمعت ان الناس لايزالون يعادون المولف حال حياته . فاذا مات حرصوا على كلمة يأثرونها عنه كما قال الشاعر

ترى الفتى ينكر فضل الفتى ... مادام حيـًا فاذا ماذهب

لجّ به الحرص على نكتة ... يكتبها عنه بماء الذهب

قلت وما نفع هذا الحرص لمن مات . قال لانفع منه غير اني ارى ان في النظم للذة عظيمة . ولا بدّ وان يكون النثر ايضا مثله فانهما كليهما يخرجان من مخرج واحد . افلا تقول بصحة ذلك . قلت اني اقول باللذّة في التاليف من جهة ان المولف يعرف شيا جهله غيره . ولا شك ان في معرفة الحقائق لذة . غير انه يقابلها من الالم ما يرجحها . وذلك ان المولف اذا عرف مثلاً حقيقة واراد ان يعرّف غيره اياها وجد اكثر الناس قد صمّوا عن سماعها . ومثل ذلك مثل طبيب نصوح راى اهل بلده يستحمون بالماء البارد في حال كونهم محمومين . فنصح لهم ان لايفعلوا ذلك فابوا وقالوا ان هذه البرودة تزيل الحرارة . فهو من جهة انه عارف بالحقيقة مسرور . ومن جهة انه يرى غيره في ضلال عنها محزون . وسروره لنفسه لايوازن حزنه على غيره . الا ترى ان اهل العلم كلهم ضعاف ضاوون قليلوا الكلام والنوم والاكل والضحك . وان الجهال سمان نادّون اصحآء كثيروا الاكل والنوم وغيره مما جعل لتقويم الطبيعة . قال فما بال الاطبآء سمان ايضا وهم بمنزلة العلمآء في كونهم يعلمون من المنافع ما يجهله غيرهم قلت ان الطبيب لايرى الناس حين ياكلون ويشربون ويباعلون . وانما يراهم حين يمرضون فلا تحزنه افعالهم . فاما العالم فانه في كل وقت ومكان يرى من العامة ما يدل على ضلالهم وجهلهم . فلا يمكنه والحالة هذه الا ان يتاسف على ماهم فيه من الغباوة

والغفلة . قال افتقول اذاً بالجهل . قلت هنيئاً لمن رضي به . قال وما قولك في الشعر . قلت ان كان هو لمصلحة اي لشيء يعود الى الشيام با ودك فنعم هو . وان يكن عن مجرد هوس وميل الى التجنيس والترصيع ابان رايت امراة جميلة او وردة او روضة كما هو داب اكثر الشعراء يتكلفون للنظم في كل ما لاح لهم او كرثاثك الحمار الآن فتركه اولى . قال ولكن احسن الشعر ما جاء عن هوس اي عن السليقة لا بالتكلف . فاني حين ام لمدح السري اجد في ضم لفظة الى اخرى ما يجده المعاني لضم نقيضين مختلفين . وليس كذلك ما نظمته في الحمار . فاني نظمت فيه هذه المرثية في ساعة من الزمن . قلت ولكن الناس لا ينظرون الا الى الظاهر . فقصيدتك في الحمار يسمونها حمارية . وابياتك في السري سرية . قال ان كان الامر كما ذكرت فلم رغبت عن التاليف ولكن لا في النساء . فان ذلك امر مستفيض . قلت اما اولا فلان المولف يوقع نفسه في كلاليب السنة الناس فيمزقون عرضه وجلده كما ذكرت لك آنفا . والثاني فان حقيقة اسم المؤلف غير محمود . فهو عند من يعلم حقيقة معناه بمعنى الملفق واكثر الناس يضحكون من هذا الحرف . فيحسبون انه من التاليف بين شخصين . وانما يقولون لمن تعاطي ذلك شيخ . وهو ايضا مكروه عند بعض الناس وخصوصا عند النساء . واحسن الالقاب هنا فيما ارى عند النصارى قسيس وعند المسلمين بيك . اما القسيس فلأن كل الناس تلثم يده وتتبرك بذلك . وان المرأة من القبط لتغسل رجلي القسيس بيديها بماء الطهر ثم توعي ماءهما في زجاجة . وانه متى جاع حمل امعاءه الى دار احد من معارفه فاستقبلته زوجته بالبشاشة والاكرام فذعبها اي زعب . واذا شاء ان يبقى في بيته لعارض من العوارض بعث غلامه بعلامة الى احد البيوت فجاءه منها بغداء ينظم فيه شعراء عصرنا قصائد . فاما البيك فانه وان يكن مقامه بين الناس كريما الا انه لا يمكنه ان يبلغ من البيوت ما يبلغه القسيس . اذ لا يتاتى له ان يمشي وحده . فلا بد وان يمشي معه اثنان عن اليمين والشمال وهما وان اظهرا له الخضوع والاحترام ففي قلوبهما منه حزازات تبعثهما على مراقبته والتعنت عليه اللهم الا اذا تزيا بزي خادم له وخرج فظاهر اللباس يحجب عنه العين . قال هيهات ان اصير قسيسا . هيهات ان اصير بيكا . اما حرفة القسيس فانها لا تصلح لي لاني لا احب الركاكة . واما صفة البيك فاني لا اصلح لها فان

القدرة الازلية لم ترتض لي منذ الازل بالبوكية للبيكية . وما بقي امامي الا الشيخية. قد توكلت على الله قلت اني مفارقك على ان تخبرني بما سيحدث لك في شيخيتك. قال سأفعل ذلك ان شاء الله



الفصل الثامن عشر

في الوان مختلفة من المرض

ثم لازم الفارياق نظم الابيات وهو حريص على الاتسام بسمة شيخ فعنّ له ان يقرا النحو على بعض المشايخ لما انه رأى ان القدر الذي كان تعلمه منه في بلاده لايكفي لممدح السري . وفي ذلك الشهر الذي نوى فيه القرآة أصيب برمد اليم . فلما افاق شرع في العلم فقرا على الشيخ مصطفى كتبا صغيرة في النحو والصرف . ثم اشتد به داء الديدان الذي سببه في ما قيل اكل اللحم نيئا . وتلك عادة مشهورة عند اهل الشام . فكان يتمعص منه وقت القراءة والشيخ يظن ان ذلك من اختلاف المسائل وكثرة التعاليل حتى قال له مرة سبحان الله ما أحد قرا عليّ هذا الفن الا ويتمعّص . فقال له ليس التمعّص كله ياسيدي الشيخ من زيد وعمرو . فان لجماعة الديدان ايضا مدخلا . فاني لا آكل شيئا الا وسبقوا معدتي اليه . قال لاباس عليك عسى ان يخف عنك ببركة العلم واتفق للفارياق وقتئذ ان سأله احد معارفه ان يقرأ على الشيخ المذكور ذلك الكتاب الذي تقراه النصارى في الجبل . وهو كتاب بحث المطالب . فلما ختمه التمس من الشيخ ان يكتب له اجازة اقرانه في بلاده . فكتب له اجازة وعرضها على الفارياق . فحين تصفحها رأى فيها خطأ في اللغة والاعراب . فاستأذن من شيخه ان يوقفه على الغلط

فلما وقف عليه قال سأكتب له غدا أخرى . ثم كتب له اجازة غيرها فلما امعن الفارياق فيها النظر اذا بها كالاولى • فنبّه شيخه على ما فيها . فقال له اكتب له انت عني ما شئت فكتب له ما اعجب به على ان الشيخ كان مضطلعا بفن النحو غاية ما يكون . فكان يقضي ساعة تامة في شرح جملة غير تامة. الا انه لم يكن يزاول الانشاء والتأليف فكان علمه كله في صدره وعلى لسانه ولا يكاد يخرج منه الى القلم شيء . ثم بعد قراءة النحو على النسق المذكور راجع الفارياق وجع العينين . فلما افاق رأى ان يقرأ شرح التلخيص في المعاني • فشرع فيه مع الشيخ احمد . فلم يسر فيه قليلا حتى اصابته الحكة ولم يكن قد عرفها في مبادئها فلهذا استمر على القراءة . حتى اذا كان الشيخ آخذ مرة في شرح مسألة معضلة ثارت الحكة في بدن الفارياق فجعل يحكّ بكلتا يديه . فالتفت اليه الشيخ فرآه منهمكا في الحك فقال له ما بالك تحك وانت على ما يظهر لي غير منتبه لقيل واجيب هل نحن الآن في محاكة الالفاظ او في محاكة الاعضاء • قال لا تؤاخذني ياسيدي فاني ارى لذة الحك مانعة لي من التنبه لغيره . قال أوبك الحك . قال لعلها هي • فنظر الشيخ الى يديه فقال هي والله فينبغي ان تقتصر في بيتك وتطلي جسمك بخرء الكلاب فليس لها من علاج سواه • فلزم الفارياق بيته وجعل يطلي بدنه كل يوم بالخرء المشار اليه ويقعد في الشمس ساعات حتى لقي من ذلك عذاب الهون . ثم لما افاق رجع الى القراءة وبعد ان ختم الكتاب عاودته ضربة الرمد ثم نقر في رأسه ان يقرأ شرح السلّم للاخضري في المنطق . فشرع في قراءته على الشيخ محمود فاصابته الهيضة وهي الداء المسمي في مصر بالهواء الاصفر فبقي ثلثة ايام لا يعي ولا يعقل من الدنيا شيا ولا يقدر على النطق . سوى انه سمعه خادمه مرة يهذي ويقول كائية . وجبة كبرى . فظن انه يستعظم مصيبته فيقول انها كبرى . ولم يكن احد اصيب بهذا الداء في مصر . فلما مضت ثلثون يوما انتشر في البلد وعمّ بلاوه والمياذ بالله فكان يموت به كل يوم الوف . ووقتئذ عرف الفارياق انه كان المقدّم في هذه البليّة وغيره التالى كما تقول المناطقة . وان الديدان التي كان يقاسي منها هي التي عجلت له بهذا الداء فعجل هو بها . فجعل اي الفارياق يركب حماره ويطوف في الاسواق وكانه أمن من المقدور *(حاشية لم يكن هذا الحمار ذلك الذي استحق الرثاء والتابين بل كان ممن يحقّ له التقريظ) فسار الى قرية في الريف

ومعه خادمه وخادمته . فعلم به بعض ولاة البلاد فاستدعى به وبالخادم والخادمة . وقال له أي لبيب هل هذا وقت الموت او وقت الايلاد حتى جئت بهذه الجارية هنا . قال انا مدّاح السريّ وقد اتيت لاسرّح ناظري في نضرة الريف فاجيد مدحه بعد موت من يموت . فقد ضقت بالمدينة ذرعا وخشيت على قريحتي العقم . قال ماهذه واشار الى الخادمة . قال هي اخت هذا يعني الخادم . قال وما هذا . قال خوليّ هذا يعني الحمار . فالتفت الامير الى الخادم فرأى عليه طلاوة . فقال له من حيث انك شاعر السريّ او شعروره فلا تثريب عليك . وانما ينبغي ان تترك الخادم هنا فانه يصلح لخدمتي . قال لك عليّ الامرة فخذه . فاستبد به الامير تلك الليلة وساله عن الفارياق ماحتا . فقال له الخادم والله ياسيدي انه رجل طيب غير اني اظن انه اعجمي فاني لا اكاد افهمه حين يتكلم بلغتنا . فلما اصبح الصباح تاهب الفارياق للرجوع فلم يجد الحمار . فظن انه لحق بالاول . فجعل يبحث عنه فوجده قد خرج مع حمار آخر من حمر الامير الى سهل وهو تحته يرتع ويخر . فلما ان راه على حالة المفعولية غلبه الضحك فقال قد ورد في الحديث ان الناس على دين ملوكهم . الا انه لم يقل احد قط ان الحمير على مذهب اصحابها . ولكن بالامير ولا بالمأمير . ثم رجع الى الدار فوجد خادمه وخادمته ينتظرانه . وقال له الخادم قد سرّحني الامير فانه لم يرني اهلا لخدمته الا ليلة واحدة وها انا الآن حرّ . ثم ان الفارياق بعد ان هنأ الامير ومرأه رجع الى مصر وكان البلاء قد خفّ . فسال عن شيخه المنطقي فقيل له انه حيّ لم يقض من القضايا فرجع اليه واتمّ معه ما كان ابتدا به فلما بلغ آخر درجة من السلّم عاودته ضربة الرمد فلزم بيته . فلما افاق راى ان يتعلم شيا من الفقه وعلم الكلام . فبدا بالكنز وبالرسالة السنوسية فمرض — فراه بعض معارفه من الفرنساوية فساله عن سبب ضعفه فاخبره الخبر . فقال له انا اشفيك منه باذن الله ولكن على شرط ان تعلم ابني العربية . فقال حبا وكرامة . فشرع مذ ذلك الوقت في تعليمه وفي تعاطي الدواء من عند ابيه . ولكن لابدّ لتفصيل ذلك من فصل على حدته



الفصل التاسع عشر

في دائرة هذا الكون ومركز هذا الكتاب

كان هذا الرجل طبيبا مشهورا بمصر . ولكن شهرته في دائه اكثر منها في دوائه . وذلك انه كان قد تزوج جارية تارة على كبر سنه فاولدها بنتا وصبيا . ثم عجز عن اداء حقها فجعل دابه الملاطفة لها والتملق . وتلك عادة الرجل مع المراة من انه كلما قصر في اعتابها وارضائها في الحقوق الزوجية زاد حرصه عليها وكلفه بها وتودد به لها . توهم ان هذا يسد عند المراة مسد ذلك . وكذا حالته معها اذا كان يخونها ويرأم اخرى . كما ان داب المراة ان تزيد هشهشتها ومرويتها لزوجها بزيادة اشباعه اياها واطفاف الكيل لها . او تماقها له اذا كانت تخونه . وبناء على ذلك قال الطبيب لزوجته يوما من الايام . ياهذي انني ارى ان قد صدىء مفتاحي عن قفلك . وان سنك ونزارتك تقتضيان ان تتخذي لك آلة رصاعية تتلهى بها حتى يحين حيني فتتزوجي بآخر . والا فاني اخاف ان تتركيني وتطيري من عندي كما يطير الحمام . وقد يهون علي ان اخسر منك شيا واحدا ولا اخسرك بجملتك . فانك ام ولدي ومحل سري من كبدي . فلا اطيق فراقك . فاختاري لنفسك من شئت آتك به بقرنيه . فضحكت المراة عند ذلك . ثم قال ومن حيث اني معروف في هذا البلد باني طبيب فاذا راى الجيران رجلا قادما اليّ بل رجالا فلا يكون عليك شبهة . فضحكت المراة ايضاً لقوله رجالا . قال فان الناس يقرعون باب الطبيب ولو في نصف الليل وهنا ضحكت ايضا . ثم تمادي في الكلام معها الى ان قال ولا تظني اني انا وحدي تفردت بهذه العادة . فان امثالي من اهل بلادي يفعلون كذلك وهنا قهقهت . فلما فرغ من بقية خطبته على هذا النسق ظنت زوجته اولاً انه قصد بذلك ان يستطلع سرها ويتصيدها بزلة . فبكت من شدة الغيظ وقالت له ازعمتني بغيا حتى تقابلني بمثل هذا الكلام وتسيء بي الظن . قال حاشا لله من

ذلك ، وانما تكلمت معك بمقتضى الطبع فتدبري قولي بعد حين وردّي على الجواب ، فانصرفت المراة من حضرته وهي واجمة مرتابة . ثم مضت عليهما ايام غير قليلة والرجل لا يهارش ولا يعاظل . ولا يلاعب ولا يباعل ، فقلقت جداً لهذه الحال . وضاق صدرها عن صبر الاعتزال ، واخذت تفكر فيما قاله لها زوجها ، فتجملت له يوما من الايام وتبرّجت وتعطرت وقصدت غرفته وهي تقول في نفسها . اليوم يكون برزخ الحالتين . وفيصل الحدّين . فان لم تكن منه مباعلة ذكرته بما قال . فتلقاها بالبشر والبشاشة واجلسها بجانبه وعرف انها كَرِعت . اذ راى قد علت عينيها حمرة وهما ترارثان وفي صوتها تهدج اى رعشة واضطراب ، فلما استقرت بادرها بالكلام بان قال هل تبصّرت فيما قلته لك منذ ايام ، قالت نعم ولكن اما عندك فضلة تغنيني عن هذا الامر . قال ماعندي والله من وَشَل ولا فضلة . ولا ثمد ولا ثملة . ولم يبق لي امل لاصلاح شاني في ناعوظ ما لا في لحم السقنقور ولا في شحم الوَرَل دَلْكا ولا في الزنجبيل ولا الفلفل ولا التامول ولا القاقلة ولا الراسن ولا الفوفل ولا القرنفل ولا السُنبل ولا المصطكى ولا الجوز بوّا ولا الهال ولا الرازيانج ولا في عاقر قرحا ولا في حب الصنوبر ولا الحمص ولا الكابلي ولا الاِبليلج ولا دار فلفل ولا السمسم ولا الخولنجان ولا البسباسة ولا دهن البلسان ولا خصي الثعلب ولا في بيض العصافير ولا في دهن السوسن ولا في القلقاس ولا في اصل النرجس منقوعا فى الحليب ليلتين ولا في الكرفس مدقوقا بزره بالسكر والسمن ولا فى لبس الثوب المورّس ولا في اكل اصل اللوف ولا في الضجع معصورا ماءه فى اللبن الرائب ولا فى البورق مدوفا بالعسل او في دهن الزنبق ولا فى البندق الهندي ولا في الهَمْقاق مقلوّا ولا في علك البطم والينبوت ولا فى المسك مدوفا بدهن الخِيريّ ولا في البَهْمن ولا في الجزر ولا فى الهليون ولا فى الاملج ولا في البسفارذانج ولا في اخضر الباقلي بالزنجبيل ولا في القلقل مدقوقا بالسمسم معجونا بالعسل ولا في صمغ الكَنْدَر ولا في المُقل ولا في ثمر البطن ولا في التبخير بخفيف لحم الرخم مخلوطا بخردل سبع مرات ولا في حب الزَلَم ولا في لبّ القرطم ولا في معك العَنَم ولا في الموز ولا في مسح دماغ الخفاش بالاخمصين ولا في لحم الحمام ولا في قرفة القرنفل والا لما ضننت عليك بشيء ، لما تعلمين من فرط محبتي لك

فقالت له اذا كان الامر ياسيدي كما ذكرت فاني اختار قسيسا . قال اي وسواس وسوس اليك هذا الاختيار الذي ليس من الخير في شيء . قالت اما اولا فلأن الناس لا يسيئون به الظن اذا راوه داخلا اليّ كل يوم . والثاني انه يقال ان مادّة القسيس متوفرة فيه . قال قد غويت ومع ذلك فاني اخشى منه على ولديّ فانه ربما يغريهما بخلافي حالة كوني مخالفا له في معتقده فالاولى ان تختاري آخر . قالت انت طبيب تعرف الصحيح من العليل والقوي من الضعيف فاختر لي من تشآ فاني ارضى بكل ماترضى به انت . قال بارك الله فيك . ثم قبّلها من فرحه ووعدها بانجاز عدته في اليوم القابل . وما كاد يسفر الفجر الا وهو فوق حماره يقصد بعض اصحابه . فلما اجتمع به قال له ان لي عندك حاجة جئت التمسها منك . قال قل مابدالك . قال على شرط ان لاتخيّبني . قال سابذل مجهودي كله ان شآء الله في قضآئها . فاخذ يده توثيقا للعهد ثم قال له اني اريد ان تكون خليفتي في زوجتي . فقال له الرجل هل بدا لك سفر عن مصر وان تترك زوجتك هنا قال لا وانما تكون خلافتك عني في حضوري . فاستاء الرجل وقال او خامرك ريب في صداقتي لك حتي اضمرت استطلاع سرّي . وخفي امري . فعند ذلك صرّح له بالقضية والح عليه في القدوم معه . ولما ان قدما انعقد البيع بحضرة كلّ من الزوج والزوجة وتم التراضي . وصار الرجل مذ ذلك الوقت يتردد على دار الخلافة وبقي كذلك مدة . ثم ان الزوجة لما ملّته كما هي عادة النسآء وظهر له ذلك من قلة احتفالها به مرة ومن اعتذارها اليه اخرى . جرى هو ايضا على عادة الرجال من انه افشى سرّها لصاحب له . فجرى هذا ايضا على جَدَد امثاله وجعل يتودد اليها وقام عندها مقام الاول . ثم ملّته فافشى سرها . ثم جآءها آخر فقبلته . ثم آخر وآخر حتى صاروا جماعة عظيمة . ثم تراجع اليها احبّاؤها الاولون وانهمكت في التبديل والتغيير حتى صارت دار الطبيب كالمشرعة . ولم تكن هذه القضية قد شهرت في مبادئها عند الجيران اذ كانوا يظنون ان القوم ياتون ليتداووا من علل بهم . ولكنها علمت بعد ذلك . وكان سببه ان الطبيب اتخذ له دارا أخرى خارج البلد ليصيف فيها . وترك امرأته في الدار الاولى والزائرون على ما كانوا عليه من الورود والصدور فتنبه الناس لذلك . وفي هذا الوقت اي ورود الخلق الى هذا

المغنم البارد كان الفارياق المسكين يتردد على منزل الطبيب ليعلم ابنه ويتداوى . فظن الناس انه من جملة الزائرين . وتقلدوا اثمه في اعناقهم الى يوم الدين . فانه كان معطلا وفعله مُلْغَى عن العمل . وبقي على تلك الحالة مدة من دون ان يري فائدة من العلاج فكأن الطبيب اراد أن تطول المدة عليه الى غاية تعليم ابنه . فمن ثم اقتصر الفارياق عن التردد اليه وتداوى عند غيره وشفي . وفي خلال ذلك سافر الى الاسكندرية لمصلحة ما . فاجتمع فيها بواحد من الخرجيين الصالحين . فسأله هذا ان يرجع معه الي مصر ليعلم عنده بعض تلاميذ فاجابه الى ذلك . وانما رغب فيه لكون الخرجيين لايوخرون اجرة من يعمل لهم . وفي اثناء هذا عنّ له ان يقرأ علم العروض . فاخذ في قرأة شرح الكافي على الشيخ محمد . فما كاد يختمه حتى فشا الطاعون بمصر فاشتد بالمولى الخرجي الحرص على حياته ابقآء للمصلحة الخرجية كما زعم . فمن ثم رأى ان يتباعد عن وهدة الفخ قليلا لكيلا ينطبق عليه فيفجع الخرجيون امثاله بفقده فيكون فقده سببا في فقد غيره. اذ قد تقرر عندهم ان شدة الحزن تميت . فحمل الفارياق مع الخرجيين الخِرّيجيين ومع رجل لبيب ذي خبرة بالعلاج المانع من عدوى الطاعون ثم استصحب مالزم له وفرّ الى الصعيد وتفصيل ذلك في الفصل الآتي .



الفصل العشرون

في معجزات وكرامات

كان عند الخرجي المذكور خادمة رعبوبة من اهل بلاده . فلما عزم على الفرار رأى ان يغادرها في منزله لتصون حاجته فيه . وانما أبى ان يستصحبها معه لانه كان متزوجا بامرأة هي دونها في الحسن . كما جرت العادة في بلاد الافرنج من ان الخادمة غالبا تكون فوق مخدومتها في القسامة والجمال ودونها في الدراية والمعارف . فوقع في

خاطر زوجته انه اذا نشبت فيها عوالق الفخ اولا ربما اتخذ زوجها تلك الخويدمة في فراشها وطاب عنها نفسا . وان اول شيء تتعلمه البنت من امها قبل زواجها هو منع الاسباب التي تبعث زوجها على الاستغناء عن شخصها او عن ذكرها . ولذلك كان من عادة نساء الافرنج ان يهدين الى بعولتهن صورهن وان كانت شنيعة ليجعلوها في قصهم . او خصلا من شعورهن وان تكن حمراء ليتختموا بها . ثم بدا مشكل آخر وهو ان الخادمة اذا بقيت وحدها في الدار لم تأمن من ان يتسوّر عليها احد في الليل فيقع المحذور . ويحمى التنور . ويكسر المجبور . ويمد المجزور . ويطم المحفور . ويذال المذخور . ويحرث البور . وتفك الطلاسم عن المسحور . ويفتق المشصور ويسمد الصعبور . ويوسع الصنبور . ويعمر المطمور . وتذلل العبسور . ويصدع الفاثور . ويخرب القهقور . وينقر في الناقور فتنسلّم شوكة الزنبور . فارتأى بعد ان رفع يديه بالابتهال الى الله تعالى ان يضم اليها رجلا من اهل بلاده نحيفا قشموما اعتقاد انه لايقدر على ارتكاب شيء من الافعال التي جرّت هذه القوافي المتعددة . وذلك من جملة الاغلاط الفاضحة التي اشتهرت بين الناس اعني انهم يظنون في الغالب من دون مراجعة النساء والاستشهاد بقولهن ان النحيف لايقدر على مايقدر عليه السمين . وكان الاولى ان لايستبدوا برايهم في ذلك . فمكث القشموم مع الخادمة في اهنا عيش . اما ما كان من الخرجيين فان مخرّجهم أي مربّيهم وكّل بهم ذلك الرجل اللبيب . واوعز اليه في ان يحظرهم عن الخروج وان لايدع احدا من اقاربهم يدخل اليهم . وان يستخدم رجلا ليشتري لهم مايلزمهم من الخارج ولا يستلم منه شيئا الا بعد ان يغمسه في الخل اويبخره بالشيح . وغير ذلك مما عرف في اصطلاح الافرنج لمنع اسباب الوباء . وكان هذا الوكيل من مشاهير علماء ملّته . وكان في مبدء امره كافرا لايعتقد بدين من الاديان . لكنه كان حميد الخصال حسن الاخلاق . غير ان كفره حال بينه وبين رزقه فاضطر الى ان ينحاز الى الخرجيين من اهل بلاده ففرحوا بهدايته كثيرا واحسنوا اليه احسانا وفيرا فانقلب هزله جدا وتمكنت منه الوساوس والاوهام حتى اعتقد اخيراً انه اهل للكرامات والمعجزات . فكان يتمنى ان تسنح له فرصة لذلك . واتفق في هذا الاوان ان مات بالطاعون ذلك الخادم الذي كان

يشتري لوازم الدار . فلما جاء الدفّانون ليحملوه اعترضهم الوكيل من داخل الدار فخافوا ان يخالفوه لكونه من الافرنج فان لهم عند اهل مصر حرمة زائدة . ثم انه مضى الى موضع منفرد وجثا على ركبتيه وهو يدعو الله سبحانه وتعالى لان يحقق له صدق عقيدته . ثم فتح الباب وخرج والقى نفسه على جثة الميت وجعل فمه في اذنه وهو يناديه قائلا . ياعبد الجليل (اسم الميت) انى ادعوك باسم المسيح ابن الله لان تعود من ظلمة الموت الى نور الحياة . ثم اصغى ليستمع الجواب فلم يجبه احد . فاشار الى الدفانين أنِ اصبروا . ثم سار الى ذلك الموضع الذي صلى فيه اولا . وغير ركعته بان جعل فمه بين فخذيه وهو يجمجم في الدعاء وذلك على منوال الياس النبي حين صلى لانزال المطر بعد ان قتل انبياء بعل . وكان عددهم اربعمائة وخمسين نبيًّا على ماذكر في الفصل الثامن عشر من سفر الملوك الاول . الا انّ بين الداعيين فرقا . وهو ان النبي صلى هكذا بعد القتل وصاحبنا هذا قبل الاحياء . وكان الاولى ان يرفع عبدالجليل الى غرفة كما فعل النبي المذكور بابن الارملة التي كانت تعوله . وكان دعاؤه الى الله لاحيائه ان قال ايها الرب الهى اجلبت الشرّ ايضا على هذه المراة بقتل ابنها الخ . ثم انه شبح يديه حتي صارت جثته على شكل صليب . ثم قام ناشط مسرورا واسرع في ان القى جثته على الميت واعاد في اذنيه كلامه الاول . فلما لم يجبه احد ورأى الميت لم يزل مفتوح الفم مطبق الجفنين ولم يمشِ مرة هنا ومرة هناك ولم يعطس سبع عطسات كما عطس ابن المراة الذي احياه النبي اليشع على ما ذكر فى الفصل الرابع من سفر الملوك الثانى . ذهب الى المطبخ وامر الطباخ بان يصنع له مرقة على الفور . فلما صبّت المرقة اقبل بها الى عبد الجليل وجعل يفرغ منها في حلقه وذلك مشغول عنه بناكر ونكير . فلما اعياه امره امر الدفانين ان يحملوه وقال ماعليّ ذنب في كونى لم ارد ان ابعثه وانما الذنب عليه . ثم اقبل الى حجرة الفارياق وقال له لاتؤاخذني ياخليلي بعجزي عن احياء الخادم فان زمن الانشار لمّا يبلغ . ولكني لا اتراخي في عقيدتى بان افعل ذلك المرة الآتية انشاء الله . فلماسمع الفارياق ذلك اضطرب باله وثار دمه غيظا وحزنا . فاصابه في ذلك اليوم الداء الفاشي . فخرج تحت ابطه سلعة كالاترجة وحمّ واخذه صداع البم . فاما الوكيل فلم يصبه شى . وذلك من الاسرار التي يعجز

ن ادراكها الحكمآ . ثم ان الفارياق كان حال مرضه يفكّر فيما جرى عليه وهو وحيد
ريب لامونس عنده يسليه . ولا طبيب يداويه • وكان يقول في نفسه اذا مت على
ذه الحالة فمن عساه يتمتع بكتبي هذه التي سهرت الليالي على نسخها . نعم ان الموت
ى كل حال صعب مكروه غير ان موت الفتى مثلي غريبا اصعب. واني قد ابتليت والحمد
في هذه المدينة بجميع انواع الادوآ المصبوغة بلون الحمام . فاذا فسح الله الآن في
لي فلا افارق هذه الدنيا الا قرير العين بنجل يرثني . وان لم يكن عندي من حطام
دنيا غير الكتب . كيف لا وقد جآء عن ابيشلوم ولد سيدنا داود انه بني له جدارا
كر به بعد موته اذ لم يكن له خلف . فلا تزوجنّ فان لم ياتني خلف فالطوب بمصر
بر . اللهم يسر • غوثك يا كريم . يارحمان يارحيم • ثم لما كان يمعن النظر في حال
واج و يتصور مشاقّه وشدائده التي كان يري اودّآءه ومعارفه يقاسونها و يئنون من
ظ حملها . يرجع عن عزمه و يسخر من استحالة عقله وضعف فهمه لضعف جسمه
يعتذر لنفسه بان كل انسان اذا عاش مدة حياته على رأي لم يوافق رأي الجماعة
كان يعتقد وهو حيّ صحيح الجسم معافى انهم كلهم على ضلال وانه هو وحده على هدى
ادركه ضعف جسم لم يلبث ان يتغير عقله فيميل عن مذهبه الاول • كما جرى
ون الفيلسوف ولكثير غيره من الحكماء والفلاسفة . ثم ان الله تعالى تدارك الفارياق
برحمته . ومنّ عليه بالشفاء من علته . فقام من فراشه كأنما قام من جدثه
واقبل على الطنبور يعزف به و يغني فدعه الآن على هذه الحالة
ولا تنغص عليه عيشته . وشمر اذيالك معي لنطفر
فوق هذا الأجيج المتأجج امامنا فيما يلي هذا

تم الكتاب الثاني

الكتاب الثالث

الفصل الأول

في اضرام اتون

او ما كفى بني آدم ماهم فيه من الشقاء والعناء . والجهد والبلاء . والمشقة والنصب واللاواء والتعب . والحرمان والنحس والقنوط والتعس . يحبل بهم في الفرث والوحم ويولدون في الاوجاع والالم . ويرضعون في الضرر . ويفطمون في الخطر . ويحبون فيعثرون . ويدرجون فيتدهورون . ويمشون فيكلون . ويكدون فيملون . ويطلون فيتضورون . اذا جاعوا خاروا او وهوا . واذا اكلوا اتخموا وبجروا . واذ ظمئوا ضووا . واذ شربوا غلثوا وغثوا وخثروا . واذا ارقوا ذابوا قلقا وكمدا . واذا ناموا ذهب العمر منهم سدى . واذا هرموا ملتهم اهلهم واخوانهم . واذا اختضروا حسروهم تحسيرا ربما احانهم . ثم هم بين ذلك في تحصيل اسباب المعاش ساعون . وفي التظاهر باللباس والزينة معنتون . والعزب منهم متهافت على امرأة تكون له اهلاً . وذو الاهل همه بزوجه . وتربية ولده طفلا وكهلا . فاذا مرضوا مرض . واذا حزنوا حزن وجرض وويل له ان تكن زوجته نزرا او كانت عاقرا وذماء . ورأى لغيره من المتزوجين بنين ذوى طلعة ناضرة وشمائل سارة . فيقول في نفسه انما لذة الدنيا البنون . واني ميت بلا خلف واي منون . وكم من سقوط ظفر وهن الجسم كله . وكم لقلع ضرس ذهب الصبر او جله . ماعدا الادواء المتعضلة . والعلل المتاصلة . وتخالف الازمان وحول الاحوال . وتعاقب الاحزان ودول الحال . على هذا الجسم الواني البال . ففي الشتاء يكون عرضة للريح والزكام والبلغم والرطوبات . والبوال والعفونات . وفي الصيف للصفراء

والحمى والصداع . والترهل والاستنقاع . وفي الربيع لهيجان الدم وتبيّغه ونزغته. وفي وفي الخريف لتحرك السوداء وأذى الهواء ولدغته . ثم ان منهم من يولد ويعرض له من العيوب والامراض

الجَنأ	اشراف الكاهل على الصدر .
او الفَسأ	خروج الصدر ونتوء الحَثَلة .
والقَطأ	دخول الظهر وخروج الصدر .
والحَدَب	معروف .
والحسبة	ان يبيض جلد الرجل من داء فتفسد شعرته فيصير ابيض واحمر .
والحَصْبة	بثر يخرج بالجسد .
والشبّ	داء م .
والضُبُوب	داء في الشفة .
والطَنَب	طول في الرجلين في استرخاء وطول في الظهر .
والعَكَب	غلظ في الشفة واللحى .
والغَضْبَة	بخصة تكون بالجفن الاعلى خلقة .
والغِضاب	داء او الجُدَرى .
والغَلَب	غلظ العنق .
والقَلَب	انقلاب الشفة .
والقُلاب	داء القلب .
والقُوَباء	الذي يظهر في الجسد ويخرج عليه .
والكَنَب	غلظ بعلوا الرجل واليد
والكَوَب	دقة العنق وعظم الراس .
والناقبة	داء للانسان من طول الضجعة :
والجَوَث	عظم البطن في اعلاه او استرخاء اسفله
والحَوَث	استرخاء البطن :
والضَمَج	آفة تصيب الانسان وهو ايضا هيجان المابون .

والعِناج وجع الصلب .
والفَحج تداني صدور القدمين في المشي وتباعد العقبين والفحج والفخ
اقبح منه .
والحَجُج اسواء الغمص .
والمَجَج استرخاء الشدقين .
والجَلَح انحسار الشعر عن جانبي الراس .
والصَفَح عرض فاحش في الجبهة .
والنَّطف علّة يُكوى منها الانسان .
والفركحة تباعد مابين الاليتين .
والفَطَح عرض الراس والارنبة .
والفَلَح شق في الشفة السفلى .
والقادح أُكال في الاسنان .
والقَلَح صفرة الاسنان .
والكَسَح الزمانة في اليدين والرجلين .
واللَجَح اللخص في العين .
والمَوَح شدة سيلان العين وفسادها :
والمَسَح احتراق باطن الركبة لخشونة الثوب او اصطكاك الرجلين ومثله المشح
والوَذَح احتراق في باطن الفخذين .
والبَزَخ خروج الصدر ودخول الظهر .
والزُلَخة وجع يأخذ في الظهر .
والفَتَخ استرخاء المفاصل اوعرض الكف والقدم وطولهما .
والنُفاخ نفخة الورم من داء يحدث .
والجَرَد عدم الشعر .
والدَرَد ذهاب الاسنان .
والرِدّة تقاعس في الدقن .

والسُّوداء داء من شرب الماء .
والقَودَ طول العنق والظهر .
والكُباد وجع الكبد .
والمَهد داء في ارجل الناس وافخاذهم .
والأَدَر الآدر والمادور من ينفتق صفاقة فيقع قصبه في صفنه الخ وفعله كفرح .
والبَجَر خروج السرة وعظم البطن .
والبَخَر النتن في الفم .
والباسور م ج بواسير .
والحَثَر البثور وحثرت العين خرج في اجفانها حب احمر .
والحَدْرة قرحة تخرج بباطن الجفن .
والحُصْر والحَصَر الحصر احتباس ذي البطن و بالتحريك ضيق الصدر والبخل والعيّ في المنطق .
والحَفَر سلاق في اصول الاسنان .
والحُمْرة ورم من جنس الطواعين .
والمُحنجر داء في البطن .
والأُخيضر داء في العين .
والذَّهَر اسوداد الاسنان ومثله التذبير .
والزَّحير استطلاق البطن .
والزَّعَر تفريق الشعر وقلته
والزَّوَر عوج الزور والازور من به ذلك والناظر بمؤخر عينيه .
والشَّتَر انقلاب الجفن من اعلى واسفل وانشقاقه او استرخاء اسفله .
والصَّعَر صغر الراس .
والصَّفَر داء في البطن يصفّر الوجه .
والظَّفَر داء في العين .

والظَّهَر	داء الظهر .
والعَوَر	معروف .
والتقطير	عدم استمساك البول .
والقَصَر	يبس في العنق .
والمَعَر	قلة الشعر .
والناسور	علة في المآقي وعلة في حوالي المقعدة وعلة في اللثة .
والكُزاز	داء من شدة البرد .
والسُلاس	ذهاب العقل .
والفُقاس	داء في المفاصل .
والفَطَس	انفراش الانف في الوجه .
والقَعَس	خروج الصدر ودخول الظهر ضد الحدب
والقَفَس	عظم الروثة .
والقَنْعسة	شدة العنق في قصرها كالاحدب .
والكَسَس	قصر الاسنان او صغرها او لصوقها بسنوخها .
والنِقْرِس	ورم ووجع في مفاصل الكعبين واصابع الرجلين
والهَوَس	طرف من الجنون .
والحَمَش	دقة الساقين .
والخَفَش	صغر العينين وضعف البصر خلقة او فساد في الجفون بلا وجع او ان يبصر بالليل دون النهار
والدَوَش	ظلمة البصر وضيق العين
والرَمَش	حمرة في الجفون مع ماء يسيل .
والطَرَش	اهون الصمم .
والطُشاش	داء كالزكام
والعُطاش	داء لا يروى صاحبه
والعَمَش	ضعف البصر مع سيلان الدمع في اكثر الاوقات .

والمَدَش	رخاوة عصب اليد وقلة لحمها ودقتها .
والنمش	نقط بيض وسود او بقع تقع في الجلد تخالف لونه
والبَخَص	لحم ناتئ فوق العينين او تحتهما كهيئة النفخة والتبخص انقلاب الاجفان
والبرص	معروف .
والتَمَص	وجع العصب من كثرة المشي .
والحاصّة	داء يتناثر منه الشعر .
والحَوَص	ضيق في مؤخر العينين او في احداهما.
والخَوَص	غؤور العينين .
والخَيَص	صغر احدى العينين .
والرَمَص	وسخ ابيض يجتمع في المؤق .
والشَوْصة	وجع في البطن او ريح تعتقب في الاضلاع او ورم في حجابها .
والغَمَص	ماسال من الرمص .
والقَبَص	وجع يصيب الكبد من التمر على الريق وضخم الهامة .
والقِرْماص	قصر الخدين.
والقَنَص	حموضة في المعدة من شرب الماء على التمر وحرارة في الحلق .
والمَحَص	تغضن كثير في اعلى الجفن
والأخَص	كون الجفن الاعلى لحيما .
والأصَص	تقارب المنكبين والاسنان .
والماصّة	داء يأخذ الصبي من شعرات على سناسن الفقار الخ .
والمَعَص	التواء في عصب الرجل :
والمَغَص	معروف .
والوَقص	قصر العنق .
والحَرَض	فساد المعدة والبدن والمذهب والعقل .
والحَرَض	الحصف يخرج على البدن من الحر .
والخُباط	داء كالجنون .

والاذوطية الاذوط الناقص الذقن .

والأسطية الاسط الطويل الرجلين .

والسرطان ورم سوداوي يبتدئ مثل اللوزة واصغر فاذا كبر ظهر عليه عروق حمر وخضر شبيه بارجل السرطان لا مطمع في برئه وانما يعالج لئلا يزداد.

والضرط خفة اللحية ورقة الحاجب .

والضوط عوج في الفم .

والطرط خفة شعر العينين والحاجبين والاهداب

والقطط قصر الشعر وجعودته .

والمرط خفة الشعر .

والمعط عدم الشعر .

والجحظ خروج المقلة او عظمها .

والبشع ظهور الدم في الشفتين وانقلاب الشفة عند الضحك .

والجلع عدم انضمام الشفتين .

والخالع التواء العرقوب .

والرسع فساد في الاجفان .

والرمع اصفرار في وجه المرأة من داء يصيب بظرها

والزلع شقاق في ظاهر القدم كالسلع .

والزمع الزيادة في الاصابع .

والصداع وجع الراس .

والصلع انحسار شعر مقدم الراس .

والتصوع تشقق الشعر .

والقرع معروف .

والقفع ارتداد اصابع الرجل الى القدم.

والقلاع داء في الفم .

والقمع فساد في موق العين واحمرارا او بثرة تخرج في اصول الاشفار .

والكَتَع	رجوع الاصابع الى الكف .
والكَشَع	احمرار الشفة وكثرة دمها حتى تكاد تنقلب .
والكَلَع	شقاق ووسخ في القدم .
والكَوَع	اقبال الرثغين على المنكبين :
واللَخَع	استرخاء الجسم :
واللَطَع	بياض في باطن الشفة الخ :
والوَكَع	اقبال الابهام على السبابة من الرجل.
والهَنَع	انحناء في القامة .
والبَتَغ	ظهور الدم في الجسد .
والذَكَغ	انقلاب الشفة .
والفَدَغ	التواء في القدم .
والفَوَغ	ضخم في الفم
والوَبَغ	هبرية الراس .
والجَنَف	الجنف في الزور دخول احد شقيه وانهضامه مع اعتدال الآخر .
والحَشَفة	قرحة تخرج بحلق الانسان .
والحَنَف	الاعوجاج في الرجل .
والخَنَف	انهضام احد جانبي الصدر والظهر .
والسأف	تشقق وتشعث ماحول الاظفار .
والسَعَفة	قروح تخرج على راس الصبي ووجهه
والشأفة	قرحة تخرج في اسفل القدم فتكوى فتذهب اواذا قطعت مات صاحبها .
والشَنَف	انقلاب الشفة العليا من اعلى .
والطَرْفة	نقطة حمراء من الدم تحدث في العين من ضربة وغيرها .
والغَضَف	استرخاء في الاذن .
والغَطَف	كثرة شعر الحاجب
والكُتاف	وجع الكتف .

والكَلَف شيء يعلوا الوجه كالسمسم — وحمرة كدرة تعلوا الوجه .
والأرقان آفة تصيب الزرع والانسان كاليرقان.
والبَخق اقبح العور .
والبهق بياض رقيق ظاهر البشرة الخ .
والحَوْلق وجع في حلق الانسان .
والحماق الجدري او شبهه .
والخُناق داء يمتنع معه نفوذ النفس الى الرئة .
والرَوَق ان تطول الثنايا العُلى السُفل .
والسُلاق بثر يخرج على اصول اللسان او تقشر في اصول الاسنان وغلظ في الاجفان.
والشَدَق سعة الشدق .
والشَمق مرح الجنون .
والغَمقة داء يأخذ في الصلب .
والفَتق علة في الصفاق .
والفَوَق ميل الفم والفرج .
والأَسق لسوق الرئة بالجنب عطشا .
والمَشَق ان تصيب احدى الربلتين الاخرى.
والوَدَق نقط حمر تخرج في العين تشرق به او لحمة تعظم فيها او مرض فيها ترم منه الاذن .
والسَكَك عيب في الاذن .
والساهك حكة العين .
والشاكّة ورم في الحلق .
والشوكة داء م وحمرة تعلو البدن .
والفَرَك استرخاء اصل الاذن .
والفَكَك انفراج المركب استرخاء .
والأَلَل قصر الاسنان واقبالها على غار الفم كالييلل

والبَدَل	وجع في البأدلة. (اللحمة بين الابط والثندوة) ووجع المفاصل واليدين .
والبُوال	داء يكثر منه البول.
والثَعَل	تراكب الاسنان.
والثَلَل	تساقط الاسنان .
والحَذَل	حمرة في العين وانسلاق وسيلان دمع.
والحَقَل	داء في البطن .
والخَال	استرخاء ووجع في العصب .
والحَوَل	معروف .
والخَبَل	فساد الاعضاء والفالج .
والخَزَل	الكسرة في الظهر .
والخُمال	داء في المفاصل .
والدَحَل	عظم البطن .
والدَخَل	ما داخلك من فساد في عقل او جسم .
والسَبَل	غشاوة العين من انتفاخ عروقها الظاهرة
والسَغَل	السَغِل الصغير الجثة الدقيق القوائم او المضطرب الاعضاء او السيّئ الخلق والغذاء او المتخدد المهزول وقد سغل كفرح في الكل .
والسُلال	م كالسِلّ .
والسَولة	استرخاء البطن وغيره .
والصَحَل	البحح .
والضَعَل	دقة البدن من تقارب النسب .
والطَحَل	داء الطحال .
والطُلاطِلة	سقوط اللهاة حتى لا يسوغ له طعام ولاشراب .
والعَفَل	شيء يخرج من قبل النساء كالادرة .
والعَقَل	اصطكاك الركبتين .
والعقابيل	مايخرج على الشفة غبّ الحمى .

والغَمَل	فساد الجرح من العصاب .
والقَبَل	اقبال احدى الحدقتين على الاخرى
والنَمِلة	بثرة تخرج في الجسد بالتهاب واحتراق ويرم مكانها يسيراً ويدبّ الى مكان آخر
والأُطام	حصرة البول والبعر من داء
والجُحام	داء في العين
والجُذام	معروف
والخَشَم	تغير رائحة الانف من داء فيه
والرَحَم	وجع الرحم
والسَرم	وجع الدبر
والضَجَم	عوج في الفم والشدق والشفة والذقن والعنق
والعَسَم	يبس في مفصل الرسغ تعوّج منه اليد والقدم
والغَمَم	سيلان الشعر حتى تضيق الجبهة والقفا
والفَقَم	تقدم الثناء العليا فلا تقع على السفلى
والقعم	ميل وارتفاع في الاليتين
والكَزَم	قصر في الانف
والكَشَم	نقصان في الخلق وفي الحسب .
والمُوم	اشد الجدرى .
والبَطن	داء البطن .
والثَفن	داء في الثَفِنة وهي من الانسان الركبة ومجتمع الساق والفخذ .
والدَنَن	انحناء في الظهر ودنو وتطامن في الصدر والعنق .
والزَمن	العاهة ونحو الضَمَن .
والقسوَن	استرخاء البطن .
والقَعَن	قصر فاحش في الانف .
والآهة والماهة	الآهة الحصبة والماهة الجدرى .

والجَلَه	انحسار الشعر عن مقدم الراس .
والشَوَه	طول العنق وقصرها ضد .
والفَوَه	سعة الفم .
والقَرَه	القره في الجسد كالقلح في الاسنان.
والقَمَه	قلة شهوة الطعام كالقهم.
والمَرَه	فساد العين لترك الكحل .
والبله	قلة الفطنه .
والتَلَه	الحيرة والوله وهو ذهاب العقل حزنا.
والدَلَه	ذهاب الفؤاد من همّ ونحوه .
والبَزا	انحنا في الظهر عند العجز او اشراف وسط الظهر على الاست .
والجَخو	سعة الجلد واسترخاءه.
والجلا	دون الصلع .
والجوَى	داء في الصدر .
والحصاة	اشتداد البول في المثانة حتى يصير كالحصاء .
والحَثْوة	وجع في البطن من اكل اللحم.
والخَذَى	استرخاء الاذن وانكسارها .
والرَثية	وجع المفاصل واليدين والرجلين او ورم في القوائم او منعك الالتفات من كبر او وجع .
والشَرَى	بثور صغار حمر حكاكة
والشغا	اختلاف نبتة الاسنان بالطول والقصر والدخول والخروج
والضوى .	دقة الجيسم وقلة الجسم خلقة او الهزال
والطَنَى	طنى لزق طحاله ورئته بالاضلاع من الجانب الايسر
والفقا	ميل في الفم
والقعا	هو ان تشرف الارنبة ثم تقعي نحو القصبة
والقَطَى	داء في العجز

والأُقْوة   دا. في الوجه

والَلوَى   وجع في المعدة واعوجاج في الظهر

وغير ذلك من العيوب كأن يكون الانسان قشعوما او مقرقما او زَعبلا او سَقَعْطَرى او نِغاشيا او إزبا او دميا . ومن الادوآء التي لم يُعرَف لها بعدُ اسم . ومحال ان تحيط بها كلها حالة كونها غير مستقصاة هذه الثمانية والعشرون حرفا . واصعب مافيها واضرّ الهُكاع والتشويل . وقد زاد معاصرونا على ذلك الداء الزَرْنبي مما خلت عنه لغتنا الشريفة . واعود فاقول الم يكف بني ادم ان مدى عمرهم قصير . وهمّهم فيه طويل كثير . وامرهم عسير. لكل منهم من العناء والجهد واللوعه. مايكفيه وآخرين معه . فطالب العلم يسهر الليالي في تبيين مشاكل . وايضاح مسائل. وذو الصنعة يقضي نهاره كله مكبّا على عمله ذا سخط . حتى ينال كفافه فقط . وذو الامارة مشغول البال باحكامه وسياسته . والرئيس ذو همّ برئاسته . والملك موجس من وزرائه ان يخالفوا عليه فيسقوه ما به هلاكه . والوزرآء خائفون منه ان ينقم عليهم فتدور بهم افلاكه . والتاجر يبكر الى محترفه وهو مشفق من كساد بضاعته . والطبيب يخشى ان ترشد الناس فيستغنوا عن براعته . فتعفن عقاقيره . وتأجن مياه زجاجاته ويفسد ذروره . وسَفوفه وأسعوطه ووَجوره . والقاضي يستعيذ من قدوم مَن تفتنه من الغيد بجمالها . وتربكه في مسائل غير مذكوره في كتابه فيعاق بحبالها . ويحير من احوالها . والربّان يحذر من عصف الارواح . والزاجل من شب نار الحرب التي وقودها الارواح . فكلما راى سلطانه متغيرا. وخاطره مكدرا . قال اللهم اكفني غِير الدهر . واجعل هذا الكدر عارضا يزول قبل العصر . فاني ارى في وجه ملكي واميري سيمياء القتال . والرسم بمنازلة الابطال . وانا ذو صاحبة وعيال . واملاك واموال . اللهم اكفف السنة الاجانب عن القدح فيه . والقِ في قلوبهم رعبه وامحُ من صدره مايوغره ويزفيه . والحارث يوجل من كثرة الامطار . وهبوب الاعصار . والمعلّم من رغبة الناس عن العلم الى الجهل . والمتعلم من عقبة الكُتّاب . وعاقبة الكتاب . الشانه لما عنده من ثمد الجهل . والحاظر له عن اللهو والدد . والمغنّي والعازف بالات الطرب من وقوع الغلاء . او استيلاء الحزن على قلوب الاغنياء . واللاعب من اهتداء الناس

الى الجد . والشاعر من الفائه ممدوحه كالحجر الصلد . او محبوبه ذا جفا وصد . والمؤلف مثلي من مجانين (اي يشفق من مجانين لا انه هو منهم) يتصدّون له فيحرقون كتابه . ويخرّقون إهابه . والزوج من فرار زوجته وكساد ابنته . وهما من بخله وحرمانهما من ثروته . والقسيس من كتب الفلاسفة . والفلاسفة من وعيد القسيس وبوادره العاصفة . ورعوده القاصفة . وفي الجملة فكل ذي حرفة يخاف من انحراف نفعها عن جانبه . وكلٌّ يدعو الله لصلاح حاله ولو بفساد حال صاحبه . اذ لا تكاد تتم مصلحة من هذه المصالح المذكورة الآ وتجيء معها مفسدة بالضرورة . كما قال ابو الطيب المتنبي مصائب قوم عند قوم فوائد . ومع ذلك فكل يزعم انه محق فيما ساله . جدير بنوال ما امله . وان لغته في ذلك عند الحق سبحانه وتعالى . اصدق مقالا . نعم اعود فاقول . وان طال المقول : او ما كفى الناس الخوف من الموت يفاجئهم وهم في دعة واطمئنان . او يفجعهم بفقد مالديهم عزيز من اهل وولد واخوان . وخلان وحيوان . اذ بعض الناس يكلفون بالخيل والطير والسنانير والكلاب . كلفهم بالاهل والاصحاب . او الرعب من ان يسقط احدهم عن ظهر دابته فتندق عنقه . او تسري النار في بيته فيحترق تالده وطريفه فيعدم رزقه . او يقع في تيار فيجفأ به الى ماشاء الله . او تخسف به الارض . او يخرّ عليه السقف من فوق . او تبلغه الوكة من مسافة مائتي فرسخ فتتلفه وتورّقه وربما ابكته دماً . او ياتيه سارق فيسرق متاعه الذي هو قوام معيشته . او يفقد مافي كيسه او هميانه في الطريق . او ينشب في عينه عود فيعطلها . او تتشنج به عضلة فيعد بعدها من سقط المتاع . او ياكل شيا ضارًّا فيودي به او شرابا مسموما فيسقط امعاءه وارابه . او يرى جميلة فيؤرقه جمالها فيصبح وهو هائم متيّم يشكو للطبيب من سقامه . وللشاعر من غرامه . فلا هذا يطعمه ويغنيه . ولا ذاك ينفعه ويشفيه . او قبيحة فتدهمه مرعبة ويلازمه القمه عن المادبة او تنبحه الكلاب وتخرق ثيابه فيدمو وَذَمه . او يسيل دمه او يكون جالسا يوما على التخت . فيسمع له صريف التحت فيسود وجهه بين اخوانه وعشرته واهل قريته وكورته وربما نبزوه بالخضفي او الغضفي او النضفي او الخبقي او الخفقي او العفقي او الغفقي او الحصمي او الخضمي او الزدمي او يقع عليه الكابوس

ليلاً فيقف جريان دمه على قلبه فيهلك ليلته. نعم الم يكفهم هذا كله حتى طفق بعضهم يجهز على بعض كتائب الحدس والتخمين ويجرد عليه مقانب الخرص والتزكين . فاقبل قوم منهم على قوم برماح الطعن مشرعة . وبسيوف اللعن مبضعة . وبنصال الجدال فائدة مارقة . وبنبال الجلاد صاردة خاسقة . فقال بعض الا ان درجات السماء مئة وخمس . فقال غيره الا انها مئة واربع . فقال آخر لقد كذبتما واستوجبتما قطع اللسان وسمل العينين . وسل الاثنين . انما هي مئة وست . ثم قام اخر وقال الا ان دركات سقر ستمائة وست وستون . فقام غيره وقال الا انها ستمائة وخمسون . فقال اخر لقد كذبتما والحدتما وضللتما واستوجبتما غل اليدين والرجلين . ونتف الشعرين . انما هي ستمائة وسبع وستون . ثم قام اخر وقال الا ان قرن الشيطان ثلثمائة وخمسة وخمسون ذراعا . فقال آخر هذا افك واضح . وبهتان فاضح . بل هو ثلثمائة وستة وخمسون . فقال آخر وكسور . ثم قال آخر الا انه من حديد لكونه ثقيلا على الناس يعنتهم . فأجابه غيره الا انه من ذهب لكونه يضلهم ويغويهم فقال آخر بل هو من اليقطين لانه ينمى ثم يذوي . ويكبر ثم يصغر . ويطول ثم يقصر . ثم قام آخر على راس سلم عال وقال بصوت جهير الا ان بكم ايها الناس الجليدة ينبغي قطعها بحجر محدد لا كبير ولا صغير . فقال آخر بل بسكين ماض لا طويل ولا قصير . فقال آخر لقد سفهتما انما هي عزيزة علينا . كريمة لدينا . لا يصح قطعها بحجر ولا سكين . ولا خدشها بشي ولو من رقين . فانما هي متصلة بالوريد ومنعقدة بالوتين . ومن قطعها فقد كفر . واستوجب نار سقر . فقال آخر بل قطعها واجب فانها من الزوائد . فاعترضه القائل بعدم القطع انا لانرى شيا غيرها يقطع فما وجه تخصيصها بالقطع . قال بل الشوارب تحفى والاظفار تقلم . قال ولكنها بعد ذلك تنبت وتلك لا . قال انما دليلي القطعي على وجوب القطع عدم نفعها لصاحبها . قال لم يخلق الله شيا عبثا من غير نفع . قال بل خلقك اياك لغير فائدة . قال لا بل انت مخلوق عبثا . ثم حشد كل من الفريقين بخيله ورجله . وتلاقى كل من الجيشين بسلاحه ومحله . فمن بين قارع بحد الحسام . ورام بالسهام . وباطش بيده وقاذع بلسانه وهاج بقلمه . فالروس متناثرة . والدماء جارية والاعضا متطايرة . والعرض مهتور والحرمات مهتكة . والمال مسلوب والديار مخربة . والحزازات في

الصدور كامنة . والمشاحنة ظاهرة وباطنة . والحيل مُـمرجه . والكماة مدججة . والطرق معطلة . والارض ممحلة . والفرص للانتقام مرقوبة . والدعوات في الليالي مشبوبة . يا ايها الناس اعتبروا بمن فات . كيف صار الى الرفات . وان منهم من كان يذكر اسمه في حياته بالبركات . فاصبح يذكر باللعنات . ومنهم من كان يحسب في قومه سراجا وهاجا. فصار يحسب دخانا وعجاجا . ومنهم من كان ياكل حتى ينتفخ بطنه وتجحظ عيناه . ويتلجلج لسانه وترتخي شفتاه . فصار الان الدود ياكله. وبعض الحشرات يستوبله يا ايها الناس . وجمهوركم في سبات والباقي في نعاس . فرارِ من غرور النفس . وحذارِ من قرور الرمس . وبدارِ الى تقديم عملٍ صالحَ يقربكم الى الله . وبلأم بعضكم بعض وانتم في الحياه . اتموتون وفي قلوبكم الحقد على خصمكم . وفي افواهكم اللعن على مخالفكم في زعمكم . الم يقل لكم الحق كونوا ياعباد على الارض اخوانا فانكم من اب واحد وامّ واحدة وانكم جميعا لميّتون . سوآ كنتم ذوي وجوه سمر اوحمر اوصفر اوسود اوبيض انكم كلكم بشرانكم كلكم فانون . انكم ناظرون ولامسون وسامعون وشامون وطاعمون . مابال الجُليديّ منكم يشنأ اللاجليدي . والحديدي منكم يمقت اليقطيني افلا تتوادعون . الم اظهر لكم في طلوع الشمس وغروبها . وفي بزوغ الكواكب ومغيبها . وفي سكون الريح وهبوبها . وفي خمود النار وشبوبها . وفي زخر المياه ونضوبها . وفي صروف الدهر وخطوبه . وهمومه وكروبه . وفي سواد الشعر ومشيبه . وفي هرم الجسم وشحوبه . وفي الازمان اذا توالت . والاحوال اذا حالت . والدول اذا دالت . وفي الغياض اذا أبهجت . والرياض اذا دبّجت . والاشجار اذا اورقت وجرّدت . والاطيار اذا زقزقت وغردت . وفي اللسان اذا نطق . والقلم اذا مشق . ليس لعمري بين الوحوش الضارية والطيور الكاسرة مابينكم من العداوة والبغضآ . والضغن والشحنآ . اذكروا يوم ان صعد خطيبكم المنبر . وعبس وبسر . وتوعد وتنكر . وخطا وكفر . وحض على القتل وذمـر . ثم دعا فاستغفر . واستخار الله واستبشر فاغرتم على جيرانكم وانتهكتم حرمات اخوانكم وفرقتم بين الام ورضيعها . والمراة وضجيعها وبين الاب وولده وسبَندَه ولبده اذكروا يوم ان حشد رئيسكم اليه اعوانه وهاج أهله واخدانه على ان يخون

سلطانه . واي خيانه وماذلك الا لمخالفته له في الحزر والتقدير والتأويل والتعبير والتخريج والتفسير . اذكروا يوم ان اعلمتم انفسكم بعلائم الجهاد وقلتم هذه حرب الله هذا قتال لرضى رب العباد هذا يوم كسب الثواب والنجاة من العذاب فافيضوا الى العدو من البر والبحر واغتنموا عند الله اجر هذا البر اذكروا يوم ان تنازعتم على لون طعام تأكلونه . وشكل شراب تشربونه ورحضة جسم تغسلونه ونوع فراش تتوسدونه ورقعة ثوب تلبسونه ووجه كلام تعفكونه ومتاع تستعملونه اللخلاف في هذه الدنيا فطرتم ام بالخصام والمعاداة أمرتم مابال علماء الرياضة والهندسة والتنجيم لايختلفون في ادلتهم وان اختلفوا لم يشبّوا النار لتحقيق نحلتهم وانتم تشبونها عند كل فرصة تسنح لكم ووهم يسبق اليه فكركم وكان الاولى ان تتواطاوا على رأي واحد كما تواطأ اولئك وان تُسنّوا لعباد الله مصالحهم لا ان تدخلوهم في هذه الملاحك وتربكوهم في هذه المرابك وان تهدوهم الى اقوم المسالك لا ان تلبّسوا عليهم في هذه الحوالك دعوهم يشتغلوا باسباب معيشتهم ولا تكلفوهم ادراك مافوق طاقتكم وطاقتهم واعملوا انتم ايضا بايديكم ساعتين اذا عملتم بالسنتكم النضناضة ساعة واجمعوا امركم عند تفرق اهواكم على الالفة والطاعة انسيتم ماجاء في الزبور الذي به تلهجون وتهذّون وتدبرون وهو قوله ماحسن الاخوة ان تسكن جميعا فى بيت واحد كالدهن النازل على اللحية لحية هرون الا ولاتحرّموا ماحلل الله لكم من الطيبات ولا تتلاوصوا الى معرفة مالغيركم من الهفوات ولا تبيعوا املاك السموات وانتم على الارض من ذوى البطالة والترّهات . ليس على السوقى ان يتزوج خرجية من حرج ولا على الخرجيّ ان يتزوج سوقية من مَرَج فان اختلاف الحزر فيما لا يعلم لا يكون مانعاً للفوز بهذا المغنم الذي يدريه من تعلم ومن لم يتعلم . اولم تعلموا ان الارحام من الرحمة اشتقت . والى المصاهرة شفت . وعلى الانساب انطبقت . والى التآخي والتآلف خلقت . وبالتوادّ اختصت . ولانتهاز فرص الحظ فُرصت . فما لكم عنها تتباعدون . وتتقاعسون وتتقاعدون ولمَ انتم هؤلاء في بحر الشك والظن تسبحون وتستبضعون تجارة الخرص وتربحون لايسمع الله دعاء احد منكم في الشرق الا اذا كان يستصو به اهل الغرب . ولا يفيزكم بالآخرة الا اذا تألفتم في الدنيا على هذا الضرب . فليصافح اذاً اخضر الراس منكم اسوده ومدوّره ذو القنبعة

مخروطه ذا اللبدة وليُصفِ كلٌّ منكم لاخيه نيّته وودّه . ويحفظ له عهده . واذ قد اتفقتم على المخلوق فلا تختلفوا على الخالق . فهو رب المغارب والمشارق. وانه ليريد ان المشرقي منكم اذا سافر الى المغرب يرى اهله فيه له اهلا . وشمله شملا فاقبلوا النصيحة واسمعوا مايمرّ بكم بعدها من العبارات الفصيحة والمعاني المليحة في هذا الفصل الذي سميته



الفصل الثاني

في العشق والزواج

قد ذكرت في آخر الكتاب الثاني ان الفارياق ابتلاه الله بامراض كثيرة وكتب وغيره ثم انجاه منها جميعا . وانه بعد ان راى نفسه معافًى منها اطمانّ خاطره واخلد الى الغنآ . والان ينبغي ان اذكر ختام هذه النوبه وعاقبة هذه الحوبه وتفصيل ذلك ان الدار التي كان فيها الخرجيّون كانت محاذية لدار بعض التجار وكان له بنت تحب السماع واللهو والطرب وترتاح الى الغنآ جدا فكانت اذا سمعت الفارياق يغني او يعزف في غرفته تصعد الى سطح دارها وتنصت الى ان يفرغ فتنزل الى حجرتها فلما علم الفارياق ان صعودها كان لاجله اذ لم يكن احد غيره يظن به التعرّض لها صبت اليها نفسه ونزغه فيها نازغ من الهوى غير انه كان من طبعه النفور من الزواج حتى انه كان يحسب المتزوجين اشقى الناس لان الحالة الزوجية لايبدو منها في الغالب سوى صعوباتها ومشاقها وكان اذا قيل له فلان تزوج تاخذه به رافة ويرثى له كما يرثي لمن دار به تيّار شديد او رزيء برزيئة كبرى فتنازع فيه حينئذٍ عاملا الهوى والحذر فرجحت كفّة الاول الثاني فراى ان مجرد النظر اولى من التعرض باشارة تدل على انه ذو صبوة وهيام ومكثا على ذلك مدة وهو احذر من القِرِلّى حتى اذا كان يوم

ورآها تمسح محاجرها بمنديل امّا من حرّ الشمس او من غيره اعتقد بمجامع قلبه انها تمسح دموعها شوقا اليه فانفتقت بنائق الصبر من صدره وهاج به الوجد لازالة حذره وقال في نفسه ايقابل احد غيره دموع باكية بالاعراض . وهل ورآ الدموع غير الهوى كيف لاتذيبني وما قلبي بجلمد . ولا انا بمخلد . وقد علمت ان اعظم لذات الحيوة ما اذا وجد الانسان له خدينا نويّا . وقرينا صفيّا . وانا غريب محتاج الى مؤنس في وحشتي . ورفيق في وحدتي . ومن مؤنس مثل الزوجة . وايّ خير في العز و بةلمن رزقه الله قوته وحوجه . و بمثل هذه الخواطر السريعة وطّن نفسه على تحمّل اعبآ الهوى من اي جهة كانت . فمن ثم فتح باب الاشارة بينهما . فمن بين يد توضع على القلب مرة وعلى الخد اخرى . واصبع تقرن باخرى . وذراعين تشبحان مع تنفس وزفير . وشفتين تضمّان . وراس يهز وغير ذلك مما يتعالل به المبتدئون في الحب . فاما المتناهون فلا يرضيهم الاّ الهصر بالفودين كما نص عليه الاستاذ امرء القيس . ودامت دولة الاشارة بينهما اياما مديدة من دون كلام . فلما عجزت الايدي وسائر الجوارح عن ترجمة ما في القلب وخصوصا لبُعد ما بينهما احتالا على ان يجتمعا في مكان بحيث يرى المحب حبيبه . فلما بصر بها عن قريب وجدها والفضل لمخترع الزي المصري عَنْدلة جزْلة . اذ لو كانت متردية بالزي الافرنجي لما عرف هل كان ما في صدرها عِهنا او برسا او قطنا . او خُرفعا او عُطبا . او بَيلما . او قِشبرا او حريرا او نَوْذلا (١) او كان ما ورآها عَظَامة او لحما وشحما قال وهاتان الصفتان اعنى العَنْدلية والجزلية احسن ما يراد من المراة فان الاولى تشفع في الكون الامامى والثانية في الكون الخلفي قلت وقد جاء عن سيدنا سليمن عم مدح العندلية بقوله في الفصل الخامس من سفر الامثال فليروينك ثدياها في كل حين . ولقائل ان يقول ان العهن واخواته مع وجود اليد والجتّ (٢) اذا جمع الجسمين مكان لا يمنع من تحقق الصفتين

(١) العهن الصوف او المصبوغ الوانا والبرس القطن اوشبيه به او قطن البردي والخرفع القطن المندوف والعطب الصوف المنفوش والبيلم قطن البردى وقطن القصب والقشبر اردا الصوف ونفايته والنوذل الثدي

(٢) الجتّ جسّ الكبش ليعرف سمنه من هزاله .

المذكورتين . والجواب ان ذلك محظور غالبا في البلاد المشرقية ولاسيما من اول مرة فاما عند غيرهم فلا محظور منه ولذلك شاع استعمال العظامات عندهم بلا نكير . ثم حيث تقدم لنا في الكتاب الاول وصف الحمار على اسلوب افرنجي فلا بأس هنا ايضا في وصف الرجل قُبيل الزواج على النسق المذكور فنقول . انه مدة تعلله بغبطة الزواج وتلحّزه من لذاته . لايخطر بباله شيء من مستأنف آفاته . وانما يخطر في حدثه . ويقول في نفسه ان حالتي لاتكون كحالة معارفي وجيراني الذين تزوجوا واخطأتهم الاماني اذ هم لم يودوا الزواج حقه . ولم يأخذوا في اسبابه بالثقة . لان منهم من باعل . وهو غير كفو لهذا العمل . اما لصفر راحته . او لعدم سماحته . او لمباينة سنّه عن سنّ زوجته او لضعف في آلته . او لانه كان من الزمالقية على شفا . او كان مُصلفا اومُشفشِفا (١) . او لان اميره كان يغيّبه عن وطنه . او لان جاره كان يخالفه الى عطنه . او لان امه كانت رقيبا على امرأته . او لان امامه كان ضيزنا له على مائدته . فلذلك ثار بينهما النقار . وطال النفار . فقُدّ القميصان من قُبُل ومن دُبُر . ونتف الشعران والصخب كثر وخدش الجلدان خدشا بالظُفُر . وانتثر الريحان من فوق السرر . اما انا فاني بحمد الله خال عن هذه الخلال . فلا تحول لي مع زوجتي حال . ولا تزاحمني فيها الرجال . ولايعتريه مني ملال . فرضاي رضاها . ومناي مناها . وما انا بادرم ولا ابخر . ولا احدب ولا اخنب . وان لي يدين اعمل بهما ورجلين اسعى عليهما . وان يكن بي من عيب في خَلقي يستره عني حسن خُلُقي . فاني لااعارضها في طعامها . ولا في لباسها ومنامها . بحيث تنام الى جنبي . وتتخذ من الملبوس ما يليق بها وبي . فما يمنعني من اتخاذ قرينة . تكون على هذه الصفة الميمونة . حتى اذا سمع الناس بان زوجتي عَرُوب وعرضها عندي مصون ووجهها عن المراود محجوب . حسدوني على هذه النعمة السابغة فكان لي كل غصة من العيش سائغة ولا يخفى كم في كيد الحسود من لذة . لانتقاعس عنها الالذّه ماعدا ارتياح النفس الى الجنس الانيس . الذي قربه للقلب ترويح وللكرب تنفيس . وان امرءا يقاسي النهار جهده . ثم يبيت في الليل وحده . من

(١) المصلف من لاتحظى عنده امرأة وهو ايضا الذي ثقلت روحه وقلّ خيره والمشفشف من به رعدة واختلاط غَيرةً واشفاقا على حرمه .

دون ضجيع له تنفخ في انفه وتسخن دمه من امامه ومن خلفه . لجدير بان يحصى مع الاموات . ويلقى بين الرفات . هذا واني استغنى برضبها عن الشراب . و بشم شعرها عن المسك والملاب . فانهم قالوا ان الرائحة الانثوية تستنشق من منابت الشعر وبها نشوة الحواس . سواء كان في المغابن او في الراس . واجتزي بحر جسدها عن الوقود للاصطلاء . وبالرنوّ اليها عن الأثمد والجلاء . فيتوفر عليّ كل يوم في الاقل درهم انفق نصفه على الحمام كل غداة فيبقى لي النصف الآخر وذلك خير غنم . وغي اثم فاما ما يقال في كيد النساء . واعناتهن الرجال بما يعز على الاسأ . فليس ذلك على عمومه ولا تقرر حكم الّا واستثنى امور من تعميمه . فلعلى اول من اخرجه هذا الاستثناء وسنّ للاعزاب على الزواج الثناء . كيف لا وانا ذو فصاحة وتبيان ودهاء وجنان . فما يعييني شيء من نكرها . ولا تخفى عني خافية من امرها فاعارضها واحجّها . واريها ان لي عليها قفيّة تضطرها الى طاعتي وتحوجها فان قلت لها اليوم يصوم فيه المباعلون . ويتبتل المفاعلون . قالت انا اول من صام . وآخر من نام . وان قلت لا يجمل بالمحصنة ان تتبرّج . قالت ولا ان تتغنّج . وان قلت ان حق الزوجة على زوجها في كل اسبوع مرة . قالت وتبقى ايضا عفيفة حرة . وان قلت ليس الحليّ بلازم للعرس . قالت ولا الديباج شرّ لُبس . وفي الجملة فان عيشي معها يكون رغيدا . وحالي سعيدا . وحظي مديدا . وطعامي مريئا . وشرابي هنيئا . وثوبي وضيئا . وفرشي وطيئا . وبيتي مأنوسا ومتاعي محروسا . وطرفي قريرا . وشأني مذكورا . وسعيي ميمونا . وقصدي مأمونا فحيّ هلَ الزواج . أبلعوب مغناج . طلعتها علاج . من الالفاج وضجعتها انهاج . الا الافلاج . انتهى . وانا اقول انما غُرس في هذه الطينة البشرية للشّية ان الرجل متى وطّن نفسه على الزواج حبّب الله اليه زوجه على اية حالة كانت حتى يراها احسن الناس خُلقا وخَلقا . لا بل يرى نفسه انه قد ترفع عن اقرانه . وبزّى على اخوانه . حتى يستخسّ ماكان من قبل يستعظمه . وانه قد صار انسانا جديدا يجدر بان يجدد له وجه الارض . وبناء على ذلك لم يعد الفارياق يرضى بالاغاني والاشعار المتعارفة بل استبدل الاولى باخرى جديده من نظمه . ونظم خلال ذلك قصيدتين حاول فيهما اختراع اسلوب غريب فجاءتا طيختين كما سترى ذلك ولو استطاع ان يخترع كلاما

جديدا يعبر به عن غرامه وحديث شأنه لفعل . وكان اذا رأى رجلا متزوجا يهيب به وينشده

انا في حلبة الزواج المجلّي　　انما انت فسكل قاشور
ان قدحي يفوز عما قريب　　انما قدحك السفيح يبور

او عزبا قال له

يا ايها الاعزاب اني رافض　　دين العزوبة فاقتدوا بمثاليا
ليس الغنى الا البعال فبادروا　　ياقوم واستغنوا بمثل بعاليا

وتهوّس يوما لان ينظم ديوانا يشتمل على ابيات مفردة تهافتا على احداث شي غريب فنظم اربعة ابيات ثم امسك . وهي

ساعة البعد عنك شهر وعام　　الوصل يمضي كانما هو ساعه
اتجم الليل الطويل صبابة　　وتجمي لنجوم ذي تفليك
ويخفق مني القلب ان هبت الصبا　　ويذكرني البدر المنير محياك
الا ليت شعري كم يقاسي من　　النوى وانحائه قلب يذوب تجلدا

ومن الفضول هنا ان نقول انه كان يقول لخطيبته انك ملأت عيني قرة . واني اراك احسن الخلق . وانّا ليغبطنا الناس . وانك تغنيني عن الغنى . واني بقربك سعيد . وبعدك عميد . وانّا نكون ابدا كما نحن الان . وانك ذات ملاحة تشغل الخليّ . واني اغار عليك من النسيم بفيئي شعرك هذا الدجيّ . وانا لجسمان في روح واحد او روحان في جسم واحد . وانك لترين مني كل يوم محبّا جديدا . واني لارى فيك كل وقت حسنا حديثا . وانّا نكون قدوة للمزوجين والعاشقين . الى غير ذلك من الكلام المتعارف عند امثاله . قال خير ايام الانسان في حياته هي المدة التي تتقدم الزواج والتي تليه . قلت ومبلغها عند الافرنج شهر يسمونه قمر العسل وهو بعد الزواج . ومبلغها عندنا معاشر العرب شهران يقال لهما قمرا العسل . حتى اذا امتلأت الخليّة عادت كل نحلة زنبورا ورجع كل شي الى اصله . واقول ان المحبة هي مما غرس في الطبيعة البشرية من يوم الوضع في المهد الى يوم الوضع على النعش . فلا بدّ لهذا المخلوق الآدمي من ان يحب ذاتا من الذوات او شيا من الاشيا او معنى من المعاني .

وكما زاد حبه في قسيم منها نقص في قسيمه الآخر . وقد يكون احدها سببا في زيادة حبّه للاخر . مثال ذلك مَن كلف بالشعر او الغنا او التصوير فكلفه هذا يكون باعثا له على حبّ الذات الجميلة . ومن كلف بالعلم والقتال والفخر والسيادة فلا بد وان تقل رغبته في النسآ بل ربما لهى عنهن بالكلية . ومن كلف بالخيل المطهّمة والسلاح النفيس فقد يكون كلفه هذا شائقا له الى حب الذات أوّلا . وعدّ بعضهم من هذا النوع السراباتية وهم المنظفون للمراحيض . واسقطه غيرهم بدليل انها حرفة يحتاج اليها الانسان لتحصيل معاشه لا كلف من هوى النفس . فهذه ثلث حالات متسببة عن ثلثة اسباب. وهناك ايضاً ثلث احوال اخرى باعتبار القلة والكثرة وما بينها . الاولى متعادلة وهي ان يحبّ المحبّ محبوبه كنفسه . فلا تطيب نفسه بشي ولا تهنئه لذة الا اذا كان محبوبه مشاركا له في تلك اللذة . وذلك صفة الرجل قبل زواجه وبُعيده . ولا تخلو هذه الصفة عن الرشد والبصيرة . الثانية المتعدية اي المجاوزة للمتعادلة . وذلك كأن يحب المحب حبيبه اكثر من نفسه . وذلك صفة الاب والام في حبّ ولدهما وصفة بعض العشاق. أما الاب فانه يفدي ولده بروحه ويحرم نفسه من اللذات والمسرات حتى يمتعه بها . فاذا راى نفسه عاجزا عن الاكل والبعال وراى ابنه ياكل ويباعل لذّ له ذلك. وهو مع هذا غير خال ايضا عن الرشد والتمييز . فاما العاشق فانه قد يوثر معشوقه على نفسه غير ان افعاله تكون مختلة في غير محلها ووقتها . والثالثة معلومة وهي ان يحب الانسان محبوبه مع ايثار نفسه عليه وهو الاغلب . وهناك ايضا ثلث احوال اخرى مكانية وهي القرب والبعد والتوسط . ولها تاثيرات مختلفة بحسب اختلاف طباع الناس فالصادق الود يحب في حالتي القرب والبعد على حدّ سوى . بل ربما كان البعاد مهيجا له الى زيادة الشوق والغرام . وما احسن قول من قال في هذا المعنى

كأنّ الهوى شمس ابى ان يردها مهاة نوًى لا بل تزيد بها حرًا

فاما الطرف الشَنِق فانه لا يرسل الساق الا ممسكا ساقا . وثلث اخرى زمانية وهي الصبي والشباب والكهولة . فمحبة الصبي امرع واعلق . ومحبة الشباب احرّ واقوى . ومحبة الكهولة اقرّ وادوم . والكهل يقدر محاسن محبوبه ومنافعه اكثر . ومحبته له تكون امرّ واحلى . فالمرارة لعلمه انه قد قد عرّض نفسه للوم اللائمين وعذل العاذلين من

الاحداث والاغرار . ولأشفاقه دائما من ملل محبوبه اياه . فقلبه ابدا واجب . وهمّه بشانه ناصب • والحلاوة لزيادة معرفته بقدر محبوبه كما تقدم • ولكون هواه والحالة هذه راهنا متمكنا فهو يعتقد بمجامع قلبه انه ساع في اسباب سعادته وحظه • ولها ايضا ثلث حالات اخرى باعتبار الاستطاعة وعدمها اعني اليسر والعسر وحالة مابينهما • اما الموسر فان محبته ابرد واحول • لان غناه يحمله على استبدال محبوبه والتنقل من حال الى حال • فلتحذر النسآء المحصنات هذا الصنف من الناس وان ماس بهن ماسه . الا اذا كنا لايخفن على سرّهن وعرضهن . لان الغني يستحل افشآ الاسرار . كما يستحل خزن الدينار . وعنده ان كل شي عبد درهمه . وطوع همّه . فاما الفقير فان محبته اشط واشذ وانوع . لان فقره من حيث كان مانعا له من ازالة الموانع التي تحول بينه وبين محبوبه لايلبث ان يفضي به الى اليأس او الخبال او الى الانتحار . فاما المتوسط فان حبّه اعدل واصحّ . ولها ايضا ثلث حالات اخرى وهي الذل والعزّ والمساواة فالذل غالبا صفة العاشق والعزّ صفة المعشوق . ومن اعجب انواع المحبة الحبّ المختلط بالبغض . وذلك كان يهوى رجل امراة وهي تهوى غيره وتمتنع عليه . فيهيج به وجده الى وصالها تشفيا منها . فان فاز به غلبت محبته على كراهيته والاّ فلا ولا يزال هذا دابه حتى يسلو عنها والغالب ان المحب لايسلو محبوبه اذا عامله بالصد والحرمان الا اذا ظفر باخر شبيه له في خلقه وخلقه وهيهات ذلك فاما بواعث المحبة فقد تكون عن نظرة واحدة تقع من قلب الناظر موقعا مكينا فتختلج فيه من محركات الوجد والشوق ماتختلجه عشرة مدة مديدة وعندي انه لابد وان يكون المحب قد تصوّر في عقله سابقا صفات وكيفيات من الحسن فصبا اليها حتى اذا شاهدها حقيقة في ذات من الذوات كما كان تصورها عالق بها قلبه وخاطره فكان كمن وجد ضالة ينشدها وقد تكون المحبة عن طول سماع عن شخص فيسترسل السامع اليه شيا فشيا حتى يكلف به . واكثر اسباب المحبة النظر والعشرة . واعلم ان كثيرا من الناس قد عشقوا الصور الجميلة في الذكور والاناث لغير دعارة وفسق . وانما هو ارتياح نفس ووجد بال . ويؤيده ما ورد في الاثر من عشق فكتم فعفّ فمات مات شهيدا . والعاشق في هذه الحالة يرضى من معشوقه بادني شي . فالقبلة عنده نصر وفتح وغنيمة . قال الشريف الرضي

سلوا مضجعي عني وعنها فاننا رضينا بما يخبرن عنا المضاجع

قلت لو كان لي تصرف في هذا البيت لقلت عنها وعني . وقال ابن الفارض رحمه

كم بات طوع يدي والوصل يجمعنا في بردتيه التقى لانعرف الدنسا

وهذا العشق يسمى عند الافرنج العشق الافلاطوني نسبة الى افلاطون الحكيم ولا حقيقة له عندهم وانما هو مجرد تسمية . ويعرف عندنا بالهوى العُذري . نسبة الى عُذرة قبيلة في اليمن لا الى عذرة الجارية اي بكارتها وافتضاضها وشيء آخر منها . ويروى عن مجنون ليلى انها اتته يوما وجعلت تحدثه فقال لها اليك عني فاني مشغول بهواكِ . وللمتنبي في هذا المعنى

فشُغلتُ عن ردّ السلا م فكان شغلي عنك بك

واحقّ النساء بان تُعشَق وتعزّ التي جمعت الى حسن خلقها الادب وحسن المنطق والصوت واسعد الناس حالا من كان له حبيب يحبه كما جاء في بعض المواليات المصرية . فانه والحالة هذه يقدم على اصعب الاعمال واعظم المساعي . ويباشرها من دون ان يشعر بها . لان فكره ابدا مشغول بمحاسن حبيبه . فلو رفع صخرة في هذه الحالة على عاتقه بل فِنْدًا لتوهم انه رافع نعال محبوبه او بالحرى رجليه . ثم انه معما يلحق المحبة من طواري التنغيص والخيبة والحرمان وخصوصا مضض الغيرة فان عيش الخلى لاخير فيه . لان الحب يبعث على المروّة والنخوة والشهامة والكرم ويلهم المحب المعاني اللطيفة والخواطر الدقيقة . ويكسبه الاخلاق المرضية . ويستوحيه الى عمل شيء عظيم يذكر به اسمه ويحمد شأنه ولا سيما عند محبوبته . وقلما رأيت عاشقا به جفاء وفظاظة او رثٌ وبلادة او دناءة وخساسة . قال بعض العزهين واظنه من التيتائيين . لو لم يمنع من عشق المرأة شيء بعد التعفف والتورّع سوى الاضطرار الى حبها لكفى لان الانسان متى علم انه مسخر لحب شيء ومكلّف به ملّه بالطبع ونفر منه . قال فيكون حب المرأة على هذا مغايرا للطبع . هذا اذا كان الرجل شهما عزيز النفس عالي الهمة . فاما الاوباش من الناس فلا معرفة لهم بقدر انفسهم فهم يتساقطون على حب المرأة حيثما عنّت لهم وكيفما اتفق : قلت هو كلام من لم يذق الحب او من كان مفرقا ولو سمع انسي تقول له يوما احمل يار وحي هذا الحمل من الحطب على راسك . او

احب يا عيني على استك كالولد الصغير للباها حاملا وزحنقفا (١) . ثم ان للعشاق مذاهب مختلفة في العشق فمنهم من يهوي ذات التصنع و التمويه والعجب . ومنهم من لا يعجبه ذلك وانما يوثر الحسن الطبيعي . وان يكون في محبوبته بعض الغفلة والبلاهة والى هذا اشار المتنبي بقوله

حسن الحضارة مجلوب بتطرئة   وفى البداوة حسن غير مجلوب

ومثل الاول مثل من يقدم له لون من الطعام وبه قرمه فيحتاج الى التفحية والتقتيت ومثل الثاني مثل من به سيفنة ومرطمية (٢) فلا يمنعه عدم التفحية والتوابل من ان يلسو ويلوس ويلشى ثم يلحس قعر الجفنة بعد فراغه منها . فاما رغبة بعض الناس في الغفول والبلاهة فانها مبنية على ان المحب لا يزال يقترح من محبوبته اشياء كثيرة تبعث اليها الحاجة . فمتى كانت ذات دهاء وذكاء خشي ان تمله وتحرمه . ومنهم من يزيد في المرأة غراما اذا كانت ذات عزة وشرة ومعاسرة فيكون استرضاؤها ادعى الى النشاط والسعي . وهذا يفعله في الغالب من يتفرغ للهوى ويتصدى له من كل جهة ومنهم من يعشق المرأة لاتسامها بسمة شرف وسيادة اووجاهة. وذلك داب ذوى الطموح والاستطاعة. ومن هذا الصنف من اذا رأى امرأة وضيعة تشبه امرأة شريفة عشقها لاجل حصول المشابهة فقط . ويقال لاهل هذا المذهب المشبهية . وهو في النساء اكثر فان المرأة لا تكاد ترى رجلا الا وتقول لعله يشبه بعض الامراء الغابرين او الحاضرين او الآتين ومنهم من يعشق من بها ذلة وانكسار وملاينة . وذلك شان ذوى الرفق والرقة . ومنهم من يعشق من على طلعتها آثار الحزن والكآبة والفكرة . وهو مذهب ذوى الحنين والطرب. ومنهم من يعشق ذات البشر والطلاقة والانس. وهو خلق المحزونين المبتئسين . فان النظر الى مثل هذه ينفي الهم . ويجلو الكرب والغم . ومنهم من يعشق من بها مرح ونزق وطيش وثرثرة وقهقهة . وهو داب السفهاء والجهلاء ومنهم من يعشق المرأة لادبها وفهمها وحسن كلامها ومحاضرتها وسرعة جوابها. وهو مذهب العلماء والادباء

---

(١) الزحنقف الزاحف على استه :

(٢) سيفنة طائر بمصر لا يقع على شجرة الا اكل جميع ورقها والسرطم الواسع الحلق السريع البلع :

ومنهم من يعشق من تكون كثيرة الحلي والتأنق في الملبوس كثيرة الغنج والتمويه وهو طريقة ذوي السرف والشطط ومنهم من يعشق الماجنة المتهتكة المستهترة . وهو شأن الفساق الفجار . ومنهم من يعشق الخيتعور الشهوانية المتلعجة الطفسة وهو خلق من بلغ منه العهر كل مبلغ ومنهم من يعشق اللاّعة الخريدة العفيفة ابتغاء ان يفسدها ثم يتباهى بذلك بين اقرانه . فاذا رضيت له ملّها او ارادها ان تكون على غير تلك الحال وهو عندي شرّ من عاشق . المتوهجة . ومنهم من يحب اجتماع هذه الصفات المختلفة كلها في محبوبته بحسب اختلاف الاحوال . هذا في الخُلق فأما في الخَلق فالنحيف يهوى السمينة وبالعكس . والاسمر يحب البيضاء وبالعكس . والطويل يحب القصيرة وبالعكس . والاملط يحب الكثيرة الشعر وبالعكس . اما النساء فاحبّ الرجال اليهن الفارس الابتع . الشجاع الاروع . فاما الغنى والفقر فلا ضابط لهما فان الغني يتهافت على حب الفقيرة كما يتهافت على حب الغنية . بل البخيل من الاغنياء يؤثر حب الفقيرة طمعا في ان يرضيها بالقليل من المال . والغالب ايضا ايثار حبّ الجيل الغريب للاستطلاع على ما عنده من الغرائب التي تتصور المخيلة وجودها فيه دون غيره . الا اذا منع مانع جهل بلغته فحينئذ يحصل للمخيلة انقباض في تماديها . وكما ان لطف النساء وقلفطتهن تعجب الرجال ولا سيما في الفراش كذلك كان يعجب النساء من الرجال ترارتهم وشيظميتهم . فلا تكاد امرأة ترى رجلا على هذه الصفة الا وتقول في قلبها عند هذا كفايتي وغنائي . وقد لحظت العرب هذا المعنى باشتقاقهم الطَول من الطُول . غير ان النساء على الاعم يجنين اللذات من كل مجنى ويكرعن من مواردها ما ساغ وما اغص فمثلهن كمثل النحلة تجني من الزهر وان يكن على الدمن . فاما الغيرة فهي خلق طبيعي في كل بشر اذا كان سليم الذوق . فان الانسان يغار على متاعه من ان ينتهكه غيره فكيف على حرمته . وما يقال من ان الافرنج ليس لهم غيرة على نسائهم فليس على اطلاقه . فان منهم من يقتل زوجته ونفسه معا اذا علم منها خيانة . نعم انهم يتساهلون معهن في امور كثيرة ربما تعدّ عند المشرقيين قيادة . الا انها في نفس الامر وقاية من الخيانة . اذ قد تقرر عندهم ان الرجل اذا حظر امرأته عن الخروج وعن معاشرة الغير اغراها بالضمد . بخلاف ما اذا ارضاها بهذه اللذات الخارجية . ثم انه لما علم

اجتماع المستعسلين اي الفارياق والبنت خلافا للعادة المألوفة ذاقت امها من ذلك مرارة الصاب فاستشار بعض اصدقائها في امرها فقالوا لها لسنا نرضى بمصاهرة هذا الرجل لانه من الخرجيين . وانت من اعز بيت من السوقيين وهما لا يجتمعان . فقالت لهم ليس هو من جرثومة الخرجيين بل هو دخيل فيهم . قالوا لا فرق في ذلك رائحة الخرج ساطعة منه وقد ملأت خياشيمنا وحذروها منه غاية التحذير . مع اني قد حذرتهم وامثالهم في الفصل الذي مرّ من هذا الفصول . فلما علمت البنت بذلك نبض فيها نبض الخلاف وقالت ليست هذه الفروق من مصالح النساء . وانما هي مصلحة من اتخذها وسيلة للمعاش والجاه . والمقصود من الزواج انما هو التراضي والوفاق بين الرجل والمرأة. وان ابيتم ذلك فها انا انذركم اني لست من السوقيين في شيء . فرأت امها ان تغيب بها اياما عن ذلك المحل رجاء ان يبعثها البعد على السلوان . فهاجت ريح جميع عواصف الهوى في كل من العاسل والمعسول . واليه اشار ابو نواس بقوله : دع عنك لومي فان اللوم اغراء : فلما رأت الام ان لا اشارة . تمنع البنت من الاشيارة . ولا جزر . يكفها عن الجزر . (١) رجعت الى منزلها واستدعت بالفارياق وقالت له . قد علمت ان السوقيين لا يبغون مصاهرتك : فان كل عزمك على ان تتزوج ابنتي ينبغي لك ان تسوق ولو يوما واحدا . قال لا بأس . فعلى هذا تسوق يوم عقد الزواج وقرت عين كل منها ومن البنت . ثم احضرت الآت الطرب ليلا وادبرت الكؤس وزها مجلس الانس والسرور : والفارياق مواظب فيه على خدمة ادارة الكاس ومُسعيد على العازفين الاطراء وقوله آه وايه واوه . حتى اذا كلت يديه ولسانه ورأى ان عزم الشرب ان يسهروا الليلة كلها الى الصباح انسلّ من بينهم وصعد الى السطح لكي يستريح . وكانت الليلة مقمرة من ليالي الصيف . فلما ابطأ عليهم ظنوا انه تفلّت من الأربة فاخذوا في التفتيش عليه كما يفتش على امرأة فالك او فارك . فلما وجدوه وعلموا ان نيته مخالفة نيتهم اخلوا له ولعروسه حجرة وهمّوذ بالانصراف . فقالت الام لا أوَ تنظروا باعينكم بصيرة . (٢) وسبب ذلك ان عادة اهل مصر في الغالب هي ان يتزوج الرجل المرأة

(١) الجزر شور العسل من خليته

(٢) شيء من الدم يستدل به على الرمية ودم البكر

من دون ان يعاشرها ويعرف اخلاقها . وانما ينظر اليها نظرة واحدة بان تناوله مثلا
فنجان قهوة او كاس شراب بحضرة امها . فان اعجبته خطبها من اهلها والا كف رجله
عن زيارتهم . ومنهم من يتزوج ولم يكن راى امراته قط . وذلك بان يبعث اليها
امه او عجوزا من اقاربه ومعارفه او قسيسا فيصفونها له بمقتضي ذوقهم وخبرهم.
والغالب ان امّ البنت ترشي القسيس ليجيد صفة بنتها فيرغب الرجل في التزوج بها
ومنهم من يتزوج امراة قاطنة في بلاد بعيدة فيبعث الى احد معارفه في تلك الجهة
ليصفها له في كتاب ثم يستخير الله ويرتبق . ومع ذلك فان عيش هولآء المتزوجين
على هذا النمط يكون هنيئا . فاما في بلاد الشام فعادة اهل المدن كعادة اهل مصر
وعادة اهل الجبل مغايرة . فان الرجل هناك يتمكن من روية المراة ومعرفة اخلاقها
هذا ولما كان الفارياق قد تعدّى حدود العادة بمصر في كونه اجتمع بالبنت مرار
عديدة في حضور امها وفي غيابها. ارادت امها ان تنفي عنها العار باظهار علامة البكارة حتى
يشيع خبر براآة البنت في جميع البلاد . فان اكثر الناس لاشغل لهم الا الكلام
فاجتمعت تلك الزمرة وراء الباب بعد ان جمعوا بين العروسين . وطفق الواحد منهم
ينادي ويقول افتح الباب يا ابا مِزلاج . فظن الفارياق انه يريد الدخول عليهما ليعلم
كيف يكون العمل . ففتح له فقال له ماهذا الباب عنيت وانما اردت باب الفَرَج
فرجع الى عروسه واذا باخر يقول لُج القبة يا ولاّج . وآخر نجّر الطعنة يا بجاج
وغيره اروِ الصدى يا نجاج . وآخر أزلِ الزغب ياحلاج وغيره افرغ السَّجْ
يا خلاج — اسرع الوطء يا زلاج — املأ الوطب يا زمّاج — ملل الملول يا معاج
اغطس في اللجة يا غاطس — افقس البيضة يا فاقس — أجلِ المسواك يا وامس
تسوّر السور يا معافس — روّض المهرة يا فارس . وما زالوا به حتى شام ابا عُمَير
وناول امها البصيرة . فتهللت منهم الوجوه فرحا وحبورا . وصفقت الايدي استبشارا
وسرورا . ونطقت الالسن بالتبرئة . وختموها بالتهنئة . ثم انصرفوا وكانهم قدموا
من غزوة غانمين . وكادت الام تطاول عن الارض شبرا لهذا الفتح المبين .

القصيدتان الطيخيّتان

ما كنت اول عاشق بين الورى   تبع العشيقة من امام ومن ورا

ورأى البكآ له معينا شافيا … يوما ويوما اضحك المستعبرا
ويكون مصروع الغرام مزببا(١) … متكسا مستقبلا مستدبرا
ومحنبشا ومجمشا ومدهفشا … ومكتصا ومزنجرا ومعنجرا
ومرنما ومغنيا ومصفرا … ومشببا ومطبلا ومزمرا
وقبينة متشائبا متمطيا … وفيينة متقاعسا مقعنصرا
واذا راى رايا رشيدا كان في … ابرامه مترهشا متاخرا
فالعشق عقل العقل عن صيوره … حتى يضل عن الصواب ويبطرا
قد كنت أعجب ان يقولوا شاعر … ذو جنة واخال ذلك مفترى
حتي لقيت صويحبي كليهما … فاذا هما من طينة قد صورا
خلق الجمال لعين صب جنة … ولقلبه نارا تزيد تسعرا
لاغرو ان يغدو لحمرة وجه من … يهوى وقد حمل الغرام محمرا
ياليت يغني المرء يوما واحدا … عنهن من شي يباع ويشترى
ليت الجمال لهن مثل الملح في … قدر الطعام مهوعا ان كثرا
بل ليتهن خلقن اقبح مايرى … كيلا نهيم تحيرا وتخيرا
ليت الكواعب كن هضلا حبذا … الطرطب مع لا يا كبادي منظرا
ياليت ذي الهيفا دردحة(٢) وذى … الدهسا فلحسة فيهنئنا الكرى
ليت العيون النجل ضيقة وما … في الثغر من در نظيم صفرا
ياليت كانت كل ساق فعمة … عود الشكاعى بل ادق واضمرا
ياليت لم يصلت جبين فوقه … شعر كليل كل غر غررا
ياليت مافي الجيد من عنط بدا … وقصا لاعيننا وشيأ منكرا
والحسن ان القبح احسن ملمحا … اذ ليس يبكي العين مامنه يرى
فلاى داع كان شغل عقولنا … وقلوبنا بهوى الوثائر اكثرا

---

(١) التزبب التزيد في الكلام كالتزبيب وزبب فمه اجتمع الريق في صامغيه والتكسس التكلف
(٢) الدردحة المراة التى طولها وعرضها سوآ والدهسآ العجزآ والفلحسة المراة الصغيرة العجز .

ولمَ اختُصصن بكل علق مضنّة — وبكل حلى فاخر دون الورى
وبمَ ارتفعن على الرجال تطاولاً — ولهن تحتُ تقدما وتاخرا
والى مَ تصطبر الفحول وقد طغت — افعالهنّ تحيّر المتصبرا
منا خرجن وعقلنا بخرجن اذ — يدخلن او يخرجن سفّه من مرى
ولاي شى لم يكن قود على — من لحظها قلب المتيم قد فرى
ولاي شي حل رشف الريق من — ثغر الرشوف وكان ذلك مسكرا
وعلى مَ تعتزّ الشناط على شج — يمسي ويصبح بالغرام محسرا
سلها هل التنور فاركا انبغى — في كل شهر ام تاخر اشهرا
اين المعالي والمكارم اين من — فخر الانام بعزّه وتجبرا
يقتاده اسم الخود ان ذكرت له — طوعا وكرها وهو يهزم عسكرا
واذا تجشأ ساعة في وجهه — من اى سمّ قال انشي عنبرا
ولربما عشق الكبير نجُنّ من — ريح من الحسناء تفعم منخرا
ولو ان ذا القرنين جارى كيدها — لراى الى قرنيه قرنا آخرا
لولا النساء لما رأيت مخطّئا — ومسفّها ومفسقا ومفجّرا
ومفلّسا ومجبّها (١) ومتمّننا — ومكشخنا ومجرّسا ومعزّرا
ومتيما ومهيما ومسهما — ومدمّما ومذمّما ومشهّرا
ولما تناثرت الجماجم في الوغى — تحت السنابك وهي تُورى المغفرا
ولما عفت دول بهنّ لهت فبيّتها — الدمار فاصبحت تحت الثرى
أمْلت عليّ حوادث الامم التي — غبرت فقلت مقال من قد حرّرا
يارب قد فتن النساء عقولنا — فامسح محاسنهن قبحا يزدرى
او فاجعلن غشاوة تغشى على — ابصارنا أوّلا فأعم المُبصِرا
او فانصُنا اوفابصُنا او فالصِنا — او فاخصِنا طبعا بصا، بالحرى

---

(١) التجبيه ان تحمر وجوه الزانيين ويحملا على بعير او حمار ويخالف بين وجوههما وكان القياس أن يقابل بين وجوههما لانه من التجبيه والكشخان الديوث وكشخنه قال له يا كشخان :

الثانية

لمن اشكو وقلبي اليـ ـوم من اكبر اعدآي
لمن أشكو وعقـلي اليـ ـوم معقول بأهوائي
وطرفي مُبسل لبى ولبي جالب دآي
ولوّامي من كانوا اذا غبت اوّآي
ولأواي من الأنلـو عن الأُلى من اللآي
وقد افسد آرابي جميعا بعضها اللآي
رأى نار الهوى تذكو لاحراق واصلآء
فما بالي باصلآى تلظيها واسلاء
يقول الحتف من لمـج وكوني ميت احياء
احبّ اليَّ من عيشي يوما عيش تيتاء
حياة الصـبّر تكدير وصفوتها باصفاء
وما ينجع نصح فيه لو كان باتلاء
فهل من حكَمٍ ما بيننا يقرو بافتاء
عواديه ودعواه باصباحي وامسآي
وثورته ورثأنه لاخزاى واختآي
طغا خطبي فما لي اليو م من آس واسوآي
فاسواي لاينفكّ من لهج باسواء
فلا يشغلكم هجوى وتقريظي واطرآي
فراسي اليوم امّرة لداعي نُكس اهوآي
فلا مطمع في رشد خليع رقّ اغـوآي
اذا وقصت به عنقي فلا تشكوا لاذمآي
وان شجت به راسي فلا تبكوا لادمآى
وان هشمت به سنّي فلا تعموا عن المآى
وان بُخنت به عيني فلا تبكروا لاعمآي

جرى المقدور من قِدَم بتضليلي واشقآي
فلو شاء لابقاني معافىً أيّ ابقآء
ولو شاء لاعماني عن لقاء سوقاء
دعوا ذا الوجد يشقيني ويعنيني باشفاء
وهذا العشق يضنيني ولا تُعنوا باشفائي
فذا عظمي وذا جلدي وذا شأني وانشاي
فما يدخل مابيني و بين هوى باحشاى
سوى فظّ فضولي زنيم شرّ مشّاء
اذا اسمعتكم عَتَبًا فعدوني من الشاء
ولا تُبقوا على طوقي وجلبابي واعضاي
فان القدم مَن يسمع ذا عَذل باغضاء
وان الحر من يُسمع عَتَبًا يتلو ارضاء

الاغاني

يابدر مالك ثان في حسنك الفتان
فارحم فتى ولهان مبلبل البال
عذّب بما ترضاه الا الجفا اخشاه
قد طال ما اصلاه وانت لي سالى
يايوسف الحسن حوشيت من سجن
هددت بالحزن اركان امالي
من ذا الذي اغراك بصد من يهواك
الطرف منه باك وجسمه بالي
حتام ذا الهجران والصدّ والحرمان
حسن بلا احسان كالريّ بالال
محبك الواجد منك الرضى فاقد
ياليتني واجد أنهام عذالي

اضناني السهد وعزني الوجد
ما القصد ما القصد سواك ياغالي
يافاتن العشاق باللحظ والاحداق
تبارك الخلاق لحسنك الكالي
افديك بالمال والروح واللآلي
رضاك اشهى لي من طول آجالي

غيره

ماترى عيني مثيلك يارشا فارحم قتيلك
لم يرم الا سلامك ثم ان شئت جميلك
كل مافيك مليح كبدي منه جريح
بليت تفدي مقامك والهوى فيها صحيح
انت لي يابدر سالي وانا للهجر صالي
من يذق يوما غرامك لم يذق طعم الليالي
يارشا صد دلالا وجوابي منه لا لا
اسمع العبد كلامك وارقب المولى تعالى
فيك تعبيدي وذلي وهيامي اصل ضلي
ليت من غيري رامك يبتلي بالهجر مثلي
ضقتُ بالهجران ذَرْعا والشوقي كان أدعى
لم ازل ارعى ذمامك وذمامي لست ترعى
ان يكن وصل فعِدني فيك قد احسنت ظني
اسأل الله دوامك فهو لي اشهى تمني
يامليك الحسن طرّا يعرض المملوك امرا
أدعُه يوما غلامك ان له اجريت ذكرا
طال بالباب مثولي والتفات منك سولي
من رأى يوما قوامك راح صبا ذا نحول

انما بدري غزال   فاتني منه الدلال
ياعذولي دع ملامك   انما العشق حلال

غيره

اللقا طبيبي   يامن لى سبيت   والهوى نصيبي   من يوم انتشيت
ان في شحوبي   شكوى لو رثيت   ياصنو القضيب   ماهذا الجفا
يوسف الجمال   ذا الهوى صعب   تهت بالدلال   شانك العجب
ان تسل عن حالي   ينفع العتب   او بقيت سالى   لم يفد دوا
من حمل الصدود   صرت في ذا الحال   من مطل الوعود   صار جسمي بال
ادمعي شهودي   واشتغال البال   ليس من محيد   عن حكم الهوى
قد رقى لى اللاحى   لما عادني   وعلا نواحي   مما آذنى
وجهك الصباحي   ضلا زادني   يازين الملاح   انعم باللقا
مُرْ بما تشاه   تلقنى مطيعا   تلقني فداه   جهد المستطيع
ولعي اذكاه   شكلك البديع   جسدي اضناه   منك قول لا
من يجد كوجدي   يدر قصتي   ليس غير الوعد   منك حصتي
بعض هذا الصد   اصل غصتي   انا فيك وحدي   مبتلي ازا

غيره

يافاتر الجفون مابدا لك   حتى جفوت عاشقا جمالك
وياقضيب البان ما امالك   عن مغرم مومل وصالك
عذب بما ترضاه ياغزالى   الا الجفا شماتة العذال
انعم بوصل منك يوما بالي   انعم طول العمر ربي بالك
علامَ تجفوني ومالى ذنب   وما لقلبي عن هواك قلب
بحق من اولاك ماتحب   دعني اقبل مرة اذيالك
لم يبق لى على الصدود طوق   وعال صبري عنك هذا الشوق
وليس لي الى سواك توق   وهل لعيني ان ترى امثالك
احرمت طرفي في الليالي غمضا   وقلت ارضى علّه ان يرضي

ياهل نرى صدك عني فرضا فمن بقتلي يارشا افتاك
ناشدتك الله انلني سولي وكن رفيقا بي ياماموليي
يكفي الذى تراه من نحولى يعيذ رب العرش منه حالك

غيره

يابدر قل لي هذا الهجران تغوي اليه ام امنيه
جُدْ لى بوصل ياغصن البان توجر عليه او في النيه
ما القصد الا يوما مرآك فالصبّ صار في بليه
لاتخش عذلا ممن اغراك فهو أمار بالاذيه
نعمت بالا انعم بالى ياذا الجفون الهنديه
وطبت حالا طيب حالى فلي شجون في الطويه
فقت الاناما بما حويت من الخصال الملكيه
ومنك راما عبد سبيت بهذا الدلال قرب الطيه
كم ذا المطال ولا وصال ليست ترام ذي السجيه
هذى الفعال يارب الخال وذا الغرام لى منيه
انت المراد دون الانام لاند لك في البريه
فما سعاد بين الوسام انت مَلَك او حوريه

غيره

الى هنا يابدر لى انت المنى كلٌّ جنى منك الرضى الآنا
يافاتني بالدّل لما تخطر وشاجني اذجزت شزرا تنظر
قد شاقني منك المحيا الازهر واستاقني وجدي الى حد المنا
بى كلما القاك عني معرضا وجد نما لكن جسمي امرضا
ياذا اللمى حتام لاتبدي الرضى صل مغرما البسته هذا الضنا
سبحان من آتاك ذا الحسن الفريد كم قد فتن صبّا به امسى عميد
انت الحسن والشوق في قلبي يزيد ان الشجن للعظم مني اوهنا
كُلّفت في ذا العشق تبريح الجوى حتى تفى لكن هيهات الوفا

هل منصفى مما به يقضي الهوى او مسعفى خدن على نيل المنى
يا بدر لا تسمع مقال العاذل وارع الولا ناهيك وجد قاتلي
فقت الملا حسنا ففق بالنائل جُد بالطلا من فيك يا حلو الجنى

غيره

اذا امر الهوى رابك فلا تفتح له بابك
ولا تشغل به دأبك يسمك الحزن والهما
أتيتُ العشق من بابه وعلّلت باكوابه
فما قد ذقت من صابه دعاني لم اذق طُعما
هو العشق له مبدا ولا تلقى له حدّا
يذيق العاشق السهدا ويبلى الجلد والعظما
ايامن قد كوى قلبي بهذا الدلّ والعجب
اذا لم تستمع عتبي فمن اشكوا له السقما
تناهى بي الذي اجد من الشوق الذي يَقِد
فدتك الروح والجسد فكن يوما معي سلما
لقد افرطتَ في هجري وملكت الهوى امري
فلا والله ما ادري اسحراً كان ام حلما
عسى او علّ ان تشفى عليلا منك يستشفى
ونيران الهوى تطفى فقل تطفا وخذ مهما
غدا مضناك ياحبّ له صبر ولا قلب
ودمع فيك منصب لان يُسقَى بفيك الما

غيره

طيري لاغير لااسلوا عنه ساعه يا اهل الخير هلا رعتم من راعه
دمعي سكب ونار شوقي لاتخبو ولي قلب للهوى يبدي الطاعه
انا الهائم عن حب السوى صائم ليلى قائم لاغفى فيه ساعة
اشكو الوجدا ولم تزد الا صدّا فارحم عبدا قد نوّعتَ اوجاعه

مالي صبر وكيف صبري يابدر وذا الهجر اشقى نفسي الطمّاعه
حلفا الهجران ومايشفي الصب الولهان مثل السلوان لكن نفسي نزّاعه
اراني البين انواع الضنا والحين وعشق الزين مني فوق الاسطاعه
دوام الصد لم يترك للمضنى جد ولين القد ينشي فيه اطماعه

غيره

لو لم تدم بلوايا لم تستمع شكوايا
ولادرى مبكايا من في الهوى يلحاني
اكثرت من صدودي يامخلفا وعودي
لم ترع لي عهودي ولم تسل عن شاني
اعرضت عني كبرا وكان وصلي احرى
لقد عدمت الصبرا من فرط مادهاني
حملتني اثقالا وطبت عني بالا
قل لي نعم او لا لا فالمطل قد اضناني
يامفرد الجمال يابدر احسن حالي
شمّت بي عذّالي اما كفى اشجاني
سبحان من قد ابدع هذا المحيا الاروع
والحسن طرا اودع في طرفك الفتّان
ان الهوى هوان تضني به الابدان
ما اختاره انسان الا وكان العاني
مولاي يامولايا يامنتهى منايا
لاتتخذ سوايا وتسلي بثاني

الفصل الثالث

في العدوى

قد تقدم في المقامة الاولى ان عدوى الشر افشى من عدوى الخير . وان الاجرب قد يعدي اهل المصر جميعاً بخلاف الصحيح فانه لا يعدي احداً من جيرانه . وهذا يرى ايضاً في الامراض العقلية والقلبية . وشاهده على ماقالوه ان معلمي الصبيان لكثرة معاشرتهم ومخالطتهم اياهم ترك عقولهم ويافن رايهم . وكذلك المكثرون من مخالطة النساء فان قلوبهم ترق وطباعهم تخنث . فيتجردون عن تلك الشهامة والبسالة المختصة بالجردين من الناس . وقد اعرف كثيراً من ابناء جنسي الذين عاشروا الافرنج لم تسترق طباعهم منهم الا الرذائل دون الفضائل . فصار احدهم لا يقوم عن المائدة الا وقد مسح الصحفة التي اكل منها مسحاً لا تحتاج معه الى غسل . واذا حضر مجلساً انحى على احد شقيه وزقع زقعة يدوي منها المجلس . وربما غسلها بعد ذلك بقوله سكوزي اي اعذروني . ومنهم من يلبس هذه النعال الافرنجية . ويطأ بها وسادتك هذه العربية . او يرخي شعره كشعر المراة واول مايستقر به مجلس ينزع قبعته ويطفق يزرع في حجرتك مايتناثر من هبرية . ومنهم من اذا ضمه مجلس بين اخوانه ومعارفه او غيرهم وراى فيه اديبين يتساجلان او يرويان النوادر الغريبة اخذ في التصفير . ولكن تصفيراً مختلاً خلاسياً اي غير افرنجي محت ولا عربي حتم . اذ لم يكن قد عاشر القوم مدة طويلة تمكنه من تحصيل هذا الفن الجليل . ومنهم من يمد رجله اذا قعد في وجه جليسه . ومنهم من ياتيك زائراً ولا يبرح ينظر في كل هنيهة الى ساعته اشارة الى انه كثير الاشغال جم المصالح . مع انه يلبث عندك حتى يراك تهوم من النعاس . او يراك قد مللت وسادتك وقلت شفى الله مريضكم . كما قال الاخفش لمن عاده في مرضه . مع ان للافرنج فضائل كثيرة لا تنكر . منها انهم يرون في استعارة المتاع والماعون والكتب وغيرها عيباً . ومنها انه اذا زار احدهم خليلاً له وراه مشغولاً

رجع على عقبيه من حيث جآ فلا يقعد ينتظره حتى يفرغ من شغله . بل لو وجده متفرغا خفف قعوده عنده ما امكن . واذا راى على مائدته كراريس اوصحفا لم يتلقفها ليقراها ويفهم مضمونها . ومنها انه اذا كان للمزور منهم ولد مريض او كانت زوجته قد وضعت اومرضت فلا يترك مريضه ويقعد مع الزائر للسلام والكلام فيما لاطائل تحته . ومنها ان احدهم لايتزوج امراة الا بعد ان يراها ويعاشرها . وانهم يبوسون ايدي النسا ووجوه بناتهن وما يرون في ذلك معرّة وانحطاط قدر . وانه ليس عندهم أوشن (١) ولا ضَيفن ولا مُزو . ولا يقول احدهم لصاحبه اعرني منديلك كي امخط فيه او آلتك كي احتقن بها . ومنها تساهلهم مع المولفين وحملهم مايصدر منهم من الجهل والخطا محمل السهو او الاغراب . فلا يتعنتون مثلا على من قال فلان شمّ النرجس وحبق . اوحبق وشمّ النرجس . اوشم فحبق او ثم حبق . والمولفون عندنا لايجوزون ذلك . وفي كتاب الفه احد معارفي من الديار الشامية باللغة الانكليزية في احوال تلك البلاد واخلاق اهلها . بعد ان وصف عرسا حضره في دمشق ذكر انهم ختموا العرس باغنية لم يزل ذاكرا لها بحروفها . وقد راى تفضلا منه ان يترجمها الى اللغة المذكورة . وهي في الحقيقة مرثية في امراة اذكر منها بيتين وهما .

بالله ياقبر هل زالت محاسنها   وهل تغير ذاك المنظر النضر

ما انت ياقبر بستان ولا فلك   فكيف يجمع فيك الزهر والقمر

ومع ذلك فان الانكليز حملوا روايته على الاغراب ولم يخطئه احد منهم بقوله كيف يمكن لاهل الشام الموصوفين بسلامة الذوق واستقامة الطبع ان يختموا اعراسهم بالمراثي المبكية . ولكن لو كانت روايته هذه في اللغة العربية وبلغت مسامع اهلها لعقدوا عليه مجلسين احدهما عامّي والآخر خاصّي ففي العامّي يقول احدهم ماشا الله ياخي مرثية في ختام العرس اسمعوا ياناس وتعجبوا من حذق هذا الراوي . فيقول الآخر اي والله مرثية بدل الغناء عمركم ياناس سمعتوا كلام زي دا . فيقول غيره لاحول ولا قوة الا بالله ما لقيش المغفل دى الا الرثاء يجعله في ختام العرس . فيقول آخر حسبنا الله ونعم الوكيل يمكنش غفله اعظم من دي اهل العرس يختموا فرحهم بمرثيه ومايتطيروش .

(١) الرجل الذي ياتي الرجل ويقعد معه وياكل طعامه

فيقول غيره الله على دى الراوي هو مغفل ولاّ مجنون حتى يكذب على الناس الكذب دا ويملا كتابه بالهجس والكلام الفارغ . فيقول آخر ياسلام دا والله اغرب ما سمعت ان الناس يستعملوا النواح عوض الغناء والبكاء عوض الضحك والصفع على القفا بدل المصافحة باليد . فيقول غيره ولكن الناس دول اللي قروا كتابه حمير ولاّ مجانين ما كانش فيهم واحد يقول له (اذا كان نصرانيا) ياخواجا (او اذا كان مسلما او متسلما) يا افندي اهل بلادك يتطيروا ويتشاءموا كثيراً فما يصحش ان الرثاء عندهم يستعمل في الاعراس . فيقول الاخر سبحان الله هو حمار ضحك على حمير ياخي خلونا منه . فيقول غيره لا اله الا الله نحب نعرف السيره ايه ان كان كلامه داجدّ ولاّ مزح . فيقول آخر مزح ازاي اللي هو طابعه في كتاب يتباع في الدكاكين ومصور عليه صورته بسيف وحمايل وازرار . فيقول غيره بقا تقول ازاي يتمنى الانكليز يلعوا كل شي يستفرغه في حلقهم الغريب اللي عنده سيف بازرار وحمايل . فيقول آخر اظن الافرنج كلهم يصدقوا الخرافات . فيقول آخر ياخي دا باب واسع اول الكلام واخره غفله من الراوي وحماقه من السامعين . الى غير ذلك من الانتقاد والتعنت . فاما في المجلس الخاصّي فان القضية تبلغ فيه مبلغاً اعظم من ذلك واخطر . فانهم يصوّرونها في صور فتاوي علمية واجوبة فقهية فيستفتى اعظم ادباء المجلس قائلا . ماقول امام الادبآ . وتاج الالباء . في مؤلف زعم ان اهل الشام يستعملون المراثى في ختام اعراسهم . فهل تقبل له شهادة أو لا الجواب . لا تقبل له شهادة عندنا على ذنب حمار . وان باع كل نسخة من كتابه عند الافرنج بدينار . صورة استفتاء آخر . ما قول عمدة المصنفين . وقدوة المؤلفين . في مدّع ادعى انه سمع بكلتا اذنيه مرثية تنشد في ختام عرس في الشام الشريف . فهل يصدق كلامه وتجوز مطالعة كتابه اولا . الجواب . لا يصدّق ولا يوثق بما رآه بعينيه لا في الليل ولا في النهار . ولا بما سمعه باذنيه وان كانتا كاذنى الحمار . استفتاء آخر ما قول من كلامه مزيل للابهام . وموضح للابهام . في كاتب أودع في كتاب الن كثيراً من الروايات الهذاهذية (١) والحكايات الاقناسيّة . وزعم في جملة ماقاله ان أهل الشام ينشدون المراثى في ختام اعراسهم . فهل يحمل كتابه كله على هذا الكذب

(١) الهذاهذ الذين يقولون لكل من راوه هنا منهم او من خدمهم

ولا . الجواب . من كذب في قضية معلومة مثل هـذه فاحرى به ان يكون كاذباً في سائر القضايا فالاولى حمل كتابه كله على الكذب . استفتاء آخر . ماقول اجل النقاد . وحجة ذوي الرشاد . في رجل الّف كتاباً ذكر فيه انه يعرف كثيراً من الامراء والوزراء والقضاة والعلماء . وانهم له اصحاب وخلاّن . وانساب واخوان . ثم ذكر في موضع من الكتاب انه حضر عرساً في دمشق المحروسة كان مزيناً بالزهور والرياحين . والمغنيات والمغنين . وكان ختام ماغنّوا به مرثية قيلت في امرأة . فهل على فرض كونه كاذباً في هذه تشفع له معرفته بالوزراء في تصديقه بغيرها . الجواب . ما هو بصادق في هذه ولا في غيرها ولا تشفع له معرفته بالامراء في شي كما ورد

لن تنفع الراويَ الافّاك نحلته بانه يعرف الاعيان والامرا

استفتاء آخر . ما قول من لايعلو قول على قوله . ولايقطع امر الا بفصله . في رجل ذي رُواء . وسراويلات مفرسخة من امام ومن وراء . الّف كتاباً ضمنه ماسمعه ومارآه في بلاده . وكان من جملة ذلك قوله انه راى عروسا تزفّ وتنشد بين يديها مرثية في امراة . فهل يعتمد على رُوائه بالاخذ في روايته . الجواب . ليست الرواية من الرواء . ولا يعتمد على زيّه . في الاخبار عن ميته وحيّه . كما ورد

لن تنفع الراويَ الافّاك حليته ولا سراويله ان فاه او سطرا

استفتاء آخر . ما قول عمدة الانام . عفـا عنه الملك العلام . في رجل تصدقه العجم . وتاخذ بكلامه في كل امر اهمّ . وتقرّ عيون نسائهم بالنظر الى لحيته . وسراويلاته وحليته . وكشرته وجلقته . وخرعته وجلعته . فيخلبهن خلباً . و يأسرهن غراماً وحبا . الّف كتاباً اودعه من اخبار اهل بلاده اي بلادنا ماشاقهن واعجبهن . وشهّاهن وعرّبهن . فمن جملة ذلك انه شهد محفلا حفيلا . وعرسا جليلا . قد زين بالانوار الزاهرة . والوجوه الناضرة . والمآكل القديمة . والمشارب الهنيّة . والمشمومات الذكية . فلما شرع في زفاف العروس الى بعلها . واستبشرت الوجوه بفتح قفلها . اذا بمنشدين ومنشدات . ومطربين ومطربات . وقفوا بين يدي العروس . وعلى وجوههم سيماء الحزن والعبوس . وشرعوا ينشدون مرثية طويلة . في امرأة توفيت مذ سنين غير قليلة . فهل يصدق وصفه ويشفع له فيه خلبه الاعاجم وصرفه . وحزبه منهم وحلفه . وقدامه وخلفه . الجواب .

لا يوخذ بكلامه فيما افتراه . وان كان له اخدان من العجم على عدد شعرات قفاه . كما ورد

ان تنفع الراوي الا فاك شيعته   من الاعاجم لا يدرون ماهذرا

مع ان كلام المولف لم يضرّ باهل بلاده شيئاً يوجب التحزب عليه . فغاية مايقال فيه انه نسبهم الى وضع الشيء في غير محله . ولكن هذه عادتهم في التعنيت فلا يكاد يسلم منهم مولّف . ولو ان صاحب هذا الكتاب المذكور قال للانكليز انّ الرجال في بلاده يلبسون الليف والخوص . والنساء يتزيّنّ بالخسف والشقف . ويتكلمن وافواههنّ مطبقة . وينظرن وعيونهنّ مغمضة . ويسمعن وآذانهنّ مسدودة . ويرقدن ساعة في الضحى . ونصف ساعة في الظهر . وساعة وربعاً في العصر . وساعتين الاّ ربعاً في المساء وثلث ساعات الاّ ثلثاً في الليل . لعدّوا ذلك منه اغراباً

ومن هذا القبيل اي من قبيل استراق الانسان مذامّ عشيره دون محامده كان اظهار البصيرة اي علامة البكارة المشار اليها . فانها عدوى سرت الى نصارى المشرق من اليهود على ماذكر في كتبهم . مع ان لهذا الجيل ايضا فضائل كثيرة عرفوا بها من قديم الزمان الى الان . منها درايتهم بجمع الاموال والجواهر ومعاطاتهم الحرف الخفيفة اللطيفة كالصيرفية والنقد والقرض . وصبغ ماهو قديم من الثياب حتى ياتي جديدا . ومن ذلك حبّ بعضهم بعضاً بحيث ان الغريب فيهم من جنسهم لا يحتاج الى ان يتكفف مافي ايدي الناس ممن سواهم . ولا يخاف ان يعوزه المال وهو بين ظهرانيهم فيتقوّت بالجذور او يكون خلطا فيبيح عرضه للاجانب . بل يلقى في كل بلد نزله وكان فيه اناس من جيله اهلاً وسكنا . ومنها انهم قد اصطلحوا على لغة يعبّرون بها عما يخطر ببالهم من المصالح المعاشية . ولا فرق بين يهودي من اقصى المغرب وآخر من اقصى المشرق في الاخلاق والاطوار والعادات والرأي . بخلاف النصارى فان النصراني المشرقي اذا قدم الى بلاد النصارى الغربيين فاول مايحيونه عند رؤيتهم له قولهم هذا يهودي او تركي . ثم هو اذا احتاج الى مبيت او طعام من عندهم ابلغوه الى رئيس ديوان البوليس فصانه هناك في موضع لانور فيه ولا هواء الى ان يقضي عليه القاضي . كما جرى هذه السنة على امير التفقة الذي قدم من دير القمر الى باريس . وان يكن موسراً وجا

بلادهم للتفرج عليها غبنه منهم من غبن وخدعه من خدع وسرقه من سرق وقامره من قمر حتى يرجع الى وطنه منتوفاً مسلوخاً . فكيف تركت نصارى الشرق جميع هذه الصفات التي اتصفت بها اليهود وتعلموا منهم تلك الخصلة التي لا يتأتى عنها الا الغصة والحسد فهل يسوغ للغني في مذهب من المذاهب ان يأخذ دنانيره في يديه ويعبث بها في عين الفقير الصعلوك حالة كونه لا يملك منها قراضة . او للشبعان ان يلوّح بثريدته للجائع اللاهس . فان قلت ان ذلك امر طبيعي وان العلامة انما يراها في الغالب المتزوجون فلا وجه للحسد . قلت لو كانت هذه العادة طبيعية لكنّا نراها مستعملة عند جميع الامم . وهؤلاء الافرنج الذين هم اكثر دراية وعلماً في الطبيعيات لا يستعملونها . لا بل يفنّدون مستعملها ويقولون ان العُقْر يكون غالبا سببا في العُقْر (١) وان العروس منهم اول مايحسّ بالانشوطة قد عقدت في عنقه ياخذ عروسه ويعتزل بها في ناحية لا يبصره فيها احد من خلق الله مجانبة لاسباب الحسد . الموجب للنغص والكمد . فلا يرون انّ سرورشخص واحد يكون سبباً في حزن جماعة . وانما قلت الانشوطة لان عقدة الزواج عندهم تحل باسباب كثيرة . فاما قولك ان العلامة انما يراها المتزوجون فلا وجه للحسد فهو كلام من حاول المغالطة والتوريب والمواربة . أو هو ولا مؤخذة بما اقول كلام من لا بصيرة له ولا خُبر . فقد اجمع العلماء كلهم المتبلّغ منهم والمقتّر والمتكفف والمعتر والعريان وذو الرعايل والمسجون والمكبّل والمشكو والمرغم انه على انّ المتزوّج اضيق عينا بالحسد من العزب . وذلك انّ كل انسان يظن انّ غيره في حرفته اسعد منه حالاً فلا يفكر الا في وجه اسعديته دون اشقويته . ولما كانت ليلة الدخول بالعروس من الليالي الغراء وان تكن حالكة كانت مظنّة لان تنشي الحسد في صدر الخبير بها من دون تذكير لما يعقبها . وفي المثل ومايبنئك مثل خبير . هذا واني استميح العفو من الجناب الاكرم . المقرّ الافخم . حضرة الصيثر المكرم . عما اريدان اسأله عنه على وجه الاستفادة لا الانتقاد فاقول . من اين تعلم ياذا البصيرة ان تلك البصيرة التي يخضب بها المنديل ويعقد على علم ابدانا بكارة البنت هي علامة البكارة . افليس من الممكن ان يكون ليلة الدخول بها قد فار

(١) العقر استبراء المرأة لينظر ابكرام غير بكر

التنّور . وفاض المسجور ، او بقيت منه عقابيل . دبّج بها ذلك المنديل . او يكون الرجل قد ذبح عصفوراً او جرح احدى اصابعه اذا كان هو الذى سبق الى اقتطاف تلك الوردة . او ان تكون البنت قد ادخرت في ذلك الصوان شيئاً من الدم . فان قلت ان الرجل يعرف ذلك بمجرد التذوّق . قلت لعمري ولعمر ابيك انّ تلك الساعة ليست وقت وعي ومعقول . بل وقت دهشة وذهول . ولا سيما اذا وقف وراء الباب جماعة يضجّون ويعجّون . ويلحّون ويلجّون . فافِد الجواب عن ذلك . وها انا منتظره من هنا وهنالك

الفصل الرابع

في التورية

من عادة امثالي من المولفين ان يتقهقروا احياناً ويطفروا فرق مدة من الزمان ويلفّقوا واقعة جرت قبلها باخرى بعدها . وذلك يسمى عندهم التورية اي جعل الشيء وراء . وانهم ايضاً يبتدئون بذكر صفات الشخص الذي بنوا عليه مؤلفهم منذ ابتدائه مناغاة محبوبته الى وقت خفوته في الزواج . ويذكرون في خلال ذلك اموراً طويلة مملة وذلك كصفرة وجهه عند لقائها وتغير حركات نبضه وبهره وعيّه عن الجواب وبعثه اليها عجوزاً وكتاباً واجتماعه بها في مكان كذا وزمان كذا . وكتخيّفها الواناً عند قوله لها الفراش . الضمّ . العناق . الساق . على الساق . الرضب . الملاسنة . البعال وما اشبه ذلك وربما اساؤا الادب ايضا في حق الاب والام . فانهم كثيرا ما يصرحون بان الام ترضى بان تكون ابنتها فتنة لناظريها . وتتساهل معها في تهنيد زمرة من الرجال لتقاسمها منهم شطراً . وان الاب من حيث انّ حجره في حجر امراته لا في راسه لا يمكنه منع تلك الاسباب . وان الخَدَمة لا يكونون الاّ ذوى خَذْل مع المرأة على الرجل . فالخوادم للاقتداء بسيرة سيدتهنّ والخادمون للطمع فيها . وفي الجملة فانهم يجعلون بيت البنت المعشوقة دسكرة وماخوراً وحابوراً ومنبتاً لجميع انواع الفساد والحيل والمكائد

وكلّ من اخواني هولاء المؤلفين يخترع حيلة من راسه ويعزوها الى غيره . اما الطفرة الى ورا فعندي انه لاباس بها اذا كان المؤلف راى مذهب التأليف قد سدّ امامه ثم يعود الى ما كان عليه . واما تبليغ الرجل الى سرير عروسه ثمّ اطباق الكتاب عليهما من دون ملاومة لمعرفة احوالهما بعد ذلك فلست ارضى به . اذ لابدّ لي من ان اعرف ماجرى عليهما بعد الزواج فان كثيراً من النساء اللائي يحسبن اناثا قبل تولي هذه الرتبة الشريفة يصرن بعدها رجالا كما ان الرجال تصير نساء . من أجل ذلك رايت ان اتتبّع الفارياق بعد زواجه اكثر من تتبعي اياه قبله . اذ الكلام على اثنين أدعى الى العجب منه على واحد . فاما الاسفاف للاسور الخسيسة والدعاقة والدنوق فليس من شاني . فائذن لي اذاً ياسيدي ورخصي لي ياسيدتي في ان استعمل الطفرة واقول . ان الفارياق حين كان مرتبقاً بربقة الحب قبل الزواج كان قد استدعى به احد الخرجيين في جزيرة البُخراي في الجزيرة التي يتكلم اهلها بلغة منتنة . ليكون عنده بمنزلة معبّر للاحلام باجرة اكثر مما كان له عند الخرجي بمصر . فمن ثمّ عزم على السفر وطالع به خطيبته قبل الدخول بها بمدة . فقالت لاباس فان للرجل حقاً على امراته ان يستصحبها حيث شاء . وانّ كل بقعة من الارض تكون لها في صحبته مغنى ووطناً . ثم اخبر امها بذلك فرضيت . فلما وقع المقدور بالزواج وأُحكِمت عقدته قال الفارياق لزوجته ينبغي لنا الان ان نذهب للسفر . لانّ احلام الخرجي قد تكاثرت في راسه ونخشى ان يفوته تعبيرها . فقالت أوَ ذلك من جدّ . هل جرت عادة النساء بان يسافرن عقب الزواج ويعرّضن انفسهنّ للعقم والخطر . اليس في مصر مندوحة عن الغربة والسفر . كيف افارق اخواني واهلي واذهب الى بلاد مالي بها من صديق ولا خدين . قال ماغرّرت بك ولا قلت لك شيئاً غير ما قلته من قبل . قالت ما كنت لاعلم من الزواج ما أعلمه الان . فقد شبهه الناس بالسعوط الذي يعطيه الطبيب للنائم او السكران حتى يفيق . قد علمت الان انّ المراة لم تخلق للسفر وانما خلق السفر لها . قال اني وعدت الرجل بان اسافر اليه فلا بدّ من انجاز الوعد : فقد يقال في المثل ان الرجل يربط بلسانه لا بقرنه . ومع ذلك فان خرجيّنا هذا مسافر معنا بامراته فانت مثلها . قالت ما انا كزوجة الخرجيّ فاني الان حديثة الصبغ وفي برزخ البكر والمزوجة : ولم اسأم بعدُ

من الارض حتى ادخل الى البحر . فلما علمت امها بذلك الحت عليها في السفر . فقالت دعوني اذاً استشير طبيبا لأعلم هل سفر البحر يضر بالمتزوجة حديثاً أو لا . فجيء بالطبيب فلما سمع كلامها ضحك وقال . انكم يا نصارى الشرق تنذرون النذور للكنائس رجاء ان يمنّ عليكم صاحب الكنيسة بالحبل او الشفاء من بعض الامراض واما نحن فننذر للبحر . فان النساء عندنا حين ييأسن من الحبل يقصدن ظهر هذا الولي ويلتمسن بركته . فمنهن من ترجع حبلى بفذّ ومنهنّ من تضع توأمين . ولا سيما اذا كان ربان السفينة ذا رفق بالنساء يطعمهنّ ما يشتهين . فقال الفارياق في نفسه اللهمّ اجعل ربان سفينتنا عنيفاً شرساً نكداً شكساً فظاً عسراً . فلما سمعت ذلك سكن روعها ومالت الى السفر . فمن ثمّ اخذوا له الاهبة وسافروا الى الاسكندريه . اما السفر من بولاق في القنج فانه من اعظم اللذات التي ينشرح لها الصدر . فان النيل لا يكون الا ساجياً . ورئيس القنجة يقف قبالة كلّ قرية ليتزودوا منها الدجاج والفاكهة الطريئة واللبن والبيض وغير ذلك . وناهيك بماء النيل عذوبة ومصحة . فالراكب في احدى هذه القنج لا يزال طول نهاره آكلا مسروراً قرير العين بما يراه من نضرة الريف وخصب القرى . حتى يودّ ان تطول مدة سفره فيه وان كان في قضاء امر مهم . فاغتنم الفارياق حينئذ هذه الفرصة وأمعن في قضاء الاعذبين ونسي مصر ولذاتها . ونعيمها وحماماتها . ورمدها وآفاتها . والكتب ومشايخها . والاخراج وتخاتخها . والمكاتب وبرانجها . والطنبور واوتاره . والحمار وفراره . والطبيب وقنزعيته . وصاحب المعجزة وهجرعيته والسرى ورائحته . والوباء وجائحته . وما زال على هذه الحاله حتى وصل الى الاسكندرية شبعان ريان . وقد تزود ما يقوم بحاجة البطالة في البحر الملح . وفاز ونجح اي فوز واي نجح



الفصل الخامس

في سفر وتصحيح غلط اشهر

كان الخرجيُّ رفيق الفارياق في السفر قد كتب كتاباً من مصر الى بعض معارفه بالاسكندرية ليهيىء له نُزُلا . فلما وصلوا اليها اقاموا فيه مدة ينتظرون ورود سفينة النار التي تسافر الى الجزيرة . وكانوا جميعاً يأكلون على مائدة واحدة ويتفاوضون في المصالح الخرجية وفي السفر وغيره . وكانت زوجة الفارياق لاتدري شيئاً سوى بيت اهلها . ولا تتكلم في امر الا فيما جرى لها مع امها او لامها مع الخادمة او لهذه معهما وكانت اذا اخبرت مثلا بان الخادمة ذهبت الى السوق لتشتري شيا تخللت كل جملة بضحكة طويلة . فاقتضى لاخبارها من الوقت نحو ما كان اقتضى للخادمة من الذهاب والاياب . وسبب ذلك ان البنات في مصر والشام لايعاشرن احداً سوى الخوادم واهل البيت . اما امهاتهنَّ فلا يطالعنهن بشيء من امور الدنيا مخافة ان تنجلي الغشاوة عن ابصارهن فيعرفن ما يراد منها . فمن ثمَّ كان تحصيل معارفهن كلها من الخوادم لاغير . ولما كنَّ هؤلاء يرين ان في اخبار البنات بما يهوين ويملن اليه بالطبع خيراً لهنَّ عظيماً . فاذا رات احداهن مثلا في جميلا بادرت من ساعتها الى البنت وقالت لها . قد رايت اليوم ياسيدتي شاباً مليحاً ظريفاً لايصلح الا لك . وانه حين نظرني وقف وشخص اليَّ وكانه كان يريد ان يكلمني . واخاله عرف انك انت سيدتي . فاذا رايته المرة الاتية كلمته . واشباه ذلك عن الكلام مما يجعل البنت ذات ضلع معها اذا غضبت منها الام . ولا يخفى ان البنات اذا كنَّ جاهلات بالقرآة والكتابة وحسن المحاضرة وباداب المجلس والمائدة وغيرها . فلا بدَّ وان يتعوَّضن عن هذا الجهل بمعرفة الحيل والمكايد التي يتخذنها وسيلة لما يرمن . فان البنت اذا اشتغلت بقرآة فنّ من الفنون او بمطالعة الكتب المفيدة صرفها ذلك عن استنباط الحيل . فاما اذا لم يكن لهنَّ شغل غير ملازمة البيت وليس فيه غير الخادمة فانَّ افكارهنَّ واهوآهنَّ كلها تجمع الى مركز

واحد وهو اتخاذ الخادمة وسيلة لهنّ وسنداً . فكلاما عندهنّ اصدق من كلام امهاتهنّ فلأولى عندي انا العبد الحقير ان تشغل البنت باحدى الفنون والعلوم النافعة سواء كان ذلك عقلياً او يدوياً . ألا ترى ان الانثى مفطورة على حب الذكر والذكر على الانثى فجهل البنات بالدنيا غير مانع لهنّ من معرفة الرجال واستطلاع احوالهم . بل ربما افضى بهنّ هذا الجهل الى التهافت عليهم والانقياد اليهم من دون نظر في العواقب بخلاف ما اذا كنّ تأدّبن بالمحامد والعلم اللائق بهنّ فانهنّ ح يعرفن ما يعرفن من الرجال عن تبصر وتدبر . وهناك قضية أخرى وهي ان النساء اذا علمن من انفسهن انهنّ اكفاء الرجال في الدراية والمعارف تترّسن دونهم بمعارفهنّ وتحصّن بها عند تطاول الرجال عليهنّ . بل الرجال انفسهم يشعرون بفضلهن فيرتدعون عن ان يهتكوا حجاب التأدب معهنّ . مثال ذلك اذا اجتمع غلام وبنت في خلوة وكان الغلام قد قرا ودرى . والبنت لم تعرف شيئاً غير ذكر اللباس والزينة والخروج الى البستان . لم يلبث الغلام ان يتعدى طور الادب معها لاعتقاده انها لم تخلق في الدنيا الا لقضاء وطره منها . بخلاف ما اذا رآها ذات رأى رشيد . وقول سديد . وفكرة مصيبة . وفهم للامور البعيدة والقريبة . وحسن محاضرة وجواب عتيد . ومعارضات ومماتنات . فانه والحالة هذه يهابها ويحترمها . وليس كلامي هذا مخالفا لما قلته في اغضاب الشوافن . وانشاب البراثن . وانما العبرة باختلاف وسائل العلم . والمراد من هذا الاستطراد كله ان نقول ان زوجة الفارياق وان يكن قد فاتها كثير من معلومات الرجال والنساء فقد ابدت من المعارضة لامها عند تصادم مصلحة الزواج بمفسدة خرجية الفارياق ما افحم المجادل . وابكم المناضل . لكنها بقيت في غير ذلك جاهلة . فان الفارياق لما كان ذات يوم على المائدة اخبره الخرجي بقدوم سفينة النار وحثه على التأهب للسفر . فسمعت بذكر سفينة النار فقالت ما معنى هذا . فقال لها الخرجي هي سفينة ذات الواح ودُسُر وانما تسير بقوة بخار النار . قالت واين النار . قال في قمين بها . قالت يا للداهية كيف اسافر في سفينة فيها قمين واعرض نفسى للنار . اليس السفر من هنا الى الجزيرة يكون في القنج كسفرنا من بولاق . قال ان القنج لا تصلح للبحر الكبير . قالت اما انا فلا اسافر ويسافر من يريد ان يحترق . فترضاها الخرجي وزوجته فابت . فلما حان الرقاد اضطجعت في

الفراش وادارت وجهها الى وجه الحائط : وهذا هو المقصود من هذا الفصل تنبيها للناس على ان هذه العادة هي من جملة العادات التي اخطاوا استعمالها اذ ليس في الادبار شيء يدل على الغيظ . بل الاقبال هو المظنة له فان المرأة اذا واجهت زوجها عند الاضطجاع وقطبت وجهها في وجهه وزوت مابين حاجبيها . او شمخت بانفها او سدّت منخريها او غمضت عينيها كيلا تشم رائحه وتبصر سحنته او غطتهما بيدها او بكمها او بمنديل كان ذلك اشارة الى الغيظ . فاما في تولية الدبر فلا علامة تدل عليه . فان قلت انها اذا واجهته ربما غثت نفسها من نفسه . اذ الرائحة الكريهة لابد وان تفعم المناخر وان سُدّت فلا محيص عنه الا بالادبار قلتَ الاولى ان تستلقي فيندفع المحذور . وبعد فان الدبر هي من الاشياء التي طالما عُني الناس بتفخيمها وتكبيرها وتعظيمها حسّا ومعني . امّا حسّا فلانهم اتخذوا لها الزناجب والمنافج والمرافد والرفائع والاعاجيز والغلائل والمرافق والمُعظّامات والحشايا والاضاخيم والمصادغ اجتذابا لقلوب الناظرين وفتنة لعقول العاشقين . فكيف يكون شيء واحد مستعملا وسيلة للرضي والغضب معا فهو خُلْف بيّن . واما معنى فلان العلماء والادباء وسادتنا الشعراء مازالوا يتغزلون بها ويتنافسون في عرضها وسعتها . حتى ان بعضم قال

من رأى مثل حبّتي تشبه البدر اذا بدا
يدخل اليوم خصرها ثُمّ ادرافها غدا

وقال عمر بن كلثوم

وما كمة يضيق الباب عنها وخصر قد جُننت به جنونا

ولقائل هنا يقول ان الشاعر لم يصف الخصر الا بكونه موجبا لجنونه . وان الاشارة الى كونه نحيلا بناء على جنون الناس به اذا كان كذلك غير ناصّة واخرى ان يكون هذا المفهوم الضمنيّ جاريا على وصف كل عضو . اذ لو قال وماكمة جننت بها جنونا لعلم بالبديهية انها تملأ الباب ويفضل منها شيء ويا ليت شعري هل الالف واللام في الباب للعهد الجنسي اوالذهنيّ . وهل الامام الزوزني تعرّض لشرح ذلك . ثم انه من اهمّ مايشغل بال المرأة ويسهرها الليالي . هو ان تفتن ناظرها بتفخيم ذلك الموضع الرفيع العالي . وربما لهيت عن وجهها وسائر جسدها وغادرته بلا زينة من فرط اشتغالها به

ولو تضمّر وجهها ودوت غضاضة بدنها لمرض او كبر فقلّ اعتمادها على محاسنها لم تبرح معتمدة عليه ومتعهدة له . فهو عندها راس مال الخلب والتشويق وما من امرأة الا وتتمنى ان يكون لها عين في قفاها لتكون ناظرة اليه ومتعهدة له دائما . ولقد يهون عليها ان تقف ساعة او تمشي ساعتين او ترقص ثلثا ولا ان تقعد هنيهة خشية من ان يخسان او يضمر . وانها حين تنظر الى عطفها وهي ماشية او راقصة فما هو الا رمز الى ماوراءه . وان تهدكرها وتهكنها هما انشب مصلاة يعلق بها قلب الرجل . وذلك لانها تعلم ان الحكمة الخالقية رسمت من الازل بان تكون كثرة اللحم والشحم في ذلك الموضع . بالنسبة الى سائر البدن لا بالنسبة الى دكاكين اللحامين . شائقة للملوك والسلاطين والامراء والقضاة والائمة والقسيسين . والاحبار والموابذة والهرابذة والعلماء والبلغاء والخطباء والادباء والشعراء والعطارين والصيادلية والعازفين بالات الطرب ولسائر الناس . لا لانهم يتخذون من لحمه كبابا او من شحمه إهالة . او يستصبحون عليه او يتخذون من جلده كُوبة (١) . ولكن ملاء لعيونهم وشرحا لصدورهم . فان عين ابن آدم مع كونها ضيقة لا يملأوها ماهو اوسع منها واكبر بالف مرة . واشعارا لهم بان حكمتهم في هذه الدنيا وتنطسهم وعزهم ومجدهم وان علت على الاطواد الشامخة والجبال الشاهقة فما هي الا سافلة عن حضيض هذا الموضع ألاَ وانها تعلم انك اذا جلست مثلا احد هؤلاء الاعزة الكرام امام بعض المناصع (٢) على سرير مذهب . وضربت عليه قبة مموهة مزخرفة منمنمة منقشة مزوقة مكسوة بالحرير والديباج ومكللة بالزهور والرياحين . استنكف ان يقعد هناك نصف ساعة . على انه لا يستنكف ان يقعد عامة نهاره وليله محاذيا لذلك المقام المنيف . وهو حاسر الراس . مشعث الشعر . حافي الرجل . فاغر الفم مندلع اللسان . سائل اللعاب : محملق العينين . مشمر الذيل . شابح الذراعين معوجّ العنق مؤلّل الاذنين . في اقبح هيئة يمكن للانسان أن يتصورها في حق ذي مقام . حتى لو سمع نأمة من هناك لظن ان السلطان قد بعث اليه بالات الملاهي يهنئه على هذا الفوز المعظم . والمغنم العميم . وتصوّر في باله ان صوت العود لم يكن باشجى

(١) الكوبة الطبل الصغير المخصر ولعله الذي تسميه العامة الدربكة

(٢) مواضع يتخلّى فيها لبول اوالحاجة

من غيره الا لكون هذه الآلة قد صنعت على مثال شطر ذلك الموضع . ولو كان كالشطرين لسُمع له منطق باعراب . وان شكل القبة ماخوذ منه . ورائحة الندّ تروى عنه . وان العرب من زيادة شغفهم به الحقوا حروفه بالافعال السداسية الدالة على طلب الفعل او التي يعتبر فيها الشي كونه على حال مّا من الاحوال . وان فردسة صدور الرجال وعرض ظهورهم لاتجدي نفعا مع عرضه . وان المعالي في السَّراة متى تلح لهم ذات تاكيم يَمُدْن مسافلا . وان هذه الحقيبة مع ثقلها سوآ كانت حاملة كما ذهب اليه بعض الشعرآ . او كانت محمولة كما هو في الواقع فليس ثقلها الا كثقل كيس ذهب على حامله . وانها اسخن الاعضآ جميعا في الشتآ اذ لاتحتاج الى تدفئة وابردها في الصيف. وانها مع كونها اول ماسّ للارض عند القعود فلا تزل انعم من الخدين . واملس من الديدين . فلهذا كانت لذة تقبيلها للمقبِّل العذريّ اعظم من لذة تقبيل الذقن والانف والعين والجبين . وان الناس يبتذلون لها اسمآ الملوك والسلاطين . وذوي السيادة والمعالي وائمة الدين . وعند قوم (اقول واستغفر الله) تنال لها الاسمآ الحسنى . على ان تسبيحهم كل يوم ان يقولوا ربنا تقدّس اسمك . ألاَ وانها تعلم ايضا ان كثيرا من البهائم اعقل من الناس او اسعد حالاً من اصل الفطرة . فان الذكر من الحيوان غير الناطق لايهيج على هبرتين من اللحم في انثاه مع احتوائهما على القبل والدبر الا في وقت معلوم . وهذا الذكر من الحيوان الناطق لا يزال هائجا عليهما مزبدا لاغما راغيا متزغما هادرا محمحما مبقبقا مقبقبا زاغدا مُلْعبا جالبا لاجبا وربما جنّ ايضا . وما ذلك الا لمجرد وهم انهما باهدافهما تعينانه على خسق الهدف من قُبُل والاّ فما سبب هذا الجنون . نعم وتعلم ايضا ان هذا الموضع مع كونه في حيّز الجسم الاسفل فهو . وان لحظّ الرأس ارتفاعا اشارةً الى ان تسفّله لايحط من قدره ورفعته . حتى لو فُرض انه جعل عند الرجلين لبقيت له هذه المنزلة والاعتبار بعينه . حتى ان بعض النسآء يرين ان كشفه أولى من كشف الفم لانه اقلّ اذى منه . اذ لم يعلم الى الآن ان احدا قُتل بفلتةمنه فاما فلتات اللسان القتّالة فلا تعدّ ولا تحصى . وبنآء على ذلك كنّ يتعمّدن الخروج في اليوم الزاح وهو عندهنّ من الاعياد المباركة . وبعضهن يرين انه جدير بالحلى والزينة والتنقيش سوآء كان ظاهراً او مستوراً . قال بعض الشّاهين

يا سائلي عن اي جز ءٍ في المليح اجملُ
لقد روى استاذنا نصف الجمال الكفل

قال وذلك لاشتماله على اشكال كثيرة . لانك اذا اعتبرت ذروة الرانفة (١) وحدها ظهر لك الشكل المخروط . واذا اعتبرتها مزدوجة بالاخرى تبيّن لك نصف دائرة او شكل هلاليّ . واذا نظرت من نقطة العسيب الى غاية ما يوازيها من سطح الشق الواحد بدا لك المستوى او المسطح . او منه الى ما دون ذلك قابلك المقبّب والخط المنحني . واذا اعتبرته مع الاكباب واجبك المجوّف وهلم جرّا . وليس من سائر اعضا البدن من الاشكال ما لهذا . قلت ما اشرق قول الشيخ ناصيف اليازجي الاديب المشهور

وتموّجت اردافها فاخو الهوى بين اضطراب الموجتين غريق .

ثم ان الظاهر من وجود اسم المرفد في لغتنا هذه الجليلة . ومن قول صاحب القاموس المخدّم رباط السراويل عند اسفل رجل المرأة . ان لباس نساء العرب قديما كان كلباس نساء الشام الان . او لعله كان خاصا بالحواريات . غير ان قول المتنبي . واعفّ عما في سراويلاتها . يفيد التعميم . بناء على تغزّله بالباديات كما اشار اليه بقوله . وفي البداوة حسن غير مجلوب . وقد تقدم . قال في القاموس الدبر بالضم و بضمتين نقيض القبل ومن كل شي عقبه ومؤخره — والاست والظهر . قلت اسماء حروف هذه اللفظة لها معانٍ . وهذه الحروف كيفما قلبتها ظهر لك منها ايضا معنى . وكذا اذا جمعت بين كل حرفين منها . وعددها بحساب الجمل مزدوج اشارة الى ازدواج الجهتين . كما ان الضمتين اشارة الى الثقل والرزانة . ومادتها من اغزر المواد . وهل وضعها مؤخر عن المؤخر او متقدم عليه او اشتقاقها من قولهم جئتك دبر الشهر اي آخره واشتقاق هذا منها خلاف . والظاهر ان الامور المعنوية الاعتبارية مشتقة من الحسية وبقي الخلاف في اشتقاقها من عقب الشي . وقد ورد في القرآن ولّوا الادبار . وانكرها المطران اثناسيوس التوتنجي في كتاب الحكاكه في الركاكه . واعلم ان العرب قد وضعت للدبر ما ينيف على تسعين

(١) تنبيه رايت في كتاب (ليس) لابن خالويه النحوي بعد تاليف هذا الكتاب ان الرانفتين يقال لهما الصومعتان والصوفقتان : وذلك مما فات صاحب القاموس

لفظة مابين اسم ولقب وكنية . فمن اسمائها ماتقدم في اثارة الرياح ومن بعض كناها ام سُويد وامّ العِزم وامّ خَنُّور . فلولا انهم انزلوها منزل الاسد والسيف والخمر في الباس والفتك والاسكار لما خصّوها بذلك لا يرد هنا ماقاله ذلك الاعرابي في السنّور لعنه الله ما اكثر اسماءه واقل ثمنه . فانّا نقول ان قلة ثمن الحيوان لكثرة وجوده لايقدح في قيمته ومنافعه . وان كثرة اسمائه هي من حمل النظير على النظير لحصول المشابهة بينه وبين ام امّ سويد . من جهة ان السنّور هو من الحيوانات الكثيرة النتاج . ومن طبعه اللعب والهراش وان يكن يعقبه غير مرة خدش وادماء . وخمش واصماء . وحمش واعماء . وله تحمّل على المكاره والاذى حتى قيل ان له سبعة ارواح ولا يعجزه صعود شرف ولا هبوط هوة . وانه اذا شمّ رائحة شي اعجبه من الطعام تسلق على جدار ودخل اضيق مكان حتى يظفر به . وانه اذا مرّت عليه يد نفّش ذنبه واخذ في خرخرة وهينمة تفصح عن رضاه باللمس . ومن طبعه ايضا النظافة والاكل بخفوة حياء او خوفا . فان ابيت الا المشاحّة كما هو دابك من اول هذا الكتاب بان قلت مابال اسماء الداهية والعجوز اذاً كثيرة واسماء الشمس والقمر قليلة اذا كانت التسمية مبنيّة على جلالة المسمّى او نفعه . قلت اما كثرة اسماء العجوز فباعتبار انها كانت صبية او انها تكون ذريعة لها . واما الداهية فباعتبار خشيتها . والاجلال قد يكون عن خشية كما يكون عن مِقة . فاما الشمس والقمر فاسماؤها كثيرة جدا غير انها لم تشتهر عندنا وليس ذلك باول ظلم فعله الناس في حق اللغة كما بيّنته في كتاب آخر ثم هذه جملة الاسماء والصفات التي وضعت لامّ ام سويد وقد بذلت الجهد في استقرائها وهي الاَثيثة الخَبَنْداة الراجح الرَّجاح الرَّداح الدُّلَخة البَهِيَر الشَوْترة العَجِزة العَجْزاء المُعَجَّزة الدَّهاس الدَّهساء البَوصاء اللَفّاء الرَكْزاء الزكزاكه الوكواكة الضِنْرك الضِناك العَضَنّك الوَرْكاء الوَرْكانة الثَّقال الجَزْلة السَجْلاء المكْفال الهِرْكَوْلة المؤكّمة الأَلْياء الأَلْيانة ومن الغريب ان صاحب القاموس ذكر الأَسْتة والسَّتاهي ولم يتكرم علينا بمؤنثهما فانا ابتهاهنا عن اذنه : ومن ذلك نُفُج الحقيبة . ذات الاهداف . ذات التأكيم ذات الرضراض . من نسوة بلاخ . ولك ان تقول بَلْخاء وان لم يذكرها الفيروزابادي

الا بمعنى الحمقاء • هـذا ماعـدا مايشير الى هذه الغبطـة والسعادة من الالفـاظ اشارة صريحة نحو

الجَعْباء	الضخمة الـكبيرة •
الجَلَنْباء	السمينة وكذا الخُنْضبة والخَضَـعْبة والـكَبْـكابة والحوثاء والوعثة
الجِدَبّة	الضخمة •
الدخْدبة	المـكتنزة •
السَمَرْهبة	الجسيمة •
الطُباخيّة	الشابة المكتنزة •
اللُباخيّة	اللحيمة وكذا الدِعْكاية •
المُبَرْنَدة	الـكثيرة اللحم ومثلها المُدكورة
الثأدة	المـكتنزة الـكثيرة اللحم •
الثَهْمَد	السمينة العظيمة •
الرَجراجة	التي يترجرج عليها لحمها •
الضَمْعَج	المرأة الضخمة التامة •
البَيْدَح	البادن وكذا البَلْدَح •
الدَحُوح	العظيمة •
الدُمْلحة	الضخمة التارة •
الصلَنْدحة	العريضة •
البَيْدخة	التارّة .
المُرْمُورة	الناعمة الرجراجة.
الدَخُوص	الممتلئة شحما .
الرّضراضة	الرجراجة .
البِلِز	الضخمة .
الدَحْمَلة	الضخمة التارة .
الدُمحلة	السمينة ومثلها الجُمْـُول .

الرَّبلة العظيمة الرَّبلات .
القِصاف العظيمة .
المُزنَّرة الطويلة الجسيمة .
المُلَمَّظة السمينة الطويلة الجسيمة .
الهَيكلة العظيمة .
الضُناكة الصُلْبة المغصوبة اللحم .
الكِناز الكثيرة اللحم الصلبة .
المُنيِّزة المتصلبة المتشددة .
المُلزَّزة المجتمعة الخلق الشديدة الاسر .
الخَنْضَرف الضخمة اللحيمة الكبيرة الثديين.
القَهْبَلِس المرأة الضخمة ومثلها المُشخنة
الشخيصة الجسيمة .
الدَّيَّاصة اللحيمة القصيرة .
العانك السمينة .
العَبِيلة الغليظة .
المألة السمينة الضخمة .
الوَرِهة. ورهت المرأة كثر شحمها .
وخَطِية بظية سمينة مكتنزة .

وغير ذلك مما لا يمكن استقصاوه . فهل لجناب مولانا القاضى المكرم ولاميرنا المعظم نصف هذه الاسماء والنعوت . انتهى البرهان على الخطأ في استعمال هذه العادة. واقول الآن انه لما كان من الادبار المشار اليه ترضاها الفارياق في الصباح للسفر واعانه على ذلك الخرجي وامرأته ووعدوها برؤية اشياء بديعة في الجزيرة تنسيها مكاره الفراق . فرضيت بعون الله وحسن توفيقه وسافروا في سفينة النار . وقد لطف الله تعالى بان القى القسوة في قلب الربان عليها . فكان اذا سمعها تئن من الالم يغضب ويزمجر ويتسخط على النساء وسفرهن . غير ان بعض الخدمة وكان جميلا

حاول ان ينوب عنه فلم يتمّ له ذلك لقصر المسافة اذا كانت عبارة عن خمسة ايام . وهي في البرّ كافية لتصبيّ خمس بنات وعشر نساء متزوجات وخمس عشرارملة . ثم وصلوا الى منزل الجزيرة واقاموا فيه ثلثين يوما وبعد ذلك دخلوا البلد ونزل كل منهم منزلا لائقا به



الفصل السادس

في وليمة وابازير متنوعة

واخذ الفارياق وزوجته يطوفان في شوارع المدينة وهما في زي اهل مصر . وقد اتخذ هو سراويل واسعة يلتفّ عليه اسفلها من امام ومن ورآء عند المشي . والتحفت هي ببرنس ليغطّي كمّيها اذا كانا يكنسان الارض . فجعل المارّون واصحاب الدكاكين يتعجبون منهما ولم يكونوا يعرفون زوجته انها امرأة . فكان بعضهم يقول ارجل هذا ام امرأة وبعضهم يتعقّبها . وبعضهم يلمس اثوابها ويحدّق في وجوههما ويقول ما رأينا كاليوم قطّ شيء لا هو رجل ولا امرأة . فصادفهما رجل من حذّق فقهاء الانكليز يقال له استيفن . فتفرس فيهما فعرف ان الفارياق رجل وان الفارياقية امرأة . فتقدّم اليهما وقال لهما هل لكما يا رجل ويا امرأة ان تتغدّيا عندي يوم الاحد القابل . قال افضلت قال ان داري في عبر البحر في محل كذا فهلمّا الينا في الصباح قبل الغداء . فلما كان يوم الاحد ركبا في زورق وقصدا منزله فوجداه قد استعد للخروج فكأنّه اراد ان يأتي ببعض معارفه للفرجة على ضيفيه والظاهر انه سكر في الطريق او عند اصحابه فلم يعد . فلما رآهما قال لهما قد وجب عليّ ان اذهب في قضاء مصلحة . ولكن هذه زوجتي وهؤلاء بناتي فاستأنسا بهن ريثما اعود ونتغدى جميعا

فلا لابأس ثم قعدا مع زوجته . وكان في المجلس شابٌ من الانكليز يناغي احدى بنات الفَرْضى وهو آخذ بيدها . ثم جعل يبوسها بحضرة امها والزائرين. فاصفرّ وجه الفارياق واحمرّ وجه زوجته وبرقت اسرّة الام. فقالت الفارياقية لزوجها كيف يبوس البنت هذا الفتى وما يستحيي منا. فقال لها ليس البوس عند الافرنج مما يعاب. فان الزائر منهم اذا دخل بيت احد من اصحابه تعيّن عليه ان يبوس زوجته وبناته جميعا ولا سيما اذا كان في يوم عيد . على ان باس عندهم قد ترد بمعنى مايراد بعدها ولكن هذه عادتهم . قالت ولكن هلاّ يستحيي منا حال كوننا غريبين عنه . قال اذا كان الشي مباحا كانت اباحته امام القريب والغريب على حد سوى . او لعل الرجل قد ظن انّا لانعرف هذه الصنعة في بلادنا . قالت ما اجهل من ظن هذا فانّ القبلة عندنا لاتكون الاّ مع زفير وتنهّد ومصّ وشم وتغميض العينين . فاما هذا فاني اراه يرفّ خلوًّا من احساسٍ فعل المتخفّ بما تحت يده . قال قد يظهر لي من القاموس ان المكافحة والملاغمة والمثاغمة واللثم والفَغم والكَدم والتقبيل انما هو بوس الرجل المرأة في فمها او التقامه له بمرّة . فقالت حيّي الله العرب ائمّة القِبلة والقُبلة . فان تقبيل الجبين كما يفعل هؤلاء لامعنى له . ولكن لمَ كان التقبيل في غير الفم والخدّ خاليا عن اللذة التي يحسّ بها المقبّل في هذين الموضعين . قال لان الظمآن لايروي من وضع فمه على اعلى القلة او على جنبها . قالت فعلى ذكر الظمآ لمَ تصف الشعراء الريق مرة بانه حلو ومرة بانه يروي الظمآ وهو خُلف . قال لعل ذلك من مشكلات الشعر او من معضلات النساء. قالت فعلى ذكر المشكلات والمعضلات هل يستطيب العاشق شرب الرضاب من غير الفم . قال اما عند بعض العرب فلا يبعد واما عند الافرنج فينكرونه حتى من الفم . بل لايعرفون له اسما غير البصاق . قالت فعلى ذكر اختلاف الاسماء ما يقال لهذه الامّ التي ترتاح الى رؤية ابنتها على مثل هذه الحالة هل يقال لها قوّاده . قال انما القيادة في الاصل صفة الرجل اذا كان يقود على حرمه . قالت ان وقوع هذا الامر في شان الام اكثر منه في شان الرجل . اذ الامهات تنشرح صدورهن عند مشاهدة عاشق لاحدى بناتهن . لان الام عند رؤيتها عاشق بنتها تعتقد ان العاشق لايرى في البنت جمالا الاّ ويراه في امّها حالة كونها هي الاصل . وانه لايكاد يحب الفرع دون محبته

لاصله . ثم تماديا في الحديث حتى حان الظهر فاقبلت احدى بنات الفرضي و بيدها كسرة خبز وقطعة جبن وجعلت تاكل وهي واقفة . ثم تولت وجاءت اخرى وفعلت مثلها . وكان للفقيه المذكور سبع بنات وعدة صبيان . فلما مضى ساعتان بعد الظهر قالت الام للمدعوين لعلكما جعتما فانّ وقت الغداء قد فات زوجي ابطا . قالا ننتظره الى ان يجيء . فلما صارت الخامسة اطن جرس الاكل ليجتمع المتفرقون من اهل البيت كما هي عادة ذوي العيال من الانكليز . ثم مضت ساعة واعيد اطنان الجرس وما زالت الساعات تمضي حتى نجزت الساعة الحادية عشرة . وفي خلال ذلك كانت الام تتفقد المطبخ وتسار البنات كانما نزل بهن نكبة البرامكة . فقال الفارياق لزوجته ان لم نذهب الان لن نجد بعدها زورقا ولا مبيت في هذا العبر يصلح بنا . ثم نهضا وسلّما على صاحبة البيت وركبا في زورق ودخلا البلد عند نصف الليل فتعشيا في بعض المطاعم عشاء في ضمنه غداء . ثم لما كان بعض ايام قليلة قالت زوجة الفارياق له رأيت في هذا البلد احوالا غريبة . قال ماهي قالت اني ارى الرجال هنا لا ينبت في وجوههم الشعر ولا يستحيون . قال كيف ذلك . قالت لم ارَ في وجه احد منهم لحية ولا شاربا فهل هم كلهم مرد . قال اجهلت انهم يحلقون وجوههم بالموسى في كل يوم . قالت لاي سبب . قال حتى يعجبوا النساء فانهن يحببن الخد النقي الناعم . قالت لا بل المرأة يلذ لها من الرجل كل مادل على الرجولية . وكثرة الشعر في وجه الرجل هي كعدمه في وجه المرأة . قال وما معنى قولك انهم لا يستحيون هل طلب احد منهم منك فاحشة . قالت ما وقع ذلك بعد . وانما اراهم يحزّقون سراويلاتهم حتى تبدو عوراتهم من ورائها . قال وذلك مما يلذ للنساء على مقتضى تقريرك . قالت نعم ان هذا الزي اقرا مين النساء من زي العرب . فانه يظهر الفخذين والساقين والبطن والعجز غير ان المغالاة في التزنيق مخلة بالادب عند من لم تتعوّد عليه وان يكن في نفس الامر احسن وافتن . ولكن ما شان هؤلاء القسيسين فاني اراهم اكثر مغالاة من العامّة بتبابينهم هذه القصيرة فهذا لا يليق برتبتهم . واقبح من ذلك حلقهم شواربهم مع ان الشوارب هي زينة لوجه الشاب كما ان اللحية زينة لوجه الشيخ . فما الذي اغراهم بهذه العادة وهم ليسوا متزوجين حتى يعجبوا نساءهم . لعمري لو ان احداً منهم ذهب الى مصر لظنه الناس بعض هؤلاء المخنثين

المدعوين خولا الذين ينتفون شعر وجوههم ويتحففون تشبهاً بالنساء فاخزى الله كل رجل يتخنث قال فقلت وكل امرأة تتذكر. قالت نعم وكل من يتبع العادات الفاسدة. انظر العادة هنا كيف جعلت حلق الشعر علامه على الفضل والكمال وعندنا هو سمة النقص والفساد. قال صدقت ولكن اريد ان اسألك عن شيء من حيث ان الكلام افضى بنا الى ذكر ما يشوق الرجل من المرأة وما يشوق المرأة من الرجل. ومن حيث اني اراك قد نشمت في علم هذه الفروق فقولي لي بحق السطح (وكان من عادته اذا سألها عن امر مهم ان يحلفها بسرّ السطح الذي كانت تصعد عليه قبل الزواج) واصدقيني فيما تقولين هل لذة المرأة حين تنظر الى جسم الرجل كلذة الرجل حين ينظر الى جسم المرأة قالت هما سيّان ولعلّ الاولى اعظم. قال فقلت كيف ذلك والرجل لا نعومة لبدنه ولا ملوسة. وقد خصت المرأة بمحاسن كثيرة خلا عنها الرجل وذلك كرقة البشرة ودقة الاصابع وتسوية البنان والانامل وقد شبهت بالعُسوَدَّة والاساريع والعُذْفوط والعَنَم. وكالدَسَع ولين الكَمْس والدّخيس والرواجب وتغطية الرواهش باللحم بحيث يبدو في كل اشجع نونة. وكلطف اليدين وصغر الرجلين ورخاصتها. وامتلاء الرسغين والكعبين وسهولة المشطين. ونعومة العُرْش والعسيب. وجدل الذراعين ومكر الساقين وعظم الحماتين ودملجة الداغصتين. وضخم الوركين والماكمتين والفخذين والبتيلة والبطن. وكنحول الخصر ولطف الكتفين وانحطاط المنكب وصقل الترقوة والترائب والمفاهر. وكالعَنَط والعَطَف وصلاته الجبين وطول الشعر. وكونها رخيمة الصوت ذات نشر خالية عن الحارّ والرَّيش والغفر والسُّربة والاسب (١) وكون اذنها صمعاء حشرة مشرة تدمُرية ومقذّذة

(١) العسودة دوية بيضاء يشبه بها بنان العذارى والاساريع دود بيض حمر الروس يكون في الرمل وفي واد يعرف بظبي الواحد اسروع والعذفوط دوية بيضاء ناعمة يشبه بها اصابع الجواري والعنم شجرة حجازية لها ثمرة حمراء يشبّه بها البنان المخضوب والدسع خفاء العرق فى اللحم والكمس عظام السلامي وعظام البراجم في الاصابع والدخيس لحم باطن الكف والرواجب مفاصل اصول الاصابع او قصبها والرواهش عروق ظاهر الكف والعسيب ظاهر القدم وهو ايضا عظم الذنب والعرش ما بين العير والاصابع من ظهر

او مؤللة مُصعنة • وما احلاها ياعيني مشتفة . واعظم من ذلك كله وابدع بروز النهدين ونهودهما . وَحجمهما ونفجهما . وتكعبهما وتكعثبهما . واصرئبا بهما وتاوّ بهما وتقعبهما وتكتبهما . واكتيثابهما وتقبيهما وتأتبهما وتزيبهما . وتدملكهما وتدملقهما وتزلقهما وتزهلقهما . وسملكتهما وصملكتهما . وزهلهما وتضافطهما . وتفلكهما وتدملجهما وتمذجهما وتصمنجهما وربوهما ونبوتهما . وخظوهما وتوبهما . ونتوبهما وكموبهما . ونموكهما ودموكهما • وبزوغهما وصبوغهما . وشخوصهما ودخوصهما ونتوهما ونعوجهما وتكوفهما وتقبيهما . وتخذبهما وتكظيهما . وتوهجهما وتعلجهما . وتصدرهما وتضبرهما واتبارهما وتكوزهما . وتعرزهما وتلززهما . وتملسهما وتشرزهما . وتعلدهما وتمغدهما . وتأصصهما وتدلصهما . واجمانهما وتنشزهما . وتجبنهما وتشزنهما . وتكتلهما وتلملمهما وتزبمهما وتركوكهما . وارتكاكهما وتشوبكهما وترهرهما وتلوهما . واندماجهما وانفراجهما واقبالهما واعبالهما . وارتبازهما واكتنازهما . ونصهما وعصهما . ودأضهما وضنطهما وقد قيل لهما من جملة اسماء كثيرة المرازان لاحتمال درزهما باليد او الفكر . وشبّها بالرمان والقرموط . وشبّهت حلمتاهما بالعدان . وقد — قالت قف هنا فقد اسهبت في وصفهما وفاتك احسن ما يراد منهما . قلت افيدي . قالت لو جئت بكلمة تدل على التقائهما او قفطهما لكانت خيرا من كثير من هذه الصفات • قلت ليس الذنب عليّ في ذلك فاني لم اجد هذه الدرة في القاموس . ثم قلت هذا وان المرأة اذا كان في وجهها شعر ناعم او زغب ولا سيما على شفتها تستحب عند جميع الناس . فاما الاجرد منا او السناط والازطّ فمكروه عند الله والناس . قالت امّا اوّلا فلانّ المرأة من حيث كانت تعلم انه لاشي في الدنيا يسدّ عندها مسدّ الرجل كان يشوقها منه ادنى شي • حتى لو نطقتَ مثلا امام امرأة بالرُّبعد قولك اعوذ بالله من الشيطان لسبق وهمها الى الرجل . فعلاها على الفور الاصفرار او الاحمرار بحسب توجيهات خواطرها اليه . وكذا لو ابتدأت بنطق الرُّبعد قولك بسم الله . فقلت اللهم لطفك وعصمتك.

القدم والمفاهر لشم الصدر والعطف طول الاشفار والحارّ شعر الانف والريش شعر الاذنين والغفر شعر العنق والقفا والسربة الشعر وسط الصدر الى البطن والداض السمن والامتلاء وان لايكون في الجلود نقصان

هذا قُرحان الطبع وقريحته فكيف بيانعه . ثم قالت اما الصفات الحسنة الموجودة في المرأة دون الرجل على ماذكرت انت وشبب به الشعراء وتباهى به المصوّرون فعدم وجودنا فيه ليس بمانع له من ان يحبّ لان المرأة تعلم انه لاشيء يقر عينها غير الرجل فوجوده على اية صفة كانت مشوّق لها كما ذكرت آنفا . الا ترى ان نساء السودان يحببن رجالهنّ ابلغ من حبّ النساء لبعولتهن في بلادنا وغيرها . ومَثَل ذلك مثل من عنده كتب كثيرة فيها حكايات ونوادر مختلفة . ومثل آخرَ ماعنده الا كتاب واحد يطالعه . فصاحب الكتب الكثيرة تراه منتقلا من كتاب الى آخر حتى يأتي على اخرها وما علق بذهنه منها شيء . ثم يملّ من اعادة قراءتها . وصاحب الكتاب الواحد من حيث كان يعلم انه اذا فرغ من كتابه لايجد آخر فاذا طالع صفحة منه لن ينتقل منها الا بعد ان يمعن النظر فيها . ويحدّس في معانيها . ويحفظها ويعيها ويترسمها ويتذكرها . ويتمثلها ويتدبرها . ويمتحنها ويتوقها ويتصورها ويفلّيها ويطفّلها . وانما ضربت لك المثل بالكتب لاني اراك مبتلي بالمطالعة . وعندي امثال كثيرة غير ما ذكرت . وبعدُ فان في الرجل محاسن كثيرة ذاتية ليست في المرأة . منها فردسة صدره والزَّبب عليه . وارتفاع كتفيه وسعة صدره وشطط قوامه وشبح ذراعيه وكثرة العضل فيهما وعظم يديه وكونه قويا شديدا جلْدبا زخزُبّا شصلبا شنزبا عِرْزَبّا عُصْلبا قُصلبا كثنبا قسنبا قزبا قعنباة قبقبا اصليتا صِفتيا مِصتيتا صتيتا قنعاتا عَلَنْكدا قِسوَدّا أزبر جُحاشِرا ذيمريّا سبطرا قَبَعْثَرا عَبهرا عشَنْزرا قوَعسا صُمُلّا عَبَنْبلا جرهما بُهْمة حُسميا شيَّظما عُجْرما عَزْما عرضا عُرُدْمانا عَشرّما فُسْحُما شرنبثا قاهيا قِنعاسا مُجلجلا ذا جهارة وجُشّة (١) . فهذه كلها نعدّها نحن النساء محاسن في الرجل . وفيه محاسن اخرى اعتبارية وهي صعوده المنبر مثلا خاطبا . وركوبه الجواد وتقلده السلاح . وما احسن الرجل اذا مشى وسيفه يمسّ الارض . ثم قالت لو كنت اعرف القراءة والكتابة لالّفت على الرجال والنساء أكثر مما الّف في جميع العلوم ذلك الشيخ الذي ذكرت لي اسمه سابقا وقد نسيته لكونه ميتا . قلت هو الامام السيوطي رحمه

(١) سيأتي مرادف هذه الالفاظ في آخر هذا الفصل .

لله. قالت نعم اكثر من السيوطي ومن جميع السوطيين. قلت ومن المسوطيين ايضاً. قالت ولكن الذنب على من غادرني بغير تعليم. لان العرب يزعمون ان علم القراءة مفسدة للنساء. وان المرأة اول ماتستطيع ضم حرف الى آخر تجعل منهما كتابا الى عاشقها. مع انها لو خلّيت وطبعها كان لها من حيائها وحشمتها عاضل اشدّ من الاب والزوج. بخلاف ما اذا حُظرت وحُجرت فانها لاتنفك تحاول التملّص والتفصّي مما حُصرت فيه. فمثلها كمثل الماء كلما زاد انبعاثا وجريانا زاد صفاء وانسياغا. او كمثل السائر المسرع فانه كلما زاد اسراعا زاد حسّه ببرودة الهواء اكثر. قال فقلت في نفسي والله لقد احسنوا لو انها تعلمت القراءة والكتابة لما بقي في شعري بيت الّا وشطّرته وخمّسته على غير ماقصدت. اللهم انقل معارفها الى مايفيدوا كفني شرّ المزيد.

حاشية من مرادف القوى الشديد او الصلب الشديد وما في معناهما العُنتُعت الكُنبث الكُندث المكلث المليث المغث العضافج العفضج العلّج الهمرّج الصلودح الصلنقح الصمحمح الصميدح الكردح الكلدح الدحوح الجلندى الجلمد الصلخد الصمقد الضهيد العربدّ العصلد الاقود الذفرّ الذمرّ الذمري الزبرّ الزمرّ الصمعري الضبر الضبطر الضبغطرى العبزار العشنزر القبعثرى القناصر الكمار التريزّ الجلبز الجلاوز الخزاخز الدرامز الدخز الضبارز العضمزّ الواكز العلكز الفيزّ القارزّ الكلزّ الملزّ الحمارس الدخنس الدرامس الدلهمس المتشمس العتريس العكندس العمرّس القلمّس القناعس الهكلّس الهملّس الفرافص الكيّص المتخمّط الضبنطي الضفيطّ العملّط المعلّط الضليع الصدق الدمكمك الصمكيك الصملّك العبنّك العرك الجنعدل الحوّل العرندل العنثل الكتّل الكنبل الكنهدل النبتل البهصم الدلظم المرجم الضرغامة العرزم الفيّم القرشم الهيزم الهيصم.



الفصل السابع

في الحُرتة

قد كان الكلام في الفارياق حالة كونه فردا مُبْرِما فكيف به وقد صار الان زوجاً . فارى الآن تركه على الحالة الزوجية اولى . لان حديثهما هذا كان في الليل فلا ينبغي التكدير عليهما فيه الى ان يصبحا ويذهب هو الى معبّره اي موضع التعبير الذي عين له . ولعل الجناب الكريم ايضاً متاهب بعد حُرْتة هذه الاباز ير الى الفراش . فارقد هنيا . وان حلمت ليلتك شيا فابلغه مسامع الفارياق . فانه اصبح اليوم من كبار المعبرين



الفصل الثامن

في الاحلام

ها هو الفارياق جالسا على كرسي وامامه مائدة عليها كتب كثيرة ليس بينها صحفة من صحف الطعام . وبين اصابعه قلم طويل وبين يديه دواة فيها حبر كالزفت . وقد شرع في تفسير احلام رآها رئيس المعبر في منامه . الحلم الاول رأى الهالج المشار اليه انه سافر الى بلاد الهند فوجد فرسا في الطريق طاعنة في السن ولا سرج عليها . فلما رأته الفرس دنت منه ووقفت وهي تحمحم فجاوزها ببعض خطى واذا بها جرت وراه فلما ادركته وقفت ايضا فقال ان لهذه الفرس شانا . اني اريد ان امسك بناصيتها لانظر ماذا يكون من امرها . فلما مسّها تطأطأت له كالمشيرة اليه أن اركب ولا تخف لعدم

السرج . فركبها حيث كان قد اعيا من المشي وسار غير بعيد . واذا هو بدكان سروجي فنزل عنها واشترى لها سرجا ثم ركب وسار في مضيق حرج فيه اشجار كثيرة. فنشب في رأسه بعض اغصان الشجر ومعه من السير . فحاول ان يتقدم فلم يمكن له واشفق ان يهمز الفرس للاقدام فوقف يتفكر فيما عرض له وهو متعجب جداً. واتفق انه مدّ يده وقتئذ ليحك رأسه فاذا به قد نبت له ستة قرون . اثنان من امام على كل صدغ واحدٌ واثنان من خلف واثنان في الوسط . وكان ذلك الغصن مشتبكا بها كلها . فتوصّل الى ان قطع الغصن من الشجرة لكنه بقي ناشبا في القرون . ثم سار وهو على هذه الحالة فكان كل من رآه يتعجّب منه ويقول انظروا هذه القرون الستة في راس هذا الرجل . وهو غير مكترث بهم . حتى اذا دخل في مازق مظلم تشرف عليه صخور وجنادل صدم بعض الصخور اربعة من القرون . فانكسرت وسقطت وبقي له قرنان من امام فقط . ولكن كان احدهما يميل الى الثاني ويماسه ثم صارا ينحاكان ويصطكان . وكلما اصطكا سُمع لهما صوت عظيم . فاقبلت الناس من بعيد تنظر اليه وتتفرج عليه . فلما ضاق بهم ذرعا وراى كثرة الزحام مانعة له من السير عزم على الرجوع . فابت عليه الفرس ذلك وصارت تثب وتطفر قدُما . وكلما ركلها برجله ازدادت وثبا وتقدما . فنظر اليها كالمتعجب منها فاذا بلونها قد تغير عن اصله . فقال في نفسه لعل هذه الفرس غير الدابة التي ركبها اولا . فنزل عنها ليكشف عن سنها . فلما اراد ان يضع يده في حنكها رفسته وكدمته كدمة شديدة غشي عليه منها . قال فكأنّ الفرس حين ابصرته مجندلا مصروعا رقّت له فجعلت تنفخ في منخريه وتلحس مواضع القرون المكسورة منه حتى افاق قليلا . فطفق يئنّ ويجأر بالدعاء الى الله لان ينجيه مما المّ به . فاشارت اليه الفرس براسها أنِ اركب لنرجع من الطريق التي اتينا منها . فقام متجلدا وركب فلما وصل الى ذلك الموضع الحرج نبتت فيه تلك القرون المكسورة وعادت كما كانت فكان يلمس عليها وهو سائر . فلما امسى عليه المساء نزل في خان ليبيت فيه ليلته تلك. وامر صاحب الخان بان يُعنى بدابّته ويحضر له ولها عشاء . فلما انتبه صباحا وجد السرج قد سرق . فقال لصاحب الخان قد فقدت عندك سرج فرسي وما يتأتى لي ان اركبها بدونه . قال بل انت مبطل فيما تدعيه فانك حين قدمت كنت معرورياً

لها . فلجّ بينهما الخصام وتماسكا بالجيوب . فلما علم انه لاينتفع بشي رضى من الغنيمة بالاياب : وقام الى الفرس وركبها وبقى سائرا الى المساء فوجد خانا آخر في الطريق فبات فيه . فلما اصبح الصباح واراد ان يركب لم يجد اللجام . فجرى له مع صاحب الخان هذا ماجرى له مع ذلك . ثم بات الليلة الثالثة في محل آخر وعند الصباح وجد فرسه بلا ذنب . وبقى كلما بات ليلة يفقد عضواً من اعضاء الفرس حتى بلغ مدينته ساعيا على القدم وغابت عنه الفرس بالكلية . فاما القرون فزال منها اربعة بزوال الفرس وبقى منها الاثنان المتقدمان .

تعبيره

لما القى هذا الحلم القرني على الفارياق اخذ يعبث بشاربيه على عادته ويفرك جبينه بيده ويزوي مابين عينيه . الى ان اهتدى الى تعبيره فكتب بجانبه ماصورته . هذا ماعبّر به العبد الذليل المسمّى بالفارياق لجناب المولى المكرم السيد ذاهول بن غافول عن حلمه الذي رآه في منامه . ان الفرس كناية عن امرأة . والمشي والاعياء كناية عن العزوبة . والسرج كناية عن ادب المراة . . واللجام عن عرضها . والمكان الحرج كناية عن الولائم والمآدب والزيارات التي يتجشمها المتزوج ويدخل فيها راسه وراس امرأته . والغصن كناية عن بعض المدعوين الذين ينشبون في الزوجة . والقرون كناية عن الحالة الزوجية التي يكون عليها الرجل والمرأة . ونبتها واضمحلالها كناية عن تغير تلك الحال ورجوعها الى ماكانت عليه . ومبيته في الخانات عن سفره بزوجته . وغياب الفرس كناية عن فقدها . وباقي الحلم مفهوم بالفحوى والله اعلم . فلما اخذ التعبير وامعن النظر فيه مليا رجع الى الفارياق عجلا وعلى طلعته آثار الغيظ وقال . ان في تعبيرك خطا من وجوه . الاول ان عبارتك موجزة بخلاف عادة المعبرين . والثاني ان الفرس ليست كناية عن المرأة فان المراة عندنا لاتكون دون الرجل اي تحته بل هي اعلى منه . فيجب ان يكون تعبيرك بحسب اصطلاحنا لابحسب اصطلاحكم . والثالث ان اللجام لايكون كناية عن عرض المرأة فان اللجام انما يوضع في الفم وعرض المرأة لايكون في فمها . ولكن ينبغي الان ان تدع هذا وتاخذ في تعبير الحلم الثاني . فاجتهد في التحرير والاسهاب . فعسى ان تصيب وتحرز الثواب .

الفصل التاسع

في الحلم الثاني

رأي صاحب المعبر اطال الله بقاه . وعظم مقامه بين الهالجين واعلاه . انه اراد يوما ان يكتب خطبة يتلوها على القوم في يوم عيد . فاخذ القلم والقرطاس وكتب حرفا واحدا . واذا بامرأة تدعوه من حجرتها ليجور بها . فترك الكتابة وحفد اليها . فلما جور بها ورجع رأى ان قد ضُمّ الى ذلك الحرف حرف آخر بحبر غير حبره. فقال في نفسه ترى من دخل حجرتي وخط هذا الحرف الذي ناسب ماأردت من المعنى . ثم أخذ القلم وكتب حرفا آخر واذا بامرأته تدعوه ليربط لها شراك نعلها . فقام اليها وفعل ماامرته به ورجع فوجد حرفا آخر قد اضيف الى الثلثة الاولى حتى تمت به الكلمة فزاد تعجبه من ذلك . ثم أخذ القلم وكتب كلمة تامة واذا بامرأته تدعوه ايضا ليمشطها الكُمْكُبة او والله اعلم المقدمة : فقام ومشطها برفق ولين ثم رجع فوجد كلمة تامة اضيفت الي كلمته متلائمة بها. فاخذ القلم وكتب كلمتين فدعته امرأته ليجمرها . فترك الكتاب وقام ولما رجع وجد كلمتين تامتين . فلما تكامل له سطر دعته امرأته ليعقدلها عظامتها. ثم رجع فوجد سطرا بجملته . حتي اذا تكامل له صفحة دعته امرأته ايضا ثم رجع فوجد صفحة كاملة . وعند انتهاء الكراس وجد كراسا وقس على ذلك الى ان كمل الكتاب . وكانت امرأته قد فرغت من تفخلها وزينتها . فحمل الكتاب اليها واخبرها بما جرى له ففرحت بذلك فرحا لا يوصف . وقالت له انما حصل هذا ببركة خدمتك لي ومساعدتك اياي على الباسي . فينبغي ياعزيزي ان تواظب عليها فلما كان في الغد فعل مافعله امس من الكتابة والخدمة ووقع له فيهما عين ماوقع له اولا . فزاد سرور كلٍّ منهما به . فلما حان العيد صعد الى المنبر وتلا الكتاب الاول فادهش السامعين ببلاغته وانسجام عبارته ودقة معانيه . حتى اذا فرغ اخذ الناس يطرئون عليه ويقولون

له ماطرق مسامعنا كلام ابلغ من كلامك قط . فقال لهم هذا يُمن الشراك فلم يفهموا ثم رجع الى بيته مبتهجا متهللا واخبر زوجته بما جرى . فقالت له ان نصحي لك ياعزيزي ان تجهد في الخدمة والكتابة فاذا تكامل لك خمسون كتابا تقصد بها بعض البلدان البعيدة فتتلوها هناك . لانه لايمكن لك في هذا البلد ان تتلو خطبة الا في يوم عيد والاعياد هنا غير كثيرة . ويكون من الخسران ان تبقى هذه الكتب الجليلة غير متلوة . فقال لها الرأي مارأيت . ثم انهما تجهزا للسفر الى بعض البلاد المشرقية ومعهما تلك الكتب قد ضمّنت صناديق من خشب الساج نفيسة وانفقا عليها مبلغا جزيلا . فلما بلغا طيّتهما اكتريا لهما دارا رحيبة مطلّة على الحدائق الناضرة ، وارسل مناديا ينادي في الاسواق ان احضروا ياقوم خطبة المولى ذاهول بن غافول في يوم كذا وساعة كذا . ليسمعكم من المعاني البديعة مالم يطرق مسامعكم قط . فحشدت اليه الناس افواجا افواجا ولما استقروا في المجلس صعد سلّما كان قد نصب له فيه . وفتح ذلك الكتاب الاول الذي كان اعجب به قومه واذا به ممحوّ لم يشتمل الا على الحروف التي كتبها بيده . فحاول ان يصل بعضها ببعض ليستخرج منها معنى مّا فلم يمكن له . فنزل عن المنبر خجلا وهكذا انتبه من نومه .

التعبير

هذا مايعبره العبد الفقير الفارياق للمولى ذاهول بن غافول . ان ما توهمته من ضم الحروف والكلمات والسطور والصفحات والكراريس والاسفار الى كلامك الذي اعجب به قومك لم يصلح في غير بلادك لارتباطه بربط العظامة والشراك . والله اعلم فلما بلغت هذه العبارة المشار اليه اقبل الى الفارياق وهو يخبط الارض برجله ويشمخ بانفه قائلا . هذا التعبير افسد من التعبير الاول . وهذه العبارة اخصر من تلك فلا يكاد احد يفهم ماتقول . واذا كان تعبير الاحلام غامضا مبهما كالاحلام فلا موجب لاستخدام معبرين وتكليف الناس قرآة مالا يفهم . فقال له الفارياق هكذا جرت العادة في بلادنا التي هي معدن الاحلام ومنبت التعبير . فان روسكم لم تكتسب هذه الخاصّية الاّ من روسنا . ولولا نحن لما عرفتم ان تحلموا مدة حياتكم كلها ولا حلماً واحداً . قال فكأنّ الرجل انتبه من غفلته وسكن من ثورته . ثم قال قد بقي عليك الان حلم واحد فهاته ،

الفصل العاشر

في الحلم الثالث

رأى صاحب المعبر اطال الله مدة نيابته عن الحالجين . وحقق احلامه مع الفالجين . أن قد نصب له ذات يوم سلّم عال يشتمل على مئة درجة ليصعد اليه و يخطب القوم من اعلاه . فلما حلق لحيته وشاربيه ولبس ثيابه السلمية ارسل من جمع القوم الى موضع معيّن . وكانوا كلهم قد علموا بذلك من قبل وسبقوه اليه لما انه لبث ساعة ينتظر امرأته حتى تقوم من الفراش فيرعمها و يعانقها قبل توجهه . ثم تأبط كتابه واقبل يجري الى ذلك المحشد العظيم ولم يلتفت يمنة ولا يسرة . فلما بلغ الموضع ورأى السلّم منصوبا والناس مجتمعين حوله كاد يطير من الفرح . فقال في نفسه هذه فرصة ماسمح الزمان لغيري بمثلها . فارد اليوم هؤلاء القوم الى بيوتهم بقلوب مثل قلبي واخلاق كاخلاقي . ولو لم اعمل من الصالحات غير هذا لكفى . فقد كُتب اجري عند الله . ثم تمادى في الافكار . وثمل من الاستبشار . واستقبل السلّم وهو مدهوش . وما كاد يصل اليه الا وقد مدّ رجله متفشحا الى اول درجة منه من دون ان يسلم على احد من الحاضرين . ثم افتتح الخطبة بقوله الحمد لله الذي امر بنصب السلّم وارتضاه له عرشا . فسمع احد القيام هذا الاستهلال فانكره . وقال لمن كان يليه ماأظن خطيبنا اليوم الا معتوها . فلست اشاء ان اسمع منه اكثر من هذا ثم ولّى . فصعد الخطيب الدرجة الثانية وقال : وجمع الناس الى هذا المحفل المبارك وكلهم فارش اذنيه للاستماع فرشا . فسمع كلامه آخر من الوقوف فقال هذه الفقرة شرّ من الاولى . فاني لاابالي بكون السلّم عرشا او نعشا وانما اغضب لاذني ان افرشها ثم ولّى . وما زال الخطيب يقول عند صعود كل درجة فقرة ركيكة مثل هذه وينفضّ عنه شخص وهو غير منتبه

لما شمله من الفرح الذي اذهله من رؤيتهم حتى بلغ درجة المئة وقد انفض الناس كلهم عنه . فلما استقر عليها التفت يمينا وشمالا فلم يرَ احدا . فقال في نفسه قد الفت خطبتي وجمعت لها القوم . وهاهم قد تولوا و بقيت الخطبة معي . فمالي لا اتلوها جهرا في هذا الموضع الشريف المترفع عن نجاسات الارض وقذرها . فان لم يسمعوها هم يسمعها الله وملئكته . فانه يقال كلما بعد الانسان عن الارض زاد تقربه الى السماء . ولست ارى موضعا يصلح للخطب اكثر من هذا . ولعلّ احداً من المارين يلتقط كلمة مما اقول فتكون سببا في خلاص نفسه ونفوس ذويه وجيرانه ومعارفه . فان لفظة واحدة من فم واحد قد يكون فيها الموت والحياة . . ومن العيب ان اعود الى زوجتي واقول لها ان الخطبة بقيت غير متلوة . . ثم انه مسح عرقه واصلح صوته وثيابه بعد ان جمل الخطبة على الكتاب وجثا يصلي قليلا ويدعو الله لان يلهم احدا من الناس ان يمرّ به ويسمعه ثم قام ناشطا مسرورا وقال . اسمعوا يااخوتي الاحباء وانصتوا اليوم لما انا قائله لكم . واتفق وقتئذ ان مر به رجل من الشعراء الغاوين . فلما سمعه يقول ذلك ولم يرَ عنده احدا وقف وقال من اطلع هذا المجنون الى راس هذا السلّم . واين اخوته الذين يخاطبهم ام عساه يكلم الجنّ في الهواء ان في هذا لعجبا . ثم صاح به ان انزل ياراجل ولا تعرض نفسك للهزء والسخرية اذ ليس يسمعك من عباد الله احد . فلم ينتبه له الخطيب لانه كان شاخص البصر نحو السماء . فاعتقد الرجل بان به لمماً . فاراد ان ينزله باية وسيلة كانت واخذ في قطع اوتاد السلم واطنابه . فلم يشعر الا والسلم قد تقوض وسقط وسقط معه الخطيب وكتابه على رأسه اي على رأس الشاعر . فتهشم كل منهما وتحطم .

التعبير

لا ينبغي للخطيب ان يكون ثرثارا . وان دوام المولى الطرّاد على الثرثرة فلا يأمن من ان يسقط سقطة تدق بها عنقه والله اعلم .

فكان هذا التعبير انكى له واقهر مما تقدم وذلك لنهيه عن كثرة الكلام ولو جازة العبارة . فلما كان بعد ايام جاءه برقعة فيها ماصورته . حلمت ان رجلا من اصحابي قد اهدى اليّ قنبيطا مما ينبت في سهل الاردنّ . فاتخذت منه عشاء وبت فرأيت اني

دككت اسوار مدينة في الجوّ تشبه مدينة اريحا في حصانتها ومناعتها. فكتب الفارياق بجانبه .

اذا ماتعشّى القُنْبِيط جراضم ... رمى الجوَّ من برج استه بجلاهق
فيفعم ثقْبى منخريه عجاجها ... فيرجع ايضا سبكها كالبنادق

فطالع امرأته بذلك فقالت لعلّ الرجل قد ألِف الان هوآء البلاد فاني اراه ابتدا يصيب . وقد ذهبت عنه تلك الحدّة التي كانت تظهر سابقا في حركاته وكلامه . فساجرّبه انا الان بنفسي في حلم رأيته البارحة . ثم اخذت رقعة وكتبت فيها . رات السيدة ورها زوجة السيد ذاهول بن غافول ان بيدها قفلا مصقولا مجلوّا ذا ثقوب كثيرة. وبيد زوجها مفتاح ذو ثقب واحد وقد صدي . فكتب الفارياق تحته

المرء والمرأة سيان في الميل ... الى العشق وحبّ السفاح
لكنّ ذا مفتاحه قد يهي ... وتلك مامون لها الانفتاح

فلما اطّلعت على المعنى قالت لزوجها هذا ماخطر ببالي قبل تعبيره . فما اقربه الان الى الصواب فخذ له هذه الرقعة الاخرى . فتناولها الفارياق واذا فيها . رات السيدة ورها ان قد كتبت على جبين زوجها عدد اثنين . فلما ابصر نفسه في المرآة حاول ان يمحوهما . فبادرته وامسكت يده فلم يقدر الاّ على محو واحد فقط ولكن بقي الاخر غير ظاهر ظهورا بينا . فكتب تحته

فرض على الزوج ان يكفي حليلته ... في كل ليل ونفل بعده يُرضى
فان تبدّل لفظ الفَرض بالرفض ... تبدّلت هي معنى العِرْض بالعَرض

فاستحسنت البيتين جدا ثم ناولت زوجها رقعة اخرى كتبت فيها . رات السيدة ورها سيدة السيد ذاهول بن غافول انها ترى الاسود بعينها اليمنى ابيض . والابيض بعينها اليسرى اسود . فكتب تحته

رضاء الزوج صعب اىّ صعب ... ولا سيما اذا رات المِعنّا
فتنظر فيك كل الحسن قبحا ... وتنظر فيه كل القبح حسنا

فاستظرفتهما وقالت لزوجها اراه يحسن تعبير الاحلام النسائية القصيرة . فاحلم لى الان ياعزيزي حلما قصيرا واكتبه في رقعة وانا اناوله اياها لننظر هل يستمر على هذه الطريقة

معك اولا . فلما كان الغد جاءته برقعة فيها . رُؤي في المنام شيء مطاول . ثم ظهر لعين الرأي مستديراً ثم مطاولا ثم مستديرا وهلم جرًّا . فكتب الفارياق تحته

قد كنت احسب هيئة الدنيا ... نظر الفرج اذ في القدر يشتبهان

حتى استبانوا انها كالاست تد ... ويراً فقلت تقارب الشبهان

فلما اطلع زوجته عليهما ضحكت وقالت اراه لايتأدب الاّ معي . وانه ليشمّ الامور النسائية شما فان هو الاّ زير نساء . ولكن لاباس في ان تجرّبه بحلم اخر وبعد ذلك نرى ما الذي ينبغي ان نصنعه معه . فلما كان الغد جاءه برقعة فيها . قد رأيت ان يدا خطت على صدغي عدد ثلثة ثم توارت . فمددت يدي الى صدغي لاحكّه فمحت من العدد سنّين فصار الباقي واحدا ذا عوج . فكتب الفارياق تحته

تكلفني زوجي ثلثا ولم أطق ... سوى صرعة والعجز من ذاك لامني

فقلبي وطرفي لايملاّن بتّةً ... كمثلها لكنّ ذلك لايغني

فاخذ الجواب واقبل يهرول الى امراته . فلما اطلعت عليه ضحكت وقالت انه لايزداد معك الاّ جنونا وسفاهة . فينبغي الان ان تدعه حتى حين وقم انت الى الصرعة . فقاما اليها واستراح الفارياق منهما اياما .

الفصل الحادي عشر

في اصلاح البخر

كان قد بلغ مسامع حاكم الجزيرة ان الفارياق قدم اليها لتعبير الاحلام وانه خبير بهذا الفنّ جدا . وان به ملكة ايضا على اصلاح البخر . فبعث اليه ذات يوم بعض حجّابه يقول له ان الحاكم يدعوك اليه اليوم لمسألة مهمّة فلا بدّ من أن تفد عليه . فلما حانت الساعه توجه الفارياق اليه وهو موجس من ان يكون الحاكم قد حلم حلما حكميًا جليلا يعسر عليه تعبيره . لان العظماء لايحلمون الا الاحلام العظيمة . فهم منزهون عن جلاهق

القنبيط ووهي المفتاح والصرع وغير ذلك من الاحوال الخسيسة اللائقة بالصعاليك . فلما مثل بمجلس الحاكم قال له قد بلغني قدومك الى هذه الجزيرة عند الخرجي . وانه قد ضايقك بكثرة احلامه وما كفاه ذلك حتى علم زوجته ايضا ان تحلم مثله . فهل لك الان في تعاطي مصلحة لدينا تخفف عنك احلامه وتثقل كيسك . قال ماهي ياسيدي . قال ان عندنا في هذه الجزيرة قوما بخرا لا يطيق احد ان يفهم منهم شيا اذا تفوهوا لشدة بخرهم . وقد سمعت انك قادر على علاجهم فهل لك في اصلاحهم ولك عندنا المكافأة الحسنة . قال الامر اليك ياسيدي ولكني كاهن المعبّر . قال اني باعث الان الى الخرجي من يخبره بذلك فلا تخش منه ضيرا . قال جزاك الله خيرا انك اهل للخير والفضل . ثم انصرف من حضرته من غير ان يرجع القهقرى . لان حكام الافرنج لا ينكرون على الرجل ان يروا منه قفاه او ظهره او بطنه لا بل بطونهم اظهر من ظهورهم . فلما بلغ الى منزله واخبر زوجته بذلك وكانت قد ابتدأت تهجّى قالت . بورك من يوم اني رايت فيه بدكان جوهري عقدا نفيسا . وكاني رأيت عليه حروفا ظهر لي انها ك س ب ا ل ب خ ر فهل يخرج منها معنى . قال يخرج منها معنى اني اشتريه لك من الدراهم التي تحصل لي من وظيفة البخر . قالت نعم فاني كنت اسمع امّي تقول لابي ان الرجل اذا بذل راس ما تحصل بيده من الاموال في شراء حلى ولباس لزوجته بارك الله له في ذنبها . اي في ذنب الاموال لا في ذنب امراته . قال فما الفائدة اذا من هذا البذل اذا لم تشمل البركة الطرفين . قالت لزيادة جمال زوجته . قال اما انا فراضٍ بما فيك من الحسن الطبيعي فلمن هذه الزيادة . قالت هي تزيدك حبّا اليّ . وتبعث غيرك ايضا على ان يحسدوك عليّ . ويتمنّوا لو اني كنت لهم . قال اللهم اكفني شرّ المزيد . ولكن لابدّ من شرا العقد . فهو اولى من انحلال العقد . فوعدها بذلك فاتّعدت بحمد الله تعالى ولمست جيدها . فلما مضى الشهر وقبض المرتب له انجزله وعده . فقالت هو من دراهم البخر ولكنه احسن من الندّ . لقد قسم الله بيننا اعدل قسمة خذ انت دراهم الهُلج واعطي دراهم البخر . فقد رضيت بهم . قال فقلت لها لا تقولي بهم ولكن بها . فان بهم يرجع الى البخر . قال فهينمت بكلام لم اسمعه كله وانما سمعت من آخره قولها واي ضرر من هم . فقلت لها واي حِزبون انت . فالتفتت الى الباب فلم

رَ احدا فقالت ابن الزبون . ثم استمر الفارياق في الوظيفتين المذكورتين ومعبّرا ومصلحا مدة مكّنته من حل مشاكل زوجته . واتخذ له متاعا فاخراً وآنية حسنة وصار يدعو الناس ويصنع لهم ولائم · وكان للحاكم عادة ان يدعو جميع المعروفين في خدمته الى ليلة عيد يرقص فيها الرجال والنساء بحضرته . وكان من جملة المدعوّين الفارياق وزوجته · فلما رأت الرجال يرقصون وهم مخاصرون للنساء قالت لزوجها . هل هؤلاء النساء ازواج هولاء الرجال قال منهن هكذا ومنهن بخلاف ذلك · قالت وكيف يخاصرونهن اذاً . قال هذه عادة القوم هنا وفي سائر بلاد الافرنج . قالت وبعد المخاصرة ما يكون منهم . قال لا ادري ولكن بعد انفضاض الناس يذهب كلّ الى منزله . قالت اشهد بالله انه ما خاصر رجل امرأة الاّ وباطَنَها · قال لا تسيء الظن انها عادة قد مشوا عليها · قالت نَعم هي عادة ونِعْمَت العادة · ولكن كيف يكون احساس المرأة حين يلمسها رجل جميل في خصرها · قال فقلت لا ادري انما انا رجل لا امرأة . قالت ولكن انا ادري ان الخصر انما جعله الله في الوسط مركزا للاحساس الفوقي والتحتي · ولذلك كانت النساء عند الرقص والقرص في اي موضع كان من اجسامهن يبدين الحركة من الخصر . ثم تنفست الصعداء وقالت ياليت اهلي علموني الرقص . فما ارى فيه لانثى نقص . فقلت لو فتحت الصاد في كل من المصراعين لكان بيتا مطلقا . فقالت يا للفضيحة بين الانام · اتقول هذا الكلام في مثل هذا المقام . قلت هيت الى البيت · فقد كفاني ما سمعت الليلة وما رايت . قالت لابد من ان ارى ختام الرقص · قال فلبثنا الى الصباح ثم انصرفت بها فكانت تقول وهي سائرة نساء مع رجال راقصات . رجال مع نساء راقصون · راقصات راقصون راقصون راقصات · فقلت فاعلات فاعلون فاعلون فاعلات . قالت الرجال والنساء والبنون والبنات · كيف — متى — اين — ثم بعد ايام ورد على الفارياق حلم مشكل في وحش ذي قرون واذناب كثيرة وشيات وبقع شتى في جلده . واراد صاحب المعبر ان يعرف تأويل كل قرن وسرّ كل بقعة · فعسر عليه ايشاؤه فذهب الى منزله مبتئسا متسخطا . فقالت له زوجته ما بك . قال همّ ونكد . قالت ما سببه . قال كلما تخلصت من ورطة وحلت في اخرى شر منها . قد كنت من قبل مداحا للسرى بما لم ارد . ثم صرت عشير المجانين · ثم معبّر الاحلام . ثم

مصلح البخر . وكل ذلك على غير ما اروم فما انكد هذه المعيشة واضيق هذه الدنيا عليّ . اليس في الارض مندوحة عن هذا . قالت خفف عليك ياسيدي ان كل انسان في الدنيا له نصيب من الحزن والهم . حتى المرأة ايضاً لاتخلو من الهمّ فدأبها كل يوم ان تزجج حاجبيها . وتكحل عينيها . وتورد خدّيها . وتخفف خطو قدميها . وتنظر في المرآة مئة مرة كيلا ترى شعرة قد انفردت عن سائر شعرها . ثم تخاطب نفسها في المرآة وتضحك وتتبسم وتتهلس وتغمز وتلوي جيدها وعطفها وتتنفس الصعداء . وغير ذلك لتعلم كيف تبدو منها هذه الافعال في عيون الناس . قال فقلت اهذا وقت الجد ام الهزل انا اقول لك ان للوحش اذنابا وقرونا وشيات لاتحتمل التأويل وانت تذكرين الغمز والابتسام والتكحيل . قالت ليس في كل يوم يأتيك وحش مثل هذا وانما همّ النساء في كل صباح ومساء ضربة لازب . وحسبنا بالغربة همًّا وحزنًا . قلت اما انت قريرة العين هنا وقد تمتعت بالحرّية في الخروج وحدك . وفي رؤية الناس وفي رؤيتهم لك بما لم تعهديه من قبل في دولة البرقع والحبرة . قالت انما ينغصني كوني لااستطيع ان ابلغ اهل مصر اي النصارى منهم قبطيّهم وشاميّهم مايراد من الزواج مما لم يعرفوه بعد فانهم يحسبون ان الله تعالى انما خلق المرأة لمرضاة الرجل في فراشه وخدمته وخدمة بيته فترى طلعة الرجل منهم اذا جاء منزله وواجه امرأته كطلعته حين غاب عنها سواء . وانه ليقعد بعيدا عنها قعدة المستريب المتفكّر . واذا نظر اليها فما ينظر الا الى شعرها ليرى هل به شعث اولا . ثم هو لايصلحه لها امام الناس اذا شعثته الريح وغيرها . ولايلبسها ولايأخذ بذراعها اذا ماشيا بل قلما يمشي معها الا اذا سارت لتنظر اهلها غيرة عليها من ان يكلمها احد في الطريق او يراها فترجع حبلى من النظر بغذّ ومن الكلام بتوأمين . فاذا حضر الطعام تعشى وهو ساكت وجم كانما يأكل شيئا مسموما . وربما كلفها غسل رجليه قبل النوم وتكبيسها حتى يجيئه النعاس . وهو في خلال ذلك يرمش ويرضك ويتثاءب ويتمطى . ثم يرقد دون عفز ولا حفز . وكلما كان عيد لاحدمنا جيف الرهبان تابتل عنها ويلزمها ان تقول له بحضرة الناس نعم ياسيدي . واحسنت ياسيدي . وربما كان ذلك السيد سيدا عملسا . او كان من اكبر الحمقى وكانت هي رشيدة لبيبة فلا يسعها الاّ ان تتجمّل له . ولا يمكنها اذا رات منه غواية ان تردّه الى طريق الصواب . فقد

تقرر في عقول النسوة كي الماء فيك ان عصيانهن النساء طاعة لله حسنة . حتى اذا وقع منكوسا على ام راسه رجع الى امرأته باللوم والتبكيت . قال قلت قد روى عن النخعي انه قال من اشراط الساعة طاعة النساء . فقالت كاني بالافرنج قد حشروا او يحشرون الليلة . ثم استمرت تقول واقبح من هذا كله ان الرجل عندنا اذا كان كهلا لا يستحي ان يتزوج ببنت لم يات عليها بعدُ نصف عمره . فاذا استقرت عنده شرع في تربيتها وتذنيبها وتوليدها من ذي أُنُف وعاملها بالنفاق والدهان . فقد يكون خبيثا فاجرا ويوهمها انه ذو صلاح وتقوى يتورّع من اللهو والسماع وعشرة الفتيان الكيّسين . وما يخطر بباله ان مغايرة السنّ بين الرجل وامرأته هي من اعظم الاسباب الباعثة لها على فركه . بل يعتقد ان مجرد كونه فاعلا وكونها هي مفعولا يقضي له بالمزية والفضل عليها . فقلت ان دعوى الفاعلية ما اراها الاّ باطلاً . فان المفاقمة والمباضعة والمواقعة واخواتها تدلّ على ان الفعل مشترك بين اثنين . وانما الافضلية باعتبار البادي . قالت ليس الابتدآء متعينا على واحد دون الآخر فايّهما بدا صحّ . فلا مزية لاحدهما على صاحبه . هذا وكم من مرة لمجرد هذا الوهم يغادر الرجل امرأته وحدها في البيت ويقضي ليلته عند احد اصحابه . فيتعاطى معه المدام حتى يسكر ويذهب ما عنده من قليل العقل . فلا يقدر على الرجوع الاّ اذا حمل بين اثنين كالجنازة . ثم هو لا يفرق بين ان تكون زوجته حبلى او غير حبلى . فتراه يكلمها وهي في تلك الحالة بعين الكلام الذي كان يكلمها به من قبل . وربما دمق عليها كالضاغب فمناها بمزعبة . اواسمعها الضبغطى والضبغطرى واية ودخدخ وهجاجيك وهذاذيك . او كان عليها دَبُوقاء او لزاقا او طَباقاء او عَباقاء اوعَيابا اوعَباماء . فنهاية رفقه بها وشفقته عليها انما هو ان يشتري لها جارية او يستخدم وصيفة . وليس المقصود بذلك مجرد تخفيف الشغل عنها وانما المقصود جعل الأمة او الخادمة رقيبة عليها حتى لا تخونه في عرضه . ولا اقول في ماله لانه لا يخرج من البيت الا بعد ان يقفل صناديقه . مع ان الجارية لا تكون الاّ ذات ضَلْع مع سيدتها عليه وان شتمتها بين يديه واهانتها : لانها لا يهمها كون سيدتها تحب واحدا من الرجال او اثنين او عشرة . بل يهمها ان تنال عندها الطيب من الماكول والمشروب . فاذا كانت زلّة

سيدتها كما يقال تحت يدها ادلّت عليها بتلك الزلة وتجرأت على ان تطلب منها ما تشاء . لا بل تتمنى ان سيدتها تكثر من العشاق ما استطاعت . لانها تؤمل منهم الصلة والاحسان . ومعلوم انه كلما كثرت العشاق كثرت الصلات . و بعدُ فان من طبع النساء في كل زمان ومكان الارتياح الى شواغل الهوى و بواعث العشق . وان يرين اهل الدنيا كلها مسترسلين اليها ومنهمكين فيها فالجارية التي تكون عند سيدة حرة على فرض صحة ذلك لاتلبث ان تغاضب سيدتها حتى تغري زوجها ببيعها فيقع نصيبها عند اخرى غير حرة . غير ان الرجال مغفلون . نعم هم مغفلون . فاما تبجحهم بكونهم يشترون لازواجهم حليا في ربيع يُسرهم فذلك عائد الى خيرهم . لانهم لا يلبثون ان يسلبونهن اياها في خريف عسرهم وافلاسهم . فاية امرأة ترضي لنفسها بان تقعد في بيتها كالفرس المسرج المعدّ للركوب وهي محرومة من معاشرة الناس . قال فقلت والله ما قلت كلاما احسن من هذا . وهذه اثار النجابة بدت تسطع من طباعك فحياك الله وبياك . قالت وما بياك قلت ليس بشي . قالت ولكنها عندي حسنة للازدواج . قلت كانك تقولين انه من قبيل تزويج لفظة باخرى فيشم منه رائحة الزواج . قالت نعم الزواج سارٍ حتى في الالفاظ . قالت ولكن بقي لي عليك اعتراض وهو انك عرّضت في اول خطبتك هذه البليغة التي افادتني اكثر من خطب صاحب المعتبر باني اصلح شعرك وثيابك امام الناس . او بانه يلزمني ان افعل ذلك وهو مما فات فكري . قالت انك لمّا تفعله ولكن ستفعله ان شاء الله عن قريب . فاني اراك تقدر النساء ولا تبخسهن حقهن واني واحدة من عباد الله هؤلاء



الفصل الثانى عشر

في سفر ومحاورة

ثم لما كان الغد ذهب الفارياق الى المعبر وهو موجس من تعبير الوحش . فجاءه الرئيس يقول قد عنّ لي ان اسافر الى ارض الشام لاجل تغيير الهواء . فان هواء ذلك القطر طيب والاحلام فيه تصح ويسهل تعبيرها . واني اراك مثلي ضعيف القوى ناحل الجسم فتجهز للسفر فعسى الله ان يوفق لنا اسبابه ونعود بخير . فاستأذن الفارياق الحاكم في ذلك فاذن له كرما وتفضلا . فاقبل على زوجته يودعها ويقول . عهدي اليك يازوجتي بادي بدء ان تتذكري السطح فيبعثك على حفظ العهد والوداد . وان تعني بامر ولدي الذي اغادر عندك معه كبدي . واذا اتاك فاسق بنبأ عني فتثبتي . اي اذا قال لك غدا احد ممن حسدني عليك قد مات زوجك في البحر واكله الحوت ولم يبق في عالم الوجود سوى اسمه فلا تركني اليه . قبل ان يرد اليك كتاب مني تعتمدين عليه . قالت ولكن كيف تكتب لي اذا كان الخبر صحيحا . قال فقلت يكتبه لك صاحب المعبر . ولكني ارجو ان اصل سالما وتقر عيني برؤية اهلي واهلك وابلغهم سلامك قالت ألا تعين لي مدة لارسال الكتاب . قلت شهرين . قالت هذا دهر دهار يرابة امرأة تصبر شهرين . قلت نحن سائرون في سفينة الريح فان الطبيب قال لصاحب المعبر انها اوفق من سفينة النار لما في هذه من رائحة الفحم التي تضر بالمصدورين . قالت افعل مابدالك ولكن احذر من ان تفيق وتهوى غيري . قلت انما احذر من الثانية لامن الاولى . قالت لا بل مني فاحذر . قلت انما عنيت اني احذر من الهوى . قالت نعم اياك واياه فانه يزيدك ضنى . قلت ليست البلاد التي نقصدها مظنة لذلك كهذه الجزيرة . قالت النساء والرجال في جميع البلاد سواء . ولا سيما انك الان في زي غريب والنساء كلهن يتهافتن على الغريب . كما ان الرجال يتهافتون على الغريبة . قلت

قد فهمت هذا التعريض غير ان المرأة المصونة اذا دخلت بين جيشين تخرج كما دخلت. قالت نعم تدخل امرأة وتخرج امرأة . قلت واين المصونة اراك حذفتها . قالت في زمن الفطحل . قلت وما الفطحل . قالت دهر لم يخلق الناس فيه بعد . قلت من اين علمت هذه اللفظة الغريبة . قالت سمعتك مرة تقولها فحفظتها وهو دليل على التهافت على الغريب . ثم سكتت مفكرة ثم ضحكت . فقلت لها مم تضحكين امن الفطحل قالت لا وانما ذكرت حكاية عن امرأة سافر عنها زوجها فضحكت . قلت وما هي . قالت كانت امرأة متزوجة برجل يريبها في بعض احواله ولم تكن على يقين مما رابها منه . واتفق انه سافر عنها فحزنت لفراقه لكنها ظلت واجدة عليه . فجعلت مرة تدعو له واخرى تدعو عليه . وقالت وان كان بريئا بلغته دعواتي الصالحة والا فيلحقه غيرها فقلت هل في نيتك اذا ان تحاكيها. قالت معاذ الله ان ادعو . قلت قولي لك او عليك حتى يفهم المعنى . . قالت عليك . قلت لله انت مالي من يديك منجى . فالتفتت الى الباب وقالت ماجاء احد . قلت دعيني بحقك من الزبون ومن من جاء فانا الان على جناح السفر . قالت سر في امن الله ولا ترتب فان للهزل وقتا وللجد وقتا وعرض المرأة هو من الاخير . قلت وهذا ايضا كلام موجه كانك تقولين انه ليس من الامور المقدمة . قالت ألا كن مطمئنا سواء كان من هذا او ذاك فانك ستجدني كما فارقتني ان شاء الله . قال فودعتها والدمع هامل على جيدها وبكت هي ايضا لفراقي فانها كانت اول غيبة عنها . وكان من خلقها اذا بكت ان تبدو في طلعتها لوائح وجد شائقة . وملامح حسن رائقة . والنساء اشوق مايكون اذا بكين . ولكن لايكن كلامي هذا باعثا على ضربهن شلت يدا من مسهن عن غضب . قال فتزايد بكائي لبكائها واحسست ج بلوعة الفراق . ثم اقلعنا وما كادت تغيب الارض عنا حتى ثارت لواعج الاشواق في صدري وخطر ببالي كل ماقالته لي مصبوغا بالوسواس والهواجس . قال ومن كان حلس بيته لم يفارقه ولم تبرح رائحة زوجته فاغمة منخرية لم يدر ما الم الفراق . بعد ليالي الوصل والعناق . ولا سيما اذا جرى ذلك اول مرة . فينبغي اذاً ان اصور لخاطر صاحبنا هذا الحلسي المفغومي بعض ما يقاسيه المحب من لوعة البين . عسى ان يرق قلبه فيدعو لجميع النائين عن احبابهم بقرب الوصل وجمع

الشمل فاقول . ان الفراق طالت مدته أم قصرت قربت طيّته ام بعدت عبارة عن فصل احد المتواصلين وحرمانه من انس صاحبه . وقد تكون لوعته اشدّ من لوعة الموت لان فراق الميت مقرون بالاسف والتحسّر . وفراق الحيّ بهما وبالغيرة ايضاً . وهي في مقابلة اليأس المتسبب عن فراق الميت بل هي اشدّ مضضاً منه . هـذا في حق المتزوّجين المتحابّين فاما في حق الـكارهين فلا اسف ولا حسرة على كلا الحالين. ثم ان المحب المفارق اذا فارق حبيبه ورغد عيشه في غير وطنه . من طعام لذيذ يأكله او مسامرة مطربة او سماع غناء يتلذّذ بهما او رؤية اشياء بديعة ووجوه ناضرة سنيعة تقرّ بها عينه . فاول مايخطر بباله انما هو حبيبه النآى فيقول في نفسه ا لا ليته الان حاضر عندي ليشاركني في هذا النعيم . فاني احسبه اليوم محروما منه بل ربما كان على قلبه غشاوة من الحزن والـكمد . فكيف يتأتى لي ان الهو وافرح وهو محزون . وكيف يمرئني الطعام ويسوغ لي الشراب . وهو الان لعلّـه مُقْتَهٍ عنها وحشة واكتئابا الى غير ذلك من الخواطر المكدرة . والافكار المحسّرة: فاما اذا قاسى جهدا ونكدا بعد فراقه فانه يقول تَبّاً لي وويحا وويخا وويسا وويلاً وويها . ان عيشي الان نكد ذميم . وحالي موحشة وفؤادي كليم . وقد جرى بيني وبين اليفي الاتفاق على ان نكون شركاء في السراء والضرّاء والنعماء والبأساء . واحسبه الان مفتقا منعما . مترفا مترفها . بـرنا برجا برعا طرحا يسامره في الليل كل ربيز ظريف . ويجالسه في النهار كل كيّس لبيب . الا وكأني به اي بها تبتسم الان ابتسامة رضى واعجاب لمن اطرأ على محاسنها وجمالها فقال لها . ليتك كنت تتخذين عوذة تردّ عنك عين الحسود فاني لا اسمح بهذا الوجه المنير الوضّاح ان يراه كل احد من الناس. ولا ينكر ان يتشهق عليك من ابتـلى بامرأة دميمة فان العين حق وان جمالك فريد فما يكون جوابها له الا ان تقول له . ماحسن عينك فانهما تريان الشيء كما هو . فاما عينا زوجي فان عليهما غشاوة . وان من مذهبه الفاسد ان يقول ان العين اذا الفت شيأ مهما كان بديعا فى الحسن قلّ اشتياق النفس اليه . اوكما تقول العامة ماتملكه اليد تذهد فيه النفس . غير اني اخشى من انك اذا اكثرت من النظر اليّ والقرب منّي لاتلبث ان تتمـذهب بمذهبه فتراني على غير ما انا عليه الان . فيقول لها معاذ الله هذا كلام الجهـال . فاما

الصادقون مثلي في الحب • وهيهات مثلي • فانهم ابدا يتمثلون بقول ابي نواس

يزيدك وجهها حسنا اذا مازدته نظرا

واني اشهد الله عليّ وهو خير الشاهدين . وملئكته المقرّبين. وانبياءه ورسله المكرّمين . انك اذا عاشرتني العمر كلّه فلن ترى عيني بشراً احسن منك . فتقول له هذا شان الرجال دائماً من انهم يتملّقون المرأة ليفتنوها ويخدعوها . فمرّة يقولون لها تبارك الخلاق. ومرة افدى الغزال الشارد • ومرة ياسعد من كنتُ له . او طوبى لمن راى طيفك في المنام . وتارة ينظرون اليها وقد غرغرت اعينهم بالدمع . وتارة يزفرون وينحبون . كل ذلك حتى يتمكنوا منها مرة او مرتين ثم هم من بعد ذلك عنها معرضون . وبسرّها بائحون . فنحن منكم على حذر . ولا يخفى علينا ما بطن منكم وما ظهر . فيقول لها معاذ الله • حاشَ لله . استغفر الله • ما شاني شان المتملّقين الملاذين . ولا طبعي طبع الفاسقين . بل ان لساني في هواك ليقصر عن بيان ما تجنه سرائري: وما يخطر بخاطري. فياليتني اعرف لغة اعبّر بها عن فرط وجدي بك وتوقاني اليك . ولو اطّلعت على ضميري لصدّقتني وعلمت اني لست كاحد الناس وان غرامي فوق كل غرام • فاطيلي عشرتي ولو بدون وصال ليتاكد لك صحة ما اقول . فتقول له وقد فتحت لهاتها وزال ضرسها . وما الفائدة في ذلك فان المرأة ليست نجما يرصد طلوعه وغروبه• ولا برقا يشام ليعلم هل هو خلّب او ماطر . ولا احجية يحاول فكّها وايشاؤها • وما يهمّها ان تكون اجمل من سائر النساء وجهاً وانما يهمّها ان تكون اشوق الرجال وافتن . فان التشويق لا يتوقف على الجمال قدر ما يتوقف على حسن الشمائل والمحاضرة والملاطفة والمؤانسة والغنج والدلال والافترار والحدقلة والترنجح والغرنقة والوكوكة والتراد • فيقول لها نعم سبحان من جمع جميع هذه الاوصاف الحميدة في ذاتك الفريدة . فكل ما فيك شائق وكلّ ما فيّ مشوق . فتقول له وقد ازدهر وجهها سرورا واعجابا . قد يقال ان نبض العاشق يكون مضطربا فدعني اجسّ نبضك لاعلم هل ما قلته صدق او لا • فيقول لها نعم نعم خذي يدي فجسّيها واجعلي يدك الاخرى على قلبي • فتفعل ذلك . فيقول دعيني اذاً افعل بك كما فعلت بي لتنكشف هذه الحقيقة لكلّ منا • فتهجث وتحمرّ عند سماعها قوله افعل بك ويضطرب نبضها ثم تسكن وتمدّ له يدها.

فيجسّها باحدى يديه ثم يضع الثانية على قلبها ثم يرفعها قليلا وقد احمرّ حملاقه واندلع لسانه. ثم يزفر زفرة طويلة ويقول

لك الله من قرموطة ملأت يدي   لقابضها قبض على كرة الارض
لأَسْحمها انسان مقلتي الفدا   وكلّ عزيزٍ من متاع ومن عَرَض

فتقول له وقد دُغدغت ولكن عروق الانسان النابضة فيه ليست في يده وقلبه فقط بل هي في سائر اعضائه. فينبغي على هذا ان نجسّ كل عضو فينا لنعلم ايّنا اكثر حركة وانتفاضا ونفضانا ونبضا وازّا ونَبضا وأُزوحا وحَبَضا. اذ لا يصح الحكم على شي الاّ بعد الاستقراء والاستقصاء. فيقول لها وقد طرب وجداً وحبوراً نعم نعم نعم القول ماقلتِ. غير انه لما كان الانسان يجهل حاله وكان من طبعه ان يلاحظ في غيره ما لا يلاحظه في نفسه. كان لا بدّ من ان يكون هذا الاستقراء بالتخالف اي — فتبتدره قائلة قد فهمت ما عنيتَ وهو معلوم بالبديهة ومستغن عن التفسير وهذا هو الذي قصدت • فهات يدك وخذ يدي. حتى اذا جالت الايدي بالجتّ والجس. والمثّ والمس. والنجث والنجش والبحث والمعش. والضبث والفش. والطمث والملش. والفحث والفتش. والقبث والمتش. والمرث والمرش • والمغث والمعش • والنبث والنبش. والنقث والنكش. والنث والنتش. قالت وقد قوى حَبَضها ألاَ هَيْتَ لك. الاهيت لك. فان قولك على ايّ الحالين صدق. فيقول لها لبَّيك وسعدَيك لقد طالما شبحت يدي بالدعاء لان اسمع هذه الدعوة المنعشة وهذه النعمة المطربة — أعَلى هذا كان الفراق • ام من اجل هذا حسّنت لي السفر بان قلت لي ذات ليلة اني ارى بك يارجل فتورا. فلو سافرت الى ارض طيّبة الهواء لعاد اليك نشاطك القديم. فعدنا الى ذلك النعيم افكانت هذه حيلة منك على تغييبي ليخلو لك الميدان فتمرحي فيه كيفما شئت وتتعاطى علم جسّ النبض وحركات الاعضاء • الم يكن لي نبض كسائر الناس فتتعلمي به هذا العلم الجليل. ام تزعمين انه ضعيف لا يصلح لان يتعلم عليه. على انه ان يكن قد ضعف فانما ضعف بسببك. وعهدي به من قبل ليلة عرسنا له ضَرَبان وانتفاض وانتغاض. افهكذا يفعل المتفارقون. وبمثل هذا يخون المترافقون. ايحلّ لك من الله ان تتنعّمي الان وانا في حالة البؤس والشقاء. بطراً تجسّين العروق

واني عَرِق المجسَّة انّ بي عُرَواء الم يكف ما كنت اقاسيه معك في البيت حين كنت اغدو منه كادحا . وارجع اليه رازحا . وكانت همومك كلها عليّ . ولَومك كله متوجّها اليّ . فكنت انصب لراحتك . وأرق لاجحاحتك (١) . والغب لتشبعي . واجهد لترتعي . وابرد لتدفأى . واقلق لتهدأي واتهجَّد لتتهجّدي . وانحل لتمغدي. فقد تبيّن الان اينا ذو امانة . ومداهنة وخيانة . واذ كنت اقول لك ان الامانة فى النساء اقل منها في الرجال . فان الرجل ابدا مشغول البال . مضمضم الاحوال . يلهيه عن اللذات كدّه ونجله . ويصرفه عن هواه رشده وعقله . والمرأة لاهمّ لها الا تشويق الرجال . وفتنهم بها في كل حال . كنت تقولين لا بل المرأة اكثر حشمة وحياء . واقل نهمة ورثاء . واميل طبعا الى التعفف . وابعد خلقا عن التكلف . فان جمعنا الدهر يوما وافضنا في حديث الوفاء . والمودة والصفاء . حججتك بما لا تقدرين معه على الجواب . واظهرت فضل الرجل على كل ذات نقاب . الخائنات الحائثات . المائنات الغادرات : فان ابيت الا الجحد والمكابرة . فالهرواة لديّ حاضرة . واليد للّطم واللّكم مبادرة . فاذا امسكت بناصيتي او جيبي . واذعت بين الجيران عيبي . جعلت لك من الشجاب صليبا او من الذأط نصيبا (٢) ومتى خطر بباله ذلك هاج به الغيظ كل هياج . وودّ لو يطير الى بيته مع العجاج . فينقلب فرحه ترحا وصفاؤه تكدرا . قال غير ان للحزن في مبادئه فائدة . وهي ذود شوارد الامال المغرورة والاماني المحالة الى مراح البصيرة والرشد . بحيث يسكن البال . عن الحوم على موارد المحال . ويستقرّ الحال . على فطم النفس عن الاحتيال . والى هذا اشرت بقولي

وربّ حزن يصون القلب عن سفه ... كما يصون إناءً واهيا صداه

وما انقضى من لذاذات الهوى عجلا ... سيّان غايته عندي ومبتداه

قال واروق الافكار وابدعها ما يخطر في ثلثة احوال . الاول في مبادى الحزن . والثانى في الفراش قُبَيل النوم . والثالث في بيت الخلاء . فان هذه الحال لما كانت عبارة عن تحليل موادّ متكاثفة تتنفس عنها الامعاء والاعفاج . كان هذا التحليل والتنفس اسفل مؤثرا في

---

(١) اجحت المرأة حملت فاقربت وعظم بطنها

(٢) يقال ذأط وذاط وزعط وظأت ودَغت وذأت وذَعت وزعت وزرت وسأت بمعنى خنق

تحليل ماتعقد في طبقات الدماغ العليا في وقت واحد ومكان واحد . فيكون بعض المواد ذاهبا سفلا وبعض الصُوَر صعدا . كالبخار الذي يصعد من الارض فيعقد سحابا ماطرا . فقد عرفت مما مرّ انه يحصل من الحزن من الفوائد ما لا يحصّل من الفرح .لان الفرح يبعث على الطيش والذهول وتشتت الخواطر في اهواء النفس واوطارها المنتشرة . فهو عبارة عن تعدّد اهواء وتفريق خواطر . والحزن عبارة عن ضمّها ولمّها ولهذا كان جل العلماء من الصعاليك المبتئسين وقلّ من نبغ في المعارف من الاغنياء والمترفين . الا ان يكون قد غرس في طباعهم نوع من الزهد والعزوف المقترن بالحزن. قال واحسن ماسنح لي من الخواطر انما كان عن بواعث اشجان . وخوالج احزان . اما من وحشة فراق او من خيبة وحرمان . او من حسد على علم وبراعة اما على مال وثروة فلا . اللهمّ الا اذا كان لمصلحة كانشاء مدارس ومؤاساة محتاج .واني لاعجب من هؤلاء الرهبان فانهم معما هم فيه من الوحشة والحرمان فما احد منهم نبغ في علم او مأثرة . ولو كنت راهبا لملأت الدير نظما ونثرا والفت على العدس وحده خمسين مقامة .ليت شعري كيف يمكن لبشر اذا خلا في صومعته ورأى تحتها الغياض المدهامّة والبحر الساجي والجواري المنشئات . وعن يمينه وشماله الجبال الشامخة المكللة بالثلج وفوقه الرقيع الصافي وامامه القرى والمنازل . ان يقضي نهاره كله وهو يرمش ويُرضك (١) ويتثآب ويتمطى ويملّد معدته من دون تأليف ونظم ولاسيما ان من حسن سنا كنات تلك الديار مايشرح الصدر ويروّح عن البال . فاذا كانت هذه المناظر البهيجة كلها لاتهيج هؤلاء النسّاك على تأليف كتاب فايّ شيء بعدها يهيجها .هذا وان كثيرا من المسجونين قد الفوا وهم في الضنك تآليف بديعة . يعجز عنها سكان القصور الوسيعة . فاما ماقيل عن عبد الله بن المعتز من انه كان ينظر الى اواني داره ويشبّه بها فليس كل عبد كعبد الله . فانا نرى الناس الان كلما زاد ثراهم قل حجاهم . والحاصل ان وحشة الفراق تبعث الخاطر على ابتكار المعاني الدقيقة . وكذلك الصدّ والهجران والاعراض والمطل والعتاب والشفون والدلال والتمنع والتعزز من طرف المحبوب . ولكن ليس محصول هذا الحاصل اغراء الحبيب بهجر محبّه حملا له على النظم .او تعمد الفراق بعثا

---

(١) ارضك عينيه غمضهما وفتحهما

له على وصف مايجده من الشوق واللوعة . فان احسنه ماجاءت به المقادير دون تعرض له . وها انا ابرّي نفسي عند العاشقين والمتزوجين واقول . انه اذا جرى بينكم وحشة اوجبت الفراق. او فراق اوجب الوحشة . او صدّ او هجر او لجاج .اوجدال او اعتلاج او تقافس او تفاقس (١) او صراع بالشغربيّة والشغزبية والقرطبّى والالهاد والدهشرة والظهاريّة والمناشة والبأش والعرضة والتمحّض والمراسغة والتنسّف والتعرّق والاعتقال فما يكون عليّ في ذلك من عتاب ولا ملام . انتهى كلام الفارياق وقد احسن فيه . الا انه لم يحكِ عن نفسه انه كان عند الحزن جزعا جرعا كثير الوساوس والهواجس قليل الحيلة والتدبير غير ثابت الرأي ولا مُضبّ على مافي نفسه فانه لم تكد ارض الجزيرة تغيب عنه حتى طفق يشكو من النساء ومن بطرهن عند غياب بعولتهن عنهن. فسمعه الخرجي وزوجته فقالا له مابالك تشكو لاخوف عليك من تعبير الوحش مدة السفر كلها . واذا بلغت ارضكم ان شاء الله فلا احلم الا الاحلام البيّنة . قال ماشكواي من الوحش ولا الجن بل من الانس . فاني سمعت اليوم كذا واوجست كذا ولعلى ارجع واجد كذا اولا اجد كذا اولا ارجع ولا اجد البتّة . فلما سمعت زوجته بذلك ثارت زبانية سقر من انفها فقالت له . هل بلغ من طيشك أن تسيء الظنّ في النساء المتزوجات . قال قد ظنّ فيهن من ذلك من قبلي الحليم الرزين . قالت ليست هذه الخلة عندنا نحن معاشر الافرنج هذا زوجي مايخامره ريب فيّ . قال ان السيد مشغول بالاحلام بحيث لم يبقَ في رأسه موضع لغيرها. اليس ان عالمكم بيرون يقول أخون ماتكون المرأة مااذا غاب عنها زوجها . قالت انه شاعر وان كلام الشعراء لايؤخذ به في في الحكم على النساء الا اذا كان نسيبا وغزلا . ثم بينما هم كذلك اذا بالريح هاجت الامواج فاضطربت السفينة ومادت ايّ ميد . فلزم كلٌّ مكانه مدّة اربعة ايام حتى ذهل كل من ركابها عما وراه وقدامه . وبعد سفر اثني عشر يوما بلغوا مدينة بيروت وهم جياع تعبون شاحبون مبتئسون . والهالج يترقب اول فرصة من الدهر لهبوط الاحلام. فلما دخلوا البلد كان اول ماطرق مسامعهم من كلام اهلها الركيك قول المخبّر ان اهل الجبل قد خلعوا ربقة الطاعة لوالي مصر وتجندوا عليه. فكان اهل المدينة في شغب

---

(١) تفاقسا بشعورهما تواثبا وفقس فلانا جذبه بشعره سفلا وهما يتفاقسان

واضطراب . وكان دُوار البحر والفراق . لم يزل بميد براس الفارياق . فصعد الى جهة الجبل ليرى اهله فلقى بظاهر المدينة عسكر الاهلين مخيما فهوّل عليه احدهم باطلاق بندقيته فطار نصف قلبه من صدره ولم يزد قلب المهول شيئاً . لكن بعض الناس يرتاح للاذى ان لم يحصل له فائدة . ثم لطف الله به وانقذه من القوم فبلغ منزل اهله . فلما علم قدومه عند اهل القرية اقبلوا يسلمون عليه مثنى وثلاث ورباع . فكان ينظر اليهم ويتعجب منهم لبعد عهده بعاداتهم . فان النساء كن ياتين ويقعدن على الارض . فمنهن من كانت تقعد بين يديه القُرفصاء اوالهَـبنْقة اوالاربعاء اوالفرشحة اوالبرنطة او البرقطة اوالفرشطة او القـعـفـزى . او ثـبـنْجا او احتفازا او امتعاسا اواستيفازا او اقعاء كقعدة القرد وهي مشمرة قميصها فتشفّ سراويلاتها عن ومّاحها . وهي عادة ألِفنها ولا يرين فيها عيبا . واكثرهن تبدي ثديها سواء كانت كاعبا او هضلاءاو طرطبة . ويومئذ افرغ عليه شحن المسائل فمن قائلة مالك يافارياق نحيلا . ومن قائلة وقد صرت ضيئلا . واخرى ما لسحنتك قد كلحت . وغيرها واطلعتك قد قبُحت — ولاسنانك قد قلِحت — وجبهتك لَتِحت — وارنبتك فَطِحت — واساريرك ازّحت — وبشرتك قَسَحت — وشفتك تقرّحت — وعنقك شَقُحت — وعينك لَجِحت وقامتك تفنّحت — وشعراتك تصوّحت — وعجيزتك رَسِحت — وذقنك طُحّت — ولهجتك قَحْقحت . قال فتشاءمت من هذه القوافي وقلت لم يبقَ بعد تعدد هذا الحت الا ان يقلن وتلك قد نكحت . ثم قالت واحدة منهن ايه وهذه هَنَة قد زادت فيك . فقالت اخرى اُوْه وهذا شي نقص منك . ثم جعلن يقلّبنه ويعرضنه كما يقلّب الشاري السلعة . وكلهن يقلن بنغمة واحدة يافارياق اين الطنبور واوقات السرور . اين ابياتك في العقوص والطنطور . انسيت يوم كذا وليلة كذا . قال فكنت مسرورا بمؤانستهن وسلامة ضمائرهن عن المنكر كما هو خلق نسا تلك البلاد . فانهن لايابين من لمس الرجال والدنو منهم ومماسة الرُكَب دون الرُكَب . الا انه كثرت مسائلهن عليّ . وطال قعودهن بين يدي . وانا محتاج الى الراحة والانفراد . ومع ذلك فمجلس النساء مؤنس على كل حال ولا سيما لمن مضى عليه في البحر اثنا عشر يوما من دون رؤيتهن . فلو تفن بعد هذا العهد الطويل لحيته

وشوار به بالمسائل لما لحقه من ذلك اذى . قال واعجب من ذلك اني كنت ارى الامرآء يقعدون على الحصير وعند النوم يرقدون فوقه على فراش واحد . وربما اجتزأوا بالبيض والارز واللبن عن الحمام والفراخ والدجاج من دون شراب ولا فاكهة ولا نقل . وارجلهم ظاهرة فاذا قعدوا على الحصير خلعوا نعالهم بالقرب منه فتبقى بمرأى منهم . وترى بعض خدمهم يقوم على روسهم اي بازائها لا فوقها وفي حزامه الملعقة . وآخر في جيبه الطاس من فضة اشارة الى غنى الامير والى كونه كاحد الناس غير مستغن عن اللعق والشرب . وهو قاعد مطرق لا كتاب عنده فيطالعه ولا سمير له فيسامره ولا آلة لهو تطربه . وقد يقضي ساعات من النهار هكذا بل يوما واياما ولا يرى من امرأة اصلا حتى تعمش عيناه ويظلم فكره وتلقس نفسه وتحرض معدته . فاين هذا من مجالس الافرنج التي تزين بالمتكآت النفيسة وتفرش بالزرابي الفاخرة وتوطأ بالنعال . ولا تزل الحسان مقبلات عليها مدبرات . فمن هيفاء تشرفها بوطأة . ومن غيدآء بطفرة . ومن زهراء بزفنة . ومن وطباء بحركة . ومن دهسآء باضطجاعة . فمن يصبر على هذه الحال فيا امير الناد . وواحد الامجاد . وراكب الجواد . ورامي الجريد على العباد . قل لخادمك حامل الطاس ينح نعليك من امامك . بل البسها وتعال معي الى بلاد الافرنج لتنظر الامراء منهم مخاصرين لازواجهم واولادهم سائرين بهم الى المنازه والحدائق ومواضع اللهو واللعب والطرب . ولا حرج على ازواجهم ان يتبسمن او يملن اعناقهن او يتفرسن او يوكوكن او يحدقن او يحرجلن او يفرجلن او يهرجلن او يهركلن او يتبازين او يتكبين . ولا على اولادهم ان يطفروا ويمرحوا . حتى اذا كحلوا اعينهم برؤية الكحل باتوا ليلتهم تلك على الوثير من الفرش مع وثائرهم . ليت شعري لم لا تضم اليك مع جملة هؤلاء الخفان والوصفاء والبساتقة والهباقة والمهنة والمناصف والنصف والحفد والمقاتوة والخدم والحشم اللذين حولك ثلثة نفر من العازفين بآلات الطرب . ليجلوا عن خاطرك صدأ هم الوحدة والاعتزال في كل يوم عند الاصيل او في العشاء . واذن لي في استعطافك لان تاذن لجيرانك في ان يأتوا هم ايضا ويطربوا لطربك . فيدعوا لك بتأبيد دولتك . وتخليد غبطتك . ودوام بقائك . وسمو ارتقائك . وفي ان اسالك لم لا تعين في العام عيد لمولدك او لمولد السيدة او

الاولاد المحروسين . فيكون يوم فرح وعبوز لك ولجميع من ينتمي اليك . بحيث نصطنع فيه مادبة وتدعو اليها دعوة جفلى لا نقرى . أيّ خبر في رمى الجريد واصابتك به كتف خويدمك العبد الحقير او ضرسه حتى تعطله عن الاكل وانت لاه عن احسن الرمى واصو به واصرده وامرقه . وانت آمن هناك من ان يقال لك برخى برخى بل يقال لك مرحى مرحى. هذا ماعدا ايلام ابطك الفاخر العاطر برمي الجريد. وما الفائدة من وقوف الخويدم بين يديك وفي حزامه الملعقة او على راسه الخوان او على صدره القصعة والباطية او بيده العُسّ والقعب او على عاتقه المائدة او على عنقه القدر. وانت لا تاكل مع السيدة واولادها ولا تأخذ ولدك وتضعه على ركبتك . ولا تحمله على ظهرك ولا تتطأطأ له ليثب فوق رأسك . ولا تحتجره ولا تحتضنه ولا تتوركه ولا تعانقه ولا تحول له خدك ليبوسك . ولا تمكنه من ان يعبث بشاربيك او يعض اصبعك او انفك ليضحك قليلا فاضحك انا كثيرا . ولا تطعمه بيدك ليعرف انك محسن اليه. ولا تأكل شيئاً مما يلوكه . ولا تركبه على جحش وتقود به الجحش ولا تغني له في الليل ليرقد على نغمتك فيقوم في الصباح يغني لك غناء اطرب من غناء القنّس ومعبد وابى البدّاح وسواط والعنشعث وخليلان وعمر بن بانة والزّنام وممدود بن عبد الواسط الربّاني وزلزل وعرفان والجرادتين وابنة عفزر وسلاّمة وشمول وابن جامع السهمي ودُبيس ورقيق وابن مُحرز والمشدود وهاشم بن سليمن ودحمان الاشقر وطُوَيس وابن شريح والدلال بن عبد النعيم وابن طنبور اليمني وحكم الوادي وابراهيم الموصلي . واشجى من

الرُنُم ومن صوت كل دُعبُب غريض الرنم المغنيات المجيدات والغريض المغني المجيد ومثله الدعبب .

ولا تبابئه ولا تغازله .	باباه قال له بابى انت.
ولا تناغيه ولا تباغمه .	باغمه حادثه بصوت رخيم .
ولا تنادغه ولا ترأمه .	نادغه غازله ورئمت الناقة ولدها عطفت عليه ولزمته .
ولا تنغّره ولا ترخُمه .	نغّر الصبي دغدغه كنغّزه ورخمت المرأة ولدها لاعبته .
ولا تهينم له ولا ترغمه .	رغمه مسح رعامه اي مخاطه غير ان صاحب القاموس خصه

بالمرأة بل المتبادر من عبارته انه مسح رعام الرُعموم للمرأة الناعمة فالعفو مرجو منهما على كل حال.

ولا تُرزم لِرَزَمته . ارزمت الناقة حنّت على ولدها والرزمة صوت الصبي .

ولا تتجنّث عليه . تجنّث عليه رئمه واحبه وتلفف على الشيء يواريه .

ولا تقرّمه ولا تسمّته. التقريم تعليم الاكل والتسميت الدعاء للعاطس. (١)

ولا تُفْدى له ولا تُصنيه. افدى فلان رقص ابنه واصناه دهنه بالدهن ووضعه في الشمس .

ولا تدسم له نونته النونه النقره في ذقن الصبي الصغير وكذا الفَحْصة وتدسيمها تسويدها كيلا تصيبها العين .

ولا تبدي له البجبجة . البجبجة شيء يفعل عند مناغاة الصبي .

ولا الحَوفَزَى . الحوفزى ان تلقى الصبي على اطراف رجليك فترفعه .

ولا تقول له حلقةً . قولهم للصبي اذا تجشّا حلقة اي حلق راسك حلقة بعد حلقة.

ولا بَحْباحِ . بحباح كلمة تنبي عن نفاد الشيء وفنائه .

ولا مَحْباحِ . هو كقولهم بحباح ومثله حَمحام وهمهام .

ولا كِخْ كِخْ . يقال عند زجر الصبي عن تناول شيء .

ولا تعنى بدنعه. دنع الصبي جُهد وجاع واشتهى وطمع وخضع وذلّ ولؤم .

ولا بقـقته . صوت يصوت به الصبي او يصوت به اذا فزع.

ولا تكثرث لبأباته ولا لبيبته. بابا للصبي قال بابا وببّة حكاية صوته .

ولا لتغتغته ولا لثغثغته . التغتغة حكاية صوت الضحك والثغثغة عضّ الصبي قبل ان يثّغر.

ولا لتأتاته ولا لدأداته . التأتاة حكاية صوت وهي ايضا مشي الطفل والدأداة صوت تحريك الصبي في المهد.

---

(١) في تعريف التقريم ابهام على فان التعليم هنا يحتمل ان يكون من العلامة فيكون الاكل بمعنى الطعام ويكون المراد به ما اراده بقوله في رسم الرسم خشبة مكتوبة بالنقر يختم بها الطعام وفي رش م رشم الطعام ختمة والا فهو في محله :

ولا لدَغبعـه ولا لحـتارشه دغبع حكاية لفظ الطفل الرضيع وحتارش الصبي حركاته .

ولا لادْرامه. ادرم الصبي تحركَ اسنانه ليستخلف أُخرَ .

ولا لفصيصه ولا لانتداغه . فصَّ الصبي فصيصا اذا بكى بكاء ضعيفا وانتدغ ضحك خفيا.

ولا تبالي بمِـعقاده . المعقاد خيط فيه خرزات تعلق في عنق الصبي .

ولا بقرْزحلته. من خرز الصبيان .

ولا بدرَّاجته . الدراجة الحال التي يدرج عليها الصبي اذامشى .

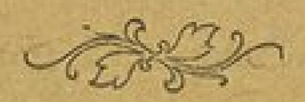
ولا بحقابه . الحقاب خيط يشد في حقو الصبي لدفع العين .

ولا بصُـمتته . الصـُمتة ما أُصمت به الصبي من طعام ونحوه ومثلها السُـكتة.

فبحق عبوديّتي لك ياسيدي ودالّتي عليك الاماوضعته يوما على ركبتك او اركبته على ظهرك . ثم لا بأس في ان تدعه يلعب مع اولاد من هم متّسمون بشرف خدمتك فانه لم يزل بعدُ صغيرا لا يعلم هذه الفروق . ثم لا بأس ايضا في ان تسهر هذه الليلة في حريمك المحترم مع بعض رجال قريتك وازواجهـم ممن يتأدبون في المحاضرة بحضرة النساء. فاني ارى صدر السيدة قد ضاق من الوحدة وماعندكم من كتب او لهو حتى ينشرح بها . ولا غرو ان تستفيدا كلاكما من مسامرة رعيتكما شيئا. فان راس الفقير ليس باضيق ولا اصغر من راس الامير عن ان يشتمل على اراء سديدة مما يخلو عنـه راس غيره وان يكن اكبر عمامه منه واغلظ قذالا . وكيف ترجوان تكون السيـدة وبناتها ذوات رشد ودراية وهن مقصورات في الدار العامرة . ام كيف ترضى لهن وحاشاك الجهل والغباوة وانتم ياساداتي الحكام والمشايخ والـكبراء والمطارنة جربوا مرة ان تجتمعوا باهلكم وازواجكم مع اهل جيرانكم . (ولـكن المطارنة ليس لهم ازواج لتنزههم عن الواج) وان ترفعوا فرق المذاهب من بينكم فذلك ادعى لـكم الى الحظ والسرور . انما الدنيا النساء انما الدنيا البنون . اعلموا رحمكم الله ان الاجتماع بالنساء لايخل بشرف المنصب . اعلموا هداكم الله ان فرق الآراء في الاديان لا يمنع من الألفة والمخالّة اعلموا أصلحكم الله أنّ في حمل الانسان ولده على ظهره وتطوقه برجليه اللطيفتين للذة اعظم من لذة تطويل الجُبب وتوسيع الاكمام وتكوير العمامة

ومن وقوف الخدمة وايديهم على صدورهم . اعلموا فقهكم الله ان العرب لم تخصّ حركات الطفل باسماء الا وهي تريد ان تلاحظوها وتتنبّهوا لها . حتى انها وضعت لحدثه حرفين غريبين في التركيب لاثالث لهما في اللغة كلها وهما الصَّصَصُ والقَقَقُ . اعلموا وفقكم الله ان مستر ومسيو وهر وسنيور انعم منكم بالا واحسن حالا اعلموا نصركم الله ان الفارياق رجع الان الى بيروت واني انا العبد الحقير كاتب سيرته مفكر في انشاء مقامة تسرّ العزب منكم والمتزوج معا .

(حاشية اظن سادتنا المشار اليهم ماسمعوا النصيحة فراح كلامي معهم في الريح) (تنبيه قد اطلت الكلام في هذا الفصل الموذن بالفراق ليقابل فصل الزواج)



الفصل الثالث عشر

في مقامة مقيمة

حدس الهارس بن هثام قال . سوّل لي الخناس . (اعوذ بالله من هذا الافتتاح) الذي يوسوس في صدور الناس . كل غيس وغماس . ان تزوجت امرأة خرّاجة ولاجة . هيّاجة نبّاجة . مرغامة معذامة . لوامة رطّامة . خُبَعة طُلَعة . خليعة جلِعة . تجاوب ولا سؤال وتبارز ولا قتال وتقترح علي اشياء يعجز عنها الدينار وترميني في مهالك دونها النار فكان دأبي ان اصبر مرة عليها عذيرا واخرى ان اشكو اليها فلا تزداد الا شرة ونفورا . اولا ينجع العتب فيها نقيرا . فقلت تالله لأُجفرنّ عنها او اوهم ان بي جفورا اولاضربن في الارض لاعلم هل ارى لها نظيرا . فاخترت الرأي الثاني . بعد التعوذ بالمثاني . وخرجت من بيتي كئيبا مبتئسا . ساخطا على جميع النساء . فبينا انا في بعض الطريق . اذ مر بي سرب منهن يخطر بالثوب الصفيق . والحلى ذي البريق . وقد ارجت الارجاء

بطيبهن العتيق . فرأيت من بينهن الهيفاء والبدين . والغرآء الزهرآء ضرة حور العين . ومهندة العينين. فتاقت نفسي الى وصالهن . وتبلبل بالي بجمالهن . ونسيت ما لقيت من لكاعى في البيت . وقلت ليتكنّ لي لو تنفع ليت . ثم انشدت

ارى للنساء الماشيات حلاوة　　فهل هن حلوات كذا في المقاصير
ولست ارى في الْقَي ان مشت وان　　اقامت سوى مقت وكره وتمرير
اراها بعيني حيث كانت بعينها　　فهل ذو عمى غيري يراها من الحور

فابتدرت اليّ واحدة منهن لها عنق كعنق الغزال . وحاجب كالهلال . وقالت خفف عنك فما انت وحدك في الرجال . ان زوجي قد قال .

افكّر في لئامة طبع زوجي　　فاكره كل انثى في النساء
واحسب انهن مغايرات　　لها فاحبهن على السواء

ثم التفتت اليّ اخرى وجبينها يلمع كالصباح . ولحظها يدمي كالصفاح . وقالت اسمع ماقاله زوجي فيّ . ولا تك من قارفيّ :

تخوض زوجي في كل الفنون وما　　تخشي خطاء ولا ردّا مع الظرفا
تكون غالطة في كل مسئلة　　وليس تغلط يوما ان تقول كفى

ثم تقدمت اليّ اخرى وحبب عرقها كاللآلي . وحالك فرعها كالليالي . وقالت دونك ما نظمه فيّ بعلي . وانظر هل يصدق ذلك في مثلي .

تودّ زوجي شططا انني　　عبد مخيليق لمرضاتها
وان تشهت حاجة لم تُنل　　اكون خلاّقا لحاجاتها

ثم دنت مني اخرى وهي تهتزّ عجبا ودلالا . وتبسم عن شنب ما راى الناظر له مثالا . وقالت هاك ما انشدنيه كفيحي من اول ليلة . آذن منها بالثبور والويله .

لزوجي خلقةً اضعاف مالي　　من الشفتين والفم واللهاةِ
فكيف يُتاح لي اشباعها وهي　　تصرخ كل وقت هات هات
فاما ان تضعّف لي اداة　　والاّ فارتكاب الترّهات

ثم اقبلت عليّ الخامسة . وهي من الخفر كالظبية المكانة . وقالت انشدك ما قال في شيخي في الليلة السادسة . وهو

ان قال غيري قد يقال زوجة فانني اقول زوجي دون ها
اذ لا ارى التانيث في اخلاقها بل الفحول في العراك دونها

ثم تقدمت السادسة . باشة آنسة . وقالت ار وهذين البيتين . عن حليلي الذي اعتاد قول المين . وهما

تراقبني زوجي عليلا وسالما نهارا وليلا نائيا وقريبا
فصرت اذا عانقت في النوم طيف من أحب اراها بالوصيد رقيبا

ثم دلفت السابعة . وكانت ذات حقيبة سابغة وطلعة رائعة . وقالت وفي معناهما قال زوجي المفتري . واجترأ عليّ بما لم يكن رجل على امرأته يجتري . وذلك قوله

تغار زوجي عليّ حتى اذا رأتني مرضت تمرض
فما رأتني في حالة ما الاّ وكانت لها تعرّض

ثم انبرت الثامنة وهي على ماظهر لي رافنة زافنة . وقالت قد سمعت زوجي يتغنى بهذين البيتين . بعد اسبوعين . وهو مطرق الى الارض كمن فقد العين . و بُشّر بالحين . وهما

تودّ زوجي ان لي شانين من مفاضحا
هَن حمارٍ قازحا وقرن ثور ناطحا

ثم استقبلتني التاسعة وهي تفترّ عن لالي . ناصعة . وقالت ونحوهما ماقاله فيّ ابو ولدي . وقد حفظه كثيرا في بلدي وفي غير بلدي .

ان زارني عالم او جاهل بدرت زوجي اليه وخاضت معه في الجدل
فان تجده خبيراً بالبعال تقل كل العلوم انطوت في صدر ذا الرجل

ثم تصدت لي العاشرة . وهي ذات قامة معتدلة وعين جائرة . وقالت وافظع من ذلك. ماينشده رجلي في المنازل والمسالك . وهو قوله

ان يزرني يوما فتى ذو صلاح افسدته زوجي فراح خليعا
او خليع مستهتر اطمعته وعليه غارت وحامت ولوعا

ثم دعتني الحادية عشرة . وهي متمايلة مسبكرّة . وقالت ان زوجي السيىء الظن . قد جازف الكلام فيّ بما لاح في باله وعنّ . فقال

ترى زوجي الرجال فتستقيهم وليس الامر عن حبّ الصلاح

ولكن خوف ان يغشى عليها   من القرم الشديد الى السفاح

ثم مالت الى الثانية عشرة . وكانت قصيرة حادرة . نارة حارة . وقالت عُقما وعقرا . عن مثل زوجي الحرّا . فانه هجا النساء طرّا . اذ قال

ليس العفاف من النساء سجيّة   لكنه سبب الى الافساد

كالضرس تقلعه ليسلم غيره   وعلى الذي باينت حزنك باد

فقلت لاجرم لاقصدنّ منتاب هؤلاء الشعراء . ولاتخذنهم لي عشراء . فعسى ان آنس منهم رشدا . واجد عند نارهم هدى . فان من كلامهم لحكما ومن أمّهم لا تمّا . وكان من عادتهم ان ينفردوا عن القوم . في كل يوم . ويتذاكروا امور الدنيا من العصر الى المساء . ولا سيما امور النساء . فاستقصيت عن محشدهم . ودُللت على مقصدهم . فاذا هم بجملتهم قاعدون على دكة عند البحر . وقد ضربوا لهم سرادقا يقيهم من الحر . فسرت اليهم . وسلمت عليهم . وقلت هل لكم في ان تجالسوا من يمُتّ اليكم بالوداد . وقد بلغه من كلامكم ماوخاه اليكم عن رشاد . قالوا مرحبا بالقادم . وان يكن غير منادم . فلما استقر بي المجلس انبرى واحد منهم يتبس . قال . لابدّ لي من ان انهي ماشرعت فيه . وظهر لكم مكنونه وخافيه . نعم لمن خُلق هذا الكون الاّ لهن . واي رجل مانالَه محالهن . وعناه وصالهن . ومنّاه محالهن . فهن المتمتعات بدرز الدنيا ونعيمها . ولذّاتها وطعومها . وحليها وجواهرها . وتحفها ونوادرها . يقترحن علينا الممكن والمحال . ويكلفننا امورا دونها دق اعناق الرجال . لكل عضو من اعضائهن حلْي يزينه . وربما اتخذن له اثنين وثلثة ولا تزينه . ثم ابتسم كاشرا عن نابه . واستمر في خطابه . وبكلّ جارحة منا جراح منهن لاتوسى . وحزازات لاتنسى يتهالك في حبهنّ المالك والمملوك . وسواء في الحاجة اليهن الغني والصعلوك . وانهن يرمين الرجال في مهالك ومضايق ومرابك . ليكفوهن مؤنة الاطيبين . ويفيزوهن بفرص البين . فيخوضون البحار . ويقتحمون القفار . ويعرضون انفسهم لحد السيف . ولحرّ الصيف . وبرد الشتاء . وذلّ الاختتاء . ودهمات الاعداء . ودغمات الارداء . ومقاساة الظما والسغب . ومعاناة الشقاء والتعب . ومداراة الرقيب . ومباراة المعيب . والاغضاء عن الشين . والافضاء الى الحين وطالما قفل احدهم الى بيته فوجد فيه قفل عرضه مفتوحا

وسر امره مفضوحا . فرأى في موضعه ضَيْزنا وزبونا . وقرينا وقرونا . وكثيرا ما آب وقد شُتِر شدقه . او وُقصت عنقه . او كسرت ساقه . او اِنْيف حملاقه . اوضاع ماله . وساءت حاله . فاول ما تبتدره به من الكلام . قولها له قبل السلام . اين الطُرفة . وكم من نُحْلى ونحفة . ولو انك كسوتها حلة بوران . واسكنتها قصر غمدان . واطعمتها افخر الالوان . وسقيتها من الرحيق من يد الولدان . وطربتها بالعيدان ونزهتها في رياض الجنان . وحملتها على الاكتاف . وواليت عليها الالطاف . لما رأيتها عنك راضية . ولا لحاجتك قاضية . والويل لك ان ناهزت الخمسين . وعجزت عن التموين . او بدا الشيب في عارضك عند الاربعين . أو اصابك مرض في بعض السنين : وهي عند ذلك تتفتى وتصبى . وتتصبى مَن يرضى ومَن يأبى . فتغادرك في الفراش منهوكا . وتلازم الشباك وتشير منه الى من يلبّيها وشيكا . أن اغتنم من الدهر هذه الفرصة . فما من دونها غصّه . اذ هو في الفراش لا يعقل ولا يعى . ولا يبصر من يكون معى . ثم تأتي اليه فتقول اوص يارجل فقد ازف رحيلك . وجفاك طبيبك وخليلك . وملّك عائدك ومقيلك . وانت خبير ياذا الحليلة . بانه ان يعجزها في الاجهاز عليه حيله . وانها اذا رامت ان تتخذ في كل يوم خليلا ألفته وراء الباب عتيدا فعولا . معاودا وصولا . فوسيلتها اليه غمزة بعينها . ومُنيتها لديه شُخبة تطفي اوام غينها . بخلاف الرجل فانه لا يزال بحرفته مشغولا مكبلا بهمه معقولا . او يخشى انقباضا وترويلا . او صرف درهم لن يجد منه بديلا . فكيف يقال ان الرجل والمرأة في التكفل بأذل المغارم سيان . وفي التكلف لحمل المغارم عديلان . فهل فيكم من مجيب . عن هذا الامر المريب . فتصدى له الذي هجا النساء جميعا . وقال دونك الجواب سريعا . فكن له سميعا . وللحق مطيعا . اني انما هجوت النساء لا من حيث انهن اسعد منا واسلم آفات . او اقدر على اللذات . وافوز بالمسرات . بل من حيث انهن خلقن لنا فتنة وضلالا . وعذابا ونكالا . فما قلته فيهن فقد قلته عن حسد . وما اقوله الان فهو عن تحرّ ورشد . ان المرأة ما دامت في بيت ابويها عانسا لا تزال محظورة لا ترى لها اليفا ولا مؤانسا . واخوها اذ ذاك يرتع ويلعب . ويلهو ويطرب ويسافر ويتغرب . يالف من يالف ويصحب من يصحب وكلما زاد مرحا زاد ابوه ابتهاجا به وفرحا . فاذا تزوجت صارت تحت حظر بعلها وصار هو مالك

ناصيتها وولي فعلها. فلا تكاد تخرج من بيتها الا باذنه. ولا تأتي امرا الا اذا استوثقت فيه من أمنه. فان قال لها لك ان تفعليه. كان كالممتن عليها بتراث ابيه. وان قال لن تفعلي وجمت وعبرتها كالولي بنار وحسرتها تصطلي. ثم ان عليها ان تتملقه اذا سخط مخافة بطشه. وان تقوم بخدمة رحله وحفشه وتطبخ له كل يوم ما يقترح عليها. وتجدد له من قديم متاعه مايلقيه اليها. وتحفظ نضده. وتقوم اوده وتربي ولده. فكم ليلة تبيت تدار به فيها وهو يملأ المكان غطيطا. وجخيفا ونحيطا فهي التي ترضعه وتفطمه وترشحه وتسرهده. وترعاه وتتعهده. وتوقظه وترقده وتلعبه وتلهيه. وتعلله وتراضيه وتوانسه وتسليه. وتجالسه وتغنيه وتنظفه وتمشطه. وتمرضه وتحوطه. وتمشيه وتحمله وتستدرجه وتنقله. وتغسله وتلبسه وتعطره وتطوسه. وتدفئه وتلبئه. ألبأه اطعمه اللبأ لاول اللبن

وتدادئه وتهدئه. الداداة التحريك والتسكين والاهداء التسكين.

وتزقزقه وتباغمه. الزقزقة الترقيص كالزهزقة والمباغمة تقدم ذكرها.

وتربته وتهمهمه. التربيت ضرب اليد على جنب الصبي قليلا لينام والهمهمة تنويم المرأة الطفل بصوتها.

وتهدهده وترغمه. هدهد الصبي حركه لينام والترغيم تقدم ذكره.

وتداعبه وتطايبه. وتدندن له وتقاربه. قاربه ناغاه بكلام حسن.

وتهدنه وتصربه. هدن الصبي ارضاه والصرب عقد بطن الصبي ليسمن.

وتدغره وتضببه. الدغر رفع المرأة لهاة الصبي باصبعها وضبب الصبي اطعمه الضبيبة. وهي سمن ورب يجعل له في عكة.

وتذربه وتذربه. التذريب حمل المرأة طفلها حتى يقضي حاجته.

وتقرمه وتجوربه. التقريم تقدم شرحه وجوربه البسه الجورب.

وتجلسه وتنسسه. نسس الصبي قال له إس إس ليبول او يتغوط. قلت والقياس ان يقال ايسه.

وتعوذه وتنجسه. التنجيس تقدم ذكره في الفصل السادس عشر من الكتاب الاول.

وتقمطه وترسعه. رسع الصبي شد في يده او رجله خرزا لدفع العين.

وتزينه وتزهنعه. هذا ولو لم يكن للمرأة من غصة في الاجل غير الحبل لكفي،

وذلك لمقاساتها بعده اذا كان من بعلها . ما لا يقدره غير مثلها. ولافتضاحها به من غيره . على فرض عدم شعورها بضيره . فقد قالت العلماء ان وضع المرأة جنينها من غير حليلها غير ذي الم . لكنها يعقبه بعض السدم . ثم ان المرأة ممنية ماعدا ذلك باحوال عسيرة. واخطار كثيرة . وذلك كاحمالها وحِسّها وعَيفتها وأفلها وتوجيبها وكاحشاشها ودِحاقها . واسقاطها وازلاقها . قبل الوضع وبعده (١) وكنفاسها مدّه . هي برزخ بين الموت والحيوة وعدّه . وكالقرء الذي ياتيها في كل شهر . وغير مرة يعنيها بالبُهر . لانه اذا تاخر عن وقته اضنى ظهرها . وان قل او كثر اضنك صدرها . واذهب صبرها. وكوحمها وتفرّثها . وتانفها شهوات في مدة الحبل كثيرة . لا يمكنها الصبر عنها وان تكن ذات مِرّة . وهي ح جائشة النفس ضَبِستها . وجاشيتها ولقستها . واهية القوى . واهنة الشَوى : وغير ذلك من العلل والاحوال . التي سلمت منها الرجال . ومَن نظر بعين الرشد والانصاف . لم يتمحّل للخلاف . قال الهارس فكأن الخصم انكسرت شوكته وفترت سوْرته فعارض بالمواربة ثم خشي المشاغبة . فقام احدهم وقال حسبنا ياقوم ماسمعناه ودعُوا الفصل اذا مارجعنا . ثم انفضّوا والادلة معتلة والعقدة غير منحلة . فقلت عسى ان اصادف من عنده بذلك الخبر اليقين . واكفى مؤنة السؤال والتخمين . فقد رايت الاثنين كفرسي رهان وفارسي علم وبيان يد اني اخالها قد نطقا عن الهوى . ولم يتحرّيا الصدق الذي ينبغي لمن حدث وروى واذا بالفارياق . يهرول في بعض الاسواق . وبيده زنبيل يودعه من المأكول ماحسن لعينيه وراق . فامسكت من فرحي بالزنبيل . وقلت الدليلَ الدليل . قال هوجوع بُرقوع يُرقوع بركوع . لاينبغي ان يقام عليه دليل ولا برهان . ولا بيّنة ولا شاهدان . وان القاضي نفسه لأجْوع الناس الى الُمْجة . واسبقهم الى الغُمجة . وان شئت فقل الى الغَنيجة . فقلت انما الدليل على تلك . ولك الامان على مافي زنبيلك . من المِلاك .

---

(١) الاحمال ان ينزل لبن المرأة من غير حبل والحسّ وجع ياخذ النفساء بعد الولادة والعيفة هي ان تلد المرأة فيحصر لبنها فى ثديها فترضعها جارتها المرة والمرتين والافل ذهاب لبن المرضع والتوجيب انعقاد اللبا فى الضرع والاحشاش يبس الولد فى البطن والدحاق تخرج رحم الناقة بعد ولادها والتفرث غثيان الحبلى .

قال ماخطبك • ومم كربك . افي حديث النساء كنت تخوض مع الخائضين . وتحرض مع الحارضين . قلت بلى لامر ماجدع قصيرٌ أنفه • والمقدور غادر الاليف إلفه . ثم اخبرته بما جرى لي فى البيت ومع النساء وعند الشعراء . وقلت افدني الجواب بغير مراء • فاطرق ساعه . وقال ها كه على قدر الاستطاعة • فان الجوع قد ابدى في خراءه . ولم يغادر بي للشعر خواطر صداعه • وهو

تكافأ الزوجان في اللذّات ‏ ‏ واستويا في أرب الحياة
قومي اقعدي مثلُ لهات هاتِ ‏ ‏ وطاوعي ندّ لآتِ ات
والمرء في الصبى على النزّات ‏ ‏ اقدر او أجرا من الفتاة
لأنها كثيرة العِلاّت ‏ ‏ غير القروء ساء من شكاة
حتى اذا ماقيل كهلُ عات ‏ ‏ دار لها الدَّوْرَ الى ميقات
غايته الستون للشطّات ‏ ‏ وبعدها عُدّا من الرُفات
نعم يسوء المرء بين النات ‏ ‏ ضعف له اذ ذاك في الاداة
لكن لها من اعظم الغصّات ‏ ‏ المجرضات جَرَضَ الممات
أن تبتغها ياتى من اللّدات ‏ ‏ وهى تريده فى الأوّات
كل له سهم من الهنات ‏ ‏ مُوَرَّبُ حتى الى الممات

ثم عدا بزنبيله • وجعل يخوّفه ويعيث في قليله . قال فصدعني بالحق أي صدع. وعلمت انه غير ذي ضلع . فملت الى موادعة زوجتي • وتسكين هوجي ونوجي • فاتيت منزلي . فوجدتها دائبة في عملي . فاكبيت على عناقها معانقة المشتاق • وانبأتها بما قاله الشاعران والفار باق • فقالت جزاه الله عني خيرا • ولا اراه في غربته ضيرا • ثم اتفقنا على الوفاق • وتعاهدنا على حفظ الرفاق .



الفصل الرابع عشر

في جوع دَيْقُوع دهقوع

لما رأى الخرجي ان سكناه في بيروت لاتصلح لجسمه ولا لرأسه عزم على الشخوص منها الى الجبل . فأُلقِيَ في روعه ان يسكن في دير للروم . فسار بزوجته وبالفارياق فاقاموا في قرية تحت الدير يومين . وكان يانس بالفارياق بعض الحسان منها ويواكله . فلما علمت احداهن انه صاعد في الغد الى الدير طفقت تبكي . فكأنما ظنت انه نوى الرهبانية . فظهر له انها خالفت عادة النساء لانهن يحببن الرهبان اكثر من العامة . فان فتنة النساك العباد تتوقف على رَوم وكيد ابلغ وهو مما يلذ للنساء او بالعكس . حتى اذا رأينهم طوعا لهن رجعن بعد ذلك الى ما كنا عليه ليختبرن جميع ضروب الحب فلا يفوتهن منه شي . والحاصل ان الفارياق بُكي على فراقه هذه ثاني مرة في عمره حتى صار يحسب في عداد المحبوبين . وانه ذهب في الغد الى الدير واتخذله فيه صومعة بلا قفل ولا مفتاح فصار من جماعة باعِرْ بايْ (الذين ليس لابوابهم اغلاق . قلت وهو بناء غريب) وكان ذلك الدير منتابا لجميع اهل القرى المحيطة به . فانهم كانوا يودعون فيه امتعتهم خوفا من هجوم العساكر المصرية عليهم . لان الدير حَرَم آمن . وكانوا اذا جاؤا اليه يدخلون جميع الصوامع من غير محاشاة ومن جملتها صومعة الفارياق . فكانوا اذا وجدوا على فراشه اوراقا فيها تفسير حلم او غيره تلقفوها وقرأوها . فمنهم من كان يفهم منها قدر مايدور به لسانه . وآخر قدر مايدور به رأسه . وآخر قدر مايدور به جسمه كله فيوليه ظهره ويخرج . ومنهم قدر ماتدور به يده فيرفعها ليبطش بالكاتب والمكتوب معا . ومنهم من كان يسخر منها ويقول انما هي اضغاث احلام . ومنهم من كان يقول انها لاتصلح لوقت الحرب ولم يجد منهم من استحسنها . وكان يدخل ايضا مع هؤلاء الدامقين دامقات فيهن من يجب تلقيها باهلا وسهلا ومرحبا . وفيهن

من تجدر بواحد من ذلك فقط . وفيهن من تجدر باثنين مواترة . وفيهن من لاتصلح لشيء . وكل ذلك كان يمكن تحوله اذا حمل بعضه على بعض. الا الجوع الذي تسبَّب عن تعطيل الطرق فانه كان لايطاق . مع ان الفارياق كان قد خرج من عناء سفر البحر الذي مناه بالصيام اياما متوالية . فكان لابدّ له من الامج . فمن ثم كان يذهب الى القرية و ينادي يامن عندها دجاجة للبيع فتبيعني اياها . فكان بعض النساء يجبنه هذه الدجاجة السارحة مع الدجاج في الحقل اريد بيعها . فان اردتها فاسع اليها واقبضها بيدك . فكان يسعى وراء الدجاج و يطفر معها على الجدران . فان ساعده الحظ على كسر ساق احداها او اعيائها قبض عليها . وكان عند جريه وراءها يجري معه خاطره فيقول في نفسه . . انا اجري الان وراء دجاجة فهل زوجتي تجري في الجزيرة وراء ديش . وينبغي لي ان اقف قليلا عند هذا الجرى واقول . قد ذكرت سابقا ان الفارياق كان ذا هوَج ونزق وجزع . فكان من طبعه اذا غاب عن اهله ان لايزال يقابل حاله بحالهم بالمقابلة الاطّرادية وبالمقابلة الامتيّة . مثال الاولى قوله انا اجري وراء دجاجة فهل زوجتي تجري وراء ديش. وقوله مثلا وهو لابس هل هي في هذا الوقت عريانة . وفي حالة كونه قائما هل هي الان مضطجعة . وقس على ذلك. ومثال الثانية انا اجري الان وراء دجاجة فهل يجري وراءها ديش على ان خبز الدير والقرى كان مخلوطا بالزؤان . فكان الفارياق اذا اكل منه خيّل له انه لم يزل في السفينة عرضة للتنائين . ويتأكد عنده ذلك بدخول احد الرهبان عليه وهو على تلك الحالة . فلما ضاق بها ذرعا نظم ابياتا وبعث بها الى رئيس دير غير الدير المذكور وكان يظن ان عنده غناء . وهي .

ليت شعري ماذا يفيد البيان	مع خواء البطون والتبيان
وفنون البديع من غير اكل	تستشيط اللهى بها واللسان
هاك الف استعارة برغيف	وبخس نحسٌ تفتازان
ايها المعربون هبّوا فما من	ضرب زيد عمرا يرص الخوان
اين اين الكباب والرز والبر	غل تصغو من فيضهن الجفان
ذهبت دولة الطبيخ وجاءت	نوبة الجوع امّها لبنان

يالها من معرة نبعث الديـ ـار مالن يعبا به انسان
ليس بيع ولا شراء بارض قد قضى عيشها وعاش الزوان
طال مكثي في الدير حتى كأني راهب لاترضى به الرهبان
اذ راوني وحول الكتب والاقـ ـلام مما عنه نهى المطران
انا في وحشة من الانس وحدي لاتراني فلانة وفلان
عيشة لو اريتها في منام ماشجتني من بعدها الالحان

فبعث اليه الرئيس بارغفة لازوان فيها ومعها هذان البيتان

وصلتني الابيات يافرقيان انما نحن في الدنيا رهبان
ماعندنا طعام كما تشتهي ولا نبيذ ولا نسوان

فهرول اليه الفارياق ليعاتبه على تغيير اسمه . فرأى في الدير احدى نساء الامراء كانت قد جاءت الى الدير استئمانا من العساكر فلما رآها قال له قد شفع الخبز ياسيدي في وزن البيتين ولكن لم غيرت اسمي . ثم تذكر السيدة فقال وقلت ايضا انكم رهبان وما عندكم نسوان . وها انا ارى عندكم سيدة زهراء قد ملأت الطنفسة شحما ولحما قال انما غيرت اسمك لاجل القافية وهو جائز للشعراء . واما قولي ماعندنا نسوان اي ليس لنا ازواج . ولكن لاننكر ان عندنا نساء غيرنا يزرننا احيانا للبركة . قال من ايكم يحصل ذلك . فلم يفهم لكن السيدة فطنت لذلك ودعته الى الاركيلة المعروفة فلبث عندها ساعة شفعت في تغيير اسمه ايضا وآب الى صومعته راضيا. فوجد رئيس المعبر قد تعكبش في رأسه غصن من اغصان الحلم الاول فزاده خبالا . فكان يقول اذا سمع صوت الطبول من خيام العسكر واذا ابصر بريق سلاحهم . ألا تسمعون طبل الشيطان . يضرب به بعض الرهبان . الاتبصرون قرون الشيطان. كيف تتقد منها النيران. اذ تحتك بها النسوان . والسيدة زوجته غير مكترثة بصراخه ولا بتخييم العسكر قرب الدير لان حب الغصن لم يدع في قلبها موضعا لغيره ثم من الله تعالى باصلاح الحال فسارت العساكر من البلاد وامنت الطرق والمسالك وسكن صاحب المعبر . فرأى ان يذهب الى مدينة دمشق ويمر ببعلبك ليرى قلعتها العجيبة . فاكتروا لهم خيلا وبغالا وعزموا على السفر

الفصل الخامس عشر

في السفر من الدير

ركب كل من الفارياق والغصن بغلا وكل من السيدة وزوجها فرسا . وانضم اليهم ركب وساروا يقصدون دمشق . حتى اذا كانوا في بعض الطريق اجفل بغل الفارياق لوهم خطر له فقمص به وشمص . فالقاه على ظهره فوقع على وركه على صخر فقام يخمع مع الخامعين . فجزع عليه صاحب المعبّر اشفاقا من تعطيل مصلحة التعبير . وشمتت به زوجته اذ كانت تحسبه رقيبا عليها وعلى غصنها . وكذا مساآة الرجل قد تكون مسرة المرأة . وهنا ينبغي ان تضيف الى معلوماتك الواسعة هذه القضية • وهي انه لاشي من انواع السفر اشق من الركوب على هذه البغال العاتية فانها بلا سرج ولا لجم ولا ركب . وقد جعل لها هؤلاء المكارية الحمقى بدل اللجم حبالا تتصل بسلاسل من حديد جافيه • يمسك الراكب بيده سلسلة فاذا شرد البغل وهنت يد الممسك بها عن كبحه . والعادة انه متى شرد بغل شرد سائر البغال . ثم اجفل بغل الغصن فمال عن ظهره وتعلقت رجله بحبل فتدلى راسه يخبط على الارض . فذهب ما عند السيدة من قليل الصبر عنه . ولم يقدر احد على رد البغل . فكنت ترى عينها في جهة وقلبها في جهة اخرى • وكبر منها ما كبر • وصغر ما صغر • وجف ما جف . وقف ما قف . وابتل ما ابتل . وانحل ما انحل . واقشعر ما اقشعر . وازبأر ما ازبأر . وتنفّض ما تنفّض . وانتفض ما انتفض . وتضنض ما تضنض . وتلمظ ما تلمظ وتلظلظ ما تلظلظ . وضجم ما ضجم • وشخم ما شخم . وغدت تململ وتتلوّى . وتتقلب وتحوى • ودخل في رأسها اول مرة في عمرها مُنيةٌ أن تكون رجلا لتجيره . ثم هون الله الصعب ووقف البغل فاستوى عليه الغصن وساروا حتى وصلوا الى بعلبك والفارياق على رمق فذهب وتفيأ في ظل شجرة فهوّم به النسيم فنام فقام منهوكا . ثم ركبوا وبلغوا دمشق وهو

مريض فاكترى غرفة في خان وبقي اياماً لا يقدر على الخروج فلما نقه توجّه الى منزل اهل زوجته وعرّفهم بحاله ففرحوا به • ثم عاودته الحمّى ثم افاق فرأى ان يذهب الى الحمام ليغتسل فلمّا رجع رجعت اليه . واتفق انه نزل يوما الى المرحاض فاغمي عليه فيه فوقع وقد دخل راسه في شق المرحاض فجعل يصرخ ويقول . ألا ان راسي في الشق . الا ان الشق في راسي • فبادروا اليه فراوه على تلك الحالة . فمنهم من ضحك منه ومنهم من رقّ له . ثم عوفي قليلا فبدا له واصاحبه السفر . ولكن لابدّ لي قبل رحيله من هذه المدينة الشريفة ان ارهقه واغسره حتى يصف لنا محاسن نسائها اذ هو لا يحسن شيئا غيره . فاما الكلام على خوّاص نبات الارض ومعادنها وهوائها وعدد سكانها وعلى الامور السياسية فليس من شانه . قال دخلت دمشق وبي حمّى صحبتني من بعلبك • وما كدت اتقه حتى سافرت منها فلا استطيع وصف نسائها الا وصفا سقيما . فان رضيتم به اقول . اني لما دخلتها نزلت في خان يسمى خان فارس • فعيّن لي صاحب الخان عجوزا لخدمتي فلحظت من طبّها وشمطها اي خلطها الكلام للّيّن بالشديد ان للعجائز يدا طويلة في المعاملات النسائية . اعني انهن يدخلن الديار بحيلة انهن يبعن للنساء ثيابا ليكتسين بها • فيخرجن من عندهن وقد تعاهدن على تعريتهن راسا فهن السبب الاقرب والذريعة الوثقى في الجمع بين العاشق والمعشوق . فاما نساء المسلمين فقد ظهر لي في بادي الرأي انهن اجمل من نساء النصارى • كما ان الرجال من المسلمين اجمل من النصارى وافصح لهجة وكذا هم في سائر البلاد الاسلامية • ولون النساء عموما البياض المشرب بالحمرة . والغالب عليهن الطول والشطاط . غير ان هذا الازار الابيض الذي يتزرن به عند خروجهن من ديارهن لا يحلو للعين كحبر نساء مصر . وكلاهما مخف لمحاسن القد ولعلهن يلبسن ذلك عمدا لتامن الرجال فتنتهن فلهنّ الشكر عليه . ولكن ماهذه المغازلة والاتلاع . وما هذا التبهكن والتبدح • أفليس للقلب عينان يبصر بهما ماوراء ذلك الازار: أيخفي الشمس غيم وهي لولاه لم يمكن لعين ان تراها • فاما زيهن في الديار فاشوق وافتن ما يكون . قال وقد ظهر لي ايضا وانا موعوك بالحمّى بعد ان خرجت من الخان وشممت رائحة الزائرات من النصارى انهن مؤانسات حلوات الحديث والشمائل مناطيق . حتى اعتقدت ان شفاي يكون بذلك . ولولا اني

خشيت من التبخيل بالاستغناء عن الطبيب ولا سيما ان ابي كان قد توفي بدمشق فالتي في روعي اني الحق به لما احتجت الى علاج آس . وحين كنت اسارق النظر اليهن وانا على الوسادة كنت المح في صدورهن حين يتنفسن شيئا يربو ويشبو . ثم رايت بعض اعيان المسلمين يزورون رب الدار وينبسطون معه في الكلام . وهم من الهيبة والوقار بمكان . فلا ادري ما الذي حسن للمطران جرمانوس فرحات حتى قال في ديوانه

فكانني حلب برقة طبعها وكان طبعك بالغلاظة جلق

ولهذا القائل الاحمق ان يقول الحلبي شلبي . والشامي شومي . مع ان اهل الشام أرق طبعاً من اهل حلب وازكى اخلاقا واطلق لسانا ويدا ومحيا واوفر سخاء وكرما . والدليل على ذلك ان دمشق مع كون النبي شرفها بقدمه وكانت مثوى لبعض الصحابة واصبحت وصيدا للكعبة وما زالت من ذلك العهد منزلا للحجاج . فان النصارى فيها يتبوأون داخلها الديار الرحيبة والمنازل الفسيحة . بخلاف النصارى فى حلب فانهم لا يمكّنون من السكنى الا بخارج المدينة ولا يدخلونها الا للبيع والشراء . هذا وقد حرس الله قطر الشام عن الزلازل التي يكثر وقوعها بحلب . وعن هذه الحبّة المشئومة المتسببة عن مائها . حتى انها كثيرا ماتشوه وجه من يصاب بها . فهل مراد المطران ان يقول ان نصارى حلب وحدهم ارق طبعا . ام يصحّ ان نبخس الناس حقوقهم لاجل السجع والتجنيس . فيقال مثلا الجاثليق هندليق . والمطران قطران . والقسيس لهيس والراهب ناهب . والسوقي بوقي . والخرجي دُرَجي . فاما اللغة فليس لعمري من مناسبة بين فصاحة اهل دمشق وركاكة اهل حلب . لان حلب لما كانت متاخمة لبلاد الترك دخل في كلام اهلها كثير من الالفاظ العجمية . كقولهم انجق بيكفي يخرجون الجيم في انجق مخرج الجيم التركية ويتقّنه اي يستعمله . وخوش خيو وما اشبه ذلك ماعدا لكنتهم ولخلختهم في نطق الالفاظ العربية . ثم ان الفارياق سافر هو وصاحبه الى بيروت ومنها الى يافا . فدعاهما وربّان السفينة نائب قنصل الا نكليز بها (هو غير الخواجا اسعد الخياط اللبيب البارع) ليشربوا عنده الماء بالسكر المعروف بالشربات ما اشتهر ايضا بهذا الاسم عند المولفين من الافرنج واستعملوه في كتبهم لافي ديارهم فساروا معه فاحضر لكل منهم كاسا تليق به بحسب ضخامة جثته . فلما فرغت الدعوة

اقلعوا الى الاسكندرية ثم الى الجزيرة واقاموا في معتزلها . فبعث الفارياق الى زوجته يخبرها بوصوله ويستدعيها للاعتزال معه . فقالت انا لا احب الاعتزال ولا الـكـل . ثم وافت بعد ذلك ولما استراح الفارياق من الم السفر استروح منها رائحة النساء

الفصل السادس عشر

في النشوة

هي رائحة ام دفار . استوى فيها مادبّ وطار . وسلك في البحار . وتفضيلها في العنوان فهل انت ذو استذكار .



الفصل السابع عشر

في الحضّ على التعري

ثم دخل البلد ورجع الفارياق الى التعبير واصلاح البخر . وبعد مدة وجيزة قدم على صاحب المعبّر رجل من العجم قيل انه كان مسلما ثم تنصّر وانه شاعر مفلق ذو شهرة بين علماء فارس . فسار ومعه الفارياق ليسلّما عليه في المنزل واذا به جحشوش حنروش حزقّة ألحي . فلما دخل البلد اقام في المعبّر فرأى الرئيس بادي بدي‌ء ان يحلق لحيته . فجيء بالحلاق واعمل فيها الموسى فلما انتهى الى شاربيه سترهما الشاعر بيديه

فاقبل اليه صاحب المعبر وبيده كتاب ليحججه منه على لزوم حلق الشوارب . فدار بينهما البحث والجدال حتى رضي الرئيس بنصف الشعائر . فلما كان ذات يوم من الايام المشئومة ذهب الفارياق الى المعبر فوجد الرئيس قد تعرّى من ثيابه بالكلية وجعل يطوف في الدار على هذه الحالة ويحض الناس على الاقتداء به . ويقول يا ايها الناس ماجعلت الثياب الا لستر العورة . ولا عورة لمن كان طاهرا بريئا من الذنوب والمعاصي . فان آدم لما كان في الفردوس في حالة العصمة والبراءة لم يكن له حاجة بالثياب فلما انتهى الى زوجته ليغريها بالتعرّي قالت له ان النساء لاعصمة لهن الا في الليل فلا بدّ لهن من الستر نهارا . فرآه العجمي على تلك الحالة فسأل الفارياق قائلا ما بال صاحبنا قد غيّر اليوم زيّه الاسود وتردّى بهذا الزيّ الاحمر . قال هو من جنود الخرج والجند هنا يلبسون اللباس الاحمر . ثم اشتد اللمم بكل منهما واستحكم . فخافت الزوجة ان يتلاقيا في مازق وينشب ما بينهما الجدال او الجلاد . فرغبت الى الفارياق في ان يضم اليه العجمي . وكان الغصن قد قدم اليها في اثناء ذلك من الديار الشامية وهو مترجم عن جني شهي . وجذع قوي . فبوّأته عندها مقاما كريما . وحاولت ان يخلو لها معه المعبّر خلوا مستديما . ولو بدوام لمم بعلها . وفقد اهلها . فاقام الغصن في ارغد عيش واهنأ حال . وظلت هي معه اشغل من ذات النحيين في اصفى بال وظل زوجها يحض على التعري . وانه من شعار المتزكي المتبرّي . ولبث العجمي في منزل الفارياق . وانما قبله عنده لدمامته وضعفه واغلبية السكوت عليه . فلما كان ذات ليلة وقد رأى عند زوجة الفارياق نساء حسانا انحلّت عقدة لسانه ونطق بكلام دلّ على انه لم يتنصر عن هدى وانما اضطره الى ذلك ابو عمرة ثم بات تلك الليلة وقد اضطرم الغرام في قلبه فخرج ليلا يقصد غرفة الفارياقية . فاحسّ به زوجها فبادره بحبل وهو لا يستطيع دفاعا عن نفسه فلما كان الغد شاور زوجته في امره . فقالت اظن ان هذا العجمي انما جنّ لعدم الزواج وكذا سائر المجانين . الا ترى انه لما رأى البنات عندنا البارحة تهلل وجهه وتكلم قالت فقلت ماارى الحق معك هذه المرة فان صاحبنا الخرجي جنّ من بعد الزواج قالت لكن عقله كان قبل ذلك مختلاّ بالاحلام . ولما تزوج لم يود الزواج حقه فاقتصّ الحق منه فليعتبر به غيره . قلت من اين علمت هذا . قالت ان المتزوج لا ينبغي له ان

يكون فضوليا يتعرض لغير ما هو فيه . قلت هذا تعطيل لمصالح الخلق . قالت لا تعطيل واني لا امنعهم عن العمل بل عن فضول الكلام . واللهج بالاحلام . فان التمحل لعلم خرق العادات . اجهد من التمحل لعمل عادات الخرق . ألا ولو كان الامر الي لداويت المجانين كلهم بالنساء ومن النساء وعن النساء . قلت أكل حروف الجر للنساء . قالت نعم كل الجرّ في النساء . قلت قد حذفت الحروف . قالت بل هي باقية قلت دعيني من المطارحة وافتيني في امر هذا المجنون . قالت ردّه الى المعبر واني اكره طول مكثه عندنا مخافة ان احبل فيأتي الولد على شكله . قلت ما مدخل الجنون في الجنين . قالت اوليس الاولاد يأتون بيضا صباحا ووالدوهم قباح . فلو لم يكن لعين الامّ من فاعلية عند توهّمها لما كان ذلك . قلت هذا رأي يودي الى الكفر والمحال اما الكفر فلانك تزعمين ان المرأة مشاركة في خلق الانسان . واما المحال فلانّ المرأة لو كان لها فاعلية في ذلك لاشبهت الاولاد آباءهم او لجاؤوا كلهم صباحا . قالت اما جواب الكفر فلا ينكر ان يكون الله عز وجل قد خلق هذه الخاصية في المرأة وهو مسبب الاسباب . بمعنى ان القوة الوهمية التي اودعها فيها الخالق القدير تكون موثرة في كونية الولد . واما جواب المحال فلان المرأة ابدا تشتهي ان يأتي ولدها على غير هيئة ابيه . وما تراه منهم مشبها اباه فالغالب انه البكر . قلت كثر الله من امثالك ما كأنك قرأت الكلام الا على الاشعري قالت نعم الكلام هنا في الاشعري لا في الجيش ولا الخميص قلت المجنون المجنون . ودعيني الى المجون فقد كدت تلحقيني به بكلامك هذا المقصود قالت متى كنت تكره القصد . وهو لك غاية القصد . اما المجنون فليس الا ما قلت انطلق به الى المعبر ودعه هناك من غير ان تخبر به احدا . قال فانطلقت به وادخلته في احدى الحجر وقفلت عليه الباب . فلما جاع طفق يعالج الباب ليخرج فسمعه الخادم فاخرجه . فتوصلت زوجة صاحب المعبر في ان رجعته من حيث جاء وعزمت على السفر بزوجها الى بلادها . وناب عنه آخر من بلاده في المصالح التعبيرية ولكن لم تطل مدته لاسباب يأتي بيانها . وقبل ايرادها ينبغي ان نختم هذا الفصل بما نظمه الفارياق حين كان رئيس المعبر يحض على التعرّي وهو

الا تريد صاح ان نجنّنا ونخلع اليوم الثياب عنا

ولا ننام ليلنا ان جنّا | ولا نسي بالنساء الظنّا
ولا نرى متى يجي حنا | وان يغب نقل مريض مَنّا
وان أتانا فاسق وزنا | نركبه الخيل فلا يعنّى
ونجعل الزوج له مجنّا | نقيه من كل معنّ عنّا
ولا نبالي ان رأينا قرنا | قد طنّ في اصداغنا ورنّا
فقد رأيت العقل يضنى الطُنّا | ويحرم الحرّ الذي يمنى
وان ينال الحظ مطمئنا | الا الذي باح بما اكنّا
مه ايها الشيخ الذي اسنّا | ماانت والغناء والاغنّا
تدخل في مضايق وتعنى | وما تبالي لو لقيت وهنا
ماذا لقيت من نزير جنّا | ومن طواف ههنا وهنّا
وافيتنا في شهر نحس اخنى | على المحبين فقلنا انّا
لم تخل دار بتّ فيها معنا | من حادث غارة سوء شنّا
يشكوك كل ذى عيال منا | او ردنهم من كل رزء فنّا
فمن مجانين ابانوا الجنّا | ومن مصاب بالحمام أطنى
ومن عليل دنف قد انّا | حتى رثى له الضدّ له وحنّا
قدك تشدّ او قدت فينا الحزنا | وقد شحنت المصر همّا شحنا
فاظعن هداك الله وارحل عنا | من قبل ان تقطع عنه الطحنا
وتنضب الماء وتنفي اليمنا | عن بلد من قبل كان امنا
واختر بغير ذا المكان كنّا | تأوي اليه مستريحا طمنا
فما عليك ان اصبت غبنا | ثم ودعا او لقيت زبنا
او كنت تأتي هذرا وأفنا | وتنظر القبيح منك حسنا
بحيث لا تبصر يوما قرنا | وكاشحا اخفى عليك ضغنا
كما اصبت ههنا خبُنّا | أصدأ منك الضرس ثم السنّا
لو استطاع لقراك سجنا | تصبح فيه للرزايا رهنا
شيطانه عليك قد تجنّى | يقول من تبغك قد امنّا

جعلت في دار الصلوة قرنا دخانه عمّ واعمى الرعنا

وقال قوم نُفْله اصنا ولحنه يبلغ ضرّا منا

فليبغ في دار سوها خدنا وما علينا ان سخا او ضنا

وان بكى من شومه اوغنّى او اخلص الدعا لنا او لعنا

او خار من جوع وذلّ وهنا او قال صرنا بعد ما قد كنا

انك يا مغرور لم تعشقنا ولم تعزّ بنا ولم تَشُقنا

فلا جزاك الله خيراً عنا



الفصل الثامن عشر

في بلوعة

لما فرغ الفارياق من تعبير الاحلام كُلِّف ان يترجم كتابا لِلجنة في بلاد الانكليز فترجمه لهم بلغتنا هذه العربية على ما اقتضته قواعدها . واتفق وقتئذ ان المطران اثناسيوس الحلبي التتونجي مؤلف كتاب الحكاكة في الركاكة الى تلك البلاد في بعض مصا ترجمية . فتعرف باللجنة المذكورة وافادهم ان لغة الفارياق فاسدة راسا . وذلك لحلو مما اشترطه على المترجمين والمعربين في كتابه المذكور . وان النصارى يحبّون الكلا المسلط والمسطل . وانه قد ربا في هذه الصنعة مذ عهد طويل وربي فيها كثير من مدرسة عين تراز وفي غيرها

وان لاسفار الكنيسة منهجا يخالف اسفار الورى ويغاير

وان لفي اللفظ الركيك تبرّكا ويُمْنا لقوم عنهم العار ظاهر

وان غنـاء اللحن في القول عندهم | لكـا للحن في الايقاع والاصل ظاهر
وان نسبة المولى الى الله منكرٌ | ومن ولوا الادبار كلٌّ يحاذر
وان تكاة جمع متكيء اتى | وان مصونا لامصانا لنادر
وللشعب دون القوم معنى مشهر | وفي ملك لافي ملاك كبائر
وان عبيداً لاعبادا مضافةً | الى الله أولى ما لذا الحكم ناكر
وان عذابا كالركاكات جمعه | وان لم يرادف باقي الشي سائر
وما واعظيها قيل بل موعظينها | ومن قال ادّوا دون ودّوا مكابر
ومن ردّ قل ان شئت صوغ اسم فاعل | مُردّ كذا قال النصارى الاواخر
ويظهر يُلغيه يبان نظيره | وصرنا بنينا بالتذخر كاثر
وجمع مصحفٌ للاله مسبّح | وبعد كما للعطف واو تباشر
ومن بعد اذ جزم المضارع واجب | ونعت المثنى باللذي متواتر
واثبات ياء الامر من ناقص كما | حكاه له قس الشوير المعاصر
واثبات نون الرفع في الفعل بعد كي | وأن مستفيض هكذا نص زاخر
ومن بعد يعطى نصب نائب فاعل | وجوبا وحذف الفا في الشرط دائر

وطلب من اللجنة المذكور ان يفوضوا اليه تعريب الكتاب الذي مرّ ذكره ليحظى عند النصارى بالقبول والاّ فلا . فلما رواه ذا لحية ولا سيما انه متحلّ بجلاء مطران والمطران عندهم لايكون الاّ عالما فاضلا اعتقدوا فيه الفضل والعلم وفوضوا اليه العمل . ولهذا السبب خاصة بطل المعبّر ولم يبق للفارياق الا مرتّبه من وظيفة اصلاح البخر . وهنا ينبغي ان يلاحظ ان الانكليز اشد الناس حرصا على الالقاب . فاذا زارهم احد من البلاد الاجنبية متصفا بلقب امير او شيخ او مطران حظي عندهم الحظوة التامة . ولا سيما اذا كان يتكلم باللغة الفرنساوية • اما لقب المطران فهو عندهم من الالقاب التي تغني صاحبها عن توصية وتنويه . اذ ترجمة هذه اللفظة تجري لديهم مجري قولهم رئيس اساقفة • ومن حصل على هذه الدرجة منهم حصل على دخل اربعة آلاف ذهب من الليرة . فاما طول اللحية فهو عند العرب ليس بدليل على الحلم والنباهة كما يتبين من حكاية المامون مع الفقيه علويه . ولكن عادة العجم غير عادة العرب . ثم ان الفارياق

لمّا آن وقت بطالته من اصلاح البخر وهو ثلثة اشهر الصيف في كل سنة عزم على ان يسافر الى تونس . فركب في سفينة رئيسها من اهل الجزيرة الذين هم بين السوقيين والخرجيين مرة . ومرة بينهم وبين الفلاسفة . وبعد سفر اثنى عشر يوما كلها خطر وعناء بلغوا حلق الواد . فكان بعض الملاحين يقول في اثناء الطريق انه انما وقع لهم ذلك بخلاف العادة لكون الرئيس سافر يوم الجمعة خلافا لسائر الرّبّانيين فانهم لا يسافرون فيه اصلا اما احتراما له او تشاؤما منه . لكن الفارياق كان يعلم حقيقة السبب وهو هبوط طالعه . وان نيّة سفره سوآء كانت قريبة او غير قريبة لا يبلغ اليها الا في مدة اثنى عشر يوما . وانما كتم ذلك عنهم . قال اما المدينة فانها ضيقة الاسواق صغيرة الحوانيت . غير انها طيبة الهوآء والماكول والمشروب كثيرة الفواكه . واهلها طيّبون خيّرون يكرمون الضيف ويحبون الغريب . وفيها من المغنّين والعازفين بالات الطرب كثير ومعظمهم من اليهود . ونساؤهم حسان سمان بيض دعج برغم النصارى القائلين ان الله لعنهم ومسخهم بعد صلبهم سيدنا عيسى عم ونزع منهم كل حسن باطني وظاهري . غير اني اظن ان القسيسين اذا نظروا يهودية جزلة بضّة ربحلة يدّعون صاحب هذا المذهب ويفنّدونه . وانما يقول ذلك منهم من كان لزق النصرانيات ولم يرَ غيرهنّ . ومعلوم ان النفس ترغب في الحاضر الموجود عن الغائب المفقود . او لعلهم يريدون ان المسخ انما نزل بالرجال دون النساء فليُسنا لوا . وان كثيرا من هؤلاء الغير الممسوخات غير بعيدات عن الغصن والهصر . ومن عادتهن ان يمشين غير متبرقعات مكشوفات السوق. ثم لمّا ازف رحيل الفارياق من المدينة قال له بعض معارفه من اهلها لو مدحت واليها المعظم. فانه اكرم من اعطى وانعم . واكثر الناس ارتياحا الى الجود والمعروف . قال قد نويت الان السفر فلم يعد لي ممكنا غيره . ثم رجع الى الجزيرة وكان من جملة الركاب الذين رجعوا معه رجلان نمساويان احدهما ابن احد التجار الاغنياء والآخر من قواد عسكر البابا . وكان هذا قد اخذ من الفارياق واحدة من هذه النبخات الدقاق فردها عليه بعد يومين . فلما استقر الفارياق بمنزله خطر بباله ان ينظم قصيدة في مدح جناب المولى المشار اليه . فانشأ قصيدة طويلة ذكر فيها كل ما شاقه هناك من المحاسن ولكن من دون تعرّض لذكر محاسن نساء اليهود . فلم يشعر بعد ايام الا والمولى المشار اليه

بعث له بهدية من الماس تضن بها الملوك على ندمائهم . ومعها كتاب من ناموسه المعظم ووزيره المفخم مصطفى باشا خزندار هذه صورته

«المحبّ الذي رعى المودة شأنه . والكمال سجية قام بها عمله ولسانه . الاديب »الاريب الآخذ من كل فنّ اوفر نصيب . حسن الاخلاق . والحائز في مضمار البلاغة »قصب السباق . البارع الفارياق . لازالت محاسنه نيّرة الاشراق . وبلاغته كواكب »آفاق . اما بعد فان ولي نعمتنا ومولانا وسيدنا المشير احمد باشا باي امير الايالة التونسية . » لازالت بوجوده محمية . بلغ لرفيع جنابه من ادابكم . قصيدة تحلّى بها شعركم . واتضح » بها فخركم . ويدوم بها ذكركم . فلله در منشيها ومبدعها وموشيها . حيث ملك من » البلاغة دانيها وقاصيها والقت لديه مقاليدها ونواصيها . والمولى ايده الله حسن لديه » موقع خطابكم . واثنى عن بلاغتكم وآدابكم . ووجه لكم من حضرته العلية حُكة » تتذكر بها وداده . واياته وبلاده . فاقبلها من افضاله . ومن نزر نواله . والله يحرسكم » بعين عنايته . ويسبل عليكم ستر عاقبته . وكتبه الفقير الى ربه تعالى مصطفى خزنه دار » الدولة التونسية في الرابع والعشرين من ذي الحجة الحرام سنة ١٢٥٧ . »

وفى اثناء ذلك قدم المطران التونجي الى الجزيرة فبلغ الفارياق قدومه ولم يكن عرف ما افتأت عليه به عند الانكليز فذهب ليسلم عليه وادبه الى ولية اعدّها له . واقام المطران في بعض المنازل يشتغل بترجمة ذلك الكتاب الذي زاحم الفارياق عليه . وظل الفارياق يتنابه حينا بعد حين وهو غير موجس منه شيئا . فلما كان بعد ايام ثارت في الجوّ حاصب ومتشغزبة ومنسبة منشبة ونكباء وهَبُوبة وخُرجوج وخجَوْجاة ودرّوج وسَهُوج وشجوجاة وبارح وسَناخة وخِنذيذ وصرصر ومشتكرة واعاصير ومعتكرة وهبارية وروامس وزوابع وزعزعان وهَيْرع وجفجف ورفزاف ومسفسفة ومُسْنفة وعواصف وخَرْفا وزخلق وزهلق وسَهْوق وحاشكة وساهكة وزعبليل وطَيْسل وعَياهل وسَهام وسَفُون وورْهاء ومِيلاه وسافِياء . ثم جاء على عقبها روائح هنبتة صماحية زنخية سنخية إفاخية عَبادية خَجرية ذفرية عدارية مدرية امذرية خُنازية طفاسية حطاطية عفاطية عفطانية شياطية ناضفية زهمقية خبراقية صَلية خيتعامية صَنْمية قنمية عجانية لخنية نجوية مختلطة بُطْمطانية

والخلخانية ورُتيه والغلغانية وقلقلانية وكسكسية وكشكشيـة . واذا بالمطران المزبور قد غاص في بلوعة فوها في تعريب ذلك الكتاب. ولما كان جاهلا تصليح الطبع زيادة على جهله باللغة كان لابد من تبليغ هذه الروائح الخبيثة منزل الفارياق. فان مدير المطبعة كان من اصحابه فكلّفه بان يصحح غلط الطبع من دون تعرض لتصحيح الغلط في الترجمة. وحرعرف سبب قدوم المطران ومكايده . فصرّ بعض هبّات كريهة من تلك الروائح وبعث بها الى اللجنة المذكورة واقام ينتظر الجواب. ثم اتفق بعد مدة ان قـدم الى الجزيرة السيد المعظم سامي باشا المفخم المشهور بالمناقب الحميدة . وكان للفارياق دالـة عليه فـار اليه ليهنئه بقدومه . فكلفه المشار اليه بان يمكث عنده مدة الاعتزال فاخـبر زوجته بذلك . فقالت له كم مرة اقول لاخير في الاعتزال . قال لا بأس به اذا كان مع امير فان شرف الاسم يكفي . قالت لايغني الاسم عن الفعل شيأ . قال فقلت بل اجتزا به كثير . قالت أمع جارٍ له . قلت لاادري . قالت لو كان الاسم يغني لـكانت المرأة تكتب على موضع من جسمها لفظة امير . قلت اعوّض ما يمضي . قالت والا فأمض على العوض . قلت ما أعجل النساء . قالت وما احبّهن للابطاء . قلت قد كنت اودّ لو ان الله خلقني امرأة او انه يصيرني امرأة فاما الان فلا اريد اذ لاصبر للنساء كالرجال. ومن يمش في هذه الدنيا فلا بد وان يكون صبورا . قالت لو لم تكن النساء اصبر من الرجال ما كنّ يعمّرون في الارض اكثر منهم على ما يلحقهن من اوجاع الحبل والولادة. قلت ليس هذا هو السبب وانما هو ان الصالح من الناس لاتطول حياته على الارض بخلاف الطالح . قالت هل في الرجال صلاح وما من فساد الا والرجال مخترعوه . هل تفسد الاناث في الاناث ما تفسده الذكور في الذكور. وهل يفسد النساء غير الرجال. ومن ذا الذي يتصبّاهن ويتألفهن وينتقشهن ويغازلهن ويغويهن بالمال والوداد والوفاء غيرهم. حتى اذا استوثق احدكم باحدنا فاحرز سرّها ذهب في الحال وباح به وربما سكر مع بعض معارفه او تساكر فافتخر امامهم بافشاء ما يجب كتمانه وبهتك ما يلزم صونه . الا وانّ الرجل الرجل منكم ليعتمد على ما خصّه الله به من القوة والبأس فيعتقد ان له الفضل على المرأة في كل شيء . ولو كان الفخر بالقوة لـكان الفيل افضل من الانسان . نعم انّا ليسرّنا ان نرى الرجل شيظما ايّد ولـكن لايليق به والحالة هـذه ان يأتي

امرأتهُ الضعيفة المسكينة فيعاملها بالخيعرة والدغمرة والدنقرة والزنعرة والزنخرة والزمجرة والزنهرة والشنزرة والشنصرة والشنظرة والشمصرة والعجهرة والغذمرة والغشمرة والغيثرة والحزربة والخطلبة والخظلبة والدحقبة والدعربة والدنحبة والزغدبة والسقلبة والشغزبة والشهجبة والصرخبة والصعنبة والطغربة والعثلبة والعصلبة والغسلبة والقحطبة والقرطبة والنيربة . ثم اذا ذهب الى اخرى اوهمها انه اسيرها وعانيها وقنّها ورقيقها وقَينها وقَنتورها وماهنها وقُنجلها ومملوكها وذليل حبّها ودنف غرامها وعميد عشقها وصريع هيامها وميت هواها وشهيد حبّها . وان الله تعالى لم يخلقه في الدنيا الاّ لمرضاتها . قال فقلت اذا كان الرجل مخطئا في ذلك فالمرأة غير بريئة ايضا لتصديقها اياه وانقيادها له . قالت انما تصدّقه من صفاء سريرتها وسلامة صدرها . فان الصادق لا يرتاب في كلام غيره وان الكريم ينخدع . ولو ان الناس سمعوا مثلا بان امرأة متزوجة تحب غير زوجها لانكروا عليها ذلك كل الانكار . واستفظعوه غاية الاستفظاع . فتطبّل به الطبول وتزمر الزمور وتكتب الكتب . ولا يبقى في البلد احد الا ويروي عنها حكاية او ترّهة . فاما اذا سمعوا عن الرجل انه يحب غير زوجته فانهم يحملون فعله على وجه مرضي ويعتذرون عنه بقولهم ان امرأته غير زافنة . او انها جُخنَّة مِنفاض . او مِبراص او منشاص . او خذ نفرة او غبرق . او زخّاخة خفوق . او فتقاء غفوق . او رتقاء غفوق . او نجاخة فشوش . او منخار حَضُون . او جَخواء أخجى . او جخراء رهوى . او مُجخرة ضحياء . او ضهواء ضهياء . او هرعة رفغاء . او سلَقلق او متكاء . او قَشورا او مصواء . او ناسعة شقّاء . او مهلوسة او لصّاء . او لَثية او لَخجم . او خَيفق ذات عَفَلق او قَلْذم . او حمّق وعفل او ذقناء . او ميقاب او لخواء . او لَقوه او خَشواء . او قنشورة او ذنّاء . او قرثع او سلتا . او خرُور او قعماء . او عانط او شرماء . او عُنبلة او لخواء . او مجيئأة او رمِضة وغير ذلك من العيوب ولا يرون في فعله هذا سماجة . مع ان للمرأة اسبابا تحملها على الشطح اكثر من اسباب الرجل . قلت تفضلي بذكرها كي اجانبها . قالت اوّلها ما اذا لم يقم الرجل بوفاء حق زوجته . وهو حق الزواج الذي من اجله تترك اباها وامها واهلها ووطنها وبلادها وغير مرة دينها . قلت اللهمّ لطفك وعصمتك ثم ماذا .

قالت ومنها اهماله امورها وقلة اهتمامه بما فيه راحتها وانشراح صدرها وتطييب خاطرها. وتلهيتها وتسليتها وترويتها وتحليتها وتدفئتها وتطريتها وتاسيتها وتقويتها وتمشيتها وتغديتها وتعزيتها وتغنيتها وتعليتها وتهنئتها وتوقيتها . قلت نعم وتعريتها وتعذيتها وتمريتها وتنديتها وتنفيتها وتمديتها وتنجيتها . قالت نعم كل هذا واكثر حالة كونها اسيرة بيته طول النهار قائمة بخدمته متعهدة لاموره . وهو يطوف في البلد من مكان الى مكان وينتقل من سوق الى سوق. حتى اذا جاء منزله انطرح كالمغشى عليه وقال ان الشغل جهده والجهد شغله وانه عرض له كذا وجرى عليه كذا . مع انه هو الذي تعرض لذلك الكذا وجرى على ذلك الكذا . ومنها رقة فؤاد المرأة والشفقة التي فطرها عليها الباري تعالى . فلا يمكن لها ان تقابل رجلا عن مودته لها الا بالوداد او عن تملقه اليها الا بالميل اليه والاقبال عليه . وناهيك ما في الرحم والرحمة من الاشتقاق والمجانسة . قلت واعجب من احتجاجك بهذا الاشتقاق التناسب بين معاني الكيس . قال في القاموس الكيس خلاف الحمق والجماع والطب والجود والعقل والغلبة بالكياسة . وبين السرّ والسرور والبسط والشرح والبُضع والبضاعة والشعور والمشاعرة والدبج والقمط . وخصوصا بين ابي اذراس وابي ادريس دامت الفتهما في اللفظ والمعنى . فقهقهت وقالت شرّف الله لغتنا الجامعة بين كل متناسبين ومتجانسين . قلت ولكن قد يلازم ذلك احيانا ما يسوء او ما لا يليق . نحو ازّ فانه بمعنى جامع ورمى بالسلح . وجنّح رمى ببوله ومسح جاريته . ومعط جامع ونتف الشعر وحبق . وجلخ جامع و بطنه سحجه وفلانا بالسيف بضع من لحمه بضعة . ومتخ جامع و بسلحه رمى . وملخ جامع وجذب الشي قبضا او عضا وتردد في الباطل . وملق جامع وضرب بالعصا وجظ جامع وطرد وصرع وبالغصة كظه . وخج جامع و بسلحه رمى . ولخب جامع وفلانا لطمه . ومتر جامع و بسلحه رمى . وجلد جامع وفلانا ضربه بالسوط واصاب جلده . وعصد جامع ولوى وفلانا اكرهه على الامر . وضفن جامع و بغائطه رمى . ومحن جامع وضرب . ومشن جامع وخدش . وأسوى احدث وخزى وفي المرأة اوعب . وكذا حشأ وحطأ وحلأ وخجأ ورطأ وزكأ ولثأ وغير ذلك مما لا يحصى . قالت كل صعب في جنب ذلك يهون . ولا بدّ لجاني العسل من ان تابره النحل . ثم اني فهمت من فحوى كلامك ان هذه الافعال في لغتنا الشريفة

اكثر من ان تعدّ . وان اكثر المعاني قد وضع له فيها الفاظا كثيرة تسميها العلماء ارداقية على ما ذكرت لي سابقا . قلت لم اقل لك هذا وانما قلت مترادفة . وان هذا الفعل بخصوصه له اكثر من مائتي لفظة . فكل لفظ دل على دفع او هز او ضغط او ادخال دل عليه ايضا . قالت فهل تستطيع ان تذكر لي حرفا يدل بالخصوص على الامتناع عن النساء عفّةً وتقوى . قلت لم يمرّ بي حرف بهذا المعنى والا لحفظته فاني مُولَعٌ بحب الحروف الانسانية . والظاهر ان العرب لم تكن تعرف ذلك . غير ان تبتّلَ وبكُمَ يدلاّن عليه في احد معانيهما . قالت في احدلايغني شيا . ثم استمرت تقول ومنها وهو مستفيض عند اكثر النساء ان المرأة اذا احسّت باعراض زوجها عنها او بفتوره او بالجفوة لها مع تحبّبها اليه واقبالها عليه وحالة كونها له عطيفا هلوبا بعيجا عروبا متبعّلة رعليبا آنسة باهشة متبشبشة مهشهشة ذات رشرشة ومشمشمة ونشنشة ووشوشة مدربخة وازكة منصعة واكفة مصوصا خارقة ان لم اقل علوقا وغيرَ عاذبة مالت الى غيره لتغيره وترده الى قديم محبتها . فان من الرجال الحمقى من لايعرف قدر امرأته الا اذا رأى الناس يحبونها . فتكون محبتها لغيره علاجا لمحبته هو . وهذا يسمي عندنا دغدغة وزغزغة وسفسفة . فاما عيوب الرجل فهي لعمري اكثر من عيوب المرأة ولو لم يكن به غير الزماتية لكفى . وهل والحالة هذه يجب حلّ عقدهما او يجوز او يمتنع اقوالٌ . فالنصارى على منعه مع انهم يقولون ان المقصود من الزواج بالذات الانتاج وحفظ النسل . والطبائعيون والفلاسفة على وجوبه اخذاً بهذا القول عينه ومراعاة لاداء حق المرأة الواجب على الرجل وهو امر طبيعيّ لابد منه ولا محيص عنه . وبقي الجواز في عهدة غربي الزواج . ان شاء بقيا على ماهما عليه والا افترقا وهو الاصلح . والعمري ان المرأة التي ترتضي بان تقيم مع زوجها من دون قضاء حقها لجديرة بان يعيّد لها عيد في رأس كل سنة . أليس ان استاذك صاحب القاموس الذي تستشهد بكلامه في كل مشكل نسواني قد قال الرجل م والكثير الجماع . فاذا كان الزوج غير رجل فانّى يحل له ان يحوز عنده امرأة لايؤدي لها حقها . ايحل لرجل ان يقني دابة اذا لم يقدر على علفها . استغفر الله عن هذا التشبيه . او لصاحب ارض ان يغادر ارضه غير محروثة ولا مزروعة ولا مسقية . افلا يجب ح على الحاكم الشرعي ان يشتريها منه

ويولّي عليها من يتعهّدها ويستغلها . واذا كان الانتاج وحفظ النسل مشتركا بين الرجل والمرأة بل جلّ اركانه مختص بها ومتوقف عليها فلم لا يكون الطلاق مشتركا بينهما ايضا اذا اقتضت الاسباب ذلك . اذ الطلاق عندي من غير سبب ان هو الا بطر وسفه . واقبح من ذلك ان رؤساء النصارى يأذنون في مثل هذه الحال في فراق الزوجين ولكن لا يأذنون لهما في الزواج وان يكن داء الرجل عضالا لا يرجى له علاج في مدة انفصاله عن زوجته . فاي حكمة في ذلك واي ضرر من تزوجها بغيره ليولدها البنين والبنات . فلعلها ياتي من بنيها من يفوق غيره بالكمال والركانة فيصير راهبا او مطرانا . وعسى ان ياتي من بناتها من تتحمس بالوساوس والهواجس والاحلام فتصير راهبة . هذا وقد ورد في التوراة حكاية عن الباري تعالى انه قال تكاثروا واملأوا الارض على مبالغة فيه . فان ملء الارض بشراً يوجب خرابها لا عمرانها . وقال مار بولس ان المرأة تخلص نفسها بتربيتها البنين الصالحين . فهل تعليق الزوج والزوجة عن الزواج مطابق لنص هذين الحكمين . انظر الى اهل هذه الجزيرة فانك تجد اكثر الرجال منفصلين عن ازواجهم وعائشين بالسفاح . وقسيسوهم مصرّون على ان ذلك اوفق من الزواج الشرعي . مع ان القسيسين لا يعرفون الحقوق الزوجية لانهم غير متزوجين . ايصح ترئيس رؤساء على الجند ممن لا يحسنون صنعة الحرب والمبارزة . فقلت لله درّك من اين لك هذا كله وقد طالما اشتبه عليك الامرد وذو اللحية عند قدومنا هذه الجزيرة . قالت ربّ شرارة اضرمت اتونا . اني كنت اعرف من نفسي اني لا البث ان انبغ في هذا . وذلك لكثرة ما كنت ارى واسمع عن المتزوجين من الخلاف والمعاسرة . والشكو والمنافرة . لا سيما وقد رايت الان بلدا غير بلدي وناسا غير ناسي . واختبرت عادات جديدة واحوالا غريبة . فتوهجت تلك الشرارة التي كانت مودعة في خاطري تحت دمان الوحدة والانفراد حين هبت عليها نكباء الاحوال المتغايرة والشؤون المتباينة . ولا سيما في ليلة الرقص التي لا تنسى . ومذ ح خطر ببالي ان املي عليك كتابا في حقوق الرجال والنساء ولا بد من الشروع فيه . قال سافعل ذلك ان شاء الله ولكن الامير ينتظر قدومي عليه في المنزل غدا فلا بد من التوجه اليه قبل انشاء الكتاب . قالت قد تشفيت الان قليلا بما قلته فاذهب اليه وارجو ان لا تعاودني هذه الاهتقاعة الا وانت هنا .

فاستغاث واستوزع . واستعاذ واسترجع . ثم ذهب الى الامير المشار اليه وبعد ان قضى معه مدة الاعتزال سافر معه الى ايطاليا ثم رجع الى الجزيرة محفوفا باكرام الامير وانعامه.



الفصل التاسع عشر

في عجائب شتى

بُلَغْنِبِس حدُ نُبَذَى عُلُوص خُزعَبله. فلق فليق عبرة آذب بطيط فِتنكر عجب فَنك ضحك بهنر هنر هكر اذْ بُجر. زول عيشي بجل طمّ افنت غرو فريّ . ان الانسان لايعرف نفسه . هذه سيدتي الرسحا المسحا الرقعا الرفغا الرصعا المردا المصلا الزوا العصلا الجخرا الزلاّ القموا الفوا الثطّا الضهيا الجخوا الجبّا المِزلاج السكروا العصروب المنداص الفلحسة تتخذ المرافد والحشايا وكبّة قطن تنفج به قميصها عن ثدييها لتوهم الناس انها دهساء وطباء . ولكن من اين جاءتك ياسيدتي هذه الحلية المباركة وهذا اللحم القدري . ونحن نرى ذراعيك كاليراعة او كعود الشكاعى . وعنقك كالعصا ويديك كالمشط ووجهك كالصابونة التي غسل بها القصار ثياب القداديين والفدادين والداجّ والداجة وترائبك كالقفص وكتفيك مؤللتين مهاتين مرققتين مدققتين محددتين مقددتين مسربطتين مسمرطتين . فكيف غلطت فيك الطبيعة وسمّنتك في هذين الموضعين الكريمين وعميت عن الباقي . وهذه سيدتي البلقوطة الدعشوقة الزلنقطة الجحنبرة الزبازاء الجعبرة الحزنقفة الدنامة الزفيان العشبة الحدحة الزحنة القبرزة الزونة البهترة الجبّاعة القمهزية القهقزية البهصلة الدرامة القفندعة القرنبضة القنفشل القنثل القعنبة القنبعة القزمة القنفعملة الحبنطاة الدودرى

القرزحة السكعتة القلى الجلنز الزعنقة القنبضة القرزحلة الحزقة اذا مشت تطفر وتثب وتنطع وتتالع وتمسج وتهبع وتتطال وتشرئب وتصلهب وتشمعل وتترقص وتزمهل . وتحسب ان الناظرين لا يشبعون منها باعينهم . ولا يفترونها ولا يذرعونها بخواطرهم . ولا يدرون اي فراش يليق بها . وهذه سيدتي السودا المسحمة المدلهمة المطرخمة الفاحمة القاعة القاحمة الدهماء المدهامة الحتناء المرطمة الدلماء المدلامة السحماء الدجناء الدخناء الحندأس تطلي وجهها بالحمرة والغمرة والغمنة والحور والزينة . ثم تصعر خدها للناس وتنظر اليهم شزرا . وتتيه عليهم دلالا وكبرا . فاذا حاولوا ان يروا موضعا آخر من جسمها ادارت لهم ذلك الموضع المطلي المحمر المنقش المزور . وجعلته شافعا في سائر اعضائها . واوهمتهم ان المغطى منها اشد بياضا من المكشوف وان لونها في الليل يكون ازهى منه في النهار . ولا سيما عند الخلوة . فانه يزداد بهاء وجلوة . وربما حكت حكاية طويلة تدل على انها لما قامت في الغداة لم يكن لها وقت لاصلاح شأنها . فلبست ثيابها على عجل وخرجت وهي لا تدري كيف خرجت . وهذه سيدتي العجوز المتهدمة . القحلة الشهربة . الطهمل اللحبة . العفشايل الصهصليق . الجلفزير الشفشليق . الخنظير الشمشليق . الدردبيس الطرطبيس . الشدمق الجحمرط . الشملق الجخرط . الحربش الاطاط . الهيمرون الكحكح . الهرشفة الجلبح . ذات القشلة والنقثلة . والنعثلة والنغظلة (١) . لم تزل حشورة عزهاة تتفتى وتتصبى وتحرق ثوبها من عند خصرها : وتنهلس اذا جلس اليها فتى في وكرها . وهذه سيدتي الجميلة البضة الغراء . السنيعة الغضة الفرا الصبيحة الزهراء العبهر الغيداء . الخرضلة الدعجاء . الخريدة الموقونة العجزاء . الرشوف الشنباء . الخنبة الذلفاء . السالمة الكاعب . المصقولة الترائب . الحلوة الابتسام . الرخيمة الكلام . التي تسكر بغنازلها . وتفتن بعناعلتها . وتصبي فؤاد من لم يصب عمره . وتتبله وتتيمه . وتعبده وتهيمه . وان اخذ منها حذره . واستحضر رشده وصبره ودينه وحجره . تراها تمشي والخفر قد نكس رأسها وغض طرفها فاذهلها عن ان تحسن خطوها . وتبدي زهوها . وليس بها شي من التغنج والتضرج والتبرج

---

(١) اسماء العجوز اكثر من ان تعد

والتغوّج والتحلّج والتدبّج والتخفج والتدعلج والتدحرج والتبغنج والمرجرج والتزجج والتمسرج والتموج والتنفج • مع انها لو دخلت على حضرة الملك اقام لها احتفالا . وناولها الميحار والمخصرة اجلالا . وانشدها

فديتك من مملكة علينا بحق لتحتها تخت الخلافه
خذي تاجي بادنى لثمة من ملاغم فيك او ادنى ارتشافه

او على حضرة ناموسه المفخم . ووزيره المكرم . لدهش عن شغله اكبارا لها واعظاما . والقى اليها الخاتم استسلاما . وانشدها

اليك الفصل في كل الامور على أمرى امير او وزير
فما الدستور الا دس ثغر اليك فهل سبيل للثغور

ولو دخلت مجلس قاضي القضاه . لاهدى اليها الكنز والدر وما ملكت يداه • وانشد

لها علي في الهوى حظان لا للذكر
فان لي سؤلين منها ذا وذلك وطرى

ولو دخلت على طبيب يعالج تيتاء لوصف له مسّ رأنفتها • وشم سالفتها . وانشد

دهن السقنقور والترياق للململ رضاب فيك وللعنين ذي الفجل
حتى اذا لم يدع في الريق من وشل ارشفته الخمر نعم الخمر من بدل

ولو خطرت على منجم لرمى الاسطرلاب من يده حيرة وذهولا . وبلبلة وغفولا • وانشد

لسنا نرى الا جمالك في الضحى فهو المنير بجنح ليل اظلما
قد بلبل الفلكيّ منك مقالك فمليك تقويم الذي ماقوّما

او على فيلسوف لذهبت معه حكمته سدى . ولم يجد للصبر عنها رشدا . وانشد

من حكاك الجسمين تقتدح النار كذا مذهب الذي قد تفلسف وهي دعوى فان جسمي اذا احتك بجسمي اسال ماء فانزف او على مهندس لاشكلت عليه الاشكال . وتبلبل منه البال . وانشد

يفدى المكعب منك كل مكعب ومحدّب ومقعر في العالم

يا ليت ذا الشكل الهلالي الذي فيك استقرّ على عمودي القائم

او على منطقيّ لخرج عن القياس . وخبط في الالتباس . وانشد

على المديدين مني ساقها وضعت ياحسن ذلك موضوعا ومحمولا
اصبحت تاليها ابغي مقدّمها اذ كان كل سرور فيه مأمولا

او على نحويّ لما ميّز الفاعل من المفعول . ورأى ان معرفة ذلك من الفضول . وانشد

رويدك انني ماجئت نكرا لديك وليس لي ذنب فيذكر
برئت من النحاة وحق ربي لقولهم بتغليب المذكر

او على عروضي لتقطع فؤاده . وكثر زحافه واسناده . وانشد

هنّدتني ياذات كل ملاحة وتركت قلبي بالغرام يعلل
ارعى النجوم الليل فيك وانني مستفعل مستفعل مستفعل

او على شاعر لدلع لسانه تلزّحا . ثم تلمظ وتمطق ثم عض بنانه قدحا . وانشد

كم تاه صب بفرط العجب والتيه لكن حبؤك تأليهي وتوليهي
ان يولني منك تجنيسي مجانسة احمدت توريتي واخترت توجيهي

الا ولو انها مسحت على عنق كل منّي ومنك ايها القاري لاغناها عن الحضيض . ومصح مابهما من الورم والنُفاخ والنَفطة والغُدد والعُقد والقمد والقَعَد والمَثر والعُجر والعاذور والبُجر والجُدر والقبر والكُمر والثغر والزَور والحَبر والقَصر والنفه والسُلع . والنكف والغَبب والغَلب والذِعيه والمَروذ والمَصل والمقط والقسط والتشنج والتحجّن والتغضف والتغضن والتصعفر والتقبض والقفص والرَدن والتشنّن والكنع والتكربش والتكرش والتكمش والاشخاص والقره والقَله والثأي والجا والحروة والتبيج والذُباح والرثيه والضواة والزرّة والخضعه والثآكه والادل ولاجل والجدل والصعفه والقروح والخراج والدمل والعنبه والبثور والثاليل والخنازير والانتواء والهنم والحُبن والندب والعنم والوكس والخبط والاُجور والندم والعرب والعازر والاثر والطليا والعلب والعصب والقوباء والجرو والدغام والخدش والجلف والحشفه والحَفت والقُطوف والزَرف والكدم والنسوف والغاصمة والحواق والحلاق والفرك والكتاف

والهيض والحناق.

وهذه سيدتي الزنمردة العنجرد الدلموس الالقة السلقة الملقاع الجفنس الخنفس العنفص البلقع السلفع الهروم المهضبضة الشنظيان البنظيان البهرج العاليف المسجل الطالف الفانكة المنتلة المتياح المزعاج المعنة الخطالة الخالجة الرادة الزلة المخناث الهلوك المتهالكة المهتكة المستهترة الباغزة الحوالة العواسة الدردم الدرداب المتوهجة المتلهجة الافوت العجينة المقططة الجلوط الخروط الخلطة الجليع الجلعمة الخريع الجلاة الشنية الشنيقة المعفاص المقاص الجنبثة البظرية البظرير الدمراء القاشرة الجلبانة العنقفيز السحلوت السلحوت الهمرى النعارة الهيعرة الهيرعة الهوزورة الزاغية السعوة الساعية الخيتروع الخيتعور العموس الضنوط الماجن الخجأة الملالة الشروب القمرة المتعربة المتضربة المستخبة القفخة الوذاح المدربخة المردة الضامد المستعقدة الفخذاء الثامدة المستدرة المستذرة المتضورة المستطيرة المستظئرة الشفرة القمرة القرور الهموسة المبلاص المنعظة الكرعة الواكعة التنبعس الحتلعة القمعة الهكمة الحقمة المهتمة الضبعة الظالع الوثنة الهبنغ المستولقة المراغة الصارف الحارقية المستحلقة المستودقة الحارقة الشبقة المتفككة المداركة المفالكة المستجعلة المستوبلة المبذم المدقم المبلم المهندم القطمة الهدمة العظمة المستحرمة الغيلم المتوسنة المتأنية الحانية المتسدة التي قد علم كل واحد من اهل البلد حين تخطر في اسواقه وشوارعه وازقته ودروبه ودروبه انها تدعوهم بعينيها وبجميع جوارحها الى التمشير الى القراب الى الاشفار الى الاقلعفاف الى الاشمعطاط الى الاشماذ الى الافضاء الى الاقعاء الى الكفاح الى العراض الى التلقيع الى الدهفشة الى النشنشة الى الهكاع الى السراع الى التشيط الى الحصحصة الى الاسواء الى الايعاب الى الرفش والتفش الى المحش الى المسح الى الاجفان الى الافطاء الى الاتقاش الى القرنب الى الرك الى البك الى المهك الى الهك والهكهكة الى الرهك الى الحرث الى الهق الى الزجل الى الاماهة الى الزعب الى الحوق الى الدعم الى الرطم الى الكوس الى الاقحاط الى الوس الى الدعظ الى الدعمظة الى الدسغم الى الاكسال الى الاطار الى الغفق الى الخفق الى الوجس الى

الافرار الى الفلم الى التداؤم لى التسني الى التقمقم الى التجبية الى الارك الى التديخ الى الانسداج الى الانسراح الى الانشداح الى التنوخ الي الدربخه الى الدهشرة الى المشق الى السلق لي العلق الى الدلقة الى المزد الى المرش الى الشتيه الي المحارقه الى الكشر الى النخب الى التفنشخ الى الظهارته الى الترفغ الى التفشغ الى الفشاغ الى المزمعه الى القرفطه الى القرفصه الى الكابوس الى الخط الى لي العرفجه الى التسكويذ الى الشفر الى التشفير الى التدليص الى التفخيذ الى التحييض الى الخسف الى التلجيف الى دح دح الى أز از الى أز از الى باظ باظ تقعد في مجلس رئيسة بنات السنقري وتطفق تعيب على جاراتها انهن ينظرن من الشبك ويضحكن ويلبسن ويتعطرن ويتحلين ثم يخرجن ويمشين الخيلاء . ولكن أنسيت ياسيدتي يوم قلت لشيخك ما احد يعشق الآ ويتغير لونه عند ذكر معشوقه . فقال لك ليس ذلك بمطرد . فكابرت واصررت على قولك فكابر هو ايضا واصرّ على انكاره . فقلت له حتى تحجيه لو انك ذكرت لي اسم — ثم انتبهت وسكت . فقال لك وقد طنّ قرن دماغه اسم من . فضحكت وقلت لا ادري . ويوم خرج بك ليفرّج عنك الهمّ في يوم راح فخرجت وقد كشفت نصف صدرك ولمعت الترائب والمفاهر والعوة وهو لايدري لغفلته . فلما التفت اليك ووجدك على هذه الحالة قلت ان الريح فعلت ذلك . ويوم كان يماشيك فقلت وانت ذاهلة لغلبة الهوى افدي بروحي وجه من اهوى . فلما سالك قلت ما هو الاّ انت وما انت الا هو . ويوم ارسلت خادمك . ويوم بعثت خادمتك . وغداة كتبت رقعة دعوت فيها من شاقك . وضحوة تاخرت . وعشيه تعطرت . وساعة اعتذرت . وفينة فرمت . وليلة اومت وجمجمت وفينه همت وهمهمت وهينمت . وتوة تزبرجت وتعلمت . وتفينة ارمت . وفينة زممت وسلمت . وحينه استحرمت حتى دعمت . الم تكن هذه القوافي كلها مكافئه لنظر جارتك من الشبك . وهذا المطران اتاسيوس التوتنجي قد صار الان مترجما معربا كاتبا منشئا وهو اضيق استا من ان يفعل . ولم يبال ان جرّ عليه بتعريبه است الكتابة . وقد حسب مضايق الحرف كلها سواء . وتعنى وتعمل . والهوج والهوق . وطرمذ وطرطر . وتفيش وتحرش . وقرمش وفشفش . وهربج وهالج . وسفسف وهمرج .

واخترص وغمم . وتورّه وضهيا. وانهأ وتيأ . وتكبّس وتز بب. وتنفج ولبلب. وخرشب وخشرب . وتحذلق وتأبب . وتصوك وترنخ وتندخ وتزنخ. ومردل وافجس. ومرطل وغطرس . وتفيهق وتشدق . وعفك و بشك .. وخرق وحزق . ور بك ولبك. وعصد ولفت . وهو اعظم في نفسه من المتّشمة (١) اليس في الكون من مرآة وزجنجل وسجنجل وعناس ومنظار ووذيلة ولُبجة ومارية وزلقة ومذية او زجاجة او صفيحة فتنظر سيداتي هؤلاء فيها وجوههن وماهن عليه من الاحوال . اليس في الشرق من سيبو يه فيصفع . اما في الغرب من ابن مالك فيقدع . الا اخفش فيغار على هذه اللغة. و يرض راس هذه الوزغة . كيف يظن الانسان انه عالم ولم يتعلم . واديب ولم يتأدب وفقيه ولم يتفقه . نعم انه لايرى جهله في مرآة كما يرى وجهه ولكن اليست الكتب هي مرآة العقل . فمتى قرأ كتب العلماء ولم يفهمها عرف حدّ ماوصل اليه من العلم . غير ان المطران اتناسيوس التونجي مطران طرابلس الشام المقيم في جميع البلدان الافيها لم يطالع شيئاً من مؤلفات العلماء . فغاية ماعلمه من النحو باب الفاعل والمفعول . ومن البيان نوع التجريد . ومن الفقه باب النجاسات . ومن العروض الوتد المتحرك. ومن البديع رد العجز على الصدر . هذا حد ماعرفه وتبجح به في مدرسة عين تراز حين كان قيم تلاميذتها . فاما سبب فراره منها الى رومية ثم من رومية الى مالطة ثم من مالطة الى باريس ثم فراره من باريس الى لندرة ثم فراره من لندرة الى مالطه . ثم فراره هذه السنة الى لندرة من بعض مدن النمسا حين كان يطوف فيها وعلى عاتقه الشلاق. وتشهيره هناك وتجريسه في الاخبار اليومية حتى حرم من تعاطي هذه الحرفة التي الفها مذ سنين كثيرة . وتسببه في زمن موسم لندرة في ان جمع جماعة مغنّين ومغنيات من بيت اشق باش بحلب . واغواؤه اياهم على ان يقصدوا الموسم طمعاً في الربح. ودخوله معهم ومع شركائهم اولا في شروط المصروف والتجهيز . ثم استرجاعه المبلغ الذي كان اداه اليهم واشتراطه عليهم اشراكهم اياه في الفائدة من دون ان يشاركهم في التعب . وذلك في مقابلة اغوائه وسعيه هذا الذميم الذي كان سببا في تخسير رئيسي هذه الزمرة

(١) المتشمة امرأة وشمت استها ليكون احسن لها وفي المثل هو أعظم في نفسه من المتشمة .

خسارة زائدة فلا يمكن شرحه في هذا الكتاب . وربما قال قائل هنا انك ايها المؤلف قد عبت على الناس جهلهم انفسهم . وقد اراك جهلت نفسك في هذا الفصل فاوردت فيه كلاماً لا يليق بالنساء فقد تجاوزت ابن ابي عتيق وابن حجاج . قلت الحامل على ذلك امران . احدهما ابراز محاسن لغتنا هذه الشريفة . والثاني اني قصدت تشويق القارئين ممن ملأوا حيطان ديارهم من قصب التبغ الى شراء كتاب في اللغة . فيافارئا و ياسامعا . و ياراقئا وياعامسا . قل للمتعنت ان من كان في فيه مرارة لم يستطيب الحلاوة . وبعد فاني

اترامى على اقدام سيدتي المدقم وسيدتي الدعشوقة وسيدتي الفلحسة وسيدتي
المسخمة واطلب منهن العفو من طغيان القلم اذ لا يمكن لي
ان ابيت هذه الليلة وهنّ عليّ غضاب



الفصل العشرون

في سرقة مطرانية

لما رجع الفارياق من عند الامير المشار اليه اخبر زوجته بما احسن به اليه وبانه وعده بوظيفة حسنة في مصر . فقالت انا اسبقك اذا وانت تنتظره هنا فاني قد اشتقت الى اهلي فدعني اسافر اليهم . قال لا بأس فلما ازف الفراق اخذ يودعها ويقول . اذكري يازوجتي ان لك في الجزيرة حليلا يرعاك وخليلا لا ينساك . فقالت من لي بهذا . قال فقلت ايّ هذا تعنين . قالت انما اعنيك . قلت بل المتبادر غيري . قالت هل الحقائق تتوقف على بوادركم انتم العرب . وما زال دابكم نبش ما في صدور النساء من الاسرار وقبس ما في يوافيخهن من الافكار . ومؤاخذتهن بالدث والوهم . ومعاملتهن بالحدس والقسم . ومعالجتهن بالهجس والزعم . والرضخ والرجم . والتذقح واللغم . والرسيس

والوغم . بدل العَمس والعَسم . والجلهزة والرأم . والحزم والوزم . والجمش والفقم . والضم والدعم (١) ولو ان الله تعالى يؤاخذ العباد باللغو مثلكم لما بقي على وجه الارض من بشر . قلت اكثر هذه المشاحنات ناشي عن لغتنا فان كل عبارة منها تحتمل عدة معان لسعتها . قالت ليتها كانت ضيقة . قلت وهذا ايضا من ذاك . قالت وكذا ذاك في هذا . قلت وكذلك عليه . قالت وتحته ايضا فالاولى اذاً السكوت . قلت ليس عند ذلك . قالت انتم الرجال كلكم مخاريون فطافطيون رفثيون . قلت من ابن علمت ذلك . قالت قد رجعنا الى الوهم والقسم . قلت بل فلنعد الى الوداع . قالت نعم اني اسافر وليس لي من آسف عليه . قلت هل انا في جملة غير المأسوف عليهم . قال ما انت كاحد الناس . قلت وهذا ايضاً كلام مبهم الست برجل . قالت في احد المعنيين . قلت هل بقي لك عليّ شي . قالت جمهُ . قلت أعندك حساب ذلك في دفتر . قالت نعم قد غرّنا تلحزكم في الشعر يالشعراء فزعمناكم قوالين فعالين . فاذا بكم لاتحسنون الا الوصف . قلت ومن يحسن الفعل . قالت من لايحسن الوصف . قلت واين حق الادب . قالت في مجالس العلماء لا في مجالس النساء . قلت ذلك يفضي الى الانبتات . قالت وهذا الى الانبتات . قلت كيف يمكن الفراق اذا . قالت ان شئت الوزم الان والا فدعه الى ان تأتي مصر . قلت كيف يتأتى وزم اعوام . في ساعات او ايام . واشفق ان احين وعليّ ذبابة . قالت اذا كنت لم تخش من الدين . فما اخالك تخشى من الحين . قلت لقد اذكرت ناسيا وطالما حسبت الناس كلهم مثلي . قالت وانت انسيتَ ذاكرة لكوني لم ارَ لي مثلا . قلت اذكري السطح واصفحي . قالت ليس الصفح الا من ذكر السطح . قلت اني اردت السطح القديم . قالت انما أريد الحديث . قلت يقال في الامثال لا بركة إلا في القديم . قالت يقال في الامثال لكل جديد لذة .

(١) الدث الرجم من الخبر والقسم ان يقع في قلبك الشي فتظنه ثم يقوى ذلك الظن فيصير حقيقة والرضخ خبر تسمعه ولا تستيقنه وتذقح له بجرم وتجني عليه مالم يذنبه والوغم والاثم بمعنى وهو الاخبار بالشي لاعن يقين والرسيس خبر لم يصح والعمس ان ترى انك لاتعرف الامر وانت تعرفه ونحوه الجلهزة والعسم انطباق الاجفان بعضها على بعض والوزم قضاء الدين والجمش المغازلة والملاعبة والفغم التقبيل والدعم ما بعده

قلت كيف الفراق وفي قلبك ضغن . قالت ياحبذا الضغن . قلت اذا كان بمعنى الشوق اليّ . قالت نعم هي من الالفاظ الغريبة التي تعلمتها منك كالعِقْيَون والفِطَحل والحبرة . قلت لعلك انست من العقيون العقيان ومن الفطحل الفحل ومن الحبرة الحِبَرة . قالت لاتانس الحِبرة بالحبيرة . قلت قد وقع ذلك فانهم قالوا النعمة من النعومة . قالت وقالوا ايضا التسديد من السداد . قلت لم يرد في النهي عن ذلك امر . قالت هو مقيس على نقيضه . قلت هذا بذر في ارض سباخ . قالت وذلك قراح بلا حرث . قلت الكلام على البذر . قالت لايمرؤ الطعام مادام في الحلق ولا يسوغ الماء الا اذا مرّ على الزانوم . ثم تواد عا بعد مباراة الدمم وشيعها الى سفينه النار ثم رجع الى منزله كئيبا مستوحشا . لانها كانت كثيرا ما تدله على الرشاد وتنهج له الرأي السديد. ثم لم يشعر بعد ايام الا وروائح المطران قد انتشرت وهي اشد اذى من الاولى . فبعث منها قدرا آخر الى اللجنه المذكورة وكتب لهم . ان لم تقطعوا هذه الرائحه من هذا الجو شكا كم كل ذي خيشوم . فلما بلغهم كتابه وعرضوه على طلاب العلم عندهم وجدوا ان قوله الحق . فبدا لهم ان يسدوا مسام المطران عن اخراج ذلك الخبث . وان يحضروا اليهم الفارياق لاعادة ترجمة الكتاب الذي تقدم ذكره. هذا وقد كان الفارياق ألّف في احوال اهل الجزيرة كتابا وعاب عليهم فيه بعض عادات ورسوم دينية ودنياوية مما تفردوا به على نصارى بلاده . وذلك كنغطيسهم اجراس الكنائس في ماء المعموديه واطلاق اسماء القديسين عليها . وكخروجهم بالدمى والتماثيل نهارا وايقاد الشموع امامها وما اشبه هذا . وكان قد اعار الكتاب المذكور رجلا من المسلمين ممن كان المطران يتردد عليه . فاتفق ان زاره المطران يوما فرأى الكتاب على كرسي وقد عرف خط مؤلفه . فغافل الرجل حتى خرج من الحجرة وتناول الكتاب وقطع منه الاوراق التي اشتملت على ذكر تلك العادات . ثم بعث بها الى رئيس مصلح البخر وكتب عليها باللغة الطليانية . انظر ايها الرئيس ان كان قائل هذا الكلام يصلح لان يكون تحت رئاستك أولا . الا أن الرئيس المذكور لما كان لا يعرف مااشتملت عليه تلك الصحائف مع عدم قدرته على عزل المتوظفين في خدمة الدولة . كان لابد من اعادة الاوراق الى المؤلف . وكان المطران قد فرّ من الجزيرة قبل اعادتها وطهر الجوّ

من روائحه . ولو بقي بعد ذلك لعوقب على هذه السرقة معاقبة تليق بامثاله . ووقتئذ عزم الفارياق على السفر لقضاء تلك المصلحة اعني ترجمة الكتاب وارسل الى زوجته يعلمها بما استقر عليه الرأي . واشار عليها بالرجوع اذا كان يرجو انه يبقى في بلاد الانكليز بعد انهائه الكتاب . غير انه جرت العادة في بلاد الافرنج بان مدرسي اللغات في مدارسهم الجامعة لا يكونون الا منهم وان كانوا جاهلين . وبعد ان رجعت الفارياقية تأهب الفارياق للسفر . وها هو الان يوعى القاموس والاشموني في صندوقه . وها انا منطلق لقضاء حاجة لا بد منها فاسمحوا لي ان استريح قليلا .

(تم الكتاب الثالث)



الكتاب الرابع

الفصل الاول

في اطلاق بحر

من لم يسافر في البحار ويقاس فيه الانواء والامواج فلا يقدر ترفه المعيشة في البر حق قدرها . فينبغي لك ايها القاريء البرّي ان تتصور في بالك كلما اعوزك الماء القراح واللحم الغضيض والفاكهة الطريئة والبقول الخضلة والخبز اللين ان اخوانك ركاب البحر محرومون من هذا كله . وان سفينتهم لاتزال تميد بهم وتتقلب وتصعد وتهبط . فدون كل لقمة يسترطرونها غصة . وفي كل رقدة يرقدونها مغصة . وانه متى وضع بين يديك لون واحد من الطعام فلا تفكر الا فيه . واعتقد ان غيرك يغتذى بمثله في تلك الساعة بل باقل منه . فبذلك يحصل لك التاسّي والتسلي . فاما اذا نظرت الى قصور الملوك والامراء وصروح الوزراء وفكرت فيما ياكلون ويشربون فانك لاريب تتعب نفسك وتعنيها لغير فائدة . ولكن احسب ان المعتقة التي يشربها الامير الذ من الماء الذي تشرب به انت . حالة كونك عارفا بامور المعاش والمعاد . مضطلعا بادارة مصلحة لك تكفيك واهلك المؤنة . وحالة كون زوجتك تجلس قبالتك او عن يمينك وشمالك . وولدك الصغير على ركبتك . تارة يغني لك . وتارة يناولك بيده اللطيفة ماسألت عنه امه . واذا خرجت شيعاك الى الباب واذا قدمت صعدا معك واجلساك على انظف متكا في الدار . فاما انت ياسيدي الغني فالاولى لك ان تسافر من مدينتك العامرة حتى ترى بعينك . مالم تره في بلدك . وتسمع باذنيك مالم تسمعه . وتخبر احوال غير قومك

وعاداتهم واطوارهم وتدري اخلاقهم ومذاهبهم وسياستهم. ثم تقابل بعد ذلك بين الحسن عندهم وغير الحسن عندنا. ومتى دخلت بلادهم وكنت جاهلا بلغتهم فلا تحرص بحقك على تعلم كلام الخنى منهم اولا. او تستحلي الاسماء من اجل المسميات. فان كل لغة في الكون فيها الطيب والخبيث. اذ اللغة انما هي عبارة عن حركات الانسان وافعاله وافكاره. ومعلوم ان في هذه ما يحمد وما يذم فاجلك عن ان تكون كبعض المسافرين الذين لا يتعلمون من لغات غيرهم الا اسماء بعض الاعضاء وعبارات اخرى سخيفة. لا بل ينبغي لك حين تدخل بلادهم سالما ان تقصد قبل كل شيء المدارس والمطابع وخزائن الكتب والمستشفيات والمخاطب. اي الاماكن التي يخطب فيها العلماء في كل الفنون والعلوم فمنها ما هو معد للخطابة فقط ومنها ما يشتمل على جميع الالات والادوات اللازمة لذلك العلم. واذا رجعت بحمده تعالى الى بلدك فاجتهد في ان تؤلف رحلة تشهرها بين اهل بلادك لينتفعوا بها ولكن من دون قصد التكسب ببيعها. ويا ليتك تشارك بعض اصحابك من الاغنياء في انشاء مطبعة تطبع فيها غير ذلك من الكتب المفيدة للرجال والنساء والاولاد ولكل صنف من الناس على حدته. حتى يعرفوا ما لهم وما عليهم من الحقوق. سواء كانت تلك الكتب عربية او معربة. ولكن احذر من ان تخلط في نقلك عن العجم الطيب بالخبيث والصحيح بالمعتل. فان المدن الغناء تكثر فيها الرذائل كما تكثر الفضائل. نعم ان من هؤلاء الناس لمن يابى ان يرى احدا وهو على الطعام. واذا اضطر الى رؤيته وهو تلك الحالة فلا يدعوه للمؤاكلة شيء مما بين يديه. لكن منهم من يدعوك الى صرحه في الريف فتقيم فيه الاسبوع والاسبوعين وانت الآمر الناهي. وان منهم لمن يبخل عليك برد التحية. واذا دخلت دار صديق منهم وكان في المجلس جماعة من اصدقائه لم يعرفوك من قبل فما احد يتحلحل لك في القيام. ولا يبدأ بك ولا يلتفت اليك. لكن منهم من اذا عرفك اهتم بامرك في حضورك وغيابك على حد سوى. واذا ائتمنته على سر كتمه لك طول حياته. وان منهم ان ينبزك بالالقاب اول ما يقع نظره على شاربيك ولحيتك او على عمامتك او يجذبك من ذيلك من وراء. ولكن منهم من يتهافت على معرفة الغريب. ويرتاح الى الرفق به والاحسان اليه ويرى اجارته وحمايته فرضا عليه

متحماً . وان منهم لمن يسخر منك اذا راك تلحن في لغته . ولكن منهم من يحرص على ان يعلمك اياها مجاناً اما بنفسه او بواسطة زوجته و بناته . وعلى ان يعيرك مايفيدك من كتب وغيرها ويرشدك الى مافيه صلاح امرك وتوفيقك . وان منهم لمن يحسبك قد وافيت بلاده تسابقه على رزقه فيكالح في وجهك و ينظر اليك شزرا . لكن منهم من ينزلك في بلده بمنزلة ضيف يجب اكرامه واحترامه والذبّ عنه بحيث لاتفصل عنه وفي قلبك ادنى ألم من اهله . وان منهم لمن يسخرك ان تترجم له او تعلمه ثم لايقول لك احسنت يامترجم او يامعلم . لكن منهم من لايستحلّ ان يكلمك من دون ان يؤدّي اليك اجرة فتح فمك وضم شفتيك . وان منهم لمن اذا اضطر الى ان يدعوك الى طعامه ثم اراك قد سعلت سعلة او تمخطت مخطة او فنخرت فنخرة قال لزوجته الآ انّ ضيفنا مريض . فلا ينبغي ان تكثري له من الطعام . فتقوم عن المائدة متضورا ويمتنّ هو عليك بين معارفه بانه صنع لك وليمة في عام كذا وشهر كذا ويوم كذا فيجعل تلك الليلة تاريخا . لكن منهم من اذا عرف انك مقيم في احدى قرى بلاده حيث لابيع ولا شراء ولا شي ينال من البقول والاثمار بعث اليك من مباقله وحدائقه ماسد فاك عن الشكوى . كما كان مستر دراموند يبعث الى الفارياق حين قدر الله عليه بالسكنى في بعض تلك القرى فكانت شكواه منها تسمع مع دوى الريح . ليت شعري اليس وجود مئة كتاب بدارك في الاقل خيرا من وجود كذا وكذا قصبة للتبغ وكذا وكذا اركيلة . مع ان ثمن المئة كتاب لايوازي ثمن ثلث قطع من الكهرباء اليس وجود مطبعة في بلادك اولى من هذه الطيالس الكشميرية وتلك الفراء السمورية وهذه الآنية النفيسة والحلى الفاخر . فان الانسان اذا نظر الى الحلى لايستفيد منه شيا لابدنه ولا لرأسه . وغاية فرحه به انما هو الشهر الذي اشتراه فيه فاذا مضت عليه اشهر استوى عنده وسقط المتاع فلم يبق منه ما يسرّه من وجوده سوى بيعه . فاما الكتاب فانه كلما مرت عليه السنون زادت قيمته وكثرت منافعه . اوليس اطلاعك على التاريخ والجغرافية واداب الناس زينة لك بين اخوانك ومعارفك تفوق على زينة الجواهر اليس تعليم اهلك وذويك شيا من ذلك ومن قواعد لازمة لحفظ الصحة من كتب الطب يكسبك عند الله اجراً ويؤمنك من مضار كثيرة تتطرق اليهم لجهلهم بها . فان قلت انه ليس

عندنا كتب في العربية تصلح للنساء. قلت هب ما قلته حقا ولكن أليس عند الافرنج كتب مختصة بالنساء والاولاد يؤلفها الرجال الفاضلون المهذّبون. فلمَ تشتري من الافرنج الخزّ والمتاع ولا تشتري منهم العلم والحكمة والاداب. ثم انك مهما بالغت في ان تبرقع زوجتك عن رؤية الدنيا فلن تستطيع ان تخفيها عن قلبها. فان المرأة حيثما كانت وكيفما كانت هي بنت الدنيا وامّها واختها وضرّتها. لا تقل لي ان المرأة اذا كانت شريرة لا يصلحها الكتاب بل يزيدها شرّة. واذا كانت صالحة فما بها من حاجة اليه. فاني اقول ان المرأة كانت اولا بنتاً قبل ان صارت امرأة. وان الرجل كان من قبل ولداً. ولا ينكر احد ان التعليم على صغر. كالنقر في الحجر. وانك اذا ربّيت وُلدك في العلم والمعارف والفضائل والمحامد يربون على ما ربّيتهم عليه. وتكون قد اديّت ما فرضه الله عليك من تاديبهم. فتفارقهم بعد العمر الطويل وخاطرك مجبور وبالك رخي مطمئن. فلم يبق لك الآن تقول ان ابي لم يعلمني وكذا جدي لم يعلم ابي واني بهما اقتدي. فاقول لك ان الدنيا في عهد المرحومين جدك وابيك لم تكن كما هي الان. اذ لم يكن في عصرهما سفن النار ودروب الحديد التي تقرب البعيد. وتجدد العهيد. وتصل المقطوع. وتبذل الممنوع. ولم يكن يلزم الانسان في ذلك الوقت ان يتعلم لغات كثيرة فكان كل من يقول. خوش كلدي صفا كلدي يقال فيه انه يصلح لان يكون ترجماناً في باب همايون. وكل من كان يكتب خطا دون خطي هذا الذي سودت به هذا الكتاب. لا الذي تقراه الان فاني بريء من هذه الحروف. كان يقال عنه انه كاتب ماهر يصلح لان يكون منشي ديوان فاما الان فهيهات. هذا الفارياق حين نوى السفر من الجزيرة الى بلاد الانكليز كان بعض الناس يقول له انك سائر الى بلاد لا تطلع عليها الشمس. وبعضهم يقول الي ارض لا ينبت فيها القمح ولا البقول. ولا يوجد فيها من الماكول الا اللحم والقلقاس. وبعضهم يقول اني اخاف عليك ان تفند فيها رئتك لعدم الهواء. وبعضهم يقول امعاك لعدم الاكل. وبعضهم صدرك او عضواً آخر غيره. فلما سار اليها وجد الشمس شمسا والهواء هواء. والماء ماء. والرجال رجالا والنساء نساء. والديار ماهولة والمدن معمورة. والارض محروثة اريضة كثيرة الصُوَى والاعلام. خضلة الغياض والرُبُض والاجام. ناضرة المروج.

زاهية الحقول . غضة البقول . فلو انه سمع لاولئك الناس لفاته رؤية ذلك اجمع . فان خشيت ان تفوتك هناك لذة الاركيلة ولذة تكبيس الرجلين قبل الرقاد. فاعلم ان ما ترى هناك من العجائب ينسيك هذا النعيم . ويلهيك عمّا الفته في مقامك الكريم . كيف ترضي لنفسك ان تفارق هذه الدنيا ولم ترها وأنت قادر على ذلك . وقد قال ابو الطيب المتنبي

ولم ارَ في عيوب الناس شيئا كنقص القادرين على التمام

ام كيف تقتصر على معرفة ربع لغة ولا تتشوق الى علم ما يفكر فيه غيرك . فلعل تحت قبعته افكارا ومعاني لم تخطر بها تحت طربوشك . بحيث انك اذا استوعبتها تود لو انك عاصرت صاحبها وتشرفت بمعرفته وصنعت له مادبة فاخرة زينتها بصحاف الرز والبرغل . وكيف تبلغ من عمرك ثلثين سنة ولم تؤلف شيئا يفيد اهل بلادك . فما ارى بين يديك الا دفاتر بيع وشراء وفناديق دخل وخرج . ورسائل فاسدة المعاني ركيكة الالفاظ تنظر فيها في كل صباح ومساء . فاما اذا قصدت السفر لمجرد التفاخر فقط بان تقول مثلا في مجلس زارك فيه اصحابك الكرماء واقرانك العظماء . قد رأيت مدينة كذا وشاهدت شوارعها النظيفة الواسعة وديارها الرحيبة ومراكبها الحسنة واسواقها البهيجة وخيلها المطهمة ونساءها الرائعة وعساكرها الجرارة . واكلت فيها في اليوم الاول كذا وشربت في اليوم الثاني كذا . ثم ذهبنا بعد ذلك الى بعض الملاهي ثم الى احدى الملهيات . وبت معها على فراش وطيء . وكان قبالة السرير مرآة كبيرة في طول الفراش وعرضه فكنت ارى نفسي فيها كما كنت في الفراش. ثم قمت في الصباح وجاءتنا خادمة صبيحة بصبوح او فطور. ثم عدت الى محلي فوجدت فيه فلانا ينتظرني وكان ذلك نحو الساعة الحادية عشرة اي قبل الظهر بساعة . فتوجهنا معا الى البستان المسمى بالبستان السلطاني وبينما نحن نمشي فيه وننظر الى الشجر الباسقة والزهور المدبجة اذا بالفتاة التي بت عندها تماشي رجلا يغازلها . فلما رأتني تبسمت وسلمت عليّ . وكأنّ سلامها لم يسؤ الرجل فانه نزع لي قبعته فعجبت جدا من عدم غيرته . اذ لو كانت الفتاة عندي لحجبتها عن النور . فذلك كله يسمى في العربية هذراً وهراء وهفتا وهرجا وهلجا وسقطا وهيشا وونغا وخطلا واخلاء ولخي وطفانين وهذيانا وثرثرة وفرفرة وحذرمة وهبرمة وهنرمة وخزربة وخطلبة

وغيذرة وشمرجة ونفرجة وهمرجة وثغثغة وفقفقة ولقلقة ووقوقة وهتمنة وفي المتعارف عند العامة فشارا وعلكا . اذ لا فائدة فيه لاحد من الناس . بخلاف ما اذا قلت لهم ان الغيساني من الرجال هناك اذا حضر مجلسا فيه نساء لا يغمز احداهن بعينه ولا يتبظارم ولا يبتهر (١) . ولا يقول لها انه يزور النساء المحصنات بعلم بعولتهن و بغير علمهم ويأكل عندهن ويشرب . ثم يخلو بهن في مضاجعهن ويرجع الى منزله مسرورا . وكاين من مرة وضع يده في جيبه فوجد فيه كيسا ملآن من الدنانير او كاغد حوالة على بعض الصيارفة . وانه اذا مرّ في الاسواق تهافت على رؤيته البنات من الرواشن والشبابيك والكوى والسهاء والاجلاء . فمنهم من تشير اليه بيدها او برأسها . ومنهن من تهجله بعينها ثم تضع يدها على قلبها . ومنهن من ترميه بوردة . واخرى بباقة من المنثور او برقعة فيها شعر . او انه يقول بحضرتهن قد انحلّت تكّتي او حكّني رفغي لكون حشو سراويلي غليظا . او يحك استه او يرطل عياره . او يتمطى ويتمتى ويتمطط ويتمدّد ويتمطّل ويتمتأ ويتمتت ويتمأى ويتنطط ويتمعط ويتمغط ويتبسط ويتبأط . بل انما يكلمهن متادبا محتشما غاضّ الطرف خافض الصوت . ويسأل كبيرتهن عما طالعت يومها ذاك من الاخبار والحكايات والنوادر الادبية وانه شرع في تأليف كتاب مفيد يشتمل على ذكر آثار الاقدمين واخبارهم ثم يلقي على صغيرتهن احجية ادبية ليلهيها بها و بمثل ذلك يدخل مكرما ويخرج محمودا . و بخلاف ما اذا قلت لهم ايضا ان التاجر المثري هناك لا يتختم بخواتم الماس والزمرذ . ولا يتحلى بسلاسل الذهب . ولا يقتني النادر من الاثاث والماعون والفرش . بل انما ينفق امواله في سبيل البر واغاثة الملهوفين وامداد الارامل واليتامى وفي انشاء المدارس والمستشفيات . وفي تصليح الطرق وتحسين المدينة وازالة الاوساخ والعفونات منها . وفي ان يربي ولده بالادب والعلم والفضائل . فترى منهم من سنه اثنتا عشرة سنة يكلمك بما يكلمك به من سنه منا اثنتا عشرة سنة بعد العشرين . و بخلاف ما اذا تفضلت بذكره فقلت ان لكل انسان عندهم ممن لا يعدّ من الاغنياء والفقراء خزانة كتب نفيسة في كل فن وعلم . وما من

---

(١) تبظرم اذا كان احمق وعليه خاتم فيتكلم ويشير به في وجوه الناس وابتهر ادعى كذبا وقال فجرت ولم يفجر

بيت الا وفيه اضبارة من صحف . وان الرجل منهم اخبر بالبلاد الاجنبية من اهلها . وان اكثر فلاحيهم يقرؤن ويكتبون ويطالعون الوقائع اليومية ويعرفون الحقوق الرابطة بين المالك والمملوك والحاكم والمحكوم وبين الرجل وامرأته . وان من هذه الوقائع المطبوعة ماتبلغ عدة نسخه اربعة عشر مليونا في العام . وما يدفع عليها لخزنة الدولة على طبع أجازتها يبلغ أكثر من خمسين الف ليرة . وأنها لو عرّبت نسخة واحدة منها لجاءت أكثر من مائتي صفحة . وأن صاحب العائلة منهم اذا جلس صباحا على المائدة مع زوجته وأولاده يقبّل كلاً منهم ويسألهم عن صحتهم . ويفيدهم بعض نصائح وتنبيهات تكون لهم أماما في ذلك اليوم . وأنهم يكلّمونه وهم مبتهجون فرحون ويرون حضوره فيهم سلوانا . وأنهم لايخالفون له أمراً ولا يستثقلون منه تكليفا . وهم مع ذلك يدلون عليه بالبنوّة ويهابونه للابوّة . فهذا وأمثاله أصلحك الله ينبغي أن تشنّف به مسامع أصحابك الكرام . عسى أن ينشطوا الى أنشاء مدرسة أو ترجمة كتاب أو لارسال ولدهم الى بلد يتأدبون فيها بالاداب المحمودة والمناقب الكريمة . واياك ياسيدي من أن تميل قبل هذا كله الى أن تأخذ عن بعضهم الخصال الذميمة كالطيش والنزق والبخل والفسق والكبر ومد الرجلين في وجه جليسك فقد ذكرت لك آنفا أن البلاد التي تكثر فيها الفضائل تكثر فيها الرذائل أيضا وأنه ليس من انسان ألا وفيه عيب بل عيوب غير انه ينبغي لكل منا ان لايزال يجد ويسعى في طريق الكمال وفي تهذيب اخلاقه وحواسه الباطنة بكل ما يبدو لحواسه الظاهرة . وكما أن لذة الحواس لايشعر بها الانسان الا في مقدم جسمه دون مؤخره كذلك ينبغي لكل ذي جسم من الحيوان الناطق ان يعتمد على التقدم في المعارف والدراية . والحامد الى الغاية . وكنت اود لو ان أحدا من اهل بلادنا نقل فضيلة او مأثرة عن هؤلاء الناس الى اخوانه ومعارفه كما تنقل الاخبار

والروايات . وبودي لو تستحيل اصناف الماس والزمرد والياقوت والدهنج
والشمع والدر والعقيان والكهربا والمها وقلنسوة الراهب معبا
حالة كونها معدودة من ألجواهر والتحف الى كتب
ومدارس ومكاتب ومطابع .

الفصل الثاني

في وداع

لما حان سفر الفارياق أخذ يودع زوجته بعد أن أوعى القاموس والاشموني في صندوقه ويقول . أذكري يازوجتي أناعشنا معابرهة طويلة من الدهر. قالت ماأذكر الا هذا . قال فقلت أذكرنا كرٍ أم شاكرٍ . قالت نصف من هذ أونصف من ذاك قلت يرجعنا النحت الي الاول قالت أو يرجع الاول الي النحت . قلت أي أول اضمرتِ . قالت ما لك ولتأويل المضمر . قلت حسبي ان تبيّني لي حقيقة ذلك . قالت اذا فكرت في انك لي ولغيري كنت من الناكرين والا فمن الشاكرين . قلت انك كنت نهيتني على المعاملة بالقسم وها انت الان تأتينه . قالت بل هو يأتيني . قلت اما في فيك لفظة لا . قالت ان لفظتها كانت نعم . قلت انّ لا من المرأة الى. قالت وان نعم نعم . قلت اجعلت هذا دأبك . قالت ودأبت في هذا الجعل . قلت هذا لا يليق بذات ولد . قالت ولا تلد من لاتليق . قلت من مادة واحدة . قالت ان كانت المادة غير زيادة متصلة احوجت الى اختلاف الصور . قلت وكيف تبقى متصلة على اختلاف الاشكال . قالت لااشكال في كيفية الاشكال فان واحدا منها يغني عن الجميع . وانما الكلام على رسم الكمية . قلت ما الحدّ . قالت في الجد الهزل وفي الهزل الجد . قلت ارأيتك لو اقمت نائبا عني في ذاك مدة غيابي . فضحكت وقالت على ما أحبّ انا أم على ماتحب انت . قلت بل على ماتحبين انت . قالت لايرضى الرجل بذلك الا اذا كان غير ذي غيرة ولا يكون غير ذي غيرة الا اذا كره امرأته وكلف بغيرها فانت اذا كلف بغيري . قلت ما انا بالكلف ولا بالطرف . لكن الرجل اذا كان شديد الحب لامرأته ودّ لو انه يرضيها في كل شيء . على ان الغيرة لاتكون

دائما عن المحبة كما نصّوا عليه . فان بعض النساء يغرن على ازواجهن عن كراهيـة لهم واعنات . مثال ذلك اذا منعت المرأة زوجها عن الخروج الى بستان او ملهى او حمّام مع عده رجال متزوجين . وهي تعلم انهم في هذه المواضع لا يمكنهم الاجتماع بالنساء فهي انما تفعل ذلك تحكما عليه ومنعا له من ذكر النساء مع اصحابه والتلذذ بما لا يضيرها . وكذا اذا حظرته عن النظر من شباكه الى شارع او روضة حيث يكثر تردد النساء وكذا الحكم على الرجل لو فعل ذلك بامرأته . فهذا عند الناس يعدّ غيرة لكنه في الواقع بغضة . او ربما كان آخر الغيرة اول البغض كما ان افراط الضحك هو اول البكاء وكيف كان فان الرجل لا يمكن ان يحب زوجته الا اذا اباح لها التلذذ بما شاءت وبمن احبّت قالت أيفعل ذلك احد في الدنيا . قلت نعم يفعله كثير في بلاد غير بعيدة عنا . قالت بابي هم ولـكن ماشأن النساء ايفعلن ذلك ايضا لازواجهن . قلت لا بدّ حتى يعتدل الميزان . قالت اما انا فلا ارضى بهذا الاعتدال فالميل عندي احسن . قلت وكذا هـو عندي في بعض الاحوال . قالت ولاحوال البعض . قلت فلنعـد الى السفر اني اسافر اليوم . قالت نعم الى بلاد فيها البيض الحسان . قلت اتعنيهم ام تعنيهن . قالت اعني نوعاً ويعنيني آخر . قلت ولمَ يعنيك وانتن المطلوبات في كل حال ولذلك يقال للمرأة غانية . قال في القاموس الغانية المرأة التي تطلَب ولا تطلب . قالت ما أحسن كلامه هنا لولا انه قال قبل ذلكِ الغواني النساء لانهن يظلمن فلا يُنتصرن . غير ان هذه النقطة شفعت في تلك . قلت حسبكن التنقيط داب قديم . قالت مثل دأب الرجال في التحريف . وكيف كان فان مطلوبيتنا هي أصل العناء . فان المطلوبة لا تكون الا ذات العرض والاحصان فويل لها ان خانت محصنها . وويل لها ان حرمت طالبها وباتت . تلك الليلة مشغوله البال بحرمانه وخيبته وبكونها صارت سببا في ارقه وجزعه وحسرته . والطالبة تعود غير مطلوبة . قلت ليست اخلاق الرجال في ذلك سواء . قالت انما اعني الرجال الذين يطلبون ويكلفون بمن يطلبونه لا أولئك الطرفين الشنقين المسافحين الذين دأبهم التذوّق والتنقل من مطلوب الى آخر ونفع أنفسهم فقط دون مراعاة نفع سواهم . ولكن هيهات هل في الرجال من يقيم على الوداد ولا يميل عنه كل يوم . لعمري لو كانت النساء تطلب الرجال طلب الرجال للنساء لما رأيت فيهم غير مفتون . قلت هل في النساء من تقيم على

الوداد ولا تجنح عنه كل يوم الف مرة هذه الكتب كلها تشهد للرجال بالوفاء وعلى النساء بالخديعة . قالت من كتب هذه الكتب اليس الرجال هم الذين لفقوها . قلت ولكن من بعد التحري والتجربة . قالت من بات الحكم وحده يفلج قلت بل اوردوا على ذلك شواهد وكفى بما ورد عن سيدنا سليمن برهانا ودليلا . فانه قال قد وجدت بين الف من الرجال صالحا فاما بين النساء فلم اجد صالحة . قالت ان سيدنا سليمن وان يكن قد اوتي من الحكمة ما لم يؤته غيره غير ان افراطه في النساء شوش عليه الصالحة منهن من غير الصالحة . الا ترى ان بائع المسك لطول ائتلافه بالرائحة القوية تضعف منه حاسة الشم بحيث لا يعود يشم الرائحة اللطيفة . واما ايراد الادلة من الرجال على النساء دون ايراد ادلة النساء على الرجال فمحض ظلم وبطر . قلت نعم كان الاولى مناصفة هذا الايراد ولكن سبحان الله انتن تتهمن الرجال في كل شي ثم تتهافتن عليهم . قالت لولا اضطرار الاحوال . لما شغلن بذلك الابوال . قال فضحكت وقلت اي جمع هذا قالت قسته على غيره . قلت وهل استوى المقيس بالمقيس عليه . قالت لا فرق . قلت بل كله فرق فان اللغة لا تؤخذ بالقياس . ولو صح ذلك لم تكن مناسبة بين الذكر والانثى ولا بين الانثى والذكر . ولا بين تذكير حقيقة التانيث وتانيث ما هو غير مقابل بمثله . قالت وهذا ايضا من بطر الرجال وتشويشهم فلا يكادون ياتون امراً مستقيما . قلت قد رجعت الى لومهم . قالت والله لقد حرت في الرجال . قلت والله لقد حرتُ في النساء . ولكن فلنعد الى الوداع اني اعاهدك على ان لا اخونك . قالت بل تخونني على عهد . قلت ما يحملك على سوء الظن بي . قالت اني ارى الرجال اذا كانوا في بلاد لم يُعرفوا بها افحشوا غاية الافحاش . الا ترى الى هؤلاء الغرباء الذين ياتون الى هذه الجزيرة كيف يتهتكون في العهر والفجور . فاول ما يضع احدهم قدمه على الارض يسأل عن الماخور . ولا سيما هؤلاء الشاميين ولا سيما النصارى منهم ولا سيما الذين الموا بعلم شي من احوال الافرنج ولغاتهم فانهم يخرجون من المراكب كالزنابير اللاسعة من هنا وهناك . قلت لعلهم كانوا في بلادهم كذلك . قالت ليس عندهم اسباب الفحش هناك . قلت او كانوا فاسدين بالطبع . قالت نعم هو عرق فساد كامن فيهم فاول ما يستنشقون رائحة بلاد الافرنج ينبض فيهم . ولذلك تراهم ابدا يتلمظون بذكر بلاد الافرنج وعاداتهم واحوالهم .

مع انك اذا سألت احدا منهم عن طعامهم قال لا يستطيبه . او عن الحانهم قال لا تطربه . او عن كرمائهم قال لم تادبه . او عن حماماتهم قال لم تعجبه . او عن هوائهم قال لم يلائمه . او عن مائهم قال لم يسغ له . فيكون لهجهم بذكر بلادهم وتنويههم بمحاسنها انما سببه الفحش . وانت من يضمن لي طبعك عن الفساد وقد اسمعك كل يوم تُهَيِّمُ بذكر الرجراجة والرضراضة والبضباضة والفضفاضة والرِّبحلة والرعبوب والعطبول . وهي لعمري الفاظ تسيل لعاب الحصور وتشهّي الناسك . قلت ان هو الا كلام . قالت اول الحرب كلام . قلت اتريني اعدّي عن هذه الصنعة الشائقة . والحرفة العائقة . قالت ان لم تتصور ذاتا بعينها عند الوصف فلا بأس . قلت ان لم اتصور ذاتا لم يخطر ببالي شيء . قالت اذن هو حرام . قلت ما كفارته . قالت تصورك اياي لا غير . قلت ولكن انت خالية عن بعض الصفات التي لا بد من ذكرها قالت اذا كان الرجل يحب امرأته راى فيها الحسن كله ونظر من كل شعرة منها امرأة جميلة . كما انه اذا احب امرأة غيرها احبّ لاجلها بلادها وهواها وماءها ولسان قومها وعاداتهم واطوارهم . قلت او كذلك المرأة اذا احبت رجلا . قالت هو في النساء اكثر لانهن اوفر حبا ووجدا . قلت ما سبب ذلك . قالت لان الرجال يتشاغلون بما ليس يعنيهم . فترى واحدا منهم يطلب الولاية وآخر السيادة وآخر البحث في الاديان وفي ماغمض من السفليات والعلويات . والنساء لا شيء يشغلهن من ذلك . قلت ليتك تشاغلت مثلهم . قالت ليت لي قلبين في شغلنا . قلت افتنظرين فيّ الحسن كله كما زعمت . قالت أُحْسِن فيك النظر : قلت فلنعد الى الوداع لا بل فلنعد الى التشاغل . فاني اريد ان انهي هذه المسألة قبل ان افصل من هنا والاّ فتكون لي شاغل الطريق وربما افسدت شغلي عند القوم فارجع باللوم عليك وعلى سائر النساء . قالت إعلم ان المرأة تعلم من نفسها انها زينة هذا الكون كما ان جميع ما فيه انما خلق لزينتها لا لزينة الرجل . لا لكونه مستغنيا عنها بذاته او لكونها هي مفتقرة اليها لتحلو بها في عين الناظر واذن السامع . بل لعدم جدارة الرجل بها . فان الزينة نوع من الاخذ والتلقي والاستيعاب والزيادة وهي احوال انسب بالمرأة منها بالرجل . وبناء على هذا اي على ان جميع ما في الكون خُلق لها بعضه بالتخصيص وبعضه بالتفضيل والايثار . كان من بعض اعتقادها ان نوع الرجل ايضا مخلوق لها .

لا بمعنى انها تكون زوجة لجميع الرجال فان ذلك محال من وجهين . احدهما انها لا تطيق ذلك لان سرّية ذلك اليهودي (على ما ذكر في الفصل التاسع عشر من سفر القضاة) لم تطق اهل قرية واحدة (هي جبعة) على فلتهم ليلة واحدة . بل ماتت في الصباح وسيدها يحسبها نائمة . وهذه الحكاية ذُكرت رَدْعاً للنسآ . والثاني انه اذا ثبت لامراة حق في حكر الرجال والاستبداد بهم ثبت الحق الباقي . ولكن بمعنى انها أهل لان تعاشر جميع الرجال وتتعرف ما عندهم . فتتلهى من واحد بتمليقة ومن آخر باطرآءة ومن غيره بمغازلة ومن آخر بمطارحة وما اشبه ذلك . مما لا يمنعها من محبة زوجها والكلف به . لا بل — قال فقلت انمّي هذه اللاباليّة فاني اراها ترجمة لداهية من دواهي النسآ وعنوانا على مكيدة من مكايدهن . فضحكت وقالت ربّما دلت على الراى الظنون . غير اني اخشى من ان تاخذك لبيانها شفشفة ورعدة فتتاخر عن السفر . او ان تظن ان هذا دابي معك . معاذ الله . اني لم اخُنْك بضَمْد ولا بغيره . وانما علمت ما علمت من النسآ لان النسآ لا يكتم بعضهن عن بعض شيا من أمور العشق وأحوال الرجال . قلت اَوْجزي فقد قلقت وفرقت وعرقت . قالت اعلم ان بعض النسآ لا يتحرّجن من وصال غير بعولتهن لسببين . الاول لعدم اكتفائهن بالقدر المرتب لهن منهم . فانهم يعودونهن اوّلا على مايعجزون عن آدائه اليهن آخرا . ولا يخفى ان من النسآ المُدقِم وهي التي تلتهم كل شي . ومنهن الشفيرة وهي القانعة من البعال بايسره . ومنهن الضامد وهي التي تتخذ خليلين . ومنهن المِطْماع وهي التي تُطمع ولا تمكّن . ومنهن المَرْيم وهي التي تحب حديث الرجال ولا تفجر وهو خُلقي . قال فقلت اللهم امين . قالت واللاعة وهي التي تغازلك ولا تمكنك . والسبب الثاني لاستطلاع أحوال الرجال واختبار الابتع منهم وغير الابتع لمجرد العلم كيلا يفوتهن حال من أحوالهم . ومنهن مَن تعتقد ان زوجها يخونها عند كل فرصة تسنح له . لما تقرر في عقول النسآ ان الرجال لاشغل لهم الا مغازلتهن ومباغمتهن . فهي على هذا لا تجد سبيلا للشطح الا وتزف فيه . اعتقاد انها اخذت بثارها جَزْما اي قبل وقته الموقوت . ومع ذلك فلا يخلن عن محبة بعولتهن . بل ربما كان ذلك الشطح ادعى لزيادة حبّهن لهم . قلت لا متّعني الله بحبٍ ناشي عن مدقمية ولا ضمد . ولكن كيف يكون هذا التخليط ادعى

الى زيادة الحبّ والمراة اذا ذاقت البكبك والعُجارم والقازح والكُباس لم تقتنع بعد ذلك بزوجها حالة كونه لا يحول عن الصفة التي فطر عليها . وكذا الرجل ايضاً اذا ذاق الرشوف والرصوف والحزنبل والعُضْرُوض والاكبس فانه يرى زوجته بعد ذلك ناقصة . فضحكت وقالت لو كانت هذه الصفات لازمة للمراة وكان عدم وجودها فيها نقصاً لما كنت تراها في افراد قليلة من النساء . فان معظمهن على خلاف ذلك . فاما سبب زيادة المحبة فيما زعمن مع التخليط فهو ان الزوج لطول الفته بزوجته وضراوته عليها وحالة كون مسّ احدهما الاخر لايحدث في جسم الماسّ والممسوس هزة ولا رعشة ولا ربوخيّة . يمكن له معها المانة والامعان والوقوف . بخلاف الغريب فانه لشدة نهمه ودهشته او لفرط مراوحة المراة اياه على العمل . او لكون الحرام لايسوغ دائماً مساغ الحلال تفوته الصفتان المذكورتان . فاللذة معه جلّها ناشي عن التصور . أي عن تصور كونه غير زوجها . كما ان نقصها مع زوجها جلّه ناشي عن تصور كونه غير غريب . والا فالواقع ان اللذة في الحلال أقوى . غير ان التصور له موقع يقرب من الفعل . وبيانه لو اعتقد رجل مثلا ان امراة غير امراته تبيت معه ثم باتت معه امراته بعينها وهو لا يعلم ذلك كما جرى لسيدنا يعقوب عم . لوجد امراته تلك الليلة متصفة بجميع الصفات التي تصورها في غيرها . وكذا شان المراة . فبنآ على ماتقدم من اعتقاد المراة بان جميع مافي الكون من الحسن والزينة والبهجة ناسبا كان تصورها صفات الحسن وتشاغلها به مطلقا عاما . غير انه اذا كان لها خاصّ قريبا منها تناولت ذلك الخاصّ متناول العام . حتى انه كثيراً ما يخطي. فكرُها واحدا منهم بخصوصه .. فيتجاذبه اثنان أو ثلثة حتى تذهل عن الشاغل والاشغل . وهو في الواقع يحوّف من اللذة كمن يريد ان يشرب من ثلث قلل يضعها على فيه في وقت واحد. قلت كلامك هذا ينظر الى قول الشاعر

اذا بتّ مشغول الفواد بما ترى   من الغيد عيني والجمال مفرق
أركّب في وهمي محيّا يشوقني   على قامة اولى به ثم اشبق

ولكن قد نهيتني آنفا في التغزل عن تصوّر ذات بخصوصها وقلت انه حرام فهلاّ قلت بحرميّة هذا ايضا. قالت انما حرميّة ذاك لكونه ذاهبا في الكلام سدى وسرفا.

على ان الغزل كله كيفما كان لاخير فيه ولا جدوى . فاما في الفعل من قبل النسآ فانه ينشأ عنه صباحة الاولاد . ولذلك ترى انف بعضهم كانف زيد وفمه كفم عمرو وعينيه كعيني بكر . وهو ايضا جواب لمن قال ان في رؤية الرجل نسآ كثيرة مصلحة تعود على امراته لا كتسابه منهن التمشير عند الاياب . بخلاف خروج المراة فان التمشير ملازم لها . فاما هولآ الحمقى الزاعمون ان تصوّر الرجل موثر في توزيغ الولد فيلزمهم ان لا يروا امراة أصلا غير نسائهم . لئلا تأتي ذريتهم كلها أناثا او في الاقل خناثا . وذلك لمناعفة التصوّرين من قبل الاب والام . ألاَ وانّ امراة لا تستبدل زوجها الا بالفكر والتخيل الجديرة بان تكون قِبلة كل مطري . وان لا يفكر زوجها الا فيها . قلت مقتضى كلامك ان النسآ المقصورات عن رؤية العموم لا لذة لهن مع الخصوص . قالت اما بالنسبة الى ناظرة العموم فلا . واما بالنسبة الى العدم فنعم . فان الماء مهما يكن سخنا يطفئ النار . قلت وبالعكس أي ان النار مهما تكن باردة تسخن الماء . قالت يصح العكس لكن الطرد أولى . قلت الى كم قسم تقسم اللذة . قالت الى خمسة أقسام . الاول تصورها قبل الوقوع . الثاني ذكرها قبله . الثالث حصولها فعلا بالركنين المذكورين . الرابع تصورها بعد الوقوع . الخامس ذكرها بعده . وكون لذة التصور قبل الوقوع اقوى او بعده اقوال . فذهب بعض الى ان الاولى اقوى . لان الفعل لما كان غير حاصل كان الفكر فيه اجول وامعن فلا يقف على حدّ . وزعم آخرون ان الحصول يهيّئ للفكر هيئة معلومة وصورة معينة يعتمد عليها في قياس مايترقب من الاعادة والتكرير . وكما حصل الخلاف في وقتي التصور حصل ايضا فيه وفي الذكر . والعبرة بحدّة التصوّر وذرب اللسان . فاما اصلح الازمنة لها فالصيف عند النساء والشتاء عند الرجال . فاما الكمية فمن النساس الموحدون ومنهم المثنوية ومنهم اهل التثليث . قلت ومنهم المعتزلة والمعطّلون . قالت هؤلاء لاخير فيهم . وما هم جديرون بان يعدّوا مع الناس . قلت ما شأن من يتزوج اثنتين وثلاثا . قالت هو امر مغاير للطبع . قلت كيف وقد كانت سنّة الانبياء . قالت هل نحن نبحث الان في الاديان او نتكلم في الطبعيات . الا ترى ان الذكور من الحيوانات التي قُدّر لها ان تعيش مع اناث كثيرة قُدّر لها ايضا القدرة على كفايتهن كالديك والعصفور مثلا . وغيرها انما يعيش

مع واحدة ويكتفي بها · ولما كان الرجل غير قادر على كفاية ثلث لم يكن اهلا لان يحوزهن . وبعدُ فلايّ سبب حُظرت المرأة عن ان تتزوج ثلثة رجال . قلت أن في كثرة النساء للرجل كثرة النسل التي يتوقف عليها عمران الدنيا · وذلك مفقود في كثرة الرجال للمرأة الواحدة . على اني قرأت في بعض الكتب ان هذه العادة لم تزل مستعملة عند بعض الهمج . قالت مه مه اهؤلاء هم الهمج وانتم المتمدينون الكيّسون. فاما دعواك بتكاثر النسل في كثرة النساء فهل سكان الارض الان قليلون . الم تضق بهم البسيطة وتثقل بهم بطونها ويمزّق اديمها . فما الموجب الى هذا الاكثار سوى البطر والنهم · قلت قد عدت الى لوم الرجال فلنعد الى الوداع. اني مسافر عنك اليوم وتارك عندك فؤادي حتى اذا زارك احد أحِسّ به . قالت كيف تحسّ وما فؤادك معك · والناس يخصّون القلب بالحسّ والشعور . والحزن والسرور . قلت ان حسي برأسي . قالت من اي جهة . قلت من الجانب الاعلى من الرأس.قالت نَعم الشي الى جنسه اميل . ولكن اين تتركه . قلت على العتبة كيلا يخطوها احد . قالت فاذا طفر فوقها . قلت في الفراش . قالت فان يكن في غيره . قلت فيك . قالت ذلك احسن مقرًا . اني اعاهدك على ما كنا عليه من الحب والوداد من ايام السطح الى الان . ولكن حين احسّ واشعر من هنا بانك تبدلت السطح بالشطح اقابلك بفعل مثل فعلك والبادي اظلم . قلت انك كثيرة الوساوس شديدة الغيرة . فلعل شعورك يكون عن وسواس . قالت بل الاولى ان الوسواس يكون عن الشعور . قلت دار ما بيننا الدور . قالت حاولْ اذًا فكّه . قلت هو فرض فلا بدّ من قضائه . قالت وقضاء لابدّ من فرضه . قلت ايعقَد به العهد . قالت اذا عُهد به العقد · قلت لا أرضى بهذه الصفة . قالت ومن لي بوصف هذا الرضى . قلت هل كان العقد في الشرط . قالت وهل كان الشرط بلا عقد . قلت مَثَلنا مثل ذلك الجنون · قالت لولا الجنون ماجمعنا الزواج : قلت اكثر الناس على هذا . قالت اكثر الناس مجانين · فقلت الحمد لله رب العالمين .



الفصل الثالث

في استرحامات شتى

من كان من طبعه المين والافتراء او من كان جاهلا بالنساء ارتاب في هذا الوداع ونسبه الى ترقيش الشعراء ومبالغاتهم · ولكن اي منكر على من جعلت دابها وديدنها وشنشنتها ونشنشتها ومُهوأتها وهُذَيرياها وأُهجورتها وفَعِلاتها ومَطِرتها المحاضرة والمفاكهة والمساقطة والمطارحة والمحارزة والمجارزة وسرعة الجواب . بل كثيرا ما كان يجتمع بالفارياق اثنان او ثلثة من اصحابه فاذا خاضوا في حديث انتدبت لهم وجارتهم فيه وعارضتهم وماتنتهم . فكل فصيح ان تعارضه لم يُبِن وكل بليغ ان تساجله يرتَكّ . وقد علم بالتجربة ان جواب المرأة اسرع من جواب الرجل . وأن المشتغل بالعلم يكون ابطا جوابا من غير المشتغل به . لانه لا يقدم على ذلك الا بعد الفكر والرويّة · على ان هذه العبارات التي نقلتها عن هذه المرأة المبينة من غير قراءة البيان هي دون الاصل بمراحل . فاني لم اقدر في نقل الكلام على نقل الحركات التي تبدو منها · وعلى ان أصوّر للمطالع عيونا تغازل وحواجب تشير · وانفا يرمع . وشفاها تزمع . وخدودا تتورد . وجيدا يلوي · ويدا تومي · ونفسا يربو ويخفت · وصوتا يخفض ويثبر . وزد عليه مسح المآق اشارة الى الاستعبار · وتوالي الزفرات رمزا الى الحزن والانبهار . والتبلّد ايذانا بالاسف . والتنقل من جنب الى جنب اعلانا بالجزع واللهف . وغير ذلك مما يزيد الكلام قوة و بلاغة · وهذه ثاني مرة ندمتني على جهلي صناعة التصوير . والمرة الاولى كانت في الفصل الرابع عشر من الكتاب الاول عند ذكرى الحسان على اختلاف جمالهن . ويمكن اني اندم مرة ثالثة . وهنا ينبغي ان اقف على قدمي منتصبا واستميح الاجازة من ذوي الامر والنهي لأن اقول · انه قدجرت عادة جميع الولاة والملوك ما عدا ملك الانكليز بان لا يدعوا احدا يدخل بلادهم او يخرج منها ما لم

يدفع لدواوينهم او لوكلائهم المعروفين بالقناصل قدرا من الدراهم بحسب خصب ممالكهم ومحلها . وذلك بدعوى ان المسافر اذا نزل بلادهم ساعة او ساعتين فلا بدّ وان يرى قصورهم الفسيحة وعساكرهم المنصورة اوخيلهم النجيبة ومراكبهم الفاخرة . فيكون كمن يدخل ملهى من الملاهي . اذ ليس يدخلها احد من دون غرامة . فان اعترض احد بقوله انّا في الملهى نسمع اصوات المغنين والمغنيات وآلات الطرب . ونرى الانوار المزدهرة والاشكال المتنوعة و وجوه الحسان الناضرة وحركاتهن الباهرة . ونضحك حين يضحكن . ونطرب حين يرقصن . ونشغف حبّا حين يغازلن . فاما في رؤية احدى مدنكم فانّا لا نرى شيئا من ذلك . بل انما ندخل لكي يغبننا تجاركم فتكون فائدتنا في الدخول بالنسبة الى فائدتهم في الدخل قليلة . قالوا قد يتفق وقت قدومكم بلادنا أن تكون عساكرنا قد شرعت في العزف بآلات الطرب فهذا مقابلة في الطرب في الملهى . اما النساء فانّا نأذن لكم في التمتّع بكل من اعجبتكم فاجروا وراء من شئتم بحيث يكون النقد على الحافر . ومع ذلك فلا ينبغي ان تشبه مدائننا التي تشرفت بحضرتنا ببعض الملاهي . ولا سيما ان هذه سنّة قديمة قد مشت عليها اسلافنا طاب ثراهم . وتقادمت عليها السنون والاحوال حتى لم يعد ممكنا تغييرها . فان الملك اذا امر بشيء صار ذلك الشي سنّة وحكمًا . ويشهد لذلك قول صاحب الزبور ان يد الرب على قلب الملك . بمعنى ان الملك لا يفكر في شي الاّ ويد الله عاصمة له فيه . هكذا شرح هذه الاية العلماء الربانيّون في بلادنا ومن خالفهم فجزاؤه الصلب . وبعد فان الملك اذا اخذ في تغيير العادات وتبديل السنن فربما افضى ذلك الى تغييره . فيكون مثله كالديك الذي يبحث في الارض عن حبة قمح فيثير التراب على رأسه . وصغّر ذلك تشبيها . فالاولى اذاً اقرار كل شيء في محله . ثم لا فرق بين ان يكون قاصد بلادنا غنيا او فقيرا . صالحا بارًّا او لصًّا فاجرا . رجلا كان او امرأة . فكلهم ملتزمون باداء الغرامة وتحمل الغبن — ولكن يا سيدي ومولاي انا امرأة معسرة قد اضطررت الى المرور بمدينتك السعيدة . لان زوجي المسكين كان قد قدم في الى بلادكم الملكية ليديرمصلحة فقضى عليه الله تعالى بالوفاة . فتركت صبية لي في البييت يتضورون جوعا وجئت لارى زوجي المويت حالة كونه لايراني . ومع ذلك فاني

أُعدّ من الحسان اللآتي يحق لهنّ من امثالك العناية والالطاف . فكيف التزم بالغرامة فضلا عن نفقة السفر وفقد زوجي الذي كان لي سندا — ارجعي من حيث جئت فما هذا وقت الاسترحام . لان القواعد التي تقرر في دفاتر الملوك لا تقبل التبديل ولا التحريف ولا يستثنى منها شيء — وانا ايضا يامولاي رُجَيل فقير رماني الدهر بصروفه لامر شاءه الله . فوافيت بلادكم طمعا في تحصيل وظيفة تقوم باودي . وما انا من ذوي الغاوي والفتن ولا من الباحثين في سياسات الملوك وايالاتهم . فقصارى منيتي تحصيل المعيشة . على اني اعرف شيئا لا يعرفه اهل بلادكم العامرة فربما كان مقامي فيها مفيدا لدولتكم السعيدة . ولو صدر الامر العالي بامتحاني واختباري فيما ادّعيه لاكرمتم مثواي فضلا عن الرخصة لي في الدخول بغير غرامة — ياطائف ياعسس يازبنية ياجلواز ياشرطي ياعون يازِبَنيّ يامسحل يافارع ياقيلع يائُؤرور يائؤثور يا أترور ياترتور اودع هذا السجن . ان هولاء جاسوس قدم يتجسس بلادنا . فتشوه عسى ان تجدوا معه اوراقا تكشف لنا عن خبره — وانا كذلك يامولاي وسيدي غُلَيّم مُسَيْكين قد جئت لانظر ابي اذ بلغني انه كان قادما من سفره فدخل بلادكم فاصابه هواؤها الحميد بمرض شديد منعه من الحركة . فلمّا علمت امّي بمرضه وهي مريضة ايضا مما شملها من الحزن والكرب لطول غيابه بعثتني اليه لعلي اخدمه وامرّضه فيطيب خاطره برؤيته ويخف ما به . فان رؤية الاب ابنه حال مرضه تقوم له مقام الدواء — ما نحن بمربّي الاولاد ولا بلادنا مكتب لهم حتى ياتوا اليها ويخرجوا منها من دون غرامة . اذهب وكن رجلا بادائها على الفور — وانا ايضا ياعتادي وملاذي . وعِمالي ومعاذي . وملجاي وملتحدي . وسندي ومعتمدي . وركني وركني . وعزي وامني . رجل من الشعراء الادباء كنت قد مدحت بعض امرائنا الكرام بقصيدة فاجازني عليها مائة دينار . فاشتريت بنصفها مؤونة لعيالي . ووفيت بربعها ما كنت استدنته لكسوتهم وبقي معي ربع . واذ سمعت بمحاسن مملكتكم الخصيبة البهيه البهيجة وبما فيها من التحف والطرف التي لا توجد في بلادنا رمت ان استرح ناظري وانزه خاطري في هذا النعيم اياما قليلة . عسى ان يخطر ببالي عند رؤيته معاني بديعة ما سبقني اليها احد فاصوغ منها بادي بدء مديحا بليغا

في جنابك الرفيع • ومقامك السنيع . وانشر الثناء عليك في جميع الاقطار . في الليل والنهار . واجيد وصف مكارمك في الاسفار — ما اكثر الشعراء الغاوين العاوين في بلادنا وما اكثر اقاويلهم واقل رزقهم . اما ان تدفع الغرامة واما ان ترجع على عقبك واما ان نؤويك الى دار المجانين . ولكن هيهات ان تشرف مسامع المسرحم الحقير من سيده الجليل الخطير بمثل هذه الاجوبة الدلبية . فان السلب من مقام الكبيرمنية . وانما الغالب ان يكون جوابه برغم الانف او بالقفد • او باللكم على الخرطوم . او بهتم سن . او ببقر بطن او باطنان ساق . او بانقاض ظهر . ولهذا لما عزم الفارياق على السفر وكان ممن لا يستغني عن احد اعضائه التمس من خمسة قناصل ان يشرفوا جوازه بختومهم . فختم عليه كل من قنصل نابلي وليكورنه ومدينة اخرى في مملكة البابا وقنصل جينوي وفرنسا لان سفينة النار تمرّ على مراسي هذه المدن كلها وترسي فيها بعض ساعات . اما مدينة نابلي فهي مشهورة بكثرة ما فيها من العجلات والمراكب والحدائق والغياض . واما ليكورنه فبطيب هوائها وارتفاع بنائها وكذلك مدينة جينوي . قال وهي عندي احسن منهما . وانحس ما يكون مدينة البابا اذ ليس عليها رونق المُلك ولا الملكوت وما بها شيء يقرّ العين . فلما وصل الفارياق الى مرسيلية أُخذ صندوقه الى ديوان المكس واشير اليه ان يتبعه . ثم طلب منه المكاسون ان يفتحوه ليفتشوه فظن انهم يريدون ان يفتشوا في كراريسي ليعلموا ما فيها فقال . أنا ما هجوت سلطانكم ولا مطرانكم فلم تفتشون في كراريسي . فلم يفهمه احد منهم وهو لم يفهم احدا . فلما فرغوا اشاروا اليه ان اقفل صندوقك فثلج صدره . ثم انبرى واحد منهم يمسح بيديه على جنبه فظن انه يتمسح به اي يتبرك لكونه وجد كراريسه بخط غريب • لكنه علم من بعد ذلك انهم كانوا يفتشونه ليعلموا هل كان مدّخرا شيئا من التبغ والمسكر • ثم سافر من مرسيلية الى باريس فُفتش ايضا هو وصندوقه في ديوان مكسها . فكان مكاسي هذه المدينة كانوا يحسبون ان رفاقهم في تلك قد ناموا عن قيام الليل . فبال الشيطان في آذانهم فعمشت عيونهم عن رؤية ما في الصندوق . او انهم يرتشون كسائر اصحاب الوظائف . فاقام في باريس ثلثة ايام في دار سفارة الدولة العلية وفيها حظي بتقبيل ايدي الوزيرين المعظمين والمشيرين المفخمين رشيد باشا وسامي باشا . ثم سافر

من باريس الى لندن وسيأتي الكلام على وصف هاتين المدينتين العظيمتين . ثم من لندن الى قرية في بلاد الفلاحين وفيها القى العصا وعندها اقف انا ايضا .

الفصل الرابع

في شروط الرواية

لم يمض على الفارياق في مدى عمره مدة هي انحس واشقى من المدة التي قضاها في تلك القرية . لان قرى بلاد الانكليز ليس فيها من محل لهو واجتماع وانس وحظ البتة . وانما اللهو والحظ في المدن الكبيرة . وفضلا عن ذلك فليس في القرى شيء يباع للماكول والمشروب سوى ما لا احتفال به . ومن كان عنده دجاجة او طرفة بعث بها الى احدى المدن القريبة . فمن شاء ان ينقطع عن الدنيا او يترهب فعليه بها . اما النساء هناك ففيهن من تشفى من القمة بل تعمي بالقرم . الا ان الغريب محروم منهن . اذ كل ذات ظلف ملازمة لفحلها فليس من سائب مبهل الا العجائز . ثم بعد مضي شهرين عليه وهو على هذه الحالة المشؤمة انتقل الى مدينة كمبريج مصدر القسوسة وعلم الكلام . فان جل قسيسي الانكليز يمضون اليها اوالى اكسفورد ليتعلموا فيها الالهيات والمناظرة . وفي هاتين المدينتين ايضا سائر طلاب العلم على اختلاف طبقاتهم ودرجاتهم . ومن احدى مدارس كمبريج نبغ نيوطون الفيلسوف المشهور . فاكترى الفارياق فيها مسكنين في دار كما هي العادة ومكث يترجم بقية الكتاب الذي مرّت الاشارة اليه سابقا . وكان في تلك الدار جارية دعجاء كاعب وكذا سائر الوصائف غالبا . فكان الفارياق يراها كل ليلة تطلع الى غرفة احد السكّان ثم بعد هنيهة ليست باطول من قولك عمت مساء يسمع لها نغمة ايقافية . وكانت صاحبة المنزل تراها نازلة من عند الرجل في الساعة العاشرة ونحوها من الليل ولا تكترث بطلوعها ولا بنزولها . فاذا جاءت في الصباح لتصلح فراش الفارياق حملق فيها وحدّق فلم يرَ فيها علامة تدل على انها كانت هي

صاحبة النغمة . فيظن ان ذلك كان وهمًا منه نشأ عن اللهج بالايغاف . فاذا جاء الليل عادت النغمة وعاد اليقين . فاذا كان الصباح عادت الجملة وعاد التصاون وعاد الشك والحيرة وهلم جرا . حتى كاد ذلك يشوش عقل الفارياق ويفسد عليه الترجمة التي طالما كان يخشى عليها الخلل والفساد من قضية ما نسائية . وهنا ينبغي ان اقرفص واقول . ان هذه المزية السنورية اي الاكل خفوة وان يكن وجودها ملحوظًا في النساء على الاعمّ الا انها في نساء الانكليز على الاخصّ . فان المتصفة منهن بما اتصفت به السيدة المدقم في فصل حدنبدى تتظاهر في النهار بصفات الورع والتقوى والنفورية والتقذورية وتنظر الى تبعها نظر المتجاهل . وتوهم الناقد انها متبتلة معتزلة الرجال . وربما حفظت احاديث دينية وروايات نسكية تلقيها على الناس فيعظمونها ويعتقدون فيها الصلاح . واذا دخلت بيتها وجدت على مائدتها التوراة والانجيل وكتبا اخرى في العبادة والزهد . وربما وسّخت الظاهر من ورقها لتوهم انها كثيرة الدراسة لها . ولا يمكن للرجل ان يذكر بين يديها اسم عضو من اعضائه . فتكون لذة هؤلاء على مقتضى قاعدة الفارياقية غير تامة وذلك لخلوها عن ركن الذكر . وعنها ايضا ان ذكر اللذة لا بد من ان يكون مطابقا للواقع فان كان الوقوع مثلا من ذي مقام ليلاً ذُكرت فيه لذات مقام . وان يكن من دون صباحًا ذكرت فيه لدون من النساء . وقس على ذلك سائر التباين في الاوقات والاشخاص . اللهمّ الّا ان خشي فوات الفرصة . اي اذا حصلت مثلاً ليلاً ولم يمكن ذكرها في الليل فيصح الذكر في الفجر او الصباح . او ان حصلت من ذى مقام ولم يتهيأ وجود نظيره فيصح ذكرها لدون ولا تفسد لذة الذكر بذلك. فاما على فرض كونها لم تجد احدا من هذه الاصناف فيصح ذكرها لنفسها . وذلك بان تدخل راسها في زير فارغ او في بئر او جبّ او قبوة ونحو ذلك مما له صدى وتنطق بلسان فصيح مبين بما مرّ لها . حتى اذا رجع الصدى قام لها مقام النديم الكليم . فاما اذا بقي الذكر في صدرها فيخشى عليها من الصدارة والذباح . ويشترط ايضا عندها ان تكون الرواية مطابقة للفعل . فللنبرة نبرة . وللهمز همزة . وللحركة حركة . وللسكون سكون . وللمد مدّ . وللهذ هذ وللترخيم ترخيم . وللترسل ترسل . وان يبلغ التشديد على الذال اذا كانت الرواية بلغتنا هذه الشريفة . وان يكون في العينين مغازلة . وفي اللعم فيضان .

وفي اللسان بلّة . وفي اليدين تلقح . وبما تقرّر علمتَ من ان هذه الخلة المذكورة الموجودة في نساء الانكليز اخلال بشروط اللذة . ويمكن ان يقال ان لذة التصور عندهن قوية جدا بحيث تقوم مقام لذتين . او انهن يضعن رؤسهن في خابية ونحوها . وعن الفارياق ان الجمال في النساء على اختلاف انواعه له نطق ونداء ودعاء واشارة ورمز . فمنه ما يقول لناظره لست ابالي بالمرود . ومنه ما يقول الا اغتنم الآن الفرصة — للتأخير آفات — لن تراني من الكثير ملولا — لا يغرنك الشفون — هيتَ لك — مَن لي به الساعة — ما ارى كفأبي عند احد — ان دواء الشقّ ان تحوصه — اين ابن المشبع — اين ابن الغز — اين ابن بني اذلغ — لديّ يذل الصعب — بعد جهدك لا تلام — لكل مجتهد نصيب — من اطعم اشبع — من ذاق عرف — من مسّ هرف — من سبق فقد ربح — العود احمد — من عدّ عاد — من وصل وُصل . ومنه ما يشير ان استعمل الحيلة — تلطف في الزيارة — كن من الجار على حذر — من تانّى نال ما تمنى — بكّر بكور الغراب وغير ذلك . فجمال نساء الانكليز هو مما عنوانه اين ابن الغز . اين ابن المشبع . لديّ يذل الصعب . فانك ترى المرأة منهن تمشي وهي صفوح مغزة سامدة ساندة شاردة معبدة شامرة نافرة جافلة جامزة آبزة نافزة ناقزة معنزة ساربة عاسجة طامحة جامحة شامخة خانفة مشمعة شافنة مُسْطمة مُرشقة منتلعة هابعة متعاطفة نطاقة مخرنطمة مسحنفرة مجلوّذة مجلوّظة مذلعبّة مجرهدّة مرمئدة مشمعدّة مصمعدّة مسبطرّة مسبكرّة مسمهرّة مشمخرّة مسجنترّة مسجهرّة متمهلّة متمثلة مشمعلّة مصمئلّة مقلهفّة مزلئمّة . ومع ان القدرة الخالقية قد خصتهن بالآء لايا سابغة ضافية على ماروت الرواة . فانهن يتخذن لها المرافد ويعظمنها بها تعظيما يوقف المستوفز بحيث يقف كالجابه الحيران . فلا يتمالك عن ان تصطك ساقاه تعجبا واعظاما لهذا التعظيم . وان تحرّق اسنانه ويندلع لسانه . وتنضنض لهاته . وتلتوي عنقه . وتنتفخ اوداجه وتحمرّ حملاقه . ويُغان على قلبه ويَطْنَى . وتاخذه القشعريرة والرعدة والأفكل والهزّة والاضطراب والرجفان والنفشان والغشيان والغميان والقَشْيان والنُحَواء والدُوار والمَيَدان والابَم والاختلاج والترنّح والارتماج والارتعاش والارتهاش والرعس والارتماس والهراد والقرجيد والاصيص والبصيص

والكصيص والارض والعسوم والنفيضى والقل والارزيز والزمع والزقزقة والشمشفة والصعفة والقرقفة والقفقفة . وتهيج به الاخلاط الاربعة فيطاب كل خلط عظامة . وتنهال عليه الخواطر والوساوس . وتتجاذبه عوامل الاماني . وتجرضه مجرضات النعزة . وتطفره خوالج الشهوة . ويميل به مميل التشوق والتلهف على حد قول الشاعر

علمتك الباذل المعروف فانبعثت   اليك بي واجفات الشوق والامل

فيبقى حائرا بائرا مبهوتا مهفوتا سادرا داهلا مدهوشا ذاهلا . بحيث اذا رجع سالما الى منزله يحسب كل شاخص فيه عظامة او ما عظم بها . وكان الفارياق اذا خرج وابصر هذه الروابي الخصيبة عاد الى ماواه وفي راسه الف معنى يشغله . فمما انشده في بعض هذه الفتن

يالاعجاب وكل عجب فليقل يالاعجاب
ما ان يرى في ذا المكان سوى المرافد من روابي
كلا ولا من اغوطة   من دون ذيالك الجناب
كلا ولا قرموطة   تشري سوى كعب الكعاب
من كل ذات تبهكن   تدعو الحصور الى الدعاب
الشوق يقدم بي وخوف   العجز من غلم ناي بي
ماذا يقول الناس عن   خار عن ملء الوطاب
ام كيف تضعف معدة العربي عن قحف القعاب
من لي بصنبور فأرعه بمنزفة الحباب
من لي بقبة مرفد   في ليلي من ذي القباب
من لي بجت أليه   من ذي الالايا في مآبي
هذا لعمرك شان ذي   قطم وهذا الداب دابي

الفصل الخامس

في فضل النساء

وكما ان نساء تلك البلاد اختصصن بهذه المزية كذلك اختصت رجالها بالطافهم الغريب بعد معرفتهم له . فاما قبل المعرفة فانه اذا حيّي احدا منهم فما يكون جوابه الا الشزر والشصر . ولهذا لما سمع احد طلاّب العربية منهم بوجود الفارياق وكان قد قُبري عليه حسبه ونشبه اتى ليزوره . وطلب منه ان يذهب معه الى منزله فيقيم عنده مكرما معززا . وكان مقامه بعيدا عن كمبريج . فاجابه الفارياق الى ذلك لان اهل المدينة على كثرة المدارس عندهم والمعالم هم اشدّ الناس نفورا من الغريب . ولا سيما اذا كان مخالفا لهم في الزيّ . فكانوا يسخرون من قبعته الحمراء حتى كان كثيرا ما يقبع في غرفته ولا يخرج منها الا ليلا . وقال في ذلك

رمتني النوى في كمبريج ملازما — لبيتي نهارا أن تراني اوباش
فتعبث بي حتى اذا الليل جنّني — خرجت على أمن كأني خفّاش

ولان الكلاب ايضا كانت تشم فروته وتلازمه . فقال فيها

ولي فروة تأتي الكلاب تشمها — ولم تندفع عنها اذا مادفعتها
تهرّ على عزيق جلدي وجلدها — كاني من ابائها قد صنعتها

ولان اهل الدار التي نزل فيها كانوا يشاركونه في طعامه ولا يشركونه في لحمهم وشحمهم . فقال فيهم

ولي عيلة في كمبريج خفيّة — توا كاني من حيث ليس عيان
فعهدي باسم الآكلات فلانة — وعهدي باسم الآكلين فلان

ولانه لم يقدر على ان يجرّد الى احدى تلك القبب . فقال فيها

وما نفع الوثير من الحشايا — وليس عليه وثر اذ تهش

وما نفع الشعار بلا شعار | وحسن الخفش ان لم يلف حفش
وما نفع الحياة بغير حيّ | فنعشك دونه ماعشت نعش

فسارا في سكة الحديد و بلغا المنزل ليلا وما كاد الفارياق يدخل حجرته التي اعدت له حتى رقشها بهذين البيتين

لله درب الحديد كم كفل | ربا به والثديّ قد رجفت
لو لم يكن غير تلك فائدة | لنا بدونا تَتوه (١) اكتفت

ثم لما قام في الغد رأى المنزل بعيدا عن الدار . فاستعاذ بالله واسترجع واضبّ على ما نفسه . لان هذه الشكوى ليس لها عند هؤلاء القوم اذن واعية . حتى انه لما شكا يوما طول غيبته عن زوجته قال له صاحبه بعد ايام قد فرط منك بالامس كلام فقلت انى مشتاق الى امرأتي . وكان الاولى ان تقول الى اولادي . فقال له الفارياق ما المانع من ان يذكر الرجل امرأته كما يذكر ولده . ولولا المرأة لم يكن الولد بل لولا المرأة لم يكن شيء في الدنيا لادين ولا غيره . قال مه مه قد افحشت . قال ارغن لما اقول . لولا بنت فرعون لم ينج موسى من الغرق . ولولا موسى لم تكن التوراة . ولولا المرأة لم يمكن ليوشع ان يدخل ارض الموعد ويستولى عليها . ولولا المرأة ماحظى ابرهيم عند ملك مصر ونال منه الصلات والهدايا فتمهد لليهود النزول الى مصر من بعده . ولولا المرأة لم ينج داود من يد شاول حين اضمر قتله وان كان ذلك قد تمّ بحيلة وضع صنم في فراشه . ولولا داود لم يكن الزبور . نعم ولولا المرأة اعني زوجة نابال ماتقوى داود على اعدائه ولولا حيلة بت شبع على داود لم يملك سليمن ابنه ولم يبن هيكل الله باورشليم . ولولا المرأة لم يولد سيدنا عيسى ولم يذع خبر انبعاثه . ولولا المرأة لم يستتبّ مذهب الانكليز كما هو اليوم . هذا وان المصوّرين عندكم يصوّرون الملئكة بصورة النساء . والشعراء عندكم مازالوا يتغزلون في المرأة ولولاها لم ينبغ شاعر . قال إن اراك الاهاجيا على النساء وكانّ العرب كلهم على هذه الصفة . قال نعم انا راموزهم وقطاطهم وكل من ينطق بالضاد يكلف بالضاد . فاطرق مليّا ثم قال لعلكم ارشد ممن عدل الى الميم . فقد بلغني ان في بلادكم قوما ميميّين يعدلون عن سواء السبيل الى مضايق ذميمة وهو اقبح

---

(١) الاتو الاستقامة في السير والسرعة

مايكون واقبح من ذلك ان بعض المؤلفين من العرب قد ألفوا في ذلك كتبا وتمحلوا لايراد ادلة على تفضيل الحرفة الميمية . قال نعم ومن جملتها كتاب عثرت به في خزانة كتب كمبريج ورأيت مكتوبا عليه عنوانه بالانكليزية كتاب في حقوق الزواج . فكأنّ شاريه لم يفهم مضمونه . ومن اسخف ما ورد من الادلة على ذلك قول بعضهم

انا لست اجزم باللواط ولا الزنا لكن اقول مقال من قد حررا
ان اللذاذة كلها في اقذر الـ ـجارين فاختر ان عرفت الاقذرا

وسبب تاليف هذه الكتب من مثل هؤلاء العتاولة اما للعنينيه فان النساء يعرضن عمن يبتلي بذلك . او لبخل لان النفقة على المراة اكثر . او لقصر اليد عن حصرهن او لفساد آخر . اما سليم الطبع فلا يميل عن هذا المذهب اصلا . ثم ان الفارياق لبث عند صاحبه مدة في خلالها أدب الي مآدب فاخرة عند بعض الاعيان . ومن عادتهم في الولائم ان تقعد النساء على المائدة مكشوفات الاذرع والصدور بحيث يمكن للناظر ان يرى المفاهر واللبان والبادلة والبهو . واذا تطالل واشرأب وكان حسن الاطلاع رأى اللعقوة ايضا أي آية الحلم . وهي من جملة العادات التي تحمد من وجه وتذم من وجه آخر . حيث كان هذا الكشف مطردا للصبايا والعجائز بل العجائز عند الافرنج ولا سيما الانكليز يكتشفن ويتفتين ويتميلن اكثر من الصبايا . ثم قلت الدعوات وكثر قلق الفارياق لان من نظر الى سحنته مرة لم يرد ان ينظر اليها مرة اخرى . فرأى الرجوع الى كمبريج اوفق . فسافر اليها فوجد القبب قد ربت نحو ثلثة قراريط . وذلك اما لبعد عهده بها او لكون زيادة قرصة البرد اوجبت ذلك . وهنا ينبغي ذكر فائدة وهي ان كمبريج واكسفورد لما كانتا مشهورتين بمدارس العلم كما ذكرنا آنفا وكان جلّ الطلبة فيها من الاغنياء وفي كل منهما نحو الفي طالب . كانت البنات الحسان من قرى الفلاحين المجاورة ينتبن سوق هاتين المدينتين لترويج ما عندهن من الصبى والجمال . فترى فيهما من الجمال الرائع والحسن الباهر ما لا تراه في سائر المدن . غير انه لكل ساقطة لاقطة . فلهذا كانت مشايخنا الطلبة ينظرون الى من زاد بعد اهل البلد نظر الهرة التي يؤخذ منها جراؤها . فمن ثم ترحل الفارياق عن هؤلاء السنانير وهرآتهم لاسيما وقد ورد في الامثال اذا دخلت ارض الحصيب فهرول واقام في لندن نحو شهر .

وصف لندن او لندرة عن الفارياق

هاهي ذات التيه والدلال . الخاطرة على الفحول من الرجال . تنظر اليهم شزرا • وتجر اذيالها وشالها جرا . كما قلت من قصيدة

قامت تجرّ من الدلال ذيولا   جرّا اضاف الى العميد نحولا

وهي لا ترى لها من بينهم كفؤا • وتهاس منهم سخرية وهزؤا الا فاذكري ان بينهم الاقوى الاقدر . الاسرى الايسر . الاسرع الاعسر . الاقرش الاقشر . الاصرع الاعصر . الاسرد الادسر . الارشف الاشفر . الابرز الازبر . الذي اذا ضمّ زفر . واذا شمّ نخر . واذا هيج زأر . او غمز بدر • واذا رأى طبلا زمّر . اوذات تدهكر دهشر . اذكري ان بينهم عربيا ذا غرام • وهيام وأوام • ومغازلة وبغام • ومداعبة وكعام . وتمشير وانكماش • واندساس في الاعشاش . علامَ تمالقك وانت معرضة كبرا . ونعدك فتتخذين كلامنا هترا • الم تعلمي انّا اليك متوددون . وعلى مثلك متعوّدون . كم من صعب رضناه : ومتحكّم ارضيناه . وابيّ امألناه . وقرم اشبعناه • وجامح استوقفناه وشاكٍ اشكيناه . وعاتب اعتبناه . وكم من متعنّتة آبت وهي شاكره . ثم انثنت زائرة . الا لا يغوينّك الشطاط الى الشطط • والعين الى الشحط . والعيط الى اللغط . وصهوبة الشعر . الى انكار القدر . وتفليج الثنايا الى ألُت المزايا • وتورد الخدين . الى احتقار الاجين • وتفليك الكعب • الى التيه والعجب . وبضاضة الشره . الى النهم والشره . وفعومة الساعدين . الى عنجرة الشفتين . وجدل الساقين . الى الاستنكاف من مضّ لناقد عين . وعميد غين • يكفهما ويتطوق بهما او يعتمّ بهما على زنجهما . وينزه زغبهما عن الحلت والنتف . والحصّ والحفّ . وعن مسّ السقف . الا ولا يضلنّك الجاهض من وراء . الازدراء . ولا النافج من امام . الى منع التحية والسلام . ان لدينا من المِزر والفقّاع . ما يروي كل مقاع . ويسكر كل ذات قناع • ومن الشوا • ما يزيل الخوا • ومن الدينار • ماينفث في

عقد الازار . فيحلها حلاّ . ويبلّها بلاّ . فمن البلّ بَلَل . ومن الحلّ حُلَل . فبحق من اولاك هذه المحاسن . فتنة كل سامع ومعاين . الاّ ما احسنت في عشاقك الظنّ . واقللت لهم من هذا التزابق والتمنّن . فكلهم الى وصالك حنّ ومن صلفك انّ . وبعدُ . فان هي الاّ مرّة . فان احدث اللقاء فاجعليها عادة وانت على كل حال حرّة . والا فما اكثر طارق هذه المدينة وما اطولها . وما اوفر القادمين اليها . وما اوسع حوانيتها وساحاتها . وندحاتها وباحاتها : وحدائقها وغياضها . ومماشيها ورياضها . وما ابهج ملاهيها وملاعبها . واجرى عجلاتها ومراكبها . وما ارحب كنائسها . وما احفل مجالسها . وما اعمر مساكنها . وامخر سفائنها . فاجرى فيها حيث يعجبك من هنا ومن هنا . كل امرء يسعى ليدرك الهنا .

الفصل السادس

في محاورة

و بعد ان فرغ الفارياق من عمله في هذه المدينة الغاصة بالغواني سافر الى باريس فاقام فيها ثلثة ايام لا تكفي لمعرفة وصفها . فلهذا نضرب هنا عن ذكره فان حق الوصف ان يكون مستوعبا . ثم سافر منها الى مرسيلية ومنهـا الى الجزيرة . واتاح له الله بفضله العميم ان رأى زوجته في نفس الدار التي غادرها فيها . وقد كان يظن انها طارت مع عنقاء مغرب او مع الفُنجول وبَنَى بها هذه المرة السادسة . فان المرة الثانية كانت بعد قدومه من الشام والثالثة بعد رجوعه من تونس والرابعة بعد خروجه من المنزل مع سامي باشا المفخم والخامسة بعد رجوعها من مصر . ثم انشد

من يُرد في زوجه ينكح ازواجا عديدة
فليَغب عنها زمانا يلقها عِرسا جديدة

فقالت لكن المرأة لا ترى من زوجها بعد ايابه عِرسا جديدة . قال فقلت انما هو من

من مخالفتهن الرجال في كل شي قالت نعم ولولا هذا الخلاف . ماحصل الوفاق . قلت كيف يكون عن الخلاف وفاق . قالت كما ان المرأة خُلقت مخالفة للرجل في الخَلق كذلك كان خلافها له في الخلق . وكلٌّ من هذين الخلافين باعث له على شدة الكلف بها والحرص عليها . الا ترى ان المرأة اذا كانت تفعل كل مايريد زوجها ان تفعله كانت كالآلة بين يديه فلا يكترث بها ولا يقبل عليها لاعتقاد انها موقوفة على حركة يده او عينه او لسانه زيادة على حركة يده في الآلة . بخلاف ما اذا عرف منها المخالفة والاستبداد بامرها فانه حرٍ يعلق بها و يداريها . قلت هذا غير ما عُهد عند الناس . قالت بل هو معهود عند النساء من القديم . ولذلك تراهن جميعهن متحليات بهذه الحلية . قلت ولكن اذا كثر الخلاف وطال . اورث التقاطع والملال . قالت ان عيني المرأة لاتبرحان ناظرتين او حقهما ان تكونا ناظرتين الى موضعي القطع والوصل . والاّ استطال احدهما على الآخر فوقع ماقلت . قلت بل في دوام الوصل دوام الوفاق . قالت لا بل هو باعث على السآمة والضجر . فان الانسان مطبوع على ذلك . قلت اي سآمة من وصل الحبيب . قالت السآمة غالبة على الانسان في كل شي . بحيث يودّ تبديل حالته الحسنى بحالة سُوأى . قلت اوَ قد سئمتِ من حالتك هذه . قالت نم حلت عن السآمة قلت ما بال الناس كلهم يقولون يا قرة العين . قالت نعم ان العين تقرّ بشي ريثما يعنّ لها آخر فتُطرَف اليه . قلت وما شان القلب قالت هو متقلّب ومتحيّز معها . قلت فما شان العميان . قالت ان لهم في بصائرهم عيونا اشد حملقة من العين الباصرة . قلت مَن اسرعُ الناس تقلّبَ قلبٍ . قالت اكثرهم فكرا فان العجماوات اثبت واصبر من الناس اذ ليس لها فكر . قلت فاذاً ينشأ عن النفع ضرّ . قالت نعم كما انه ينشأ عن الضر نفع : قلت اي نفع في المرض . قالت سكون العقل والدم والفكر عن الهوى والشهوات . قلت اي نفع في الفقر . قالت الكف عن الشراهة والسرف المهلكين . فان الذين يموتون من زيادة الاكل والشرب اكثر من الذين يموتون لقلتهما . قلت اي نفع في الزواج بامرأة دميمة . قالت كف رجل جارك عن دارك وصرف عين اميرك عن مراقبة حالك . على انها لا تعدم طالبا مثلها ولكن بعض الشراهون من بعض . قلت اي نفع في دمامة الاولاد . قالت اذا علموا ذلك من انفسهم رغبوا عن اللهو الى العلم واقبلوا على تحسين

خُلقهم ليشفع في خَلقهم . قلت واي نفع من مشيب اعلى الانسان قبل اسفله مع ان شعر الاسفل ينبت قبل شعر الاعلى. قالت اشعاره بان الحيوانية المطلقة اقوى فيه من الحيوانية المقيدة . ولذلك كان اول مايشيب فيه رأسه الذي هو محلّ الناطقية . واقوى مايحسّ منه باللذة اسفله . قلت وما نتيجة ذلك قالت اقلاله من الفكر . قلت وما الفائدة في كونه يعوز الى اوقية من اللحم يملأ بها وجهه فيجد رطلا في عجزه . قالت هو من النوع الاول . قلت كانك تقولين ان الرجل لم يخلق الا لاجل المرأة . قالت نعم كما ان المرأة لم تخلق الا للرجل . قلت اي نفع في تحتّت الاسنان . قالت الاكل على هينة فيمرؤ الطعام . قلت اي نفع في تعميش العينين . قالت عدم رؤية الحسان ليلا فانهن اروع فيه وافتن . قلت واي نفع في العَرَج . قالت الراحة من الجرى وراء القرصافة الزقزاقة . قلت اي نفع في السدة . قالت الذهول عن العبيثة . قلت وفي الصمم . قالت عن الرُمُم . قلت وفي الجهل . قالت توفر الصحة للبدن والراحة للبال . فان الجاهل لايفكر في الامور الدقيقة المتعبة . فاذا نام اهنأه النوم واذا طُعِم شيئًا امرأه . لاكدابك في الهينمة اناء الليل واطراف النهار فما اسمع منك الا تعديد قوافي . وذكر نؤيٍ واثافي . ودوارس عوافي . وظعائن خوافي . واذا جلست للطعام اتيت بالكتاب معك فجعلت الصفحة تلو الصحفة . فتأكل لقمة . وتقرأ فقرة . وتكرع من الشراب كرعة وتتلوا أسطورة . ولذلك — قلت قد فهمت من هذا الاكتفاء عدم الاكتفاء . ولكن كثرة القرآة ينشأ عنها كثرة التصور الباعثة على كثرة التشوق . قالت ولكن كثرة التشوق ينشأ عنها التريلية او الزمالقية والمقصود الجحّادية للحِكية . وقد طالما احوج وجود الاولى الى البحث عن وجود الثانية . ولكن دعنا من هذه الملاحك والمغامس . كيف وجدت مدينة لندن . قلت رأيت فيها النساء اكثر من الرجال واجمل قالت لو ذهبت اليها امرأة لرأت بعكس ذلك فان نساء الانكليز في هذه الجزيرة لسن حسانا والحسن كله في الرجال . قلت هؤلاء نخبة البلاد انتقتهم الدولة حسانا ليخيفوا العدو في الحرب . قالت بل الامر بالعكس فان الجميل لايخيف وان يكن عدوا وانما القبيح هو الذي يخيف . ألا ترى انهم يقولون رجل باسل ومتبسّل اي شجاع وهو في الاصل الكريه المنظر . قلت وقد قالوا ايضا راعه بمعنى اعجبه واخافه . قالت المعنى واحد فانه

ماخوذ من الرَوع اي القلب فرؤية الجميل تصيب القلب بل وسائر الجوارح . ثم قالت وكيف رأيت دكاكينها واسواقها . قلت اما الدكاكين فملآنه من الخز والحرير والتحف البديعة . قالت هل مَن هو فيها كما هو فيها . قلت فيها نساء بيض حسان . قالت انا اسألك عن شيء وانت تخبرني عن غيره . قد عرفت انك زائغ البصر فلن اسألك بعدُ عن الناس وما اسأل الا عني . هذه خصلة فيكم معاشر الرجال انكم لا ترون في جنسكم حسنا . قلت هي مثل خصلتكن معاشر النساء في انكن لا ترين في جنسكن جمالا قد تكافأنا . قالت كيف تكافأنا وبيننا خلاء . قلت كل آت قريب . قالت وكل قريب آت . قلت لا أرضى بهذه الكلية بل قولي بعض القريب . قالت اذا ساغ البعض لم يُغَصَّ بالكل . ثم قالت اخبرني عن الاسواق . فقلت طويلة عريضة واسعة نظيفة كثيرة الانوار بحيث لا يمكن للرجل ان ينفرد بامرأة اصلا . حتى كانَّ الضباب ينجلي بها في الليل ايضا قالت هو من بعض المنافع الضارّة . الا ليت لي جَدًا فانظر مرة محاسن هذا المصر من قبل ان اقضي . قلت لا تقنطي فاني ارجو ان نسافر اليها جميعا بعد مدة . قالت حقق الله لنا هذه الامنية . فلما امسى المساء وبات كل منهما ثملا بذكر لندن على ما مال اليه خاطره قامت في الغداة تقول قد رأيت لندن في المنام واذا برجالها اكثر من نسائها . وطرقها واسعة كما قلت كثيرة الانوار . ولكن يمكن للرجل فيها ان ينفرد بامرأة . وكأنك انما تقوّلت هذا لكيلا اسيء فيك الظن . ولكن ما كنت لاصدقك من بعد ان تحققت انك غير امين في الرواية الاولى ثم بعد محاورة طويلة باتا تلك الليلة على اسم لندن . فاصبحت تقول . قد حلمت اني اشتريت من احسن دكاكينها ثوب ديباج احمر احمر احمر . قال انك لا تزالين لاهجة بهذا اللون واهل لندن لا يحبّونه لا في الحرير ولا في الآدميين . قالت ما سبب ذلك . قلت لان الحمرة في الناس تكون عن كثرة الدم وكثرة الدم مظنة بكثرة الاكل والشرب. وهي دليل على الرُّغب والنَّهَم . وانما يحبون اليلق الامهق . وكذلك العرب يحبون هذا اللون فقد قال اعظم شعرائهم

كبكر المقاناة البياض بصفرة غذاها نمير الحيّ غير محلّل

فقالت ان كان هذا الاستكراه من طرف الرجال فهو لخشية عزة النساء عليهن باللون

الاحمر الدال على القوة والنشاط والاشر والبَتَع والكَرَع . فيوهمهم ذلك عجزهم عن كفايتهن . وان يكن من النساء وقد نطقن به فما هو الا موار بة ومغالطة . فان الانسان بالطبع يحب اللون الاحمر كما يشاهد ذلك في الاطفال . وناهيك ان الدم الذي هو عنصر الحياة احمر . قال فقلت ولكن خلاصة الدم وصفوته هو في ذلك اللون الذي يرغب فيه اهل لندن . قالت فهذا هو السبب اذاً . الان قد حصحص الحق وبان . اما انا فعلى مذهبي لن احول عنه . وللناس فيما يعشقون مذاهب . فقلت بودي لو كنت احمر احمر احمر حتى تحبيني وان كنت احمق احمق احمق . قالت وما انتفاعك بالمحبة اذا كنت احمق . وانما يعود النفع لي في تركك اياي مع الاحمر . قلت أتزعمين ان العلم يمنع المرأة عن اجراء ماتضمره وان الحمق يمكّنها منه . قالت لا والله بل ربما كان في الحمق لها اكثر . فان الاحمق يلازم امرأته ويظل محلقا فيها والعالم محلق في كراريسه وكيفما كان فلم ارَ اسفه ممن يحرّج على امرأته ويلازمها . فان الرجل كلما اعنت المرأة ونكنك عليها بالملازمة والكنكنة زادت هي في عنادها فلا يردها شي عما ارادته سوى حشمتها وحيائها . واكثر الرجال حمقا وسخافة من اذا اوجس من زوجته الميل الى شخص قال لها تزهيدا فيه . ان فلانا متهتّك مستهتر فاحش لايبالي بما يقول ويفعل . فاذا حضر مجلس ذوي الادب فاول مايفوه به قوله قد راودت فلانة وخلبتها وفتنتها . وقد عشقتني وعشقتها . كانه اي الزوج يحذّرها من الاسترسال الى هواه مخافة ان تفتضح بين الناس او ان يقول لها ان فلانا ورع تقيّ يتقي مغازلة النساء اتقاء الافاعي . كانه يقول لها انك ان تعرّضت له في الهوى جبهك وندهك وفضحك . فقد تقرر في عقول الرجال ان كل امر من امور الدنيا والاخرة يشين عرض المرأة ويهتك حجابها . مع انه لاشي يدغدغها مثل سماعها عن رجل انه مسرف منشط في حال من الاحوال بحيث لايلحقها منه اذى : فهي والحالة هذه تزيد حرصا على فتنته لتصرفه عن تلك الحال اليها فيرجع اسرافه في محبتها . قال فقلت نعم ان كيد النساء كان عظيما .



الفصل السابع

في الطباق والتنظير

الانسان كما قالت الفارياقية مجبول على السآمة والملل . ومتى ظفر بالغرض . استحوذ عليه الغرض . وما دام الرجل المتزوج جليس بيته ويسمع من زوجته هات واشترِ وجدّد واصلح ودَّ لو انه يكون عزبا ولو راهبا في صومعة فاذا تغرب عنها ورأى الرجال يمشون مع النساء سواء كن حليلات او خليلات أنِف من الصومعة . وهاج به الشوق الى ان يكون له امرأة يماشيها مثل اولئك وان كان مشيهم وقتئذ للتحاكم والتخاصم لدى جناب القاضي · فينبغي للزوج الملازم لِكِنّه والحالة هذه ان لا يزل متصوّرا انه غريب في ارض بعيدة عند اناس يخدعونه ويغبنونه ويهجونه بمرافقهم او ان زوجته قد سافرت عنه الى اناس يعاقرونها المدام . ويرقدونها على فرش من ريش النعام . ويغازلونها فتغزلهم . ويباعلونها فتبعلهم . فاذا فعل ذلك هانت عليه نغمات هات واشترِ وهذا جدول عن الفارياق بيّن فيه الاحوال التي يقول فيها المتزوج

ياليت ماعندي امرأة	وياليت عندي امرأة
اذا تزبرقت وتزبرجت وتزلقت وتبرجت وتعطرت وتبغنجت وقالت له قم بنا الى المثابة والمحافل والمحاشد والملاهي والمراقص .	اذا سار وحده الى المثابة والمحافل والمحاشد والملاهي والمراقص ورأى النساء فيها متزبرقات متزبرجات الخ .
اذا خرج معها وقد نفجت صدرها واحكمت مرفدها ثم طفقت تتبازى وتوكوك وتميس وتزوزك وتميل عنقها ورأسها	اذا سار وحده ورأي من قد نفجت صدرها واحكمت مرفدها ثم غدت تتبازى وتوكوك الخ .

اذا مشى معها فرأت نقطة ماء في الطريق فشمرت عن ساقيها لتبدو حماناهما .

اذا سار معها في يوم ذي ريح وعمدت الى كشف الثوب عن صدرها وعجزها .

اذا جعلت دأبها ان توقع منديلها او تربط شراك نعليها ثم تكب فتبدي عجيزتها .

اذا جعلت شيئاً في فمها تلوكه وهي ماشية توهم من يعجبها من الفتيان انها تشير بقبلة او اذا غمزت احدا ورمزت ولمزت .

اذا صادفت رجلا من معارفها في الطريق فطفقت تعاتبه على طول غيابه عنها ثم امسكت بيده وغمزتها غمزا شديدا .

اذا لقيت امرأة في الطريق عليها ديباج نفيس فجعلت تسألها عن سعره وعمن يبيعه .

اذا صادفت احدا في الطريق فاشارت اليه ان اتبعنا فاخذ يمشي عن يمينها فحولت وجهها عن زوجها وجعلت جلّ الكلام مع الزبون .

اذا رجعا الى البيت وصرّحت له

اذا مشى وحده فرأى من شمرت عن ساقيها عند رؤيتها نقطة ماء في الطريق الخ .

اذا سار وحده في يوم ذي ريح وابصر من عمدت الى كشف الثوب عن صدرها .

اذا سار وحده فرأى من تكب لتربط شراك نعليها او تلتقط منديلها فتبدي عجيزتها .

اذا ابصر من تلوك شيئاً وهي ماشية وحسب ذلك اشارة اليه بقبلة ثم غدت تغمز وترمز وتلمز وتابز وتنفز وتنقز .

اذا رأى امرأة تعاتب رجلا على طول غيابه عنها ثم اخذت يده وغمزتها غمزا شديدا حتى احمر الغامز واصفر المغموز او بالعكس .

اذا لقي امرأتين تمس احداهما الاخرى وتلك الملموسة تشير بيدها اللطيفة الى مكان .

اذا وجد رجلا بين امرأتين او امرأة بين رجلين ففي الحالة الاولى طلباً للمرازمة وفي الثانية ثقة بالكفاية لان طعام اثنين يشبع ثلثة .

اذا رجع الى البيت ورأى ان عنده

اوعرضت بشراء الديباج ولم يكن عنده دراهم تكفي.

اذا قالت له وهما على المائدة لتغصّصه ما اجمل فلانا الذي ماشانا وما الطفه وابرّه واترّه واطرّه واحرّه وادرّه.

اذا بات تلك الليلة وهو تعب موجع الراس حتى اذا اغفى قليلا احسّ بحركة منها في جنبه فقضى دينه متكارها.

اذا سكن منزلا وكان جاره الادنى منه فتى جميلا فجعل يتردد عليه بعلة الجارية.

اذا مرض ولزم فراشه وهو يشكو ويئن فلزمت هي الشباك وهي تمكو وتحن.

اذا جاء وقت الصيف فقتر وفدر وجفر وحصر واسترخت عروقه فاثر ان يبيت وحده.

اذا عنّ له سفر لابد منه ولم يمكن له مصاحبة زوجته.

اذا غاب عن زوجته او غابت هي عنه فجعلت تكتب له ماتغيره به وتكيده وتقهره

اذا قرأ في الكتب ان النساء كلهن

مالاً وليس من تلبس الديباج وتجلس الى جانبه.

اذا جلس للطعام وحده وجعل يفكر ويقول في نفسه ما اجمل فلانة التي رأيتها تمشي مع فلان وما الطفها واترّها واطرها وادرها.

اذا بات تلك الليلة وهو مستريح ناشط ثم احسّ بحركة منه فمد يده فجاة على الحائط او على مسمار او وتد فدميت.

اذا سكن منزلا وكانت جارته فتاة جميلة ولم يمكن له ان يمتّ اليها بوسيلة الجاريّة.

اذا رأى جاره مريضا في الفراش يشكو ويئن وزوجته بجنبه تحن وتمن.

اذا جاء وقت الشتاء فاشتدّ واستد وامتد واختد ونبضت عروقه فآثر ان يبيت مع من تنفخ في وجهه.

اذا رأى جاره قد سافر وترك زوجته خبمة طلعة راغية ثاغية.

اذا غاب رجل عن زوجته او غابت هي عنه فجعلت تكتب له ما تصبره به وتسليه وتمنيه

اذا سمع عن امرأة انها لم تخن

خائنات وان عقولهن في فروجهن .

اذا ركبه الضعف فلم يقدر على كفاية عائلته ولم تكن امرأته جميلة لتنفعه.

اذا جاء من محترفه وقابلته امرأته بالصخب والمشارزة والنقار والضجيج والجؤار .

اذا غاب عن بيته ورجع فوجد فراشه مشوّشا وشعر امرأته مشعّثا بعد ان كانت اصلحتهما قبل خروجه .

اذا رآها تسارّ الخادم او الخادمة وتأنس بهما وتتساهل معهما . وتحسن اليهما .

اذا رآها تتوقف في المشي كلما مرّ بها جميل بدعوى ضيق نعليها او غيره .

اذا اضطجعت حتى ينظرها من هو اعلى منها او اسفل واشوق ما تكون المرأة مااذا اضطجعت على جنبها .

اذا كانت ذات هوى وضلع مع جيل بخصوصه ولا تزال تلهج بذكره .

اذا غاب عن بيته ثم رجع فلم يجد زوجها وانها ردّت في حبه هدايا عشاق كثيرين .

اذا رأى امرأة جميلة تماشي ولدا لها صغيرا بزيعاً فيقع في الارض فتنهضه بيدها فيبكي قليلا حتى يحمر خداه.

ذا رأى جاره قد آب من محترفه فسمع له ولزوجته رتلا وزجلا وهمسا وركزا ومباغمة ثم رفثا .

اذا رجع الى بيته فائزا بوطر ووجد فرشه موضونا وليس من تملاه شحما ولحما ثم رأى في جملة ذخائره خصلة شعر .

اذا رأى امرأة لاتسارّ الخادم ولا الخادمة ولا تبتسم لها ولا تخلو باحد منهما .

اذا رأى امرأة تماشي زوجها وطرفها اليه ولا يزعجها من يمرّ بها كائنا ماكان .

اذا رأى امرأة قد اضطرّت الى الاضطجاع وابت ذلك حياء وحشمة سواء كان ذلك في حضور زوجها او في غيابه .

اذا كانت المرأة غير ذات ميل وحذل مع احد وعندها ان زوجها يغنيها عن غيره .

اذا رأى جاره كلما رجع الى منزله

مرأته او اذا قرع الباب فلم تفتح له في الحال.

اذا سمعت الات الطرب فغدت تترنح وتترقص وتقول آه اوه ايه .

اذا كانت تسهب مع الفتيان في الكلام وتضحك معهم حتى تقول طيخ طيخ وعيناها اذ ذاك مغازلتان ووجنتاها محمرّتان.

اذا كتبت على قميصها حروفا انكرها او رأى في شفتيها آثر العض والكدام .

اذا سمعها تذكر اسماء رجال في المنام او اذا تحالمت فذكرت ما كان يعجبه ويرضيه .

اذا رآها تكره ولدها وتلهى عنه وعن امور البيت بزينتها وتبرجها.

اذا قعدت بالشباك لتخيط شيئاً فجعلت تدرز درزة وتنظر منه نظرة حتى جاء عملها فاسدا فاضطرت الى فتقه واصلاحه .

اذا وضعت القدر على النار لتطبخ شيئاً ثم شرعت في الغناء حتى تهوست فنسيت القدر والطبيخ فتشيط .

وجد امرأته مقبلة على الشغل ولا يكاد يطرق الباب الا يُفتح له .

اذا سمع امرأة تقول وقد سمعت الات الطرب ان صوت ابنها الصغير اشجى منها .

اذا رأى امرأة تكلم الحاضرين كلاً بحسب مقامه ولا يسمع منها طيخ طيخ ولا يبدو في سحنتها احمرار ولا اصفرار .

اذا سمع ان امرأة تكتب على قميصها اسم زوجها ولم يُرَ في شفتيها او خدّيها اثر ما قط .

اذا بلغه ان جاره يكاعم امرأته ويُشاعرها فلا تحلم له ولا يحلم لها .

اذا رأى امرأة تحب ولدها وتحمله ولا تلهى عنه ولا عن بيتها .

اذا رأى امرأة تخيط لزوجها او لولدها شيئاً من غير ان تتخلل الدرزات نظرات وظفرات فجاء عملها محكما من اول وهله .

اذا رأى امرأة تضع القدر على النار ولا تلهى عنها فيأتي الطعام قديا مشهيا معينا على الباه والرقاد .

اذا تمنت ان تكون في المواضع التي يكثر فيها تردد الرجال كفندق وخان ونحوهما .

اذا كانت تصرح او تعرض لزوجها بانها تحب السمان الطوال من الرجال مثلا وهو ليس منهم .

اذا كانت تعيب على زوجها انه غير متصف بالمِلَاشِيَة ولا بالقُمُدِيَة .

اذا وافي منزله وقت الغداء او العشاء ساغبا لاغبا فلم يجد شيئاً ياكله لان زوجته لهيت عن الغداء بتصليح ثيابها وتغيير زيّها وعن العشاء بلبسها وجلوسها بالشباك لتنظر وينظرها المارّون.

وما اشبه ذلك .

اذا كانت تبتعد عن المثابة ولا تشتهي ان تدخل في زحام ليقرصها واحد ويغمزها آخر .

اذا كانت المرأة تقول امام زوجها او غيره بانها لاتحب الطوال من الرجال حالة كون زوجها قصيرا .

اذا كانت امرأة مفسّلة تعفّفا وشكت من ملثيّة زوجها وقمديّته .

اذا وافي منزله وقت الغداء او العشاء فوجد على مائدته كل ماتشتهيه النفس فاكل وشرب وطابت نفسه ثم رأى من شباكه جارته تلبس ثيابها وتنظر الى ماورائها لتعلم هل الثوب والعجيزة هما كشنّ وطبقة او لا وما اشبه ذلك .



الفصل الثامن

في سفر معجّل وهَيْنوم عُقميّ رَهبل

وظل الفارياق معالجا للبخر وقد ضاق بهم ذرعا . اذ لم يحصل من علاجهم فائدة فاصبح يحاول التملّص من هذه الحرفة ولا سيما انه كان مطبوعا على الملل والجزع . واتفق في غضون ذلك ان سافر الى فرنسا المولى المعظم . احمدباشا باي والى ايالة تونس المفخم . وفرّق على فقراء مرسيلية و باريس وغيرهما اموالا جزيلة شاع ذكرها ثم رجع الى مقامه . فرأى الفارياق ان يهنئه بقصيدة فنظم القصيدة . و بعث بها على يد من بلغها لجنابه . فلم يشعر بعد ايام الا ورُبان سفينة حربية يطرق بابه . فلما دخل واستقر به المجلس قال للفارياق قد بلغت قصيدتك لجناب سيدنا الاكرم . وقد امرني ان احملك اليه في البارجة . فلما سمع ذلك استبشر بالفرج من حرفته وقال لعمري ما كنت احسب ان الدهر ترك للشعر سوقا ينفق فيه . ولكن اذا اراد الله بعبد خيرا لم يعقه عنه الشعر ولا غيره . ألا فاهزقي يافارياقية المهزاق . واسأتي فما يضرني اليوم اسلاق . ونفّجي ما استطعت ان تنفّجي . وضرّجي وضمّجي ودبّجي . هذا يوم يعبق فيه المكتفن . و يشبق فيه من وهن . ويشمق منه ذو الددن . و يفاز بالغدن . هذا يوم تستحسن فيه الربوخ . و يُلقح فيه من مُلوخ . وتتم الجلهوب والسلقلق . وتُنجب الشريم ثم العفلاق . هلمّي فاتخذي مذ اليوم ظئرا . فانى ارى في الزند إيرا . فقال الربان وقد استعجم عليه الكلام ما هذه اللغة التي تتكلمون بها لعمر الله ما فهمت شيا مما قلتم ، اهذا اللسان تحمل في رأسك الى تونس . وبهذه الالفاظ تخاطب سيدنا واهل الفضل من رجال دولته . قال لا وانما هذه لغة اصطلحنا عليها فلانستعملها الانادرا . فقال الربّان ينبغي ان تتأهب الى السفر ولك أن تستصحب ايضا عائلتك اذا شئت . فان سيدنا اكرم الناس لا يسوءه ذلك . فتاهب الفارياق هو وعائلته وركبوا في السفينة و بعد

مسير اثنى عشر يوما والريح مخالفة كما جرت العادة بذلك بلغوا حلق الواد . فامر المولى المشار اليه بنزولهم في دار امير البحر . وهنا ينبغي ان نلاحظ مزية الكرم التي خص الله تعالى بها جيل العرب دون سائر الاجيال . وذلك ان استدعاء المولى المومأ اليه لم يكن لجميع من دبّ ودرج بمنزل الفارياق بل كان خاصا به وحده . الا انه لما بلغ مسامعه الكريمة قدوم مادحه باهله لم يستأ من ذلك ولم يقل ما اقلّ ادب هذا المدعو وما اصفق وجهه لقدومه علينا مزويا . ولم يقل لربّانه قد خالفت القوانين السياسيّة والاوامر الملوكية فلتنزعن عن كتفيك هدّاب منصبك حتى تكون عبرة لمن اعتبر . بل بقي الربان متشرفا بهدّابه . والفارياق متمتعا باهدابه . و بوّيء اكرم مبوّأ في دار امير البحر واجرى عليه الرزق الكريم . والخير العميم . ولو ان احداً من الافرنج دعا شخصا واتاه ذلك الشخص ومعه غير نفسه لجبهه عند اللقاء بل لم يكن ليلقاه قط . لا بل نساؤهنّ لما كنّ يدعون الفارياقية كن يقلن لها انك انت المدعوة فقط اشارة الى عدم ازوائها بخادمتها وطفلها . وليت شعري اين من تكرم من ملوكهم بارسال بارجة لاستحضار شاعر ولغمره اياه بالمال والهدايا النفيسة . فلعمري ان مادح ملوكهم لا جائزة له من عندهم غير تسفيهه وتفنيده . مع انهم اشد الخلق حرصا على ان يشكرهم الناس و يمدحوهم . ولكنهم يأنفون من ان يمدحهم شاعر يريد نوالهم فلمن هذا المال الذي يدّخرونه . ولايّة داهية من الدواهي يُعتدونه . وهم الطاعمون الكاسون . الحاسون اللاسون . ام يخشون ان يلمّ بهم ضفف او قشف . ام يحسبون ان صلة الشاعر من السرف . ولهذا اي لكون الكرم مزية خاصة بالعرب لم ينبغ في امة من الامم شعراء مجيدون مفلقون كشعرائهم على اختلاف الامكنة والازمنة . وذلك من زمن الجاهلية الى انقراض الخلفاء والدولة العربية . فان اليونانيين يفتخرون بشاعر واحد وهو اوميرس Homere. والرومانيين بفرجيل Virgilius والطليانيين بطاسو Tasso والنمساويين بشلر Schiller والفرنسيس براسين ومولير Racine et Moliere والانكليز بشكسبير وملطون و بيرون Shakspeare, Milton et Byron. فاما شعراء العرب المبرزون على جميع هؤلاء فاكثر من ان يُعدّوا . بل ربما كان ينبغ في عهد واحد في زمن الخلفاء مائتا شاعر كلهم بارع فائق . وذلك لان الأَيدي كما قيل تفتح اللَّهى . على انه لا مناسبة بين الشعر

العربي وشعرهم . لانهم لا يلتزمون فيه الرويّ والقافية وليس عندهم قصيدة واحدة على قافية واحدة ولا محسنات بديعية مع كثرة الضرورات التي يحشون بها كلامهم. فنظمهم في الحقيقة اقل كلفة من نثرنا المسجّع . وما احد من شعراء الافرنج استحق ان يكون نديما لملكه . فغاية ما يصلون اليه من السعادة والحظوة عند ملوكهم انما هو ان يرخص لهم في انشاد شعرهم في بعض الملاهي . فايّ هوانٍ يلحق جناب الملك المعظم من اتخاذه الشاعر نديما وكليا . ام يقال ان شعراء الافرنج كثيرون بحيث لا يمكن الملك ان يختار واحدا منهم على غيره . اروني اين هم هؤلاء الكثيرون على خزنته السعيدة . كم في بلاد الانكليز الان من ناثر . وكم في بلاد فرانسا من ناظم . وهنا ينبغي ايضا ان اضيف ملاحظة اخرى فاقول . انه قلما ينبغ شاعر عربي او عجمي ويعجب الناس جميعا . فان من الشعراء من يحب الكلام الجزل الفخم دون ابتكار المعنى . وبعضهم يعني بالمعاني دون الالفاظ . وبعضهم يتحرّى اللفظ الرقيق والعبارات المنسجمة.وبعضهم الغزل وغير ذلك . ولا تكاد تجتمع هذه المزايا كلها في شاعر واحد او تجتمع عليها اخلاق الناس كلهم . فان من كان من بني نظري ذَبّ الرياد شَحِيا الحِيا مُخضعا متصندلا زِير النساء وخِلْبهن وشِيْمهن ونِسأهن وحِدْثهن وطِلْحهن وطِلْبهن وخِدنهنّ وعَلّهن ورَنُوهن وحُرقوصهن (١) فاقحا اياهن حيث سرن . وكارزا لهن ايان برزن . لا تهمه الحماسة ولا منازلة الاقران . فعنده ان قول امرء القيس

اذا ما بكى من خلفها انصرفت له   بشق وتحتي شقها لم تحوّل

احسن من قول عنترة

فطعنته بالرمح ثم علوته   بمهند صافي الحديدة مخذم

ومن يكن عِزْوا اوعِزْها او حصورا اوعِتْولا مُتَنَطِّما او متأبدا اوعَنْكَشا عَشْيَلا او صَيْقما صمكمكا كَيْنكا ليس به حمضة الى العَبْهرة العجنجرة والعياذ بالله من ذلك . صرف ذهنه الى الزهديات والحكميات . انتهى ثم ان الفارياق انتقل الى المدينة وهناك تعرّف بجماعة من اهل الفضل والادب . منهم مَن ادبه ومنهم من

(١) الحرقوص بالضم دويبة كالبرغوث حمتها كحمة الزنبور او القراد تلصق بالناس او اصغر من الجعل تقب الاساقي وتدخل في فروج الجواري .

أبرفه وهناك حظى بتقبيل يد المولى المعظم ونال منه الصلات الوافرة . وسأله وزير الدولة هل تعرف اللغة الفرنساوية . قال لا ياسيدي ما عنيت بها . فاني ما كدت اتعلم لسان الانكليز حتى نسيت من لغتي قدر ما تعلمته منه . فقد قُدِّر على راسي ان يسع قدرا معلوما من العلم فمتى زاد من جهة نقص من اخرى . فلما اخبر زوجته بذلك قالت له . الم اقل لك غير مرة عُدْ عن الغزل بالنساء وتعلم هذه اللغة المفيدة وما كنت لترعوى عن هواك . ماذا تريد من الغزل وعندك زافنة . قال فقلت نعم ورافنة . ثم قالت ماذا يفيدك وصف العين بالحَوَر ولست منهن تقضي الدهر من وطر . اليس وراءك مني رقيب قريب . قلت بلى والله اني ما خلوت قط بامرأة في الحلم الا ورايتك وراءها . حتى كثيرا ما شاهدتك تمزقين ثوبها وتنتفين شعرها ثم تتبوأين مكانها وترسلينها فارغة . فقالت الحمد لله على ان القي رُعبي في قلبك في اليقظة والمنام . قلت قد بدأ لي ان انتقل من التغزل بالنساء الى هجوهن فعسى ان انتقل بذلك الى حال احسن . قالت افعل ما بدالك ولكن اياك من ان تدخلني في الجملة . ولكن قف قف لاتذكر النساء لا في النسيب ولا في الهجاء . فانك اول ما تذكر اسمهن يدور رأسك وينبض فيك العرق القديم . كلا ثم كلا . قلت ولكن في مدح سيدنا الامير قد ذكرت اسم امرأة . فقالت وقد اتقدت عيناها من الغيظ . مَن هذه الفاعلة الصانعة . قلت هو اسم عربي . قالت آه هو من ضلالك القديم . ولو كان اسما عجميا لقمت الآن واحرقت ديوانك هذا الذي هو عليّ اشد من الضرّة لانك تصرف فيه نصف الليالي . فقلت لكن هذا النصف ليس بمانع من كله . قالت لكن ذاك الكل حق لي وضعفَي مثله . قلت صدقت ما خُلق الليل الا للنساء وما خلقن هن الا للّيل . قالت سلمتُ بالاولى ولا اسلّم بالثانية . فان النساء خلقن للنهار ايضا . قلت نعم ولكل ساعة منه وليس للرجل همّ في الدنيا غير امرأته . قالت الاولى ان تقول اهتمام . قلت في كل اهتمام همّ . قالت هذا عند الرجال من فشلهم وليس كذلك عند النساء . قلت هو من خفة عقولهن وثقل نهمهنّ فان اللذة تذهلهن عن الدين والدنيا معا . قالت بل هن يجمعن بين الثلثة في مكان واحد وآن واحد . واما انتم فمتى كلفتم بواحدة منها اغفلتم الاخرى . وهذه من المزايا التي ميزانا بها الباري تعالى عليكم ألا ترى ان المرأة اذا سمعت مثلا خطيبا جميلا يخطب في الناس ويزهدهم في

الدنيا تلذذت بكلامه وشغفت حبا بجماله و بكت زهدا في العالم . قلت بودي لو كانت النساء يخطبن على المنابر كالرجال . قالت اذا لأبكينهم دما . ولكن هيهات فان الرجال من اثرتهم استبدوا بجميع الامور المعاشية والمعادية و بمراتب العز والجاه . وحرموا النساء من ان يشاركنهم فيها . فما كان ابهج الكون واعمره لو كانت النساء تتولى هذه الرتب . وكما ان الدنيا مؤنثة وكذا السماء والارض والجنة والحياة والروح والنفس والنبوة والرسالة والسعادة والحظوة والغبطة والعزة والنعمة والرفاهية والأُبهة والعظمة والخطابة والفصاحة والبلاغة والسماحة والشجاعة والفضيلة والمروءة والحقيقة والملة والشريعة والايالة والولاية والزعامة والرئاسة والحكومة والسياسة والنقابة والنكابة والعرافة والامارة والخلافة والوزارة والمملكة والسلطنة واخص ذلك المحبة واللذة والشهوة . فما كان اجدرها بان تشرف بالنساء . قلت قد نسيت العفة والحصانة . قالت لم تخطر لي ببال والا لذكرتها . قلت ولكن البعال مذكر . قالت اين انت من المباعلة . قلت والهكهكة . قالت وما الهكهكة . قلت مضاعف هكٌ هك اي هنى هنى اي طحز طحز اي فعل فعل . قالت هي احسن مما تقدم . قلت فقولي اذا اخيرًا والا فهو كفر وخمج . قالت على النساء لاحرج فان منهن الفرج . قلت نعم للفرج اذا ابصرن ذا فرج . قالت والارج . قلت والمرج . قالت وهنّ احق بذى برج . قلت و بمن تبرج . قالت الجمع بينهما بلج . قلت والثاني عند تعذر الاولى هو الافلج .

قالت و به اللسان لهج . ثم عزما على الرجوع فسفرهما المولى المشار اليه في سفينة النار .



الفصل التاسع

في الهيئة والاشكال

و بعد ان وصل الفارياق الى منزله جاءه بعض معارفه وسأله عن سفره . فاسرّ اليه وعينه ناظرة الى باب غرفة زوجته ان نساء اليهود في تونس مازلن حسانا . وانه وان يكن قد أُنزل بهذا الجيل مسخ كما تزعم النصارى فانه انما نزل بالرجال فقط . فقالت امرأته من وراء الباب قد سمعت ما تقول بل المسخ وقع على النساء . قال حيث قد سمعت نجوانا ولا يخفى عليك مني خافية فضمي نفسك الينا لنخوض في هذا الحديث المستحب. قالت اجل انه ما يخفى عن اذني همهمة . ولا عن عيني سمسمة . ثم انها تصدرت في المجلس وقالت . قد اعجبني من زيّ الرجال في تونس ان سراويلهم قصيرة بحيث تظهر سيقانهم . قال فقلت بل زيّ النساء اعجب واشوق . فان الرجال قد يكسون سيقانهم من الجوارب ما يغطيها ومع ذلك فالسراويل تخفي خصورهم وما يليها . فاما النساء فسوقهن بادية ولا شي يستر حقائبهن . فترى المرأة تمشي في اوان الحرّ وثوبها يشف عما تحته من مكتّب ومقبّب . ومعقب ومقوّب . ومكعّب ومكعثب . فقالت بودي لو كان زيّ النساء كهيئة اجسامهن . قلت هذا يكون فاحشا من وجهين . لان المتزيية به ان كانت ركراكة عندلة لفاء كانت فتنة للناس وعطّلت عباد الله عن اعمالهم . وان كانت دردحة او رسحاء كانت وباء على الناس واجحرتهم في بيوتهم تطيّرا منها . قالت ما سبب كون الرجال في هذا البلد يتزيّون بزي كهيئة اجسامهم ولا لوم عليهم ولا محظور من رؤيتهم . افكل ما تفعله الرجال يسوغ وما تفعله النساء يغصّ به . لعمري ان هذا الزي احسن من زي رجال بلادنا . فانك ترى من له سراويل منهم يمشي ويفحج كالشاة للحلب . وكثيرا ما تلتف عليه من قدام ومن خلف فتعوقه عن المشي فضلا عن الجري . ولو انه كان مثلا في محترفه وقال له قائل

قدزارك اليوم في منزلك فتى غسّاني فرهد . ولمّا لم يجدك لبث ينتظرك وها هو الآن هناك — وقد احتفلت به زوجتك وهشّت اليه و بشّت وهي التى ثبّطته وامرت الخادمة بان تمرض او تمارض حتى تنفي عنك الشبهة . اذ لو بعثتها اليك وخلا لهما المكان لرابك امرهما واعتقدت ان زيارته لها انما كانت عن موعد . وانها هي المقصود بهذه الزيارة لا التشوق الى رؤية سحنتك . وغير ذلك من الكلام الذي يفور به الدم وينتفخ منه الحلاق . فكيف يمكن له والحالة هذه ان يحفد الى منزله وبين فخذيه ما يذهب به هنا وهناك . ثم ضحكت وقالت نعم وترى منهم من له جبة يمشي ويكنس الارض باذيالها فيلصق بها كل ما في الارض من النجاسة والقذر حتى اذا وافى بيته ملأه بالرائحة الخبيثة فعلق بزوجته منها ما يرد الطرف عنها وان كانت عبقة . لان الرائحة الخبيثة تغلب على الرائحة الطيبة كما يقال . وفضلا عن ذلك فان جبة واحدة يعمل منها كثير من هذه التي تلبسها الافرنج الى خصورهم . وليس للرجل اذا لبسها من هيئة ولا شارة فانها تخفي قوامه كله فلا يرى له خصر ولا غيره . وما خلق الله الانسان على هذه الصورة الا واراد ان تكون ظاهرة كما هي . قلت قد رأيت الافرنج في بلادهم صيفا وشتاء فاذا هم يسترون ادبارهم بهذه الجبب المزنقة . ولا يمشي احد منهم في الخارج ظاهر الدبر كما يمشي هؤلاء القوم القليلو الحياء في هذه الجزيرة . قالت والبطون والافخاذ قلت ظاهرة قالت قد شفع هذا في ذلك فاما سترهما معا فشنيع . لعمري ان الناس لم يهتدوا الى الآن الى زيّ حسن يوافق هيئة الجسم ويلائم للعمل وبه شارة . فان هذه البرنيطة لا تعجبني وليست ملائمة للوجه لا في النساء ولا في الرجال . لانها اشبه بالقفة او الزنبيل او القِرطالة او السلّة او العَيْبة او العِكْم او المرجونة او الجوالق او الخُرْبة او الاّبيد او الجُرْجة او الغفَر او الجُفّ او القفْعة او الجُلّة او القَشْع او المُدارة او القَلْع او الكِنْف او القُنْبع او الخِرف او القِنْع او الزكيبة او الجِواء او القَوْصرّة او القَوْد او التلّيسة او الوَفيعة او الجِلْف او الخصَفة او الدَوْخلّة او السَفَط او المَنْفَص او المِيْضنة او الصَنّوت . وهذه العمائم دونها في القبح . وهذه الحبَر التي تلبسها نساء مصر لا حسن فيها فضلا عن غلائها . واقبح من ذلك كله هذا الحزام الذي تتحزّم به الرجال فانه يملأ الخصر والصدر ويمنع الطعام عن الهضم . واقبح منه

هذا الشريط الذي يربطون به سراويلاتهم من تحت ركبهم فانه يوقف الدم عن سريانه في الارجل . وليس في زي نساء الافرنج حسن الا كونه ملائما للمرافد وقد طالما بتّ مشغولة البال بهذا وحاولت ان اخترع زيا يكون فيه حسن وتشويق وخفة وطلاوة وجلالة مع موافقة هيئة الجسم ما امكن فلم يفتح الله علي الى الان . وعسى ان يتجه لى ذلك عن قريب فاكون معدودة من جملة المستنبطين في هذا العصر . قلت وهل لم يخطر ببالك الاقتصاد قط في استنباطك . قالت لا فان خير المال ما انفق على المرأة . قلت بل على هذه الخزانة واشرت الى سهوة الكتب . قالت اوَ تعانق الكتاب في ليلك وتشاعره . قلت ان الرجل حين يشاعر زوجته ليلاً لا تكون متزينة باللباس والحلي بل تكون عريانة عند قوم . وفُرُجا او متفضّلة او هلاً عند اخرين . فيصدق عليها ما قيل شعر

يتمخطل الانسان جل نهاره   حتى يفوز بغادة في ليله

فاذا استقر في الفراش بدت له   جهوا ، مثل التيس تحت ذُ يله

قالت بل في تبرّج المرأة وزينتها نهارا تشويق وتهييج لزوجها ليلا . قلت نعم ولجارها ايضا . قالت بل ولنفسها كذلك . قلت ما فهمت هذا المعنى البديع هل المرأة اذا نظرت الى زينتها تكرع . قالت لاشك فان الزينة حُسْن وكل حُسن فانما يُذكَر بالحَسَن . حتى لو نظرت جواداً مطهّما او متاعا نفيسا او شيئاً آخر من زينة السماوات والارض لكان اول ما يخطر ببالها شخصا متصفا بالجمال . قلت فهو اذاً تصور مطلق غير معين . قالت ان كان الاشوق في العيان . فهو الاسبق الى الاذهان والا فأي كائن كان . قلت وعلى فرض حضور الزوج وشرط كونه عليه مسحة من الجمال . فهل له خطور بالبال . قالت اذا وفق الى التمليق والتعريب فقد يخطر ولكن لا بالصفة العينية بل بالصفة المطلقة . قلت قد لمحت الى هذا المعنى سابقا وفهمته حق فهمه . ولكن اسألك سؤال متحرّ غير ذي ضَلع ولا صغا . هلاّ يجب على المرأة ان تقدم زوجها في الذكر والتصور من حيث ان له المزية والتقدمة . وحالة كونه شيخها وأباها وحليلها ونفّاحها وكميها وكفيحها وضجيعها وعقيدها وعهيدها واكيلها وشريبها وجليسها وسميرها وحليفها وعشيرها واليفها ونجيّها وضمينها ووليّها وكفيلها وكايمها وعنيقها ونديمها وخليطها وعميلها وشريكها وخليلها . قالت نعم ورقيبها وسبيبها وشغيبها وعقيبها وغضيبها وكليبها

ولتيها ووثيها وخيصها وخصيمها ولزيمها وزحيمها ونبيزها ولقيسها وفقيسها وقفيسها وجاسوسها وعاسوسها وجاروسها وقوسها وفانوسها وكابوسها وناطورها وناقورها. قلت قد قال مولانا صاحب القاموس دَلّ المرأة ودَلالها تدللها على زوجها تريه جراءة عليه في تغنج وتشكل كأنها تخالفه وما بها خلاف. وقال ايضا تبعلت المرأة اطاعت بعلها او تزينت له. وفي موضع آخر تهيأت تعرضت لبعلها والقت نفسها عليه (انتهى) فهذا دليل على ان حركات المرأة كلها ينبغي ان يكون مقصودا بها الزوج لاغير. قالت لاغرو ان يكون صاحبك قد قيد هذه الحركات بالزواج تفرداً بها من عنده. او انه تابع بعض اهل اللغة المشفشفين على ذلك. فان الرجال دأبهم ان يدعوا ان المرأة لم تخلق الا لارضاء زوجها وتعليله وعمايته. وان اللغة انما وضعوها استبدادا منهم عن النساء وافتئاتا كما هو دأبهم في غير ذلك. مع ان اللغة انثى ولو كانت من وضع النساء وهو الاولى اذ كل ازداج ووضع لابدّ له من ماهية انثوية لكنّ وضمن الفاظا تدل على من لايفكر في غير امرأته. وعلى قصر طرف الرجل عن النظر الى سواها وعلى مرضه لمرضها وزحيره لزحيرها. وعلى الباسه اياها ونضوها من ثيابها. وعلى تمشيطه شعرها واحراز مُراطة منه للنظر اليها اذا غاب عنها ساعة ما. وعلى بذل جميع ما تحت يده لرضاها وعلى من يرى زوجته احسن النساء ومن يزيد حبه لها بازدياد رؤيته لغيرها. او على من يغمض عينيه اذا تعرضت له اخرى او يغشى عليه او يكبّ على وجهه او يأخذه الدُوار او الهيضة. وعلى من يتخذ صورتها فيعمّ بها حيطانه وكتبه ومتاعه. فتكون مرة قائمة ومرة مضطجعة ومرة مستلقية واخرى مكبّة. وبعد فقد تركنا لكم اللغة تتصرفون فيها كيفما شئتم فلم لا تتركون لنا خواطرنا وافكارنا وهي ليست من الحركة ولا السكون. فاما دعواك بالمزية والقفية فاني اخبرك خبر من لايجمجم عليك رثاءً او حياء. انه لامزية للرجل على المرأة في شي. اذ ليس من تقفية للرجل الا وللمرأة مثلها. فاما كفالته اياها فينبغي ان اقول لك هنا دقيقة قلّ من تنبه لها. وهي انه قد يجتمع مثلا شخصان في شركة او دعوة او زواج ويكون قد تقرّر في بال احدهما ان له منّة على صاحبه. وذاك الممنون عليه يعتقد باطنا وظاهرا انه مظلوم. مثال الزواج ما اذا كانت البنت قبل زواجها تهوى شابا ولم يمكنها ان تتزوج به فتزوجت آخر. فرأت من افعاله

واطواره ما انكرته . فيخطر ببالها ذلك الذي فاتها فتقول في نفسها لعله كان مستثنى من هذه الاخلاق • فلو اني تزوجت به لكنت الان في اهنأ عيش . وزوجها يظن اذ ذاك انه اسدى اليها منة عظيمة بكونه تزوجها بعد ان فاتها خليلها الاول. فكان ينبغي للرجال والنساء ان يمعنوا النظر في احوال الزواج قبل ان يرتبقوا فيه . وعلى الرجل ان لا يتزوج من كانت تهوى آخر قبله . وعلى المرأة ان لا تتزوج بمن كان يعاف الزواج خوف الانفاق والاملاق . او من كان يهوى اخرى وهو عزب . ومثال الشركة ما اذا كان احد الشريكين هو الذي قدّم راس المال من عنده والقى عب المصلحة على رفيقه . فكل منهما يحسب انه ذو منة على شريكه . ومثال الدعوة ما اذا دعاك احد الى الغداء في العصر وكانت عادتك ان تتغدى في الظهر . أو اذا قدم لك من الطعام ما تعافه . فقد ركز في طبع كل انسان ان يحسب ما يستحسنه هو حسنا عند غيره . او اذا تكرم عليك وقت الغداء بقُدَيرة وكُسيرة وجُرَيعة غير عالم ان المادوب تكبر معدته عند الآدب وتتسع امعاؤه . او اذا دعاك الى منزله وكان بعيدا عن المدينة فلزمك ان تكتري مركبا بما يساوي غدائين وعشائين عنده . او اذا كنت مثلا عند احد اكابر الافرنج لمصلحة له وعلم انه قد مضي عليك عدة ساعات من غير اكل فامر خادمه بان يقدم لك لهنة من الخبز ومن هذا الجبن الالخَني" . وبك اذ ذاك قرَم الى اكل دماغه فايّكما والحالة هذه الممتنّ والممتن عليه . او ان يكون احد في خدمة امير فالمخدوم يعتقد ان خادمه ممنون له لكونه ياخذ ماله . والخادم يرى ان مخدومه هو الممنون لكونه ياخذ منه شبابه وصحته . او ان يكون احد قد زار صديقا له ليسامره وبالمزور همّ وقلق فكل من الزائر والمزور يحسب انه متفضل على صاحبه وقس على ذلك المعلم والمتعلم والمادح والممدوح والمغنّي والمغنّى له • فمن ثم لا ينبغي للرجل ان يحسب ان مجرّد اطعامه المرأة والباسه اياها منّة منه عليها . فان حقوق المرأة اكثر من ان تذكر. قلت قد خنت ذلك على طوله وعرضه فقولي لي اي الرجال احب الى النساء . قالت ان اذل لك تعربد . قلت قولي لا باس فانما هو بساط حديث نُشر فلا يطوى حتي نصل الى آخره . قالت يوم النشر اذاً . فاعلم ان الكاعب من النساء تحب الغلمان والاحداث بشرط كونهم حسانا . والمُعصر تحب الشبان بالشرط المذكور. وقد تأنس بالكهل

اعتقاد ان يكون بها ارفق واعشق . ولكن ذلك لايسمّى محبة لانه يؤول الى نفع نفسها. ومن شرط المحبة ان تكون مجردة عن الاستنفاع . ولكن هيهات فان كل محبٍّ اذا تحقق دوام حرمانه من محبوبه وعدم الانتفاع به ملّه بل ربما كرهه فعلى هذا فالمحبة عندي لفظ برادفه الفائدة . فقول القائل انا احب فلانة حقيقة معناه انا استفيد منها . فاما العانس فتحب الصنفين المذكورين ومن جاوزهما في السنّ قليلا بالشرط المذكور . واما النَصف فتحب الثلثة والكهل ايضا بذلك الشرط . واما العجوز فتحب الجميع . قلت ما قولك فى الشوارب . قالت هي زينة الفم كما ان الحواجب هي زينة العيون . قلت وفي اللحى . قالت حلى الشيوخ . قلت وفي العارضين . قالت بخ بخ هما زينة الناظر والمنظور اليه . قلت اي حسن فيهما وخصوصا مع حلق الشاربين قالت هما بمنزلة الاكمام للزهر . او الورق للغصن . او القطيفة للثوب . او السياج للحديقة . او الهالة للقمر . وبينما هما في الكلام واذا بطارق يطرق الباب ففتح له واذا برجل معه كتاب من اللجنة المذكورة سابقا يتضمن استدعاء الفارياق واهله اليهم . فلما طالع زوجته بذلك كادت تطير فرحا وسرورا . وقالت ما ابرك صباح هذا اليوم وما ايمن شمسه . ثم قامت الى الصندوق فاوعت فيه لوازم السفر ماعدا القاموس . فقال لها الفارياق رُوَيدك فان دون هذا السفر امورا كثيرة . فاقعنفزت وقالت اذكرها لي جملةً حتى ألي بنفسي جُلها . قال اطمئني واصبري فانك قد شوّشتِ عقلي بكلامك الاخير . واعوذ بالله من ان يكون سببا في فساد ترجمة الكتاب . فتركته واشتغلت بامرها . وانا كذلك اتركه الى وسواسه في العارضين اذ ليس عليّ ان اشاركه فيه .



الفصل العاشر

في سفر وتفسير

من جملة مالزم لهذا للسفر ماعدا القاموس كان هذا الشرط . وهو ان يغيب الفارياق عن الجزيرة عامين واذا رجع يوظف في وظيفته الاولى . فمن ثم كتب عرضا للحاكم واقام ينتظر الجواب . وبعد ايام ورد الجواب بقبول هذا الشرط . فوجد كل شيء ناجزا للسفر لان زوجته لم تكن في تلك المدة تهمل شيئاً . فلم يبق عليهما الا تشريف الجواز بختم القناصل واداء الغرامة الحتمية . الا انه بقي غير مختوم عليه من قنصل ليكورنه . فلما بلغوا مرساها اراد الفارياق ان يدخل البلد فاعترضه صاحب ديوان المكس . فقال له انا اعطيك هنا ما كان يحق ان اعطيه للقنصل في الجزيرة . قال لا بل تعطي هنا ضعفين فابى وعزم على الرجوع الى السفينة . فرآه وزوجته رجل يدير زورقا فلما علم بقضيتهما قال لهما انا ادخل بكما البلد بنصف ماطلب منكما هذا المكاس الحرامي . فركبا في زورقه وعرج بهما من مكان خفي حتى دخلا البلد . ثم رجعا الى السفينة فسارت بهما الى جينوي ثم الى مرسيلية ثم سافرا الى باريس . وفيها اجتمع بمسيو لامرتين الشاعر المشهور في اللغة الفرنساوية . واقاما فيها اياما تخوفت من الكيس جانبا (فائدة اذا كنت في بلاد فرنسا فلا تنزل خانا للانكليز واذا كنت في بلاد هؤلاء فلا تنزل خانا لاولئك) ثم سافرا الى لندن المحلوم بها . فلما رأت المدينة وما فيها من التحف العجيبة . والرغائب الغريبة . ومن الانوار المزدهرة . والحوانيت النضرة . قالت ايه ايه لقد قصرت الاحلام عن اليقظة . نعم الدار هي مقاما . وحبذا العيش فيها دواما غير اني رأيت من نسائها امرا بدعا . قال فقلت الحمد لله على انك بدأت بالنساء فهو من جد طالع الكتاب الذي يراد ترجمته . ولكن اي بدع هو . قالت كنت اسمعك تحكي عن بعض الائمة ان عقول النساء في فروجهن . وقد ارى نساء هذه الدنيا الصغرى

عقولهن في ادبارهن . قلت فسّري فانني لم افهم ما اردت . قالت اذا كانت المرأة توقع نفسها بين تهاتر الصنعة والفطرة مع الاستهتار . اي انها تفخم شيئاً بالصنعة وهو في الخلقة غير عظيم المقدار . وتهيج الناس على اكباره والمفضل كله للجار . اي اذا كانت تقول بلسان الحال ان لديَّ عنصر عصار كالاعصار . لا يجدي معه الاعتصار . وطبلا فيه زمارة لكل زمار . وصفارة في حالتي الشبع والصفار ودناً مقعارا . يحتاج الى صمام اذ قد ملىء الى الاصمار وزوراء تستدعى بالزيار . وَخرتاً حريا بالدسار . وجحرا او دحلاً ينجحر فيه الحاذر اي انحجار . وحشة ذات اكوار واوكار وَوَرباً ياوى اليه من ليس له وجار . ووأبة مؤثبة في الليل والنهار . ونُقرة ذات تنقير ونقر على ابتدار . وصرف فرث ذات صرير وصرار . وانتوعة شملت على صلّة ولا سيما عند الاهجار . وعزلاء لو انحل وكاؤها امتلأت بالدمار . ووطباً لوفش لا كفهر منه الجواري اكفهرار . وكثيرا يتطاير من نفخه الشرار . وهيفاً اذا هبّت في الصيف قال الناس الفرار الفرار . اي اذا كانت خلقت وما تاربها احد فاتخذت لها رباً ورآها . ليغني غناءها . اي اذا جعلت دأبها كله في تسنيم المسطح . وتقبيب المفلطح اي اذا استحمقت الناظرين اليها . واشارت اليهم ان عندي قعيدة او نضيدة يقعد عليها . اي اذا رمزت اليهم ان الركاز تحت الجراز . اي اذا استحقبت المصادع ثم جعلت تمشي وتنظر الى حقيبتها وتعجب منها وتزهى بها وتنافس فيها وتحرص عليها وترتاح لها وتشوّق اليها . فوجدت اخرى تفخرها في ذلك ثم وجدت هذه ايضا من غلبها في الاستحقاب فاجدر ان يقال ان عقولهن في الحقائب . هذا معنى ما قالته والجراز عبرت عنه بالقرع . والترب بالردف والحقيبة بالعدل . ولفظة اي في الاصل . قلت هذه عادة لهن فلا تشاحني في العادات فان لنسائنا ايضا عادات كثيرة مكروهة في هذه البلاد . وذلك كالتكحيل والتزجيج والتخضيب والتحنية والبرنئة والنمغ والتسيير والتوقيف والاغماس والترقن والترثن والتقفز والتطريف والوشم والتنوّر والامهاش والجمش والتحفف والتنمص والحلت والاستعانة والتفريب والضياق والفرم والالهاط والاستطابة والتصنيع والتسمين وعقص الشعر وتقليم الاظفار وتدريمها . وكشف الصدر وتحريك الخصر لمن قرصت او قرزت او مرصت او مرزت او غمزت . والحقي به ايضا العُقر وبيضة العقر والاختفاض

والاهنجان وغير ذلك. قال فما كدت اتمّ كلامي هذا الوجيز حتى استشاطت غيظا واحرنفشت. ثم قالت لقد اَبسلك الى التهلكة مقولك وفضحك عندي وعند الناس فضولك. من اين علمت انهن لايغنجن. اذا خُلجن. ولا يرقصن. اذا قُرصن. ولا يستعملن الضياق والقرم. اذا كان الفاهم ذا لهَم. او اذا كان قوأبا. ذا بقبقة مقبقبا. او اذا كان العفلق. يسمع له جلنبلق. والخُنُق احب الى الهُقُق لولا انك جرّبت منهن ذلك. قلت هذا امر شائع مستفيض نَبَهُ مشهور منوّه به ذو دالة و بُشلة وتشر بر لايخفى على احد. فهو كقول القائل السماء فوقنا والارض تحتنا وهو عند النحاة ليس بكلام افتفضين مما لايصح ان يسمى كلاما. قالت ما لي وللكلام انما غضبي عن الفعل. انك عندي قوّال. وعند غيري فعّال. ما هذه صفة المتزوجين. ماهذا شأن المحصنين. ياللعجب انت لاتستحي ان تطلب. وانا استحي اَن اُطلَب. الا ليت قاضيا يقضي بين الرجل وامرأته حتى يبين للناس كافة مَن الظالم والمظلوم منا. قلت فقولي اذاً ليت قاضية. لان القاضي من حيث كونه والحمد لله ذكرا يحكم للرجل على المرأة. قالت بل الامر بعكس ذلك فان القاضي لايرى الحق الا للمرأة على الرجل ولا سيما اذا جأشت اليه واجهشت وكذا كل رجل الا امرأة نفسه. قلت لله درك من امرأة خبيرة بامور الرجال ومن رجل خبير باحوال النساء. اني على مذهب سيدنا القاضي. فاني حين كنت احضر خصام رجل وامرأة وارى الرجل منتوف اللحية مخرّق الجيب ما كنت لانظر الى المرأة الا نظر المبرّي. ولا سيما اذا اجهشت فكنت اودّ لو افديها بروحي. ولكن رويدك لاتزبئري ولاتزمخري ولا تجذئري ولا تجظئري. ولا تحزئري ولا تقدحرّي. اني لم يبق لي الان الا النظر فاما التفدية فلا حكم لي اليوم علي نفسي. ولكن اخبريني ماهذه الخصلة الغريزية فيكن معاشر النساء. انكن تبكين وتضحكين ايانَ شئتن من اي شيء كان. ونحن معاشر الرجال لانبكي الا منكن ولا نضحك الا لكنّ ومن اجلكن. قالت سبب ذلك هو كون النساء ارق طبعا. واكرم خلقا. وادق فهما والطف تخيلا. وارأف قلبا واحنى فؤاداً والين جانبا واسرع سمعا ونظرا. وانفذ فكرا واعجل تأثرا. واخف يدا واعلق بالدنيا والدين. واقبل للتلقين. وابدر الى الرسيس. والقف للعلق النفيس. قلت

مهلا مهلا . قالت وأروق بالا . قلت وبعالا . قالت وابلغ حِيَلا . قلت وعلملا . قالت وأوفى صلة . قلت وغربلة . قالت واعجل الطافا . قلت وايفافا . قالت واكثر ترفقا . قلت وشبقا . قالت واوفر كرما . قلت وغلما . قالت واطول حبّا . قلت وقنبا . قالت وابقى وجدا . قلت وزردا وعصدا . قالت واشهى عتابا . قلت وقرابا . قالت وابدع شمطا . قلت ولمظا . قالت وارخم منطقا . قلت وحمّقا . قالت واسبق شعورا . قلت وشغورا . قالت واحلى تحدثا . قلت ورفثا . قالت واغرب رَتَلا . قلت وعَفلا . ثم قلت قد كان حديثك اولا في الحقائب بما يذهب بصبر ايوب . ويبزي المثمود والمنجوف والمنجوب . والان اخذت في تفضيل النساء على عادتك وفي تعداد محاسنهن وستنتهين الى كشف المغطّى منهن . فهل تريدين ان اقدم على صاحبنا مجنونا او ذا لمم فتفسد ترجمة الكتاب . قالت ان كنت تجن هنا فلا يكون لك في البيت قرصعة كما في الشام . فان المجانين الذين هم في بيوتهم هناك اكثر من الذين هم في اديار الرهبان . قلت لعل ذلك هو الذي اغراك بهذا التشويق المعذب . فكفّى عن هذا الحديث الملهب المحرب . بحق من اعطاك هذا اللسان الذرب وتأهبي للاشخاص الى من يكون عنده شغلي . قالت أليس هو بلندن . قلت لا بل هو في الريف . قالت ويلي على الريف . وعلى الفلاحين . من يطيق السفر من هذه المدينة ليسكن بين الهمج فان الفلاحين في جميع البلاد سواء . قلت ثم ننتقل من هنالك الى مدينة غاصّة بالرجال قالت فيها رجال بلا نساء . قلت بل فيها نساء وانما هن قليلات بالنسبة الى كثرة الرجال . قالت ان القليل من النساء كثير . ثم انهما سافرا في غد ذلك اليوم واذ كانا سائرين في درب الحديد ذكر المنبه اسم القرية التي كانا يقصدانها فلم ينتبه الفارياق لاشتغال باله بتلك المساجلة . حتى اذا سارا طويلا وسأل احد السكوت عن رُحلته قال له قد فاتتك . فخرج ح وهو آسف على غفلته عن تذكير المنبه . وما بلغوا القرية الا بعد مشي مسافة طويلة وتعب كثير .

(تنبيه دروب الحديد في بلاد الانكليز مثل خطوط الكف يسير فيها المسافر الى اي موضع شاء طولا وعرضا شرقا وغربا)

الفصل الحادي عشر

في ترجمة ونصيحة

ثم لبثا في تلك القرية وشرعت الفارياقية في تعلم لسان القوم . فقال لها زوجها ذات يوم أني اريد ان انصح لك في امر مختص بتعلم هذه اللغة الجليلة . قالت هات ماعندك فهي لعمري اول نصيحة خرجت من فمك الى مسمعي . قال ومن قلبي ايضا . قالت قل . قال من شأن المبتدئين بعلم اللغات الاجنبية ان يتعلموا بادي بدء مايؤول الى جسم الانسان من العروق والعضلات والربلات الى اخره . قالت قد لحنت ماتعنيه فما هذه بنصيحة . قال فقلت سبحان الله خُلق الانسان من عجل . انما اريد ان اقول لك ان من شاء ان يتعلم هذه اللغة ينبغي له اولا ان يبتدئ باسماء من في السماوات لا بمن على الارض . فان القوم يتظاهرون بالتقوى والصلاح . حتى ان البغيّ منهم تجار وهي مستلقية بالدعاء مرة وبالرَفث اخرى . قالت وقد قلت أوَ هنا بغايا . قلت لا فان اهل القرى الصغيرة في هذه البلاد يتزوجون كسائر الناس ولا يمكنهم السفاح . ولكن المراد ان اقول انهم جميعا يبدون التورّع . فلا ينبغي الان والحالة هذه ان تسالي عن اسماء الربلات . وستعرفين ذلك كله بعد قليل . بل لاريب عندي في انك تعرفينه دون معرّف وتحفظينه دون محفّظ وذلك بطريق الافتجار او الالهام . فان لقَنَك وحدّة ذهنك وقوة قريحتك يسهّل عليك كل امر عسير . قالت لعمري لو كان مثل هذا الكلام نصيحة لكانت الحكمة ارخص مايكون . اناشدك الله كم بلغت من السنين . قلت ماهذا الاستفهام عقب هذا الكلام . قالت اي فصل هذا الذي نحن فيه . قلت فصل الخريف . قالت فالذنب اذاً على الفصل . قلت اتزعمينني قدخرفت . قالت والا فما هذا القول الذي زحرت به وتحسبه نصيحة . قلت فافعلي ما بدالك فلقد وعظت من لم يتعظ وزجرت من لم ينزجر . ثم لما مضت ايام جاءت ذات غداة تقول

للفارياق . ألاَ ما احسن هذه اللغة موقعا في السمع والخاطر وما اخفّها على اللسان. فلقد حفظت اليوم منها بيتي شعر من دون تكلف غير اني لم افهم معناهما. فهل لك ان توقفني عليه . قال اهلاً بك اليه ان شئت الان فابرقي حتى امطر . قالت اي لُقَمة انت ماعنيت الا المعنى قال فقلت وما المعنى الا ماعنيت فاني اعلم عين اليقين انك لم تضمري غيره ولكن انشديني ماحفظت فقالت

Up up up thou art wanted,
She is weary and tormented,
Do her justice she is hunted
By her husband, she has fainted.

أب اب اب ظاوَ آرْت وانتِد   شِي ازو يَري أنْدطُرمانتِد
دُهَرْ جِستِس شِي ازهَنتِد   بي هَر هَزْبَند شي هَز فانتِد

فقلت ان الشاعر هنا يشكو من شطط امرأة عليه . ولكن لست ادري اية امرأة هي فيقول مامعناه

تبغي لكاعي سَدّ سمّيهامعا   اذ يفتح الثاني لسدّ الاول
كالاذن ان حكّت تهيج اختها   وتظل هائجة اذا لم تفعل

فتمعّر وجهها غيظا وقالت ماهو الا تقوّل منك . فانكم معاشر الرجال ابدا لهجون بالسدّ . فقلت كما انكن معاشر النساء ابدا لهجات بالفتح . قالت ان القوم لايقولون هذا الكلام وليس في اشعارهم هُجر وفحش كما في اشعار العرب. قلت اليست اجسامنا واجسامهم سواء . قالت الكلام هنا على الكلام لاعلى الاجسام . قلت من اين ياتي الفحش الا من الاجسام . فحيثما وجد الجسم وجد منه الفعل . وحيثما وجد الفعل وجد عنه القول . هذا دين سويفت مع انه كان في درجة هي دون درجة الاسقف فقد الّف مقالة طويلة في الاست . وكذا استرن فانه كان قسيسا والّف في المجون. فاما جون كيلاند فانه الّف كتابا في اخبار فاجرة اسمها فني هِل جاء فيه من الفحش والمجون بما فاق به ابن حجاج وابن ابي عتيق وابن صريع الدلاء ومؤلف كتاب الف ليلة وليلة . فما ذكره عن فحش اهل لندن ان زمرة من اعيانها كانوا قد انشأوا ماخورًا جمعوا فيه عدة زواني . وكان بعضهم يفجر ببعضهن بمرأى من الباقي مناوبة.

واول من نهج طريقة المجون فيما اظن كان ربلي الفرنساوي المشهور وهو ايضا من اهل الكنيسة . قالت الم تقل لي آنفا انهم متلبسون بالورع والتقوى • قلت بلى ولم ازل اقول غير ان هذا التلبس قد جرى عندهم مجرى العادة . فان الملبَّس عليه يعلم ما انطوى عليه الملّبس . ليت شعري لو ان احدا لبس مثلاً عشرة اثواب ليوهم الناس ان ليس له قُبُل ولا دبر افيخفى علم ذلك عن الناظر • قلت لا فاذاً هم مدهونون بالدهان. قلت نعم هذا النوع ينمى في هذه الارض كثيرا . فتأوّهت وقالت ويلي على المداهنين. كيف اطيق عشرتهم وانا كسائر اهل البلاد المشرقية منبسطة النفس واللسان .لا اكتم ما في صدري عن عشيري . قلت اياك وذلك • وانما ينبغي لك التكتم والتحرز دائما . واياك ايضا والاهزاق فان ضحك القوم اِهمات وغَتّ واِهلاس واِهناف وازناء وانتداغ وارتاك وزقزقة وهرنفة وانتاغ وهنبصة . والاّ فكوني من التاغيات •قالت كيف تامرني ان اكون من الطاغيات . وانت لا تزال تشكو من النساء طرّا حتى من العادلات . قلت بل المراد ان تغالبي الضحك يقال تغت الجارية — فابتدرتني وقالت يكفى يكفى ما اريد ان تذكر لي الجارية ولا الجارة .قلت نعم واكلهم نأج وندلس وتوجّس وهمس ومدش وتبرّض وهرمزة ومطع وتذوّق وتطعّم وتغذّم . وشربهم غنثرة . ولماظ وترشف وتزحّن وتزنّح وترنّح وتقنح وترمق وتعقق وتمزز وتمزر وتمصص . ومتى تكلمتِ يجب ان تغضي طرفك وتخفضي صوتك وتبدي غاية ما يكون من التحزّن والتوقر والتحرز والتحذر . والتظّرف والتكيّس • والتلطف والتنطس • والتأدب والتخضع . والتعزف والتخشع • والتخفر والتقزز . والتعوّذ والتعزز . والتنزه والتقرش . والتمنع والتجهّش . والتنسك والتنقع . والتأوّه والتنطع . والتحوب والتذمم . والتحرج والتأثم • والتحنث والتحشم • والتدلس والتكيّم . والتخنث والتانق . والتودد والتملق • والتحسب والتحري • والتوقي والتحشي .والتوخي والتخشي . والتبرّي والتذكي . والتحذلق والتحصي . والتوقف والتحيي . والتصاف والتكلف • والتاسف والتلهف • والتحشف والتحنف . والتعفف والتانف . والتخيف والتخوف . والتنطّف والتنظف . فقالت ويك ويك ما هذا اَلملك اتيت بي الى هذه البلاد لتسبكني وتصوغ مني امرأة اخرى . قلت فديتك فاسمعي ولا يكن

كلامك في هذا الفصل من السنة الا إخفاسا اي قليلا . وفي الفصل القابل تزيدين عشرين في المئة . وان حدّثك رجل او امرأة وجب عليك ان تستحسني المحدّث وتحبّذيه عند ختام كل جملة . وتؤمّنين له وتهيمي أي تقولي له آمين آمين بسلا بسلا . وتنعّميه اي تقولي نعم نعم . وتجلّليه اي تقولي بجل بجل . وتوجّليه اي تقولي اجل اجل وتبسّليه اي تقولي بسل بسل . ولا ينبغي لك في يوم الاحد ان تطبخي شيا وانما تاكل مما فضل من يوم السبت باردا كما تفعل اليهود . لان الطعام السخن يسخن الدم ويهيج الحرارة . ولان سيدنا موسى رجم رجلا وُجد يجمع حطبا في السبت . ولا ينبغي لك الحركة في يوم الاحد ايّة حركة كانت الحنت ذلك . قالت لحنت . قلت ولا ترفعي فيه الستائر عن الشبابيك لئلا يراك الناس فيكون ذلك باعثا ايضا على الحركة . الحنت هذا ايضاً . قالت وقد لحنته وزكنته . وفهمته ولقنته . وعلمته وديته . وادركته ووعيته . ولكن ما سببه وهذا اليوم عندنا يوم الفرح والسرور . والتزاور والحبور . قلت انهم يموتون فيه لكون سيدنا عيسى أُنشر فيه من الموت . ثم ان عليك ان لا تفتري من ذكر يوم السبت اي الاحد . فان المسمّى قد يتغيّر بتغيير اسمه . وذلك بان تقولي مثلا ما كان اشرف السبت الماضي وما اجلّه . من لي بالسبت القابل حتى اخلو فيه مع ربّي . ياليت كل يوم فيه ساعة من ساعات السبت الّا ان يوم السبت ليوم عظيم . مهيب كريم . جليل وسيم . كيف كان الناس يعيشون ولا سبت لهم . كم من سبت في السنة . وكم في ساعات السبت من دقائق . وكم في دقائق السبت من ثواني . الّا ما ابهى شمس السبت وقمره . وغلسه وسحره وازهاره واطياره . وحره وازمهراره . واذا انكرت فعلة من فعلاتهم فاياك وان تذكريها لهم . واطرئي ما امكن على عاداتهم واطوارهم ومعالمهم ومشاعرهم ومآكلهم ومشاربهم ومآدبهم وملابسهم . وعلى طول اظفارهم واظفارهنّ وعلى عظم مرافدهن وعلى تفتيل سوالفهن . وعلى المنفش من شعرهن اعني على قُذُلهن . وعلى كشف ادبارهم للاصطلاء . وكلما رأيت شيا في بيوتهم من اثاث وغيره فاستحسنيه واعجبي به فقولي وانت مدهوشة . آه ما احسن هذا . آه ما اجمل ذاك . آه ما ابهى هؤلاء آه ما املح تلك الا ما اذكى مراحيضكم . واشذى بواليعكم واتقى مرافقكم . وآنق مثاعبكم . وانظف اعتابكم ووُصدكم . وابهج نفنفكم

وسَمَر بكم . فهذه هي الذريعة التي يتذرع بها الغرباء هنا لاستجلاب مودتهم وكسب رضاهم . واعرف كثيرين قد استعملوها ونجحوا بها ثم ينبغي لك اذا دعينا الى وليمة عند احد اكابرهم ان تاكلي هنا من قبل ان تذهبي . فان المدعوين لا ياكلون عند آدبهم حتى يشبعوا ولكن يشبعون حتى يأكلوا . وكما ان ادب الآدب عندنا ان يغصب ضيفه على الاكل ويحلفه برأسه ولحيته وشوار به ان ياكل فخذ دجاجة اوست كبيبات او يلقمه اياها في فمه . كذلك كان ادب الآدب عندهم ان يراعى حركات فم الآكل ويديه ليعلم هل هو سرطم او ذو لَقَف ونقف . وكلما تحرك فم او يد على المائدة — قال فابتدرتني وقالت وخصر . قلت وكفل بل اي عضو كان . وجب عليك ان تقولي لذي العضو المتحرك انت مشكور على ذلك . انت ممدوح . انت محمود . انت مفضل نت محسن . انت برّ . انت ذو منّة وما اشبه ذلك مما يؤذن بضعة المأدوب ولمده وحقارته اهوانه وذلّه وخساسته وهَطرته وكَفره (١) وتسكسكه . في مقابلة رفعة الآدب وعظمته وجلاله وابّهته وشرفه وكرمه و بذخه وعزته . والحذر الحذر من ان تمدي يدك ولى زجاجة الخمر او الى جفنة الطعام فتأخذي منهما ما شئت . فان ذلك يكون انتهاكا الحرمة المائدة والمجلس والقرية بل والمملكة باسرها . وانما ينبغي ان تنتظري من كرم الآدب ان يوعز اليك في ذلك . واذا قُدّم لك بُضيعة من ارنب قد خنق مذ شهر وعلّق في الهواء حتى انتن فاثني على الارض التي نشا فيها جنس هذا الحيوان النفيس وعلى خانقه وطابخه . واذا رأيت شيخا ذا وقار وهيبة يخدم عجوزة فلا تنكري ذلك كما انكره بعض الشعراء المفرّكين بقوله

وُربَّ عجوز تحاكي السّعالي ... تشير وتنهي وتأمر أمرا
يقابلها شيخها بآمتثال ... ويسمى لخدمتها مستمرّا
وتقعد تحكي كلاما سخيفا ... ومستمعوها يقولون سحرا
تقول بداري كلب وهرّ ... وللهرّ زعر اذا الكلب هرّا
ويرقبني المرء ان كنت آكل ... يمنى ليمني ويسرى ليسري
ويبقى لبزّا تؤاسيه مما ... لديها فمنها يلازم حجرا

(١) الهَطرة تذلل الفقير للغني والكفر تعظيم الفارسي ملكه ؛

وقد كان عندي من قبلُ جروٌ   تلوّن بطنا وصدرا وظهرا
وكنت عليه لفي غاية الحر   ص اسقيه ملء كؤوسي درا
فجاءت عزيزة قوم الينا   فرامته مني والعين شكرى
وكان ينام على فخذيّ   ويلحس رفغي اذا ما اسبطرا
وكان فلان اتاني عام كذا   بجَرْيٍ فما عاش شهرا
وتسأل ان تنسَ تاريخ   ذاك النهار المعظم زيدا وعمرا

الى ان قال .

فاما النساء فما اختصصن   به اكل ما اشبه التين نحرا
ويا كان والراح منهن بالجلد   مستترات ويمضغن سرّا
وتسمع للشاي قرقرة من   معاهن تحكي هنا قرّ قرّا
وتأخذ في صحنها بالمشكّة   قدرا من اللحم يشبه ظفرا
فتملكه برهة من زمان   ليمرأ من بعد ان يتهرّا
وزوج المضيف تقول له خذ   عزيزي مما امامك وزرا
فيشكرها ويقول لقد   كثر الفضل منك عليّ ودرّا
وتجلس تقسم أكل الضيوف   فتعطيك من ذاك نزرا فنزرا
وفي كل نزر تنال تطاطي   رأسك رغما وتشكر شكرا
وان يك لونان قالت لك اختر   نصيبك مما هنّا ونحرّا
كأن لم يجز بين ذينك جمع   كأنك ناكح اختين تترى

فقالت هذا تكليف فوق الطاقة فما انا بالذائقة عندهم شيئا ولو كان المنّ والسلوى. قلت ومع ذلك فهم ذوو محامد شهيرة . وفضائل كثيرة . ليست في غيرهم من الافرنج منها انجاز الوعد وصدق الوفاء في الحضرة والغيبة . وتوفية اجر من يعمل لهم ومراعاة حرمته اي اكرامه لا انهم يعفّون عن زوجته . قالت لا تتكلف التفسير فما ذلك بشذوذ عن القاعدة . قلت ومنها انهم قليلو الكلام كثيرو الفعل . حسنو المعاطاة للامور بالترتيب والسياسة والرشد والكياسة . ومن يأت الى بلادهم فلا يسأل عن جواز ولا اجازة . ولا يهمه ان كان جاره قاضي القضاة او وزير الوزراء او شرطيا اوجلوازا . ولا يخاف ان يسكن دارا

او يدخل مثابة فيها بعض الشرطة فيرعقوه بكلام ونحوه مما يكون سببا في سجنه اوغرامته فكل الناس فى الحقوق البشرية عندهم متساوون . هذا وانهم يحبون الغريب ما خلا او باشهم . ويشفقون على الفقير ويغيثون المحتاج . ويكرمون ذوى السيادة والمجد ويعرفون قدر ذوى العلم . ويعينون على ادرك العلوم والمعارف في البلاد الاجنبية . وعندهم جمعيات منعقدة لاجرآ كل نفع وخير · وازالة كل شر وضير. وكثير من الاطباء هنا يداوون المرضى مجاناً ماعدا المستشفيات المبثوثة في كل قطر وصقع من بلادهم . ومن ينزل نزلا لديهم او يستأجر غرفة في منازلهم فان صاحبة المنزل تؤانسه وترفق به وتحفه وترفه وتمرّضه · وتدعوه الى مسامرتها ومجالستها من غير ان يستاء زوجها لذلك . واذا اتفق وقتئذ ان زارها بعض معارفها تعرّفهم به وتنوّه باسمه . وانه اذا قدم الى بلادهم احد بكتاب توصية احتفل به الموصَى ودعاه الى منزله وجعل اسمه نبيها عند اخوانه ومعارفه . ولا يدع شيئاً في وسعه لا ويبذله لراحته ورفاهيته ويخلص له الود والنصح حاضرا وغائبا . فرُقعة وَصاة بيد صاحبها تغنيه عندهم بأب وام واهل واخوان. وفي الجملة فان كفّة محامدهم ترجح كفّة مذامهم · وليس الكامل الا الله وحده سبحانه وتعالى . وليس شيء من هذه المزايا الحميدة موجودا في غيرهم من الافرنج لان غيرهم متحاحون ملثيون مراوغون · ذوو ايادي مغلولة والسنة مطلقة . فهم ليسوا كاصحابنا في الرشد والاستقامة ولا مثلنا في الانس والكرم · قالت قد فهمت هذا كله فينبغي ان نعود الى تفسير البيتين بشرط ان لا تأتي بشيء من عندك فاني اعرف تزيّدك في الكلام · قلت كانك تقولين اني ذو فضول غير فعول كما ذكرت ذلك غير مرة · قالت اذا كنت قد الفته فما يضرك الان والاّ فعدّها فلتة . قلت دونك تفسيرهما من دون تزيد

قم عجلا قم سؤلي عندك وابلغ اربا منها جهدك
فلقد ضجرت ولها بعل يبغي ان يغسلها بعدك

فقالت انت قلت ان الشاعر يشكو من امرأة وها هو يشكو من نفسه . وليس المرأة بملومة على ضجرها في مثل هذه الحال. قلت لمثلك تلقى مقاليد الشرح . قالت ومنه يرجى تخفيف البرح .

الفصل الثاني عشر

في خواطر فلسفية

ثم لما مضت مدة على الفارياقية في بلاد الفلاحين حيث لا انس للغريب ولا حظ غير خضرة الارض عيل صبرها وضاق صدرها وعرتها السآمة والقلق. فقالت لزوجها ذات يوم. يا للعجب من هذه الدنيا ومن احوالها . واعجب ما فيها هذا الحيوان الناطق الماشي على ظهرها كيف تمر عليه الليالي والايام والاماني تغره. والامال تشغله وتعلله . وكلما جرى وراءها ليدركها تقدمته وبعدت عنه كظله . وكل يوم يحسب انه في يومه اعقل منه في امسه . وان غده يكون خيرا من يومه . قد كنت احسب ونحن في الجزيرة ان الانكليز احسن الناس حالا . وانعم بالا . فلما قدمنا بلادهم وعاشرناهم اذا فلاحوهم اشقى خلق الله . انظر الى اهل هذه القرى التي حولنا وامعن النظر فيهم تجدهم لا فرق بينهم وبين الهمج . يذهب الفلاح منهم في الغداة الى الكد والتعب ثم يأتي بيته مساء فلا يرى احدا من خلق الله ولا يراه احد . فيرقد في العشاء ثم يبكر لما كان فيه وهلم جرا . فهو كالآلة التي تدور مدارا محتنافلا في دورانها لها حظ وفوز ولا في وقفها راحة. فاذا جاء يوم الاحد وهو يوم الفرح واللهو في جميع الاقطار لم يكن له حظ سوى الذهاب الى الكنيسة . فيمكث فيها ساعتين كالصنم يتثاءب ساعة ويرقد اخرى ثم يعود الى بيته . فليس عندهم مثابة ولا موضع للسمر والطرب . وليست ايضا عيشة المتمولين في الريف بانعم من عيشة الفلاحين اذ لا يعرفون من المطاعم غير الشواء وهذا القلقاس. ولكن هيهات اين المتمولون في القرى . فانك لا ترى فيها متريا الا القسيس وخولي الارض وهو الذي يضمن المزارع والحقول من مالكها . وهما ايضا بمثابة الفلاحين.

ومع ذلك فاذا دخلت قصور الملوك وطفت في اسواق المدن وعاينت مافيها من الصنائع البديعة والتحف العجيبة والآلات الظريفة والفرش النفيس والثياب الفاخرة والاواني المحكمة ولا سيما مدينة لندن . علمت ان صناعها هم القائمون بالدنيا وهم منها محرومون فان داب الصانع كداب الفلاح من جهة انه يشقى ويكد النهار كله ولا حظ له في الليل سوى اغماض عينيه . فكيف يزين هذا الصنف من الناس هذه الدنيا ويبهجونها ويعمرونها وهم عطل عنها ومحدودون منها . والمترفون فيها لا يحسنون عمل شيء وربما لم يكونوا ايضا يحسنون الكلام . واذا كان الناس عباد الله في ارضه على اختلاف احوالهم ومراتبهم هم كالجسم الواحد باختلاف مافيه من الاعضاء الجليلة والحقيرة فلم لا يجري العدل بينهم كما يجري بين الاعضاء . فان الانسان اذا اكل شيئاً او لبس شيئا فانما يفعل ذلك لاصلاح الجسم كله . ام يزعم المثرون اذا وسعوا على هؤلاء الصعاليك . ونفسوا عنهم الكرب الذي يكابدونه من جهد المعيشة ومن عدم قدرتهم على تربية اولادهم انهم يحملونهم على اهمال شغلهم وعلى تركهم الارض بورا فتتعطل وتمحل فيالكون جوعا . فما بال ذي الدولة اذاً يولي المبالغ الجسيمة والجوائز الجزيلة لمن يقلده عملا ويرقيه مرتبة ولا يخاف ان يفسد عليه بكثرة ما يعطيه . لا بل ان الفقير اذا كفاه والِيُه او سيده المؤنة وهو شيء بالنسبة اليه هيّن فانه يؤدي ما ما يجب عليه من الخدمة والعمل عن طيب نفس . ويدعو له بزيادة الخيرات والبركات بدل ما انه يبيت الليالي شابحا يديه بالدعاء عليه لتيقنه ان حقه ضائع عنده وان هزاله وضواه ذاهب في تسمين غيره . وفي حمله على البطر والعتو واقتناء ما لا تلزم قنيته من الخيول المطهمة والمراكب النفيسة والاثاث المنضد . فياكل الغني لقمته والحالة هذه مغموسة بدعاء الفقير عليه . ام يحسبون ان الله تعالى انما خلق الفقراء لخدمتهم فقط . لعمري ان حاجة الغني الى الفقير اشد من حاجة الفقير الى الغني . ام يانفون من النظر من مقامهم الرفيع السامي الى ذوي الضعة والخمول خشية ان يسري اليهم من بؤسهم ما يسوءهم . كمن ارتقى شرفا باذخا وتحته هوّة عظيمة فهو يابى من ان يتطأطأ وينظر اليها لئلا يلحقه من ذلك دوار او غشيان فيهبط من شرفه . ليت شعري هل جرّب الاغنياء حينا من الدهر ان يسعدوا الشقي بمالهم وينعشوه برفدهم . ثم وجدوه مقابلا نعمتهم عليه بالكفران والبطالة

وباهمال مافرض عليه من قِبَل الله والطبيعة. وانما هو محض وَهْم دخل في رؤسهم مع الرحيق فخرج هذا ولم يخرج ذاك . الا فليمكّنوه من ان يذوق لذة العيش ويرى الدنيا كما هي عليه شهرا واحدا في عمره في الاقل او يوما في العام حتى يموت راضيا قرير العين • واذا كانوا يخشون منه الفساد لكسله وتعطّله فخوفهم من فساد نيته لفقره ومن كراهته ايامه اَولى . لان الشقاوة ادعى الى الفساد من السعادة • الا ترى الى هؤلاء الالوف من البنات اللاي يجرين في اسواق لندن وجميع المدن العامرة باخلاق من الثياب . كيف يتهافتن على الرائح والغادي رجاء ان ينلن ما يتقوّتن به ويتجملن به من الثياب • ولا سيما هؤلاء النواشي اللاي لم يبلغن بعدُ من العمر خمس عشرة سنة • فهذا لعمري الاهتجان بعينه . فكيف يعيبون علينا هذه العادة في بلادنا وهي مستعملة عندنا على وجه الحلال وعندهم بالحرام . فلو كنّ مكفيات المؤنة لما فعلن ذلك . لان البنت في هذا الحدّ من السنّ لاتكرع الى الرجال • ولا تضبع للبعال • ولا سيما في البلاد الباردة . وَلَمْ يَسْلم من كيدهن وتهافتهن جشما الى المال اناس كثيرون جلب عليهم شرههم اليهن مضارّ كثيرة . وما عدا ذلك فان هؤلاء البنات الحسان لو كانت الدولة واهل الكنيسة يُعنون بتجهيزهن بما يقدرن على الزواج الشرعي بعد تربيتهن وتهذيبهن • لكنّ يلدن الاولاد الصباح فيزين المملكة باثمار ارحامهن كما تقول التوراة . بخلاف ما اذا بقين على حالة السفاح فما يتولد منهن الا الخبائث والرذائل • فهن كالشجرة الناضرة التي فضلا عن كونها لا تثمر تَلْشَى بالسمّ الناقع لمن تذوّقها . وكم لعمري من بنت حبلت اوّل مرّة من مبادئ شوطها في ميدان العهر . ثم اسقطت جنينها خوف الفقر . وان منهن لمن تلد في طرق المدينة في ليالي الشتاء الباردة لعدم مأوى لها . او انها تبيت مع بنت اخرى على فراش واحد وهي عادة مستفيضه في لندن • وذلك لعدم قدرتها على ان تستقلّ بفراش وكِنّ خاصّ بها . فلا تأمن والحالة هذه من ان يلحقها اذى من ضجيعتها ليلاً . نعم ان أولاد الزنا ياتون في الغالب شياطنة جبابرة كيفتاح الجلعادي الذي حلّ عليه روح الرب فانقذ اسرائيل من بني عمون . وكوليم الفاتح الذي فتح هذه البلاد اي بلاد الانجليز . الا ان النفع الاكثري مع الاقتصاد والاعتدال . احق بالمراعاة والتقديم من النفع الاندري مع الاسراف

والارغال (١) أليس يعاب صاحب ارض اريضة يغادرها بوراً ومتمرغا للوحوش . او صاحب اشجار مثمرة يتركها دون سياج ولا ناطور عرضة لنهم كل متفكه . نعم لا ينكر ان وجود الغني والفقير في الدنيا لا بدّ منه كوجود الجميل والقبيح . ولولا ذلك لوقف الكون عن الحركة وتعطلت المصالح كما افاده المتكلمون . الا ان الكلام هنا في الفقر الذي لا يقال فيه انه عيش مؤدّ الى الشره والبطر . لا في الفقر المدقع الذي يلقي الهموم والاحزان الدائمة في قلب صاحبه . فيفضي به مرة الى الانتحار ومرة الى الاغراق او الخنق كما شاع فعل ذلك في هذه البلاد . أليس من العار على الرجال في هذه الارض ارض العلوم والصنائع والتمدن والتحضر انهم لا يتزوجون المرأة الا اذا كان عندها الجهازان . واقبح من ذلك ان الكبراء هنا لا يتزوجون عن حبٍّ بل عن طمع في زيادة المال . فان من كان دخله مثلا مائة دينار في كل يوم يريد ان يتزوج من دخلها مائة دينار ايضا تماما . ولو كان تسعة وتسعين لم يصح . ولذلك فكثيرا ما ترى شابا جميلا قد تزوج نصَفًا شوهاء . وهيهات فان الرجل هنا اكثرهم مصاييف . اي لا يتزوجون الا اذا دخلوا في حيّز الكهول ، فيقضون شبابهم في السفاح ومن حدّ الثلثين الى الاربعين في البحث عمن عندها جِدَة وغنى . وتبقى الجميلة الفقير كاسدة وما عليهم من الاضافة من عار . مع ان مراعاة الولد في حق الزوجة من اعظم الاسباب الباعثة على الزواج على ما ذهب اليه الربانيون . وان يكن توزيع الولد يتمّ بمرة واحدة في مدة تسعة اشهر . اعني ان اولاد النَصَف الشوهاء لا ياتون صباحا اصحاء كاولاد الفتيّة الجميلة . وفضلا عن ذلك فان من تزوج وهو في سن ثلثين سنة مثلا امرأة في سن ثماني عشرة فمتى بلغ الخمسين وكانت امرأته تعدُّ لَغُوتا متلعجة كان له من ولده رقيب عليها . فلاي شي زيادة المال لمن اغناه الله بفضله . ومن يكن له في كل يوم مائة دينار فما الفرق بينه وبين من له خمسون او عشرون . فان من لم يكتفِ بهذا القدر لم يكفه ملء الارض ذهبا . هذا وان المرأة اذا كانت غنية فلا بدّ وان يتبع غناها عناء . لانها تتعمّد حِ الولائم والمآدب والمحافل وان تزور وان تزار . وان تتخذ لها من الخدّام من تقرّ عينها بنزارته وبضاضته . . وكلما اختلج منها عضو تمارضت

---

(١) الارغال وضع الشي في غير موضعه وهي لعمري جديرة بالاشتهار والاستعمال

وتوحمت على السفر او الارافة . وهناك حالة كون زوجها فاتر الدماغ بالامور السياسية او البواعث المالية في مقره تخلو بمن تخلو وتلهو بمن تلهو . وبيد خادمها من الدينار ما يعمي عينه ويصم اذنه ويقطع لسانه . اليس هؤلاء الاغنياء يُمنون بالامراض والادواء كالفقراء . اليس الموت يفاجئهم وهم في غمرة لذاتهم منهمكون . وان كثيرا منهم لسرفهم ورغبهم ونهمهم وفسادهم واستهتارهم في الشهوات يموت عن غير ولد . او انه اذا رزق ولداً يعيش ما عاش ضاويا نحيفا شقوة له وكمدا على ابويه . وقد قال احد مؤلفيهم ان من ترى من اولاد الاعيان والامراء هنا تارّا قويا فانما هو من القاح بعض الحشم . وترى اولاد الفلاحين صباحا اقوياء يلهمون الرطب واليابس . ولعمري لو لم يكن لهم هذا الجزاء من الله تعالى اي رؤية اولادهم حولهم معافين محبّبين لكانوا في عداد الموتى . كيف بُني هذا العالم على الفساد . كيف يشقى فيه الف رجل بل الفان ليسعد رجل واحد . واي رجل . فقد يكون له قلب ولا رحمة . ويدان ولا عمل . ورأس ولا رشد ولا نهية . وكيف يقع هذا في هذه البلاد التي ضربت بعدلها الامثال . لاجرم ان فلاحي بلادنا اسعد من هؤلاء الناس بل التجار هنا اشقياء على غناهم وثروتهم . فان احدهم يقضي النهار كله وهزيعاً من الليل واقفا على قدميه . وقد سألت واحدا مرة فقلت له لمَ لا تقعد على كرسي وعندك كراسي كثيرة . فقال لي انها للذين يشرفوننا بالزيارة ليشتروا من عندنا . فاذا قعدت مثلهم صرت منهم . فاما في يوم الاحد فيلبثون خدري الابدان والافكار . مدرى البصائر والابصار . فاين هذا من التاجر عندنا يعقف احدى رجليه على الاخرى بعض ساعات على اريكته . ثم اذا حان العصر كبّب جبته وراءه وذهب الى بعض المنازه وهو يمشي الخُيَلاء . فان كان التمدّن والعلم قد سبّب هذا فالجهل اذاً سعادة . غير ان الفلاحين هنا في غاية الجهل زيادة على بؤسهم . ومن اين ياتيهم العلم وهم ملازمون للكدّ والترقح وليس عندهم مدارس . قد كنت اظن انهم جميعا يحسنون القراءة والكتابة فاذا هم لا يحسنون النطق بلغتهم . فاني اقرأ في الكتاب شيا واسمعه منهم مخالفا لحقيقة استعماله . وناهيك ان اكثرهم لا يعرف اسم بلادنا ولا جنسنا . وقد قيل لاحدهم مرّة ان الملك امر بتسفير خيل في سفن الحرب العدو . فقال اني اعجب كيف يقاتل الناس في البحر على الخيل . وكأني بهم لجهلهم

يحسبون ان سكان الارض باسرها دونهم . او يظنون ان الرجال في غير البلاد يبيمون نساهم او يا كلونهن اكلا . او انهم يتقوتون بالجذور والبقول . ولو انهم عرفوا احوال الامم وخصائص البلدان لعلموا انه لو كان لهم من لذات العيش اضعاف ما لنا مع شدة بردهم ومنكر هوائهم ودكنة جوهم لما وفي ذلك لهم . وان غناء الصنعة عندهم لا يقوم مقام غناء الطبيعة عندنا من طيب الهواء والماء وصفاء الجو وزكاء الارض وعذوها ومرائنها ولذة المطعوم والمشروب والتنزه في الرياض والحدائق . والاكل عند المياه الجارية تحت الاشجار الناضرة والتردد على الحمامات والسهر في السمر واستماع الات الطرب . يعرف ذلك منهم من زار بلادنا والف حظنا ونعيمنا . غير ان اللبيب من استخرج من كل ضرّ نفعا . واعتبر بكل ما جرى عليه فاستفاد وارعوى . قد تعلمت الان مما لقيت من الوحشة والتقشف في بلادهم كيف اعيش في بلادنا ان رجعت اليها سالمة . وكيف ان الطخطخة والقرقرة والهزر والكركرة والتجلق والهرهرة والاغراب والكدكدة والاهى والهزرقة والانزاق والزغربة وطيخ طيخ وعيط عيط وتغ تغ وهاه هاه لا فرج للهمّ عن القلب من اواني موضونة ومباني مرصونة . فخير البلاد ما الفت هواها والفيت فيها مخلصا لك ودّه . وكيف يكون خلوص الود من دون كشف السرائر . وكيف تنكشف السرائر وتعلن الضمائر من دون اطلاق اللسان في ميدان الكلام . والقوم هنا يتكتمون ويرون ان في ذكر الانسان ما يحس به وما يحبه وما يكرهه طيشا وهوجا . انما مثلي كمثل الثعلب الذي كان يسمع لطبل تضرب به اغصان شجرة صوتا عظيما . فلما اتاه وعالجه حتى شقه وجده فارغا . لا جرم لاعدت املك خاطري سمعي . او كراكب البحر وهو ظمآن يرى الماء حوله ولا يمكنه ان يروي غليله منه . اني ارى وجه الارض هنا اخضر ولكن لا شيء من هذه الخضرة يبيّض الوجه عند الاكل . اذ ما به من الطعم شيء . لان كل ما ينبت عندهم فانما تغصب الارض تنبيته غصبا من افراط التدميل . فلو كان احدهنا من اللاقطة لسألناه عن طعم بقولهم ما هو . هذا ما عدا خلطهم المأكول والمشروب وغشهم وافسادهم ما من الله تعالى به عليهم سائغا طيبا . وناهيك ان الخبز الذي هو قوام هذا البدن لا طعم له . فانهم يخمرونه برغوة نبات ويخلطونه بهذه البطاطه ثم يخنقونه بعد الاختمار خنقا . فماذا يفيد

القائل قوله اني كنت في بلاد الافرنج وهو لم يجد فيها الا الوحشة والنكد . بل ذكر ذلك له فيما بعد غصة . الى مصر الى الشام . الى تونس ذا العام . فهناك تلقى من يزورك او تزوره . وهناك تلقى البشر دون تصاف والفضل دون توقف وتكلف . الى آخر ما ذكرت لي من التأنف والتأفف . لا يطيب العيش للانسان الا اذا كان يتكلم بلغته . ليس العيش بطول الليالي ولا بكثرة الايام ولا برؤية ارض خضراء ولا بمشاهدة ادوات وآلات . وانما هو باغتنام انس الاحباب . وعشرة ذوي الآداب الذين تصفوا منهم السرائر في الحضرة والغياب . وتخاص لك مودتهم في الابتعاد والاقتراب . انما الدنيا مفاكهة . قال فقلت ومناكهة . قالت ومنادمة . قلت ومشاممه . قالت وملاممه . قلت ومطاعمه . قالت وملاينة . قلت وملاسنة . قالت ومطايبة . قلت ومراضبه . قالت ومخادنه . قلت ومحاضنة . قالت ومرآمه . قلت ومفاغمة . قالت وملاطفة . قلت وملاغفة . قالت ومخالقه . قلت ومعانقه . قالت ومحاضره . قلت ومحاصره . قالت ومباغمه . قلت ومكاعمه . قالت ومعاشرة . قلت ومشاعره . قالت ومؤانسة . قلت وملامسه . قالت ومساجله . قلت ومباعله . قالت ومخالطة . قلت ومخارطة . قالت ومطارحه . قلت ومشارحه . قالت ومجارزه . قلت ومراهزه . قالت ومداعبه . قلت ومزاعبه . وهنا كان ختام الملاعبه .



الفصل الثالث عشر

في مقامة ممشية



حدث الحارس بن هشام قال . كنت سمعت كثيرا عن النساء حتى كدت أمنى بالنساء . فمن قائل ان المحصن اطيب عيشا من العزب . واسلم عاقبة من المزاحمة على

منهل دونه يذب . او المكابدة لتوب واللهب . او التعرض للتجبيه والعطب . وانه كما صدي قلبه من الكرب . جلاه بابتسامة من زوجه عن شنب وارتشافة من رضاب كالضرب . وسماع نابة تغني عن آلات الطرب ومدام ذات حبب . فان مما خص الله تعالى به المرأة من المزايا . وفضلها به من السجايا ان صوتها الرخيم لا يرد عليه نكد . ولا يبدو معه هم وكمد . فاول ما تحرك شفتيها . تسكن القلوب اليها . وعند مغازلة عينيها . تنهال المسرات على من هو بين يديها . فيحنبش ويمحش . ويحفش وينتعش . ويدركل ويدرقل . ويسجل ويدوقل . ويحشل ويدربل (١) وحين تمشي في بيتها متبدحة . تقول لها الاقدار فديناك من مغناج مرحه . ان شئت رفعنا زوجك الى قرن الغزالة . لينعم بالك باحسن حاله . وان شئت بقاءه عندك الليلة . لم تعيينا في ذاك حويله . وان شئت ان نزين له السفر . عاما او اكثر الى طرح ذي امن او خطر . فانت لدينا اكرم من نهي وامر . فما عليك الا نضنضة لسان . او اشارة بنان . وحسبنا بطرفة عين من بيان . قال وان الزوج متعه الله باحصانه . وهناه بنضرة بستانه . وجنى تفاحه ورمانه . وزاده من آلائه واحسانه . يعبث بحضرة زوجه باللذات كما شاء . ان توخى مسا مس وان اشتهى نشوة نشا . وان شاء داعب ولاعب . وان ابى الا الجد فالجد طوع له كما احب . وان له منها منزها (ولكن غير بعيد عن الماء) تغيب فيه الاتراح . وتطلع منه الافراح . وبشائر النجاح . وسرا تزف به الدنيا اليه بمعرض بشر . ويهدى كبشر . ان التوى عليه امر قومته بمهارتها . وسددته باشارتها . وانها اذا تدعبت عليه وتقيأت . وتبعلت له وفيأت . زاده الله نضرة ونعيما . وزادك صبرا وجوما . خيل له انه ملك الدنيا بحذافيرها . وفاز بجميع لذاتها وحبورها . وانه قد قام مقام العاهل الاعظم . خليفة باري الامم . فلو رأى وقتئذ قاضي القضاة مارا على بغلته . حسبه من اتباعه وخدمته . ولو رأى كافها او وافها . لانف من ان يكلمهما مشافها . فبعث مكانه الى جناب الاول وصيفا والى

---

(١) حنبش رقص ووثب وصفق ونزا ومشى ولعب وحدث وضحك . والمحش شدة النكاح وشدة الاكل والتحفيش لزوم البيت الصغير . ودرقل رقص وتفحج وتبختر ونحوه دركل ومحشل رقص رقص الزنج

حضرة الثاني وصيفة . وقال لها ان لديّ لكل فاتح قاهر ولاية شريفة. ولكل سائل شاكر وظيفة . ولو ان امرءاً اغاظ له وحاشاه في الكلام . وسفه فبادره بالتقريع والملام . او رأى والعياذ بالله ان يمس له قذالا . ويسومه عليه قفدا واذلالا . فزع الى زوجته اعزها الله فنفت عنه كل كرب . وامّنته من كل رعب . وردّت عليه حجره من حجرها . وصدارته من صدرها . وقالت له لا تخش من كيده وغِلّه . فانما يدفع كل استحصاف بمثله . فرجع الى ما كان عليه من الانفة والفخار . والعزّ والذرار . حتى لو رأى قَبلا او ردفا . لهاء بنفسه عن ان ينظر اليهما نظر الاكفاء . فهو الرائع المفنّق . المترف المتملّق . الآكل وتلقاء من درر الثنايا ومرجان الفم . ما يخيل اليه من الكامخ خير مطعم . والمسيخ اهنأ مغنم . وان الاجاج والزعاق . اشهى من مدام الاغتباق . الا ولو انه بات معها على فرش حشوه شظايا . وماسّ منها زغابة لكان له من اوطأ الحشايا . فكل ضرّ معها يستحيل الى فَنَع ونفع . وكل شظف بقربها فهو قصوف ورَتع : ومن قائل لا بل عيش العزب اهنا . وللذات اجنى . فان السيدات يحسبنه في كل وقت ذا جوم . وعندهن ان نبّة واحدة منه تنفي جميع الهموم . اذ ليس له من تلزه كل ليلة للعظال . وتؤرّقه هزيعا من الليل على مثل ذي الخال . ليتذكر دائما انه محصن ذات قُرطق وخلخال . فهو على هذا محبّب عند البنات محروص عليه من السيدات المتزوجات . مشار اليه بالبنان من الارامل الهائجات . وانه اذا رجع الى منزله رجع ويده خفيفة . وردانه نظيفة . فلا من تقول له هات . او تلومه على ما فات . ولا من تستوحيه عن المستقبل وتستفتيه في مصالح المَهبل . ولا من تزجره عند قَيْق غيرها له وحلجه اليها بحَف حَف . او تنجفه قبل مفارقته اياها ايّ نجف . او تقول له نزاف نزاف . والاّ فالازهاف (١) . ولا من يبكي بين يديه . وهو عاجز عن كفالته كما يحق عليه . فتراه ابد الدهر مبتاحا مفراحا . متعرضا

(١) القَيق صوت الدجاجة اذا دعت للسفاد وحلج الديك نشر جناحيه ومشى الى انثاه للسفاد وحف حف زجر للديك والدجاج والنجف منع التيس حتى لا يقدر على السفاد وذلك بان يشد جلد بين بطنه وقضيبه وذلك الجلد يسمى النجاف ونزف ماء البئر نزحه كله وازهف الفى شرًا — وعليه اجهز وبالشر اغرى — والخبر زاد فيه وكذب ونمّ .

للنساء متياحا . شرّاحا سدّاحا . رفيقا بالمُجحّ منهن مساحا . وقد قيل في الامثال السائرة سير العجاج . في كل فجاج . من لم يكن ذا زوجة كان ذا ازواج . قيل فمن ثم كانت خطوات العزب اوسع . وحركته اسرع . وكلامه انجع . واناؤه اترع . ونغمته ارخم . ونهمته اضرم . ونهزته اقوى . ومَزته اروى . وسنانه اذلق . وسهمه اخسق . ونشره اعبق . وحبه اعلق . وطعمته اطيب واوفر . ومادته اسكب واغزر . وقد نسوا ان تبعق حوضه في غير سقي واحد هو عين السبب في تنكبز نزه ونزته . وتفتير شرزه ولزته الى غير ذلك مما لا يليق ان تقابل به مومسة ولا حَصان . ولا يوصف به دالف ولا تَيقّان . قال الهارس فلما تراجح المذهبان . وتكافح المطلبان . قلت في نفسي من لنا اليوم بالفارياق . فيفتينا في هذا الامر الربّاق . فانه اعلق بالنساء من الربية . واعرف باحوالهن من ذي شيبة وشبيبة . فلقد ذاق منهن الحلو والمرّ ولقي من حبهن النفع والضر . فلو كان حاضرا لدينا لجلاّ عنا ما التبس علينا . فسرت الى بعض اصحابي . لاطلعه على ما بي . فما كدت اقرع الباب . حتى هوى اليّ وبيده كتاب . ثم قال بشرى بشرى . فهذا كتاب من الفارياق بلغني امس ولم يحوِ الا شعرا فتلقفته من يده فاذا فيه . اما بعد فان

القرطبان هو الذي يقرو البلاد بعرسه
وبها الحسان الغيد يستنشين نفحة فلسه
من كل ذات تدهكرٍ شحاذ نابي ضرسه
شدّاد رخو فقاره نعّاشه من تعسه
وبها الفحول الهائجو ن الى تسدّي عَنسه
والى اشتفاف جميع ما في قعبه او عُسّه
ولربما نبزوه بالاد ساف اقبح رجسه
حتى يعود وما له آسٍ لمعضل ألسه
ان للبيب من استشا ر منجدا في لَبسه
لاسيّما شأن الزوا ج وحمل فادح وقسه
من شاقه تموهه ومذاق لذة رغسه

فليمان في قَسّة كي يستبد بجلسه
حيث السفاح مقصّص من يشرئب لحسه
ان الغريب اضر من متهتك في جنسه
أولا ففي حال العزو بة وهو مالك رأسه
صون لدرهمه وحر مته وراحة نفسه
بل من تزوج يومه خير له من امسه
اذ كان في حال التعزّ ب موحشا من انسه
لكن بشرط نفوره عن ريبة في حدسه
فالبضع ثم البضع لا تتشاغلن عن قَسّه
ما ان يضر ختام ما قد طاب نافع رَسّه
لكنما يجب التحرّ زامن بواعث نحسه

قال الهارس فلما تصفحت الابيات • وزكنت ما فيها من الاشارات . قلت لله دره ما افصله لامور النساء ناظما وناثرا . وما احوجنا الى استفتائه فيهن غائبا وحاضرا. لكنه لم ينبس عن حاله الا فيما هو من مشكل الزواج • فكأنه رأى كل امر دونه فانما صوانه الاعفاج . ثم انصرفت مثنيا عليه . . وقد زاد تشوقي اليه .

(حاشية صفا الهارس مع القاريء فلذلك لم يعب عليه بعض ابياته فانها مضطربة العبارة . وليس من شأني التدليس على القاري فقد صار بيننا صحبة طويلة من اول هذا الكتاب • فليتنبه لذلك)



الفصل الرابع عشر

في رثاء ولد

قد غُرس في طبع كل والد ان يحب ولده كلهم على كثرتهم و برقحتهم وعيوبهم وان يراهم احسن الناس . وان يحسد كل من يفوقه في المحامد والمكارم الا اباه وابنه. ومتى شاخ الرجل وضعف عن التمتع بلذات الدنيا فحسبه ان يرى ابنه متمتعا بها. ولا لذة للمتزوج اعظم من ان يبيت مع امرأته على فراش واحد و بينهما ولد صغير لا يورّقه بكائه وصراخه ولا يآله بلبله . كما انه لا شي اوجع لقلبه من ان يراه مريضا غير قادر على الشكوى بلسانه ليعلم ما ينبغي ان يداوي به . بل الاطباء انفسهم يحارون في مداواة الاطفال وقلما يصيبون الغرض . وكان الاولى ان يعيّن لعلاجهم اطباء اختصوا بمزاولة ذلك عهدا طويلا . وان ينوّه بمن نبغ منهم فيه في كل كلام مستطر ومطبوع . ويجب على الوالد اول ما يرى ولده قد مرض ان يتعهده و يراعي احواله وما يطرأ عليه و يقيد ذلك في كتاب ليخبر الطبيب به اخبارا مبينا . فربما اغنى ذلك عن كثير من الدواء الذي يجازف به الاطباء احيانا لامتحان حال المريض . ومن اهمّ ما يستنهض عناية الوالدين في حق ولدهما امر الطعام. لان الطفل لما كان لا يدري حدّ الشبع الذي يقف عنده الراشد كان اكثر اسباب مرضه من الاكل . فليس من الحنوّ والشفقة ان تطعم الام ولدها كل ما يشتهيه . وانما الاولى ان يلهّى عنه باشياء من اللعب والصور المنقشة والالات المزوقة وما اشبه ذلك . وما احلى الولد يطلب شيئا من ابيه وقد حمّر الخجل وجنته اوغض الوجل طرفه . وما احبّه وهو مطوق عنق والده او والدته بيديه اللطيفتين ويقول اني اريد هذا الشيء لآكله . ومن سوء التدبير ايضا ان يحرم ما يشتهيه . ويبكي لاجل ما لا ضرر فيه . ولعمري ان من اغفل رضى ابنه حتى ابكاه واجرى دموعه لغير تاديب كان بمعزل عن الابوة . و ينبغي ان يدرّب الطفل على الخفيف من

الطعام بعد ولادته بستة اشهر مع بقاء الارضاع قليلا . فان الطعام يغذّيه ويقوّيه فضلا عن انه يحفظ صحة والدته . بل ربما مناها طول ارضاعها اياه بمرض ولم يفده شيئا كما هو مذهب الافرنج وهم اكثر الناس ذرّية . ولا ينبغي ان ترضعه وهي غضبى او مذعورة مضطربة او مريضة . ثم انه ما دام الرجل عزبا او كان لم يربّ ولدا قط لم يشعر حق الشعور بالحنو على اولاد غيره . بل لم يقدر والديه اللذين ربّياه حق قدرهما الا بعد ان يصير هو والداً مربّياً . والامّهات اللاي يرضعن اولادهن يكُنّ بالضرورة احنّ فؤادا عليهم من اللاي يستأجرن لهم المراضع . ولا جرم ان من كان له ولد وقرأ قول الشاعر . وربّ امّ وطفل حيل بينهما كما تفرّق ارواح وابدان . لم يتمالك ان يذرف الدمع لوعة وتحسرا . وكذا لو قرأ قصصا فيها فجع الاباء بقتل اولادهم الصغار الابرياء كمقتل اطفال مدين بامر موسى على ما ذكر في الفصل الحادي والثلثين من سفر العدد سواء كان ابوا الطفل مؤمنين او كافرين . ومن لم يكن قد تحلّى بصفة الابوة كالراهب وامثاله ودعاك . يا بُنيّ او ياولدي فلا تثق بكلامه ولا تعول على دعائه لانه لايعلم معزة البنوّة الا من كان ذا ابوّة . وكان الفارياق ممن اذاقه الله حلواء البنين ثم تجرع مع ذلك مرارة الثكل . فقد كان له ولد بلغ سنتين وكانه قد سبك في قالب الحسن والجمال فجاء لم يعده شي مماتقر به العين . وكان على صغر سنه ينظر نظر المميز بين المؤنس والموحش ويالف من تملق له ولو باشارة . فكان ابوه اذا رنا اليه ينسى في الحال جميع اشجانه وهمومه . ولكن لم يلبث ان يغشاه عارض من الكآبة اذا كان يوجس انه لا يدوم له على عين الدهر اللامّة . ويرى نفسه انه غير جدير بان يتملى بتلك الطلعة الناضرة . وكان يحمله على ساعده مسافة ساعة وهو يناغيه ويغني له . حتى الِفه الطفل بحيث لم يعد يشأ ان احدا غيره يحمله او يلهيه او انه ياكل وحده على انفراد . الى ان قدر الله ربّ الموت والحياة ان اخذ الصبيّ سعال في تلك القرية . ولما كانت قرى الانكليز الصغيرة كغيرها من قرى البلاد من انه لا يوجد فيها اطباء مهرة وكان لا بدّ من مشاورة طبيب على اية صفة كان . استشار ابواه احد المتطببين هناك . فاشار عليهما بان يتداركاه بالاستحمام بالماء السخن الا رأسه . فعملا بوصيته اياما . ولم يزدد الصبي الا سقاما . حتى كان اذا انزل في الماء بعدها يُغشى عليه

ويُرى فوق قلبه لطخة حمراء كالدم على شكل القلب . ثم اشتد به الداء حتى احتبس السعال في صدره وخفت صوته . وكان يعاوده مع ذلك الرعدة والهزّة . وبقي في حالة النزع ستة ايام بلياليها وهو يئن انينا ضعيفا وينظر الى والديه كالشاكي لهما مما يقاسيه . فاستحال الورد من خديه عبهرا . وغارت عيناه النجلاوان . ولم يعد شي من الغذاء والدواء يسوغ في حلقه الاّ تكلّفا . وكان الفارياق في خلال ذلك يذرف العبرات ويجأر بالدعاء الى الله ويقول . ربّ اصرف هذا العذاب عن ابني اليّ ان كان ذلك برضيك . انني لا مأربَ لي في الحياة من بعده ولا طاقة لي على مشاهدته في هذا النزع الاليم . فأمِتني قبله ولو بساعة حتى لا أراه يجود بنفسه . آه عظمت ساعةً . وان كان لا بدّ من نفوذ قضائك به فتوفّه الان ولعل الفارياق هو اوّل والد دعا على ابنه بالموت عن شفق وحنو . فان رؤية الطفل يغرغر ستة ايام مما لا يطاق . وبعد ان تُوفي الولد . وابقى في قلوب والديه الحسرة والكمد . استوحشا من مقامهما اذ كان كل شي فيه يذكرهما فقده ويزيد في لوعتهما . ففصلا منه الى لندرة على حين غفلة وقد وضعاه في صندوق فلما دفناه واستقرا في منزل قال ابوه يرثيه

الدمع بعدك ماذكرتك جارِ ... والذكر ما وراك نوبهُ وارِ
ياراحلا عن مهجة غادرتها ... تصلي من الحسرات كل اوار
خطأ وهمتُ فاين بعدك مهجتي ... ما في حشاي سوى لهيب النار
ومقاً اقلّ الجسمَ مني فادحا ... فكأنه وقر من الاوقار
ما كان ضرّ الدهر لو ابقاك لي ... عينا على الاثار والاذكار
ما بعد فقدك رائعي او رائقي ... شيءٌ من الظلمات والانوار
سيان ان جنّ الظلام عليّ او ... طلع الصباح وانت عني سار
يابئس ذاك الليل اذ لم يبقَ لي ... من مطمع فيه الى الاسحار
ارّقني من قبله ستّا وفيه ... حُرِمتُ خمسي واستطبت شعاري
آبُنيَّ ما يجدي التصبّر قولهم ... حكم المنيّة في البرية جار
كلاّ ولابي قرّ بعدك من حمى ... ما هذه الدنيا بدار قرار
كم قد حملتك فوق راحي اذ غدو ... ت وَرحتَ ثُمتَ حُرتُ خير محار

ولكم سهرت الليل من جزع فما   اغني بكاي عليك او اسهاري
ولكم جأرت لبرء دائك ضارعا   ولغير نفع كان طول جُؤاري
ولكم حضنتك في الحنادس خوف ان   يطرأ عليك من الحوادث طاري
وجمال وجهك لي يخيّل انني   في روضة أُنُف ضحاء نهار
ان لم يصوّرك المصور لي فقد   صُوّرت بالمأثور من اشعاري
او ان يكن واراك لحد ضيّق   فالارض عندي اليوم اضيق دار
او ان تكن عني حُجبتَ فانما   بَقيَتْ حِلاك خوالج الافكار
لا انسينّك او احين فما انى   حين عليّ خلا من استذكار
ولارثينّك مابقيت وان أُمُت   فليتلونّ رثاك عني القاري
ياحسرةً عُدم التبصر بعدها   عَدمَ التبصر في احتمال خساري
كثر المعاين لي وقل معاوني   وكوت حشاي شماتة الزوار
فرويتُ بيتاً قاله من ذاق ما   قد ذقت من ثكل ووحشة جار
جاورت اعدائي وجاور ربه   شتان بين جواره وجواري
يالجمة نزلت فحطّم كاهلي   تأويقها وابان قصم فقاري
في ليلة فارقت فيها ناظري   ابدا وفارقني على اجبار
لاغرو ان يك قدسرى جنح الدجى   عن ناظريّ فكل نجم سار
قد كنت اطمع ان يعيش مهنّأً   بعدي ويبلغ اطول الاعمار
ووددت لو ان ذقت حتفي قبله   لكن خيار الله غير خياري
وسّدته بيديَّ رَغماً ليته   هو كان وسّدني على ايثاري
عيني اليه رنت وما لي حيلة   ياليت من نَظَرٍ مُنَى إنظار
قصرت يدي عن كف ماأودى به   ان القصور مظنّة الاقصار
لهفي عليه وطرفه لي يشتكي   اذ كان لم يقدر على الاخبار
لهفي عليه على السرير مؤسّدا   ولو استطعت لكان فوق يساري
لكنّ ادنى اللمس كان يزيده   ألماً فكان يؤوّه من اشعاري
ويئنّ انّة مستجير واجفا   كالطير قُرّ فبات دون قرار

حتى خشيت الدمع يؤلم جسمه   لمّا عليه همى كودْق جار
يارعشة اودت به قد اورثت   قلبي الوجوب ولوعة التذكار
ليت النفوض اقرّ عيني بعد ان   سخنت بنفض فيه ذي اقرار
لهفي عليه في الظلام معانقي   وكراي َمن شفق اليهم ِغرار
لهفي عليه والغناء ينيمه   واذا سكتّ صبا الى الاكثار
لهفي عليه وهو يأخذ من يدي   ويعيد مايعطوه لاستغزار
لهفي عليه وهو لائك رُدْنه   بلآلئ وضاحة ودراري
يايوم انشبت المنيةُ فيه   طَفلا لايطيق عوالق الاظفار
ياخطة عالت فسوّت بين   حتفي والحياة الى مدى مقدار
قد كان يحلو العيش حين يلوح لي   والآن مرّ فصار ذا امرار
لا البعد يسليني ولا طول المدى   وتخالف الاعصار والامصار
ماتنقضي الحسرات او اقضي اسى   فبذا عليّ جرى قضاء الباري
كلا ولا تطفي اوارى عبرتي   ولئن هَمَت في الصبّ كالامطار
فالنار الا النار ثكل تنطفي   والمآء الا الدّمع ضد النار
ياليت راهي العيش يوما راجع   وفدآء مربوب ابوه الهاري
فاكون فاديَ عمرنجليَ لاقيا   حتفي لقاء القانع المختار
داريت مالا ضير فيه لاجله   فاليوم لست لما يضير اداري
ان المنية والاماني بعده   سيان مستويان في استثاري
فلتفعل الايام بي ماتشتهي   مابعد هذا الخطب من اضرار
ولتذهب الامال عني انني   لم يبق لي في العيش من اوطار
من ذاق ثكلا مثل ثكلي فاجما   فليُقصرنّ اليوم عن اصبارى
وليبكينّ معي ويحملني على   فرط البكاء بمدمع مدرار
ما هدّ ركن الصبر مثلَ الثكل او   حَسَم المطا لحسامه البتار
الطفل يقضي مرة لكنما   يقضي ابوه قبله بمرار
تعروه في نزع ابنه وخفوته   ادوار حين اثنا ادوار

هيهات مَن قد اشبهت اطواره في فقده اوطاره اطواري
اوانّ في سوء الاسى لي اسوة او ان فى طول الحياة قصاري
لن ينفع الانسان شيئا حرصه كلٌّ الى أجل على مقدار
الموت غاية كل حيّ يستوى فيه ذوو الايسار والاعسار
والسابقون يضمهم يوم مع المتأخرين الى ثرًى منهار
لكن يوم الطفل افجع حيث لم يعرف له مضمار سعى دار
ما لذّ طعم العيش الا من عدا ه الثكل لا من كان ذا ايسار
فالرزء في الاموال مثل الشعر تر زأه فينبت خلفة الاطوار
فليهنِ من عاشت بنوه أعيشه وليصف مورده عن الاكدار
بعض الرزايا قد يساغ وبعضها يبقى شجا يشجي مدى الاعصار



الفصل الخامس عشر

في الحِداد

ثم لمّا لم يكن بدّ للفارياق من السكنى بالقرب من تلك القرية المشؤمة سافر باهله الى كمبريج . وبقوا مدة طويلة يمشون وجفونهم ما بين منطبقة ومنفتحة . لان شدة الحزن تصرف القلب عن الشهوات او بالعكس . ثم تراخت عقدة الحزن قليلا عن العيون لا عن القلوب . لان العينين لا تطاوعان القلب دائما . كيف وقد قيل وضعيفان يغلبان قويا . فاستحلّ كل منهما اولا الصأصأة والوصوصة والتبصيص والتيضيض والتجصيص والتبصيص والوبص والتبصير والتفقيح . ثم اللوح واللمح والنقد والخزر والتخازر والشطور والخاوتة والخاوصة والملاوصة والتحشيف والعِرضنة والرمق والحدل

والزرّ والايماض واللحظ والالتفات والدنقسة والتشاوص والمغاضنة والمحاوتة . ثم الايشام والنظر والبغو والصمز والاجتلاء والتجلية والرنء والبصر والمعاينة والمشاهدة والرؤية والبغي والبقاوة والبقي . ثم الرأرأة واللألأة والتبريق والبشق والتحديج والتحديق والتجحيظ والتبجيم والتحجيم والتجحيم والتحميج والحملقة والمسحرة والمت . والضبز والتبخص والاسفاف والارغاف والورورة والحنر والطنفشة والاثآر والحدقلة والطرفسة والزنهرة والبندقة والبنق والتجنيص والتفصيص والتهصيص والارشاق والرّعام والبرشمة والبرهمة والجرسمة . ثم الشخوص والطمس والجحم والاشصا والتطاول والتطالل والاشرئباب والاسلطاء والاشتياف والاستيضاح والاستشراف. والاهطاع والتدنيق والترنيق والحتّ . والحتش والصدء والاسجاد والتأمّل والتكلئة والتفرّس والتطلّع والرنوّ والترنّي . ثم تصالحت العيون والقلوب . فغدت تلك تترجم عن هذه والكمد مع ذلك مخيم في اطرافها . غير ان الانسان خلق من نطفة امشاج وركّب من عدة اخلاط وجواهر واعراض مختلفة . فهو لا يزال ابد الدهر ماشجًا هذا في ذاك وخالطا جدًّا بهزل وفرحا بترح . فتراه ساعة قانطا واخرى كأشمب . وآونة مفراحا واخرى مبتئسا . ويوما طربا شنقا ويوما او بعض يوم عزها . فهو بشر خلقا وغول خُلقا . وا كثر ما ترى منه غملجيّته هذه في امر النساء . فانه ان تزوج بمليحة قال ليتني كنت تزوجت بقبيحة وسلمت من ضيزنية معارفي وجيراني . وان تزوج قبيحة قال ليتني تملّحت بمليحة لاكون ذا وجاهة ونباهة . وان كانت امرأته بيضاء قال ليتها كانت سمراء . فان السمر اخف حركة واسخن في الشتاء . وان كانت سمراء قال ليتها بيضاء فان البيض ارطب ابدانا في الصيف . وان كانت كمكامة مكتنزة قال ليتها كانت ممشوقة هيفاء . فان الهيف اقل مؤنة . وان سافر عنها قال ليتها هي التي سافرت وبالعكس . الاّ في مدة وضعها فانه لا يتمنى ان يكون في موضعها وقس على ذلك من الاحوال النسائية ما لا يمكن حصره . اذ اخفى شي من المرأة انما هو بحر لا يمكن البلوغ الى قعره . والحاصل ان للقلب شؤونا كثيرة واحوالا متباينة لا يزال يتقلب بها . او لا تزال هي تتقلب به . وعلى كلّ فتسميته قلبا دالّة عليه . ويستثنى من هذه القاعدة شي واحد وهو ثبات الانسان في كل حال

وشان • واصراره في كل زمان ومكان • على تفضيل نفسه على غيره . فلو كان فاجرا حسب ان لا برّ عند الله الا برّه . وان كان فظا غليظا رأى كل كيّس ربيز دونه • وان كان بخيلا ظن ان كل حرف يفوه به هو منّة كبرى • وان كان دميما ذميما لم يرا اللوم الا على نظر الناظرين له • وكما ان عين الانسان تنظر كل ماواجهها ولا ترى نفسها كذلك كانت بصيرته مبصرة بعيوب الخلق كافة الا عيب نفسه . ولو طاف الدنيا باسرها لما رأى فيها من المحاسن ما في مدينته او قريته . ثم ليس من المحاسن في بلدته ما في بيته • ولكن ليست هي في احد من اهله كما هي فيه . فتحصّل من ذلك انه افضل من العالم كله . ولو انه كان شاعرا او بالحرى شعرورا لايحسن الا الاطراء على بخيل او التغزل بهند ودعد . ثم رأى علماء الرياضة والهندسة يخترعون من الادوات مثلا ما يطوي شقة خمسمائة فرسخ في يوم واحد . لحسب ان شعره انفع من ذلك والزم • ولو كان مغنّيا او لاعبا بآلة من الات الطرب ورأى جارا له طبيبا نطاسيا يداوي في كل يوم خمسين عليلا ويبرئهم باذن الله لاعتقد ان صنعته اشفى وانفع . ولم يخطر بباله قط ان الانسان يمكنه ان يعمّر في الارض دهرا طويلا من دون سماع غناء او عزف بآلة • فمتى يتعلم الانسان ان يعرف نفسه • وان يفرق بين الحق والباطل وان لا يخلط الحزن الكامن في القلب بالتحديق والحلقة . واقبح من ذلك ان كل واحد من الناس يظن ان غيره ايضا يفعل كذلك فهو معذور عند نفسه بكونه حاذيا حذو غيره . ومثله قباحة شان من تلبس الحداد على ميّت لها وهي في خلال ذلك يزدهيها الزناء ويستخفها ذكر الذكران . وترتاح الى رؤية غير اللون الاسود وتطربها نغمة القائل لها ان فلانا مشغوف بحبك . وانك جديرة بان تقعدي على منصّة وتأمري وتنهي الوصائف من حولك او بالحرى الوُصفاء . وان لاتتناولي شيئا بيدك هذه الرخصة . وان لاتخرجي من دارك ماشية على رجلك هذه اللطيفة . وان لك في كل مكان عشاقا كثيرين بحيث لاتعدمين في كل وقت من يحوطك ويخدمك ويلاطفك وينسيك حزنك . وغير ذلك من الكلام الذى هو انتهاك لحرمة كلّ من الموت والميت . قال الفارياق قد رأيت كثيرا من النساء الحوادّ في بلاد الانكليز وغيرها وهن اكثر خفة وطربا وازدهاء وضحكا من العروس وامها ولم ارَ بينهن من كانت تنظر الى ثيابها السودا اذا ضحكت

لتتذكر ان كركرتها في غير محلها . اما في امر الزوج فربما يطلب لهن الحليم عذرا بان يقول مثلا . لعل زوجها كان يخونها في الليالي الحالكة فتردتها بالسواد انما هو لتتذكر سوء افعاله معها في سواد تلك الليالي . او ان ايامها معه كانت كلها سودا كالليالي • فاما في امر الولد والاب وغيره فلا عذر لمن احدّت وهي مرارثة مهزقة • ثم ان الحِداد عند الافرنج مطلوبة للرجال مرغوب فيها بمنزلة العروس . اذ الفحول يتزاحمون على تسليتها وتلهيتها لعلمهم بما تحت ذلك السواد . وبان هذه العادة هي من جملة العادات التي خالف استعمالها وضعها . والظاهر ان لفظة المُحدّ في لغتنا هذه الشريفة مشتقة من حدّ السكين واحدّها وحددها اى مسحها بحجر او مبرد فحدّت تحدّ • فكأنّ لابسة الحداد تحدّ شهوة الناظر اليها اذ يرى عليها آثار الحزن والكآبة والانكسار وهو اشوق ما يكون في النساء • ويؤيده ان صنفا من الثياب السود يُسمّى اِسْبادا . وهذا الحرف يجي ايضا بمعنى حلق الشعر كالسَّبْد وانت بتمام المعنى ادرى . وتسمى ايضا سِلابا والسليب هو المستلب العقل . فكأنّ المرأة اذا تسلّبت اى احدّت ولبست السِلابَا سلبت عقل ناظرها . فاول ما يقع نظره عليها يقع قلبه معه فيقول لها او في نفسه . فديتك بابي انت وامي . لله انت . وقاكِ الله . وهبني الله فداك • ان شئتِ ان اكون اول من توسّل لمحو هذا الحزن من صدرك فعلت فاني انا اَقْدَرُ منك على تحمل المكاره . فالقِ عليَّ هذا الهمّ القادح وكوني انتِ مهنّأة مسرورة • ان لدى آلة طرب عظيمة وخزعبيلات كثيرة تفرّج عنك الكرب . فلو زرتني مرة او سمحت لي بان ازورك لم يَعُد يخطر ببالك شي من الاشجان . انك رخصة رعبوبة وارى هذا الخطب قاسيا عليك فلا يزول الّا بقاسح مثله • ليتك تعلمين ما عندى من الأَسَى والوجد لاجلك . واني عتيد لان احرم نفسي من جميع المسرّات بحيث اراك تفترّين عن ذلك الشنب الاشهى . وتبدين في خديك عند الضحك تلك النقرة التي طالما نقرت قلوب العشاق • اى قلب لا يذوب لهذا الانكسار . واية عين لا تذرف الدمع على هذا الازار . قَدْني حزنا لحزنك وحسبي ان اجلو عنك صدأ هذا الهم • وكذلك المرأة المحدّ فانها تعلم وهي ماشية ما يخطر ببال ذلك المشفق عليها فتقول له او في نفسها . نعم والله اني محتاجة اليك لتخفف عني ما اجده اليوم من الوحشة والسدم •

وقد بت البارحة وانا غريقة في بحر الافكار والاكدار . واراك جديرا . بان تعاقوني وتسامرني وتعاشرني وتبادرني وتباكرني وتجاورني وتحاضرني وتخاصرني وتذاكرني وتسارّني وتسايرني وتداورني وتشاعرني . فالحمد لله الذي هداني اليوم اليك وهداك اليّ وقيّضك لي . لاني امرأة منكسرة الخاطر ولا بدّ لي ممّن ينفّس عني ويونسني. حتى اذا نسيت ما اكابده والمّ بك كرب كان عليّ ان افرّج عنك فان عندي مصدر اشتقاق الفَرَج . ومتى تنال اتمّ الحبور . واعمّ السرور فهلمّ اذاً الى المخالطة والمراوحة . والمساجلة والمكالفة . فهذا ما ينشأ عن لبس الحِداد . ولذلك كان كثيرا من النساء يؤثرن الثياب السود ثقة بأنها تقوم في تشويق من يلاقينهُ من الرجال مقام الحِداد . ولذلك كانت الافرنج ايضا يحبّون اللون الاسود في الملابس ولا يتجاوزونه . ولذلك كان لباس القسيسين والائمة اسود

الفصل السادس عشر

في جود الانجليز

لما فرغ الفارياق من عمله في كمبريج سافر الى لندرة على عزم ان يرجع الى الجزيرة واستصحب معه حمى نافضا . غير ان احد الاطباء الخبيرين في هذه المدينة نفضها عن

ظهره ولم يتقاضه شيئا . ثم اصيبت الفارياقية بخفقاني القلب واللسان . فانها كانت وقتئذ مهرت في لغة القوم . ثم اصيب هو بخفقاني العقل والرأي . وذلك انه لما تصرمت مدة غيابه عن الجزيرة وازف وقت رجوعه رأى ان العود اليها غير احمد . لان احوالها تغيرت عما كانت عليه من الخصب والبحبحة في المساكن . وتلك عادة للفارياق انه لا يدخل بلدا خصيبا الا ويفارقه ممحلا كما تقدمت الاشارة اليه . ولانه فاته فيها بعض فوائد لحرمه منها لطول غيابه . فمن ثم قصد مدينة اكسفورد ومعه كتاب توصية الى احد اعيانها وعلمائها وهو من اهل الكنيسة . فرأى الوصول اليه متعذرا فان العلماء في هذه المدينة ليسوا كعلماء مصر في رقة الجانب و بشاشة اللقاء . بل هم اشد فظاظة من العامة . وعندهم ان الغريب لاياتي الى بلادهم الا والشلاق على عاتقه . ولذلك لما ذهب الفارياق ذات ليلة ليرى بعض هؤلاء العلماء صادفه احدهم بباب المدرسة فقال له من تقصد . قال فلانا . قال اين تسكن . قال في محل كذا . قال اعندك دراهم لتفي اجرة المسكن . قال ما انا بمطران ولا راهب حتى تزعمني اني قدمت اليكم متسولا . ثم لما تعذر عليه الوصول الى جناب ذلك القسيس المعظم ولم يجد فيها اهلا للخير سوى رجل من الطلبة يسمى وليم سكولتك Williams Scoltock وآخر من التجار كان الفارياق اشترى منه قطعة حبل ليربط بها صندوقه فابى التاجر ان ياخذ منه ثمنها فكانه ظن ان الفارياق لم يشترها الا بعد ان استخار الله في ان يخنق بها نفسه . رجع الى لندره وفاوض زوجته في ذلك فقالت له ان الجزيرة اقل خيرا من اكسفورد واني مللت منها كل الملل . فقد اضعنا فيها زهرة عمرنا ولم نحصل منها على ثمرة . فما الرأي ان نعود اليها . فقرّ رايه ح على ان يستعفى من خدمته فيها وكتب كتابا الى كاتب سر الحاكم يؤذن بذلك . ثم اشتد بالفارياقية الخفقان فرأى ان مقامهما بباريس خير لهما . وذلك لما شاع عند الناس ان هواء باريس اصح من هواء لندرة . وان المعيشة فيها ارخص والحظ اوفر . وان الفرنسيس ابش بالغريب من الانكليز وابر . وان لغة العرب عندهم اكثر نفعا واشهر . وغير ذلك من الاوهام التى تدخل احيانا في رؤس الناس ولا تعود تخرج الا مع خروج الروح . ولكن ينبغي قبل سفر الفارياق من هذه المدينة ان نعيد عليك بعبارة وجيزة وصف ما فيها من المحاسن والجود على اهلها اي على اهل

الجمال . لنعلم هل رحيل الفارياق حلال او حرام . وليكون ذلك وداعا من الانكليز . فان الكتاب قارب ان يتمّ ولم يبق من مجال للاسهاب . لاني اخشى من ان ياتي هذا الكتاب الاخير اكبر من الاول فيكون ذلك موجبا للقدح فيَّ من وجهين . احدهما ان مطالعيه يقولون ان المؤلف كان يؤلف الفصول في اوله قصيرة والان ينشئها طويلة. فكأنه كان اوّلا غير ذي دربة بالتاليف او انه يريد ان ينسب اليه مضمون قولهم جرى المذكيات غِلاء . والثاني انه كاد ان يلحق نفسه بالطرّادين وهو لم يشعر ولم يدرِ . فلقد ملانا من كلامه واعادة قوله قيل وقال وكان وصار فهو قد تبوّأ صهوة الجدل منه واليه . ولم يغادرنا نراجعه ونعترض عليه . فما جزاء الثرثار من المؤلفين الا القاء كتابه في القمين . قال الفارياق تصوّر في عقلك انك ما كن في حارة من حارات لندره ذات صفين متوازيين متصاقبين متناوحين . في كل صف عشرون دارا . ولكل دار باب ولكل باب عتبة . وامام كل عتبة درج او وصيد مبلّط . ثمّ مثّل لعينك هذاك الله اربعين بنتا من الرُمُم النواهد . والجُثُم الخرائد . والعُبُن المواغد . والرُجُح الثوامد . ذوات التبهكن والمرافد . والمراضب والمشانب . والصلوتة والسجاحة . والاسولة والصباحة . واللباقة والملاحة . والكاثمة والنراراة . والوثامة والنضارة . والوضاءة والبشارة . والقسامة والشارة . والطلاوة والوثارة . والوثامة والبضاضة . والطراوة والغضاضة . والغِرَض والمسألة . والملد والعبالة . ومن الزُهْر والغرّ والقُرّ والصهب والصُبح والصُحر والعُفر والفُضح والمُغر والأُدم والخُلس والبُره والوده والعِين والنُجل والشُهل والبُرج . والشُكل والدُعج والجُود والبُج والفُرق والزُجّ والجُبه والبُلج والبُلد والذُلف والخُنس والشمّ والأُيس والحُوّ واللُمى . ومن كلّ

رُعبوبة شطبة تارّة او بيضاء حسنة رطبة حلوة او ناعمة . وكان حق هذا الحرف ان يوضع في جدول الكتاب الثاني لكن رأيت الحكاكات اولى به لتحقق معناه فيهن .

ولُبّة لطيفة .

وذات وجه مُصفَح المصفح من الوجوه السهل الحسن .

وبهصلة شديدة البياض .
وَربِلة عظيمة الرَبَلات والرَبَلة وبحرّك كل لحمة غليظة والربالة كثرة اللحم
ورِبَحلة ضخمة جيدة الخلق طويلة .
ورَيْبل ناعمة لحيمة .
وذات شعر رجِل بين السبوطة والجعودة
ورَفِلة اي تجرّ ذيلها جرًا حسنا .
وزَوْلة خفيفة ظريفة فطنة .
وذات عين سَبْلاء طويلة الهدب .
وذات صوت خريد ليّن عليه أثر الحياء
وسِبَحْل ضخمة كالسبحلل .
واسْحلانيّة المرأة الرائعة الطويلة الجميلة .
وطَفْلة رخصة ناعمة .
وعَبْلة عَثِلة ضخمة لحمه .
وعَيْطل طويلة العنق في حسن جسم .
وعُطبول فتيّة جميلة ممتلئة طويلة العنق .
وعَيْطَبول طويلة القدّ .
وعَمَيْثلة البطيئة لعظمها وترهّلها ومن تسبل ثيابها دلالا .
ومكتّلة مدورة مجتمعة .
وهَيْضَلة الضخمة الطويلة .
وهيكلة عظيمة .
وهَوْلة المرأة تهوّل بحسنها .
وعَيْهل طويلة ومثلها العَيْطَبول والعِلْفاق والعنشطة والعَنَطْنطة والعَلْهبة والسَلْهبة .
وعَنْدلة ضخمة الثديين وهي ايضا الطويلة.
وعَرْطَويلة حسنة الشباب والقدّ .

وعَرَنْدَلة	طويلة صُلبة شديدة .
ومَجْدولة	لطيفة القصب محكمة الفتل .
وخثلة	ضخمة البطن .
وهِرَكْيِل	حسنة الجسم والخلق والمشية كالهِرَكَولة .
ومأرومة	حسنة الخلق مجدولته .
وجَريمة	عظيمة الجسد ونحوها الجسيمة .
وجمّاء العظام	كثيرة اللحم .
وحَيامة	جميلة .
ودَرْماء	لاتستبين كعوبها ومرافقها (من تغطية اللحم لها)
ورُعموم	ناعمة .
وسَلِمة	ناعمة الاطراف .
وشُغْموم	طويلة مليحة كالشغمومة .
وضِخَمّة	عريضة اريضة ناعمة .
ومطهّمة	السمينة والبارعة الجمال والمدوّرة الوجه المجتمعته .
وفَعْمة	استوى خلقها وغلظ ساقها .
وقسيمة	جميلة وكذا الوسيمة .
وكَثمة	ريّا من شراب وغيره .
ومكلثمة	مجتمعة لحم الخدين بلا جهومة .
وكمكامة	قصيرة مجتمعة الخلق .
ووثيمة	مكتنزة لحما .
ونُوشِم	اوشمت المرأة بدا ثديها .
وهَضِيم	الهَضَم خمص البطن ولطف الكشح
وبَثْنة	حسناء بضّة .
وبَخدن	ناعمة .
وبادن	معروف كبادنة .

وبَهْنانة الطيبة النفس والريح او اللينة في عملها ومنطقها والضحاكة الخفيفة الروح
وبَهْكنة شابة غضة ويقال للعجزاء تبهكنت في مشيتها .
وجُهانة شابة .
وحَبْناء ضخمة البطن .
ذات شعر حَجِن متسلسل مسترسل .
وخَليف المرأة التي اسبلت شعرها خلفها .
وراقة حسنة اللون .
ومسنونة الوجه حسنته سهلته او في وجهها وانفها طول .
ومَشْدونة العاتق من الجواري .
وذات عَسَن الطول مع حسن الشعر .
وعَكْناء تعكّن بطنها .
وغَيْسانة ناعمة .
وفينانة كثيرة الشعر .
وقَتين جميلة .
وملَسَّنة القدمين الملسَّنة من الاقدام والنعال ما فيها طول ولطافة كهيئة اللسان .
ووهْنانة بها فتور عند القيام .
وبَرَهْرَهة البيضاء الشابة والناعمة او التي تُرعد رطوبة ونعومة والبره الترارة
وذات رَهْرَهة الرهرهة حسن بصيص لون البشرة ونحوه وترهره جسمه (والاحرى جسمها) ابيض من النعمة وجسم رَهْراه ورُهروه ورَهْره ناعم ابيض .
وفارهة الجارية المليحة والفتيّة .
ووَدهاء المرأة الحسنة اللون في بياض .
ومُوَهْوهة التي ترعد من الامتلا .
وسَجْواء الطرف ساجيته اي ساكنته .
وعاية حسناء من عبا يعبو اي اضاء وجهه .

وحسنة العُرْبة أي المجرد والمعارى حيث يُرَى كالوجه واليدين والرجلين . تاخذ بيديها اللطيفتين مكشطا وصابونة ودلواً فيه ماء حميم . ثم تجثو على ركبتيها المدملجتين وتطفق تحك عتبة الدار ووصيدها وهي تتذبذب وتضطرب وتتخشخش وتتعثعث وتتمثمث وتتبعج وتتحلج وتتخلج وترجرج وتتمخج وتتمعج وتتنجنج وترجج وتتضحضح وتتأود وتتخضد وترعد وتميد وتتأطر وتتدهكر وتتزرزر وتتجهر وتتمرمر وتتململ وتمور وتتحيز وتترجز وتتأزأز وتتمزمز وتتهزهز وتتحسحس وترهس وتتمخس وترخش وتتنفش وترعص وترقص وتتلصلص وتتنصنص وتوخص وتتخضخض وتلضلض وتتمخض وتتنغض وتتريع وتتربه وتتسيع وتتنوع وتتنضف وترفرق وتتريق وتركرك وتروه وتريه وتتلوه وتتلوى وتتضرى . وربما اتفق مع رؤية ذلك سماع آلات الطرب يعزف بها في الشوارع فيا حسن ذلك منظرا ومسمعا . ولكن يا اغنياء لندن وأعيانها الم يكن لكم من وسيلة لمشاهدة هذه الشواخص والجواهض الا باذلة عزة الحسن المصون . اتحل لكم انتهاك حرمة الجمال وأجمال ايدى هولآء الحسان وركبهن لتملاس اعتابكم . ما بال جيرانكم الفرنساوية لا يفعلون ذلك وانما يسومون خدمهم تنظيف درج الديار من داخل فقط . فيضع الخادم شيئا كالقبقاب او النعل في رجله ويكشط به ما قدر عليه وما لم يقدر عليه يتركه الى المرة الثانية او الثالثة . ونحن كذلك لانكلف نساءنا هذا التنطس الذي لا معنى له . وانما نكل اليهن ما آل الى القفش والرفش اي الطعام والفراش . ومع ذلك فتزعمون انكم تحترمون النساء وتعرفون قدرهن اكثر منا . لقد كبر ذلك قولا . فاما تسريحهن في الليالي الحالكة ليطفن في كل زقاق وشارع وتسفيرهن الى البلاد الشاسعة وحدهن فلا يعد عندنا من الاكرام لهن في شيء : بل هو احرى ان يكون دَيْبوبيّة وقرطبانية وقلطبانية وكلتبانية ودُوثية وديوثية وقُمْموثية وقوادية وتَوريّة وسَغْرية وصَفْريةوعزورية ولِباسيّة وطَزِعية وطَسعية وقُنْذعية وقنذعية ودُسفانية وإذْمافية وامذائية ومُمانونية . وشَغْنبيّة وشتحطبيّة وادفائية وارخييّة . ليت شعرى كيف يكون قلب الخادمة حين تامرها مخدومتها في كل يوم قائلة حكّي العتبة . او حين تسألها رفيقتها هل حككت اليوم عتبة سيدتك . نعم لو كانت العتبة . وردت عندكم بمعنى

المرأة كما هي في لغتنا هذه الشريفة لكان لا يبعد ان يسبق وهمها عند السؤال الى ذلك الا ان لغتكم يابسة قاسحة لا تحتمل التأويل ولا التخريج . ولست ارى لهذه العادة المشطة من سبب سوى ان احد كبرائكم كان قد اتخذ خادمة رعبو به والله اعلم منذ ثلثمائة وخمسين سنة . وكانت امرأته دميمة فغارت السيدة منها فكلفتها حك العتبة والوصيد في كل يوم اذلالاً لها في بين سيدها. كانّ القلب لايعلق بهوى الجميلة المسكينة كما يعلق بهوى الفُنُق . او كانّ الشي المجمجم يحتاج الى مرفد. اوالشي المتدملك الى وشيعة من القطن . اوالفيل الى غلالة من الخز . او المسكَرة الى جوارب من حرير . فسرت هذه العادة الذميمة في جميع كبرائكم الى عصرنا هذا عصر التمدن والرفق بالنساء . وانتم اسارى العادات والتقليد . فتى الفهم فمِلة لم يمكنكم ان تنتقلوا عنها . وذلك كتكليف الفتيان من خدمتكم ذرّ رماد ابيض على رؤسهم حتى يكونوا كالشيوخ من فوق . وككشف عجائزكم فى الولائم عن ترائبهن واذرعهن . مع انه لا مناسبة بين اوقات التصوف والحظ ورؤية ترائب منجردة تمني القوم بالقسمه . فاما مواطأة الناس على ما اخترعه الامراء والاعيان على اجراء العادات السيئة فهو غير خاص بكم . بل هو عام ايضا عند سائر الامم الافرنجية .



الفصل السابع عشر

في وصف باريس

كان وصول الفارياق الى هذه المدينة الشهيرة في ذات ليلة ضباب فكانت عيناه معمشتين عن رؤية ما فيها من الخصائص . فلما اصبح اخذ يطوف في شوارعها كالمتفرّغ المتبطل فاذا بها ملآنة من المزالج والمزالق والروامج والروامق (١) والجراآي والاطناء

(١) الرامج ملواح يصطاد به الجوارح وكذا الرامق .

والزَّبآي والمَلْ‌ءُوآت والجَـذّابات والرُجَـب والرُوَب والفُـخوت والجِـراج والأُبَـج والبَـيّـاحات والنِـصاحات والمصايد والفخاخ والشواصر والنوابر والقُـحّازات والدحاحيس والمقافيس والشصوص والبيضاوات و القُـنّـاعات والمجازف والخواطيف والعواطيف والكُنف والرِبَـق والطِبَـق والعوادق والنُـشَـق والملاليق والاوهاق والشباك والاشراك والشَـوْذكات والاحابيل والكوابيل والشهوم والمصالي. فظهر له ان قوام كل شي وعتاده وملاكه وقطبه في هذه العاصمة متوقف على وجود امرأة. فجميع الصُـوَب والكُـلَب والحوانيت والـكُـفُـت والقرابج والـكرابج والـكناديج والمفالح والمحاسب والمثابر والانبار والمخازن والمحارف والمصـانع والفنـاتق والفنـادق والدكاكين والقرابق والبلاّزات والمنامات والحانات والخـانات والافدية والمطـاعم والمشارب تديرها نساء واي نساء . وما من كَـتْـب او تأريخ او اوارجة او انجيدج او بُرجان او جُذاء (١) او برنامج او عهدة او محضر او جذر او وِصر او قِط او فنداق او صك او نذلكة او سِيّال او ترقيم او ترقين او جـداء الا وتتعاطاه المرأة هنا . واللبيب من الرجال مَـن اتخذ في حانوته او محترفه رامجا مليحا يلوّح به للشارين والمجتازين في السبيل . ولا فرق بين ان يكون ذلك الرامج من اهل بيته او غريبا وانما العبرة بانفقاس الفخ على اعناقهم . هذا وقد اختصت نساء باريس بصفات لا يشاركهن فيها احد من نساء الافرنج . فمن ذلك انهن يتكلمن بالغنّة والخنّـة والنشيج والهَـزج والهُـزامج والترنجح والتطريب والسَـكْـت والخَـنبرة والنبرة والاجَش والتغثيث والترجيع والاضجاع والقُـطْـمة والتغريد والتهويد والمدّ والترسيل والترتيل والفصـل والوصل والزَجَـل والهـلهلة والادغام والترخيم والتدنيم والترنيم والرَوْم والاشـباع والتفخيـم والامالة والتنعيم والتنغيم والتحزين والحنـين والجَـدَن والتلحين والطَـنَن والشجو والترنية . حتى ينتشي السامع فلا يعلم بعد ذلك هل هن يفككن ازراره او فقاره.

---

(١) عبارة القاموس في ب ر ج وحساب البُرجان قولك ما جُذاء كذا في كذا وما جذر كذا في كذا فجذاؤه مبلغه وجذره اصله الذي يضرب بعضه في بعض وجملته البرجان انتهى غير انه لم يحك في باب الياء غير الجداء بالدال المهملة وعبارته الجداء كغراب مبلغ حساب الضرب ثلاثة في ثلاثة جداؤه تسعة . واضرب عن ذكر الضرب بهذا المعنى في موضعه .

ومن ذلك تغيير الزي في كل برهة وبهن تقتدي سائر النساء . فلو لبست احداهن مثلا عجبا او حزقت ثوبها لعبّ الناسَ حب ذلك العبعب وصار التحزيق سنة فيهم • وعنهن يؤخذ ايضا تقصيب الشعر وسبْتهُ وتسريجه وتسريحه وتسميده وتجميره وضفره وتطريره وتنفيشه وعقصه وتصفيفه وزرقلته وتشكيله وفرقه وكَدْحه وكدهه وادّراؤه وجدله وتفتيله وتغبيته ومشطه الكُمكُبة والمُقدّمة واتخاذ قُصّة منه او قزّعة او قُنزعة وجعله مكرهنا او مسبلا . ومن ذلك انه لطول ترددهن على مواضع الرقص يحسبن كل مكان يطأنه مرقصاً . فترى المرأة منهن تمشي في الاسواق والشوارع وهي تميد وتميل وتخلع وتتفكك • ويا ليت مولانا صاحب القاموس كان يعرف البُلكى والمازركى والسّوتِشكى والكدريل والرِيدوقى والفلس وغيرها من ضروب الرقص حتى كنت اوردها عنه هنا في حق الماشيات في باريس • ومن ذلك تحكّمهن على الرجال وتعزّزهن عليهم في كل حال وبال . فترى الرجل يماشي المرأة وقلبه بين رجليها . واذا خلا معها في البيت فهي الآمرة الناهية المستعلية القاضية . وهو المُصحِب المِصحاب المُدرّج المُدلّج المدمّج المكبوح المكفوح الممنوج المصوّب المدبّخ المتزبّخ المخضَد المسجد المعتر المشروس المضّع . ولا يزلن طول الدهر وِحاماً ولا حَبَل . ويرمن ان يكون لهن كل شي صهابيا مؤرّبا مرفلا موفرا موفلا مسبغا ضافيا مرتبزا وافيا تاما كاملا . حتى ان اللغة الفرنساوية مبنية على هذا الوحم . وذلك انهم يحذفون في اللفظ اواخر جميع الالفاظ المذكرة وينطقون بها في المؤنثة . وعلى ذلك قول الفارياق

عند الفرنسيس المؤنث واجب تبليغ آخره الى الاسماع
وهو الدليل على توق نسائهم طبعا على التبليغ والاشباع
او انه صفة الكمال لهن ان يك ممكنا يوما لذات قناع

وكان احد التيتائيين من نحاتهم غاظه ذلك فجعل من بعض قواعد لغتهم تغليب المذكر على المؤنث • ولكن هيهات فان امرأة واحدة هنا تقوى على عشرين ذكرا . ومن ذلك ان عنوان جمالهن مكتوب على جباههن نظما ونثرا . فمن النظم

مَلكُ الجمال اعزّ من ملك له جند واعوان وعرش ارفع

ذو المُلك تتبعه الجنود تكلفا ولذى الجمال الناس طوعا تتبع

ومنه

من حارب العينين خانته مضاربه وليس يجديه شحذ السيف عن جلده
فمضرب السيف مشحوذ على حجر ومضرب الطرف مشحوذ على كبده

ومن النثر . الكلام بالغنة . شفاء من العنة . فرط التنهيد . ابلغ في التمهيد . الخدل . جلاء المقل . ضخم الحماة . يفتح اللهاة . صغر الاقدام . يقزح الادام . كم صريع في السوق . من كشف السوق . ان ابراز الترائب . كاشف غم النوائب . ان العبعب . املا للعين واحب . ان الاعجان . داعي الافتتان . ان التوق . اصل الشنق . لاتفكن . الا ويزيله التبهكن . التهيم . ادعى للتهييم والتتيم . المغاضنة . دليل المحاضنة . غلائل الصيف . امضى من السيف . لاقرار . بعد الافترار . لاعاصم . بعد كشف المعاصم . توهج الطيب . اشوق للحبيب . رب ابتسامة . جلبت غرامة . العين غزالة . والقامة قتالة . الحسن معبود . والدينار منقود . الدينار فكاك الازرار . من اكثر من الصله . نال ما امله . البضع لذي الدنيا . والدنيا لذي البضع . من ذاق عرف . ومن غازل هرف . الى الملهى الى الملهى . فبادر ثم لاتلهى . وعللها بكاس ثم عما شئت فاسألها . والحاصل ان الفرق بين عنوان جمال الفرانساويات وجمال الانكليزيات هو ان الاول من قبيل التداوي من الشي بضده . والثاني من قبيل التداوي منه بجنسه . وذلك ان العنوان الاول هو ناطق عن الونى والفتور والترهل والتربيخ والاسترسال والاسترخاء والاسترخاخ والاسترخاف والرشرشة والنشنشة والانخزال والثملطة والثلمطة والخنث والخنبثة واللوثة والهلاث والانبنجاج والطرشحة والامرخداد والترترة والتخثر والفيشوشة والتعة والخراعة والاخع والطرمذة والرهوكة والبرطلة والغدن الاشياء المستدعية لنقائضها من الاشتداد والتصلب والاعمرار والتأتب والتفسح والتقسب والتوتر والتعلب والتمرد والتعلد والارزاز والتادد والعص والاستمراز والتأيد والكأن والاتكاع والتكلد . وجمال اولئك عنوان على هذه الصفات المستدعية لنظائرها وكلاهما في المرأة حسن . ومن ذلك انهن يرين التقليد في الحب والزي معرة فكل واحدة منهن تجتهد في فنها حتى تصير قدوة

لغيرها • اما في الزى فمنهن من تقبّب صدرها بقدر ما تقبّب نسآء الانكليز بتائلهن . ومنهن من تتخذ لها قبّتين من قبل ومن دبر . حتى تكون اذا مشت عائقة اسافلهما ومواجهها . وكشف الساق لابراز الحماة ونظافة الجوارب مطّرد لهنّ . فاما في الحبّ فمنهن من تزيد على صفات المدقم الصفة التي ذكرها ابو نواس في الهمزية . ومنهن من يوثر التجضّم الكهري أو الامتلاج القنبي . واكثر الناس حرصا على هذا الشيوخ المحنكون. فامتصاصهم وتبظبرهم ليس من الدب في شي . ومنهن من تجمع بين اللذتين الخرنوفية والفنفورية ولها سعران • ومنهن من تزيد على ذلك ماأراده الشيخ جمال الدين ابن نباتة من شوص الفرخ وله ثلثة أسعار . ومنهن من تزيد عليه الشوص بالاخمصين وله اربعة . ومنهن من تمكن من تمقط النَوْدلين وثفر ما بينهما مجردا . ومنهن من تضيفه الى اللذتين المذكورتين مع شوص الفرخ بانامل واخامص وهو اغلى ما يكون . ومنهن من تتفاحل وتتمّمد على اخرى مثلها . وهذا النوع عزيز لا يراه الا الموسرون . ومنهن من تتعاطي الحرفة التعرسية وهو قرع الترس بالترس . ومن اغرب ما يكون ان بعض شيوخ الفرنساوية الذين يشب فكرهم وتخيلهم لهرم اجسامهم ووهن حركتهم يوثرون على جميع الانواع المذكورة لتلمّظ بالعذرة وذلك بان يتضجع أحدهم وهو عريانٍ ويامر من تستوي فوقه وتملا فمه. ومنهم من يستغني عنه بشرب الزغرب من مشخبه زُغلة زُغلة أو بمص القنب . وقد يجتمع رجال بواحدة فيقيمونها بين أيديهم عريانة ويقعد لدى قبلها ودبرها اثنان . ويأخذ آخر في صبّ الشراب من فوق صدرها وظهرها . فيبادر اليه الرجلان فاغران أفواههما ويشربانه عند مروره على السّمّين . والنسآء المثريات المتنلمات يستعملن رجالا يقودون اليهن كل من راوه ابتع من الرجال ولا سيما من أهل الريف . فيدخلون عليهن في بعض الديار وهن متبرقعات كيلا يُعرَفن ثم يأجرنهم على ذلك . وفي الجملة فان كل ما يخطر ببال النحرير من أمور الفسق يراه الانسان في باريس بعينه بالعَين . واعلم ان أهل باريس قد اصطلحوا على أمور في المعاش والنسآء تميزوا بها عمن سواهم . اما في أمر المعاش فان من يأكل منهم في المطاعم الشائعة فانه يشارط صاحب المحل أو بالحري صاحبته على ان يعطيها في الشهر قدرا معلوما ويأكل عندها شيا معلوما . فتعطيه تذاكر توذن بعدد المرات فيدفع ثمنها ثم

يعيدها عليها فيودّي اليها عن كل غـدآ أو عشآ تذكرة . فيتوفر عليـه في ذلك ربـع المصروف . وقس عليه الحمامات والملاهى وما أشبهها . فاما أمر النسآ فان أصحاب البيع والشرآ لمـّا كانوا قد اتخذوا لادارة اشغالهم نسآ حسانا كما سبقت الاشارة اليـه . فاذا خرجن في الليل بعـد انقضآ اشغـالهن ترصدتهن الرجال ودعوهن الى مواضع الاكل والقهوة والرقص واللعب . فتذهب كل واحدة مع من تحب . فمن رافقته الى أحد هذه المواضع علم ان حقه عليها صار ضربة لازب . فاما ان يستوفيه منها تلك الليلة فقط أو يوافقها على اعادة الوصل في كل اسبوع مثلا مرتين أو ثلاثا وان يعطيها في آخر الشهر أجرة معلومة . وما بقي لهـا من الساعـات فانهـا توجرهُ لآخرين باجرة معيّـنة . فترى للواحدة منهن عدة عشاق تواصلهم في أوقات مختلفة من الليل والنهـار . ومع ذلك فلا تزال تلقب بدُمْـوازل وهي كلمة تطلق على الابكار على وجه التعظيم . ومعناها سيّـدة غير ذات بعل . ومنهم من يتصدى لمعرفة هولاء البنات من المراقص . فيعمد الرجال الى بنت ويدعوها للرقص . فاذا أعجبته وأعجبها دعاها للشراب في موضع مخصوص في المرقص وعقد عليها عقد الزيارة الشهرى . ومن عامل واحدة منهن مشاهرة لم ينفق عليها نصف ما ينفقه لو قضاهـا على كل مرة على حدتهـا وللنسا رخصة في باريس ان يدخلن جميع المراقص العموميـه من دون ان يدفعن شيا اجتـذابا للرجال بكثرتهن . ولكن عليهن ان يرقصن معهم اذا استرقصوهن . الا اذا اعتذرن لهم بعذر يقبلونه كأنْ تقول المدعوة مثلا قد دعانى آخر من قبلك فلا بد لى من ان ارقص معه أو نحو ذلك . ثم انه لا حرج ايضا على من اكترى في منزل بيتـا مفروشا كان أو غـير مفروش ان تزوره صاحبته في مسكنه . سوآ كانت من النوع الذى ذكرناه اعني من النسآ اللاتى بمنزلة بين الحرائر والزواني أو من غيره . وان تبيت عنده على علم من الجيران والسكان. فان منزلة هذا عند أهل باريس كمنزلة المتزوج . ولا فرق عند أهل باريس بين امرأة متزوجة لها سبعة بنين وسبع بنات ربيهم في تقوى الله وطـاعة الملك و بين قحبية تبيع عرضها لكل ابن سبيل وتتفشخ لكل مجتـاز في الطريق كما تقول التوراة . وهنـاك أسباب اخر كثيرة للفساد في الديار . وذلك انه لمـا كانت جميع الاشغـال في باريس تدبرها النسآ وكان منهن غسـالات وخدامات لهنّ ياخذن ثياب السكان وخياطـات

وفرّاشات وبياعات للماكول والمشروب والملبوس . امكن للرجل ان يصاحب واحدة منهن فتاتيه مياومة اذا شاء بحجة انها تقضيه شيا أو تبيع له حاجة او ملايلة او مشاهرة او مساوعة او مجاينة وذلك ممنوع في لندرة . بل ربما صاحب الرجل امرأة من نفس الدار التي يسكنها . لان ديار هذه المدينة العامرة لما كانت تشتمل على عدة طبقات وكان أصغرها يحوى في الاقل عشرين نفسا ما بين رجال ونسآ . امكن للرجل ان يعاشر احدى جاراته . بل المتزوجون المقيمون في هذه الديار لا يامنون على نسائهم وبناتهم لان الرجل اذا خرج من بيته وخالفه فيه جاره الى زوجته مئة مرة في اليوم لم يمكنه ان يعلم ذلك لقرب ما بين المسكنين . ولهذا كان اهل باريس اقلّ غيرة على نسائهم من جميع الناس . لانهم ربوا على هذا ولا مناص لهم منه . ولا يمكنهم ان يربوا اطفالهم عندهم خوفا من تضجر الجيران منهم • وانما يبعثونهم الى الريف من أول اسبوع ميلادهم فيربون في احجار المراضع وهي عادة حميدة من جهة ان الاطفال يتقوّون هناك بطيب الهوآ . وهناك سبب آخر وهو ان المُطفِل بترشيحها ولدها وتربيته تخسر من نفع حرفتها أكثر مما تعطيه للظئر لان نسآ باريس يباشرن جميع الحرف ولايرين في التكسب عارا بايّ وجه كان • وهنّ في البيع والشراء اشط من الرجال . ومن تكن جميلة تتقاضَ على النظر الى جمالها شيا زائدا على الثمن . ثم ان حالة الرجال مع النساء على المنوال الذى ذكرناه تعدّ عند هولآ الناس من المصالح المهمّة المرتّبة المطردة. بمعنى انه ليس من دار الاّ ويحصل فيها وصال بين الرجال والنسآ مع مُراعاة حرمة كل من الزائر والمزور. ومع عدم الاخلال بالوقت الموقوت لكيلا يحصل تعطيل للمزور في شغله . ومع مجانبة مايسوء الجيران من لغط وعربدة . ولا تكاد ترى في باريس كلها فقيرة او مومسة تطوف في الليل وهي سكرى كما ترى في لندرة . وندر وجود احداهنّ في متأخر الليل . وقلّ من آذت زائرها اوقاصدها . وهناك فرق آخر بين نساء الفرنسيس والانكليز من جهة الخُلق لاالخَلق . فالظاهر من نساء الانكليز في الغالب الكِبر والأنَفَة والصَلف . والظاهر من نساء الفرنسيس اللين والبشاشة . الا ان نساء الانكليز لايتدللن على الرجال ولا يجشّمنهم الترف والتحف والولائم والملاهي والمنازه والفرج . فاكلة من الكباب وكرعة من المزر تكفيان في استجلاب رضاهن . وليس

عندهن من الرَّوم والمحال . والخلاب والاختتال . والدها والنكر والاحتيال ماعند نساء باريس . فاما ان تحب احداهن مثلا شخصا وترضى معه بالكثير والقليل واما ان تصرمه . فاما نساء باريس فمما يظهر منهن من الملاينة والمباغمة . والملاطفة والملاءمة . فاذا عاشرت واحدة منهن وشعرتَ بانك ارتبتَ في هواها ورُقبتَ تبغنجت عليك وتدللت . وتصلّفت وتعتّت . واوهمتك ان مجرد كلامها معك منّة . وان ارضاءها والخضوع لها سنّة . وان كثيرا في عشقها متيمون ناحلون . هائمون ناسمون . حتى تستقل عليها كل كثير من الصلات والهدايا فتقبل منك ماتقبل وانت لها من الشاكرين . واذا دعوتها لوليمة فلا بد من ارواثها من الرحيق المختوم . وتوجيهها بالفخر المطعوم . فتلتهم ماتلتهم وتشتف ماتشتف وهي متشبعة متعففة . متمنعة متظرفة . فاذا ضحكت حسبت ان ليس اضحكها من نظير . واذا مشت وددت لو كان خطوها على الديباج والحرير . حتى ان هذا التصلف ايضا صفة ملازمة للمتزوجات . فان المرأة المتزوجة في باريس تغرّم زوجها على كسوتها فقط ماينفقه المتزوج من الانكليز على جميع اهله . فدأب الرجل في باريس وهمه وشغله ارضاء زوجته وهيهات ان ترضى وما احسن ماقيل في هذا المعنى

لا يعجب الزوج الان تكون بمن ... تحب محفوفة أولا فاعنات
وكيف يرضى امرء يحمى حقيقته ... بالقِرن والقَرن افتوا ايها النسات

وقال

وداخلة الانسان تفسد كلها ... اذا اصبحت زوج له امّ خارجه
ويخرج عنه الحلم لو قيل مرة ... له هي في البيت الفلاني والجه

ولهذا يقال في المثل السائر عند الفرنساوية ان باريس نعيم النساء ومطهر الرجال وجحيم الخيل . ولما كانت حالة الرجال مع النساء هكذا كان ثلثة ارباع سكان باريس مسافحين . ونصف الربع الاخر متزوجين زواجا شرعيا والباقي منقطعون عن النكاح . كذا اخبرني من يوثق بكلامه . ثم ان المومسة من الانكليز تعرف نفسها انها غير حرة وتعرف ايضا ان الناس يعرفونها كذلك . فلا تكلفهم احترامها . ولا تسومهم اعظامها . فاما البغي من الفرنسيس فعندها ان مجرد استبضاعها للبضع يؤهلها لان يكرمها الناس

ويداروها . ويجلوها ويدانوها . وذلك لعدم استغنائهم عنها . وجرّهم النفع منها . وقد تقدم ان الفرنساوية لايفرقون بين الحرة والبغي وبقي هنا ان نقول انهم اشد الناس شبقا الى البعال . واقربهم الى السفاح . وناهيك انهم في الفتنة الكبيرة التي حدثت في سنة ١٧٩٣ اقاموا امرأة عريانة على مذبح احدى الكنائس وسجدوا لها . فصور لخاطرك ايها القارئ كيف تكون الرجال والنساء في هذه المدينة في ليالي الشتاء الباردة الطويلة وكم من ملهى يغص بهم وبهن وكم من مآب . وكم من مائدة تميد لهم بالطعام والشراب . وكم من سرر تهتز . ومضاجع تأز . واجناب تلز . واوطاب تمز . واوتار تنز . انشدني الفارياق لنفسه في وصف باريس واجازني روايته

وفي باريس لذات كما في جنان الخلد حبر وحور عين
ولكن شأنهن دوام طمث لكل اربعون من القرين

وقال في الراقصات

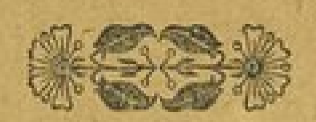
لله در الراقصات لنا على نغم المثاني حيث تجلى الكوب
لو كان يوما وطؤهن عليّ لم تثقل لديّ من الزمان خطوب

وقال في رامح

ذي البارزية طلعتها كالصبح بها قلبي مغرم
في الليل اريد تحيتها فاقول لها بُن جُور مادم

قال وكما ان الغريب المسكين ينشرح صدره ويتجلى بصره بمشاهدة تلكم الحكاكات للاعتاب في لندرة على الصفة التي تقدم ذكرها . كذلك تقرّ عينه برؤية امثالهن في باريس طائفات في الشوارع والاسواق من دون غطاء على رؤوسهن ولاساتر لخصورهن ومايليها . بخلاف عادة النساء في لندرة فانهن لايخرجن الا ملتحفات . قال وعندي ان هاتين الخلتين وهما حك الاعتاب والخروج من دون التحاف هما السبب في قلة وجود العميان في هاتين المدينتين السعيدتين . وقلما ترى في رجالها احول اوازور او احوص اواخوص اوارمص او اكمس اواعش اواخفش اواعفش اواعمش اواعبش اواغمش اوارمش او امتش اوذادوش اومدش اوطخش اوغطش اوغفش اوطفنشا اوغطمشا اومغطرشا . اومطغمشا اومطرفشا او مطفرفشا اومطنفشا او مدنفشا او مدنقشا . فعلى كل من كان في بلادنا اعمش ذا

عين ان يقصد هذه البلاد ليجلو بصره بهذه المناظر الانيقة • وليستصحب معه أيضا لهذه الجلاجلا اي لقبا ينبي عن شرف وسيادة . فان القوم يعظمون هذه الزئمة ولا يرون للانسان فضلا بغيرها . وعلى فرض تحرّجه من الانتحال والتزوير فان غناه يكسبه اياها من عندهم . لانه متى كان غنيا وجعل دأبه ان يتردد على مواضع اللهو والحظ لم يلبث ان يتعرف بزمرة من الكبراء السعداء وان يزورهم في مغانيهم . وح يسمونه بسمة شرف تشريفا له وتشرفا به اذ لا يزورهم الا الشريف مثلهم . فاما حرص النساء على هذه الزئمة وخصوصا نساء الانكليز فهو اوسع من ان يحصر في هذا الكتاب



الفصل الثامن عشر

في شكاة وشكوى

ثم رام الفارياق ان يستأجر شقة دار ليسكنها هو واهله فرأوا عدة اماكن لم تخل من عيوب • وكانت الفارياقية في خلال ذلك تتمعص من ارتقاء الدرج فان بعضها كان يشتمل على مئة وعشرين درجة فاكثر . حتى اذا تبوأوا محلاً وجدوا موقده رديئا . فلم يمض على ذلك ايام حتى طفقت تشكو وتقول . يالمعجب كيف تنخدع الناس احيانا بشيء وتنوه به دون تحقق معرفة حاله . ومتى يستقر ببالهم وجوده على حال من الاحوال يعد تغيير وهمهم عنه محالا • حتى ان تغيير الوهم من الخاطر يكون اصعب من تغيير اليقين . لان من تيقن شيئا فانما يتيقنه عن علم • ومن طبع العالم ان ينظر دائما في الحقائق واضدادها ولا يزال باحثا عن الصحيح والاصح . فاما الوهم فلا يدخل الا راس الجاهل . ومتى دخل فلا يكاد يخرج منه . مثال ذلك وهم الناس ان مدينة باريس

هي اجمل مدينة في الدنيا • مع اني رأيت فيها من العيوب مالم اره في غيرها . انظر الى طرقها والى ما يجري فيها من الدم والنجاسة ومن المياه المتنوعة الالوان . فمن بين اخضر كماء الطحلب واصفر كماء الكركم واسود كماء الفحم . ويتلاحق بها جميع اقذار المطابخ والمرافق . وروائحها ولا سيما في الصيف اشد اذى من رؤيتها . فهلا جعل لها مثاعب تحت الارض او ايات تنفذ منها الى نهر او غيره كما في لندن . وانظر الى مبلط هذه الطرق حيث تجري المراكب والمجلات . فانك ترى حجارته قد اختلت وتباعد بعضها عن بعض حتى عاد سير العجلات عليها كطلوع عقبة او درج فهي لا تزال تهتز وتضطرب . وسبب ذلك ان البلاط هنا يفرش فرشا غير مرصوص ولا منضم بعضه الى بعض فاذا اتت عليه سنون زاد تباعدا وتخلخلا . فاما في لندن فانه يرص بعضه الى بعض قائما فتسير عليه العجلات سيرا سريعا سهلا بلا قرقعة ولا اضطراب . وانظر ايضا الى برازيق الطرق هنا اي حيث تمشي الناس • فما اضيقها واقذرها واقل جدواها . ففي كثير من الحارات لا يمكن لاثنين ان يمشيا معا على حافة واحدة منها . بل هي لا توجد رأسا في كثير من الطرق او توجد غير كاملة من الاول الى الاخر فتراها قد تعطلت في موضع واختلت في آخر . وانظر الى هذه الانوار القليلة في الاسواق والى فوانيسها البارزة من الحيطان والى بعد المسافة ما بينها . فقد يمشي الانسان في اكثر الطرق من فانوس الى آخر اكثر من مئة وعشرين خطوة . وانظر الى صغر هذه الحوانيت وقلة انوارها و بؤس اهلها وشحتهم . فقلما تجد عند احدهم نارا . مع ان هذا الشهر هو من ابرد الشهور . وتأمل هذه الديار وعلوطبقاتها وكثرة درجها ووسخها وفساد ترتيب مرافقها ومراحيضها • فقد تجد في الدار الواحدة عدة مراحيض بجانب المساكن وعدة مصاب للماء والاقذار . وناهيك ما يخرج منها صباحا من الروائح الخبيثة . ومع كون هذه المراحيض قذرة نجسة خالية عن لوالب الماء فليس لها مزاليج من داخل ليأمن الانسان في حال خلوته من انبعاق احد عليه . فكثيرا ما يدق عليه دامق ولما يكن اتى على اخر ما عنده فيلحقه بالبذغ والاسدر او الماصع او الجازم

او الواطم المزدَم (١) وقد سألت عن سبب ذلك فقيل لي ان صاحب الدار اذا كان متورّعا يتحرج من وضع المزاليج خيفة ان يدخل بعض الساكنين والساكنات معا ويتحصنوا بها . ومن اقذر ما يرى في حيطانها آثار اصابع مختلفة فكانّ الفرنساوية يستطيبون الاستطابة باصابعهم ٠ وحين ينظّفونها ليلاً تخرج رائحتها الخبيثة وتنتشر في الحارة كلها . فلا يمكن للانسان ان يبيت الا مسدود المنخرين ٠ ثم ان هذه الديار ما عدا كونها تشتمل على ست طبقات فاكثر . وعن ذلك وعن فساد التبليط يسمع لمرور العجلات قرقعة زائدة كما لا يخفى . وما عدا كونها تحوي سكّانا كثيرين ما بين فاجر وفاجرة ومستهتَر ومستهترة ٠ فان كثيرا من مساكنها لا يصلح للسكنى لخلوه من النور والهواء ٠ ولا يكاد الانسان يستريح في محل منها . فانه اما ان يجده قريبا من المرحاض ٠ او يجد موقده رديئا . او يجد فيه فارا او جرذانا ٠ او يجد جاره ذا صخب وقاحة يغنّي النهار والليل او يعزف بآلة طرب . او يخلو بالمومسات على هَرج ومَرج وقرقرة وكركرة ٠ وان من داخلها ما يضحك ويبكي . فالمضحك ما يرى من الخلل في هندمة الابواب والشبابيك وفرش المبلّط بالآجُرّ واتصال بعض المساكن ببعض ٠ والمبكي رؤية هذه المواقد فانها مبنية على شبه القبور وذلك اول ما يخطر ببال الداخل الى مسكنه ٠ فهي جديرة والحالة هذه بان تكون صوامع للرهبان المتبتلين لا مضاجع للناس المتزوجين .واغرب من ذلك ان ابواب الديار لا تزال مفتوحة. وان البوابين يتعاطون الحرف والصنائع في كِنّ لهم يلزمونه ليلا ونهارا . فمنهم من يشتغل بالخياطة ومنهم بحذو النعال ونقلها وغير ذلك . بحيث ان كل انسان يمكنه ارتقاء الدرج بلا مانع ٠ وقلّ ان يبصر البواب من كنّه احداً لان عينه ابدا ملازمتان للابرة او الاشفى . ولذلك كانت دواعي الفساد في باريس اكثر منها في لندن ٠ وما يرى هنا من الديار البهية والطرق الواسعة الحسنة فانما هو حديث عهد ٠ فكيف كان لباريس شهرة في الزمن القديم وديارها العتيقة وطرقها العهيدة مما ينبو عنه الطرف وتقذره النفس

«١» البدغ الخاري في ثيابه ونحوه الامدر ومصع بسلاحه على عقبيه اذا سبقه من فرق او عجله وجزم بسلاحه اخرج بعضه وبقى بعضه وردم السلح حبسه وازرمه قطع عليه بوله

فاين هذا من شوارع لندن الرحيبة الوضيئة ومن دكاكينها الواسعة الظريفة المزججة باحسن الزجاج وانفسه . ومن ديارها النظيفة المهندمة . قال فقلت ومن حكاكات اعتابها . فقالت ومن اعتاب حكاكاتها . ثم استمرت تقول ومن مساكنها الانيقة ومن درجاتها الحسنة التي لا تزال مكسوة بالزرابي الفاخرة . ايم الله ان صعود خمسين درجة منها لاهون عليّ من صعود عشر درجات هنا . واين تلك المواقد البهية المصفحة بالحديد اللمّاع المجلو في صباح كل يوم . وتلك الشبابيك والطيقان المحكمة التزجيج . واين تلك المطابخ التي لا يزال فيها نور الغاز متوقدا والماء السخن عتيداً للسكان . وكم فيها من وصائف خُرَّد يتمنى اعظم المخدومين عندنا ان يكون لاحداهن خادما او طباخا . قلت بل لاعجا . قال او لاحسا . الا واين حسن نهر تامس وما فيه من سفن النار التي تسير الى ضواحي لندن في الصيف وفيها آلات الطرب . فتراها ملآنة من الرجال والنساء والاولاد فكانما هي رياض مزينة بالازهار . واين تلك الحدائق الكثير وجودها في كل جهة في المدينة وهي التي يسمونها ترابيع . ومن يسكن في غرفة مطلة عليها يخيل له انه مُريف . فاذا مشى بعض خطوات ورآها رأى الناس وازدحامهم اقبالا وادبارا . ثم اين تلك الانوار المتوقدة فى كل من الطرق والدكاكين بحيث انك اذا كنت في اول الشارع وسرّحت نظرك الى آخره ادهشك حسنها وازدهارها . وظننت انها نسق كواكب قد نظمت في سلك واحد وانما يمدح باريس من لم يكن قد رأى لندن او من راها بعض ايام ولم يعرف لسان اهلها . ثم اين ملاطفة مكريات المساكن ورفقهن بالنازل عندهن غريبا كان او لا . فان الغريب اذا تبوّأ منزلا عندهن يصبح وقد صار واحدا من اهل البيت . لان كلاّ من صاحبة المنزل ومن الخادمة وما ادراك ما الخادمة . تلاطفه وتؤانسه وتقوم بخدمته وتطبخ له وتشتري له ما شاء من السوق . وتطلع اليه كل يوم بالماء السخن وتضرم له النار وتمسح نعاله ؛ لعمري ان النازل عندهن يمكنه ان يتعلم اللغة الانكليزية بمحاورته معهن في اقصر مدة . فاما في باريس فان النازل في احدى هذه المساكن قد يموت في ليلته ولا يعلم به احد. فان بينه وبين البواب بُعدا باعدا . وفي اكثر المساكن هنا لا يجد الانسان جرسا ليطنه فيتحرك له البواب . ثم اين استقامة تجار لندن وصدقهم في البيع والشراء

وتودّدهم الى الشاري وانانهم معه من تجار باريس الذين لو قدروا على سلخ جلد المشتري ولا سيما اذا كان غريبا لما تاخروا . وانهم قد حاكوا تجار لندن في وضعهم بطاقة الثمن على البياعات . ولكن هيهات . فان مَن سعّر حاجة بمئة افرنك مثلا يبيعها بثمانين . وقد يضعون في وجوه الحوانيت اصنافا من البضاعة مسعّرة فاذا اردت ان تشتري شيا من ذلك الصنف جاءك بصنف دونه في الجودة . وحلف لك انه من عين ذلك الراموز . ولا يزال بك مبربرا ومثرثرا وحالفا وحانثا حتى تشتريه حياء او خصما للنزاع . وغير مرة يعطون الشاري فلوسا او دراهم زائفة . فاما باعة المأكولات والمشروبات فانهم اكثر غشا وشططا في هذه المدينة من سائر الناس . ولهم في الوزن لباقة لم ارَها عند غيرهم . وذلك ان من باعك شيئا موزونا يطارحه في كفة الميزان بعجلة وهوج كالغضبان من رؤية سحنتك او على الميزان . واول ما تميل به الكفة يرفعه بلباقة ويسلمه لك . ولو ارسلت اليه خادمك او ابنك لباعه نفاية ما عنده وكان على السنّجة اشد غضبا . هذا ما عدا غشّهم الماكول والمشروب وتغييرهم الاسعار بتغيير الاوقات والاحوال . وهذه اللباقة معروفة ايضا عند باعة الاصناف كَيْلاً وذَرْعا . فاما ما يقال في مواضع التنزه والحظ في باريس وذلك كحديقة قصر الملك وما يليها فلعمري ان من رأى حدائق كريمون وفكس هال ورُجفيل Crémorne Gardeus, Vauxhell Rosherville التي في ضواحي لندن ما عدا حدائق كثيرة في حاراتها فلا يطاوعه لسانه بعدها على ذكر غيرها . نعم ان حديقة القصر هنا حسنة على صغرها لكونها في قلب البلد وتلك منحازة عن الوسط . ولكن آه من قلب هذا البلد . كم من فاسدين وفاسدات تجمع هذه الحديقة في كل يوم فهي عبارة عن حابور . لان النساء ينتبنها ليتصيّدن منها الرجال . اذ تجلس المرأة على كرسيّ بجنب رجل ممن اعجبها وهي لاتعرفه . ويكون بيده كتاب يطالعه وبيدها منديل تخيطه او نحو ذلك . فيطفق هو يقرأ في الكتاب كلمة وينظر اليها نظرة وهي كذلك على ملّة وتهجل هجلة فلا يقومان الا وهما متعاشقان . حتى اذا كان اليوم القابل تبدّل كل منهما مقامه وعشقه . اما الجمال فليس من مناسبة بين جمال نساء باريس ونساء لندن فالذأبة او الخفوت هناك تعدّ

هنا عَبْهرا (١) ولعزة الجمال هنا صار عزيزا فان الشي متى عز عز فكان كلف الناس به اكثر وتنافسهم فيه اشد . ومن اعجب العجب عندي ان الجميلة الرائعة في لندن تطوف باخلاق من الثياب . والدميمة الشوهاء في باريس ترفل بالحرير والكشميري فاما مواضع الرقص فانها في لندن تفتح كل ليلة وفي باريس ثلث مرات في الجمعة لا غير. وفي اكثر شوارع لندن تسمع الغناء من جواري حسان والات الطرب ليلا ونهارا من دون غرامة ولا كلفة . وليس كذلك في باريس الا ما ندر . وغاية ما يقال في التنويه بباريس وفي تفضيلها ان فيها مواضع للشراب والقهوة ظريفة يجلس داخلها وخارجها الرجال والنساء متقابلين ومتدابرين . فهل لمجرد القعود على كرسي يحكم لها بالفضل وتشهر عند الخاصة والعامة من اعصر متعددة بانها اجمل مدينة في العالم . ثم ان حشمة فتيان الانكليز وتأدبهم مع النساء سواء كانوا في البيوت والشوارع من فتيان الفرنساوية هؤلاء المصاهيص الذين يهصهصون ويهصصون (٢) في وجوه النساء حرائر كن او بغايا . ومتى ينظروا امرأة مكبّة لربط شراك نعلها يطيفوا بها فيصير الحلقة بها حاقة ولحتارها حتارا . ولا سيما حين ياتون الى هذه المناصع ويبدون فيها منادفهم — قال فقلت استمري في الحديث وقولي ما شئت بحيث لا تقفين على المنادف . قالت اتغار عليّ ايضا من الوقوف بالكلام . وانما وقفت بُهرا من هذه الدنيا المبنية على النادفية والمندوفية . لا جرم لو اني كنت في مقام ملك او امير لما كان مما مسته ايدي الرجال شيئا . وبينما هما في الكلام اذا برجل يطرق الباب ففتح له الفارياق وهو مستعيذ من دخوله على ذكر المنادف . واذا به يقول . قد سمعت بقدومك فاتيتك رغبة في ان اقرأ عليك في العربية شيئا واعطيك في مقابلة ذلك خمسة عشر افرنكا في الشهر . فلما سمعت الفارياقية اغربت في الضحك على عادتها وقالت لزوجها . دونك اول دليل على كرم اصحابنا هؤلاء الذين طبّل بذكرهم العالم وزمّر . فقال له الفارياق ما اريد منك مالاً وانما تبادلني الدرس في لغتك عن لغتي . فرضي بذلك . ثم زاره احد علماء باريس بعد ايام وقال له قد بلغني قدومك وانك مُولَع بالنظم . فلو نظمت

«١» الخفوت المرأة تستحسن وحدها لا بين النساء .

«٢» المصهاص البراق العينين وهصهه غمزه .

ايا تا على باريس وذكرت ما فيها من المحاسن لقام ذلك عند اهلها مقام توصية بك . لان الناس هنا يحبون الاطراء والتمليق اي يحبون ان الدخيل فيهم يطرّيهم بالاطراء . واذا كانوا هم دخلاء في غير بلادهم اطرأوا على حكام تلك البلاد ونالوا عندهم الوجاهة والمكانة . فاجابه الفارياق الى ذلك ونظم قصيدة طويلة في مدح باريس واهلها سمّاها الهرفية لانه مدحهم مجازفة من قبل ان يعرفهم . وستأتي مع نقيضتها الحرفية ومع نبذة مما نظمه بباريس في الفصل العشرين . فلما وقف العالم المومأ اليه على معانيها استحسنها جدا وترجمها الى لغته . وتوصل في أن طبع الترجمة في احدى الصحف الاخبارية وجاء بنسخة منها الى الفارياق وهو يقول . قد طبعت ترجمة قصيدتك في هذه الصحيفة وقد وعدتني جمعيّة العلم الآسياوية (نسبة لاسيا) بان تطبع الاصل العربي في صحفهم العلمية . لكونك اول شاعر مدح باريس باللغة العربية . فشكره الفارياق على ذلك وقال له اني اريد نسخة من هذه الترجمة . قال انها تباع في مكان كذا بنحو ثلثي افرنك فسار واشترى نسخة . ثم قدم عليه بعد ايام بعض من قرأ تلك الصحيفة وهو يقول . قد قرأت ترجمة قصيدتك واعجبتني . فهل لك في ان تبادلني الدرس . قال هو كما اريد . فاستمرّ يتردد عليه اياما في خلالها عرّفه بالعالم المشهور مسيو كترمير Quatremère وهذا العالم عرّفه بمدرّس اللغة العربية مسيو كسّان دُبرسُفال Caussin De Perceval ثم تعرف ايضا بالمدرّس الثاني مسيو رينو Reineaud ولكن كانت معرفته بهم كاداة التعريف في قولك اذهب الى السوق واشتر اللحم . ثم زاره ايضا احد الاعيان الذين يتقدم اسماءهم اداة دُ وهي علامة النبالة والشرف . وهو مسيو دُ بوفورت De Beaufort وكان له اخت في دارها مدرسة تعلم فيها بعض بنات الكبراء . فلما حان وقت امتحانهن في العلم صنعت مادبة في بعض الليالي وادبت اليها الفارياقية وزوجها . فقال الفارياق لزوجته . هاك مثالا على كرم القوم فقد مضى عليك مدة وانت تشكين من الوحدة ومن بخل من تعرّفتُ بهم وتقولين انهم لم يادبوك قط . وقد كان يادبك في بلاد الانكليز من كان يعرفك ومن لم يعرفك . حتى انك كثيرا ما كنت تتضجر من ذلك . لما انه كان يلزمك له تغيير زيك ووقت غدائك وحرمانك من الدخان . فابشري الان ان اصحابنا بالخير فينون حريتون . قالت كل

منهم قَمين حريّ . ثم سهرا تلك الليلة عند اخت الدّ المومأ اليه على احسن حال واصفى بال . فرجعت الفارياقية الى منزلها بقلب آخر وهي تقول . نعم لقد تفضل بوفورت واحسن كل الاحسان . وقد رأيت من نساء الفرنساوية من البشاشة والطلاقة مالم اكن اصدقه . نعم ويعجبني منهن هذه الغنة والخنة التي تكثر في كلامهن وهذا هو الذي جعل اللغة الفرنساوية فيما اظن مستحبة . وهي من الاولاد اشجى واطرب . فقلت الظاهر ان العرب ايضا تحب هذه الخنخنة . فقد قال سيدي صاحب القاموس نَخِم وتَنخّم دفع بشيء من صدره او انفه . ونَخَم لعب وغنى اجود الغناء . فضحكت وقالت اظن صاحبك كان يهوى مخنخنة واني اشفق من انك لاتلبث ان تسرى اليك عَدْواه . سلّمتُ بان الغنّة بل اللُثغة بل اللدغة تستحب من الغلمان والجواري . ولكن هل يطيق فتى ان يسمع عجوزا خفخافة تخنخن عليه في انفه . وهل تطيق شابة خُنّةَ شيخ هرم في خياشيمها . نعم ويعجبني من العامة في باريس انهم لايسخرون من الغريب اذا رأوه مخالفا لهم في زيه واطواره . بخلاف سفلة لندن فانهم يسلقونه بالكلام . بل ربما تكلف الواحد منهم ان يناديه من مكان بعيد حتى يبح وما ذلك الا ليقول له انك ياغريب دهوي ملعون . ولعلي في ذلك مخطئة . قال فقلت بل مصيبة فان جميع الناس يثنون على ادب الفعلة وسائر العامة في باريس وعلى حسن كلامهم . ثم لبثا مدة وهما يقابلان محاسن باريس بمحاسن لندن . فما كرهت الفارياقية في باريس غاية الكراهة هو ان النساء يرخّص لهن في دخول الديار مهما يكن من تخالف انواعهما . وزعمت ان ترتيب الديار في لندن بهذا الاعتبار احسن . فقال لها الفارياق لاينكر ان ديار لندن احسن ترتيبا باعتبار ان درجها قليل وان سكانها قليلون ملازمون للسكون . وان اعتابها تحك في كل يوم . وان في مطابخها ربلات قَدِرية وان داخلها مهندم مفروش بالبسط الجيدة الا انها بَلْو النار . فاما ديار باريس فانها ابقى على الاحوال ومنظرها في الخارج ازهى . فاما منع المومسات عن دخول تلك وترخيصهن في دخول هذه فهو في ظني دليل على اتصاف المومسات في باريس بالادب . بخلاف مومسات لندرة فانهن يتهتكن في الشرب والومس . ولذلك منعن من الدخول الى السكان . وهناك سبب آخر وهو ان بغايا باريس

معروفات في ديوان البوليس واسماؤهن مقيّدة فيه . فلا يجرأن على التفاحش والتهتك وان كن فواحش . فاما بغايا لندرة فقد خُلّين وطباعهن . ثم مضت مدة على الفارياقية وهي تقاسي من الخفقان الما مبرّحا . فكان يلازمها اياما متوالية ثم يخف عنها . وفي خلال ذلك أُدبت مرة اخرى عند اخت الدّ . فسارت مع زوجها وهما متعجبان من هذا التكرم الذي لم يجدا له في باريس نظيرا . ثم اشتد بالفارياقية المرض ولزمت الفراش فاحضر لها طبيبين من النمساوية فعالجاها مدة حتى افاقت قليلا . وكانت اخت الدّ قد تزوجت برجل اسمه Ledos فلما جآء اخوها ذات يوم الى الفارياق على عادته وجد الفارياقية تئن وتشكو من بلوغ الالم منها . فقال لزوجها لو استوصفت صهري دواء لزوجتك فانه خبير بخصائص النبات وقد ابرا كثيرين من هذا الداء . فسار اليه الفارياق وسأله ان يأتي معه ليرى زوجته . فقال له اني غير مرخص لي من الديوان في مداواة المرضى ولكني لا آبي ان آتي معك رجاء ان يحصل شفا امرأتك على يدي . ثم اتى ووصف للفارياقية ان تشرب ماء بعض اعشاب تغلى وبعث لها من ذلك بستة قراطيس . فلما فرغت وطلب الفارياق غيرها جاءت اخت الدّ اعني زوجة المتطبب تقول . ان زوجي يتقاضاكم خمسين افرنكا ثمن القراطيس . فلما سمعت الفارياقية ذلك تراجع اليها نشاطها وبادرتها اجمع وقالت لها . اما تستحيين ان تطلبي هذا المبلغ على ستة قراطيس من العشب وزوجك ليس بطبيب . فقال لها زوجها ولكن اذكري ان المرأة ادَبتنا الى شرب القهوة والشاي مرتين وقد تخللتاهما باشياء من الحلواء والكعك فلا ينبغي مقابحتها . ثم بعد جدال طويل ونزاع وبيل رضيت اخت الدّ بان تاخذ نصف المبلغ المذكور فاقبضها اياه الفارياق فولت وهي مدمدمة وانقطع اخوها عن الزيارة . ومن هؤلاء المتطببين من اذا رأى غريبا بش في وجهه واحتفى به ودعاه الى منزله وواصل زيارته الى ان يراه يشكو من سعال او غيره فيصف له دواء . ثم يتقاضاه غرامة رابية على كل زيارة جرت بينهما من اول تعارفهما . ويأتي بجيرة المحل شهودا على الرجل في انه كثير التردد على منزله وادعى ان مرضه كان مزمنا . وحامل لواء هذه الزمرة اللئيمة هو دكتر D'Alex المتطبب المقيم في لندرة في Berner's Street No 61 Oxford Street ثم رجع الطبيب النمساوي الى مداواة الفارياقية .

فلما نقهت اشار عليها بالسفر من باريس فاستقر الرأي على تسفيرها الى مرسيلية. فقالت لزوجها قد طاب الان لي السير من ارض ما فيها خير. هؤلاء معارفك الذين اتيتهم بكتب توصية من لندن والذين تعرفت بهم بعد ذلك هنا بوسيلة علمك لم يدعُك احد منهم الى الجلوس على كرسي في بيته. وهذا الامرتين الذي ابلغته كتاب توصية من الشيخ مرعى الدحداح في مرسيلية كتبت اليه تسأله عن امر فلم يجبك. مع انك لو كتبت الى الصدر الاعظم في دولة الانكليز لاجابك لا محالة سواء بالسلب او الايجاب. وهذا المتطبب صهر الدّغرّمنا على ستة قراطيس خمسة وعشرين افرنكا مع ان هذا الطبيب النمساوي وصاحبه قد عالجني مدة وعُنيا بي ولم يتقاضياك شيئا. وكذلك تفعل اطباء لندن جزاهم الله خيرا. افكل الناس يكرمون الغريب ويرفقون به الا اهل باريس. لقد كنت اسمع انه يوجد في الدنيا جيل ملاذون ملاّثون ملاّقون ولاّذون ولثيّون مخاحون مُرامقون ذَمَلقيّون مماذقون غَسَّجيّون مبذخون مطرطرون مطرمذون خيتعورون مُبهلقون مُرامقون عداعون طرفون خيدعيون قشيون متطاعيون اعفكيون مجذاميون جذاميون كمرصيون همّلعيون مَنبجيون تيلساطيون بذلاخيون وما كنت ادري ايّ جيل هم. فالان اغنى الخُبر عن الخَبَر. وتحققت ان هذه الصفات التي كنت استكثرها ان هي الآ بعض ما يقال في اهل هذه المدينة. فان مودتهم يقطينية اي تنبت سريعا كاليقطين ولا تلبث ان تذوي. ومواعيدهم عرقوبية طالما وعدوا فاخلفوا. ومنّوا فازهفوا. وحالفوا فحنثوا. وعاهدوا فنكثوا. يبشون بالمغترّ بهم ويهشون. ثم هو ان لازمهم ملوه. وان غاب عنهم نسوه. وما يجزه غيرهم بنعم ولافهم يرتبكون فيه اياما وليالي يداونه باساطير طويلة. ويختمونه بهاء ويلة. فاما بخلهم على غير المراقص فيضرب به المثل. وناهيك ان نارهم في الشتاء كنار الحباحب. ولوانهم اوقدوا نارا كنار الانكليز لرأيت جوّهم اكثر دُجُنّة ودُكنة من جوّ اولئك. وانهم في الصيف لايستسرجون وما عندهم غير هذين الفصلين من فصول السنة. فاما برد عارم. واما غتم ملازم. الاّ وان احدهم لينزل الافرنك اجرة من يعمل له منزلة الدينار عند الانكليز. على ان بلادهم اغلى اسعارا من لندن في لوازم المعيشة او مثلها.

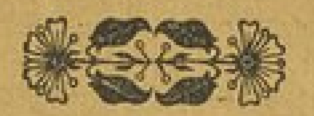
ارايت انكليزيا يعمل حسابه بالفلس كما يعمل اهل باريس حسابهم بالصنتيم . بل ان كثيرا من الانكليز لا يعلمون كم في صلديتهم من فلس. نعم وان احدهم (اي اهل باريس) ليكتب اليك مكتوبا في شأن مصلحة تقضيها له ولا يدفع جُعله . ولقد يضحكني من فخرهم انهم يا كلون ابشع المأكول ولا تزال امعاؤهم ملأى من شحم الخنزير . ثم هم اذا خرجوا الى المحافل والمثابات بالغوا في التفخل والزَّفلان غاية ما يمكن وان كثيرا منهم يغلقون في الصيف كواهم وشبابيكهم ولا يفتحونها ابدا . يوهمون الناس انهم قد ساروا الى بعض منازه الريف ليصيفوا فيه كما تفعل كبراؤهم . وان كثيرا منهم ليتقوتون بالخبز والجبن نهارا ليبدوا في الملاهي والملاعب ليلاً . وان اشرافهم وذوي الدّ منهم يا كلون مرتين في اليوم و يفطرون على محار البحر . والناس كلهم يا كلون ثلث مرات والانكليز اربع مرات . ولكن معاذ الله ان تكون الفرنساوية كلهم كاهل باريس . والا فيا خُسْر ماضاع الثناء عليهم كما ضاع ماء الورد في غسل مرحاض. فاما نساء باريس المضروب بادبهن وظرافتهن المثل فلعمري انهن جُخْر مجخرات (١) واكثرهن لا يستوغلن ولا يتلجمن ولا يعتركن ولا يشمذن ولا يستنجين ولا يتخذن الفِرام ولا المعابيء ولا الفِراص ولا الثمل ولا الجدائل ولا المماحى ولا الربذ. وليس لهن من نظافة الا على ماظهر منهن من نحو قميص ومنديل وجورب. ولذلك تراهن ابدا يكشفن عن سيقانهن وهن ماشيات في الاسواق صيفا وشتاء. بدعوى رفع اذيالهن عن ان تمس النجاسة في الارض . فمن تكن منهن سوقاء افتخرت بساقها و بجوربها معا . ومن تكن نقواء افتخرت بالثاني . وليس في نساء الارض كلها اكثر منهن تيها وعجبا وزهوا وإزبا وتعنفصا اخداعا ومجابة وغطرفة وتبغنجا . سوآء كن قباحا أو ملاحا . طوالا او قصارا وهو الغالب

---

(١) البخر محركة رائحة مكروهة في قبل المرأة وهي جخراء واجخر غسل دبره ولم ينق فبقى نتنه واستوغل غسل مغابنه والإجام ماتشده الحائض وقد تلجمت واعتركت احتشت بخرقة وشمذت المرأة فرجها حشته بخرقة خشية خروج رحمها والفرام دوا تضيق به والمعباة خرقة الحائض والفراص جمع فرصة وهي خرقة او قطنة تمسح بها المرأة من الحيض ونحوها الثمل جمع ثملة والربذ والجدائل جمع جديلة وهي شبه اتب من ادم تاتزر به الحيض والمماحي جمع ممحاة وهي خرقة يزال بها المني ونحوه .

فيهن. عجائز او صبايا . حرائر او بغايا .ذوات لحىً وشوارب او نقيات الخد.مذكرات الطلعة والسحنة أولا . على اني لم أرَ في جميع النساء تذكيراً الا في نساء باريس وارلندة غير ان هؤلاء لسن مزهوّات مغانيج كالباريسيّات . وانما الذي صيّرهن الى ذلك هو شدة شبق الرجال عليهن . وقرمهم اليهن . فترى الفرهد الغساني مخاصرا لسعلاة منهن ومتذللا ومطيعاً لها . فلقد اصاب الذين يتزوجون منهم في بلادنا الجواري السود تخلصا من اسرهنّ وسرفهن . وقد رأيت عامتهن لطّاعات اي يمصصن اصابعهن بعد الاكل ويلحسن ماعليها . فاما ذوات الشرف فانهن يغسلن ايديهن في فنجانة على المائدة بحضرة المدعوين ويتمضمضن بالماء ثم يقذفنه فيها . فهل ذلك يعد من الظرافة والادب . اليس فعلهن هذا افظع من التجشّي عندنا . وانما يمدح محاسنهن ويهيم بهن من الفت عينه النظر اليهن بعد مدة . وهب ان نساء باريس ظريفات كيّسات ولكن ماشأن هؤلاء النساء اللاي يقدمن من السواد والبراغيل والرذاذنات والرساتيق والمدارع والدساكر والفلاليج . فمنهن من تغطي رأسها بمنديل فلا يبين منه الا شعيرات من عند فوديها . ومنهن من تلبس طرطورا من القماش على رأسها. حتى ان اهل باريس لا يتمالكون ان يضحكوا حين يرون واحدة من هؤلاء الباديات . واقبح من ذلك لهجتهن . وفي باريس كثير من النساء يكنسن الطرق ويتعاطين اعمال الرجال . وفي بولون وكالي وذياب وهافر وغيرها من الفرض تجد النساء يحملن اثقال المسافرين على ظهورهن ورؤسهن . وليس في بلاد الانكليز كلها من حمالات الا لاصحاب الاثقال . وزيهن كلهن سواء . فكيف يزعم الفرنساويون انهم جميعا متمدنون . ولعمري لو كانت النساء في بلادنا يخرجن في الاسواق سوافر ويبدين قوامهن وخصورهن وسوقهن كنساء باريس. لما تركن لهن ان يذكرن معهن بالجمال والظرافة اصلا . الى مصر الى مصر بلاد الحظ والأرَب . الى الشام الى الشام . معان الفضل والادب . الى تونس نعم الدار فيها اكرم العرب . كفاني من الافرنج ماقد لقيته وعندي ان اليوم في قربهم عام. ألا دعني اسافر من بلاد اسقمت بدني . بمأ كلها ومشربها و برد هوائها العفن . فقال لها الفارياق ان كنت تطيقين السفر فشأنك . فقالت لموتي في الطريق الي اشهى من التخليد في دار اللئام . فمن ثم تأهبت له . غير انه حصل لها في غد ذلك اليوم من الضعف والالم

مامنعها عن الحركة . وتفصيل ذلك يأتي في الفصل التالي



الفصل التاسع عشر

في سرقة مطرانية ووقائع مختلفة

لمَّا نُكبت نصارى حلب وجرى عليهم من نهب المال وهتك العرض ماجرى . اجتمعت رؤساؤهم في الدّين وارتأوا ان يبعثوا من طرفهم وكلاء الى بلاد الافرنج ليجمعوا لهم من دولها وكنائسها ومن اهلها الخيرين مدداً يقوم باودهم . فاختارت الكنيسة الرومية الارثودكسية الخواجا فتح الله مرّاش . واختارت الكنيسة الرومية الملكية المطران اتناسيوس التونجي مؤلف كتاب الحكاكة في الركاكه . ورجلا آخر معه يقال له الخواجا شكري عبود . فاقبلوا يجولون في البلاد حتى انتهوا الى مملكة اوستريا فجمعوا منها مبالغا . وكان معهم منشور من مطراني الكنيستين المذكورتين في حلب يؤذن بوكالتهم من الطائفتين في هذه المصلحة . فلما فرغوا من بلاد النمسا قدم الخواجا فتح الله المزبور ورفيقه الخواجا شكري عبود الى باريس ومعهما ذلك المنشور . وبقي المطران هناك على عزم ان يجتمع بهما في بلاد الانكليز . وانما لم يقدم معهما الى فرنسا مع انه هو وكيل الكنيسة الملكيّة وهي على مذهب الكنيسة الفرنساوية . لما انه كان سابقا ارتكب فيها من اساءة الادب وتعدّى طور امثاله ماأوجب حبسه ثم طرده منها مدحورا . فخشي والحالة هذه ان يشهر امره هذه المرة فيها فيحيق به سوء عمله . فلما ابرز رفيقاه منشور الوصاة لمطران باريس والتمسا منه المعونة عجب من رؤيته اسم المطران التونجي مذكورا فيه دون رؤية سحنته . فقال لهما مابال وكيل الكنيسة

المكية لم يحضر معكما . فاعتذرا عن غيابه باعذار لم يقبلها منهما المشار اليه. وتذكر ما كان فعله التتونجي من قبل فردّهما خائبين . وكان الخواجا فتح الله مراش ورفيقه يترددان على الفارياق مدة مكثهما في باريس . لكن تردد الاول اكثر. وانما انس به الفارياق مع علمه بانه رفيق التتونجي لكونه رآه من ذوى المعارف والدراية ماعدا كونه متزوجا وله عيال . وقلّ من كان على مثل ذي الحال وانطوى على غش ودَخَل . لان العلم يلطف العقل والعيال ترقق القلب . ثم ارتبك المطران في رُطْمة في بلد من بلاد اوستريا وهو فيما اظن بولونيا . ففصل منه على نكظ وخزي وسار الى بلاد الانكليز مجتديا. ويومئذ ارسل الى رفيقيه المذكورين ان يلحقا به . فما مضت بعد سفرهما ايام قليلة حتى ورد الى الفارياق كتاب من كاتب اللجنة (اي جمعية اخوية) وفي ضمنه كراسة من كتاب كان قد عربه الفارياق من كتب العجم وفيها مايسوء اللجنة .فايقن حينئذ بان احد رفيقي المطران عند ترددهما عليه سرقها من مخدعه باشارة المطران . وانه لما اجتمع به في لندن سلمها له فاهداها المطران الى اللجنة طمعا في ايصال الضرر من جانبهم الى الفارياق . غير ان اللجنة المذكورة لما كانت منطوية على اخلاق كريمة ردّت الكراسة على الفارياق . اذ لم يكن لهم بحفظها من مصلحة . وكان ورود الكراسة يوم عزمت الفارياقية على السفر. فبلغ منها الغيظ والحزن كلّ مبلغ حتى لزمت الفراش. فاما المطران فانه تصدّى له في لندرة بعض رؤساء الكنيسة الباباوية ومنعوه من تعاطي الحرفة الساسانية . حتى ان شنعته وشهرته هناك عطّلت ايضا على غيره ممن كان يجتديهم لمصلحة من مصالح الكنيسة . فحسبوا كل قادم اليهم من بلاد الشرق منافقا . امّا الفارياقية فانها نقهت بعد ايام وصممت على السفر فكتب لها زوجها كتاب توصية الى المولى المعظم سامي باشا المفخم في مدينة القسطنطينية . ثم شيّعها وسفر معها اصغر اولاده تسلية لها . ولما حان الفراق توادعا وتباكيا وتواجدا حتى اذا لم تَعْدِ العين نجيبهما بالدمع وهي العَسْقفة والعَسْقبة والتغبيض رجع الى منزله مستوحشا مكتئبا. وسافرت هي الى مرسيلية فزال ما كان بها وشفيت اتمّ الشفاء . لكنها لم تغير نيتها عن السفر الى اسلامبول . ثقة بان هذا الفراق يكون سببا في وشك اللقاء . فلما بلغت مقام المولى المشار اليه وادت كتاب التوصية لولده النجيب الحسيب صبحي بيك اذا كان والده

حينئذ غائبا . اكرم مثواها واحسن اليها غاية الاحسان . وهذا مثال آخر على الكرم الشرقي ينبغي ان يبلغ مسامع الامراء الغربيين من الافرنج . وفي غضون ذلك نظم الفارياق للمومى اليه قصيدة يمدحه بها على كرمه ومعروفه . ولزوجته ابياتا اودعها ذكر مالقى من وحشة النوى وستأتي كلها في الفصل التالي الذي هو خاتمة هذا الكتاب. ثم انتقل من منزله ذلك الى غرفة وجعل دأبه في كل يوم نظم بيتين على بابها . ثم بلغه قدوم السيد الاكرم الامير عبد القادر الى باريس فاهداه ايضا قصيدة وتشرف بمجلسه . ثم عيل صبره من الوحدة فاستماله بعض معارفه الى اللعب بهذه الاوراق المزوقة فصار من زمرة المقامرين . لكن جهله بها كان غير مرة يبعث شريكه على العربدة عليه . فكان يرضى بان يكون حرضة فقط . (الحرضة امين المقامرين) ثم تعرف برئيس تراجم الدولة وهو الكونت ديكرانج فاما غيره من التراجمين وشيوخ العلم ومدرسي اللغات الشرقية فلم يطأ لهم عتبة . لانهم نفسوا عليه بمائهم وبضيحهم وبودهم وكلامهم ولقائهم حتى انهم ابوا ان يطبعوا له قصيدته التي مدح بها باريس بعد ان وعدوا بذلك . وما كان خلفهم الا حسداً ولؤماً .



الفصل العشرون

في نبذة مما نظمه الفارياق من القصائد والابيات في باريس على ماسبقت الاشارة اليه

اي فارياق . قد حان الفراق . فان ذا آخر فصل من كتابي الذي اودعته من اخبارك ماالمّني والقارئين معي . ولو كنت علمت من قبل الاخذ فيه بانك تكلفني

ان ابلغ عنك جميع اقوالك وافعالك لما ادخلت رأسي في هذه الربقة . وتجشمت هذه المشقة . فقد كنت اظن ان صغر جثتك لا يكون موجبا لانشاء تأليف كبير الحجم مثل هذا . واقسم انك لو تأبطته ومشيت به خطى على قدر صفحاته لنبذته ورآك وشكوت منه ومن نفسك ايضا اذ كنت انت السبب فيه . وما يمنعني صداقتي لك اذا وقفت على احوالك بعد الان ان اولف عليك كتابا آخر . ولكن اياك وكثرة الاسفار . والتحرش بالقسيسين والنساء في الليل والنهار . فقد مللت من ذكر ذلك جدًّا . ولقيت منه عناء وجهدا . والان قد بقي عليَّ ان اروي عنك بعض قصائدك وابياتك . ولكن قبل الشروع فيه ينبغي ان اذكر حكاية حالي . وهي اني لما كنت في هذه السنة بمدينة لندرة وشاعت اراجيف الحرب بين الدولة العلية ودولة روسية نظمت قصيدة في مدح مولانا المعظم وسلطاننا المفخم السلطان عبد المجيد ادام الله نصره وخلد مجده وفخره وقدَّمتها الجناب سفيره المكرم الامير موسورس . فبعث بها الى جناب فخر الوزرا سيدي رشيد باشا بلغه الله ما شاء فلم تمض ايام حتى بعث المشار اليه الى الامير السفير يخبره بانه قدَّم القصيدة للحضرة السلطانية في وقت رضى وقبول ووقعت لديها موقعا حسنا . وانه صدر الامر العالي بتوظيفي في ديوان الترجمة السلطاني . فكان هذا الخبر عندي امرّ ما طرق مسمعي . فينبغي لي الان ان اتأهب للسفر لاتشرف بهذه الوظيفة . ولكن اعلم ايها القاري العزيز انه لما كان همي وقصارى مرامي كله انجاز طبع هذا الكتاب قبل سفري الى القسطنطينية وكان مكثي في لندرة موجبا لتأخيره . لان اجزاءه المطبوعة كانت ترسل اليَّ فيها لاصححها آخر مرة قبل الطبع . اشار اليَّ الخواجا رافائيل كحلا الذي ولي طبع الكتاب بنفقته ان اسافر الى باريس تعجيلا لطبعه فاجبت الى ذلك . وكان وقتئذ في مرسى لندرة سفينة نار للدولة العليه يراد تسفيرها بعد مدة . فالتمست من صاحبي الخواجا نينه الذي قدم مع الخواجا ميخائل مخلع في مصلحة متجريه بان يراقب وقت سفر السفينة ويخبرني بذلك لئلا تفوتني فرصة السفر معها وكان للخواجا نينه المذكور بعض حاجات ومآرب في باريس جلها يختص بامرأته فوكل بشرائها بعض معارفه هناك . حتى اذا اشتراها له اوعز اليه في ان يسلمها لي وكتب اليَّ كتابا يقول فيه ان السفينة لا تلبث ان تسافر فالاولى سرعة رجوعك الى لندرة . فصدقت قوله واقبلت اسعى الى لندرة

وانا موجس من ان تكون السفينة قد سافرت دوني. وتركت التصليح على عهدة الخواجا رافائيل المومأ اليه . فلما وصلت الى لندره تبيّن لي ان نصح صاحبي لم يكن مقصودا به حاجة حضوري ولكن احضار حاجته معي ليتوفر عليه بذلك جُعلها ومكسها ولتتزيّن بها زوجته قبل انقضاء اوانها . فان السفينة بقيت في المرسى مدة طويلة لتصليح آلاتها على علم من ناصحي . فكان قدومي الى لندرة هذه المرّة الثانية سببا في تأخير الطبع ايضا لاجل لزوم ارسال الصحائف اليّ لانظرها قبل الطبع كما سبقت الاشارة اليه . ولولا ذلك لنجز الكتاب سريعا . غير اني احمد الله تعالى على انه لم يعرض له من الامور النسائية الا ما اوجب تاخير طبعه فقط دون ابطاله ونسخه بالكلية . فقد طالما اشفقت عليه من ذلك كما ان الفارياق يشفق على فساد ترجمته من امثال هذه العوارض . وهذه القضية مصداق على ما قالته الفارياقية في الفصل التاسع من الكتاب الرابع من انه قد يجتمع اثنان في زواج او شركة او غير ذلك ويكون قد تقرر في بال احدهما ان له منة على صاحبه . فمتى وردت على سمعك ياصاحبي نصيحة من احد فانشر طيّها واسبر غورها لتعلم هل الغرض منها نفعك خاصة او نفع ناصحك وحده او نفعكما معا . ولكن لاتبتديء بنصيحتي هذه فاني لم اقصد بها الاّ مجرّد نفعك فقط . واعلم يافارياق انه قبل تشرّف قصائدك واياتك بادماجها في هذا الكتاب يجب عليّ ان اشرّفه والقارئين ايضا بالقصيدة المشار اليها وهي

الحق يعلو والصلاح يعمّرُ ... والزور يمحق والفساد يدمّرُ
والبغي مصرعه ذميم لم يزل ... آتيه عرضة كل سوء يثبر
والوغد تبطره من النعم التي ... يغنى بها الحرّ الكريم ويشكر
طغت الطغاة الروس لما غرّهم ... في الارض كثر سوادهم وتجبّروا
كادوا ويرجع كيدهم في نحرهم ... فطُلاهم دون القواضب يُنحر
المعتدون ولا نُهي تنهاهم ... الظالمون القاسطون الفُجّر
نقضوا العهود وكان ذلك دأبهم ... لؤما وللعدوان بغيا اضمروا
حتى رأى بعضَ المآثر رأسُهم ... بخس الحقوق وساء مَن يستأثر
ايظنُّ ان الدولة العُليا السويد ... وانه هو بطرس المتاخر

كلا لَـيرتدعنَّ ثم لَـيعلمنْ　　أن ربَّهـا من يبتغيهـا يثـأر
يامسلمون تثبتوا ان جاءكم　　نبأ عن الروس العدى وتبصروا
لا يغررنَّـكم كثير جموعهم　　فالحق ليس يضيره المستكثر
ياءومنون هو الجهـاد فبـادروا　　متطوعين اليه حتى تؤجروا
هذا جهـاد الله يحمي عرضـكم　　فاسخوا عليه بـكل علق يُـدخر
في لَن تنالوا الـبرَّ حتـى تُـنـفِقوا　　مِمـا تُـحِبـون الدليل الاظهر
وتمسـكوا بالعروة الوثقى من　　الصبر الجميل على القتـال وذمّروا
يغنيـكم التـكبير والتهليل عن　　ان تعملوا فيهم سلاحا يبتر
فالَقوم ُابهمـا كـفاحا تظفروا　　وعليهـم صولوا وطولوا وانفروا
واغزوهمُ بحرا وبرًا واحشـدوا　　ركبا وفرسـانا ونسرهُم آ نسروا
لو لم يكن منكم سوى نفر لما　　غُلبوا فكيف بـكم وانتم اكـثر
من كل فَتَـاك اذا اعترضت له　　يوما شُعوبٌ بل شَعوبُ يدمَـر
انتم عباد الله حقا فاعـبدوا　　للدّين فهو بكم يعزّ ويجبر
واحموا حقيقتكم لحفظ ذماركم　　فرض عليـكم ليس عنه تاخر
غاروا على الاسلام حتى ترفعوا　　اعلامه فلـكم به ان تفخروا
لا تُـسمع الاجراس في اوطانـكم　　بدل النـداء ولا ينجّسْ منبر
وليُـسمعنَّ اليوم في ارجائكم　　قرع القوانس بالظُـبَى او تحذروا
فَلَـذاك اشجى من غناء مطرّب　　بمسامع القوم الذين به ضَروُا
لـكن يد الله القوية معـكمُ　　توليـكم أيْداً فلن تتقهقروا
ما ان يقـاويكم بهم من عسكر　　لو ان ملءَ الارض طرًّا عسـكر
قد قال في الذكر المفصَّل ربـكم　　حقـا علينـا نصرهم فتـذكروا
ما الله مخلف وعـده لعبـاده　　ان هم بعصمته اتّقوا واستنصروا
قد كان مولاكم وها هو لم يزل　　وَزَرًا لـكم ايانَ كنـتم تحذر
ولربمـا شرعوا الرماح عليـكم　　لكن على انفاذها لن يقدروا
لن يعمل البتـار الا ان يشاء　　الله ما شيءٌ سـواه مؤثر

والنار منهم ان يُرد اطفاءها   برد فلا تلظى ولا تتسعّر
واذا يشاء يثلّ عرشهم فلن   يستقدموا عنه ولن يستأخروا
غاروا على حُرَم مخدَّرة لكم   قد طالما أُحْصِنَّ عمن يعهر
ايقودهن اليوم علج فاجر   وسيوفكم بدمائهم لا تقطر
ولئن يكن نجسا ورجسا مسُّها   فبخوضها قد حلّ ان تتطهروا
الصبر محمود ولكن حين تنتهك المحارم لا أرى ان تصبروا
لا خير في عيش يقارف ذلة   حاشاكم ان تفشلوا او تدبروا
شهدَ الاله بانه مولاكم   ونصيركم فبحمده فاستظهروا
والله قد وعد المجاهد منكم   فتحاً مبينا في الكتاب فابشروا
ويبوّىء الشهداء خير مبوّأ   جنات عدن ملكها لا يغبر
الحرب بينكم سجال فاثبتوا   والنصر عقبى امركم فاستبشروا
في اهل بدر عبرة لكم ألا   ياقوم فليتذكر المتذكر
أبلُوا ليرضى ربكم عنكم فمن   أبلى فعند اللائميه يُعذَر
كم بين من يأتي القتال تطوّعا   ومسخر كرها عليه يُجبَر
يقتاده ويسوقه مولىً له   فظّ زنيم غاشم متغشمر
ويبيعه لو شاء للنخاس مع   ولدٍ له وبزوجه يتسرّر
لاعرض يمنعهم ولا كرم لهم   يثنيهم في الناس عن ان يفجروا
يتسرّعون الى الفواحش حيث مع   اهل المحامد فاتهم ان يُذكروا
وكذا الطَغام اذا عدتهم مِدحة   ودّوا بآية شهرة ان يُشهروا
سعدوا ولكن ربّ سعد ذابح   للفائزين به اذا لم يشكروا
ولعل نسرهم المدوّم واقع   فمن الهلال علاه ضوء يبهر
ان يفلح العاثون ما عاشوا ولا   العاثون ما رغدوا ولن يتيسّروا
أوَ لم يعوا ما جاءهم عمن طغى   من قبلهم بطراً وأنى دُمّروا
ام يعجزون الله اذ يُملي لهم   عن ان يغار لقومه أن يُنصروا
او ان يمدّهم بجند لا تُرى   وبمنشئات مُمخرٍ لا تُبحِر

او ان تحزّمهم وهم مرحون في … أمن رخيّ البال ريح صرصر
او يرسل الطير الابابيل التي … قد اهلكت امثالهم لا كثروا
ما كان عبّاد النعيم ليغلبوا … قوما على اياك نعبد يُحشر
من كان يُرضي الله خالص سعيه … في الناس فهو بكل خير يجدر
من لم يصخ اذنا لنصح وليّه … ركب الضلال ولم ينقذه المنذر
من ابطرته نعمة المولى عتا … عَسْفا وغشمرة يمين ويغدر
من لم تكن تقنيه قسمة رزقه … فاذا اشرأبّ الى الزيادة يخسر
من يتكل سفها على جند له … دون الاله يحِقْ به ما يحذر
من ظن ان يقوى بقوة باسه … وسلاحه وذويه فهو مغرَّر
من غالب القهّار عاد مخيّسا … مستضعفا وكلاً يُذلّ ويقهر
من سرّه في يومه كفرانه … وافاه في غده العذاب الاكبر
من كان يوماً راغبا في عاجل … عن آجل أودى به مايؤثر
من كان من بين الورى سلطانه … عبد المجيد فانه لمظفر
سلطاننا الاسمى الذي سعدت به … ايامنا وزهت فدته الاعصر
نشر العدالة فى البلاد فكلنا … مستأمن في ظله مستبشر
ولكلّ جيل في ممالكه يدٌ … منه وآلاء تعمّ وتغمر
ما ان عداهم عدله وامانه … سيان ان هم اعسروا او ايسروا
انّا اذا اتخذ العدى طاغوتهم … ربًّا لنأتمر الذي هو يأمر
لسنا نروم بغير طاعته الى … الرحمن من زلفى ولا نتخيّر
كلاّ ولا في غير خدمتنا له … عِرْض واخلاص لنا وتبرُّر
كفر المبايعُ غيره والمعتدى … بغيا وطغيانا عليه اكفر
من ذا يحاكيه عُلىً ومناقبا … ومن الذي فَضْلى حلاه ينكر
لو انه اقترح الوجود تحكّما … مازاد فيها غير ماننتظر
من جوهر الاخلاص صوّر ذاته … رب قدير كيف شاء يصور
ولاه امر الدين والدنيا معا … فهو الامام الحاكم المتأمر

وهو الذي بين الملوك مقامه ... الاعلى يكرّم هيبة ويوقر
وهو الذي بين العباد محبّب ... ومعظم ومبجّل ومعزر
يستدفعون الضر فيهم باسمه ... وعلى المنابر حمده المتكرر
ان قال لم يستثنَ مما قاله ... احد وان يفعله فهو مخيَّر
ليس الفرنج مشايعي اعدائه ... ماهم لهم حزب ولا هم معشر
افمن يكون على هدى من ربه ... كغويٍ استهواه جبتٌ منكر
ام من له الخلق الكريم يقاس م ... بالنكد اللئيم جبلّة وينظَّر
لم يستوي في العرف والامكان من ... يهب الجزيل ومن يشح ويصمر
ايهٍ امير المؤمنين ومن دعا ... ايه امير المؤمنين فقد سرُوا
سُدْ بالمعالي فائقا كل الورى ... مجدا وشانئك البغيض الابتر
وَسِعَت عوارفك العميمة سؤلنا ... الاقصى وما بالبال منا يخطر
حتى لقد كانت خواطرنا بما ... اقترحت وانت متفّل لاتضجر
نطق العيّ بفرض مدحك مفصحا ... حتى الجماد يكاد عنه يعبّر
ولقد أضاء الكون مجدك كله ... حتى استوى في ذا العمي والمبصر
نظر الطغاة اليك نظرة حاسد ... فتجرعوا مَضَضًا بها وتحسروا
ان يُجلبوا فالله ماحق جيشهم ... او يمكروا فلَمكرُ ربك اكبر
ان المُحال من المُحال اذا جرى ... بخلاف طيّته وحقٌ مقدر
ما كان جمعهم سوى كسف هَبَت ... والشمس ليست بالهباء تستّر
(١) ليست فَرُوق لغير عرشك وهي ما ... بقيت على الفرقان ليست تقفر
انت الذي بمديح وصفك تنجلي ... عنا الهموم وافقنا يتعطر
وتصحّ احلام الاماني في غد ... اللاّهي بها والدهر انكد اعسر
ما ان يفي نظم الآليء مدحةً ... لك باللهى من سحب كفك تنثر
لم يبقَ ماين الورى من ناطق ... الاّ وعن آلاء فضلك يخبر
حرس الاله جنابك الاعلى ولا ... زالت عبادك في حماه تخفر
وادام دولتك العلية ماسرى ... نجم وما زخرت كجودك ابحر

---

(١) لقب قسطنطينية

انشدت تاريخين هجريين في ختمي مدحك وهو حظي الاوفر

عبد المجيد الله أزكى ضده
سنة ١٢٧٠

سلطاننا خير مجد ينصر
سنة ١٢٧٠

القصيدة الحرفية في مدح باريس

اذي جنة في الارض ام هي باريس
ملائكة سكانها ام فرنسيس
وهل حور عين في منازها ترى
والا فكل حين تخطر بلقيس
وهل ذي نجوم ترجم الهم في الدجى
عن البال ان يخطر به ام نباريس
وهل زهرة الدنيا ترى في هوادج
تمر كبرق خاطف ام طواويس
نعم انها خلد النعيم وشاهدي
رياض وحوض دافق وفراديس
ونهر وعليون فيها كواعب
على سرر مرفوعة واعاريس
وفاكهة مع لحم طير ونضرة
وراح وريحان وروح ونرجيس
واعمدة تحبو السحائب دونها
كان لها فوق السما كين تاسيس
هنيئا لمن منها تبوأ منزلا
وطوبى لمن فيها له تاح تعريس
اذا شدة او كربة بك برحت
فحج اليها فهي للكرب تنفيس
فتونس منها وهي تونس غبطة

القصيدة الحرفية في ذمها

اذي عبقر في الارض ام هي باريس
زبانية سكانها ام فرنسيس
وهل ذي نساء في مواحلها ترى
والا فكل حين تخطر جاموس
وهل ذا شرار يجلب الهم في الدجى
الى البال ان تبصر به ام نباريس
وهل زفرة الدنيا ترى في هوادج
تمر كعير ظالع ام مطافيس
نعم انها ماوى الجحيم وشاهدي
شقيون في ساحاتها ومناحيس
وفسق وعليون فيها فواجر
على سرر مرصوعة وتناجيس
واكل من الزقوم يخبث طعمه
وشرب من الغسلين يسقيه ابليس
واعمدة تلقى الشياطين عندها
كان لها فوق الخبائث تاسيس
شقاء لمن منها تبوأ منزلا
وتعسا لمن فيها له تاح تعريس
اذا شدة او كربة بك برحت
بها فانأ عنها فهو للكرب تنفيس
وبرز عليها ان يفتك مبرز

فبين المقامين اتحاد وتجنيس
وان تكُ يوما قانطا من لُبانة
فرؤيتها اطلاب ما منه ميئوس
بها ما يقرّ العين من كل اربة
وما تشتهي نفس وما تالف النوس
وفي ذكر ما فيها تلذّ لذاذةً
تطيب بها عن غيرها وهو محسوس
هي المنهل المورود من كل ظامىء
وللزائريها الخير اجمع مبجوس
هي الامن من جور الخطوب فما على
عزيز بها ضيم يُحاذر او بوس
نعم هي من عين الزمان تميمة
فما امَّها ذو عسرة وغدا في سو
فما نعمة فيها تشان بحاسد
ولا صفو لذات يقانيه تسجيس
ولا بخس ذي حقّ من الناس حقه
فيا حسن دار حيث لا حقٌّ مبخوس
فلا ذأم فيها يستبين لعائب
سوى هادم اللذات ما دونه طُوس
عليها بهاء الملك والعز والعُلى
ومنها سخاء المجد والفخر مقبوس
الى مثلها يُنضى الرشيد مطيه
اذا كان يُلفَى مثلها وتجبي العيس
هو العيش فاغنم طيبه في ربوعها

فبين المقامين اتحاد وتجنيس
وان تك يوما طامعا في لُبانة
فرؤيتها ياس لما هو محدوس
بها ما يسوء العين من كل اربة
وما تجتوي نفس وما تكره النُّوس
وفي ذكر ما فيها يسوء اساءة
تفوق على ما خفته وهو محسوس
هي المنهل المسموم حتف لظامىء
وللزائريها الشر اجمع مبجوس
هي الخوف من كل الخطوب فما على
عزيز بها الا المخاطر والبؤس
نعم هي في عين الزمان قذًى فما
اتاها امرؤٌ الا ومنها غدا في سو
فما نعمة فيها خلت عن محسّد
ولا وطر الا وقاناه تسجيس
وتبخس ذا حق من الناس حقه
فيا قبحها دارا بها الحق مبخوس
فلا رَوح منها يستبين لناصب
سوى هادم اللذات ما دونه طوس
عليها ظلام الكفر والظلم والخنى
ومنها اُوار الفسق والفحش مقبوسُ
وعن مثلها ينضي الرشيد مطيه
اذا كان يُلفَى مثلها وتجبي العيس
هو العيش فاغنم طيبه في سوائها

فانك فيها ما اقمت لمرغوس

وانك منها لست يوما بواجد

بديلا ولو امسى وراك برجيس

وانك فيها ضارب كُرَةَ الاَمَسي

بمحجن بشر ليس يتلوه تعبيس

وانك منها مجتن ثمر المنى

فان بها اصل الفوائد مغروس

اذا رثّ ثوب العمر منك فانّ من

قشيب حِظاها رتّق العيش ملبوس

فبِتْ آمنا فيها وقم باكرا الى

مراتع لَهْوٍ لم تشبه وساويس

ولا ترغبن عنها الى غيرها تكن

كمن شاقه بعد السعادة انكيس

فدهرك فيها ما اقمت مسالم

وقدرك مرفوع وشملك محروس

فآنٍ بها ليلاً على عام غيرها

على فرض ان الليل اذ ذاك ادموس

ولا غرو ان تزداد في العمر حقبة

ففي الصفر للفرد العقيم تخاميس

لقد كنت اخشى الحَين في غير منشأي

فقدني بها بشرى اذا انا مرموس

وقد طالما علات نفسي برغدها

فبتّ ولي احلام خير وتغليس

فالفيتها يربو على الوصف حسنها

فما ثمّ اشباه لها ومقاييس

فانك فيها ما اقمت لمنحوس

وانك لاتلقي لها من مُشابه

برِجْس ولو امسى وراك برجيس

وانك فيها ضارب كرة المنى

بمحجن ياس تلوه الدهر تعبيس

وانك منها مجتن ثمر الاسى

فان بها اصل المحارم مغروس

اذا كان ثوب العز عندك معلما

فمن نغص في عيشها هو مطلوس

فبت صابرا فيها وقم باكرا الى

نعيم سواها لم تشبه وساويس

ولا ترغبن فيها ولو ليلة تكن

كمن شاقه بعد السعادة انكيس

فدهرك في دار سواها مسالم

وقدرك مرفوع وشملك محروس

فآنٍ بها ليلا على عمر بذي

على فرض ان الليل اذ ذاك ادموس

ولا غرو ان تزداد في العمر حقبة

ففي الصفر للفرد العقيم تخاميس

لقد كنت اخشى الحَين في غير منشأي

فياشقوتي فيها اذا انا مرموس

وقد طالما حذّرت نفسي فسادها

فبت ولي احلام سوء وكابوس

فالفيتها يربو على الوصف قبحها

فما ثمّ اشباه له ومقاييس

وفيها من الغرّ الكرام اعزّة
جحاجح ضرّابون يوم الوغى شوس

لقد فُطروا طبعاً على الودّ والوفا
جميعاً فما يعروهما عوض تلبيس

لئن سُبقوا سبق الوجود فانه
لَيسبقُ جسماً ظله وهو مدعوس

لهم في سماء العلم شمس براعة
وفي الادب الطامي العباب قواميس

فكم فيهم من عالم متقن له
لتطليس آثار المعارف تطريس

اذا اغطشت آفاق امر فانما
يجلّيه لفظ موجز منه مهموس

وكم فيهم من فاضل ذي استقامة
تقيم قوام الدهر اذ هو منكوس

وتمسكه ان لا يجور كانما
تُعدّل في كفتا يديه قساطيس

وربّ خطيب لفظة فوق منبر
يبين ولو بُلّغته وهو معكوس

يشفّ خفي الغيب عما يقوله
فيبصره من طرفه بعد مطموس

وكم فيهم من خيّر صالح له
انا الليل تسبيح طويل وتقديس

وكم فاتح منهم وما بارح الحمى
كتائبه اقلامه والقراطيس

وكم بينهم من ليث حرب اذا سطا

وفيها من القوم اللئام ثعالب
ولكنهم ان يؤدّبوا اسد شوس

لقد فطروا طبعاً على الغدر والجفا
جميعاً فلا يغررك في ذاك تلبيس

لئن سبقوا سبق الوجود فانه
ليسبق جسماً ظله وهو مدعوس

لهم في بحور الشك خوض وطالما
تغشتهم منه ضلالا قواميس

فكم فيهم من مدّع صَلِف له
لتطريس آثار المعارف تطليس

اذا ما انجلت آفاق امر فانه
ليخفيه لفظ موجز منه مهموس

وكم فيهم من فاضل من فضوله آعٍ
تدال قوام الدهر احدب منكوس

يحاول لؤماً ان يميل به فلا
تعدّل في كفتا يديه قساطيس

وربّ عييّ لفظة فوق منبر
يسوء ولو بلّغته وهو معكوس

يشفّ خفيّ العيب عما يقوله
فيبصره من ظرفه بعدُ مطموس

وكم فيهم من فاسق عاهر له
انا الليل تجديف طويل وتنجيس

وكم طامع في الملك منهم سفاهة
كتائبه اقلامه والقراطيس

وكم من طفيليّ لكل وليمة

جري له فيها احتناك وتضريس
حمام اذا هيجوا حياة اذا اتقوا
اسود اذا صالوا جبابرة هيس
اذا سمحوا لانوا وان حميوا قسوا
ويربون فضلاً ان يغيرهم قيسوا
اولو همة دانت لها همم الورى
وفخرهم في ذاك كالدهر قدموس
بشاشتهم للضيف خير من القرى
وما لقراهم لو تاخر تبئيس
واكرامهم مثوى الغريب سجية
فيغدوا وقد اغذاه اهل وتانيس
مديحهم يشدو به كل رائح
وغاد ويرويه رئيس ومرؤوس
لقد اكرموا هذا اللسان واهله
فما زال يحظى عندهم وهو مدروس
وقد الفوا فيه تآليف جمة
وجاءت لهم فيه شيوخ وتدريس
يعز الفتى بالمال عند سواهم
وعندهم تغنيك عنه الكراريس
فقل للمباريهم تحدوا لغيرهم
فان مجاراة المجلين تهويس
شعارهم حرية واخوة
وتسوية كل بذلك ناموس
ولا فرق بين الدون والدون في القضا
وارئيسهم في اليسر والرفه اريس

جري له فيها احتناك وتضريس
حمام اذا زيروا حياة اذا اجتدوا
اسود اذا لاسوا جبابرة هيس
اذا سألوا لانوا وان سئلوا قسوا
ويربون شحا ان يغيرهم قيسوا
اولو جشع من دونه جشع الورى
وصيتهم في ذاك كالدهر قدموس
بشاشتهم للضيف في زعمهم قرى
وفي وعدهم مين ومطل وتبئيس
واكرامهم مثوى الغريب سجية
اذا كان ذا زوج وبالزوج تانيس
هجاؤهم يشدو به كل رائح
وغاد ويرويه رئيس ومرؤوس
لقد جهلوا هذا اللسان واهله
فما زال يخفى عنهم وهو مدروس
وقد لفقوا فيه اساطير جمة
وشطت لهم فيه شيوخ وتدريس
يعز الفتى بالعلم عند سواهم
وعندهم ليست تفيد الكراريس
فقل لذوي الدعوى المبارين منهم
لعمري مجاراة المجلين تهويس
شعارهم حرية واخوة
وتسوية لكن عدا ذاك ناموس
فلا فرق بين الدون والدون في القضا
وارئيسهم في الامر والنهي اريس

ترى كلَّ فرد منهم كيّسا له
مشاركة في العلم والفضل ما كيسوا

وان لهم من سيماء وجوههم
دلائل ان الخير منهم مانوس

وان لهم رزقا كريما رضوا به
فما هم مسفّ مارب فيه تدنيس

فتحسب كلًّا حلّ صرحا ممردا
تحيّته فيه سلام وتقليس

فما نظرت عيناى فيهم صاغرا
ولا من عن الخيرات والرشد مرجوس

اراني سعيدا مخبرا في جوارهم
ومن لم يزر هذا الحمى فهو منحوس

عفوت عن الايام سالف ذنبها
فقد شفعت فيها وفي الناس باريس

ترى كل فرد عاتيا طاغيا له
مشاركة في الحكم مع انهم خيسوا

وان لهم من سيماء وجوههم
دلائل منهم ان الشرّ مانوس

وان لهم رزقا حراما رضوا به
فشانهم اسفاف ما فيه تدنيس

فتحسب كلًّا حلّ ماخور ريبة
تحيته فيها سلام وتلقيس

فما نظرت عيناى فيهم فاضلا
ولا من عن الآثام والرجس مرجوس

اراني كئيبا نادما في جوارهم
ومن زار يوما ارضهم فهو منحوس

وجدت على الايام عتبا بعيشها
فقد اخبثته والبرية باريس

وقد كنت في مدحي لها قبلُ مخطئا
فهذا له كفارة وهو مركوس

القصيدة التي امتدح بها الجناب المكرم الامير عبد القادر بن محي الدين المشهور بالعلم والجهاد

مادام شخصك غائبا عن ناظري ... ليس السرور بخاطر في خاطري
يامن على قرب المزار وبعده ... حبّي له والشوق ملء سرائري
ان كنت لي يوما فديتك وافيا ... ماضرني ان كان غيرك غادري
فاذا رضيت فكلّ سخط هيّنٌ ... واذا وصلت فلم ابال بهاجر
واذا بقربك كنت يوما نافعي ... لم أخشَ شيئاً بعد ذلك ضائري
يافاتني بدلاله وشماله ... وكماله وجماله ذا الزاهر
عقلي سلبت ومهجتي فارددهما ... لاجيد مدح شمائل لك باهري
وليعلم العذّال اني صادق ... في وصف حسن حلاك وصفةَ شاعر
يامحرقي شوقا بفاتر جفنه ... أرأيت قبلي محرَقا بالفاتر
يابدر تمّ لاح قلبي حبّه ... ياشمس حسن قد تملّك سائري
ياظبي انس شاق عيني شكله ... لكن له طبع الغزال النافر
هلاّ رثيت لحالتي ورفقت بي ... ووعدتني عدةً ولو في الظاهر
كلَم الحشا مني وعيدك قسوةً ... قبل الفراق بان تكون معاسري
وفطرت قلبي بالجفا عمداً فلا ... عجب اذا ماقلت انك فاطري
افهكذا فعل الحبيب بحبّه ... ام صرت بعدي عاذلي لاعاذري
لو كنت تدري مالقيت من النوى ... لرحمتني ووددت انك زائري
مذ غبتُ عنك ارتدّ عن طرفي الكرى ... من بعد ماهدى ارتدادَ الكافر
وازداد سقمي واستثيرت لوعتي ... وبدا بحبّك ماتكن ضمائري
اني وحق هواك غاية مطلبي ... وسنا محيّاك الصبيح الناضر

من يوم لحتَ لناظري ما لاقني ... شيءٌ ولم يملأ جمال الناظري
ما كان حسن سواك يوما شائقي ... كلا ولا لحظ لغيرك ساحري
أهوى لاجلك من حكاك بشكله ... لا شكله اذ ذاك دون النادر
كيف اصطباري اليوم والاجل انقضي ... وابيت ارضاي بطيف زائر
ويهجني اني اراه ساعة ... قبل الممات معانقي ومسامري
هبه اتى فلقد يراني ساهرا ... والطيف ليس براقد مع ساهر
انسيت عهدي حيث ملت مع الهوى ... ولقد عهدتك ماذكرتك ذاكري
اما انا فكما علمت على النوى ... والقرب صبّ فيك غير مغاير
شيآن لست اطيق صبرا عنهما ... ذكري هواك ومدح عبد القادر
هو ذلك الشهم الذي شهدت له ... كل البرية بالفعال الفاخر
ومناقب محمودة وشمائل ... مرضية ومحامد ومآثر
هو ذلك المولى الممدَّح سعيه ... عند الاله وعند كل مفاخر
هو ذلك الفرد الذي افعاله ... أُمدوحة البادي وفخر الحاضر
وهو المهيب لدى الملوك نزاهة ... والنازح الصيت الكريم الطاهر
من معشر العرب العريق نجارهم ... اهل المكارم كابرا عن كابر
العاملين بمحكم التنزيل في ... التحريم والتحليل حزب الحاشر
الناحرين اذا دَعوا واذ دُعوا ... بالبراز فنحرهم للناحر
المؤثرين على خصاصتهم وقد ... نظروا الى الدنيا كشيء غابر
ولَرُبَّ قوم يحسبون خلاقهم ... فيها وغابرَ لهوها كالغابر
ولديهم ردّ التحية مِنّة ... كبرى بها احياء عظم ناخر
يُحيي الليالي بالدعاء تهجدا ... فيميت في الاعداء أي جماهر
ويروع افئدة الرجال لقاؤه ... حتى يخوروا عن نداء الناصر
في قلب كل محنك من رُعبه ... ماعنه يحجم كل ليث زائر
وبكل حرف من بليغ كلامه ... حرف يفلّهم كحرف الباتر
الفضل شيمته وسيمته التقى ... لله واسترباح اجر الصابر

يولى الندى قبل السؤال وبشره للزائريه مؤذن يبشائر
يغنيهم عن ان يمتوا عنده بضرورة وَخَنّتهم وأواصر
جهد الزمانَ غلاؤه فكبا ولم يبرح لديه وفيه سوْرة آفر
والقد يكون النسر يوما واقعا ويعود بعدُ الى مطير الطائر
فالله ينصر من يغار لدينه والله يخذل كل عاتٍ فاجر
والله عز يداول الايام ما بين العباد لسابق والقاصر
سكن الامير وطارفي الدنيا اسمه وروى المعالي عنه كل معاصر
فالعجم بين موقر ومبجل والعرب بين مُفاخر ومنافر
يا ناصر الدين العزيز وحزبه يا خير صبّار واعظم شاكر
يا خير ناهٍ عن تعاطي مُنكر وبخطة المعروف افضل آمر
لاتخش من بأس فربك قاهر بدعائك الميمون جيش الجائر
كن كيف شئت فان اجرك ثابت في اللوح وهو اجل ذخر الذاخر
لك حيث شئت عناية صمدية ترعى حماك ونصر ربٍّ قادر
فاذا مدنت فانت اعظم خادر واذا ظعنت فانت اكرم سافر



القصيدة التي امتدح بها الجناب المكرم النجيب الحسيب صبحي بيك في اسلامبول

اری الدهر صافاني ومال الى الصلح — ومن بعد حرماني اتاني بالنُجح
واصغى اليَّ الجد حين دعوته — ولاحت تباشير المنى لي من صُبحي
اتاني على الابحار والبرّ برّه — باسرع من شكوى احتياجي الى سمح
فلم تكُ الا دعوة فاجابني — اجابة صنو وهو لي سيدٌ لحِ
ولو لم يُجزني من زماني بفضله — لاصبحت في بؤس وامسيت في برح
وحنت باشجاء التمني فان لي — اجَرحا مُمِضّاً دونه ألم الجرح
فلي في نهار جهد سبح وحرقة — وفي ليالي حبس وحُرف عن السبح
اذا كنت لا اشكو اليه فمن عسى — يكون اليه مشتكي الضرّ والتَرح
ومن ذا الذي تلقاه في الناس مسجحا — سواه اذا اضطُرّ المضيم الى السجح
خلائق لا يوفي الثناء بوصفها — ولو كنت حسّان البلاغة والفصح
اغار على اوصافه الغر انها — تشاركها اوصاف آخر في المدح
هداني اليه جدّي وقد كنت غاويا — مع الشعراء البائرين ذوى الكسح
وكان زماني مازحا فمزحته — فلما تعاطى الجدّ ملت عن المزح
فصار لشعري رونق وطلاوة — وحُقّ له الاملاء في ملأ فصح
وقد كان في سوق الاعاجم كاسدا — مقالي واطرائي عليهم بلا ربح
فكم بت أُنفي خاطري لمديحهم — فقمت وبي رَنح واعييت كالطلح
ولم يغن عني ما مدحتهم به — فتيلا وما ازدادوا سوى البخل والشح
ولم ينقدوا كفّارة الكذب الذي — عليّ باعلى اللوح ماهو بالمَمحي
ولو انني راسين(١) عصري فيهم — وملطن(٢) ما استنقيت منهم سوى النشح

---

(١) اعظم شعراء الفرنساوية

(٢) اعظم شعراء الانكليز

فها انا ذو ربح ولست بمفتر ثناء واطراء وكنت بها أُلحى
فخل يازماني بين فوزي ومطلبي ان اسطعت واستعد الخطوب على فدحى
فلي باسمه استفتاح كلّ قضية وعناه اقليد السعادة والفتح
ألا فليزرني اليوم من كان مزريا بشأني بجد كوخي اعزّ من الصرح
علا بمعاليه مقامي ورتبتي وصرت الى اقصى الاماني ذا طمح
اذا ابصرت عيناي من هو مخنق كدأبي من قبل انتخات له نضحي
وقلت له ابشر بما انت طالبٌ فمن يدع يوما باسمه فاز بالسنح
هو الماجد النآي مدى الدهر صيته قريبٌ من الداعي على القرب والنزح
فليس على بعد يؤخو رفده وليس على قرب بعالٍ من المنح
هو الحازم النحرير طلاّع انجد كريم نزيه النفس ذو خلق سجح
مليك اجلّ الخلق سامي الذرى الذي مناقبه الغرّاء تغني عن الشرح
اميري ومولاي الكريم وسيدي ومن هو بعد الله لي سند الرُكح
تظنّيت فيك الخير والفضل كلّه فحققت ظني فهو دوني في صح
اتانيَ وعدٌ عنك انك منزلي لديك كما ازلت اهلي في ندح
ولا ريب عندي ان وعدك منجز واني لااحتاج معه الى(١) فسح
فهاك مني المدح خدمة مخلص فجد بالرضى عنه فديتك والصفح
ودم كهف عزّ للذليل وملجأ لقاصده ما انجاب ليل من الصبح

(١) شبه الجواز يقال فسح له الامير في السفر كتب له الفسح



وكتب الى الفاضل الاديب الخوري غبرائيل جباره ارسلها اليه من باريس الى مرسيليه وهو اول شعر مدح بها قسيساً

قف بالطلول ان استطعت قليلا ... واسأل عن الركب المغذّ رحيلا
ساروا وابقوا وحشة لك دونها ... غصص المنون وحسرة ونحولا
طللٌ عهدت به الخلاعة والصبي ... وشربت فيه سلسلا مشمولا
وجررت اذيالي وتهت على المُنى ... واقتدت منها ما استعزّ ذليلا
وخلعت من نعم ولذّات على ... اهل الهوى ما كنت منه ملولا
واحسرتاه متى يعود العيش في ... عرصاته والذّ فيه مقيلا
لم يبقَ الاّ ذكر افراحي به ... ومضى كأمسِ نعيمُه مبتولا
ان غيّرت آثاره الايام او ... ان عطلت اعلامه تعطيلا
فبخاطري تذكاره متجددٌ ... ولقد يظلّ بانسهم مأهولا
من بعد حسادي عليه الريح قد ... حامت لديه بكرة واصيلا
تبدي الحنين به وانّة ثاكل ... فازيد فيه زفرة وعويلا
تسقي تراب فنائه وكانما ... تهفو به لتحله الاكليلا
عجبا وقد بلّته مني عبرة ... ان صارفوق عنانها محمولا
ام قد درت نكب الرياح بانه ... أولى بان يثوي السماء مقيلا
ام مثل عيني اعين الجوزاء قد ... رمدت فتستشفي به تكحيلا
ماكدت ادري رسمه لولا شذا ... عرف اليه كان منه دليلا
نؤى الحبائب للمحبّ اعز من ... صرح لديه لايصيب خليلا
وسويعة مع من تحب اجل من ... دهر به تلقى اخاك عذولا
قلبي السمندل يصطلي نارالهوى ... وسلوّه العنقاء عز وصولا

لله كم منه يعذّب عاشق ولكم به يمسى البريء قتيلا
لو رقَّ من عشقٍ كلامٌ رتّل القرّاءُ قولي في الدجى ترتيلا
او لو تداوى الناس منه بالبكا، لشفيتُ كلَّ شجٍ يبيت عليلا
حاولت قلب القلب عن علل الهوى فاجاب انك قد ضللت سبيلا
مني ابتداء الشوق كان وختمه بي لست عن دابي احول حؤولا
قد قانني المولى عليه كما على حب المكارم قان غبرائيلا
هو ذلك الحبر المهذّب خلقه وعليه يبدو خَلقه دِرآيلى
الطيّب الاصل الكريم الفعل لن تلقاه الاّ مرشدا ومنيلا
يهب الجزيل وعنده كالجزل ما يحبوه جزلا غيره منفولا
المرتدي ثوب العفاف مطرّزا بتقًى يقي التحريم والتحليلا
طلق المحيا واللسان طلاقة تدع الاسى من قيده محلولا
يستدرك الاشكال فصل خطابه وبعلمه يستخرج المجهولا
فلكل ريب قضية ما زال مسئولا وللراجي ندًى مامولا
صافي السريرة حيث آيُ وفائه لن تقبل التحريف والتبديلا
ما ان يزال اذا دنا واذا نأى برًّا نصوحا واصلا مسئولا
كانت مشورته هدى وسعادة للمستشير ونصحه منخولا
ودعاؤه في الضرّ اعظم عاصم لك فاطمئنّ به وكن مكفولا
ليس المنيخ ببابه قَنِطا ولا من يستغيث بجاهه مخذولا
مولى تحرّى الزهد في الدنيا وقد دانت له لو شاءها تبتيلا
فنجاره مازال ملجأ لاجيء يلقى الاماني عنده والسولا
جبر الخواطر من جبارة يرتجي وبفرعه كل الفخار انيلا
سمح الزمانَ بقربه لي سَبَّةً ما كان احلاها وعاد بخيلا
حتى ارى قِصَر الايادي بعده ومن استطال بفضله مفضولا
واقد علمت اوانَ كان الطرف مه هوورا عليه ذلك التأويلا
مارست دهري واختبرت صروفه فاذا به لا يستفيق غفولا

هلاّ اتاني سائلا من قبل ان يقضي الفراق وكان فيه عجولا
هل من ممارٍ ان شخصا واحدا يحوي الفضائل كلها تكميلا
ام منكر ان ليس يذكر سيدٌ مع ذكره الا وكان ضئيلا
ولئن افض في ذكر الاء له فاضت علي اُولٌ عنه طويلا
ادب واحسان وبشر دائم وسماحة تستغرق التمثيلا
ماكنت في مدحي له بمبالغ ماقلت الا بعض ماقد قيلا
ولو استطعت لكنت انظم كل دريّ له مدحا او التنزيلا
من حاول الاسهاب فيه فانما هو موقد وقت الضحى قنديلا
بشرى لمن يحظى بقرب جنابه ولمن يقبّل ذيله تقبيلا
ولمن له يهدى التحية والثنا والحمد والتعظيم والتبجيلا



القصيدة القمارية

جمعتنا الشيوخ مابين اص وكولّ وفرشخ هو شقصي
في مقام جيرانه لا يبيحو ن هتاف المغلوب او بعض نبص
بعضنا شاطر وآخر غِرّ خصميّ اثنين غابن ثم لصّ
لم اقم قطّ غائبا غير ليل بات فيه للاص ظفري كشص
ظل سعدي يقوى على النحس حتى خانني في القمار شيخ ابن بعص
وشريكي له نشاط الى قنص ملوك يديهما ايّ قنص
فاتى ساحر المزوق حيرا ن عليه تاليفه متعصّ
وبه من سماته مايحاكي بعضه خاتما وبعض كفصّ
بلغ اللعب منه ما يبلغ الجِدّ والهاه عن مداراة خِلص

فغدا بالكلام يقرص والاصبع — مَن جاد رميه كل قرص
لم يبت ليلة واصبح يشكو — من دُوار امضّه مع مغص
جاره ذو الزلّات وهو انا لم — يبدُ منه في الرمى خطة نقص
بعد ستّ واربعين ولم يلفه عن بندة احتجاج بنصّ
ما عليه ان كان يَغلب او يُغلَب او لزّه الشريك بشرص
فكره في اختلاق اكذوبة عن — ذي علاء ما ان يجود بحِص
يسهر الليل مطرقا فاذا ما — اصبح الصبح خار من فرط خمص
لو اطاق المسير من هذه الار — ض لما حل غير بلدة حمص
ربما ينفع التغفل يوما — ويضر الانسان زائد حرص
ليس يدري ما اللعب الا بشعر — عنه ما عاش ليس بالمتقصّي
وبشعر ابن شاربيه اذا حا — ول شعراء نحى عليها بنمص
واذا سامه امرؤ سهَرَ الليل — اتاها من غيظه بالمقصّ
لم يدعها تطول حتى تحاكي — نصّة الخود ذات ضفر وعقص
عن قريب يخضّب البيض منها — بعدادٍ او زعفران وحُصّ
ليس ينفكّ ذا ملال وشكوى — وعلى كل نعمة ذا غمص
وشريك له تربّع في الدست كشيخ مسائل العلم يُحصي
او كمن ينقد الدراهم للسلطان من شأنه تمام التقصّي
ان يجدْ هفوة يصح ويولول — ويُقم للجدال قيّم لخص
يبذل الاصّ بذله المال لكن — ثمّ فرق في بذل هذين اَصّي اصلي
حيث في الاول اضطراراً وفي الثا — ني اختياراً لغير كسب وربص
اخذ العلم عن شيوخ مشاهير ذوى حكمة ومَخص ولخص
لا كبعض الغواة خرّيج بصّا — قين كلّ اعمالهم عن خَرْص
ليس يدرى سوى الخديعة والمكر وما يجمُل الخداع بشخص
يفرز الغالبات في اللعب لكن — يتعاطى جدّ الامور بخبص
ليس في حارة اليهود سواه — من يجيز الحرام والحقّ يعصى

قد حكاهم في اكله ذات ظِلْف ... فوق ساق وفي الدهاء الاخصّ
ان يكن غالبا تجده طروبا ... ضاحكا ذا غمز وقرص ورقص
واذا فاز خصمه ودّ لو كلّ ... خبير سواه باللعب محصي
ولذات الثلث يعطو بكلتا ... راحتيه وللثماني بقبص
فاغراً فاه كالذى لاح ماءٌ ... ثم لم يرو منه غلاّ بمصّ
ما لعمري دهاؤك اليوم مُنجٍ ... لك ان كدت شيخنا او محصّي
قد حباك المزوّقات ولكن ... ليس يعفيك من نكال منغصّ
انّ بعض العطاء حلو شهيّ ... ثم من دونه مرارة عفص
يا لها زمرةً قماريّة ما ... عابها جهبذ ولا حبر قصّ
غير كون اجتماعها خارجا عن ... غرفتي فالحرام فيها بقفص
شكلها شكل بيضة ولهذا ... فالمعاصي من جوفها ذات فقص
مَن بناها اوصى بهذا وشأني ... كل حين امضاء عهد الموصي



الغرفيات

انا الولي على كل المفاليس وغرفتي ذي مزار للمناحيس
يأتي بهم زُحَل الفوّاد مدّتها وثمّ تصرعهم ريح الكراريس
ومنها لايدخلنّ مقامي ذو حجى ابدا فانما هو منتاب المآفيك
يلقون فيه اكاذيب المديح على زمّارة او على نذل من النّوْك
ومنها ياطالعا درجات قدرها مئة اليّ ماذا ترجّي بعد ذا الدرج
ان كنت من حركات طالبا فرجا فانني بسكون طالب الفرج
ومنها مازارني الاّ خليع ماجن فدع الحياء اذا حضرت حصيري
انّ الحياء اخو النفاق وما صفت دون المجون سريرة لعشير
ومنها يازائري رأسك احفظ من ضرب زيد وعمرو
فما بكسرى هذا يصاب جابر كسر
ومنها ايها الزائري لفائدة لا ترم المستحيل ماذاك عندي
راح علمي في طلب الجدّ والجدّ شرود فضاع علمي وجدّي
ومنها للناس نار بلا دخان ولي دخان بغير نار
فها انا اليوم منه قار ضيفي وفيه ابيت قارى
ومنها ان للصالحين معجزة ان يجعلوا ان شاؤا الضرير بصيرا
عكسُ ذا اليومَ معجزاتُ دخاني انه يجعل البصير ضريرا
ومنها تجود عليّ زوارى ولكن اكافئهم بسواء وهو شاني
تُثقِلُ نعالهم لي ترب كحل فاكحلهم بشيء من دخاني
ومنها نعم لي غرفة عليا ولكن باسفل سافلين هبوط نجمي
فكيف اطيق اصعد مرتقاها واحمل حمل اشجاني وهمي
ومنها من يكن مثلي رفيع الدرجات فهو اولى بمفاعيل السّراة

من معاطاة فضول الشعر في فاعلات فاعلات فاعلات

ومنها كل زوّاري ذكور ليس فيهم من اناث
افما في الكون من انثى ولاجنس الخناث

ومنها قصرت عن الورى وامنت منهم مَسَبَّة غدْرا
فلا عجب اذا ماقلت صارت غرفتي قصرا

ومنها اذا زارني مُلوِ نظيري امتنـه وان يك ذو جَدّ حذرتُ محاله
فاني ادري بالمناحيس كلهم وما فيهم مَـن اجهل اليوم حاله

ومنها من أوى الى بيت مثل بيتي الحرج
ضاق صدره سدما وانزوى مع الهمج

ومنها ولي داخل البيت جثة قطّ وخارجه صيت فيل عظيم
وقد كنت احسب ان بالعظام تكون العظام واهل العلوم

ومنها تعالوا وافقهوا عني ثلثا تعلمكم مراعاة النظير
خلاقي ثم جسمي ثم بيتي صغير في صغير في صغير

ومنها امسى بيتي قبراحرجاً لكن زواري احياء
مع اني لست ارى فيهم حيًا لى منه إحياء

ومنها اذا عصفت ريح وثارت زوابع وهدّت رعود والغيوم مواطر
ومادت زوايا غرفتي وتزلزلت علمت بان عندي يشرّف زائر

ومنها ارفعوا لى حاجاتكم فانا اليو مَ رفيع المقام والدرجات
ان يكن مُفلسون فليستعيروا مُدْيتى لانتحارهم او دَواتى

ومنها يقولون انى لضنك وجاري قدرك شعري وصار ركيًا
واجدر بشيء اذا ماتبعَّث من ضيق ان يكون قويا

ومنها مقامي بذي الغرفة لحرمان ذي الحرفة
فمن زارني فيها فلا يُرجونَ ترفه

ومنها اصبحتِ في غرفتي رهن الهموم فما يعتادني غير اشجاني واوطاري
اري لكل امرء انثى تؤانسه وليس عندى من انثى سوى النار

ومنها الا لا يطمعن احد لـكوني صاحب الغرفه
بانّ لديّ مادبة له من فيضها غرفه

ومنها حقّ المزور على الزوار انهم يؤمنون له في الصدق والـكذب
وما عليه لهم حقّ ولو جلبـوا اليه من سبأ وسقا من الذهب

ومنها ولي حرفتان فلا احذر البطالة عندى ان ترسخا
اصوغ القوافي في ليالي وفي الصبح استقبل المطبخا

ومنها طبخ المحاشي رائج في عصرنا لكنما طبخ القوافي كاسد
من اجل ذلك صرت طباخا فما انا شاعر فالشعر شيء فاسد

ومنها حوت غرفي كتبي ورزقي كلـه فبرنطي فيها عزاء وسلوان
اذا غبت عنها خلتني افقر الورى وان جئتها أوهمت اني سلطان

ومنها يفوح من حجرتي عرف الشواء على عرف القريض ومعه عرف ميـان
فمن يكن جائعا ينعشه اولها ومن يكن كاذبا ينعش من الثاني

ومنها ارى في الحلم اني ساقط من مهدم طاقي في مثل غار
فاصبح في الفراش ولا قوى لى فلست الى المعبـر ذا اضطرار

ومنها بيني وبين دخاني الفة ثبتت ان نمت نام والا فهو لم ينم
وان يزرني امرؤ غطّى على بصري اذ عنده رؤية الزوّار كالسقم

ومنها لي غرفة ملأى من الكذب الذى انفقته في مدح كل بخيل
لم يبق فيها من محلٍّ فارغ للزائريّ ولا مقيـل خليـل

ومنها قالوا نزورك حيث كنت خليلنا فاجبتهـم لا ريب فيه زور
قد محّص العرفان عن اخلاقكم وخـلاقكم فلكم بذا التعزير

ومنها اقول لزائريّ قفوا قليلا الى ان البس الثوب القشيبا
فاني في الخليع ارى خليما وفي لبس القشيب أرى اديبا

ومنها لبابي صريفٌ حين يفتح هائل يقول لزوّاري دعوني مغلقا
فهذه عـدوى كفكم فيّ قدسرت ولم يعـدكم داب افتتاحي مطلقا

ومنها كانت مقاما للكواعب غرفتي والآن صارت معدن التشبيب

ما زال فيها من عبير العشق ما ‏ هاج المحبّ الى عناق حبيب

ومنها يراني الناس في كرح حقير ‏ فيحتقرون منزلي احتقارا

فهل ياقوم عندكم المعالي ‏ علوّ مباءة تحوي حمارا

ومنها من زارني ورأى مكاني ضيقا ‏ فلبرّه صدري يكون رحيبا

اهلا به للنار والاصلاء مع ‏ كسف الدخان ونعم ذاك نصيبا

ومنها طوّقت بابي بابيات منمقة ‏ لمّا بدا عُطلا من خير زوارى

فصار كنز علوم غير ذي رصد ‏ تنقير اظفاره في نقر اظفار

ومنها الا ياداخلين اليّ مهلا ‏ لاسالكم سؤالا عن مزارى

اأعجبكم له شكل فجئتم ‏ لتبنوا مثله دار القمار

ومنها نعمَ المهندس مَن بنى ‏ كوخي باشكال وهندس

هو كالمثلث والمربّع ‏ والمخمس والمسدس

ومنها من جاءني تعبا وابصر سدّتي ‏ نسى الذى قاساه من اتعابه

فالناس تعرف من تزور اذا هم ‏ نظروا ولو لمحا الى اعتابه

ومنها لا يطلعنّ اليّ اليوم مشئوم ‏ فطالعي بضروب الشؤم موسوم

ومن يكن واحدا مثلي فليس له ‏ لطالعين احتياج قاله البوم

ومنها يحسدني الناس على غرفتي ‏ لشبهها اعينهم ضيقا

مع انها تحوى جهازا له ‏ طول وعرض بلغا الشيقا

ومنها قرَونتُ المصر بيتا ثم بيتا ‏ فلم ارَ مثل مجلسي الشريف

يرد الشمس إنْ تدخُله كبرا ‏ لرؤيته لها فوق الكنيف

ومنها ولي في غرفتي ادوات طبخ ‏ على مقدار اسناني جميعا

وان يُكسر من الادوات شي ‏ اصاب الكسر اسناني سريعا

ومنها ليسَ بالرفس فتح بابي ولا بالقرع ‏ فاعلم لكن بنقر خفيف

فهو من جوهر الزجاج لطيف ‏ لا يستنى الا لكل لطيف

ومنها مقامي اوّل في القدر لكن ‏ اتى في الصف عن خطأ اخيرا

فلا تلووا على شيء سواه ‏ اذا جئتم اليه ولو كبيرا

ومنها اذا صعدت في درجات كوخي وجاوزت الاخيرة وهي اعسر
يخيل لي باني طالع كي اؤذن صارخا الله اكبر

ومنها لايراني الناس في غرفتي لا ارى من غرفتي الناسا
ربنا يعلم من لذّ من بيننا البين ومن قاسى

ومنها سمّوا على منزلي قبل الدخول ولا تستعجلوا بعد فتح الباب واحتشموا
فانه حرم ذو حرمة ولئن لم يلف لي حرمة فيه ولاحرم

ومنها ان قلت سمّوا على مقامي فلست اعني سمّا يميته
وانما القصد ان تقولوا تبارك الله عز صيته

ومنها لا تنظرنّ ملاوصا يازائري من ثقب مفتاحي الى اعراضي
كالعرض لي عرضي ومن ينظر الى الاعراض لم يامن من الاعراض

ومنها بشرى لمن ينظر المفتاح في بابي دليل اني موجود باثوابي
اولا فاني في فرشي اغطط او اني خرجت وامن الله اشعى بي

ومنها انا ساكن في غرفتي متحرك لزلازل العجلات تجرى تحتها
لكن بحمد الله ليس بواطئ من فوق راسي من يحاول نحتها

ومنها الى الله اشكوا ما ارى تحت طاقتي امورا غدا تكليفها فوق طاقتي
ارى كل يوم الف ماش مخاصرا لانني على اني مخاصر فاقتي

ومنها لى غرفة ما شانها شي سوى ان ليس تجرى تحتها الانهار
وغنيت عن هذا بما يجري من العجلات تحسد من بها الاقمار

ومنها عجبت لكم ياقوم مع ضعف دينكم وشدة برد كيف لم تعبدوا النارا
كاني بكم تلهون عنها بحرّ من تذيقكم في حبها النار والعارا

ومنها شرط الزيارة من بعد الطعام على حكم المزور وان لا يمنع الشغلا
ومن يزرني صباحا فهو في خطر ان لا اقول له اهلا ولا سهلا

ومنها راوا دخان قميني صاعدا فجري بالماء قوم ليطفوا سورة اللهب
فقال بعض اقنين انت قلت نعم اقين شعرا وعندي معمل الكذب

الفراقيات

خليليّ لا تستنكرا عائل الوجد   اذا كنتما ممن دري لائع البعد

ولا تعذلانى في الغرام فانني   على غير ما اهوى غريم له وحدي

ومن ذا الذي يرضى البلاء لنفسه   ونزكو له حال مع الحزن والسهد

وهل ينعمن عيشا مكابدُ وحشةٍ   مشتت شمل ضائع السعى والقصد

نأى سكنى عني وعوّضت عنهم   بجيرة مقت ليس قربهم يجدي

كأنّ زمانى شاء في كل حالة   يرانى فردا يا الشانى من فرد

فاضي نعيمي لم يكن من مضارعٍ   له حيث هم في الحسن جلوا عن الندّ

فماذا دهانى بعد حظٍّ غنمته   وقد كنت في عيش بقربهم رغد

وماذا على الايام لو كان طولها   له لا سواد من مطالعها يُعدي

افي الناس مثلي في مقامٍ فؤادُهُ   وفي غيره جُثمانه واجدَ الفقد

وغيري اراه فاقدَ الوجد وهو في   نعيمٍ له جدّ مُمين بلا جدّ

وهل في سبيل الله راحم لوعة   تعاودنى لا بل غرتني كالجِلد

وهل مبلغ عني النسيم تحية   اليهم وما بى من غرام لهم يبدي

اهيم بما كانت تراه احبّتي   وان يك من بعض الجماد او الضد

والهج بالقول الذي لهجوا به   فتذكاره ذكرى وايراده وِردي

يحق لي التشبيب ما دمت شاعرا   بهم لا بهند او بميّة اَو دعد

ولولم يكن لى مطمع في لقائهم   لآثرت توسيدي مذ اليوم في لحدي

ولكنني ارجو زمانا يسرّنى   بهم عن قريب وهو اشهى المنى عندي

يقولون لي صبراً وكيف تصبرى   ولست الى نور التبصّر استهدى

لعمرك سلطان الهوى قاهرٌ فما   نجا من مغاويه الرشيد ولا المهدى

الا ليت دمعي حيث هم واقفون قد   جرى ولدى اقدامهم قام كالحد

فيمنعهم عن ان يسيروا ويبعدوا   فحسبي من سير وحسبي من بُعد
احبابنا هل ودّكم بعدُ سالمٌ   وهل انتم باقون مثلي على العهد
ارى بكم الدنيا ولست اراكمُ   بها ان شأني اليوم حيرة ذي الرشد
اتى العيد بالافراح للناس كلهم   وما اعتادني فيه سوى الهمّ والنكد
وما لي لا اشكو وقد طال بُعدكم   وما بيننا ما ليس يُبلغ بالوخد
وماذا الذي ارجوه بعد فراقكم   وعندي استوى شأنا الترفه والجهد
فياحبذا عيد انبعاثي اليكم   كما يُبعث الطيرُ الغليل الى الوِرْد
ولو زارني قبل اللقاء خيالكم   وعانقته ليلا فذلك من جدّي
اذا نظرت عيني البريد فانّ لي   لَقلباً من الايجاس يخفق كالبند
فان كان لي منكم كتابٌ لثمته   واقررته من بعد ذاك على كبدي
فما كان من آثاركم فهو مؤثَر   على العين والعينين والعين والنقد
فليس سواه اليوم عندي تعلة   وما غيره الفى لحرّي من برد
وان لم يكن تجرِ الدموع لما جرى   وارتدّ عنه كالعديم عن الرفد



وقال

اوَ ما كفاني اليوم طول تناء عمن احب ولات حين لقاء
ياراحلين وفي الفؤاد مقامهم كم ذا اقول سكنتم احشآي
ولكم اعاتب سوء حظي فيكم لكن دهري لايجيب ندآي
سافرتم للبرء مما نالكم فمتى يكون بقربكم ابرآي
ومتى يتيح لي الزمان لقاكم ويكف كف البين عن ايذاي
شرقتم فانا بغصة غربتي في الغرب ذو شرق وذو اشجاء
يامن يرق لذي جراح مدنف انا ذو الجراح ملازم الادواء
فصفن لي ما انت واصفه لمن اشفي وكن فطنا الى الاشفاء
لايغرننك ما ترى من بزتي تحت القشيب طاهلُ (١) الاعضاء
انا والذي يحيي ويفني لست في الهلكى أُعدّ ولا مع الاحياء
انا ان سلت عني الاحبة لم اكن اسلوهم في البؤس والضراء
اني على مابي ارقّ لعاشق مثلي وان هو كان من اعدآى
ما البعد يخمد نار شوقي انما بُعد الغزالة علة الاحماء
ما ان يحل حشاشتي من بعدهم حب وليس يحلّ نسخ وفآى
حال الورى طرّاً تحول وحالتي هي ماترى في غدوتي ومسآى
الدمع موقوف على جريانه والعين مُعفاة من الاغفاء
وارى الذي مثلي بكي من فرقة مع من مناه بعده يبكاه
عجبا لدهري لم يزل بى مُبصرا وضناى وأرني عن الرقباء
عجبا لدمعي مدنفي استحمامه والناس يشفيهم حميم الماء
عجبا لعمري كيف طال من النوى والارض ضاقت عن مدار رجآي

---

(١) الطهمل الذي لايوجد له حجم اذا مس

عجبا لليل الناس يسرع صبحه ... وصباح ليلي دائم الابطاء
تبنى الرجاء خواطري فيه على ... اسّ المحال فبئس اسّ بناء
ويخيّل الشوق المقيم باضلعي ... لي انني مغف وهم ضجعائي
حتى اذا اصبحتُ بانت انها ... لى لم تكن الاّ حبال هباء
ياأهل ودي ليس من داء لكم ... عدوَى فعودوا وامنوا من دائي
سقمي من الطرف السقيم ومنحلي ... الخصر النحيل عدا كأعدائي
ما ان اكلفكم سوى ذكر اسم من ... اهوى فحسبي ذاك عن اسماء
لو كان يجدي الفال كنتُ اليوم من ... احظى الانام واسعد السعداء
اذ كل غاد باسمهم متفوّه ... ام ذاك وسواس الهوى الغواء
ام بعض ماذا الوجدُ يوجد أنه ... يُلهي بمعدوم من الاشياء
ياليت قلب الناس لى او جدَّهم ... ان عزّ طعنٌ فالتزام عزاء
اوليت احبابى بما بى قد دروا ... فيسارعوا شَفقا الى انجائي
حاشاهم ان يهجروا كلفا بهم ... يكفيه مايلقى من الاقصاء
ومع النوى يرى النوى سهلا كما ... ان الدنوّ مع الجفوّ تناء
لهفي على زمن تولى وانقضى ... معه السرور لديهم وهنائي
فلاي بث بعدها ورزيئة ... ابقتني الايام شرّ بقاء
كيف التصبر للفراق وما ترى ... عيني شبيههم من الارزاء
ان اشك لم اجد امرأ لى مشاكيا ... وشماتة المشكين شرّ بلاء
واذا سكتُّ توهم السلوان بى ... الرآئي وذلك دون فعل الرآئي
ياليت شعري ما امال احبتي ... عني من التحذير والاغراء
بخلوا عليّ بنفحة من فيهم ... تأتي الصبا نحوي بها لشفائي
انى استمر حديد قلبهم على ... نار الهوى بى لم يلن لدعائي
العلهم وجدوا علي ملامة ... فأرتهم الحسنى من الاسواء
هبني اسأت فها انا مستغفر ... والعفو مأمول من الكرماء
يُرْني عليهم هين وهو الرضى ... سيّان فيه من دنا والنائي

ان لم يصرح فيه قول فليَنب   اضمار ذكر عنه فهو كفآي
في بحسن القصد منكم قانع   ولئن يكن قد فاتني ارضاي

وقال في المعنى

اتاني كتاب من خليل منمق   على كل حرف منه حسن ورونق
تنشّـقتُ وجدا اذ تنشقت عرفه   ولم لا ومنه عاطر الورد يعبق
فياحبذا ذاك العبير وحبذا   نسيم به نحوى التباشير يسبق
الى الله اشكو ما لقيت من النوى   وحرّ جوى كادت به النفس تزهق
اقمت واحبابي ابروا وابحروا   على غير ما اهوى وشملي مفرق
فما زلت مذ بانوا حليف صبابة   اذ حان سبح كدت بالدمع اغرق
ففي قلبي المأسور ادّخر الهوى   ومن طرفي المسجور دمعى انفق
كئيب نحيل واجد متشوف   غريب عليل فاقد متشوّق
ولست بذي صبر فيؤمل اجره   ولست بذي سلوى اليه موفق
وليس بمأمون زماني على اللقا   وهل يؤخذن يوما على الدهر موثق
احن الى اتياهم متلهفا   اذا ماسميري النجم لاح واقلق
وان ذرّ قرن الشمس اوهمت انها   تبلغني عنهم سلاما وتنطق
فاني ارى فيها علامات حسنهم   وفي كل حسن ذكر ما القلب يعشق
اعلل قلبا بالاماني هائما   ولم يبق فيه للتمنى مصدق(١)
يطير اشتياقا بي اليهم وانني   اسير هوى فيهم بيبنى موثق
ويخفق من ذكر اسمهم فكانما   يخيل لي ان مضجعى منه يخفق
واسكب دمعا كان يجري بقربهم   فكيف وباب الوصل دونى مغلق

(١) هذا المعنى مسروق من الفارياقية وقد تقدمت اليه

متى يجمع الله المحبين ساعة	وحجب النوى بعد الوصال يمزق
ورب بعاد كان منه دوام ما	يؤمل من قرب الاحبة شيق
فلله اسرار يعز بيانها	وللدهر اطوار تسوء وتونق

وقال

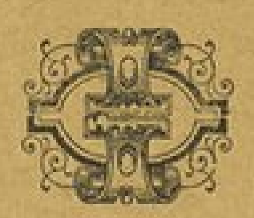
اموَدّعي والدمع كاد يحولُ	مابيننا ولظى الغرام يهول
كيف التصبر بعد بعدك موحشا	وبقيت لا ارب ولا مأمول
قد كان يشجيني غيابك ساعةً	واخال ان قد عزّ منك قفول
والآن غبتَ على حساب صبابتي	دهراً قليل المبتلين طويل
إن تنسني اذكرك أو ان تشجني	اشكرك لست الدهرَ عنك احول
ياليت طيفك في الكرى يعتادني	او كان يغفي الطرف حين أُليل
فلزورةٌ منه احبّ اليّ من	لذّات وصلٍ من سواك يطول
أُذهِلتُ في حُبّيك عن آلم النوى	ولقد يريح العاشقين ذهول
انسانُ عيني انت جيرٌ ومهجةٌ	للقلب ما لهما لديّ بديل
لو في رضاك بذلتُ كل جوارحي	كنتُ الضنينَ وما بذلتُ قليل
القاك في كل الجمال مصوّرا	فيطول فيه منى التأميل
واذا سمعتُ بمفرد في حسنه	ايقنتُ في هذا لك التأويل
وأبيتُ اسال عنك سيّار الدجى	لو كان ينفع سائلا مسئول
يافاتني بدلاله لم يبقَ لي	في العيش بعدك بُغيةٌ تعليل
ما كان غيرك مالئا طرفي ولا	اعتقدَ الضمير بأنْ سواك جميل
واذا الورى شغلتهم دنياهُمُ	فانا الذي بك دائما مشغول

فيك الدليل على توحّد مبدع ان عزّ عند الفلسفيّ دليل
ارسلتُ دمعي مع كتابي عالماً ان لاينوب عن الحبيب رسول
ياعاذلين على الهوى لاتعذلوا فبلاى هذا اصله التعجيل
سبق الفؤادُ الطرفَ مني في الهوى فهويت فيه فعاذلي معذول
اسفاً على وقت الوصال فيا تُرَى للبين يغدو مثله تاجيل
لولا ادّكار نعيمه لقضيتُ من وجدٍ فكم بالوجد طُلّ قتيل
ساعُ التعانق ليس يُنسى ذكرَها وخطورَها بالبال قطّ حؤول
ولربّ يوم مسرّة يغنيك عن عمر باكدار البعاد يطول
فلا فطمنّ النفس عن لذّاتها وليشجني بعد الغناء عويل
يامنكراً لحقيقة الغول اعتمدْ انّ النوى هي في الحقيقة غول
من لم يَذُقْ الم الفراق فما له يوماً الى عتب الزمان سبيل
فلكل رزءٍ غيره سلوى لذي رشد وطبٌّ بالعزاء كفيل
يالوعة الشوق اسكني في مهجتي ما فاتني ممّن احبّ وصول
خفقانُ قلبي من سكونكِ دائم ونعلّ عن كثبٍ بلاى يزول

هذا ما انتهى الينا من اخبار الفارياق . مما اقتضى الان ايداعه بطون
الاوراق . فمن شاء ان يدعو له او عليه فجزآؤه يوم تلتف الساق
بالساق . ويقال الى ربك يومئذ المساق . فامّا من دعا
له بعود زواجه هذه المرّة وفي الحياة ارماق .
فاني اضمن له ان يدعوه الى مادبة حولها
وفيها كل ماشاق وراق مما
ذكر في هذا الكتاب
بالاتساق على سرر
واطباق

الخاتمة

تم الجزء الاول من كتاب الساق على الساق في ما هو الفارياق
ويتلوه الجزء الثاني بعد رجم المؤلف او صلبه بمنّ
الله وكرمه آمين



بسم الله الرحمن الرحيم

ياسيدي الشيخ محمد ياسيدنا المطران بطرس يا ابوناحنا يا ابونامنقريوس ياصبيرابراهام يامستر نكتن ياهر شميط ياسيور جوزبتى هادينى انا عملت الكتاب دي يعني ألفته لا طبعته ولا جلدته وحطيته بين اياديكم انا اعرف طيب ان سيدي الشيخ محمد يضحك منه اذا كان يقراه لانه يعرف من روحه انه يقدر يعمل احسن منه ولانه يعتقد انه شي فارغ وان كنت مليته بالحروف لكن سيدنا وابونا وصبيرنا ما يقدروش بل ما يقدروش يفهموه وعلى شان دي اطلب منهم انهم قبل ما يولعوا النار حتى يحرقوه يسألوا عن الطيب فيه وعن غير الطيب فان كان الطيب اثقل يخلوه لى والا يحرقوه بجلده واذا كانوا يجدوا فيه بعض هفوات فما يكونش من العدل انهم يحرقوه لان كل واحد منا فيه هفوات كثيرة والله تعالى لا يحرقنا بنار جهنم بسببها يا ابوناحنا انا احلف لك انى ما ابغضكش ولكن ابغض تكبرك وجهلك لانى لما اسلم عليك تلقمني ايدك حتى ابوسها فكيف ابوسها وانت جاهل وعمرك كله ماعملت كتاب ولا موال روحي ياسيدي الشيخ محمد انا اعرف ان كتب الفقه والنحو اجل من كتابى دي لان الواحد لما يقرأ كتاب من دول يقطب وجهه ويعبس حتى يقدر يفهم معناه ومعلومك ان الهيبة والجلالة ما تكونش الا في التعبيش ولكن كتب الفقه ما تقولش ان الضحك حرام او مكروه وانت ما شاء الله كيس لبيب قريت من كتب الادب اكثر مما اكل سيدنا المطران بطرس من الفراخ المقمرة وفي كل كتاب ادب ترى باب مخصوص للمجون فلو كان المجون ضد الادب ما كانوا دخلوه فيها واهون ما يكون علي ان اقول في آخر كتابى دى زي ما قال غيري ومن الله استغفر عما طغى به القلم وزلت به القدم فنحن دى الوقت والحمد لله صلح فاما مسيو ومستر وهر وسنيور فما هماش ملزومين ان يطبعوا كتابى لان كلامي ما هوش على البقر والحمير والاسود والنمور بل هو على الناس بني ادم ولكن هذا هو والله اعلم سبب غيظكم مني

تم الكتاب

بيان ما في هذا الكتاب من الالفاظ المترادفة والمتجانسة

الكتاب الاول

الرُقَـى والعزائم ويلحق بها الرعب وهي الرقية من السحر وغيره والعنة وهي

الكتاب الثاني

الكتاب الثالث

صفحة



فهرست الكتاب

الكتاب الثالث

الكتاب الرابع

﴿ انتهت فهرست الكتاب ﴾

في اهداء هذا الكتاب البديع



الحمد لله

لما جرت عادة المؤلفين من الافرنج ان يهدوا مؤلفاتهم الى من تميز في عصرهم بالفضائل والمحامد ورويت عنه مآثر جليلة في اكرام العلم واهله رأيت هنا ان احذوا حذوهم في اهداء هذا الكتاب البديع الى الجناب المكرم الخواجا بطرس يوسف حوا المقيم بلندرة اذا كان قد اتصف في عصرنا هذا بالمزايا الحميدة التي يتحلى بها مدح كل مطرٍ وقول كل مؤلف وهو الان كبير هذا البيت المشهور من قديم الزمان بالحسب والفخر ورفعة القدر وكثيرا ما اعان على تحصيل الفضايل وامدّ بني جنسه وغيرهم بما افازهم بمنتهى الامال وادرك بهم منتأي الاوطار فاثنوا عنه حامدين وعلى آلائه شاكرين هذا وان يكن مقامه الكريم يجلّ عن بعض جمل في الكتاب لكنه في الجملة جدير بان يختص به فالمرجو منه قبوله واجازته وترويجه واجازته فان الحقير بالانتماء اليه يعود جليلا والناقص يكتسب تكميلا ·

من الداعي لجنابه
فارس الشدياق



(خطأ وصواب من اول الكتاب الثاني)

صفحة	سطر	خطاء	صواب	صفحة	سطر	خطاء	صواب
٢	٣	تتعرضُ	تتعرض له	١٥	١٥	وبسانها وتزابيها	وميسانها وتزابيها
٣	٩	ذلك	وذلك	١٥	٢٤	متقصا	متقصيا
٣	١١	ولا فقرا	والافقراء	١٥	١٧	وحقطها ولطها	وحقطها ولبطها
٤	٣	لاعلي	إلا على	١٥	٢٥	مكتز	مكتزاً
٤	١٧	الدبابة	الدراجة الدبابة	١٦	٣	معرنزحا	مُعرنزما
٤	٢٠	المنجنيق	الخطار المنجنيق	١٦	٤	متدخدحا	متدخدخا
٥	٨	به السلاح	به من السلاح	١٦	٥	مخط	واذا مخط
٦	٣	الصادرات	الصاردات	١٦	٢٥	الحر	الحرير
١٧	١٤	كان	كانوا	١٧	٧	نسا	للنساء
١٠	١٤	على حسن	حسن	١٨	١٠	من يساله	من الشغل يساله
١١	٥	فيهِ	به	١٩	١١	اعذراء	العذرة
١١	١٧	ففاسه	ففلـهُ	٢٠	١٨	فا	ايضاً
١٢	٧	في	من	٢١	١٠	الالف	الأنف
١٤	٩	دقزور	دُقرور	٢٢	١٦	حية	رمحية
١٤	١٧	تنظر	تنتظر	٢٤	٦	لان	لأن
١٤	١٩	تعجت	تعجبت	٢٤	١٣	علم	عين
١٤	٢٠	باشارتها	باشاراتها	٢٤	٢٤	الحلي	الحلبي
١٥	٨	ورهلتها	ورهبلتها	٣١	١٨	عاشقتها	عاشقها
١٥	١٠	وزوزكها	وزوزكتها	٣٣	٤	الانسان	الاسنان
١٥	١١	وقرمطها	وقرمطتها	٤٢	١٦	يكون	يكون ذلك
١٥	١٥	وزالاتها	وذالاتها	٤٢	٢٣	الفية	النفيسة

صفحة	سطر	خطاء	صواب	صفحة	سطر	خطاء	صواب
٤٤	١٥	به	بهِ عليه	١٥٠	١٠	اختضبروا	اختضروا
٤٦	٩	بعبارة	بعبـارة	١٦٠	٢	الخدقتين	الحدقتين
٤٧	١	خلف	خالف	٠٠	٢١	الثناء	الثنايا
٠٠	٧	ذلك	ذات	٠٠	٢١	المنق	العنق
٠٠	٩	بلغه	بامته	١٦٨	٢٤	والنول	والنَّوذل
٤٨	٦	ينطق	ينطلق	١٦٩	٥	حدثه	حدسه
٤٩	١٣	وخلي	وخلا	٠٠	١٥	يمتريه	يعتريها
٥٢	٢١	الفاخر	الفـاخرة	١٧٧	٢	فاشتشار	فاستشارت
٥٧	٩	لما كان اشتهر	لما اشتهر	٠٠٠	١٤	كل	كان
٠٠	٩	النقض	النقد	١٨٠	١٥	ومقتنا	ومُعَنّتنا
٦٢	١٠	دام	ادامَ	١٨١	٤	اوّ اي	أودّأني
٨٠	١٩	وقطون	وَقيـطُـون	٠٠٠	٨	واسلاء	واسلأني
٨٣	١	قصراً داخله سبعة	قصراً بسبعة	١٨٥	١	افتالك	أفتى لك
٩٦	٢١	تنقع	يُنْقِع	٠٠٠	٢٠	المحيا ازهر	المحيا الازهر
٩٨	٢٥	السلنجن	السلَنجِن	١٨٦	٢	وجد	وجدي
١٠٣	٢	العقدد	كالفُقُـدُد	١٩١	١	و	او
١٠٥	١٧	توسلا	توسّـل	١٩١	٢١	القديمة	القدية
١٠٧	٩	محتاجاً شي.	محتاجاً الى شي.	١٩٧	٢	اشهر	اشتهر
١١٣	١	والشنق	والشَّنَف	١٩٩	١٦	يدخلي ادارفها	يدخلي اردافها
١٢٣	١٧	كالازرا	كالازار	٢٠٠	٥	بخسان	بخشانَ
١٢٦	٢٥	المرقرقة	المرقعة	٢٠٩	١٣	بحث	بحيث
١٣٦	٧	منه	منهم	٢١٠	٥	وتوبهما	ورتوبهما
٠٠٠	١٥	وأنزِلَ	فيها وأنزل	٠٠٠	٧	واتبارهما	وانتبازهما
١٤٤	٢٢	الطن	البطم	٢١٢	٦	والتفصي	والتفصي
١٤٧	١٠	فتسلّم	فتسلّم	٢١٤	٣	ومعه	ومنعه

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٢١٤	١٤	وتظفر	وتطفر
٢١٩	٢١	دوام	داوم
١٢١	١٠	اطلق	أطبق
٢٢٢	٢١	السهر	الشهر
...	٢١	له	لهيا
٢٣٨	٣	نزم	ترزم
٢٥٤	١٠	دخل	دخلا
٢٥٧	١٥	رني له	رنى
٢٥٨	١١	ان المطران	ان سافر المطران
٣٢١	٣	للسفر	السفر
٣٣٥	١٤	الحرمة	لحرمة
٣٣٧	١١	لا	إلاّ
٣٥١	١٤	ورك	واراك
٣٥٣	٤	اليهم	أليم
٣٨٧	١	المكية	الملكية

الحقيقة الناصعة

الى حضرات قراء الساق

لولا ما بذلته مطبعة رعمسيس بالفجاله من الهمة والعناية في طبع هذا الكتاب وما اظهره حضرة صاحبها الفاضل كيرلس افندي تادرس المنقبادي من الاجتهاد والنشاط لما صدر هذا الكتاب الكبير الحجم العظيم الفائدة بهذه السرعة الفائقة التى اعادت الى افكارنا ما نسمعه عن حركة المطابع الكبرى في اوربا وسرعتها و نظافتها

ولا نغالي في هذا القول فكتابنا الساق طبع طبعاً متقناً نظيفاً في خلال شهرين فقط وهذا دليل بيّن على ان مطبعة رعمسيس السالفة الذكر حرية بالشكر وصاحبها حري بالثناء تلقاء اجتهاده فضلا عن حسن معاملته ونزاهته وقيامه بطبع ما يطلب منه من المطبوعات على مختلف انواعها بسرعة فائقة واثمان زهيدة مع طبع نظيف وحروف جميلة ومن يعامله ويعامل مطبعته يتضح له صدق قولي . ولا راءٍ كمن سمع ؟

صاحب مكتبة العرب بالفجاله

يوسف توما البستاني

COLUMBIA UNIVERSITY LIBRARIES
0043655530



COLUMBIA UNIVERSITY LIBRARIES

